صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي

دراسة تاريخية نقدية مقارنة

الدكتور عدنان محمد عبد العزيز وزان

أستاذ الأدب الإنجليزي المقارن
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي

دراسة تاريخية نقدية مقارنة

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ عدنان محمد عبدالعزيز وازن، ١٤١٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

وازن، عدنان محمد عبدالعزيز

صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي: دراسة تاريخية نقدية مقارنة.ـ الرياض.

... ص؛ .. سم

ردمك ٥ - ١٨٩ - ٣٤ - ٩٩٦٠

١ ـ الأدب الإنجليزي - نقد ٢ - الإسلام - دفع مطاعن أ - العنوان

ديوي ٨٢، ٢١٤ ١٨/٠٩٩٤

رقم الإيداع: ١٨/٠٩٩٤

ردمك : ٥ - ١٨٩ - ٣٤ - ٩٩٦٠

صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي

دراسة تاريخية نقدية مقارنة

الدكتور عدنان محمد عبد العزيز وزان

أستاذ الأدب الإنجليزي المقارن
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

الجزء الأول

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية - ص.ب: ١٣٣٧١ - الرياض: ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ - ٤٧٤٢٤٥٨ - فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

قال جل جلاله : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء: ٤٥].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال رسول الله ﷺ: « إن مَثَل ما بعثني الله به عز وجل من الهدىٰ والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا ، وأصاب طائفة منها أخرىٰ، إنما هي قيعان لاتمسك ماءً ولاتنبت كلأً . فذلك مثل من فَقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فَعلم وعَلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به» .

رواه البخاري ١/ ٢٢ باب فضل من علم وعلّم، ورواه مسلم ٧/ ٣، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدي والعلم واللفظ لمسلم .

« إن طلاب الأدب الإنجليزي لن يدركوا المعاني والمقاصد المتصلة بالحديث عن الإسلام والنبي محمد (ﷺ)، إذ مع الأسف الشديد، فإن معظم الأقوال المتصلة بالإسلام تدل على الجهل أوالتحامل أو كليهما معاً، وإن تشوسر والسيرجون ماندفيل ومؤلفي مسرحيات العصور الوسطى ولايدجيت وشكسبير، والكتاب المتأخرين من الذين تحدثوا عن الإسلام، يظهر في كتاباتهم الهوة الكبيرة التي وقعوا فيها بسوء الفهم والإدراك للدين الإسلامي وحقيقته، وإن معظم هؤلاء الأدباء والكتّاب استقوا معلوماتهم من مصادر ثانوية أو أقل من ذلك ، فبدا لهم الإسلام ونبيه ﷺ وثنية خطرة ، وعنصر إلحاد ، والذي يجب - مهما كلف الأمر - أن يحارب إن لم يدمر كلياً».

بايرون بورتر سمث (الإسلام في الأدب الإنجليزي) ص ١٥

Byron Porter Smith , Islam in English Literature P. X V.

« أصبح الاستشراق مسألة متفقاً عليها بالإجماع بين جميع طبقات المفكرين والكتاب والأدباء : أمور محددة ، وأفكار معينة ، وأحكام ثابتة، هي في نظر كل مستشرق الصواب كل الصواب . فمعظم كتاب الخيال في عصر ما أمثال فلوبير ونيرفال وسكوت كانوا محدودين بما خبروه وما قالوه عن الشرق، ذلك أن الاستشراق في حد ذاته يقوم على نظرة سياسية تعتمد على التفريق بين المعروف المألوف في أوروبا والغرب وبين المنكور المحذور في الشرق والإسلام . وهكذا فلقد كان كتَّاب الأدب الإنجليزي بالجملة أكثر جرأة وجسارة من كتاب الأدب الفرنسي في الكتابة عن الإسلام والنيل منه » .

إدوارد سعيد (الاستشراق) ص ٢٠٢ ، ٤٣ ، ١٩٢

Edward Said , Orientalism , P.P 202 , 43 , 192

« إن كتّاب الأدب الإنجليزي الذين تناولوا الإسلام في شتى الفنون الأدبية من قصص وشعر ومسرحية استقوا معلوماتهم من اليهودية والنصرانية المحرفتين، ومن تاريخ الحروب الصليبية المزيف ، ومن آراء المستشرقين المعادين للدين الإسلامي وحضارته . فجاءت كتابات هؤلاء الأدباء خالية من الحقيقة، متناقضة مع الحق، عارية من الصحة، متعارضة مع الصواب، يداخلها الزور والبهتان والإفك المبين » .

عدنان محمد عبد العزيز وزان

المقدّمة

الحمد لله الذي قدر فهدىٰ ، وأسبغ نعمه علىٰ عباده وهي ترىٰ ، وأبان لخلقه الخير والهدىٰ ، وأرسل رسوله محمداً ﷺ بدين الحق ليظهره علىٰ الدين كله ولو كره الكافرون ، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً وبعد ،

فإن موضوع الكتاب الذي بين يدي القارئ يتصل بعلم الأدب المقارن، فهو دراسة مستفيضة لجملة ماكتب عن الإسلام في الأدب الإنجليزي من وجهة النظر الاستشراقية الصليبية ، وذلك منذ القرن السادس الميلادي وحتىٰ الخمسينيات من القرن العشرين، في الحقبة الواقعة بين عام ٥٦٠ وعام ١٩٥٠ ميلادية. ولما لهذا الموضوع من صلة بعلوم أخرىٰ مثل الاستشراق ، والتبشير ، والاستعمار، والتنصير، والتاريخ العام وتاريخ الأديان، بدا هذا العمل وكأنه دراسة مقارنة لهذه العلوم ، لكن هذه العلوم ليست إلا عوامل مساندة للبحث ، ومن مستلزماته التي تلقي الضوء علىٰ كثير من الوقائع والحقائق والتي يبدو البحث دونها مجرداً عن الموضوعية ، بعيداً عن تحقيق الهدف من نقد الأعمال الأدبية التي تناولناها في ثنايا الكتاب بالدرس والتمحيص والنقد.

وما من شك في أن لكل أمة من الأمم، ولمفكريها وأدبائها وعلمائها

بوجه خاص، رأيهم في الامم والشعوب الأخرىٰ، من حيث حضارتها وماتنطوي عليه من ثقافة ولغة ودين وتراث. وهذا الرأي يظهر صداه في أدب تلك الأمة، وهو السجل التاريخي للأدب الذي يعكس شعور تلك الأمة نحو شعب أو أمة غيرها. وهو صورة صادقة لما عليه علاقة تلك الأمة بذلك الشعب في عصر من العصور، ويتقدم هذا الرأي دراسة التيارات الفكرية والعقدية الدينيه التي تسود ذلك الأدب نحو الآخرين. وهذا الميدان من أهم ميادين الدراسات الأدبية في الأدب المقارن.

وموضوع البحث في هذا الكتاب هو دراسة ماكتب في فنون الشعر والمسرح والفن القصصي في الأدب الإنجليزي عن الإسلام، وما يلحق به من أدب الرحلات والمقالات الصحفية والفكريه التي كتبت بأيدي أدباء ونقاد في الأدب الإنجليزي. وهذا الموضوع يستلزم دراسة الأدب الأنجليزي وخصائصه في عصوره المختلفة، والمضامين التي احتواها عن الإسلام في الأعمال الأدبية التي تناولت هذا الجانب. إن هذه الدراسة سُبقت بدراسات مماثلة منها كتاب نورمان دانيال بعنوان العرب وأوروبا في العصور الوسطى؛ The Arabs and Mediaeval Europe. وكذلك كتاب صموئيل تشو Samuel Chew بعنوان «الهلال والزهرة: الإسلام وإنجلترا خلال العصر الرومانسي».

The Crescent and the Rose : Islam and England During the Renaissance

ورسالة بكالوريوس الشرف التي كتبها محمود المنزلاوي، وقدمها

لجامعة كمبردج بعنوان : بعض الترجمات الإنجليزية لأدب الخيال العربي . Some English Translations of Arabic Imaginative Literature (1704 - 1838).

وهناك كتاب بيرون بورتر سمث بعنوان « الإسلام في الأدب الإنجليزي» Islam in English Literature ، إضافة إلى عدد كبير من البحوث والمقالات المتناثرة عن موضوع الإسلام في كتابات بعض الأدباء الإنجليز التي يضيق المكان عن حصرها هاهنا . ومعظم هذه الأعمال تتناول دراسة الإسلام من زاوية دون أخرى، أو الاطلاع على جزئية بصفة مبتورة غير مكتملة وهكذا .

والمطلع على هذه الدراسات والبحوث سيعرف الفرق الواضح بينها وبين هذا الكتاب الذي ألفناه بطريقة موضوعية، تظهر فيما عرضناه من مآخذ على الأدباء الإنجليز وأعمالهم التي تحدثت عن الإسلام، وكذلك في رد شبهاتهم ودحض مفترياتهم ونقدها علمياً، ولم يكتمل ذلك في دراسة سابقة عن الأدب الإنجليزي .

ولئن كانت هذه الدراسة التي هي موضوع هذا الكتاب بها وجه من التشابه مع كتاب سمث سالف الذكر، إلا أن البون شاسع بينهما من حيث المبدأ والفكر والمنهج . فكتاب سمث الذي صدر عام ١٩٣٩ م هو في أصله أطروحة علمية تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كلومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد استعان فيها بكثير من زملائه العرب المستغربين

لتوضيح بعض الأمور المتعلقة بالأدب العربي والتاريخ الإسلامي ، كما يذكر سمث نفسه في مقدمة كتابه . وبعد ذلك أعد سمث كتابه للنشر بمعاونة سهيل بديع بشروي واناهيد ميليكان، وقدم له عمر فروخ .

وبالمقارنة بين كتاب سمث وكتابنا هذا تبدو أنّ هناك عدة وجوه من الاختلاف والتباين نوجزها فيما يأتي :

١ ـ لقد اعتمد بيرون سمث على كتابة التاريخ الإسلامي في عصوره المختلفة في مقدمة كل فصل من فصول كتابه عند الحديث عن كل عصر، ثم ينتقل للحديث عما كتب عن الإسلام في كل عصر من عصور الأدب الإنجليزي ، لكننا ذهبنا إلى كتابة مقدمة تاريخية عن التاريخ العام، منوهين بالخصائص الأدبية وتاريخها لكل عصر من عصور الأدب الإنجليزي في كل باب من أبواب الكتاب، بقصد عرض الوقائع التاريخيه العامه في كل عصر من عصور الأدب الإنجليزي، ومن ثم استعراض أهم الخصائص الأدبية لكل عصر، للربط بين التاريخ العام وما فيه من أحداث، ومدى استفادة الأدباء والكتاب من تلك الأحداث التاريخية للكتابة عن الإسلام، خصوصاً ما صدر من كتب ومؤلفات تعنى بالإسلام كتبت بأيدي بعض المستشرقين والرحالة والقسس والرهبان وغيرهم، من الذين يمثلون الرافد الأول للمعلومات عن الإسلام عند كتاب الأدب الإنجليزي، لمزيد من النفع والفائدة للقارئ ولبيان الصلة فيما كتبه الأدباء من موضوعات استقوها من وقائع التاريخ

التي كتبت بأيدٍ غربية وبأفكار غربيه تعادي الإسلام ، ثم عملنا على استعراض الأعمال الأدبية التي تناولت الكلام عن الإسلام.

٢ ـ لقد ابتدأ سمث تقصي ماكتب عن الإسلام في الأدب الإنجليزي من العصر الوسيط وعصر النهضة إلى العصر الذي أسماه عصر كارلايل، أي حتى عام ١٨٤٠ م، في حين أن بحثنا هذا يتناول دراسة ماكتب عن الإسلام في الأدب الإنجليزي من بداية العصر الأنجلوساكسوني في القرن السادس الميلادي، حتى مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، أي في الحقبة الواقعة بين عامي ٥٦٠ م و١٩٥٠م، وهذا يعني أن هناك فرقاً زمنياً مقداره عدة قرون، بين العصر الوسيط الذي بدأ سمث دراسته به ، وبين ما بدأنا به دراستنا في البدايات الأولى، وفضلاً عن مائة عام بعد ما كتبه سمث، إذ وصل في كتابته حتى عام ١٨٤٠م، بينما وصلنا إلى عام ١٩٥٠ م، إضافة إلى أن هناك تنويهاً وذكراً لعدد من الأدباء والكتاب الذين لم يتعرض إليهم سمث، في كتابه في الفترة من العصر الوسيط وحتى عام ١٨٤٠ م وبعض الاستدراكات التي فاتت سمث ، وعملنا على إدراجها ضمن هذا الكتاب، ولا يتسع المقام لذكرها في هذه المقدمة. وهذا مايلاحظه القارئ حال قراءته لهذا الكتاب، ومقارنته بكتاب سمث . ومع أن سمث في كلمات عابرة أشار إلى أن كتابات الأدباء الإنجليز عن الإسلام تقوم على مصادر ثانوية أو أقل من ذلك، إلا أنه لم يشر إلى تلك المصادر ، وقد اجتهدنا ما في وسعنا لتحديد تلك

المصادر التي اعتمد عليها الأدباء في حديثهم عن الإسلام، وهو ما فصلنا القول فيه في الباب الأول من هذه الدراسة .

والفرق الأساسي بين كتاب سمث وكتابنا هذا أن سمث كان يعرض النماذج الأدبية التي كتبت عن الإسلام في أعمال الأدباء دون تعليق أو تعليل، ولقد حاول سمث في بعض المرات أن يعطي بعض المسوغات الداحضة لآراء الكتاب الإنجليز وأقوالهم عن الإسلام، إلا أنه كان يعلق علىٰ ذلك من منظور استشراقي أو تبشيري صليبي . لكننا عمدنا إلىٰ تعليل الأقوال التي جاء بها الأدباء، والتعليق عليها من وجهة النظر الموضوعية ، ونقدها بما يتفق فيه العقل الإنساني مع النقل الموجود في الشرع الإسلامي، حسب مقتضىٰ الضرورة كلما وردت شبهة أو فرية . واكتفينا بالشرح والتفسير مرة واحدة ، أي في المرة الأولىٰ التي يرد فيها ذكر الشبهة في عصر من العصور، ولا نعلق عليها إذا وردت مرة أخرىٰ في عصر آخر، أو لدىٰ كاتب من الكتاب في نفس العصر، أو الافتراء تفادياً للتكرار ، وبعد ذلك حصرنا جملة تلك الشبهات والمفتريات التي أثارها الأدباء في كتاباتهم في الفصل الأخير من هذا الكتاب بعد تفنيدها، وعملنا علىٰ ردها ودحضها، معتمدين على المصادر الإسلامية، وكذلك علىٰ عرض آراء المستشرقين والمبشرين المنصرين التي تؤيد حقيقة الإسلام وصحته ، وصدق نبوة رسوله محمد ﷺ، وتعزيز وقائع الشريعة وفضلها علىٰ الشرائع الأخرىٰ، وفيها نقض مزاعم الكاذبين ودحض شبهات المفترين .

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وخاتمة واثني عشر باباً ، فمن الباب الثاني إلى الباب الحادي عشر ينطلق التقسيم على غرار ما هو معروف في تقسيمات عصور الأدب الإنجليزي لدى معظم مؤرخي ونقاد الأدب ، أما الباب الأول، فهو تحديد للروافد والمصادر والمنابع التي استقى كتاب الأدب الإنجليزي معلوماتهم عن الإسلام والحديث عنه، وكان ذلك سبباً في أن كثيراً مما كتب عن الإسلام يقوم على الزور والإفك والبهتان الذي أمطنا اللثام عنه، وكشفنا زيفه في ثنايا الدراسة عموماً ، وخصصنا الباب الثاني عشر من الدراسة لتقيد ذلك كله بشيء من الشرح والتفصيل، مع حصر لتلك الشبهات تحت فصول وتقسيمات محددة ومبوبة حسب أهميتها .

والباب الأول وعنوانه «مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام »، هذا الجزء من الدراسة حدد بصورة واضحه أهم تلك المصادر التي اعتمدها كتاب الأدب الإنجليزي لأخذ معلوماتهم وأفكارهم للحديث عن الإسلام، والتي ضمنوها أعمالهم الأدبية، وهي :

١ ـ اليهود والفكر اليهودي .

٢ ـ الحروب الصليبية وتاريخها وتعاليم الكنيسه .

٣ ـ الاستشراق والفكر الاستشراقي .

ومعرفة الروافد والمصادر التي استقى منها أدباء وكتاب الأدب الإنجليزي أفكارهم للحديث عن الإسلام أمر لازم، يبين المنطلق الذي تبنى عليه الآراء الفكرية والأحكام النقدية في الدراسة ، كما أن معرفة هذه

المصادر تسهل على القارئ الأسباب التي دفعت إلى تضمين هذا الكتاب تلك الأفكار الناقدة للأدباء، ولبيان فساد تلك المصادر وعدم صحتها، إذ تقتضي الموضوعية، ويلزم العدل في القول والعمل أن تبنى على أساس صحيح، والعلم يؤخذ من مظانه، إذ لا يمكن أن يتحدث إنسان ما عن الطب، فيأخذ معلوماته من مصادر في الفلك أو نحوه، ويدعي أن ما يقوله عن الطب صحيح، والإسهاب الذي اتسم به هذا الباب من الدراسة سببه ارتباط بعض الأفكار ببعضها، مما يصعب معه الاختصار أو الاكتفاء بجزء من الموضوع دون آخر، وهو من لزوم الشيء.

فاليهود قوم بُهْتٌ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويقتلون أنبياء الله، ويكذبونهم، ويفترون على الله الكذب، ويلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وينكرونه، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويحبون أن تشيع الفاحشه بين الناس، ولا ينكرونها، ويشعلون نيران الفتن والحروب، وهكذا فعلوا بمعاداة الإسلام ونبيه محمد ﷺ، فلم يعترفوا بنبوته، وحاولوا قتله ﷺ، وحاولوا إثارة الفتن والحروب وأكلوا أموال الناس بالباطل . . إلخ. وما هدأت أنفسهم ولن تهدأ، فقد لبسوا الحق بالباطل، وزعموا المزاعم على الإسلام، وكتبوا عنه كل سوء، فأنكروا نبوة هذا النبي الأمِّي العربي وما جاء به من التوحيد الحق والشريعة السمحاء، فضلوا وأضلوا، فسار على نهجهم كل من تبعهم، منكرين التوحيد، داعين إلى الشرك وإلى قوانين الباطل، فأوجدوا البنوك الربوية،

فأنكروا القرض والتكافل المالي، وسخروا من الزكاة في الإسلام، واستحلوا اموال الناس وأعراضهم واستباحوا أرواحهم فأوقدوا نيران الحروب، ومنها الحروب الصليبية، وعمدوا إلىٰ إشاعة الفواحش من اللواط والزنا واستهزؤوا بتعدد الزوجات الذي نظمه الإسلام، ومن أمور كثيرة كانت هي موضوعات الأدباء وكتاباتهم عن الإسلام في الأدب الإنجليزي. فهذا كما أوضحنا من لزوم الشيء في تفصيل الحديث عن اليهود، وأنهم مصدر من مصادر الكتابة لدىٰ الأدباء في الأدب الإنجليزي تتضح من خلال شرح صفات اليهود وأفعالهم في الدين والتاريخ.

أما بالنسبة للحروب الصليبية، وكونها الروافد التي زودت الكتاب الإنجليزي بموضوعات للحديث عن الإسلام فيظهر أولاً من آثار الاحتكار اليهودي للتجارة والذهب في أوربا في القرون الوسطىٰ، الذي خنق الألمان سادة الأرض والحرب، الذين استولوا علىٰ أراضي المقاطعات الأوربية، وقسموها بينهم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، ونهبوا خيراتها بالتعسف والقوة . وكانت مزاحمة المرابين اليهود للأوربيين، وانتهاب الخيرات بواسطة الربا من الأسباب الرئيسة إلىٰ قيام الحروب الصليبيه والتطلع إلىٰ الشرق، خصوصاً بعد ما وقعت أوروبا في هوة من الفقر والتأخر والانهيار، والبعد عن كل أثر للوجوه الحضارية بعد سقوط روما بيد البربر الألمان، فاستغل اليهود هذه الظروف، وتحركت في نفوسهم ضغائن الحقد والحسد الدفين، فوجهوا أوروبا إلىٰ محاربة الإسلام والمسلمين، ليطفئوا نور الله،

ولكي يستولوا علىٰ خيرات الشرق، ويتمكنوا منه، ويجعلوه تحت ظل الهوان والذل والاستعمار .

ومن المعلوم أن أحداث الحروب الصليبية كانت ولا زالت محل اهتمام كبير من المؤرخين والكتاب في الغرب ، كما أنها نقطة ارتكاز أساسيه في التراث الأدبي الأوربي عموماً، وفي التراث الأدبي الإنجليزي خصوصاً ، فعلىٰ سبيل المثال الحملة الصليبية الثالثة التي قادها الملك الإنجليزي ريتشارد الأول، المعروف بقلب الأسد، تُعَدُّ حملة عالمية كبرىٰ، جمعت لها الأموال الطائلة، وحشدت لها الحشود الكبرىٰ للهجوم علىٰ المسلمين، وقد باءت بالفشل والخسران المبين ، ومع هذا، فهي مجال كبير لكتابات الأدباء ببريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من الدول الأوربية، إذ تناولتها أيدي الأدباء بتصوير المنازلات الحربية وصور المعارك المختلفة . . إلخ ، فكتبت الكثير من القصص والقصائد الشعريه عن ذلك، وهي مليئة بالتلفيق والأساطير والأكاذيب عن الإسلام والمسلمين، وتمجيد النصارىٰ بما وجده الأدباء في كتب التاريخ والاستشراق، وتاريخ الحروب الصليبية، وتقريرات الرهبان والرحالة عن هذه الحروب، التي ألبست ثوب الحرب المقدسة، لتظهر بسالة النصارىٰ، وضعف المسلمين، وصدق الدين المسيحي المحرف، وكذب دين الإسلام الحق. . إلخ .

فهذا كله دفعنا إلىٰ تضمين هذا الكتاب المعلومات الضرورية عن الحروب الصليبية، ليقف القارئ علىٰ حقيقة هذه الحروب، وأنها أحد

الينابيع التي زودت الأدباء الإنجليز بالموضوعات للحديث عن الإسلام، إذ إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره . وإن كنا قد أوضحنا كيف أن الكتاب الإنجليز اعتمدوا على اليهود والفكر اليهودي، وعلى الحروب الصليبية، واستقوا منها المعلومات للكتابة عن الإسلام ، فما من شك في أنَّ الفكر الاستشراقي يمثل الضلع الأخير لثالوث الباطل عن المصادر التي اعتمدها الأدباء الإنجليز للكتابة عن الإسلام ، ذلك أنه بعد ما منيت أوروبا المسيحية بالخسارة والهزيمة في معظم حملاتها الصليبية، امتلأت نفوس اليهود والنصارى حقداً على الإسلام والمسلمين فدعت الكنيسه إلى ضرورة الأخذ بالثأر، والتنكيل بالإسلام والمسلمين، فكرست الجهود، وأوعزت إلى رجال الفكر والمبشرين بتكثيف العمل، والعكوف على دراسة الإسلام وأحوال المسلمين، والعمل على رسم الخطط المناسبة لمهاجمة الإسلام والقضاء عليه ، وما الدراسات الاستشراقيه إلا لون من ألوان الحروب الصليبية المتصلة بالجوانب الفكرية والعقديه للمسلمين، حيث انصب جهد المستشرقين على تشويه الإسلام، وتحريف حقائقه، والتشكيك فيه من حيث نبوة النبي محمد ﷺ ، أو صدق القرآن، وأنه كتاب منزل من حكيم حميد، والسنة المطهره وسير الصحابة وأمهات المؤمنين رضي الله عنهم جميعاً، وكذلك عن جوانب الشريعة والعقيدة الإسلامية . . إلخ، وإخضاع النصوص الإسلامية للتفسيرات المادية. ولقد اعتمد كثير من كتاب الأدب الإنجليزي على كتب المستشرقين للحديث عن الإسلام التي كانت منبعاً

ينهلون منه ما يشاؤون ـ وإن كان كذباً وباطلاً ـ للدس على الإسلام .

لهذا كله جاء الباب الأول فيه شيء من الإطناب ، ولكنه كان لازماً وضرورياً ، إذ ليس بالإمكان الإشارة إلى كثير من التعليقات والانتقادات التي تضمنها الكتاب دون توضيح هذه الأمور بالتفصيل ، وإظهار العلاقه بين هذه المصادر والموضوعات التي تناولها الأدباء في كتاباتهم وما احتوته من زور وبهتان .

وأبواب الدراسة من الثاني إلى الحادي عشر تتعلق بالأدب الإنجليزي ، إذ بعد الحديث عن مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام في الباب الأول ، عمدنا إلى تقصي ما كتب عن الإسلام في عصور الأدب الإنجليزي المختلفة بدءاً من العصر القديم ، وحتى العصر الحديث . وقد يلاحظ القارىء أن بعض عصور الأدب الإنجليزي لم تحفل بالحديث عن الإسلام كثيراً ، وقد يكون الحديث عن الإسلام في صورة إشارات أو تلميحات عابرة وهامشية ، وسببه أن بعض الظروف التي كانت تحيط بالأدب في عصر ما تتعلق بالنواحي السياسية أو الجوانب الاجتماعية أو بالأمور الفكريه والعقدية ، ومع هذا فلم نر من المناسب دمج عدد من العصور بعضها مع بعض ، التزاماً بمنهجية تقسيم عصور الأدب الإنجليزي لدى كثير من مؤرخي ونقاد الأدب الإنجليزي ، وكذلك لكي لا يتساءل القارئ عن الأسباب في إغفال عصر دون عصر ، أو دمج عدد من العصور في باب واحد من الدراسة ، وإن كان ما ذكر عن الإسلام في عصر من العصور ـ كما

بينا فيما تقدم - لا يعدو إشارة عامة، وقد سرنا في هذا على خطى من سبق، فالسِّير إيفار إيفانز Sir Ifor Evans في كتابه (المختصر في الأدب الإنجليزي) A Short History of English Literature يقول: «لقد جلب الأنجل معهم قصه بيولف Beowlf إلى إنجلترا في القرن السادس، وبعد فترة قصيرة من عام ٧٠٠ ميلادية نظمت القصيدة أي حوالي سبعين عاماً بعد وفاة محمد» ﷺ فالعلاقة بين عصور الأدب وأحداث التاريخ العام - وخصوصاً التاريخ المقارن بين النصرانيه والإسلام - ذات أهمية كبرى في مثل هذه الدراسات، التي تشبه هذه الدراسة التي بين يدي القارئ، وهذا ما يدل عليه ما جاء في عبارة إيفانز السابقة، وإلا كان بإمكان هذا المؤرخ الشهير في الأدب الإنجليزي أن يكتفي بقوله «وبعد فترة قصيرة من عام ٧٠٠ ميلاد نظمت القصيدة»، وليس ما يدعو لإضافة ما جاء في تمام الجملة: «أي حوالي سبعين عاماً بعد وفاة محمد» ﷺ، إذاً ما هي العلاقه بين الأدب الإنجليزي ووفاة الرسول ﷺ؟ ليس هذا فحسب، بل إننا نجد أن مؤرخ الأدب الإنجليزي المعروف إميل ليجوي Emile Legouis في كتابه (المختصر في الأدب الإنجليزي) A Shoet History of English literature يقول: «إن الأدب الإنجليزي بالمعنى الدقيق لم يبدأ إلا مع مطلع القرن الرابع عشر» أي من حيث ثبات اللغة الإنجليزية في معناها ومبناها، ومن حيث تكوّن تراث أدبي غير مجلوب من الخارج، بل كتب وأنتج في إنجلترا. ومع هذا كله فلم يدفع ذلك إميل ليجوي إلى دمج بعض العصور بعضها ببعض، ولم يغفل

يدفع ذلك إميل ليجوي إلىٰ دمج بعض العصور بعضها ببعض، ولم يغفل ذلك، بل ذهب إلىٰ تقسيم عصور الأدب الإنجليزي إلىٰ ما هو متفق عليه بين المؤرخين ونقاد الأدب، فبدأ بالأدب الإنجليزي القديم، فالعصر النورماندي، فعصر الأدب الوسيط .. إلخ. كما فعلنا في كتابنا هذا عن دراسة ما كتب عن الإسلام في كل عصر، حيث قمنا بعرض تمهيد عن التاريخ العام لكل عصر من العصور، مع عقد صورة مقارنة عن أحوال النصارىٰ والمسلمين، لنؤسس عليها ما يتبع من عرض للنماذج الأدبية التي تناولت الإسلام نثراً أم شعراً .. إلخ.

وهكذا تستمر الدراسة في تقصي ما كتب عن الإسلام منذ العصر القديم في الباب الثاني وحتىٰ العصر الحديث في الباب الحادي عشر من هذه الدراسة.

وأخيراً انتهت الدراسة إلىٰ جمع جملة الشبهات والمفتريات التي أثارها الأدباء من خلال كتاباتهم عن الإسلام، وعملنا علىٰ تفنيد هذه الشبهات وتصنيفها حسب ورودها في الأبواب، ثم قمنا برد تلك الشبهات ودحض المفتريات، وإن كنا نتحدث عن كل فرية كلما وردت في ثنايا الأبواب السابقه من الدراسة، ولكن ليس بمثل صورة الجمع والتكثيف والتصنيف الذي قام عليه الباب الثاني عشر من الدراسة، الذي يمثل صورة الإسلام في الأدب الإنجليزي موضوع البحث في هذا الكتاب حسب الموضوعات التي تركزت عليها أفكار الأدباء وآراؤهم.

نسأل الله التوفيق والقبول، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن وينفع كل من يطلع عليه آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور عدنان محمد عبد العزيز وزان
أستاذ الأدب الإنجليزي والأدب المقارن جامعة أم القرىٰ
وكيل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

الباب الأول

مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام

مصادر الأدب الإنجليزي
في الكتابة عن الإسلام*

تمهيـــد :

إن معـرفـة المصـادر التي اسـتقىٰ منهـا أدبـاء وكـتـاب الأدب الإنجليـزي أفكارهم وموضوعاتهم في حديثهم عن الإسلام تعد مسألة ضرورية في إعطاء الأحكام النقـدية والآراء الفكرية في تقـويم أي عـمل أدبي أو نقـده، وهذه المصادر تسهل للقارئ الأسباب التي دفعت إلىٰ تضمين هذا الكتاب تلك الأفكار الناقدة للأدباء، وماكتبوه عن الإسلام خلال العصور المختلفة لتاريخ الأدب الإنجليزي ، ويتـقـدم هذه المصـادر الجهل المطبق الـذي عـانىٰ ويعاني منه كل من حادَّ الله ورسله من لدن بعثة نبي الله آدم عليه السلام إلىٰ أن ختـمت الرسالات السـماوية بمبعث النبي الأمي محـمد بن عـبد الله ﷺ، فكان الجـهل سـبباً لإفك من يؤفك وافتـراء من يفتـري، وهـذا مـايؤيده الحق سـبحـانه وتعـالىٰ في قـولـه : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا

* إن جـملة من المعلومـات التي وردت في هـذا البـاب سـبق وأن أوردناها في بعض كـتـبنا مـثل : الاستشراق والمستشرقون ، مطالعات في الأدب المقارن ، اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير. ورأينا مناسبة ذكرها لما لذلك من أهمية في مثل هذه الدراسة وما شابهها من دراسات سابقة، وهذا من التكرار اللازم الذي لا تكفي فيه الإشارة أو الإحالة إلىٰ المراجع والمصادر، وبالله التوفيق.

يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ [١].

وإذا كان الجهل بالله سبحانه وتعالىٰ ووحدانيته ، والجهل برسله صلوات الله وسلامه عليهم هو المصدر الحقيقي لكل ظلوم جهول ولكل كفار أثيم ، ولكل مشرك وكافر ، فلا عجب - وهم كذلك - أن يكون كتّاب الأدب الإنجليزي من الجاهلين بحقيقة الإسلام ، وحقيقة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وإلىٰ جانب المصدر الحقيقي لدىٰ كتاب الأدب الإنجليزي - وهو الجهل - فإن الحديث عن الإسلام فيما كتبوه يقوم في أصله علىٰ الباطل ، فهناك مصادر أخرىٰ اعتمد عليها الأدباء في الحديث عن الاسلام ، فما زادهم ذلك إلا رجساً إلىٰ رجسهم ، وهذه المصادر هي :

١ - اليهود والفكر اليهودي .

٢ - الحروب الصليبية وتاريخها .

٣ - الاستشراق والفكر الاستشراقي .

ونحن إذ نلقي الضوء علىٰ هذه المصادر التي استمد كتاب الأدب الإنجليزي منها أفكارهم للكتابة عن الإسلام ، إنما نرمي إلىٰ بيان فساد هذه المصادر ، وعدم صحتها ، الأمر الذي يظهر فساد ما كتبه أولئك الأدباء ، إذ كل مابني علىٰ فاسد فهو فاسد من أصله ، وما قام علىٰ باطل فهو باطل في جوهره .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٢ .

أولا : اليهود والفكر اليهودي :

قد يسأل سائل : كيف يكون اليهود والفكر اليهودي مصدراً من مصادر الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول : إن اليهود قوم بُهت ، يحرفون كلام الله ويشترون بآياته ثمناً قليلاً ، ويقتلون أنبياء الله ويكذبونهم ، ويفترون على الله الكذب بما كتبت أيديهم منكراً من القول وزوراً ، يلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وينكرونه ، ويأكلون أموال الناس بالربا والباطل أضعافاً مضاعفة ، ويحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس ولاينكرونها ، ويشعلون نيران الفتن والحروب ، ويضرمونها لتتأجج . وقد لبَّسوا على النصارى وغيرهم الحق ، فأنكروا نبوة الرسول محمد ﷺ وما جاء به في القرآن الكريم من أحكام العقيدة والشريعة ، والتي تناولها الأدباء بالتكذيب والافتراء ، اعتماداً على ما هو موجود في تراث اليهود خصوصاً في التلمود ؛ الكتاب الذي وضعه اليهود . لهذا لزم علينا أن نوضح حقيقة اليهود وواقعهم عبر التاريخ ، وعداوتهم للإسلام ، لنبين للقارئ أن ما سيأتي من آراء عن الأدب الإنجليزي بنيت على ما استقاه كتاب الأدب الإنجليزي من كتب اليهود وتراثهم ، وما كتبوه عن الإسلام ، كما سنبين في العجالة الآتيه عدداً من خلال اليهود وصفاتهم وعقائدهم وسلوكهم ومعاملتهم مع الأغيار الأميين .

ألا تظن فيمن يتجرأ على الله ، ويحرف كلامه ، ويشتري بآيات الله

ثمناً قليلاً، وباع الآخرة بالحياة الدنيا لايجرؤ على غيره ؟ يقول تعالى :
﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1].

إن الذي لا تهمه الآخرة دار الحساب لا تهمه الدنيا وأهلها ، إن من يغير كتب الله وكلامه لحري أن يغير العهود والمواثيق ويزورها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فهم قد فعلوا ذلك بأن كتبوا كثيراً من البهتان في كتبهم التي قدموها للنصارى ، وفيها الدس والطعن على الإسلام ، ونبيه محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، فكان ماحرفته اليهود من الأناجيل ، والكتب المقدسة المزعومة هو مصدر العلم لكثير من رهبان النصارى ، وعلمائهم ، ومفكريهم ، وأدبائهم .

لقد دل التاريخ اليهودي على أن اليهود كانوا لا يتورعون عن قتل الأنبياء وتكذيبهم ، فقد قتلوا عشرات الأنبياء ممن لم يؤمنوا بهم ، وكذبوا مئات الرسل ممن لم يقبلوهم . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾[2] .

والتاريخ الإسلامي يشهد على محاولات شتى حاول فيها اليهود قتل

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٦٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٧٠ .

النبي محمد ﷺ، لأنه جاء بالحق المبين ، وفضح حقيقة اليهود ، فلما عجزوا عن ذلك ، قالوا ـ كما حكى القرآن الكريم عنهم في قوله جل وعلا ـ: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [1]. هكذا ادعىٰ اليهود في كتبهم، وفيما كتبوه للنصارىٰ أن محمداً ﷺ مدع دجال ليس بنبي ولارسول ، فكان هذا اعتقاد النصارىٰ فيما كتبوه عن النبي الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . هكذا لبس اليهود الحق بالباطل ، وكتموا الحق عن نبوة محمد ﷺ حسداً من عند أنفسهم، وهكذا كان شأن اليهود في أفعالهم وسلوكهم وفكرهم وتفكيرهم .

إن اليهود جُبلوا علىٰ حب المال ، وما العجل الذي أشربت نفوسهم عبادته، والذي صنعوه من الحلي إلا لحبهم للذهب والفضة ، وقد عمدوا إلىٰ الربا وإلىٰ أكل أموال الناس بالباطل ، فأسسوا البنوك الربوية ، وأقاموا المشاريع والمصانع، وركزوا علىٰ صناعات خسيسة تدر عليهم الأموال ، فمن سلم من طريق وقع في آخر ، عرفوا عِوَزَ الناس في أوقات معينة للمال، فبدلاً من الإقراض بالحسنىٰ أقرضوا الناس بالربا ، فهذا طريق من طرق أكل أموال الناس بالباطل ، ومن ضل هذا الطريق وقع في غيرها ، فهذه مصانع الخمور ، وشهوة الشراب تدفع بالناس لشرائها وهي محرمة ، ولكن مالها يؤول إلىٰ اليهود ، لأنهم يمتلكون كثيراً من مصانع الخمور

(١) سورة الرعد ، الآية ٤٣.

والمسكرات في العالم . ومن عوفي من الربا والخمر وقع في الأشرطة الجنسية أو أشرطة اللهو والغناء ، ويملك اليهود جزءاً كبيراً من مصانع هذه الاشرطة في العالم . لكن اليهود لايتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل، وقد عذبهم الله تعالىٰ علىٰ ذلك، فيقول عز من قائل : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾[1]. لقد عاب اليهود علىٰ الشريعة الإسلامية طلب الصدقات والزكوات ، وقالوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه، بل عابوا إعطاء القروض حسنة لوجه الله تعالىٰ دون مقابل ، فدسوا علىٰ الناس ـ ومنهم النصارىٰ ـ أن شريعة الإسلام في هذا الشأن كلها سخف ، يقول قائل : كيف أعطي مالي قرضاً ، ولا أستحق عليه نفعاً بعد أجل ، فاستخفوا بعقول النصارىٰ وأمثالهم ، فأطاعوهم ، وأحلوا الباطل محل الحق ، واتهموا الإسلام بقصور تشريعاته ونقصانها ، وهكذا زعمت النصارىٰ ، كما زعمت لها اليهود ، فضلت الطريق، وأصبحت معولاً يهدم الحق، ولا يرىٰ إلا الظلام والظلم.

كانت اليهود ومازالت لاتتناهىٰ عن فعل المنكر ، وهذا مصداق قوله تعالىٰ : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا

(١) سورة النساء ، الآيتان ١٦٠ـ١٦١ .

كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [1] أباحوا الأعراض وأخرجوا المرأة ، وزعموا أنهم حرروها ، والصواب أنهم أسروها بقيود التجارة ، فجعلت سلعة من السلع تباع وتشترىٰ للكبراء والرؤساء ، يحتاجون إلىٰ «سكرتيرات» ، فيقدمون المال لشراء خدمة المرأة ، ومعها عفتها وجمالها ، فكم سمعنا ، وكم كتب القلم عن فضائح الكبراء مع «السكرتيرات» ، لقد أسروا المرأة وجعلوها بائعة تعرض الأزياء ، وتعرض مع ذلك جسدها وعفتها وجمالها .

لقد عمد اليهود إلىٰ وضع الأغلال علىٰ المرأة ودفعوها إلىٰ الزنىٰ ، وما بيوت الدعارة في جميع أنحاء العالم (إلا ما ندر) ما هي إلا من فعل اليهود ، لقد انتقد اليهود الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات بالوجه الشرعي المباح ، وأباحوا ماحرم الله من تعدد الخليلات ، وكثرة العشيقات والباغيات . وهكذا فعل النصارىٰ ، فنجدهم يكتبون عن الإسلام في مسألة التعدد وكأنها جريمة ، ولايلقون بالاً لأفعال الحرام التي تجري في بلدانهم من نظام الخليلات والخلان والأخدان والمومسات ، يعملن فيها بترخيص رسمي وفق نظم وقوانين تحت رقابة الدولة .

هكذا فعل اليهود ، وزعموا أن الفواحش هي حقيقة ماكان عليه آباؤهم ، وهي سنة الله في خلقه ، بئس مايقولون ، وتعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً . قال تعالىٰ : ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ**

(١) سورة المائدة ، الآيتان ٧٨-٧٩ .

أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [(١)] .

إن ديدن اليهود إثارة الفتن ، وإشعال نار الحروب ، وهذا شأنهم مع أنبيائهم، وكذلك كان حالهم زمن النبي محمد ﷺ، فقد أثاروا عليه نار المنافقين ، كما ترىٰ في عبد الله بن أبي بن سلول ، وأثاروا عليه القبائل كما نرىٰ في أحداث معركة الخندق ، وهي غزوة الأحزاب التي جمع فيها اليهود جموع قبائلهم ، وقبائل العرب لمحاربة الله ورسوله . واليهود لايحبون السلام؛ لأنهم يحسدون الناس، ولا يرضون لهم حياة المسالمة والسلام ، ولذا وصفهم المولىٰ سبحانه بقوله : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ [(٢)] .

ولقد عمل اليهود علىٰ بث روح الفتنة بين المسلمين والنصارىٰ زمناً طويلاً، وأوعزوا إلىٰ النصارىٰ بأن المسيحية دين الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [(٣)] . وأن الإسلام دين باطل ، وأثاروا ما في صدور النصارىٰ من حقد علىٰ المسلمين منذ عصر الفتوحات الإسلامية، وانتهىٰ الأمر إلىٰ إشعال الحروب الصليبية التي استمرت منذ قيامها حرباً بالسنان والقلم والتبشير واللسان حتىٰ يومنا هذا ، وما الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي إلا حربٌ صليبية فكرية أجج نارها اليهود، كما سنبين بعد ذلك ،

(١)سورة الأعراف ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

(٣)سورة البقرة الآيه ١٣٠ .

فكانوا لأدباء وكتاب الأدب الإنجليزي مصدراً مزيفاً للحديث عن الإسلام ورسوله العظيم ﷺ.

لعل ماعرضناه في العجالة السابقة عن اليهود يكفي لإيضاح السبب الذي جعلنا نتخذ أو نعد اليهود والفكر اليهودي أحد المصادر الرئيسة التي استخدمها كتاب الأدب الإنجليزي وأدباؤهم للحديث عن الإسلام. الأمر الذي يجعلنا نقول من البداية: إن ما كتبه هؤلاء الأدباء في أعمالهم الأدبية من قصة وشعر ونثر ومسرحية وأدب رحلات لايقوم في أساسه على قول صحيح، أو فعل صريح يستحق به أن يتهم الإسلام بما اتهم به، وإن كنا لسنا بحاجة إلى دليل، لأننا نؤمن بأن الدين عند الله الإسلام. ويكفي أن نقول لهؤلاء ماتعلمناه من كتاب الله العزيز: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (٢٤) ﴾[1].

إذن، فالموعد يوم القيامة، لأنه لابد أن يكون أحد الفريقين على هدىٰ، والآخر علىٰ ضلال. وليس علىٰ هؤلاء المكذبين الكافرين بالإسلام والنبي محمد عليه الصلاة والسلام إلا أن يعملوا بقوله تعالىٰ في مخاطبته للمشركين حيث يقول جل وعلا: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** (٤٦) ﴾[2].

---

(١) سورة سبأ، الآية ٢٤.

(٢) سورة سبأ، الآية ٤٦.

ونحن في الصفحات الآتية نطلع القارئ على حقائق عامة عن اليهود وصفاتهم وحالهم مع الأمم والشعوب منذ الزمن الغابر وحتى العصر الحديث. والقصد من هذا أن نجعل القارئ يطلع على هذه الحقائق، ليعلم في خاتمة المطاف أن اليهود في الواقع مصدر من مصادر الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي، وسببٌ لكل جريمة في هذه الحياة الدنيا .

١ ـ اليهود ـ بنو إسرائيل ـ الصهيونية :

إن من دعائم الإسلام ، ومن أركان الإيمان لدى المسلم، أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، فنحن المسلمين نؤمن بموسى عليه الصلاة والسلام، فهو نبي ورسول من أولي العزم ، وكليم الله ، وكان عند الله وجيهاً، بعثه ربه إلى بني إسرائيل الذين استذلهم فرعون مصر، وامتهنهم في أحقر المهن، وجعلهم يعملون في أسوأ الأحوال، وأنزل بهم شدائد أمره ، وسلط عليهم حاشيته، وزاد الأمر سوءاً حينما بلغه أن أحد أبناء بني إسرائيل سيظهر عليه، ويقتله ، وينقذ بني إسرائيل مما هم فيه ، فجن جنونه، وصار يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وسامهم سوء العذاب. إننا نؤمن بأن موسى عليه السلام صدع باليهودية بأمر ربه، ونحن عندما نتحدث عن اليهود، لا نتهجم على ديانة موسى ، فهي دين مقدس، نؤمن به كما نعلمه في كتاب مكنون لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد . ونحن هنا نتحدث عن اليهود الذين ينتسبون إلى اليهودية ، وهم ليسوا على الحق، نتحدث عن الذين قتلوا الأنبياء وكذبوهم، نتحدث عن أولئك

الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، نتكلم عن أناس مثل حييّ بن أخطب ، وأمثاله لعنهم الله ، ونذكر برحمة الله ورضوانه من آتاهم الله أجرهم مرتين، الذين آمنوا بمحمد مثل إيمانهم بموسىٰ عليهما الصلاة والسلام ، من أمثال أم المؤمنين صفية رضي الله عنها ، وعبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وكعب الأحبار رضي الله عنه، ومن كان مثلهم من اليهود الذين امتثلوا أوامر ربهم بما جاء به أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام .

وبعد : فأصل اليهود يقال لهم : عبرانيون وعبريون، نسبة إلىٰ عبورهم من بلادهم إلىٰ بلاد العراق بأرض بابل ، ويقال لهم : هود ويهود ، ومنهم من ينسبهم في هذا اللفظ إلىٰ يهوذا، السبط الرابع من بني إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، وهذا السبط يقال عنه : إنه الذي أشار علىٰ إخوته بإلقاء يوسف عليه السلام في غيابة الجب واتهام الذئب بدمه . والصحيح أن اليهود يقال لهم : هود أو يهود، نسبة إلىٰ عودتهم إلىٰ ربهم واهتدائهم، إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴿١٥٦﴾ ﴾[1] . جاء في «مفردات الراغب : (الهود : الرجوع برفق ، ومنه التهويد، وهو مشي كالدبيب ، وصار الهود في التعارف: التوبة ، قال تعالى : ﴿ **إنا هدنا إليك** ﴾ ، أي: تبنا . قال بعضهم : (يهود) في الأصل من

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٦ .

قولهم : هدنا إليك، وكان اسم مدح ، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم ، وإن لم يكن فيه معنىٰ المدح) .

ومن الملاحظ أن بعض الناس يختلط عليه الأمر ، فلا يميز بين معنىٰ اليهود ومعنىٰ بني إسرائيل ، وهذا مايذهب إليه كثير من اليهود الذين يريدون تحقيق نسبهم، والتحاقهم إلىٰ خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام استطالة بشرف النسب، والحقيقة خلاف ذلك ، فمن المعروف أن بني إسرائيل هم ذرية يعقوب عليه السلام ، فيعقوب عليه السلام يسمىٰ إسرائيل أيضاً ، والذين يؤمنون باليهودية وينتسبون إلىٰ شريعة موسىٰ عليه السلام هم اليهود، وليسوا من بني إسرائيل كما نشاهده اليوم من يهود اليمن وبولندا والمجر، وغيرهم من الشعوب التي تدين باليهودية، وهم ليسوا من بني اسرائيل، ولكن حباً في الشرف والانتساب إلىٰ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فالذين يدينون باليهودية يدَّعون أنهم من بني إسرائيل كما هو زعم اليهود اليوم في فلسطين ، لذا فكلمة يهود عندما تطلق أعم وأشمل من كلمة بني إسرائيل ، بل هي أعم وأشمل من أي مصطلح آخر ؛ لأن كثيراً من العرب والروم والفرس والفرنجة في أوروبا وروسيا صاروا يهوداً، ولم يكونوا من بني إسرائيل ، ويهود اليوم خليط من أمم العالم وشعوبه ، لا يخلص لهم نسب ، ولا يصفو لهم دم .

إن اليهود الذين استوطنوا فلسطين اليوم جاؤوا من روسيا ، ودول أوروبا، وأمريكا مثلهم كمثل الشعوب التي نزحت إلىٰ أمريكا وكندا

وأستراليا لايربط بينهم رابط ، ولا يجمعهم وطن أو لغة أو عادات أو تقاليد أوتراث موحد . وهنا نجد أحد الكتاب الغربيين يؤكد تلك الحقيقة، وإن كانت بمنظار صليبي ، لكنها تؤدي إلىٰ الهدف الذي نقوله ، إذ يقول هذا الكاتب : « علىٰ المنبر أيضاً رسالة أخرىٰ ، وهي تحرير الكنيسة من أن (يهوذا) و (إسرائيل) هما شيء واحد ، فقراءة الأسفار التي تخلط بين قبائل يهوذا وبين إسرائيل، والتي تُفَسّر كل ذكر لإسرائيل علىٰ أنه يعني اليهود تؤلف أكثر من نصف الارتباك والتصنيف الذي يمكن تتبعه في البيانات العقائدية المسيحية »[١] إذن، فاليهود في المقام الأول ليسوا كلهم من بني إسرائيل، وجميعهم ليسوا من ذرية إبراهيم عليه السلام، وإبراهيم لايسمىٰ إسرائيلياً، كما أنه ليس يهودياً، وبالأولىٰ والأحرىٰ لايكون مسيحياً، وذلك كما جاء به قول الحق تبارك وتعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٢] .

من هنا نرىٰ أنه من المناسب إطلاق كلمة يهود ويهودي علىٰ كل منتسب إلىٰ شريعة موسىٰ عليه السلام ، فهو أولىٰ وأفضل وأصوب ، ولعل مايؤكد هذا الاطلاع علىٰ نص رسالة بعث بها وايزمان إلىٰ صديقه لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في الفترة من ١٩١٦ وحتىٰ ١٩٢٢ ميلادية يقول فيها : « إذا شجعت بريطانيا استيطان اليهود في فلسطين، وإقامة مجتمع يهودي

---

(١) هنري فورد ، اليهودي العالمي : المشكلة الأولىٰ التي تواجه العالم ، ترجمة خيري حماد ، المكتب التجاري للطباعه والتوزيع والنشر ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٣١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٦٧ .

يعتمد على بريطانيا ، وأمكن إدخال مليون يهودي في فترة عشرين إلى ثلاثين عاماً ، فإن هؤلاء اليهود سيخضعون هذا القطر ، ويكونون حرساً فعالاً يحمي قناة السويس»[1]، والذي يقرأ رسالة وايزمان بتمعن يجد أن كلمة يهود ويهودي وردت أربع مرات ، ولم يشر هو نفسه إلى مصطلح آخر مثل صهيوني أو صهاينة أو بني إسرائيل ، فلا أدلّ مما جاء في نص هذه الرسالة من صحة مصطلح يهودي .

ولاشيء أبلغ ولا أصدق مما جاء في القرآن ، فلقد أسمى الله اليهود يهوداً ، وذلك أدق في الدلالة من الأسماء والمسميات الأخرى مثل الصهيونية ، أو الماسونية أو نوادي الروتاري ، فهذه الأسماء ما هي إلا مصطلحات قصد بها التمويه عن حقيقة اليهود ، لكي ينصرف الناس عن الأصل وينشغلوا بالفرع . ذلك أن اليهود يعرفون كره الشعوب ـ الذين يسمونهم بالأميين ـ لهم . فلقد حاول اليهود منذ العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر أن ينتحلوا اسماً أو مصطلحاً جديداً ، يوارون به حقيقتهم . ففي عام ١٨٨٢م نادى اليهودي النمساوي (ناثان بيرنباوم) إلى تكوين حركة يهودية قومية ترمي إلى جمع شتات اليهود المبعثرين في أنحاء العالم ، ثم مالبث أن قويت هذه الفكرة عندما جاء (تيودر هرتزل) الصحفي اليهودي وأكد ضرورة ذلك خلال المؤتمر اليهودي ، العام المنعقد تحت رئاسته

---

(١) عبد المنصف محمود ، اليهود والجريمة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م ص ٣ .

عام ١٨٩٧م في مدينة بال بسويسرا ، وإطلاق كلمة صهيون وصهاينة على اليهود، وماتلا ذلك من صدور كتاب بروتوكولات حكماء صهيون .

والحقيقة أن خدعة الفصل بين اليهودية وإسرائيل من ناحية ، وبين الصهيونية من ناحية أخرى ، ماهي في الواقع إلا أقنعة لوجه واحد ، أو وجهان لعملة واحدة ، فالصهاينة هم اليهود ، ولانعرفهم إلا بأنهم اليهود، وهم أعداء الله ورسله وعباده المؤمنين . قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿٨٢﴾﴾ [1] هؤلاء هم اليهود.

ويعلق إيليا أبو الرؤس في كتابه « اليهودية العالمية » ليؤكد القول أن اليهودية والصهيونية شيء واحد، فيقول : «إن الحركتين الصهيونية واليهودية اسمان لمسمى واحد ، وإن اليهود أو الصهيونيين مترادفان متلازمان، يعمل كل منهما لمصلحة الآخر، ولاتفريق بينهما » [2].

واليهود يظنون أنهم ينتمون إلى قومية منفصلة ، ويحلمون بتكوين وطن قومي لهم في فلسطين ، ولكن لايمكن اعتبار اليهود شعباً أو أمةً أو عنصراً أو جنساً، بل يُعتبرون مواطنين في البلاد التي يعيشون فيها . وإن غلب على الولايات المتحدة الأمريكية معرفة عدد اليهود بأمريكا، وتحديد أماكن ولادتهم والبلدان التي هاجروا منها ، إذْ إنه عندما غدا تيـــار الغزو اليهودي للولايات المتحدة في حقبة الثمانينيات من الضخامة، بحيث بات

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٢ .

(٢) إيليا أبو الرؤس ، اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية ، دار الاتحاد ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٠ .

من المتعذر على أي إنسان تجاهله، أو تجاهل مخاطره، لبت سلطات الإحصاء من الكونغرس السماح لها بتصنيف الناس حسب «أجناسهم» وحسب «أماكن ولادتهم»، وقاد اليهود أعنف معارضة في الكونغرس، وقد كشفت معارضة اليهود لهذه الخطوة عن أربع قضايا بوضوح وجلاء، هي:

١- أن اليهودي يعارض أي تشريع يقيد دخوله إلى أي بلد.

٢- أن اليهودي يعارض في أي تصنيف عنصري لجماعته بعد دخولهم إلى البلاد.

٣- أن اليهودي يدعي أمام الآخرين أنه يمثّل ديناً لا عنصراً.

٤- أن لليهودي رأيين، أحدهما يواجه به غير اليهود، والثاني يحتفظ به لنفسه، ويجهر به أمام إخوانه من اليهود، وذلك بالنسبة إلى هذه القضية العنصرية [1].

وهذا ما حكاه القرآن عنهم، حيث يقول:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [2].

لهذا كله، فاليهود في نظرنا ليسوا إلا مجموعة لها دين، وليسوا أمة أو

(١) هنري فورد، اليهودي العالمي: المشكلة الأولى التي تواجه العالم، ص ٥٧-٥٨.

(٢) سورة آل عمران، الآيه ٧٥.

شعباً أو عنصراً ، وإلى هذا يشير الفريد ليلنثال بقوله : « وهكذا ، فإن الرابطة التي تجمع بين اليهود المقيمين في إسرائيل وبين يهود العالم ، تقتصر على الناحية الدينية فقط ، لا على الجنسية الإسرائيلية الجديدة ، التي قامت مؤخراً نتيجة قيام الدولة الجديدة ، ومع أن الشعب اليهودي ، أصبح لا وجود له منذ عام ٧٢ ميلادية ، إلا أن الشعور الوطني ظل حياً في نفوس اليهود على مرّ الأجيال ، يدفعهم للعمل على جمع شعب هذه الأمة المتفرقة ، وإعادة إنشاء دولة يهودية »[(١)].

وقد أصبح لدى كثير من الناس تصوّر عن كلمة (يهودي) ، تتعلّق بصفات معيّنة عبر عصور التاريخ المختلفة ، فاليهود ـ معتنقو اليهودية ـ حافظوا على دينهم المحرّف في التوراة المبدّلة ، والتلمود الموضوع ، وعاشوا في بلدان العالم كلّه منعزلين عن شعوب تلك البلدان في حارات ومناطق تسمى «بالغيتو أو الجيتو Gitto» لاعتقادهم بنجاسة الآخرين ، وطهارة أنفسهم ، لأنهم (شعب الله المختار) . وأما ما عداهم من الأمم والشعوب ، فاليهود يطلقون عليهم اسم (الغويم) أو (الجويم) جمع كلمة (غوي) بالعبرية وتعني الأمم . فالأميون ، الشعوب غير اليهودية ، الأغيار ، الغرباء ، وتعني كلمة (الغويم) بالعبرية بالنسبة لليهود العدو العالمي المكروه ، وحيبيات البشر المحتقرة المكروهة ، وتعني البهائم ، وهم كل الشعوب التي

(١) الفرد ليلينثال ، ثمن إسرائيل ، ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ١٤٥ـ١٤٦ .

لا تدين باليهودية [١]. وهذا التفكير جعل النصارىٰ يشعرون بالاستعلاء علىٰ غيرهم من الناس؛ تارة تحت شعار الرجل الأبيض، وتارة تحت شعار أمم الشمال، رغبه في احتقار الناس، وامتهانهم، وهكذا كانت نظرة الأدباء الإنجليز إلىٰ الإسلام والشعوب الإسلامية .

٢- التوراة :

ومن المعلوم أن التوراة هي الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالىٰ مشتملاً علىٰ التشريع اليهودي بما صدع به نبي الله موسىٰ عليه السلام ، ولكنه لم يرق لليهود ماجاء في التوراة، فحرفوها، وحطوا من شأنها، وعمدوا إلىٰ وضع كتاب لهم أسموه التلمود. وبطشت أيدي اليهود بالتوراة، وتناولوها بالتحريف والتبديل والتشويه . وتضم التوراة الحالية نصوصاً من آداب الفراعنة وطقوسهم ومعتقداتهم، وهناك بعض من أناشيد أخناتون تنسب إلىٰ داود، وتعد جزءاً من مزاميره، ويوجد في سفر الأمثال اقتباسات مما كتبه الحكيم المصري أمينمنوبي في العهد القديم كما هو اليوم مكون من تسعة وثلاثين سفراً ، خمسة منها فقط أسفارالتوراة، وهي : سفر التكوين ، و سفر الخروج ، و سفر اللاوين ، و سفر العدد ، وسفر التثنية [٢]، ويختلف اليهود والسامريون بشأن التوراة ، فلا يعترف السامريون

---

(١) سهيل ديب (مترجم) ، التوراة تاريخها وغاياتها ، دار النفائس بيروت ، ١٤٠٢ ﻫ ـ ١٩٨٢ م ص ٢٤ ، ٧٧ـ٧٨.

(٢) داود عبد العفو سنقرط ، جذور الفكر اليهودي ، دار الفرقان ، عمان ، ١٤٠٤هـ١٩٨٤م ص ٦٢ .

إلا بالأسفار الخمسة الأولى من آدم إلى موسى عليهما السلام، وكذا يجري الخلاف في أمر التوراة على أشدّه بين النِحَل والطوائف النصرانية من كاثوليك وبروتستانت . . . إلخ [١] .

٣ ـ التلمود :

والتلمود كلمة تعني بالعبرية « المعرفة »، أو « التعليم »، وبالمفهوم الاصطلاحي تعني « الشريعة » ؛ وقد كان التلمود ولا يزال موضع التبجيل مع التوراة ، بالإضافة إلى أنهم يعدّونه موسوعة ضخمة لا غنى عنها في دراسات اليهودية ، موسوعة تتضمّن الدين والشريعة والتاريخ والآداب والتأملات الميتافيزيقية، والعلوم الطبيعية، والفلك والقصص الشعبي، ممتزجة جميعاً بألوان مختلفة من الفكر الخرافي . والتلمود على هذا النحو يغطي كل جوانب النشاط في حياة اليهود، الذين جعلوا من دراسته وسيلة للتجمع والالتقاء فكرياً وروحياً [٢] .

ويعدّ التلمود من أندر الكتب الموجودة في العالم ، إذ يوجد عدد من المخطوطات لنسخ قديمة من تلمود بابل في مدينة ميونخ بألمانيا كتبت عام ١٣٦٩م . ويوجد مخطوط واحد لتلمود أورشليم بمدينة ليدن بهولندة. وأول طبعة للتلمود ظهرت في مدينة البندقية بإيطاليا سنة

(١) مصطفى محمود ، التوراة ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٠-١٤ .

(٢) صبري جرجس ، التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٧٠م ، ص ٨٨ .

١٥٢٠م، تلتها طبعة أخرىٰ في سنة ١٥٥٠م في المدينة ، وكانت تقع في اثني عشر مجلداً .

ومن المعلوم أن التلمود من جمع أحبار اليهود وربانييهم من الحاخامات، فقد جمع فيه الحاخام يوضاس التعاليم المتعلقة باليهود التي ورثوها عن الغريسيين، وضمنها في كتاب سمّاه « المشناة »، أو « المشنة »، وتعني الشريعة المكررة. والمشناة تهدف إلىٰ إيضاح ما التبس في شريعة موسىٰ عليه السلام كما أنها تكملة لها. ثم تلا ذلك تعليقات وشروحات من وضع الحاخامات علىٰ المشناة مع حواشٍ وتفسيرات كثيرة، أسموها « بالغامارة » أو « الجامارة »، فتتكون التلمود من المشناة (المتن)، والغامارة (الشرح)[١].

وكتاب التلمود هو توراة اليهود التي وضعوها بأنفسهم ، وفيها قصة العهد الذي أصبح فيه الشيطان سيداً علىٰ الناس والعالم، يغوي البشرية عن طريق الحق، حتىٰ امتلأ العالم عدواناً وظلماً وشراً وبغياً وقهراً وطغياناً. ويعتبر التلمود أسس كنيس الشيطان في الحياة الدنيا ، وعلىٰ هذه الأرض، وشرع لمحاربة الحق ودين الله، وهنا يقول وليم كار : « وقد جاء سيدنا المسيح عليه السلام في وقت بلغت مؤامرة الشيطان مرحلة سيطرت فيها علىٰ عالم ذلك الزمان ، وأخص منهم رؤساء تلك المجتمعات، الذين كانوا

(١)ج. روهلنج ، الكنز المرصود في قواعد التلمود ، ترجمة يوسف حنا نصر الله ، بيروت ، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م ، ص ٤١-٤٢ .

يشغلون المراكز الرئيسة والحساسة في العالم ، ففضح سيدنا المسيح عليه السلام كنيس الشيطان، وهاجم أتباعه، مسمياً إياهم (أبناء الشيطان) ، وحدد بصراحة معلناً على رؤوس الأشهاد أنهم هم الذين يسمون أنفسهم يهوداً، في حين أنهم حادوا عن الشريعة الصحيحة لموسى عليه السلام . وقال عنهم أيضاً : إنهم كذابون، ولايدينون بأي دين سماوي . وقد هاجم سيدنا المسيح عليه السلام المرابين ، وكلهم من اليهود ، وبهذا يكون السيد المسيح عليه السلام قد فضح الشيطان ونواياه وخططه ، وأنه بحق وحقيقة رسول السلام؛ لأنه جاء لينقذ الناس من شر هذا الشيطان، وليقطع حبالهم الشيطانية التي أخذت تضيق على رقاب الناس يوماً بعد يوم وساعة بعد أخرى . وقد نبه الأمم والشعوب جميعاً إلى حقيقة المؤامرة اليهودية، مبشراً الناس بأن معرفة الحقيقة سوف تنقذهم من ربقة المؤامرة الشيطانية . . سلام على السيد المسيح، ونرجو أن نهتدي بنصائحه لمحاربة الشيطان » [(١)] .

وهناك تلمودان شهيران، أحدهما تلمود أورشليم، والآخر تلمود بابل، وقد مرّ تدوين التلمود بثلاث مراحل: الأولى بعد أن دمر الرومان مدينة أورشليم عام سبعين، وهي مرحلة (التنائيم)، واستمرت مائة وخمسين عاماً، وذلك من خلال مجهودات الحاخام يوحنا وتلاميذه وانتهت المرحلة بما كتبه « يهوذا ناسيء » في بداية القرن الثالث الميلادي . أما المرحلة الثانية وتسمى (العمورايم أو الآمورائيم)، وكانت في بداية القرن

---

(١) وليم كار ، اليهود وراء كل جريمة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ، ص ١١ .

الرابع الميلادي. أما المرحلة الثالثة، وتسمىٰ (الصبورايم أو السفروائيم)، وقد بدأت في أواخر القرن الخامس الميلادي.

وخلال مراحل التدوين الثلاث كان التلمود يتعرض لكثير من التحريف والزيادات، أو النقص أو التناقض، حتىٰ عندما كان يطبع التلمود كان يخضع لظروف مماثلة (١).

وبالجملة، فإن التراث الذي يحتويه التلمود خليط من أساطير وأكاذيب وتلفيق، وكل المعلومات الموجودة في التلمود تحمل أفكاراً فاسدة، ومعتقدات باطلة، وأقوالاً زائفة، وجملة من السباب والشتائم لعيسىٰ بن مريم وأمه. فعيسىٰ عليه السلام في التلمود هو نجّار ابن نجار، وابن غير شرعي حملته أمّه وهي حائض، وهو مجنون، وثني، ساحر، مضلل، شرير، مدفون في جهنم، إلىٰ غير ذلك من النعوت والصفات التي لا تليق برسول من رسُل الله سبحانه وتعالىٰ، ولكن اليهود بهذا إنما يقولون منكراً من القول وزوراً. كما أن تشريعات التلمود ترىٰ أن تعاليم المسيح كذب، وأن المسيحيين وبقية الأمم مهرطقون وعبّاد للأوثان وخدّام لهم، وهم قتلة وزناة، نجسة أرواحهم، شريرة قلوبهم، وأن اليهودي لاينبغي له أن يحيِّي مسيحياً، وأن يعاملوهم بالربا والخداع والغش والسوء. واليهودي الذي يقتل مسيحياً لا يقترف ذنباً، بل يقدم إلىٰ الله أضحية مقبولة، وأن اليهود الذين يقتلون المسيحيين سيحتلون مكاناً سامياً في

---

(١) صبري جرجس، التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي، ص ٨٩-٩٠.

الجنة[1] . وصدق الحكيم الحميد إذ يقول :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[2] .

ويل لهؤلاء اليهود الذين كتبوا التلمود، وادّعوا فيه ماليس من الحق في شيء، فهو - أي التلمود - عندهم أفضل من التوراة، إذ « إن من درس التوراة فعل فضيلة لايستحق المكافأة عليها، ومن درس « المشنة » فعل فضيلة استحق أن يكافأ عليها، ومن درس « الجامارات » فعل أعظم فضيلة[3] .

وتعاليم التلمود تجيز لليهود سلب أموال الآخرين من الغويم أو الجويم الأغيار، أو الأميين، وغشهم، وانتهاك حرماتهم والزنا بهم، وإثارة الفتن والحروب والاستعلاء عليهم[4] ومن هذا المنطلق جعلوا كثيراً من أهل الكتاب يعتقدون في التلمود، ويعتنون به، وهو من صنع البشر، وينكرون كتب الله التي أوصى بها إلى رسله عليهم صلوات الله وسلامه، وهكذا يكذب الأدباء الإنجليز القرآن الكريم وتعاليمه .

وتنص تعاليم التلمود على أنه لا يدخل الجنة إلا اليهود، وأن النعيم

---

(١) آي - بي براناتيس ، فضح التلمود تعاليم الحاخامين السرية ، ترجمة زهدي الفاتح ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٥٦-١٤٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٧٩ .

(٣) محمد صبري (مترجم) ، التلمود شريعة بني إسرائيل : حقائق ووقائع ، دار الهلال ، القاهرة ب-ت ، ص ١١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٣٢ .

المقيم لهم فقط دون غيرهم، والمطلع على كتابات سيجموند فرويد - اليهودي الأصل - وآرائه عن اليهود واليهودية، والذي يزعم بعض الناس أنه من أقطاب الفكر الموضوعي المتجرِّد، يجد بوناً شاسعاً بين أقواله وحقيقة الموضوعية المزعومة؛ ففي كتابه «موسى والتوحيد»، والذي صدر ضمن مجموعة الأعمال النفسية الكاملة لفرويد - يتضح للقارئ أنه بينما كان يتهم اليهود بأنهم حرّفوا وبدّلوا في التوراة، وفي حديثه عن التاريخ العبري، وما كان من شأن موسى عليه السلام، فإنه لا يمسّ التلمود من قريب ولا من بعيد، واتهامه لليهود إنما هو لأولئك القلة القليلة التي كان لديها بقية من إيمان، ومعرفة الحقائق الآتية توضح لنا ما كان عليه أمر فرويد وفكره.

ولتنفيذ مخططاتهم الإجرامية، فإن اليهود - كما يدل التاريخ في أزمنة متصلة - كانوا يعمدون إلى التظاهر باعتناق الإسلام أو المسيحية، فقد عمل بعد وصول يهود الدونمة (المرتدين) من إسبانيا وتجمعهم في مدينة سلانيك، على التظاهر بالدخول في الإسلام بعد معركة الدجال سبتاي سيفي أو شبتاى حْبي، الذي ادعى لليهود أنه المسيح المنتظر، الذي سيخلص اليهود، ويسلمهم زمام الحكم في العالم بعد إعادتهم إلى أرض الميعاد، وحين ألقي القبض عليه، تظاهر باعتناق الإسلام، لينجو من القتل، وتبعه كثير من اليهود الذين أسلموا وحملوا أسماءً إسلامية، ووصلوا إلى أعلى المناصب في الدولة الإسلامية بتركيا، ومنهم رأس الأفعى مصطفى كمال أتاتورك، ومدحت باشا. ومثل آخر عن الخدعة اليهودية الماكرة تمثل في

شخص بنجامين دزرائيلي، أو اللورد بيكونسفلد الذي تظاهر باعتناق المسيحية، ووصل إلى منصب رئيس الوزراء في زمن الملكة فكتوريا، وكان من أصدقائها المقربين، وغرس في عهده جذور الاستعمار البريطاني، لا لخدمة المسيحية والعرش البريطاني، وإنما لخدمة اليهود واليهودية، وعمل طول حياته على إحياء آمال الشعب اليهودي، وتجديد نشاطه، وتقوية أحلامه (١). واليهودي غالباً لا يغير دينه مهما تظاهر. واليهودي الذي ينبث في الأوساط غير اليهودية يتظاهر دائماً بالإلحاد، ليشجع غيره على الإلحاد والتنكر للأديان، بينما يظل في قرارة نفسه متديناً متعصباً لدينه.

وإن قيل: إن فرويد كان مُلحِداً، وإنه أظهر إلحاده غير مرَّة، فكيف يتحدث عن اليهودية؟ فظاهر الأمر أن إلحاد فرويد لم يكن إلا إلحاداً ذهنياً، لم يصل إلى وجدانه وأحاسيسه ومشاعره. لقد تمرد فرويد على اليهودية بذهنه، ولكن ظل وفياً لها كعقيدة، لذا أصبح إلحاده زائفاً، وإن ظهر أنه حقيقة، إلا أن تشبث فرويد بيهوديته يتضح جلياً في تنفيذه لمخططات اليهود وتعاليمهم فيما جرّه على الأمم من بلاء وشقاء بسبب نظرياته الفاسدة. لهذا كلّه تظل أفكار فرويد كما يرى كثير من النُقاد - كتابات ومقولات مبتورة الفكر، خالية من الروح، عديمة المضمون، معتمدة على التحليل المادي والنفسي للأمور، وتظل كتابات فرويد عن مسائل الدين في

(١) انظر: Sigmund Freud, Moses and Monotheism, Hograth Press, London, 1964, PP. 103-144.

كتابه المشار إليه غير أصيلة، ولا قوية البنية أو الحجة[١] قوامها الخيال المحض، والفكر المجرّد عن الحقائق والموضوعية، حيث كان فرويد جريئاً فيما يكتب، دون مبالاة بالقيم والأخلاق وآداب السلوك وتعاليم الدين، ولعل هذه الجرأة أكسبته الشهرة في ظل سلطان الدعاية اليهودية[٢]. « واليهود من أمهر الناس في الدعاية، فهذه في الأصل هي رسالتهم، ولكن كان عليهم أن يدعوا إلى العقيدة الأساسية لديانتهم. ولكنهم أخفقوا في ذلك، وأدى إخفاقهم هذا - وفقاً لأسفارهم - إلى إخفاقهم في كل مكان، وقد باتوا اليوم دون أية رسالة مباركة. ولكن بعض زعمائهم يزعمون أن لهم رسالة روحية، ولكن فكرة هذه الرسالة ما زالت تسير في صورة انحلالية مطلقة، فهي تمثل أعظم مادية في الوقت الحاضر، وغدت وسيلة للابتزاز الغريب، بدلاً من أن تكون طريقة للخدمة »[٣].

واليهود في عالمنا اليوم يمثلون فئة قليلة لا يتجاوز عددهم خمسة عشر مليوناً، يعيشون بين الأمم على اختلاف أديانها ونحلها ومللها، مستضعفين، يعملون بعزيمة وهمة وشكيمة، مما ساعدهم على احتكار أسباب الأموال، واستمالوا أعضاء الحكومات ورؤساءها بما يملكونه من قوة في الدعاية

(١) انظر: H. L. Philip. Freud Religious Belief, Greenwood, London, 1956. P.IX

(٢) انظر: Paul Kline, Fact and Fantasy in Freudian Theory, Methuen, London, 1972, PP.131-133.

(٣) هنري فورد، اليهودي العالمي، ص ٢٧.

والهيمنة المالية الكبيرة.

واليهود في الزمن الحالي ينقسمون إلى قسمين : الأول يضم اليهود الألمان، مثل ستيف وسبير وواربوغ وكان ولويزون وغاغنهايهم، وهم يمثلون النفوذ السياسي والمالي، إذ إنهم يلعبون في الحياة الاقتصادية لعبهم بالموارد المالية لغير اليهود . أما القسم الثاني، فهم من يهود بولندا وروسيا، ويحتكرون المراتب الدنيا من أعمال التجارة والصناعة ، ويسيطرون عليها سيطرة تامة .

وجميع اليهود في العصر الحالي يندرجون تحت منظمات وجمعيات متعددة، دينية وسياسية وصناعية واقتصادية . . إلخ . وتجمع هذه الجمعيات منظمتان مهمتان لليهود، وهما : منظمة (كهيلا نيويورك)، و (اللجنة اليهودية الأمريكية)، وخلال إنشاء هاتين المنظمتين - وبالأخص الأخيرة منها، والتي كانت عام ١٩٠٦م - كان يلحق بهما مائتان واثنتان وعشرون جمعية، وبعد عام واحد كان عدد جمعياتها ستمائة وثمانياً وثمانين، وقد بلغ عدد الجمعيات في عام ١٩٢١م أكثر من ألف جمعية، ولا يزال العدد في تزايد.

والكهيلا باعتبارها ممثلة رسمية لليهود تضم ممثلين عن اتحاد الصهيونيين الأمريكيين واليهود الأورثوذكس، واليهود الإصلاحيين، واليهود المرتدين، والثوريين الحمر، وجمعية المؤتمر المركزي للحاخاميين الأمريكيين، والمجلس الشرقي للحاخاميين الإصلاحيين . . إلخ . ومن

المعلوم، فإن الكهيلا اتسعت في نفوذها ونشاطاتها، وأصبحت تعرف حالياً باسم (المؤتمر اليهودي العالمي) [١] .

وكان اليهود كما أسلفنا لا يندمجون مع شعوب وأهالي البلدان التي يسكنونها، بل كانوا يقطنون في حارات خاصة بهم تسمى «الغيتو» - كما أسلفنا - بقصد المحافظة على معتقداتهم وتقاليدهم وعاداتهم وأموالهم، كوسيلة للترابط بينهم. واستمر الحال إلى أن نادى موسى مندلسون بضرورة خروج اليهود من عزلتهم في الغيتو وتعصبهم، وعليهم أن ينصهروا مع الأمم الأخرى، ويتعلموا لغات الشعوب إضافة إلى العبرية واليديش [٢] . واستطاع اليهود الخروج من «الغيتو»، خصوصاً بعدما حصلوا على المساواة في ظل الثورة الفرنسية، وتلا ذلك حصول اليهود على المساواة في بريطانيا والدانمرك والنرويج وألمانيا وبلجيكا، وهم بهذا خرجوا من رابطة الغيتو إلى رابطة المؤتمر اليهودي العالمي، ساعين إلى تحقيق أهدافهم، وإن تشتتوا في العالم، إذْ يعتبره اليهود ترتيباً سماوياً سيساعد اليهود على تحقيق برنامجهم العالمي بسهولة أكبر، وذلك على أساس مايظنه اليهودي من أنه ينتمي إلى شعب تربطه به وشائج من الدم، لاتستطيع أي تحويلات عقدية أن تضعفها، وأنه يقوم بدور الوريث لماضي ذلك الشعب، والوكيل عن مستقبله السياسي، إنه يمت إلى جنس بشري،

(١) المرجع السابق، ص ٦٣ ، ١٠٨-١١٣ ، ١٤٣ .

(٢) الفريد ليلينثال ، ثمن إسرائيل ، ص ١٦ .

بل وإلىٰ أمة من الأمم، إنه يبحث عن مملكة تسمو علىٰ سائر الممالك ، تصبح فيها القدس المدينة التي تسود العالم باعتبارها أرض الميعاد وبلاد الأجداد.

والحقيقة فقد ثبت أن سكان فلسطين الأصليين ليسوا اليهود وبني إسرائيل، فقد سكن العرب فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ، وأن قبائل الكنعانيين قد وجدت في فلسطين منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وهي قبائل عربية ، وقد بنوا القدس وأطلقوا عليها اسم (أورو - سالم) ، أي مدينة السلام ، والواضح من دراسة القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالىٰ أراد أن يمن علىٰ بني إسرائيل، ويخلصهم من حكم فرعون مصر، وأن يخرج اليهود من أرض الظلم إلىٰ الأرض المقدسة فلسطين. ومنذ اللحظة التي قادهم موسىٰ عليه السلام من مصر بعد إغراق فرعون، وذهب بهم إلىٰ سيناء ، ثم فلسطين، اعتبروا الشعب الآمن الذي يسكن فلسطين عدواً لدوداً لهم دون أيما سبب، فقالوا : إن فيها قوماً جبارين بزعمهم ، ليمتنعوا عن امتثال أمر الله أولاً ، ولكي يؤكدوا فريتهم عن سكان فلسطين. وكثير مثل هذا الإفك والافتراء مثبت علىٰ غير وجه حق في كتب اليهود. ولقد دخل اليهود فلسطين بروح يملؤها الحقد وسوء النية، وهمجية الطباع، واضعين نصب أعينهم إبادة السكان الأصليين بلا شفقة، بدلاً من دعوتهم إلىٰ عبادة الله ومساعدتهم، وتحمل سكان فلسطين ثقل الهمجية اليهودية التي جعلت دينها وديدنها سفك دماء الأبرياء، وعدهم عبيداً للشعب المختار، الذي أعماه الوهم، وأفسد عليه

حياته وحياة شعوب العالم بأسره ، فأباح حينها اليهود العقوبة الجماعية المشتركة التي تشمل غير المذنبين ، فكانوا يقتلون الأبناء والبنات مع أبيهم إذا اقترف الأب جناية لم يشتركوا فيها ولم يعلموا بها . وبعد ثلاثة آلاف سنة غرسوا قوانين تشريعاتهم الظالمة في نفوس الشعوب الاستعمارية، في أوروبا وأمريكا، وأعوانهم في الشرق، الذين قتلوا ولازالوا يقتلون آلاف الأبرياء من المسلمين وغيرهم ، كما نشاهده في أيامنا هذه في البوسنة والهرسك ، وفي كشمير، وفي بورما، وفي الفلبين والشيشان وغيرها من الدول . وصار هذا التشريع جزءاً من قوانين بعض حكام البلدان الإسلامية، الذين لايحكمون بما أنزل الله . والفترة التي استقر فيها حكم اليهود في فلسطين لا تزيد عن ثلاثة قرون ونصف قرن ، ومع ذلك فإنهم يستندون إليها مطالبين بحقهم في العودة إلى فلسطين. إنهم يحلمون بإقامة كيانهم ومملكتهم الكبرى [1].

إن اليهود يحلمون بهذا العالم الذي تسيطر عليه قوى اليهود، وبدءاً لذلك، فقد اختاروا فلسطين على اعتبار أنها أرض الميعاد كما يظنون ، وهم في ظنهم هذا واهمون يغرّرون بما هو أصدق عما يعتمل في نفوسهم، وهذا مانشرته جريدة الاتحاد الوطني الكندية التي تصدر في مدينة مونتريال، إذ قالت : « لم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي والديني بالنسبة إليهم ،

---

(١) عبد الله التل ، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ص ١٣-٢٣ .

ولا لأن مياه البحر الميت تعطي بفعل التبخر ما قيمته ثلاثة آلاف مليار دولار من المعادن وأشباه المعادن ، وليس أيضاً لأن مخزون أرض فلسطين من البترول يعادل عشرين مرة مخزون الأمريكيتين مجتمعتين ، بل لأن فلسطين هي ملتقى طرق أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ولأن فلسطين تشكل بالواقع نقطة الارتكاز الحقيقية لكل قوى العالم، ولأنها المركز الاستراتيجي العسكري للسيطرة على العالم »[١].

ومهما يكن من أمر، فإن حلم اليهود لايتحقق ولن يكون ، فاليهود - وفي مقدمتهم إسرائيل - على مفترق الطرق . والشيء الثابت أنه إذا ظل الشعب اليهودي - على اختلاف نزعاته - يتحمل أخطاء إسرائيل السياسية ، فإن سياسة إسرائيل الارتجالية من شأنها أن تؤلب الأعداء عليها ، وتقودها إلى الهاوية ، عندما يأتي اليوم الذي تتخلى فيه أمريكا عن مساعدتها[٢]. وصدق الله العلي العظيم إذ يقول في محكم التنزيل : ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴿٦١﴾ ﴾[٣].

فهل يمكن لأمة ضرب الله عليها الهوان والذل أن تقوم لها قائمة ، وتكون لها دولة تحكم العالم ؟ هؤلاء هم اليهود ؛ أمة ضلّت وأضلّت فقد

---

(١) انظر : L'Unite National, No.12.1953.

(٢) الفرد ليلينثال ، ثمن إسرائيل ، ص ٦-٧ .

(٣)سورة البقرة ، الآية ٦١ .

طباع وسمات تميّزت بها، فأصبحت مستنقعاً ومرتعاً لأمراض القلوب وأدوائها، التي ما استطاعت أن تتخلص منها، ولم تعمل على علاج نفسها منها والإبقاء عليها ضمن حدودهم، بل تعدّوا ذلك ليبثوا سمومهم ظلماً وعدواناً على البلاد والعباد .

وإننا في هذا الباب نعمد إلى توضيح طبائع اليهود كما جاءت في كتب الأديان السماوية ، وبالأخص دين الإسلام ، وكذلك ما ذكرته كتب التاريخ والفكر، تمهيداً لما ستنطوي عليه هذه الدراسة، التي سنقوم بها في مجال النقد الأدبي والتحليل الأدبي للأعمال الأدبية عند الكتاب الإنجليز وأدبائهم . ومن أصدق من الله حديثاً ، ومَنْ أصدق مِن الله قِيلاً ، فهو سبحانه وتعالى أوضح وفصّل بتمام وكمال وجلاء طباع اليهود، وما هم عليه من صفات لا تفارقهم، لعنة تبدو على سيماهم ، وتتضح بها جبلتهم المغضوب عليها، المطرودة من رحمة الله وهدايته ، وقسوة تبدو على ملامحهم النافرة والخالية من البشاشة والرحمة والمودة ومشاعر الإنسانية ، ومهما يكن منهم من مظاهر اللين في القول عند المصلحة أو الشعور بالخوف، فإن سمات اللعنة وملامح الغدر وقسوة القلوب هي طباعهم الأصليه، تظل ملازمة لهم في ديمومة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!! .

« نعم، لقد أنعم الله على بني إسرائيل بادئ ذي بدء بتسع نِعَم، فقابلوها بتسع سيئات جحوداً وكفراً وتفريقاً، فعاقبهم سبحانه وتعالى بعشر

عقوبات . أما النعم، فهي مذكورة في الآيات الآتيه : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ ، ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر ﴾ ، ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ ، ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ ، ﴿ وأنزلنا عليكم المنَ والسلوى ﴾ ، ﴿ ثم عفونا عنكم ﴾ ، ﴿ نغفر لكم خطاياكم لعلكم تهتدون ﴾ ، ﴿ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناْ ﴾ .

لم يشكر هؤلاء اليهود نِعَم الله وآلاءه عليهم، فقد قابلوا النعم بالكفر والمعصية، فكانت سيئاتهم التسع، وهي مذكورة في الآيات الآتيه : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ ، ﴿ اتخذتم العجل ﴾ ، ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ ، ﴿ بدل الذين ظلموا ﴾ ، ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ ، ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ ، ﴿ ثم قست قلوبكم ﴾ وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق .

لهذا فإن الله سبحانه وتعالىٰ عاقب اليهود بتسع عقوبات بما كانوا يعتقدون، وهذه العقوبات هي : ﴿ ضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ ﴿ يعطوا الجزية ﴾ ﴿ اقتلوا أنفسكم ﴾ ﴿ كونوا قردة ﴾ ﴿ فأنزلنا عليهم رجزا من السماء ﴾ ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ ﴿ حرمنا عليهم طيبات أحلَت لهم ﴾ [(١)] .

هؤلاء هم اليهود مثل الدابة إن حملت عليها صاحت، وإن خففت عنها ناحت لا تعرف أين رضاها فتجليه ؟ ولاتدري مايسخطها فتتجنبه ؟ وصدق الله العظيم إذ صور حالهم هذا في قول مجمل تام محكم

(١) محمود محمد عمارة ، اليهود في الكتب المقدسة ، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية ، القاهرة، ١٣٨٩هـ١٩٦٩م ، ص ٦٧-٦٨ .

حيث قال عز من قائل عليماً :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] .

ومع أن هذا هو حال اليهود، وما نزل بهم من عقوبات، وماضرب الله عليهم من الذلة والمسكنة ، إلا أنهم يظنون أنهم شعب الله المختار، ويعيشون في ظل هذه الأسطورة، عابثين بالآخرين من الأغيار والأميين؛ لأن الله لم يخترهم، ولم يصطفهم كما اصطفىٰ اليهود دون غيرهم ، وهذا مانفصله فيما بعد بعون الله .

٤ ـ شعب الله المختار : أسطورة وخيال :

اليهود يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم هم شعب الله المختار، ويشعرون باستعلائهم وأفضليتهم علىٰ الأمم ، وهذا الاعتقاد السائد بين اليهود دفع بهم إلىٰ الغرور، وإلىٰ التعدي والتحدي، والقيام بجرائم يندىٰ لها الجبين، وتقشعر لها الجلود والأبدان. ومن المعلوم أن بروتوكولات حكماء صهيون تنص علىٰ أن اليهود شعب الله المختار ، فقد جاء في البروتوكول الرابع عشر ما نصه : « حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادة الأرض ، لن نبيح بقيام أي دين غير ديننا، أي الدين المعترف بوحدانية الله، الذي ارتبط حظنا

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم[١] .

هكذا ينظر اليهود إلىٰ أنفسهم علىٰ أنهم « أنقىٰ جنس »، وأنهم « الأمة اليهودية العالمية الفريدة النوع » . . . إلخ [٢]. هذا هو منطق النورانيين، أو مجمع حكماء صهيون . وهو رأي ألفرد ليلينثال الأمريكي الجنسية اليهودي المعتقد [٣] . إن فكرة شعب الله المختار خرافة أو أسطورة ، لأن اليهود اليوم جمع لشتات أجناس متعددة في شرق العالم وغربه، وأن الشعب اليهودي أصبح لا وجود له منذ عام ٧٢ ميلادية [٤]، وهذه الخرافة تكمن في أن إله اليهود ، وهو رب ـ إسرائيل ـ غير رب الأمم الأخرىٰ. فقد جاء في سفر التثنية الاشتراع ٧ : ٦ عن اليهود : « لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفىٰ الرب إلهك أن تكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي علىٰ الأرض [٥]. وهم بهذا ـ أي اليهود ـ يدّعون أنهم هم الذين أوجدوا فكرة التوحيد والإله الواحد، ويقول بهذا اليهودي فرويد في كتابه «موسىٰ والتوحيد»[٦]، إن فكرة التوحيد انطلقت من تطوّر معيّن في تاريخ اليهود .

(١) محمود محمد عمارة ، اليهود في الكتب المقدسة ، ص ٦٧ـ٦٨ .

(٢) محمد خليفة التونسي (مترجم) ، الخطر اليهودي : بروتوكولات حكماء صهيون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٦١ ، ص ١٦٩ .

(٣) ألفريد ليلينثال ، ثمن إسرائيل ، ص ١٤٥ـ١٤٦ .

(٤) يوري إيفانوف ، الصهيونية حذار ، ترجمة ماهر عسل ، الهيئة العامة للتأليف والنشر ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ٥٩ .

(٥) سهيل ديب، التوراة، تاريخها وغاياتها، ص ٢١ .

(٦) انظر: Sigmund Freud, Moses and Monotheism, p.64.

وبمثل هذه الأقوال يمكن للإنسان أن يتساءل: إذا كان اليهود أوجدوا فكرة الإله الواحد وفكرة التوحيد. إذن مَن الذي اختار الآخر؟ هل الإله (الرب) اختار الشعب، أم الشعب اختار الإله؟ ويرىٰ هنري فورد أنه لا سبيل إلىٰ تحطيم هذه المقولة الزائفة التي يدّعيها اليهود بأنهم شعب الله المختار إلا بالجهد الجاد من جانب المسيحيين، إذ يعتقد أن علىٰ كل معهد لاهوتي أن يخصص في الخمسة والعشرين سنة القادمة مقعداً تدريسياً خاصاً لتدريس التأثير اليهودي العصري، وتعاليم «العهد القديم» المخلصون للشريعة الموسوية.... فاليهود ليسوا هم «شعب الله المختار» علىٰ الرغم من أن الكنائسجميعها قد أذعنت للدعاية التي تطلق عليهم هذا الاسم[(١)].

وفي الحقيقة، إن القرآن الكريم ألمح في بعض الآيات إلىٰ خصائص تفضيل اليهود في قوله تعالىٰ:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[(٢)].

ولكن هذا التفضيل إنما كان لأهل الإيمان، العاملين بشرع الله، المهتدين بهدي الحق، وهو تفضيل مقيد ليس مطلقاً، فضل الله بني إسرائيل علىٰ الطاغية فرعون الظالم، وهذا التفضيل منٌّ به سبحانه وتعالىٰ علىٰ بني

---

(١) هنري فورد، اليهودي العالمي المشكلة الأولىٰ التي تواجه العالم، ص ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٤٧-٤٨.

إسرائيل، قال تعالىٰ:

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾(١).

أمّا أنْ يظن اليهود أنهم شعب الله المختار إلىٰ هذه الساعة، فتلك أمانيهم توارثها الأخلاف عن الأسلاف، فدعوىٰ اليهود أنهم شعب الله المختار يجعلنا نسألهم: لماذا؟ ونقول: «هاتوا برهانكم». إن كنا نعلم أنهم يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، فالله جل وعلا يقول:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(١).

إذن، لا تفضيل إلا بالتقوىٰ (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وإن ظن اليهود بأنهم شعب الله المختار، فنقول جازمين: إنهم لذلك اختيروا، بل واختاروا لأنفسهم أن يكونوا؛ لأنهم من الساعين في الأرض فساداً بجرائم القتل والبغي والزنا، وأكل الربا، وأكل أموال الناس بالباطل، وإثارة الفتن والحروب، وتحريف التشريعات السماوية، وقتل الأنبياء. نعم، إنها حقيقة يجب الإقرار بها وعدم إنكارها، ولا ينكر هذه الحقيقة إلا ظالم لا يقين له

---

(١) سورة القصص، الآيات ٣ ـ ٥.

(١) سورة المائدة، الآية ١٨ .

بحقيقة هذا الاختيار وهذا الاصطفاء ، فاليهود شعب مختار ، إذ إن الشياطين نوعان : شياطين الإنس ، وهم اليهود ومن شايعهم ، فهم مختارون في هذه الحياة ، يمثلون الشر ، إذ لا يصح لمهام الدمار والخراب والعبث والتحريف إلا قوم لهم صفات معينة محددة ، هي ألصق ما تكون باليهود ، لذا اختيروا لذلك ، وبهذا فهم الشعب المختار ، المميز بجرائمه وعدوانه وغدره وبطشه وكفره ، وهذا إشارة إلى قوله تعالى :

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ (١).

هكذا يتضح أن اليهود مخالفون ملعونون مغضوب عليهم ، جزاءً بما كسبت أيديهم ، فلا تمييز عند الله سبحانه وتعالى بين عباده وخلقه ، إلا من آثر الحياة الآخرة ، وعمل صالحاً ، وآمن واتقى ، كما أن مسألة التمييز الطبقي والقبلي والعنصري ليست من تعاليم المولى سبحانه وتعالى : **﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل﴾** ، ولكن : **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** ، فلا فضل لأبيض على أسود ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، فإن

(١) سورة النساء ، الآيتان ٤٦ ـ ٤٧ .

كان اليهود يرون أنهم شعب الله المختار، فلا جدال في أنهم كذلك، حيث إنهم اختاروا أن يكونوا محل سخط الله وغضبه، وأن يكونوا مكروهين بما حلَّ عليهم من الذلة والمسكنة، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾(١).

إن اليهود أمة اختارت لنفسها أن تكون من الدون، وذلك مما يتضح في سلوكهم، الله يختار لهم الذي هو خير: المن والسلوى، وهم يختارون الذي هو أدنى: الثوم والبصل، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾(٢).

لذا، فإن الله سبحانه وتعالى لا يختار من عباده أحداً دون أحد إلا بشرط إقامة شرائع الدين وعقيدة التوحيد، ونشر العدل والمحبة، دون الاعتداء أو الاستعلاء، وهذا ما يؤيده قوله سبحانه وتعالى بخصوص الأمة الإسلامية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

(١) سورة آل عمران، الآيه ١١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١.

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾(١).

فلا تستحق أمة من الأمم الخيرية والاصطفاء منه سبحانه وتعالىٰ إلا اذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولكن اليهود لم يكونوا كذلك ، بل كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، فهل يمكن أن يكونوا شعب الله المختار ؟ إنهم يقولون منكراً من القول وزوراً .

ولننظر تأثير هذه الفكرة (فكرة شعب الله المختار) علىٰ الشعوب الأخرىٰ في مسرحية (شعب الله المختار) للأديب علي أحمد باكثير :

كوهان : وهل لنا نحن مثيل في شعوب العالم ، نحن شعب الله المختار .

أندرسون : هذه نفس نظرية التفوق العنصري التي من أجلها حاربنا هتلر .

هذا يوضح كيف أن أوروبا النصرانية تحارب كل من لا يدين بدينها ، أو لا تتفق سحنة البياض مع سحنتها ، وهكذا فعل أدباء الإنجليز مع الإسلام والمسلمين (٢).

٥ ـ إله اليهود : الذهب والمال :

إن اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار دفعهم إلىٰ حب السلطة ، وحرك في نفوسهم شهوة السلطان بقصد السيطرة علىٰ الأمم ، وأخذ

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

(٢) علي أحمد باكثير ، شعب الله المختار ، مكتبة مصر ، ب ت ، الفصل الأول المشهد الأول، ص ٣ ـ ٤ .

أموالهم، واستعبادهم كالرقيق، لخدمة المصلحة اليهودية ، ولما كانت السيطرة على الشعوب لا تأتي إلا بمال وفير يُسخر لتذليل الصعاب ، ولأن المال من الوسائل المهمة التي يمكن بها السيطرة على مرافق الحياة الأساسية في مجالات التجارة والصناعة والعلوم والسياسة ، وبه يحركون الأمم ، ويثيرون الفتن والقلاقل ، لهذا نمت في نفوس اليهود شهوة المال وحبه وجمعه، حتى لقد ذكر أحد كتاب الأدب الإنجليزي - وهو أوسكار وايلد - في موقف ساخر في قصة قصيرة له عنوانها «الأمير السعيد» : إن اليهود من شدة ثرائهم، كانوا يزِنُون الأموال والذهب بالموازين لكثرة ماعندهم ، فيما يموت الآخرون ضاوين من الجوع[١] . ومسألة حب اليهود للمال تظهر في قصة العجل الذي جعلوه إلهاً لهم عندما طال غياب موسى عليه السلام حينما ذهب يناجي ربه ، والمعلوم أنهم صنعوا العجل من الذهب الذي كان مكنوزاً عندهم ، وهو من حليهم المدخرة لديهم، التي سرقوها من النساء المصريات بمصر ليلة الخروج . قال عز وعلا : ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ** ﴿١٤٨﴾ ﴾[٢] .

وجمع المال وحب اليهود له إنما قام على اعتقادهم - ربما - بأنه لا حياة أخرى بعد الموت يكون فيها حساب وجزاء، فلا ذكر في تلمودهم للروح والحياة الآخرة ، لذا فاليهود حريصون كل الحرص على الحياة

(١) انظر : Adnan M.Wazzan (ed.), The Study of Fiction, Umm Al-Qura University,Makkah,1984, p.136 .

(٢)سورة الأعراف ، الآيه ١٤٨ .

الدنيا وملذاتها، قال عز من قائل : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1]

وحرصهم على الحياة، وعبادتهم للأموال والثروات والاقتصاد تدل عليه قصة أصحاب السبت دلالة واضحة ، وقد جاء ذكر هذه القصة في مواطن كثيرة في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[2].

فالمعلوم أن اليهود يقدسون يوم السبت ، لا يعملون فيه أي عمل يؤدي إلى نفع مادي، وكذلك أمروا ، ولكنهم احتالوا على ذلك، فكان الحوت يخرج ظاهراً على وجه الماء يوم السبت، ويختفي بقية أيام الأسبوع، فعمد اليهود إلى حفر حفرة تحبس فيها الأسماك يوم السبت، فيأتون لأخذها في الأيام الأخرى ، وإن تهالكهم على الدنيا وعلى المال جعلهم يعمدون إلى الرشوة، وتطفيف الكيل والميزان، وبخس الحقوق، والاحتكار وأكل الربا ، وما الأنظمة المالية في العصور الحديثة بما تمثله الرأسمالية في أمريكا والاشتراكية في روسيا إلا من نتائج الفكر اليهودي لأناس أمثال كارل ماركس ، وآل روتشيلد، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد .

---

(١) سورة البقرة ، الآيه ٩٦ .

(٢)سورة الأعراف ، الآيه ١٦٣ .

إن اليهود يعطون المعوزين والمحتاجين القروض مقابل الحصول على فائدة فاحشة ؛ ليزداد ما عندهم، ويثقل كاهل الآخرين . ولعل الأمثلة في هذا كثيرة جداً ، فمن ذلك من يظن أن رغبة الفلسطينيين في جمع المال دفعتهم إلى بيع أراضيهم، والواقع أنه «لو عرف العالم حقيقة الأساليب التي اتبعت لاغتصاب أراضي فلسطين من أهلها العرب في الأيام الأولى من الغزو الصهيوني ، أو لو سمح لهذا العالم بمعرفتها، لعمها السخط والاشمئزاز ، ولا ريب في أن هذه الأساليب كانت تجري بمعرفة صموئيل المندوب السامي اليهودي وتأييده ، إذ إن هناك حقيقة واقعية تشير إلى أن هذا المندوب قد أوقف موظفاً بريطانياً عن العمل؛ لأنه حاول منع هذه الأساليب الشريرة . إنها الطريقة اليهودية المعروفة في إقراض المال بفوائد ضخمة وهائلة للعرب، الذين أنهكتهم الحرب العظمى وويلاتها، وأضنتهم مواسم القحط والجفاف ، ثم اغتصاب هذه الأراضي منهم عندما يعجزون عن دفع القروض وفوائدها الباهظة . ولقد كان بنك « أنجلو ـ بالستاني» اليهودي هو الذي يتولى القيام بهذه العمليات »[(١)].

وإذا ما تتبعنا أحداث التاريخ عن الحياة الاقتصادية بعد وفاة محمد علي باشا في مصر، وما كان من خلفائه الذين قربوا الغربيين، واتخذوهم أعواناً ومستشارين ، وقد كانوا يزينون لهم الاستدانة، وعقد القروض بالربا الفاحش، حتى أصبح لحفنة من اليهود الصولة، مستحوذين على إيرادات

---

(١) هنري فورد ، اليهودي العالمي ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

مصر كلها، ليس تسديداً للديون التي أقرضوها، بل لتسديد فوائد تلك القروض، فأصبح الجميع في مصر يرزحون تحت نير الربا، وإذا بأملاكهم تنتزع منهم، ليملكها المرابون اليهود.

وذلك ما حدث في عام ١٨٦٢م في عهد سعيد باشا، الذي حصل على قرض بمقداره الاسمي ٣,٢٤٢,٠٠٠ جنيه إنجليزي، في حين أن القيمة الحقيقية كانت ٢,٤٠٠,٠٠٠ على أن يسدد القرض على مدى ثلاثين سنة، ليصبح المبلغ عند تسديده ٧,٩٢٠,٠٠٠، أي بما يزيد على ضعفين من أصل المبلغ الحقيقي. ولا ينسى التاريخ القروض التي كان يحصل عليها إسماعيل باشا لمصر، وخصوصاً ذلك القرض الذي عقد عام ١٨٧٣م، والذي انتهى به الأمر إلى بيع أسهم قناة السويس بعد أن وجهت جميع الموارد الاقتصادية لسداد الديون[١].

وعمل اليهود في إقراضهم الآخرين للأموال بالربا الفاحش، إنما يقوم على ما يعتقدونه في تلمودهم وتعاليمه، التي تبيح أموال الآخرين، وأنها حق شرعي لليهود، إذ إن أموال الأغيار من الأميين تعد كالمال المتروك الذي يحق لأي يهودي أن يمتلكه، ويظن اليهود أنهم فضلوا بما فضلهم الله، فهم لا يعطون الصدقات، ولا يمدون يد العون لغيرهم؛ لأنهم يعتقدون أن المجتمع لابد أن يكون فيه أغنياء وفقراء، وأنه لا يجب على الأغنياء أن يعينوا الفقراء، بل يظن اليهود أن الغني جعل غنياً؛ لأن الله أراد له أن يكون

(١) عبد المنصف محمود، اليهود والجريمة، ص ١٥٤-١٦٠.

كذلك، ولا يجب عليه أن يتصدق على الفقراء، واليهود في هذا أشبه بكفار قريش في منطقهم، الذي يقولون به، والذي حكاه ربنا في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

واليهود لا يتورعون عن أخذ أموال الناس بالباطل حتى لو استدعى الأمر القوة والعنف، وإزهاق الأنفس والأرواح، لأنهم لا يقدرون لحياة الناس قدراً، بل يستغلون الظروف الحرجة، وما يلم بالناس من ضائقات، ليمارسوا بعنف مسائل الابتزاز المالية، لإذلال الناس والشعوب، وهذا ما سنفصل فيه القول، متخذين من آل روتشيلد مثلاً، باعتبارهم إحدى القوى المحركة للاقتصاد عملياً، وما انعكس به ذلك على الحياة التجارية والاقتصادية، خصوصاً في العصر الحديث .

ينحدر آل روتشيلد من نسل يهودي يدعى آمشل موشي باور، الذي استقر به المقام في مدينة فرانكفورت بألمانيا في عام ١٧٥٠م، بعد أن أضناه التجوال في أوروبا الشرقية، وقد كان يصنع الدروع، ولقد علّق على باب متجره درعاً لونه أحمر، والمعروف في اللغات الأوروبية بمصطلح Red Schield أو Roth Schield ، ومنها أصبح يعرف اليهودي باسم روتشيلد وصناعة الدروع ، بل وتعليقه على باب دكانه وكون لونه أحمر، إنما ذلك

(١) سورة يس ، الآيه ٤٧ .

كله يرمز إلىٰ روح الحرب، وامتصاص اليهود للدم الأحمر [١].

وقد كان لآمشل ولد أسماه ماير ، دربه علىٰ أعمال مختلفة، واستطاع أن يجمع أموالاً كثيرة ، خلفها لأولاده الخمسة الذين أصبحوا أرباب الذهب والمال في أوروبا، لكي يساهموا إلىٰ حد كبير في مجريات الأحداث في العالم ، فعلىٰ سبيل المثال عندما عرض إسماعيل باشا أسهم قناة السويس، بعد أن اتصل بالفرنسيين في عام ١٨٧٥م لبيع الأسهم، ولما كان مجلس العموم البريطاني في إجازة، ولا تستطيع الحكومة البريطانية اعتماد مبلغ الشراء إلا بموافقة المجلس، لجأ رئيس الوزراء آنذاك بنجامين دزرائيلي اليهودي إلىٰ صديقه من آل روتشيلد لدفع المبلغ وشراء الأسهم مقابل فوائد تقدر بنحو ٢,٢١٪ ، علاوة علىٰ فوائد سنوية تقدر بنحو ٥٪ ، تحتسب له من يوم الدفع إلىٰ الحكومة المصرية .

ولاينسىٰ التاريخ كيف أن بلفور عندما أصدر وعده المشؤوم بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، قد كتب بذلك إلىٰ أكبر ثري وغني في العالم، وهو ولتر روتشيلد[٢]. وناهيك ما يتمتع به آل روتشيلد من سلطان كبير في أمريكا وأوروبا في عصرنا الحالي.

ولعل النظام الاشتراكي الذي جاء به كارل ماركس اليهودي زاد من الصراع الدائم بين الطبقات المختلفة لمجتمعات الشعوب والأمم، وضيق

(١) وليام غاي كار ، أحجار علىٰ رقعة الشطرنج ، ترجمة سعيد جزائرلي ، دار النفائس ، بيروت، ط ٤ ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١م ، ص ٧٦ ـ ٨٠ .

(٢) عبد المنصف محمود ، اليهود والجريمة ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

مسألة الحرية في الملكية الفردية، كما أوجد الصراع بين طبقات العمال، وعدم تكافؤ الفرص والعطاء بين حجم العمل ورأس المال، وبين حجم العمل والمرتبات، خصوصاً في الظروف التي تأتي فيها مسألة تخفيض الأجور من قبل الجهات المسيطرة على رؤوس الأموال، أو عندما تطالب طبقات العمال بزيادة الأجور (١)، وهذا الصراع أو الحرب الاقتصادية وجه من أوجه الفتن، التي يحرص اليهود على إشعالها وإثارة الناس بها، وإذا كان النظام الاشتراكي اليهودي جاء في ظروف الصراع الطبقي الحاد، الذي خاضته طبقة العمال البروليتاريا ضد الرأسمالية والبرجوازية والإقطاعية، كما كان في فرنسا وبريطانيا، وما كان يجده العمال والعبيد والمستخدمون لدى مواليهم، وعدم حصول هؤلاء العاملين على حقوقهم كاملة من الأرزاق والنفقات، فلعل في ذلك ما يسوِّغ لليهود ـ وعلى رأسهم كارل ماركس ـ استغلال هذه الظروف المواتية لتقديم خطط وأنظمة اقتصادية في ظاهرها الرحمة، وتبدو وكأنها الحل الناجح، ولكن سوء النظام الاشتراكي جاء على سوء النظام الرأسمالي، فأصبحت الحالة كلها سوءاً وبلاءً.

ويكفي للمطلع على كتاب كارل ماركس الذي أسماه «رأس المال» أن يجد التخطيط اليهودي القائم على ضرورة اشتراكية المال بين مجموعة أفراد

(١) انظر: Karl Marks and Fredrick Engles, Selected Works, Lawrence and Wishar, London,1973, PP.221-226.

الشعب ولاحق للملكية الفردية ، وتحويل رأس المال إلىٰ حق عام مشاع ، يستوي في ملكيته العاطل والعامل والمجد والكسول ، والقوىٰ العاملة ليست سوىٰ سلعة تباع وتشترىٰ ، ولعل هذه الخطط اليهودية في فكر كارل ماركس تقضي بألا يكون هناك أثرياء من بين أفراد الشعب، لما يعلم ما للمال من قيمة كبيرة في تشييد صروح العلوم، وقيام الصناعات وأعمال التجارة مما يؤدي إلىٰ انتعاش الاقتصاد. وهذا الفكر الاقتصادي الماركسي يهدف إلىٰ جعل الناس في حالة استسلام بدون رضا وعدم رغبة في النمو والارتقاء، وتعطيل المال، وعدم تحريكه بصورة سليمة ، وهذه خطة ماركس في مسألة تداول الأموال[1] .

ولما يعلم ما للمال من تأثير في النفوس، فالفقر يؤدي إلىٰ الكفر، وقد اندرجت أفكار كارل ماركس في نظمه الاقتصادية الاشتراكية علىٰ إفساد المجتمعات لما تعاني من فقر وعدم الحرية في الامتلاك ، فالنظام الاشتراكي يعمد إلىٰ تقويض الأخلاق ، وإفساد السلوك الحسن ، وإخراج الناس من طباع الفطرة إلىٰ سلوك الحيوان ، كما يهدف النظام الاشتراكي إلىٰ زيادة فساد السياسة المختلفة التي تنادي بالحرية والديمقراطية والمساواة والإخاء ، وبما يوجد من أحزاب سياسية متعددة تجعل الدول في عدم استقرار وتوازن، ويكفي القارئ أن يطلع علىٰ البروتوكول السادس الذي يقول فيه اليهود :

(١) انظر: Karl Marks, Capital, edited by F.Engles, University of Chicago ,1925, pp42.

«وسنزيد الأجور التي لن تساعد العمال ، كما أننا في الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية ، متخذين سوء المحصولات الزراعية عذراً عن ذلك ، كما سننسف بمهارة أيضاً أسس الإنتاج ببذور الفوضى بين العمال وبتشجيعهم على إدمان المسكرات »[١] .

ويتدخل النظام الاشتراكي في تحديد مفهوم الأسرة اجتماعياً وسلوكياً ، والمشكلات التي تخص مسائل الإنفاق الأسري ، ونظم الإرث ، ونظم الضرائب على الأسر . ومن مفهوم العلاقات الأسرية في النظام الاشتراكي أن الأسر المحافظة التي تفرق بين الأطفال في المضاجع عند بلوغهم الحلم ، تعد أسراً غير متحررة ، وأسراً تتسم بالرجعية ، ومسائل الزواج التي تتم في ظل التقاليد والعادات القديمة تعد من العادات القديمة ، التي لا تعطي الحرية لأفراد المجتمع ، كما هو حاصل اليوم في المبادلات الجنسية ونظام الخدينات والأخلاء[٢] . ولعل المطلع على مسوغات قيام الثورة الفرنسية من بعديها الاقتصادي والاجتماعي يتأكد مما نادى به كارل ماركس في هذا المجال .

ولقد عرض جون هاريسون الظروف التي تهيأت لقيام الفكر الماركسي من مقارنة للنظام الاشتراكي الشيوعي والنظام الرأسمالي - وكلاهما من صنع اليهود ، وما انتهى إليه في تحريك مسائل الاقتصاد والسياسة في تاريخ

(١) محمد خليفة التونسي ، بروتوكولات حكماء صهيون ، ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٤٩ - ٤٧٩ .

الأمم منذ قيام الثورة الفرنسية ، وكيف نجح اليهود في السيطرة على شعوب العالم اقتصادياً بما يملكونه من أموال في تسيير دفة سياسات الأمم والشعوب[١] .

لذا نرى اليهود يفرضون الفكر الاشتراكي على الأمم الأخرى، بينما هم يقيمون أعمالهم الاقتصادية على أساس الرأسمالية (كما سنعرض إلى أمثلة لذلك عن اليهود والاقتصاد في الولايات المتحدة الأمريكية)، وكلا النظامين فاشل ؛ لأنهما لا يحققان مصلحة الفرد والجماعة، على خلاف نظام الاقتصاد الإسلامي الذي يمحق الربا ويربي الصدقات ، ويدفع الى المشاركات والمضاربات التي تحكمها وتضبطها ضوابط لا يظلم فيها أحد ، ويكفي أن الزكاة نظام اقتصادي يكفل حياة الأمة فقيرها وغنيها ، وبها تزول آلام النفوس التي أضناها الفقر المدقع ، وبها تطهر أموال الأغنياء ، وبها يكون النماء ، هذا إلى جانب الصدقات الاختيارية ومسألة القروض التي تمنح دون فائدة أو ربح .

ولما كان نظام الإسلام الاقتصادي لا يوافق اليهود وأتباعهم، فإنهم يعملون أولاً على محاربة هذا النظام، وثانياً على إفقار الشعوب الإسلامية ، وبالتالي دفعها إلى الأخذ بالنظام الاشتراكي ؛ ليثبتوا بطلان نظرية الاقتصاد الإسلامي . يريدون ليطفئوا نور الله والله متم نوره.

---

(١)انظر : John Harrison, Marxist Economics for Socialism, Pluto Press, London,1978, PP.10-46.

ولقد خضعت كثير من الدول الإسلامية، للنظم الاقتصادية في الغرب والشرق، وهي إما تعاني الفقر لكثرة ديونها وما عليها من فوائد ربوية تدفعها، أو أنها تعاني الذل لعدم قدرتها على سحب أموالها من بنوك الدول الغربية، التي تفرض نظاماً للسحب من حيث الكمية والمدة الزمنية، بل والكيفية في بعض الأحيان. وهذه سياسة يهودية تنفذها القوى اليهودية بما لها من سيطرة على البنوك والمؤسسات المالية، التي قالت بها البروتوكولات بأن على اليهود أن يعملوا بكل قوة في مهاجمة النظم الاقتصادية الأخرى، ونقدها بشــدة لتقويض قواها، وقوى جميع المجدّين في عملهم لاستثمار أموالهم من غير اليهود [١].

وإلى هــذا يشير جيرالد كي سميث في مقدمته لكتاب هنري فورد، وعنوانه «اليهودي العالمي» يقول: «أحس المليونير عبقري الصناعة ج هنري فورد عندما كان في ذروة حياته العملية، أن هناك جهوداً مخيفة تبذل، لحرمانه ثمرة كفاحه وأعماله، والدفع بها إلى أيدي رجال الصيرفة لاحتكارها. وتولد الانطباع لدى فورد، بأن كبار الماليين اليهود من ذوي السلطان والنفوذ يقفون وراء هذه المحاولات ويتولون تدميرها» [٢].

هكذا شأن اليهود في محاربتهم لغيرهم من الاقتصاديين وأصحاب رؤوس الأموال، وهذا ما تعاني منه الولايات المتحدة الأمريكية في هذا

(١) المرجع السابق، ص ١١٠-١٢٥.

(٢) هنري فورد، اليهودي العالمي، ص ٩.

الصدد ؛ إذ تكمن سيطرة اليهود على التجارة في مجالات وسائل الإعلام في أعمال الإعلانات التجارية في التلفزيون ، وعلى تجارة الأفلام، وصناعة الأشرطة السنمائية، التي تعد الخامسة في الأهمية من بين صناعات أخرى ، وكذلك صناعة الأدوات الموسيقية، وتجارة اللحوم وتعليبها وتصنيعها، وكذلك تجارة وصناعة القمح والزيوت والمشروبات الكحولية والسكر والتبغ، وصناعة الأحذية . ويلاحظ الأمريكيون أن النشاط المسرحي وصناعة السينما يحدق بها خطر كبير، نظراً لإشراف اليهود على ذلك واحتكارهم لها ، الأمر الذي أدى إلى تدهور المجتمع الأمريكي ، وكذا الحال بالنسبة للموسيقى والغناء في أمريكا ، وكذلك أنواع الرياضة، مثل المصارعة وكرة القدم والكرة الطائرة. إن الأمريكان يحسون بهذا الخطر من مفهوم مادي ومفهوم قومي شعوبي [(١)] . ولا تجد ثمة ذكراً إلى ما يكونه السلطان اليهودي من خطر على إفساد الدين والأخلاق ، فماذا عسانا نقول نحن المسلمين عن خطر اليهود وبين أيدينا كتاب ينطق بالحق ، ولا حاجة لنا أن نجرب اليهود كما جربهم الإسبان والطليان ، والألمان ، والإنجليز ، والأمريكان وغيرهم ، وثبت عندهم فسادهم، ووقعوا في شراكهم، فعجزوا عن الخلاص ؟ .

ويلاحظ أنه منذ أن دخل الكيان اليهودي في فلسطين، عمد إلى تجريد العرب من ملكياتهم الزراعية ، وبدأ يستنزف الأموال، ويبتز الشعوب فيما

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٢- ٢٠٧ .

تدفق من أموال على إسرائيل خلال الأعوام ١٩٤٨ ـ١٩٥٩ م . لقد قدم بنك الاستيراد والتصدير بالولايات المتحدة الأمريكية قرضاً بمبلغ خمسمائة وسبعة وخمسين مليون دولار ، ثم معونات من فائض الحاصلات الزراعية بمبلغ مائة وثمانية وأربعين مليون دولار، من جملة الأرصدة المالية لليهود ، وقدمت قروض مشتركة من فرنسا وأمريكا تقدر بنحو سبعمائة وسبعين مليون دولار ، كما قدمت ألمانيا مبلغ سبعمائة وخمسة وعشرين مليون دولار ، كل هذا يقدم إلى إسرائيل بما لليهود من نفوذ في البلدان التي يسكنونها . هذا بالإضافة إلى كثير من أموال العرب الذين طرد أصحابها ، وأخذت منهم قسراً ، وتقدر بنحو خمسمائة وستين مليون دولار ، هذا فقط خلال اثني عشر عاماً منذ احتلال اليهود لفلسطين، والأحوال وصلت إلى مائة ضعف في الوقت الحاضر (١) .

ويتضح جلياً مؤامرة اليهود على أموال الناس، وسيطرتهم على الاقتصاد العالمي مما جاء في بروتوكولهم السادس، حيث يقول : «لكن الأرستقراطيين من حيث هم ملاك أرض ما يزالون خطراً علينا؛ لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم . ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان . وأفضل الطرق لبلوغ هذاالغرض هو فرض الأجور والضرائب ، وسرعان ما سينهار الأرستقراطيون من الأميين ؛ لأنهم ـ بما لهم من أذواق موروثة ـ غير قادرين

(١) يوري إيفانوف ،الصهيونية حذار ، ص ١٤٩ ـ ١٥٤ .

على القناعة بالقليل . وفي الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة، وعلى المضاربة بخاصة، فإن الدور الرئيسي لها أن تعمل كمعاون للصناعة . وبدون المضاربة ستزيد رؤوس الأموال الخاصة ، وستتجه إلى إنهاض الزراعة بتحرير الأرض من الديون والرهون العقارية التي تقدمها البنوك الزراعية ، وضروري أن تستنزف الصناعة من الأرض كل خيراتها، وأن تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا»[1] .

هذه حقائق مجملة عن النواحي المادية، وسيطرة الفكر اليهودي على اقتصاد العالم ، فاليهود لا يريدون أن يكونوا حكاماً قبل أن يكونوا أصحاب رؤوس الأموال ؛ لأن الحرص يذل أعناق الرجال ، فاليهود من وصاياهم أن يكونوا تجاراً وأطباء ومهندسين، ليجمعوا الأموال باستغلال الملاك وأموالهم، فإذا ما أصبحت كل الثروة المالية للعالم في أيديهم - كما يظنون - أمكنهم أن يكونوا الحكام على هذا العالم ، وأنى لهم هذا ، والله لطيف خبير، وحكمته سبحانه وتعالى قضت على اليهود بسبب إمعانهم المعيب في جمع الأموال أن حرم عليهم طيبات ما أحلت لهم ، قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا

(١) محمد خليفة التونسي ، بروتوكولات حكماء صهيون . ص ١٣٨ .

لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [١].

والنظام الاقتصادي العالمي اليوم وما قبله يقوم على أكل أموال الناس بالباطل، وهدر أموال الشعوب، وفرض الضرائب الباهظة، والعوائد الربوية الفاحشه، واستخدام نظام التأمين، وغير ذلك، لمحاربة الزكاة والصدقه وغير ذلك من النظام المالي في الإسلام.

٦ ـ كيد اليهود : غدر وجبن :

من المعلوم أن الشجاعة من طباع أناس أُوتُوا عزيمة على رشد، وشكيمة في الأمر، وثباتاً على الحق، وذوداً عنه، وإقداماً إلى الفضل ومكارم الأخلاق وحسن العمل، وهذه الصفات نادرة عند اليهود، إن لم نقل معدومة، لوجود ضدها. ذلك أنه إذا كانت قلوب اليهود خلواً من صفات الخير، فلا بد أن يملأ فراغ قلوبهم شيء بديل، فكان الجبن والغدر والمكر وسوء الخلق، لذا فقد ضرب الله عليهم غضباً وذلة ومسكنة، طباعاً ظاهرة في نفوس اليهود وسلوكهم، لا يستطيعون مقابلة أهل الحق برباطة جأش وإذعان وقوة وعزم، لما يخالج نفوسهم من الخور والهوان وسوء الطوية، القائم على الجبن والغدر، ويمكرون ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

واليهود بذلك هم أهل جريمة، فقد قتلوا الرجال والنساء والولدان، ومثلوا بهم في فلسطين وغيرها، مما يشهد به التاريخ من أحداث في مختلف العصور، وما صدع فيهم نبي يدعوهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم إلا

---

(١) سورة النساء، الآيتان ١٦٠ ـ ١٦١.

عزموا على قتله فقتل من قتل، ونجا من نجا ، وخلق اليهود الإجرامي القائم على سفك الدماء والبطش والقتل خلق متوارث، ولقد أشار المفكر غوستاف لوبون إلى ذلك بقوله : «إن تاريخ اليهود الكئيب لم يكن غير قصة لضروب المنكرات ، فمن حديث الأسارى الذين كانوا ينشرون بالمنشار أحياء أو الذين كانوا يشوون في الأفران ، فإلى حديث الملكات اللائي كن يطرحن لتأكلهن الكلاب ، فإلى حديث سكان المدن الذين يذبحون من غير تفريق بين الرجال والنساء والشيب والولدان»(١) .

ويؤكد القرآن الكريم أن خصيصة القتل عند اليهود من أظهر جرائمهم، خصوصاً مع الأنبياء ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾(٢) .

وفيما يتعلق بمسألة جبن اليهود، فقد عقد غوستاف لوبون مقارنة تظهر اليهود مع حقيقة العربي المسلم والقياس مع الفارق، فيقول : «ولا جرم أن الشبه قليل بين العربي أيام حضارته، واليهودي الذي عرف منذ قرون بالنفاق والجبن والبخل والطمع، وإن من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي، وكيف لا يكون من الإهانة للعربي أن يقاس باليهودي وتاريخ اليهود الكئيب لم يكن غير قصة لضروب المنكرات، وأنه لا أثر للرحمة في

(١) غوستاف لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآيه ٧٠ .

وحشية اليهود مع أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»[(١)].

بل ويذهب غوستاف لوبون لتوضيح جبن اليهود وخوفهم وعدم شجاعتهم بقوله: «وبنو إسرائيل إذا كانوا جبناء خوفاً بطبيعتهم، لم يبدوا مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعماؤهم وأنبياؤهم فيهم من حماسة مؤقتة»[(٢)]. فإذا كان الجبن والجشع والطمع والبخل من طباع اليهود وخصائصهم، فإنما مردّ ذلك المعصية والذنب والفسق والاعتداء على حدود الله وشرائعه، ولا أدل على خذلانهم وجبنهم مما كان من موقفهم مع موسىٰ عليه السلام، حال ما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، كما جاء في قوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ

(١) غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولىٰ، ص ١١.

(٢) المرجع السابق.

﴿٢٤﴾ ﴾(١).

هذا هو منطق يهود الأمس، وهو منطق يهود اليوم، منطق الجبن والتراجع، القائم على ضعف الإيمان واليقين في الخوف من الجبارين، وعدم الخوف من قاصم الجبارين ، فاليهود بجملتهم جبناء، عدا من خاف منهم من الله سبحانه وتعالى مثل الرجلين اللذين ينعمان بالإيمان بالله والخوف منه، وعلمهم بأن الله لا يجمع في قلوب المؤمنين مخافتين مخافته؛ جل وعلا، ومخافة الناس، بل هي مخافته وحده سبحانه وتعالى، فلا داعي للخور والتخاذل والجبن ، وهذا ما يقال عنه : «قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب »(٢). ولكن هذا حال اليهود في منطقهم الذي ينبئ عن وقاحة العاجز، الذي لا يتكلم إلا بوقاحة اللسان، وليس منطق العزم والهمة، الذي يكلفه النهوض وخز السنان ، لقد دفع اليهود الصليبيين إلى ساحات المعارك في فلسطين، يمولونهم بالأموال لينتفعوا بالربا ويرون المسلمين والنصارى (الأغيار الأميين) يقتتلون، فيموت من يموت. فهم في موقف المتفرج الكاسب يقل عدد الاعداء من نصارى ومسلمين، وكاسبون للفوائد الربوية التي دفعت الأموال أجلها لتجهيز الحملات الصليبية .

هكذا كان اليهود وسيظلون، تعيش في قلوبهم وضمائرهم الذلة والمسكنة والجبن، ولا يشعرون بالأمن والطمأنينة وما شعروا بها إلا أن

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٢٠-٢٤ .

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، ط٧، ١٣٩١هـ ١٩٧١م. جـ١ ص ٤٧ .

يعصمهم الله في ذمته . وعندما كانوا في ذمة المسلمين في المدينة المنورة مثلاً، فقد عاملهم المسلمون بالحسنىٰ، ودفعوا عنهم الاضطهاد والبلاء، وشعروا بالأمن . ومع هذا، فإن اليهود لم يعادوا أحداً كعدائهم للإسلام والمسلمين . ولا غرابة في ذلك، فإن اليهود أهل جحود ونكران لصنائع المعروف ، وأهل غدر ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد، وفضحهم في قوله تعالىٰ :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[1] .

ومن الملاحظ أن طباع الجبن عند اليهود ، وكذلك طباع الغدر، دفعت بهم إلىٰ أن يكونوا من المفسدين والمجرمين في الأرض، بدءاً من قتل رسل الله وأنبيائه، وتحريف كلام الله وشرائعه سيراً إلىٰ أنواع كثيرة من أكل أموال الناس بالباطل، والبغي بالأميين والأغيار، وقتلهم، ونشر الرذائل والفساد بينهم، وبث الأفكار والتيارات الهدامة والسلوك المنحرف، بقصد امتهان الشعوب والأمم، واستعمارهم بشتىٰ وسائل الطغيان والجبروت، وما يملكون من قوىٰ إعلامية واقتصادية وسياسية، وإلىٰ هذا يشير المفكر الإسلامي محمد قطب بقوله : « إن النفوس تخضع لجبروت الطغيان خوفاً وطمعاً في أول الأمر ؛ لأن الطغاة يحمون جبروتهم بشتىٰ وسائل الحماية من

(١) سورة المائدة ، الآيه ١٣ .

ترغيب وترهيب . . . ثم تتبلد النفوس من جهة ، ويأخذ فترة تطول أو تقصر الطغيان صورة الأمر الواقع من جهة أخرىٰ، فيستقر في الأرض ، معها يتخيل الطغاة فيها أنهم باقون أبداً ، مسيطرون أبداً ، لا يمكن زحزحتهم ولا تبديل الأحوال التي مكنت لهم في الأرض (١). هذا ظن الذين كفروا ، ولكن الله تعهد بأن يجعل اليهود في سوء العذاب مادامت السماوات والأرض ، عذاباً نفسياً وجسمياً ، عذاب القلق ، وعدم الطمأنينة والأمن، مهما ملكوا من أسباب الحياة ما يمكن لهم فهذا عهده سبحانه وتعالىٰ إذ يقول :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (٢).

٧ـ اليهود والجريمة :

إن صلة اليهود بالجريمة والفساد في هذه الحياة الدنيا صلة وشيجة . أظهرتها الكتب المقدسة؛ التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وذكرتها أحداث التاريخ، وكتب الأحداث والسير والأخبار، عصوا موسىٰ، وخالفوا أمر ربهم ، حاولوا قتل عيسىٰ وصلبه ، وعملوا علىٰ تشكيك الناس في نبوءة محمد ﷺ ، بل حاولوا قتله بأن دسوا له السم في الطعام، فإذا قد وقر في قلوب اليهود عدم المهابة من الله سبحانه وتعالىٰ ومن رسله عليهم السلام،

(١) محمد قطب ، مذاهب فكرية معاصرة ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ، ص٧٧ .

(٢)سورة الأعراف ، الآيه ١٦٧ .

فقد سهل عليهم ألا يهابوا من هو دونهم، فمات الإحساس في قلوب اليهود بمعرفة الحق والصواب.

وجريمة اليهود مع النصارى يمكن أن ترى في محاولتهم قتل نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. لقد تآمر اليهود على هذا النبي كلمة الله وروحه؛ لأنه صرح بالنبوة مسفّهاً أحلام اليهود، وفاضحاً لخططهم وأساليبهم الملتوية، وقرر اليهود إعدام النبي الجديد عيسى ابن مريم، فأشاروا على الحاكم الروماني بيلاطس النبطي أن ينفذ حكم الإعدام صلباً بهذا الذي يدعي النبوة، ويحرض عليك الشعب، وهو لا يعترف باليهود وتعاليمهم. ومنذ ذلك الحين والجرائم اليهودية تلاحق النصارى أتباع المسيح ابن مريم عليه السلام [١].

ومن المعلوم أنه لا فساد ولا جريمة أكبر من إفساد العقائد وفسادها، ومحاربة الله ومحادته كفراً به وبرسله وبوحدانيته وبنعمه وفضله، وجحوداً لشرائعه، وتبديلاً لكلمه، وتحريفاً لكتبه، وما يقع من ذلك من انحرافات السلوك وشذوذه، وتقويض الأخلاق، ونشر الرذيلة من بغي ومنكر وفجور ومجون، وإشعال نيران الحرب، فما ذكر في الكتب المقدسة، وأصدقها القرآن الكريم، الذي حفظه الله من عبث العابثين، وماجاء في كتب التاريخ، وأقوال المفكرين عن اليهود، لينطبق على اليهود في مسألة جرائمهم جملة وتفصيلاً، خصوصاً في عصرنا الحالي، كما نعرض لذلك

(١) عبدالله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ص ٢٩-٣١.

فيما يأتي ، ذلك أن اليهود لم يكونوا يتورعون عن الآثام وإفساد الآخرين بشتى السبل ، من مكر وخداع وتلبيس وتدليس وسلب وامتهان ، بهذا كله أجمل القرآن الكريم مسألة فساد اليهود وحقيقة جرائمهم ، بحبهم للمال ، وبخلهم به ، وسلبهم له من الآخرين ، وبولعهم بإثارة الفتن والثورات ، وإشعال نيران الحرب بكل أنواع الفساد ، إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) ﴾ [١] .

وماجرائم اليهود بخافية على أحد ، يتقدمها مسألة الافتراء على الله وحدوده ، وتحريف كلامه وشرائعه سبحانه وتعالى ، ووصفه بما لا يليق به سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ومن جرائم اليهود : مسألة القتل للنفوس الطاهرة الزكية التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى ، أي قتل الأنبياء والرسل ، فهم يقتلون أي رسول أو نبي لا يوافق هواهم ، ويسير وفق رغباتهم ، لذا ، فإن من يقتل أمثال هذه النفوس الزكية الطيبة الطاهرة ، ويجرؤ على ذلك يهون عنده قتل الأنفس التي هي دون ذلك من أبرياء الخلق ، الذين لم يعتدوا ولم يقترفوا ذنباً ، بل

(١) سورة المائدة ، الآيه ٦٤ .

يأمرون بالحق وإظهاره ، وهذا معلوم عند الناس جميعاً على مر العصور والأزمان . وقد بين الكتاب العزيز حقيقة اليهود ومسألة قتلهم الأنبياء والرسل وأهل الحق من عامة الناس، فقال جل وعلا :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[1] .

ولعل مما يمكن ذكره عن قتل الناس في المدن تلك الأحداث التي مارس فيها اليهود القتل للأبرياء بكل ضراوة وعنف وجبروت وقسوة، أعني مذابح اليهود في فلسطين لأبناء الأمة الإسلامية التي كانت بتأييد من بريطانيا ابتداءً من وعد بلفور وما تلا ذلك من قرارات ، ومنها قرار اللجنة التنفيذية العامة لمؤتمر حزب العمال في عام ١٩٤٤م، الذي أكد على تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، وإخراج سكانها العرب ، فهذا هيأ الأسباب لدى اليهود، فدفعت بهم طباعهم القاتلة إلى ارتكاب أفظع جرائم القتل، منها مذبحة دير ياسين في عام ١٩٤٨م، التي راح ضحيتها مائتان وخمسون إنساناً، بقرت بطون خمس وعشرين امرأة حاملاً ، واثنان وخمسون طفلاً قُطعت أوصالهم أمام أمهاتهم ، ومثلوا بستين امرأة وفتاة . وفي عام١٩٥٣م، كانت مذبحة قرية قبية، وقد دمر فيها أربعون منزلاً ، وقتل اثنان وأربعون شخصاً بين رجلٍ وامرأة وطفل، وسرقت عدد من الحيوانات . ولاينسى التاريخ المذابح الأخرى التي جرت في كفر قاسم ، وحيفا ، وقرية ناصر

(١) سورة آل عمران ، الآيه ٢١ .

الدين بالقرب من طبرية ، وماحدث في قرى بئر السبع وعسلوج، حيث وجدت عشرات الجثث للشباب بلا رؤوس وقطعت أيديهم وأرجلهم [(١)].

وهل نسي التاريخ قصة مقتل الأب توما عام ١٨٤٠م في دمشق، والتي أثبتها التاريخ بعد تحقيق السلطة الفرنسية ، وثبوت التهمة ضد المتهمين من اليهود، وهم يزيدون على ستة عشر شخصاً [(٢)] . ولا يزال يذكر التاريخ قصة مقتل اللورد موين وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط في القاهرة ، وكذلك قصة مقتل الكونت برنادوت السويدي [(٣)]، وكذلك قصة مقتل الأب أي بي براناتيس، الذي لقي مصرعه على أيدي اليهود إبان الثورة البلشفية الروسية عام ١٩١٧م [(٤)]، وهو مشهور بكتابه «فضح التلمود»، حيث أوضح فيه حقيقة تعاليم الحاخامين السرية، ولا ينسى التاريخ قصة مقتل كيندي . . إلخ من ضحايا الأيدي اليهودية العابثة والصهيونية المدمرة .

ويمكننا أن نتحدث بعد ذلك عن نوع آخر من القتل وجرائم اليهود، ونستلهم ذلك من قوله سبحانه وتعالى عن اليهود : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [(٥)].

فمن المعلوم أن الحرب وأوزارها سبيل للدمار والهلاك وإزهاق

---

(١) عبد المنصف محمود ، اليهود والجريمة ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) ج . روهلنج ، الكنز المرصود في قواعد التلمود ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٣) عبدالمنصف محمود ، اليهود والجريمة ، ص ٧ ، ٤١ .

(٤) آي بي ، براناتيس ، فضح التلمود وتعاليم الحاخامين السرية ، ص ١٥٥ .

(٥) سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

للأرواح ، لا يُحمي نارها إلا مجرم جبلت نفسه على سفك الدماء وقتل الأنفس ، وهذا هو ديدن اليهود ، هذا الشعب المميز والمختار لمثل هذه الفتن، فلم يكن لليهود شأن إلا إشعال الفتن وبثها بين الشعوب مثل الحروب الصليبية . وما نراه في عصرنا الحاضر من الحروب الأهلية، والانقلابات السياسية، والصراعات العقدية والفكرية، ما هو إلا بما تدبره يد التخريب اليهودي ، وما حروب التتار وما تلا ذلك في العصر الحديث من استعمار للبلاد الإسلامية ، وماكان من مغامرات واضطهاد للمسلمين في بلدانهم إلا من تدبير اليهود، الذين أثاروا ويثيرون الشحناء والحقد بين المسلمين والصليبيين . وهيهات أن يتوقف اليهود عن إشعال الحروب ، وهم في صراع مستمر بما نراه ممثلاً فيما بين إسرائيل والدول العربية والإسلامية ، وما كان من أحداث خلال أعوام ١٩٤٨م ، و١٩٦٧م ، و١٩٧٣م، وخلال عام ١٩٨٨م حين كتابة هذا السفر، وما تخلله من الانتفاضة القائمة في فلسطين ، وما هو حاصل في لبنان، وما يتبع من ذلك من إشعال نار فتنة الثورة الإيرانية، وتحريك النزعة المجوسية لدى الفرس وملاحدة الكفر والطغيان، بقصد إثارة الفتن وضراوة الحروب، وإفساد حياة السلام والإسلام .

وهكذا، فقد «أثبتت الحوادث والحروب القديمة أن مضرمي نارها إنما هم اليهود ليغنموا من ورائها المال والثراء، ويشفوا صدورهم من الأحقاد، وذلك أنهم في كل بلاد يقيمون فيها يرسمون سياستها في هدوء وتدبير

وصبر وأناة، حتىٰ إذا تمت لهم السيطرة عليها، فرضوا سلطانهم علىٰ الحكومات ، واستولوا علىٰ ناصية الأمور فيها، وأمكنهم أن يحولوها ذات اليمين وذات اليسار ، وتدخلوا في شؤون الدولة سياسياً أو حربياً أو اجتماعياً، كما أرادوا لخطتهم في البلاد الأوروبية، وفي أمريكا، وفي غيرها.

ونجد أنه بعد الحرب العالمية الأولىٰ استطاع اليهود الحصول علىٰ وعد بلفور ، وبعد الحرب العالمية الثانية أمكنهم بمعرفة بريطانيا خلق إسرائيل ، فهل كانت هذه محض مصادفة [1]. ويعمل اليهود علىٰ محاربة الألمان بجميع الوسائل روحياً ومادياً والقضاء علىٰ ألمانيا والألمان ، ولو عن طريق الإبادة والعقم، وهو حلم اليهود الأول ، كما يحاولون القضاء علىٰ عرب فلسطين والمسلمين بها بالحرب والقتل، ونشر الغازات السامة، والأطعمة المسمومة، والأدوية الفاسدة ، فكل هذه الحروب تبين أن اليهود يسفكون الدماء ويعشقون الحروب .

ومن المعلوم أنه في الاجتماع الصهيوني الذي عقد في بودابست عام ١٩٤٥ م ألقىٰ الحاخام عمانويل رابينوفتش خطاباً يؤكد علىٰ أهمية الحروب لبقاء اليهود، الذين ينادون بإشعال حرب عالمية ثالثة، وتحريض الولايات المتحدة الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتي ، واعتبار زعماء الدولتين مجرمي

(١) عبد المنصف محمود ، اليهود والجريمة ، ص ١٩١ .

حرب، ومن ثم القضاء على الأجناس غير الإسرائيلية[١] .

ومع هذه الحقائق البينة، نجد أن اليهود يلقون الاحترام والتقدير من الدول العظمى، ولا أدل على ذلك مما ذكره الفرد ليلنثال عن أمريكا وموقفها من مناحيم بيغن حيث يقول : «وقد قوبل مناحيم بيغن بالحماس والتأييد للأعمال «الباهرة» التي قام بها في فلسطين، من نسف فندق الملك داود بما فيه من النزلاء والخدم والأبرياء، إلى وضع قنبلة موقوتة تحت مبنى القنصلية البريطانية، إلى شنق عدد من الجنود البريطانيين، إلى ذبح النساء العربيات والأطفال في دير ياسين، وعلى الرغم من كل هذه الأعمال الوحشية، ظل بيغن بالنسبة للجنة الاستقبال الأمريكية التي أقامت على شرفه حفلة استقبال فاخرة، بطل إسرائيل، والمرشح الوحيد لتولي رئاسة الحكومة في الدولة اليهودية»[٢] .

ويتبع القتل المادي للأرواح والأجساد، القتل المعنوي للنفوس، وذلك عن طريق أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل، إذ لم تشتهر أمة من الأمم كما اشتهر اليهود بولعهم بالمادة، ومحاولتهم الثراء بكل الصور، ومنها الربا الفاحش، الذي يفرضونه على من يقترض منهم المال وهو في حاجة وعوز.

ولقد أوضح الإسلام النظام السليم للاقتصاد الذي يقوم عليه المجتمع

(١)المرجع السابق، ص٣٠٩ .

(٢)ألفرد ليلينثال، ثمن إسرائيل، ص ١٠٧ .

المسلم، وما يضمنه من تكافل وتعاون، ممثلاً في الزكاة المفروضة، وهي ركن من أركان الإسلام، بدونها لا يكتمل إسلام مسلم، وأيضاً الصدقات المستحبة المندوبة لتكفير الخطايا، وكذلك نظام دفع القروض دون مقابل، فالصدقة بعشر حسنات، والقروض بثماني عشرة حسنة، والقرض يدفع للمقترض بقصد طلب الأجر والاحتساب عند الله؛ لأن الأعمال الصالحة تربو. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[1]. والأعمال الباطلة تمحق، فالله يمحق الربا ويربي الصدقات، ذلك لأن الربا يقتل النفوس ويحبطها، ويثبطها عن العمل والحياة، ويثيرها للانتقام، ويجعلها مكاناً للأحقاد، والربا شح وقذارة ودنس أثره سيئ، والله سبحانه وتعالىٰ لم يأمر بأمر فيه إعلان الحرب علىٰ معصية من المعاصي، ولا علىٰ سيئة من السيئات، كما أمر به في حالة الربا، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[2].

إن المرابين من اليهود لا يملكون المال وحده، بل معه النفوذ وأدوات الشر، والتخريب الاقتصادي والأخلاقي، وهذا النفوذ الذي يملكه اليهود

(١) سورة الروم، الآيه ٣٩.

(٢) سورة البقرة، الآيتان ٢٧٨-٢٧٩.

في عصرنا الحاضر يتمثل في إنشاء المشروعات التي تمكنهم من زيادة الاستغلال لأموال الناس ، ويقولون بأن الربا هو النظام الطبيعي المعقول لانتعاش الاقتصاد الإنساني ونموه. وفي الحقيقة إن النظام الربوي يجعل أموال الشعوب، ومقتنيات الإنسان وممتلكاته صائرة إلىٰ عدد قليل من المرابين من أصحاب البنوك والمؤسسات الكبرىٰ، التي يمتلكها اليهود. وهم بهذا إنما ينبئون بخصلة من خصالهم ، وهي إفقار الشعوب، وتركها للجوع والمعاناة والموت ؛ لأنهم جعلوا الحلال مثل الحرام ، فيقولون: إن البييع مثل الربا، وشتان بينهما ، ولعل إفقار الشعوب سياسة ينهجها اليهود لإذلال الناس ، وهذا حال بعض الدول الإسلامية التي تركت جادة الصواب، فهلكت وأهلكت الأمم والشعوب ، يقول غوستاف لوبون : «وكان الربا محرماً بشدة بين بني إسرائيل، مع أنهم كانوا يرونه مباحاً تجاه الأجانب في كل زمن، وكان مبدأ التضامن القومي الزاجر القوي الوحيد الذي يضع حداً لجشع اليهودي»[١] .

وإذا ما انتقلنا للحديث عن أم الخبائث الخمر ، وما يلحق بها من مسائل المسكرات والمخدرات ، ومن ثم مسألة الجنس، نجد أن لليهود اليد الأولىٰ والطولىٰ . فهم يعمدون للعبث بأخلاق الشعوب، ونشر الانحرافات فيها، فالخمر مذهلة للعقل، مذهبة للصحة، مضيعة للوقت، فهي هلاك للمال وتدمير للسلامة والأمن، وهكذا الكيد من اليهود قديم ، فقد كانوا متسلطين

---

(١) غوستاف لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارة الأولىٰ ، ص ٤٨ .

على العرب قبل الاسلام ، وكانوا ينشرون الخمر بينهم ، فيفسدونهم ويأكلون أموالهم ، يدلنا على ذلك الشعر الجاهلي ، إذ من الملاحظ أن الخمّار غالباً ما يكون يهودياً ، يأتي بالخمر من بلاد العجم كما قال المرقش الأصغر :

سباها رجال من يهود بتاعددا   لجيلان يدينها من السوق مربح[1]

ولما علم اليهود أن الخمر رجس تذهب العقول، وتضع الإنسان في موضع يتصرف فيه بغير وعي أوشعور، وما يترتب عليه من نتائج ، أمعن اليهود في نشر الحانات في كل شارع وطريق في أوروبا وأمريكا، فكما أشاعوا نشر البنوك لتقوية سلطان الربا، عملوا على نشرالحانات لتقوية سلطان الذهول والخمول ، ففسد الناس وأصبحت الحكومات تعاني من المدمنين للخمر والمسكرات والمخدرات ، وفتحت أقسام متخصصة في المستشفيات لعلاج هؤلاء الناس مما وقعوا فيه من شباك اليهود، الذين يعمدون للقضاء على الجنس البشري من غيراليهود، والجشع اليهودي لطلب المال، دفعهم إلى ترويج المخدرات للفتك بالناس في صحتهم وأموالهم. نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها ذي الرقم ٤٩١١ تاريخ ٩/ ٥/ ١٩٩٢ مقالاً مطولاً بعنوان (عسكريون وحاخامات متورطون في التهريب ٧٠٠ طن مخدرات تدخل مصر سنوياً من إسرائيل والتطبيع السياحي أصبح ستاراً لشبكات تجسس) ، بل وأوقع اليهود الناس في نزوات الجنس وما تبع ذلك

(١) انظر المفضليات ص ٢٤٢ وسباها : اشتراها ، وجيلان : بلد من بلاد العجم.

من انتشار الأمراض الخبيثة . يقول هنري فورد : «وليس الموضوع المهم هو أن تجارة الخمور في أيدي اليهود فحسب ، وإنما تقوم تلك الأهمية في ذلك الجهاز الشرير الذي انتشر في طول البلاد وعرضها ، والذي يعمل علىٰ غش الخمور ، محطماً صناعتها في البلاد ، ومدمراً مئات الألوف من المواطنين الذين وثقوا بالأسماء المشهورة التي تحملها المنتجات الصادرة عن هذا الجهاز والتي كتب عليها «نقية وغير مغشوشة» ، ونحن نقول : إنها حقا «نقية وغير مغشوشة» ، ولكن حامض الفنيك أيضاً « نقي وغير مغشوش ، وذلك لا يحيله إلىٰ ويسكي» [١] .

فالواضح أن اليهود يقومون بإضافة بعض العقاقير والمستحضرات الكحولية والكيميائية ، وقد اكتشف هذا الأمر الدكتور وسلي رئيس مكتب الكيمياء بأمريكا عام ١٩٠٤ م [٢] . أي جريمة أفظع من هذه الجريمة ، وأي رذيلة أفسد من هذه الرذيلة .

إن اليهود لم يقفوا عند هذا الحد ، بل فتحوا أبواباً أخرىٰ تندرج تحت باب المسكرات والمخدرات ، تلك هي مسألة الجنس ونزواته ، فلقد أقيمت دور البغاء والدعارة والعهر ، وانتشرت وسائل الإعلام الفاسدة . انتشرت رذيلة الجنس من مجلات مطبوعة وأشرطة مسموعة ، وأفلام مرئية ، تصور الجنس وتدعو إليه وإلىٰ الفساد ، مع أن الزنا محرم في شريعة اليهود

(١) هنري فورد ، اليهودي العالمي ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

(٢)المرجع السابق .

السليمة، إلا أنهم تعدوا حدود الله، فلقد كان سفاح ذوي القربى - أي الزنا بالأخت والزنا بالأم - واللواط والسحاق، ومواقعة البهائم من أكثر الآثام التي كانت شائعة بين ذلك الشعب[1].

إن تاريخ المعصية ونشر الرذيلة والفساد قديم عند بني إسرائيل، فهم لا ينكرونه على أنفسهم، فمن باب أولى ألا ينكروه على غيرهم، بل يدفعون غيرهم إليه دفعاً، يقول سبحانه وتعالى في وصف اليهود في هذا الأمر:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2].

لقد أذاعوا معتقداتهم الفاسدة حول مسألة الجنس بين الأمم والشعوب، فمنها: أن اليهودي لا يخطئ إذا اعتدى على عرض الأجنبية؛ لأن عقود الزواج عند غير اليهود عقود فاسدة، والمرأة غير اليهودية بهيمة، ولا تعاقد مع البهائم، والزنا بغير اليهود ذكوراً وإناثاً لا عقاب عليه، وجماع الوليدة من أبواب الحكمة، واللواط بالزوجة جائز؛ لأن المرأة للاستمتاع، وللرجل أن يستمتع بها كيف شاء[3]. وهكذا أذاع اليهود هذا الشر والفساد بين الأمم، كما نجد ذلك في كبرى عواصم الدول الغربية والشرقية، ولا أدل

(١) غوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارة الأولى، ص ٥١.

(٢) سورة المائدة، الآيتان ٧٨-٧٩.

(٣) صبري جرجس، التراث اليهودي والصهيوني، ص ١٠٠-١٠١.

علىٰ ذلك مما يجده القارئ البصير في ثنايا البروتوكول الثالث عشر الذي يعمد إلىٰ الحيلولة دون قيام غير اليهود بأي تفكير حقيقي نابع عن ذاتهم، بتوجيه اهتماماتهم نحو اللهو والألعاب والتسلية والإثارة الجنسية . . . إلخ .

وأخيراً، فإن من جرائم اليهود المعلومة مسألة السحر، وما انطوت عليه تعاليم الكابالا السرية في شرائع العبرية، يوضح حقيقة أخرىٰ عن اليهود في موالاتهم للشياطين والتوسل إليهم ، بل وعبادتهم واتباعهم الذي بموجبه يقومون بإيذاء الناس والشعوب ، وأكبر دليل علىٰ ذلك ما قالت به تعاليم الكابالا في تقويض سلطة الكنيسة في أوروبا خلال العصور الوسطىٰ، وماصاغه اليهودي إسحاق لوريا.مؤسس مدرسة الكابالا من أفكار وتعاليم، وحاول إدخالها الكنيسة ، وهذه التعاليم كانت متصلة بالشعوذة والطلاسم وأنواع من الأرقام والحروف ، وكان المعروف أن اليهود في أوروبا عادة مايلجأ إليهم في تأدية الشؤون السحرية، كما يقول الكاتب الفرنسي فولتير مما نقله عفيف طبارة[١] .

واليهود يؤمنون بالسحر، ويعملون به لتسخير الأرواح والناس كي يقوموا بأداء مايُطلب منهم ، وما أوروبا وأمريكا في عدائها للإسلام بغير وجه حق إلا لأنها واقعة تحت تأثير الفكر السحري اليهودي الصيهوني من

---

(١) عفيف عبد الفتاح طبارة ، اليهود في القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٥٠.

ناحية، وتحت سيطرة الفكر الصليبي من ناحية أخرىٰ ، ويجدر بنا أن نورد وصف القرآن الكريم لليهود والسحر في قوله جلّ وعلا :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾(١) .

وهم ـ أي اليهود ـ بإيمانهم بالسحر وعملهم به كفروا ؛ لأن السحر يصرف عن عبادة الله سبحانه وتعالىٰ ؛ لأنه من الشرك .

وهكذا يتضح جلياً ماهي عليه طباع اليهود، وماهو حقيقة سلوكهم من جرائم وقتل وحرب وأكل الربا، ونشر الزنا، وعمل السحر بهذه الخلال الإجراميه أنكروا تحريم شرب الخمر في الإسلام ، وأنكروا التعدد، وأنكروا العفة والعفاف عند المسلمين، وكرهوا تكاثر المسلمين في النسل، فصور ذلك كله علىٰ أنه وجوه من الباطل في الإسلام، الذي يحرم الإنسان من الملذات، فهاجم الأدباء الإنجليز الإسلام والمسلمين .

٨ ـ المسلمون واليهود :

قبل الحديث عن علاقة المسلمين باليهود في التاريخ منذ أن صدع النبي محمد ﷺ بالدعوة إلىٰ الإسلام، يجدر بنا أن نقدم إلمامة مختصرة عن علاقة اليهود بالأمم الأخرىٰ لتمهيد السبيل إلىٰ ماسيأتي بعد ذلك .

فمن المعلوم أن بني إسرائيل من الأمم السامية ، ومنها العرب والآشوريون، ويظن أن بلاد العرب الوسطىٰ والشمالية كانت مهد

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .

الساميين، وكان بعض الساميين ، ومنهم العبريون الذين هم أصل اليهود هاجروا إلىٰ الشمال، حيث بلاد بابل، وظهور حضارة السومريين أو الساميين والأكاديين . أما الساميون الذين بقوا في بلاد العرب، فهم أجداد الشعوب العربية، بينما الساميون اللذين هاجروا إلىٰ الشمال، فمنهم بنو إسرائيل [١]، الذين كانوا أشتاتاً وعصابات وشذاذ آفاق لاتنسجم مع الأمم الأخرىٰ ، ومن هذه العصابات الأدوميون والعمونيون والإسماعيليون. وحين وقع القحط، دخل يعقوب عليه السلام مصر في عهد الملوك، وأقام بالدلتا، وكثر عدد اليهود، فاستعبدهم المصريون إلىٰ أن فرّوا من العبودية، وخلّصهم المولىٰ سبحانه وتعالىٰ.

ويُلاحظ أنه في عام ٢٠٣ قبل الميلاد كان اليهود تحت حكم ملوك سوريا السلوسيديين أو السلوقيين، الذين أثقلوا كاهل اليهود بالضرائب، واضطهدوهم من أجل تعاليم دينهم المحرفة، ومن أجل سوء طويتهم وسلوكهم غير السوي . ولقد قام بومبية الملك الروماني بالاستيلاء علىٰ مملكة يهوذا ، وجعلها إقليماً رومانياً ، ولكن اليهود في عام ٧٠ بعد الميلاد ثاروا علىٰ الرومان الذين قاموا بدورهم بالاستيلاء علىٰ أورشليم، وحرق معبد اليهود، وذبح معظمهم ، هكذا كان شأن اليهود تحت سيطرة الأمم الأخرىٰ في التاريخ القديم.

والمتتبع لأحداث التاريخ في أوروبا التي تغفل اليوم عن اليهود، يجد

---

(١) غوستاف لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارة الأولىٰ ، ص ٢٥-٢٦ .

أنه في عام ١٢٩٠م طرد الملك إدوارد اليهود من إنجلترا ، كما أنه بعد حوالي ستة عشر عاماً قام الملك فيليب بطرد اليهود من فرنسا، ولم يعودوا إليها إلا عام ١٣٩٤ م، وبأعداد قليلة جداً، كما أن اليهود طردوا من المجر سنة ١٣٦٠ م، وفي بلجيكا طرد اليهود عام ١٣٧٠ م، وكذلك شرد اليهود من تشيكوسولفاكيا عام ١٣٨٠ م، من مدينة براغ ، ثم عادوا فاستوطنوها عام ١٥٦٢ م، ولكن الإمبراطورة ماريا تيريزا عادت فطردتهم عام ١٧٤٤ م، وطرد اليهود أيضاً من النمسا عام ١٤٢٠ م، ومن هولندا عام ١٤٤٤ م ، ومن إيطاليا من مملكة نابولي وسردينيا عام ١٥٤٠م. أما في ألمانيا فقد نفوا من بافاريا عام ١٥٥١ م، وكثر اضطهادهم على أيدي النازيين خلال الحرب العالمية الثانية ، كما أنهم طردوا من روسيا عام ١٥١٠ م [١].

هكذا كان مصير اليهود في أوروبا : الطرد والنفي والتشريد والإبعاد والاضطهاد ، ولعل سائلاً يسأل : ماهي الأسباب التي تجعل معظم الأمم تفعل ذلك باليهود ؟ لقد أجاب القرآن الكريم على هذا السؤال بأن الله ضرب عليهم الذلّة والمسكنة حيثما حلّوا ونزلوا؛ بسبب عنادهم وتمحلهم، وقتلهم الأنبياء والأبرياء، وتحريفهم الكلم عن مواضعه. ولقد أدركت بعض الشعوب شيئاً من خلال اليهود وطباعهم وصفاتهم، التي فصّلها القرآن الكريم ، فاليهود لايستطيعون معاشرة الشعوب الأخرى ، لشعورهم بالاستعلاء على غيرهم ، ولاستباحتهم أعراض الناس وأموالهم، والسعي

(١) ويليام غاي كار ، أحجار على رقعة الشطرنج ، ص ٥٧-٧٣.

فـــي الأرض فساداً وإجراماً، هذا ما لاحظته الأمم الأوروبية حين استوطن اليهود بلدانها .

وعندما أحس اليهود بالخطر المحدق بهم من الأمم الأخرىٰ، نتيجة ما تعرضوا له من الطرد والامتهان، أعادوا النظر في سياستهم وسلوكهم، فعملوا علىٰ تحسين علاقاتهم مع الأمم النصرانية بقصد مناوأة الإسلام، وإثارة الحقد الدفين لدىٰ الصليبيين في أوروبا وأمريكا، وبالتالي تحويل النظر عنهم، وتوجيهه إلىٰ الإسلام؛ ليتمكن اليهود من العمل في الخفاء للقضاء علىٰ البشرية جمعاء ، فخضع اليهود للحكم الغربي شيئاً فشيئاً بتمسكن وخضوع ، ولكنهم كانوا يرسمون ويخططون قواعد النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والتعليمية، التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، فاستمرأت شعوب أوروبا وأمريكا نظريات ماركس وكونت وفرويد وشاتوبريان وغيرهم ، وظهرت الثورة الصناعية والثورة الفرنسيـة، والثـورة البلشفية، والنظريـات العلمانيـة، واستعرت نيـران الحربين الكبيرتين . . . إلخ .

ولقد علم اليهود أن مثل هذه النظريات والثورات لا تلقىٰ قبولاً لدىٰ الأمة المسلمة، لمخالفتها لروح الدين الإسلامي وتعاليمه . فعملوا جاهدين علىٰ إثارة الكرّة لحروب صليبية جديدة، في وقت كان المسلمون في سبات عميق، وضعف تام، وكانوا كغثاء السيل ، فظهر الاستعمار الذي أفسد البلاد الإسلامية ، وأجهز علىٰ خيراتها، وأثقل كاهل الأمة الإسلامية في

بعض البلدان بالديون، وأدخل النظام الربوي ، وانشق المسلمون إلىٰ فئات تنادي بالشيوعية تارة ، وبالاشتراكية تارة، وبالرأسمالية تارة أخرىٰ . كما ظهرت المناداة بالعلمانية وسفور المرأة . . إلخ .

وعمل اليهود بعد ذلك علىٰ جعل فلسطين بلداً قومياً لهم، من خلال الانتداب البريطاني علىٰ هذا الجزء من العالم الإسلامي ، واستسلمت بريطانيا لمطالب اليهود، الذين أبدوا أنهم هم الذين ساعدوا الصليبيين ضد المسلمين بأموالهم وأفكارهم ، فما كان لأوروبا إلاّ أن تذعن وتوافق، فأنىٰ تنسىٰ حطين وغيرها ؟ وجعل فلسطين وطناً لليهود كان سياسة من أوروبا وأمريكا للخلاص من اليهود، وانتشارهم المفزع في العالم من ناحية ، ولخلق جوّ الفزع والخوف والهلع المستمر في الدول الإسلامية ، وكذلك الاجتراء علىٰ كبرياء المسلمين وكرامة الإسلام وما يكنونه من قداسة عظمىٰ لبيت المقدس .

لقد نجح اليهود في سياسة الاندماج مع الدول الغربية نجاحاً كبيراً، مع ما يحمله التاريخ من أحداث توضح مدىٰ انخداع الغرب باليهود ، فاليهودية ـ كما ذكرنا سابقاً ـ تكره المسيحية، وخصوصاً المذهب الكاثوليكي، فاليهود يظنون أن دينهم دين التوحيد، والكاثوليك يؤمنون بتعدد الآلهة ، ولقد نجح اليهود في احتواء المذهب البروتستانتي ، وإقناع أئمة البروتستانتية بأن التوراة هي النبع الوحيد للمسيحية ، الأمر الذي أثر كثيراً في أوروبا وأمريكا سلباً وإيجاباً، إذ إن البروتستانت يعتقدون بالقدوم

والعودة الثانية للمسيح عليه السلام، ويجمع اليهود في فلسطين « وليس من العسير إدراك مايمكن أن يؤدي إليه مثل هذا اليقين، إذْ أصبح عاماً في خلق جو من التحيز اللاشعوري ممن يدينون بالبروتستانتية علىٰ وجه الخصوص للصهيونية العنصرية المستترة وراء اليهودية ، وهو جو نعرف جميعاً كيف تتضاءل فيه جرائم الصهيونية وما أكثرها وتبرر ، وكيف تزيف لها الحسنات وتمجّد ، جو يعمي عن الصهيونية وآثامها في تحيزه لها كما يعمي عن فضائل مناوئيها وحقوقهم في تحيزه ضدهم» [١].

هل نسيت أمريكا الحملات التي شنّها اليهود ضد المسيحيين في محاولة محو كلمة مسيحي من لائحة حقوق الإنسان ؟ ومسألة عدم التركيز علىٰ تدريس الإنجيل في المدارس وعدم الاهتمام بعيد الميلاد ، وعدم تدريس رواية« تاجر البندقية »، إضافة إلىٰ مسائل احتكار اليهود لتنظيم الدستور في أميركا وغير ذلك[٢] . لقد كان هذا هو حال اليهود علىٰ مرّ العصور والأزمان، فهم يتحالفون مع القوىٰ الباغية لتنفيذ رغباتهم . فلقد تحالف اليهود مع القوىٰ الحاكمة ضد عيسىٰ ابن مريم عليه السلام. إذاً ليس غريباً أن يتحالف اليهود اليوم مع دول الاستعمار ضد المسلمين ، وقد وصف القرآن الكريم هذا الطبع عند اليهود في قوله تعالىٰ :

﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ

(١) صبري جرجس ، التراث اليهودي والصهيوني ، ص ١٠٩ .

(٢) هنري فورد ، اليهودي العالمي ، ص ٢١٨ـ٢٢٤ .

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[(١)] .

وقال تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[(٢)] .

ومع أن اليهود لم ينعموا بحياة هادئة وسلام تام في ظل أمّة من الأمم كما نعموا في ظل الأمة الإسلامية ، إلا أن طباعهم الشرسة الإجرامية تدفع بهم إلىٰ الإساءة إلىٰ من أحسن إليهم ، أو لم يحسن ، وهذا ما سنعرض إليه فيما يأتي :

عند الحديث عن المسلمين واليهود ، فإن الصورة التي مثلت في الأذهان عن اليهود وطردهم من أوروبا وغيرها من بلدان العالم ، لِمَا هي عليه خلالُ اليهود وطباعهم مخالفة تمامًا لما كانت عليه علاقة المسلمين باليهود ، لما يحتويه النظام الإسلامي وتشريعاته من رحمة ورأفة ونظم إنسانية ثابتة .

ومن المعلوم أن اليهود بعد هجرتهم إلىٰ الشمال بأرض بابل في العراق ، وبعد استقرارهم ، بدأت بعض الأسر اليهودية في الانتشار في الجزيرة العربية وفلسطين ، وعلىٰ الأخص في اليمن ، وفي منطقة يثرب بالحجاز ، والتي كانت أكبر المراكز اليهودية عند ظهور الدعوة الإسلامية ، ويتمثل الوجود اليهودي في بعض القبائل المشهورة ، ومنها بنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو النضير ، وكان يجاور اليهود الأوس

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٠.

(٢) سورة المائدة ، الآيه ٥١ .

والخزرج الذين جاؤوا إلىٰ يثرب إثر حادث سيل العرم. وكان اليهود يملكون المال والجاه ، والأوس والخزرج قانعون بما وجدوا، حتىٰ ذهب مالك بن العجلان إلىٰ أبي جبيلة، ملك الغساسنة، يطلب منه النصرة علىٰ اليهود ، وقد تمت الغلبة للأوس والخزرج، وانحسر اليهود.

وعندما ظهر الإسلام وهاجر النبي محمد ﷺ إلىٰ المدينة المنورة، التقىٰ - عليه أفضل الصلاة والسلام - باليهود، ودعاهم إلىٰ الإسلام ، وأمّنهم علىٰ أموالهم وأنفسهم ، وتعاهد معهم في صحائف كَتَب لهم فيها العهد والوفاء ما داموا موفين بالعهد ، وجعل لليهود نصيباً من المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين. من هذا كله يتضح أن علاقة المسلمين باليهود لم تكن سيئة في صدر الدعوة الاسلامية منذ مقدم الرسول ﷺ إلىٰ المدينة المنورة ؛ إذ اعترف عليه السلام بدين اليهود ، وأباح للمسلمين طعامهم ، وأجاز التزوّج من نسائهم ، كما أن الرسول ﷺ - بأمر من الله - اتخذ من بيت المقدس قبلة له في الصلاة، تأليفاً لقلوب اليهود ، وصام يوم عاشوراء كما كانت اليهود تفعل. عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم عظيم، أنجىٰ الله فيه موسىٰ وقومه ، وغرّق فرعون وقومه، فصامه موسىٰ شكراً، فنحن نصومه : فقال رسول الله ﷺ : « فنحن أحق وأولىٰ بموسىٰ منكم »، فصامه وأمر

بصيامه»[١] ، مع هذا كلّه ، كانت نفوس اليهود تتلاطم بالحقد والحسد والنفاق ، هذا النبي ليس من ولد إسحاق ، وليس من يهود ، وليس من بني إسرائيل ، وهذا الدين وما فيه من تعاليم يعطي العزّة والكرامة ، فكيف كانت دوافع الشر تقود اليهود للإساءة إلىٰ أنفسهم ، وتعرضها للهوان والذلّة والمسكنة بما عملوا به من معاداة الإسلام والمسلمين ، فصاروا يلبسون الحق بالباطل ، بل يكتمون الحق ، فكثر خصامهم للإسلام ولجاجهم ، والآية الآتية تبين بعضاً من مواقف اليهود من الدعوة الإسلامية ، قال تعالىٰ :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾[٢] .

لقد حرص اليهود علىٰ التعريض بالدعوة الإسلامية ، فبدأ عقاب الله يتوالىٰ عليهم ، بإفحامهم بالحجة تارة ، وبالنوازل تارة أخرىٰ ، فمثلاً عند تحول القبلة من بيت المقدس إلىٰ البيت الحرام ، أحس اليهود أن هناك تحولاً خطيراً ضدهم ، وأنه سيفتضح أمرهم ، فعمدوا إلىٰ التمحل والعناد والخداع وإيذاء المسلمين ، فقاطعوا المسلمين اقتصادياً ، وامتنعوا عن دفع الديون والأمانات المستحقة لمن أسلم منهم ، بقصد إبعاد الناس عن الدخول في الإسلام ، وإلىٰ هذا يشير المولىٰ سبحانه بقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن

(١) رواه مسلم ٢/ ٧٩٦ برقم ١١٣٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٥٣ .

تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾[١].

وعمل اليهود على التجريح والتعريض بإله العالمين وعباده الصالحين، وما حادثة ذلك اليهودي فنحاص بن عازورا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه خافية، حينما دعاه الصديق الأكبر والعلم الأشهر إلى دين الحق، وأن يقرض الله قرضاً حسناً؛ ليدخل الجنة، فقال اليهودي: (يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، ولايستقرض إلا الفقير من الغني، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء . . . إلخ القصة). فما كان من أبي بكر إلا أن غضب، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا لضربت عنقك ياعدو الله، فذهب اليهود وأخبروا رسول الله ﷺ بما كان، وقد جحد فنحاص ما قاله لأبي بكر، فنزل قول الله تعالى تصديقاً لأبي بكر:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾[٢].

ولقد عمد اليهود إلى إثارة الفتن والأحقاد بين الأوس والخزرج؛

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨١، وانظر تفسير ابن كثير ج٢، ص١٥٣ ط الشعب، فقد أورد القصة نقلاً عن ابن إسحاق في السيرة. وانظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٧ تحقيق السقا والأبياري وشلبي.

ليردّوا الناس إلىٰ الجاهلية والكفر ، وقصّة شاس بن قيس اليهودي ، الذي كان شديد الطعن في الإسلام معروفة ، فقد أثار فتنة بين نفر من الأوس والخزرج كادت تؤدي إلىٰ فتنة كبيرة ، أنكرها الرسول ﷺ بقوله : «أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به . . . إلخ»(١) ، وعن جابر قال : اقتتل غلامان : غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار ، فنادىٰ المهاجر : ياللمهاجرين ، ونادىٰ الأنصاري : ياللأنصار . فخرج رسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا ؟ دعوىٰ أهل الجاهلية . . » إلخ الحديث(٢) . وفي هذا الموقف نزل قوله عزّ منْ قائلٍ :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾(٣) .

كما ذهب اليهود إلىٰ بث الشكوك حول الإسلام ، والافتراء علىٰ الله ورسوله ﷺ بأن ما جاء به عليه الصلاة والسلام إنما هو تحريف لما جاء في التوراة ، وحال عجزهم عن غواية الناس وتشكيكهم ، فقد أوعزوا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٥ .

(٢) رواه مسلم ، ٤/ ١٩٩٨ برقم ٢٥٨٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيات ٩٩-١٠١ .

للمنافقين بأن يرضوا المؤمنين بألسنتهم أول الأمر ، ثم يتركوهم ليجمعوا الحسنيين حتىٰ يكونوا متبعين. قال تعالىٰ : ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[1].

وعداء اليهود للإسلام وللمسلمين أخذ ألواناً شتىٰ وسبلاً عدة ، فقد تجسسوا علىٰ المسلمين، وحاولوا قتل الرسول بالسم تارة ، وبالصخر تارة أخرىٰ ، والإسلام في تعاليم القرآن وتوجيهات السنة يدعو إلىٰ التحمل والصبر حكمة وحلماً، ولكن اليهود أخذوا يجاهرون الرسول ﷺ بعدوانهم له وللإسلام، فظهرت خيانتهم، ونقضوا العهود، فأعانوا الأعداء ضده ﷺ، وبعد أن أعزّ الله جنده ونصر حزبه يوم بدر، بادر عليه السلام إلىٰ دفع خطر اليهود عن أمة الإسلام، فعمل علىٰ إجلاء بني قينقاع الذين كانوا يسكنون داخل حي من أحياء المدينة ، وقد تبجح اليهود معه ﷺ، وأوضحوا أن لهم خبرة بالقتال ، ولهم به مراس ، وقالوا له ﷺ: « لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب - أي قريش - فأصبت

(١) سورة آل عمران ، الآيات ٦٩ - ٧٣ .

منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنا نحن الناس»[١]. ومكن الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ وخلص من بني قينقاع.

ثم جاء دور بني النضير، وقد أجلاهم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ حيث كانوا يكيدون له جهراً وسراً، ويدبرون له أمراً للغدر به، وقد امتنعوا عن القتال معه في غزوة أحد، التي وقعت يوم السبت، فأبى اليهود حمل السلاح يوم سبتهم، ولكن مخيرق اليهودي قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدّته، وقال: «إن أصبت فمالي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى الرسول ﷺ حتى قتل». فقال النبي ﷺ «مخيرق خير اليهود»[٢]. وما كان من بني النضير في نقضهم العهد إلا أن حلّ عليهم الجلاء والإبعاد، برغم ما كان لهم من حصون حصينة قوية مانعة، يقاتلون فيها، لما أصاب نفوسهم من الخور والخوف والجبن، وليس بخافٍ غدر اليهود المنافقين وقد فضحهم المولى سبحانه في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥ هـ، ج ٣، ص ٤٨.

(٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ٩٤.

وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

وقد جاهد النبي ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم جميعاً جهاد المدافعين عن دين الإسلام ، وبذلوا كل ما في وسعهم لإخراج هؤلاء اليهود، وقد تم جلاء بني النضير الذين نزلوا ديار بني قريظة بخيبر ، وأخذوا يتعاونون معهم للثأر من المسلمين، فحرّضوا الأحزاب وألبوهم على قتال المسلمين ، ودفعوا قريشاً إلى ذلك ، ونجح بنو النضير في جمع خصوم الرسول ﷺ في محاولة لمحاربته، وكان ما كان من أمر غزوة الأحزاب، التي انضم فيها بنو قريظة لمحاربة الرسول ﷺ، فنقضوا العهد، وقطعوا المدد والميرة عن المسلمين ، وفتحت الطريق أمام قريش وغطفان وبقية اليهود ، ولكن الله أعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده . لقد بعث الله سبحانه وتعالى الريح في ليالٍ شاتية شديدة البرد زمهريراً ، فانسحبت الأحزاب وولّت منهزمة منكسرة ، وقد خرج عليه أفضل الصلاة والسلام في نفس اليوم لمقاتلة بني قريظة، إذْ تم حصارها حتى استسلمت ، ونزلت على حكم رسول الله ﷺ، وضربت أعناق اليهود، ومنهم حيي بني أخطب ، وكانت هذه الغزوة خاتمة في القضاء على بطون اليهود في يثرب، جزاءً بما كسبت أيديهم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد .

ويذكر التاريخ ما كان من غزوة خيبر ، وما انتهى إليه الأمر من

---

(١) سورة الحشر ، الآيات ١١ ـ ١٤ .

استسلام اليهود بعد محاصرة حصن الوطيح والسلالم، فطلب اليهود الصلح مع الرسول ﷺ لتحقن دماؤهم ، الأمر الذي جعل بقية قبائل اليهود في فدك وغيرها تذعن وتستسلم ، وبعد سيطرة المسلمين على اليهود، عاملهم الرسول ﷺ بروح التسامح ، حتى إنه أوصى عليه السلام معاذ بن جبل بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم .

ويعلّق إسرائيل ولفنسون على تسامح الرسول ﷺ بقوله : « يدل هذا على ماكان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدّسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلّبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ بعد الميلاد، إذ أحرقوا الكتب المقدّسة ، وداسوها بأرجلهم ، ومافعله المتعصبون من النصارى في اليهود واضطهادهم في الأندلس، حيث أحرقوا أيضاً صُحُف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام» (١).

واستمر الأمر مع اليهود بهذا التسامح في دفعهم الجزية، إلى أن تم إجلاؤهم من جزيرة العرب زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما بلغه أن الرسول ﷺ قال : « إنه لايجتمع في جزيرة العرب

(١) إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ ، ص ١٧٠ .

دينان»[1]، فأبقىٰ من كان له عهد منَ الرسول ﷺ، وأجلىٰ ما سوىٰ ذلك .

ولكن العداء من جانب اليهود لم ينته، إذْ إن نفوسهم متأججة للكيد للإسلام والمسلمين، فدسّوا الدسائس وأوجدوا الفِرَقَ لإيجاد الخلافات العقدية بين الناس، خصوصاً ما كان من أمر اليهود في عصور الكلام وظهور الجدل، وما كان من قيام بعض الدويلات التي انتسبت إلىٰ ابنة رسول الله ﷺ كذباً وزوراً مثل الفاطميين، وكذلك مثل قيام القرامطة وغيرهم، ممن عملوا علىٰ إثارة الفتن بين صفوف المسلمين بإيجاد الصوفية والشيعة وغيرها من النحل والملل، ولا أدل علىٰ ذلك من وجود العلمانية والماسونية ومن عمل بهما من أبناء المسلمين المفتونين. ولن تنتهي هذه الحرب الضروس مع اليهود ومن شايعهم حتىٰ يرتدّ المسلم عن دينه، وهذا مصداق قوله تعالىٰ :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا

(١) رواه البخاري ٦ برقم ٣٠٥٣، ٣١٦٨ ومسلم ٣/ برقم ١٦٣٧ وأحمد ١/ ٢٥٢ وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وأخرج مسلم ٣/ برقم ١٧٦٧ وأحمد ١/ ٢٩و٣٢ وأبو داود ٣/ برقم ٣٠٣٠ عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول : لأخرجن اليهود والنصارىٰ من جزيرة العرب حتىٰ لا أدع إلا مسلماً. واللفظ «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»، فهو في الموطأ ٢/ ٨٩٢، ٨٩٣، وقد أورده مالك مرسلاً. وأخرج أحمد ٦/ ٢٧٥ عن عائشة قالت : كان آخر ما عهد به رسول الله أن قال : لا يترك بجزيرة العرب دينان .

نَصِيرٍ ﴾ (١).

ويعلق الشهيد سيِّد قطب بقوله : « فإن المعركة بين الإسلام واليهود لا تزال دائرة وستظل كذلك ؛ لأن اليهود لايرضون إلا بتدمير هذا الدِّين. كانوا - بعد أن غلبهم الإسلام - يحاربون هذا الدين بالمؤامرات والدسائس، وتحريك عملائهم في الظلام. أما اليوم فقد ازدادت المعركة ضراوة وسفوراً وتركيزاً بعد أن جاءوا من كل فجٍّ، وأعلنوا أنهم أقاموا دولة إسرائيل، كانت أطماعهم ترف من بعيد إلىٰ بيت المقدس، أما اليوم فهم منه علىٰ بُعد خطوات، ولايكف أطماعهم إلا أن يغلبهم الإسلام»(٢).

وهذه إرادة الله في هذا الكون، أن يستمر الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، يدافع الناس بعضهم بعضاً، لتعلو كلمة الله، والنصر لمن آمن واتقىٰ وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

إن هذا التمهيد قد أوضح بعض الحقائق العامة عن اليهود، من حيث التعريف بهم وبكتبهم وتعاليمهم، وما هي عليه صفاتهم وسلوكهم، وما عليه حالهم من السوء وماهي دعواهم الباطلة، بأنهم شعب الله المختار، وأن غيرهم من الناس ليسوا إلا حيوانات، دماؤهم وأموالهم وأعراضهم

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٠ .

(٢) سيد قطب ، معركتنا مع اليهود ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٦١ . لقد قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله هذا الكلام قبل نكبة ١٩٦٧م التي حصلت بعد وفاته، إذ استشهد في ١٩٦٦ ، ولكنهم الآن يجوسون خلال الديار، ويحتلون بيت المقدس وسائر بقاع فلسطين. إنا لله وإنا إليه راجعون.

مباحة لليهود، وتوضيح جرائم اليهـود وفسادهم. كل ذلك سيساعد في هذه الدراسة على تتبع الأعمال الأدبية للكتاب الإنجليز عن الإسلام واستلهامهم الآراء من اليهود والفكر اليهودي.

٩ـ اليهود مصدر من مصادر الأدب الإنجليزي للكتابة عن الإسلام:

إن خاتمة هذا الجزء من هذه الدراسة عن اليهود والفكر اليهودي، وأن ذلك مصدر من مصادر الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي، هي خلاصة الفكرة العامة لهذا الفصل من هذا الباب في هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ.

إن من عناصر مكونات التراث البريطاني هو الدين المسيحي، والتراث ـ كما يقول ت. س إليوت T.S.Eliot: ـ «له قيمة خاصة ومؤثرة فيما يتصل بالتكوين الأدبي للكتاب والأدباء والنقاد والمفكرين فيما يتوارثه الخلف عن السلف»[1]. والتراث ليس مجرد وعاء يحتوي الأدب والأعمال الأدبية، بل إن الأدب يعد جزءاً منه وعنصراً من عناصر مكوناته ومفهومه. والأديب يستفيد من التراث باعتباره جزءاً منه، ولكنه ينفرد عنه بما يضيف إليه من عوامل الجدة والتجديد والأصالة.

وإذا كان الدين المسيحي هو أحد مكونات التراث للأدب الإنجليزي، وأن الدين المسيحي يقوم في أساسه على أن عيسى ابن مريم هو نبي

(١) انظر: T.S. Eiiot, Selected Essays, Faber, London,1915, P.P13-12.

النصارىٰ، وأن كتابه المقدس هو الإنجيل، فإن اليهود قد عبثوا بهذا التراث أيما عبث ، كما أن كتاب الموسويه - أي التوراة - قد عبث به اليهود وحرفوه، فاعتوره الخلل والحذف والتبديل، واستعاضت اليهود عن ذلك بالتلمود . والعهد الجديد، وفيه الأناجيل الأربعة، قد تخلله التزوير والتحريف ، ويكفي أن الإنجيل ليس بكتاب واحد ، بل هناك أربعة أناجيل افتعلها اليهود، ليلبسوا علىٰ أهل النصرانية الحق، ولايدرون إلىٰ أي كتاب يستندون. هناك إنجيل متىٰ، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس، وإنجيل يوحنا، ويكفي تعددها أن يجعل الإنسان في شك من أمرها وحقيقتها ومدىٰ صدقها.

يقول أحمد عبد الوهاب في كتابه (إسرائيل حرفت الأناجيل) : «تشمل الترجمة المحرفة لإنجيل متىٰ علىٰ ٩١ تحريفًا، موزعة علىٰ إصحاحاته الثماني والعشرين ، لكن أكثر هذه التحريفات وأخطرها - ولاشك - هو ماحدث للإصحاحات الأخيرة ، وخاصة الإصحاح السادس والعشرين ، والإصحاح السابع والعشرين. وبلغت تحريفات إنجيل مرقس ٥٢ تحريفاً ، وقد تركزت هذه التحريفات في كل مايتعلق بأحداث صلب عيسىٰ عليه السلام . ويستطيع القارئ أن يحصي في إنجيل لوقا ٧٣ تحريفًا . ويعد إنجيل يوحنا أكثر الأناجيل تحريفًا، فقد بلغت جملة تحريفاته ١٣٥ ، وتركز التحريف علىٰ محو كلمة اليهود من أسفار العهد الجديد ؛ لأنه أكثر

الأناجيل ذكراً لها »[١].

والمطلع على هذه الأناجيل يجد فيها كثيراً من العبارات التي تثبت بنفسها تناقضات جلية ؛ إذ لا يعتقد بوجود أمرين متناقضين في كتاب مقدس ، ويكون من عند الله العليم الخبير البصير ، ولا يمكن قبول بعض الأمور غير المعقولة ، أو دعاوى تتعارض - على الأقل - مع المعطيات التي أثبتتها المعارف الحديثة ، وكثير من المسيحيين يجهلون هذه المتناقضات والأمور غير المعقولة أو التي لا تتفق مع العلم الحديث ، وهم يصابون بالذهول عندما يكتشفون كل هذا . ولقد ظل النصارى دائماً متأثرين بقراءة الشروحات والتعليقات والتفسيرات التي كتبها الرهبان لتطمئنهم ، ويساعدهم على ذلك الغنائية المديحية والترانيم الموسيقية ، بأن المعارف الحديثة ألقت الضوء على تاريخ العلاقة اليهودية النصرانية ، والتنافس بين طوائفها المتعددة ، أوضحت هذه المعارف وجود أمور تحير القراء في التصديق بما في الأناجيل من علوم في العصر الحديث . وهنا نجد موريس بوكاي يعلق على ذلك بقوله الصريح عن الأناجيل :

« هذا يؤدي بنا إلى مقارنة الإنجيل بالشعر الملحمي في أدب القرون الوسطى ، وإنها لموحية حقاً تلك المقارنة مع ملحمة رولان Chanson de Roland ، وهي أكثر الملاحم شهرة ، تلك التي تقص في

---

(١) أحمد عبد الوهاب ، إسرائيل حرفت الأناجيل والأسفار المقدسة ، مكتبة وهبة القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٤٨-٥٩ .

شكل روائي حدثاً وقع بالفعل . هل يعرف القارئ أن هذه الملحمة تقص حدثاً حقيقياً : كمين وقع فيه ظهر جيش شارلمان ، الذي يقوده رولان بممر رنسفو Roncevalaux . إن هذا الحدث ذو أهمية ثانوية قد وقع في قول الحولية التاريخية (إيجنهارد Eginhard) في ١٥ من أغسطس عام ٧٧٨م ، ولقد ضخم هذا الحدث حتى وصل إلى أبعاد أمر حربي معركة في حرب مقدسة. إن الرواية خيالية ، لكن هذا الخيال لايحجب حقيقة إحدى معارك شارلمان التي قام بها ليؤمن حدوده ضد تسلل الشعوب المجاورة . تلك هي الصحة والشكل الملحمي للرواية لا يمحوها .

ونفس الأمر بالنسبة للأناجيل : فخيالات متى ، والتناقضات الصارخة بين الأناجيل الأخرى ، والأمور غير المعقولة ، وعدم التوافق مع معطيات العلم الحديث والتحريفات المتوالية للنصوص ، كل هذا يجعل الأناجيل تحتوي على إصحاحات وفقرات تنبع من الخيال الإنساني وحده . لكن هذه العيوب لاتضع في موضع الشك وجود رسالة المسيح ، فالشكوك تخيم فقط على الكيفية التي جرت بها »[١] .

وإذا كانت هذه هي حقيقة الأناجيل ، وهي أحد عناصر التراث الإنجليزي ومكوناته ، فكيف يكون تصور كتاب وأدباء الأدب الإنجليزي عن الإسلام . لابد أن يكون هذا التصور - وبالضرورة - يقوم على الباطل

(١) موريس بوكاي ، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٨٢م ، ص ١٣١ .

والزيف والتحريف الذي تضمنته الأناجيل التي حرفها اليهود ، لقد حرف اليهود الأناجيل ودسوا فيها الأقوال بأن الإسلام دين باطل، وأن الرسول محمد ﷺ ليس هو خاتم الأنبياء، بل هو دجال آفاق، جاء بتشريع تعدد الزوجات، ومحاربة الناس فيما يسمىٰ جهاداً لقتل الأبرياء . وأنه يدعي أنه يوحىٰ إليه ولم يوح إليه شيء ، ومايدعيه وحياً إنماهو من نفثات الشياطين وصرعات الجن ، وما إلىٰ ذلك مما افتراه اليهود من سوء النظام الاجتماعي والأسري في الإسلام . . . إلخ . فكانوا ـ أي اليهود ـ بذلك مصدراً من مصادر الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي قبل أن يسكنوا الجزر البريطانية، ليدعموا التراث الإنجليزي بمزيد من فكرهم اليهودي المضل الضال، وكذلك يفعلون ، وهكذا جاءت كتابات الأدباء في الأدب الإنجليزي عن الإسلام مليئة بالتناقضات، كتلك التناقضات التي شحنها اليهود في الأناجيل .

ومن المعلوم أن اليهود لم يكن لهم وجود في إنجلترا حتىٰ بداية العهد النورماندي عام ١٠٦٦ م، ذلك أن عدداً من التجار والبحارة اليهود بدؤوا الدخول إلىٰ بريطانيا عام ١٠٧٠ بعد مجيء النورمانديين ، فقد استدعىٰ الملك بعض اليهود لممارسة بعض الأعمال التجارية والاقتصادية، وبعض النواحي الاجتماعية ، مما كانت تمنعه الكنيسة علىٰ النصارىٰ ، وكانت مباحة في شريعة التلمود . وقد استخدم اليهود لاستثمار الأموال ربوياً وأخذها من الناس لصالح الملك . واستمر الأمر كذلك إلىٰ عصر الملك جون، حيث

لمس الشعب البريطاني خطر اليهود على الأخلاق والاقتصاد والدين، فأمر الملك جون بحبس جميع اليهود في البلاد. وفي عهد الملك هنري الثالث اتضح أن اليهود ينتزعون جزءاً من ذهب وفضة النقود الرسمية، مما أدى إلى انحدار الاقتصاد الوطني البريطاني، حينها أمر الملك هنري الثالث في عام ١٢٣٠م أن يدفع اليهود ثلث أموالهم المنقولة إلى خزينة الدولة والعمل على حبس كثير من المخربين اليهود وتعذيبهم.

وفي عام ١٢٧٢م تولى أمر البلاد الملك إدوارد الأول، والذي أدرك سوء الحالة الاقتصادية لدى الشعب البريطاني بسبب ابتزاز اليهود لأموال الشعب عن طريق المعاملات التجارية الملتوية، ومعاملات الربا الفاحش، والتدليس، وعقود التجارة الفاسدة. ونتيجة لاطلاع الملك على ذلك، فإن الملك إدوارد أصدر أمراً بتحريم الربا وعقود رهن الأراضي مع اليهود بقصد إصلاح ما أفسده اليهود، ولكنه أخفق في إصلاح اليهود، لأن الغش والجريمة وعبادة الذهب والفضة من طبائع اليهود التي لايتركونها. واكتشف الملك إدوارد أن اليهود عادوا إلى سرقة جزء من ذهب وفضة الخزينة كما كانوا يفعلون زمن الملك هنري الثالث، ولكن على نطاق أوسع مما كان في الماضي. فأصدر الملك أمره بمحاكمة المجرمين الرئيسيين الذين دبروا هذه الجريمة، وانتهى الأمر بإعدام مائتي يهودي عام ١٢٨١م، وظن الجميع أن في ذلك عقاباً رادعاً لليهود، ولكن اليهود استمروا في إجرامهم، وتخريب اقتصاد البلاد والضغط على الشعب البريطاني، وابتزاز أمواله.

ولاحظ الملك إدوارد ذلك، فأصدر قراره بإجلاء اليهود، وطردهم من بريطانيا عن بكرة أبيهم خلال ثلاثة أشهر، وذلك في عام ١٢٩٠ م، وقد انتقم الإنجليز من بعض اليهود، فحرقوا مايزيد على خمسمائة يهودي في قلعة مدينة يورك التي احتمى بها اليهود[١].

وظل اليهود مطرودين من بريطانيا إلى عهد الملكة إليزابيث الأولى، حيث قدم يهودياں من البرتغال عام ١٥٥٩م متظاهرين باعتناق المسيحية، الأول هو جوشيم كونز، وكان يعمل في مناجم الفحم، والثاني هو ذلك الطبيب الذي يدعى رود ريجو لويز، وقد تدرج في مناصب متعددة في بريطانيا إلى أن أصبح الطبيب الخاص للملكة إليزابيت الأولى. وقد حاول في مؤامرة محكمة دبرها عام ١٥٩٤م القيام بتسميم الملكة وقتلها، وقد اتهم بالخيانة، وشنق في العام نفسه[٢].

ولم يهدأ لليهود بال، فبرغم من بعض المحاولات اليائسة للانتقام من الأسرة المالكة، بسبب طرد الملك إدوارد لليهود، فقد حاولوا تدبير خطة ناجحة لاقتحام بريطانيا والدخول إليها مرة أخرى. ونحن هنا نورد كيف تمت عودة اليهود إلى بريطانيا فيما كتبه وليم كار عن ذلك.

كان الملك إدوارد الأول ملك بريطانيا هو أول من طرد اليهود من

---

(١) عبد الله التل، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) انظر: M.J. Landa, The Shylock Myth, W.H.Allen &co. Ltd., London, 1942, P.P.5-8.

بلاده، لذا فقد قرر سادة الذهب اليهود في فرنسا وهولندا وألمانيا أن بريطانيا بالذات هي التي يجب أن تكون الهدف الأول الذي يطبقون فيه مناهجهم المدروسة، لإثارة الفوضى الشاملة والهيجان، انتقاماً لما حصل لهم وحرباً للنصارى فيها، وهكذا دب النزاع أولاً بين ملك إنجلترا وحكومته فجأة، ثم الخلاف بين الدولة والكنيسة.

ودس المتآمرون بخبث نظريات متناقضة تنادي بحلول مختلفة في أمور السياسة والدين، ولم تلبث بريطانيا أن وجدت نفسها مقسمة إلى معسكرات عديدة، يتحفز كل منها للانقضاض على الآخر، بل قسموا المعسكر نفسه إلى أقسام عديدة: فقد انقسم الشعب البريطاني المسيحي إلى معسكرين بروتستانتي وكاثوليكي . . ثم انقسم المعسكر البروتستانتي إلى طائفتين: (الملتزمون) و (المتحررون) . . وانهمر الذهب في ذلك كله من جهات مجهولة على المحرضين ورؤوس الفتنة.

كان ملك بريطانيا آنئذ شارلز الأول، وعندما تم الإيقاع بينه وبين البرلمان، اتصل أحد رؤوس جماعة المرابين العالميين اليهود في هولندا المدعو (مناسح بن إسرائيل) بالقائد الإنجليزي الشهير (أوليفر كرومويل)، وعرض عليه مبالغ طائلة من المال لتنفيذ المشروع الخفي، الرامي إلى الإطاحة بالعرش البريطاني.

وقد تقبل كرومويل هذا العرض، وتألفت مجموعة من أرباب الذهب اليهود لتمويله ومساندته، كان فيها إلى جانب (مناسح بن إسرائيل)

الزعيم اليهودي البرتغالي الأشهر (فرنانديز كارفاجال)، الذي تلقبه بعض كتب التاريخ (باليهودي العظيم) ؛ والذي أصبح فيما بعد رئيس المستشارين العسكريين لكرومويل . وقد نظم هذا أنصار كرومويل الذين اشتهروا باسم (الرؤوس المستديرة)، وحولهم إلىٰ جيش نظامي انهالت عليه الإمدادات بالسلاح والعتاد والأموال بوفرة[1] .

وعندما بدأ تنفيذ القسم المسلح من المؤامرة، تدفق إلىٰ بريطانيا عن طريق التهريب مئات من الثوريين المحترفين المدربين، وانضموا إلىٰ الخلايا اليهودية الفوضوية، التي برزت آنئذ علىٰ شكل منظمات إرهابية شرعت حالاً في عمليات الإرهاب علىٰ نطاق واسع، بهدف ترويع السكان، وإشاعة جو من الذعر والقلق، يمهد للحرب الأهلية والصدام المسلح مع قوات الأمن والجيش النظامي .

وتكشف الدراسة الواعية أسلوب التدفق الفوضوي هذا عن طريق التهريب واستقدام أفواج المخربين المدربين بواسطة الخلايا والشبكات ، وتكوين المنظمات الإرهابية التي تمارس عمليات الإرهاب والترويع، وتمويل الخطة كلها بذهب المرابين العالميين اليهود . فالخطة تكشف لنا عن ظاهرة دقيقة تشكل برهاناً آخر علىٰ استمرار مؤامرة قوىٰ الشر عبر العصور : فهو الأسلوب الذي اتبعته المؤامرة دائماً وبصورة متماثلة في كل أطوار التاريخ ، ونجد خير مثال له في عصرنا الحاضر في عملية الاحتلال الصهيوني

(١) وليم كار ، اليهود وراء كل جريمه ، ص ٥٠ ـ ٥٣ .

لفلسطين[١] .

وإلىٰ هذا، فإن تدفقاً فوضوياً يحمل بعض هذه المعالم مما يحدث في أمريكا اليوم، ولن يستطيع إحباط مثل هذه المؤامرات في العالم سوىٰ تضامن قوىٰ الخير الأخلاقية حول فكرة الإيمان بالله، والدفاع عن شريعته، وصمود الشخصيات الكبرىٰ من قادة قوىٰ الخير أمام موجة الإلحاد العالمية المسيرة من قبل حكماء صهيون، حتىٰ يسترد هؤلاء القادة المؤمنون زمام المبادرة وينقذوا الإنسانية المهددة من مصير قاتم .

كانت خلايا الثورة جميعاً في بريطانيا آنئذ بقيادة زعيم يهودي أجنبي اسمه (دي سوز)، وكان هذا في الوقت نفسه سفيراً للبرتغال في بريطانيا، الذي عين هناك بفضل (اليهودي المدمر) فرنانديز كارفاجال، الذي تمكن بنفوذه والاعتمادات المفتوحة له من الحصول علىٰ هذا المنصب . وبذلك أصبح مسكن دي سوز المحمي بالحصانة الدبلوماسية مقراً لزعماء النشاط اليهودي الخفي، المشرفين علىٰ المؤامرة، وأحد مراكز تحضير الثورة بالتالي[٢] .

بدأت الثورة الإنجليزية أخيراً بعد أن عبَّد النورانيون لها الطريق، وأصبح كل شيء معداً . وقد بدأت بالنزاع الديني الذي أثير بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين من مذهب كالفن . ثم شرعت الخلايا الخفية

(١) المرجع السابق، ص ٥٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤ .

بتنظيم تظاهرات مسلحة تنطلق في كل مناسبة ودون مناسبة، فتسمم الجو العام في البلاد، وشاعت الفوضىٰ والقلق. وإننا نجد الشرح الوافي لهذه الناحية من خفايا الثورة الإنجليزية، والتفاصيل المرتبطة بهذه الفترة في جزأي الكتاب الضخم (حياة الملك شارلز الثاني) الذي وضعه (إسحاق دزرائيلي)، أحد كبار اليهود في ذلك الوقت، وهو والد (بنيامين دزرائيلي) الذي أصبح من أقطاب الدولة والسياسة ، وتولىٰ منصب رئاسة الوزارة عدة مرات، ومنح لقب (لورد بيكر سفيلد) في عهد الملكة فكتوريا مع شهرته في الأدب.

وقد بيّن إسحاق دزرائيلي في كتابه أنه حصل علىٰ معظم المعلومات من سجلات (ملخبور دي سالم)، الزعيم اليهودي الذي كان سفيراً لفرنسا لدىٰ الحكومة البريطانية في عصر شارلز الأول . . كما أوضح أيضاً نواحي التشابه الغريب بين الثورتين الإنجليزية والفرنسية فيما بعد، مشيراً إلىٰ صلة (القرابة) أو التماثل التي تربط بينهما . . وهكذا، فإننا نستطيع بجلاء وبتعبير أوضح أن نرىٰ أثر الأيدي الخفية . . أيدي منظمي حركة الهيجان العالمية في كلتا الثورتين .

إن البرهان المطلق الذي يدين (كروميل) زعيم الثورة ودكتاتور بريطانيا الطاغية بعدئذ بتهمة الاشتراك في المؤامرة الثورية اليهودية، هو الذي حصل عليه اللورد (الفريد دوغلاس)، الذي كان يشرف علىٰ المجلة الأسبوعية الإنجليزية (Plain English) ؛ والذي أعلنه في مقال نشره في

هذه المجلة في عددها الصادر في ٣ أيلول ١٩٢١ م ، فقد شرح اللورد دوغلاس في هذا المقال كيف وصل إلى حوزة صديقه السيد (ل . د . فان فانكرت) الهولندي مجلد نادر كان قد فقد من سجلات (كنيس مولخيم) في هولندا خلال حروب نابليون (١) .

ويحتوي هذا المجلد على سجلات الرسائل التي أرسلها وتلقاها الحاخامون المتعاقبون الذين ترأسوا هذا الكنيس . وتقول إحدى هذه الرسائل المحررة باللغة الألمانية ، والمرسلة من أوليفر كروموبل إلى رئيس هذا الكنيس آنئذ الحاخام (ايبنزيرات) بتاريخ ١٦ حزيران ١٦٤٧م بالحرف الواحد : (سوف أدافع عن قبول اليهود في بريطانيا مقابل المعونة المالية ، ولكن ذلك مستحيل طالما الملك شارلز لا يزال حياً . لايمكن إعدام الملك شارلز دون محاكمة ، ولا نمتلك في الوقت الحاضر أساساً وجيهاً للمحاكمة يكفي لاستصدار حكم بإعدامه ، ولذلك فإنني أنصح باغتياله ، ولكننا لن نتدخل في الترتيبات لتدبير قاتل ، غير أننا سوف نساعده في حالة هربه) .

ويحتوي السجل على رد الحاخام برات على هذه الرسالة بتاريخ ١٢ تموز ١٦٤٧م ويقول في إجابته لكروموبل : (سوف أقدم المعونة المالية المطلوبة منذ خلع الملك شالرز وقبول اليهود في بريطانيا ، الاغتيال خطر جداً . . يجب إعطاء شارلز فرصة للهرب ، وعندئذ سيعطينا القبض عليه ثانية

---

(١) أنظر : Alfred Douglas, Plain, 3 July, 1921,p.3.

سبباً وجيهاً للمحاكمة والإعدام . . سوف تكون المعونة وافرة ، ولكن لا فائدة من مناقشة شروطها قبل بدء المحاكمة) .

وفي الثاني عشر من تشرين الثاني من ذلك العام مهدت الفرصة للملك شارلز الأول للهرب ، وقد ألقي القبض عليه بالطبع ، ويتفق المؤرخان البريطانيان الكبيران (هوليس) و (لودلو) - وهما الحجة في تاريخ ذلك العهد - على أن هرب الملك ثم إيقافه كانا من تدبير كرومويل .

وقد جرت الأحداث بعد إيقاف الملك بسرعة ، وعلى ما أراد كرومويل ، الذي صفّى أولاً جميع أعضاء البرلمان الإنجليزي المخلصين للملك ، ولكن المجلس في جلسته التي عقدها طوال ليلة ٥ أيلول ١٦٤٨ م قرر بالرغم من هذه التصفية ، وبأغلبية أعضائه (قبول التنازلات التي أعلنها بصراحة بالنسبة لكرومويل انتهاء دوره ، وحرمانه من الأموال التي وعده بها سادة المال العالميون ، فأصدر أمره إلى أحد أتباعه وهو الكولونيل (برايد) الشهير في التاريخ الإنجليزي هو أيضاً ، لتصفية جميع أعضاء البرلمان الذين صوتوا بالموافقة على عقد اتفاق مع الملك ، وعملية التصفية الكبرى هذه التي قام بها الكولونيل برايد هي التي تسميها كتب التاريخ المدرسية في إنجلترا (تصفية برايد)[١] .

لم يبق في المجلس بعد انتهاء هذه التصفية سوى خمسين عضواً استولوا لحساب كرومويل على السلطة المطلقة . وفي ٩ كانون الثاني

(١) وليم كار ، اليهود وراء كل جريمه ، ص ٧٠-٧٧ .

١٦٤٩م أعلن تشكيل محكمة سميت بمحكمة العدالة العليا، عهد إليها بمحاكمة ملك بريطانيا . وكان ثلثا أعضاء هذه المحكمة أعضاء جيش كروميل، وعندما لم يستطع المتآمرون إيجاد حاكم إنجليزي واحد يقبل بالقيام بدور مدع عام ضد الملك ، كلف اليهودي الكبير (كارافاجال) أحد اليهود الأجانب، واسمه (إسحاق دوريلاوس) ! وهكذا أدين شارلز الأول بالتهم التي قررها المرابون اليهود العالميون ، وليس كما تقول كتب التاريخ بالتهم التي قررها الشعب الإنجليزي . . ! .

وفي يوم ٣٠ كانون الثاني عام ١٦٤٩ م قطع رأسه بالمقصلة علناً أمام المصرف اليهودي القائم في ساحة وايتهول في لندن . . وهكذا تم انتقام المتآمرين العالميين، الذين قرروا ذلك منذ أن طردهم الملك إدوارد الأول من إنجلترا . . وتلقىٰ كروموبل الذهب الموعود ، كما تلقىٰ يهوذا الخائن في الماضي من نفس المصدر ثمن خيانته للسيد المسيح عليه السلام .

ولم يكن الانتقام ـ كما قد يتبادر إلىٰ الذهن ـ الهدف الوحيد للمرابين العالميين اليهود في عملياتهم هذه ، بل كان هدفهم الأول، والذي أوضحته أحداث التاريخ فيما بعد، السيطرة علىٰ اقتصاديات بريطانيا، وعلىٰ مقاليد الأمور الحقيقية فيها . . وكان هدفهم الأعمق والتالي إثارة عدد من الحروب بعد ذلك بين إنجلترا ومختلف الدول الأوربية . ذلك أن الحروب تتطلب إعداد مبالغ ضخمة من المال، يضطر الأوروبيون إلىٰ استقراضها من المرابين اليهود العالميين أنفسهم بالربا الفاحش ، وهذا ما يؤدي الىٰ نتيجتين هما :

أ- حصول هؤلاء المرابين على أرباح خيالية، وازدياد القروض الوطنية التي ستثقل كاهل مختلف الأمم الأوربية.

ب- وضع حكام أوروبا بموقف التبعية والحاجة الماسة للمرابين العالميين.

نتبين هذه النتائج بسهولة منطقية، بتتبعنا لتسلسل الأحداث الزمنية في بريطانيا منذ إعدام الملك شالرز الأول سنة١٦٤٩ م، حتى تأسيس بنك إنجلترا عام ١٦٩٤م. فقد ازداد مبلغ القرض الوطني الإنجليزي مطرداً من ناحية، وتمكن سادة المال العالميون من ناحية أخرى من جعل شعوب أوروبا ينقض بعضها على البعض الآخر (١).

وإذا كان اليهود في العالم قد قرروا أن تكون بريطانيا هي الهدف الأول الذي يطبقون فيه مناهجهم المدروسة لإثارة الفوضى الشاملة والهيجان، فقد كان الأمر كذلك. فمن بريطانيا ظهر وعد بلفور، القاضي بمنح فلسطين لليهود، وجعلها الوطن القومي لهم، بزعمهم أنها أرض الميعاد وأرض الآباء والأجداد، وإنما يقولون ذلك افتراءً وكذبًا.

وهكذا كان اليهود هم الذين كونوا التراث السياسي لبريطانيا منذ ثورة كروميل على الملك، وما أعقب تلك الثورة من تأسيس البنك المركزي الإنجليزي Bank England عام ١٦٩٤ م. فكان اليهود هم الذين صنعوا التراث الاقتصادي لبريطانيا. فلا مناص إذن أن يكون اليهود مصدراً من

(١) المرجع السابق.

مصادر الكتابة عن الإسلام في الأدب الانجليزي ، إذ إن النظام السياسي الذي وضعه اليهود لبريطانيا وسار عليه البريطانيون يؤدي إلىٰ الديمقراطية، وهي عكس الشورىٰ في الإسلام ؛ إذ إن الديمقراطية تعني أن الرأي الغالب هو الذي يؤخذ به، والشورىٰ تعني الأخذ بالحق. والسياسة البريطانية تقوم علىٰ سياسة الأحزاب، هذا الحزب يعارض ذلك الحزب لاختلاف الآراء والأهواء ، ولكن الإسلام يقوم علىٰ البيعة للخليفة ولا أحزاب ؛ إذ ماهو دور الأحزاب في ظل الإسلام ، هل من أحد يستطيع أن يأتي بأحسن مما قال الله عز وجل وماقاله الرسول ﷺ كلا . . وكلا . . !! وإذا كان اليهود قد أقاموا أسس التراث السياسي الاقتصادي في بريطانيا ويتقدمها الربا ، فلا غرو إذن أن نجد الأدباء الإنجليز ينظرون إلىٰ نظام الزكوات والصدقات والهبات والنظام المالي الإسلامي علىٰ أنه نظام بائس يابس ، ولا عجب أن ينظر أدباء الإنجليز إلىٰ نظام الشورىٰ ومجلسه الذي يلتف حول الخليفة والحاكم المسلم علىٰ أنه نظام الديكتاتورية[١] .

ومن المعلوم أن من خطة اليهود التي وضعوها للعودة إلىٰ بريطانيا في عهد الملك شارلز الأول وإثارة الفوضىٰ الشاملة والهيجان، كما يقول وليم كار . إن تلك الخطة تضمنت وضع النظام الاجتماعي الذي يتدرج في إفساد الاخلاق، وزعزعة الترابط الأسرىٰ، وإخراج المرأة إلىٰ الشارع، ونشر الرذيلة الاجتماعية . . إلخ ، وهذا في الأصل من المخططات اليهودية التي

(١) المرجع السابق .

قدمها آدم وايزهاويت (أحد أساتذة علم اللاهوت الألماني) إلى المرابين العالميين من اليهود عام ١٧٧٦ م، وأكمل مسيرة هذا العمل الإجرامي من بعد وفاة وايزهاويت الإيطالي مازيني الذي توفي ولم يكمل خطط النورانيين عام ١٨٧٢ م، ثم أعقبه في ذلك الجنرال الأمريكي ألبرت بابيك[١].

لقد دعت تلك المخططات ، كما تقرأ في بروتوكولات حكماء صهيون، وكما ترى في أفعال اليهود في الواقع، دعت إلى الفساد الاجتماعي الذي كوّن جزءاً من التراث الاجتماعي البريطاني ، مما حدا بكتاب الأدب الإنجليزي أن يروا في تعدد الزوجات في الإسلام شهوانية وحيوانية ، ولم يروا أن الزنا، وتعدد العشيقات والخليلات، واتخاذ دور الدعارة، وفعل الفاحشة حيوانية وشهوانية كما زعموا في قولهم عن الإسلام. إن التعدد بالوجه الشرعي بالوجه الحلال شهوانية. أما الزنا والعشيقات بالصورة المحرمة فلا بأس. ماهذا التناقض ؟ ماهذا العدل! أما آن للنصارى أن يعرفوا الحق ويفهموا مدح القرآن الكريم لهم في قوله تعالى:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٢].

(١) المرجع السابق ، ص ١١-٢٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٢ .

ألم يعلم الغرب أن اليهود أعداء الله؟ فمن باب أولىٰ أن يكونوا أعداء الناس؟ .

ألم يعلم الغرب أن اليهود يرون شعوب العالم هم الأمميين الأغيار الجويم ؟ .

ألم يعلم الغرب أن اليهود يرون شعوب العالم جحوشاً ومطايا لأغراضهم ؟ .

أما آن للغرب أن يفيق من سباته ويعلم حقيقة اليهود ؟ .

أم أن الغرب اعتقد صحة « وثيقة التبرئة»، تلك الوثيقة التي تبرئ اليهود من دم المسيح، والتي صدرت عن المجمع المسكوني عام ١٩٦٥ م، بعد أن عرضت علىٰ مؤتمر الكنيسة الكاثوليكية المعروف باسم مؤتمر الفاتيكان الأول، والذي عقد عام ١٨٦٨ م[(١)]. هل اعتقد الغرب وجميع نصارىٰ العالم صدق دعوىٰ اليهود ؟ .

إذن تلك هي طامة كبرىٰ ، لأن تلك الوثيقة أدت إلىٰ مزيد من التحريف والتبديل والتغيير في الأناجيل ، كما تظهره الدراسات المقارنة الواعية بين نصوص الأناجيل وترجماتها المعروفة في عام ١٦١١ م، وتلك الأناجيل التي طبعها اليهود بعد صدور وثيقة التبرئة، والتي طبعت في القدس عام ١٩٧٠م.

---

(١) أحمد عبد الوهاب ، إسرائيل حرفت الأناجيل والأسفار المقدسة ، ص ٢١-٣٤ .

ثانياً: الحروب الصليبية :

إن آثار الاحتكار اليهودي للتجارة والذهب في أوروبا في القرون الوسطى خنق الأمراء الألمان، سادة الأرض والحرب، الذين استولوا على أراضي المقاطعات الأوربية ، وقسموها بينهم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية ، ونهبوا خيراتها بالتعسف والقوة ، وكانت مزاحمة الاحتكاريين اليهود لهم على انتهاب الخيرات بواسطة الربا أحد الأسباب الرئيسة التي دفعتهم إلى التطلع نحو الشرق الإسلامي المزدهر، وبالتالي كانت أحد أسباب الحروب الصليبية، لاسيما وأن هذا التزاحم على سلب الشعوب الأوربية البائسة عن طريق البطش والربا الفاحش أدى إلى سقوط أوربا في هوة من الفقر والتأخر، وانهيار كل أثر للحضارة عندها بعد قرون قليلة من سقوط روما بيد البربر الجرمانيين.

كانت هذه أوضاع أوروبا التي مهدت لاتفاق بعض ملوك المسيحية وأمرائها مع الأثرياء الإقطاعيين، الباحثين عن المغنم، الطامحين إلى الاستيلاء على العالم عنوة وذلك بشن حملة صليبية كبرى، وقد التقت مصالحهم جميعاً مع مصالح المرابين والاحتكاريين اليهود، الذين دعوا إلى فكرة هذه الحملة بكل قواهم وإمكانياتهم المالية . وانتشروا في أوروبا كلها لتحريض حكام المقاطعات وسادة الحرب المسيطرين عليها، وإقناعهم عن طريق فتح خزائنهم على مصراعيها لهم، لتجنيد المحاربين ورشوة المتخاذلين.

وكانوا بذلك القوة الخفية التي عملت من وراء الستار على قيام الحروب الصليبية . ذلك أنهم وجدوا في هذه الحروب الفرصة الذهبية التي تتيح لهم تقديم القروض إلى زعماء الحملات وأمراء المقاطعات والبارونات وسلطات الكنيسة ذاتها، بالربا الفاحش، والمتاجرة بالعتاد والأسلاب، إلى جانب الأهداف السياسية ، وهي إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معاً .

قامت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ م، وكانت مطلعاً للحروب الصليبية الثمانية التي استمرت قرابة قرنين كاملين (١٠٩٥ - ١٢٧١) ميلادية. وقد اتخذت هذه الحروب طابعاً دينياً مسيحياً ، وأظهرت للشعوب الأوربية أنها حملات تهدف إلى حماية الحجاج المسيحيين إلى مهد المسيح، وإعادة الأراضي المقدسة (فلسطين) إلى أحضان أهلها المسيحيين ، ولكن ذلك كان تمهيداً لأن تكون فلسطين في أيدي اليهود، وهذا مايشهد به التاريخ في الوقت الحاضر.

والحقيقة، فإن العوامل التي تدفع قوى الشر في العادة إلى هذا العمل، والتكالب على المغنم، والجشع في امتلاك حقوق الغير، والحقد المتأصل في الصدور؛ هي التي حفزت المدبرين الحقيقيين لهذه الحروب، ألا وهم اليهود.

وقد انتهت بعض تلك الحملات بالنجاح، وتحطم بعضها الآخر على صخرة الإسلام الصلبة ، أما النتيجة النهائية، فقد بقيت فلسطين بيد أهلها العرب ، وفشلت هذه الحروب بعد أن كبدت الإنسانية أرواحاً وأموالاً لا

تقع تحت حصر، وقد امتلأت خزائن الربا والاحتكار بفوائد الأموال المقترضة لتلك الحروب.. !.

وتمخضت الحروب الصليبية بعد ذلك عن النتيجة الأخرىٰ التي ما كانت في الحسبان، وهي أن حصل المرابون اليهود علىٰ مغانم هائلة من تلك الحروب، وخرجوا بنتيجتها أطول باعاً وأكثر خبرة. وكان لهذه النتيجة أثرها العميق في تطور الأحداث خلال الحقب التالية لها، والتي لايمكن إدراكها دون العودة إلىٰ أسبابها الأصلية البعيدة، وقد اعتادت كتب التاريخ إغفال هذه النتائج، فبقيت ردود الفعل الأوربية التي تولدت عن هذه النتائج غامضة في أذهان غير المخلصين، الذين قد يتساءلون عن سبب ضغينة الشعوب الأوربية آنذاك علىٰ اليهود[١].

ويميل المؤرخون إلىٰ اعتبار الحملات الصليبية التي شنها النصارىٰ علىٰ المسلمين هي ثمان حملات. قد يكون هذا الرقم صحيحاً بما يخص الحملات التي توجهت إلىٰ بلاد الشام هي ثمانية، لكن الحملات الصليبية ومحاربة الإسلام هي أكثر من ذلك، منها الحروب المستمرة بين الدولة العثمانية والنصارىٰ، والحروب التي دارت بين النصارىٰ والمسلمين في الأندلس، كل هذه يمكن وصفها بأنها حروب صليبية، حاول الصليبي بقوته التي يمده بها الفكر اليهودي أن يحارب الإسلام وأهله، تلك الصليبية التي بدأ الصراع معها بعد موقعة أجنادين وموقعة اليرموك، التي أنهت

(١) وليم كار، اليهود وراء كل جريمة، ص ٦٠-٦٢.

السيطرة البيزنطية على بلاد الشام ، ومن ثم دخول بيت المقدس تحت راية الإسلام والحكم الإسلامي ، ثم تتابعت الفتوحات الإسلامية ، فشملت مصر وبرقة وإفريقيا والمغرب ، التي كانت كلها تحت الحكم البيزنطي ، وامتدت الفتوحات الإسلامية إلى الأندلس ، ووصلت إلى فرنسا - مثلاً - في معركة عظيمة من معارك المسلمين مع النصارى ، وهي معركة بلاط الشهداء .

ونرى أن الصليبية الحاقدة بعد أن رأت امتداد جحافل المسلمين ، وامتداد رقعة الإسلام ، ولاسيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ، وزحف الإسلام حتى أبواب فينًا ، فقد وضعت الصليبية الحاقدة نفسها في خدمة اليهودية العالمية ، ليسخرها رأس الأفعى في مساعدته على تحقيق خطط الهدم والتخريب . ومن أجل هذا تحالفت قوى الصليبية الأوربية في دول عديدة ؛ هي بلغاريا ورومانيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا ، لمحاربة الدولة العثمانية ، وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء ، كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطنة التي كانت تمتد من تركيا شمالاً إلى حضرموت جنوباً ، ومن إيران شرقاً إلى طنجة غرباً . فضاعت الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، ثم احتلت مصر درة تاج السلطنة ١٨٨٢ م ، ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب .

هذه هي الحروب الصليبية التي بدأت منذ عام ١٠٩٥ م ولا زالت ، وإن انتهت الصورة العسكرية ، واحتلال الجيوش ، ولكن الحرب لا

زالت مستمرة فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعقائدياً ، لأن العلي القدير سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1] .

ونحب أن نشير إلى الحروب الصليبية بما قاله أحد المؤرخين عنها ، ونعتها به ، فقال :

« لم تكن الحروب الصليبية في معناها الواسع إلا فترة زمنية ، ولوناً خاصاً من ذلك الصراع الدائم مابين الشرق والغرب ، ذلك الصراع الذي اختلفت تسميتُه باختلاف الأزمان والمقاصد ؛ فإذا كان هذا الصراع يتمثل في العصور القديمة مابين الفرس من جهة ، واليونان والرومان والروم من جهة أخرى ، متخذاً صبغة الغزو والاكتساح في سبيل تكوين السلطنات العظمى ، والإمبراطوريات العالمية ، فإنه في العصور الوسطى اتخذ الصبغة الدينية من الجهاد الإسلامي والحروب الصليبية الأوروبية . أما في العصور الحديثة ، فإن صبغة هذا النزاع كانت هذا الاستعمار الذي ران على الشرق عموماً ، والإسلام خصوصاً في أشكال متباينة ، وأوضاع مختلفة ، اعتمد فيها الغرب ـ أكثر ما اعتمد ـ على الحيل والدسائس .

ويبتدئ دور الإسلام في هذا الصراع بين الشرق والغرب منذ أن بدأ الإسلام يتجاوز حدود الجزيرة العربية ، فواقعة القادسية ـ ١٦ هـ ـ كانت

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٠ .

معركة حاسمة لإخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب . وبذلك تقلد العرب المسلمون هذه الزعامة في الصراع العالمي . وأصبح النزاع ماثلاً مابين الإسلام في الشرق والأمم النصرانية في الغرب[1] .

وتاريخ الحملات الصليبية الثمانية في العصور الوسطى هو كالتالي :

١ ـ الحملة الأولى ١٠٩٥ـ١٠٩٩ .

٢ ـ الحملة الثانية ١١٤٧ـ١١٤٩ .

٣ ـ الحملة الثالثة ١١٨٧ـ١١٩٢ .

٤ ـ الحملة الرابعة ١٢٠١ـ١٢٠٤ .

٥ ـ الحملة الخامسة ١٢١٨ـ١٢٢١ .

٦ ـ الحملة السادسة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ .

٧ ـ الحملة السابعة ١٢٤٥ـ١٢٤٨ .

٨ ـ الحملة الثامنة ١٢٧٠ ـ ١٢٧١ .

١ ـ مفهوم الحروب الصليبية وأسبابها :

والمفهوم اللغوي مشتق من كلمة صليب Crux باللاتينية ، وتعني الصليب كماهي في الإنجليزية Cross ، وقد خرجت هذه التسمية من شعار الصليب الذي يرمز له النصارى عن قصة قتل المسيح ابن مريم المزعومة ،

(١) محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبيه في المشرق والمغرب ، دار الغرب ، بيروت ١٩٨٢ م ، ص ٢٧ .

والكيفية التي قتل بها، وهي الصلب ، ولهذا فقد جعل قواد الحملات الصليبية هذا الشعار ، وهو صليب صغير أحمر مصنوع من القماش، كان يلصق على كتف كل محارب يزمع السفر إلى بلاد الإسلام للحرب .

والمفهوم الاصطلاحي للحروب الصليبية ينقسم إلى قسمين :

المفهوم الأول واسع في معناه ، ويدل على تلك الحروب التي شنتها أوربا المسيحية بجميع نحلها ومللها، بما فيهم المخالفون والزنادقة والمنشقون من النصارى ضد الإسلام، اعتماداً على الروح الدينية التي استغلّها النصارى لحرب غير النصارى منذ أن نادى بها الإمبراطور البيزنطي عام ٦١٠ م لمحاربة الفرس ، وطردهم من آسيا الصغرى، وبلاد الشام ، ومصر، واستعادة الصليب المقدس وبيت المقدس. فاستغلت هذه الروح الدينية عند اتساع رقعة الإسلام ، وخرج النصارى في حربهم للإسلام .

أما المفهوم الثاني للحروب الصليبية، فيقصد به تلك الحروب التي قام بها النصارى لاستئصال شأفه الإسلام ، والقضاء على الدين الإسلامي جملة وتفصيلاً ، بقصد إبقاء السيادة الدينية والسياسية والاقتصادية للمسيحيين والنصرانية ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١).

والخلاصة : فإن معظم الباحثين متفقون على تعريف الحروب الصليبية، بأنها حركة نبعت من الغرب الأوربي المسيحي في العصور

(١) سورة التوبة ، الآية ٣٢ .

الوسطى ، واتخذت شكل هجوم حربي استعماري على بلاد المسلمين ، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصد امتلاكها ، وقد انبعثت هذه الحركة عن الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر التي سيطر عليها الفكر اليهودي ، واتخذت من استغاثة المسيحيين في الشرق ضد المسلمين شعاراً دينياً للتعبير عن نفسها تعبيراً عملياً واسع النطاق .

كان النظام الإقطاعي سائداً في أوروبا آنذاك ، وقد نتج عن هذا النظام وجود طبقة من الفرسان المحترفين ، الذين رغبوا في إظهار بطولتهم على أرض جديدة لكسب المال والشهرة . كما أن النزاع المتواصل على الأراضي الزراعية تسبب في تعطيل الزراعة ، فزاد الغلاء ، وحدثت المجاعات . وقد دفعت هذه الأحوال المتردية الكثيرين إلى الهجرة إلى بلاد الشرق الغنية والمستقرة . فشكل هؤلاء المهاجرون جانباً لا يستهان به من الجيش الصليبي المحتل ، ولاسيما في بداية الحروب الصليبية .

انطلقت الدعوة إلى الحروب الصليبية من فرنسا ، وكان أول من دعا إلى هذه الحروب البابا أربان الثاني في خطاب ألقاه في مجمع كليرمونت عاصمة إقليم أوفرن في فرنسا في شوال سنة ٤٨٨هـ ، وكان أكثر المشتركين في هذه الحرب ـ ولاسيما في بدايتها ـ فرنسيين . وكان مما قاله البابا محرضاً جمهور السامعين على قتال المسلمين : « أنتم هنا فقراء تعساء ، وهناك ستكونون سعداء ، يهبط عليكم الرخاء ، وأصحاباً مخلصين لله ، لا تأخير

بعد اليوم ، لتكونوا على الأهبة للخروج للقتال عندما يبلغكم النداء ، وسيكون الله مرشدكم »[1]. بل إن البابا أربان وعد المحاربين بالغفران التام، وأنه سيضمن لهم حفظ أموالهم وأهليهم في غيابهم.

ويلاحظ أنه في الوقت الذي بدأ فيه التحرك الصليبي نحو الشرق الإسلامي، كان المسلمون في ضعف وخلاف وتفرق كلمة، وكانت بلاد المسلمين منقسمة على نفسها، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الصليبيين ينتصرون في حملاتهم الأولى على المسلمين ، ويحتلون المسجد الأقصى دون مقاومة تذكر ، فقد كانت عوامل الضعف والانحلال تنخر في جسم الأمة الإسلامية ، كما أن عوامل تفرق السلطة واختلافها كان من أقوى الأسباب التي أدت إلى هزيمة المسلمين.

والأسباب التي من أجلها قامت الحروب الصليبية بعضها ظاهر ، وبعضها خفي. أما الأسباب الخفية، فهي تحركات اليهود النوارنيين للوقيعة بين الإسلام والمسيحية، بقصد الوصول إلى غرضهم الأول ، وهو القضاء على أصحاب هذين الدينين ، ومن ثم القضاء على شعوبهما ، والتحكم في العالم بإقامة دولة بني إسرائيل الكبرى. ومن الأسباب الظاهرة نذكر مايلي :

---

(١) محمد علي الهرفي ، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٣٩٩ ، ص ٣٨.

أ ـ الأسباب الدينية :

يعد الدين الإسلامي أول من أعلن التسامح في العقائد ، وأوصى برعاية أهل الذمة، واحترام حقوقهم وعوائدهم ومعابدهم ؛ فالقرآن الكريم يقول : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (١). ورسول اللهﷺ يقول : « من ظلم ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة » (٢). وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما توجه إلى بيت المقدس سنة ١٥ هـ لعقد صلحها، وأدركته الصلاة وهو في الكنيسة، فأبى أن يصلي فيها مخافة أن يفهم المسلمون من ذلك جواز الصلاة في الكنائس. وكان هارون الرشيد ـ الخليفة العباسي ـ قد بعث بمفاتيح كنيسة القيامة إلى الإمبراطور شارلمان، تقديراً له من ناحية، وإظهاراً لاحترام الإسلام لأصحاب الديانات الأخرى من ناحية أخرى.

هذه هي وجهة النظر الإسلامية بالنسبة إلى الأديان المخالفة ، وخصوصاً لأصحابها الذين استظلوا بحماية الإسلام ، واستقروا تحت نفوذه، وهذا هو المبدأ العملي الإسلامي تجاه النصرانية وغيرها. وإن أي سلوك يخالف هذا المبدأ ـ دون مسوغ شرعي ـ لا يمكن أن يتمشى مع أصول الإسلام ومبادئه.

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

(٢) راجع مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني برقم ٩٦٠ وانظر التعليق على الحديث والمراجع التي أوردت معنى الحديث بألفاظ مختلفة وشروحه .

لقد كان الحجاج النصارىٰ الذين يفدون إلىٰ بيت المقدس، لزيارة ما يزعمون أنه قبر المسيح والأماكن المقدسة لديهم يلاقون معاملة طيبة من الحكام المسلمين ، فلما جاء العثمانيون وحكموا بيت المقدس ، عاملوا هؤلاء الزوار بشيء من الحزم، وقد تأثر البابا أربان الثاني URBAN بهذه المعاملة ، ولاسيما أنها صورت له بأكثر من حقيقتها ، فقام بالدعوة إلىٰ غزو بلاد المسلمين ، وأخذ بيت المقدس. وقد « اغتنم فرصة اجتماع المجمع الديني العظيم ، الذي التأم في مدينة كليرمون ، وحضره ألوف من الفرسان، ليحرض النصارىٰ علىٰ شن حملات حربية ؛ لإنقاذ القبر المقدس وبيت المقدس من المسلمين ، وأن الصورة التي نقلت إلىٰ البابا أربان لم تكن حقيقية ، بل فيها كثير من المبالغة ؛ ذلك أن بطرس الناسك أشهر شخصية من زوار بيت المقدس ، وأعظم داع للحروب الصليبية ، وتهييج الجماهير المسيحية، هذا الزائر المسيحي لم يمنعه وجود السلاجقة ببيت المقدس من زيارة القدس وكنيسة القيامة، ورجوعه إلىٰ أوروبا داعياً للحرب، مثيراً للحماسة ، مستفزاً للعواطف . والحرية التي مكنته من الذهاب إلىٰ بيت المقدس ورجوعه سالماً إلىٰ وطنه بدون أذىٰ ، كل ذلك يخفف ـ علىٰ الأقل ـ من تلك الادعاءات التي أخذ يروجها في مدن أوروبا، وبخاصة في فرنسا لإثارة الحروب الصليبية[1] .

(١) محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ـ١٩٨٢ ، ص ٢٦ ـ ٥٣ .

ولكن هـذا لا يمنعنا من القول بأن حالة الاضطراب والانحلال التي استولت على الشرق الأدنى قبيل الحروب الصليبية ، كانت تضايق بعض زوار بيت المقدس، وتلحق بهم نوعاً من العنت والإرهاق من أناس ركبوا رؤوسهم ، ولم يتشبعوا بروح التسامح الإسلامي . وقد تكاثر زوار بيت المقدس في تللك الأزمنة كثرة مهولة [١].

نعم لقد أخذ بزمام الدعوة بعد البابا أربان الثاني بطرس الناسك ، فأخذ يطوف البلاد الأوربية على حماره يدعو لقتال المسلمين . ويدعي أنه أراد زيارة الأماكن المقدسة فمنعه المسلمون ، وقال لسامعيه : إن المسيح على وشك النزول إلى الأرض ، وأنه لاينبغي أن يعود إلا وقد استرد أتباعُه بيتَ المقدس . وتجمع حوله أعداد كبيرة خرج بهم إلى بلاد المسلمين ، واستطاع المسلمون السلاجقة القضاء عليهم بسهولة .

ب ـ الأسباب الاقتصادية :

لم يكن من المؤكد تماماً أن الشعور الديني، والرغبة في تخليص بيت المقدس، وإنقاذ القبر المقدس هو شعور كل من خرج من المحاربين في هذه الحملات ، بل كانت هناك أغراض أخرى تعتمل في نفوس كثير من المحاربين ، حرص تجار الغرب على إيجاد موانئ تجارية لهم في بلاد الشرق على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، كي تتصل أوربا عن طريق هذه الموانئ ببلاد المسلمين الشرقية، فبذل هؤلاء التجار أموالاً طائلة

(١) محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٣٢ .

للتشجيع على تلك الحروب والدعوة لها وعلى رأسهم اليهود المرابون.

ومن الدلائل البارزة على تغلب العنصر التجاري عند المحاربين، أنهم حينما احتلوا مدينة دمياط في الحملة الخامسة، عرض عليهم الملك الكامل أن يعطيهم بيت المقدس، ومعظم مدن فلسطين، مقابل تركهم لدمياط والسواحل المصرية، ولكنهم رفضوا هذا العرض، «ولو كان غرضهم دينياً فقط، ماترددوا في قبوله، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل سيتنازل لهم عن مدينة بيت المقدس، وغيرها من المدن المتصلة بأصول الديانة المسيحية، وهي المدن التي قامت الحروب الصليبية من أجلها بادعاء المنادين لها»[1].

وقد كان السبب الرئيسي لهذا الرفض أن المدن الإيطالية التي شاركت في هذه الحروب بدافع تجاري محض، عزَّ عليها أن تفقد هذا المرفأ الهام، الذي تستطيع بواسطته إيصال تجارتها إلى داخل البلاد المصرية.

إذن، لم يكن الهدف الديني هو الباعث الحقيقي على الحروب الصليبية بقدر ماهو الباعث التجاري والباعث السياسي. وهكذا تسربلت المسيحية بسربال الدين كما تصورت أن ذلك الحق، وكما صوره لها أعوانها من اليهود، ولهذا ما استطاعت أوربا النصرانية أن تستأصل شأفة المسلمين، وتستحل بيضتهم، ولا أن تسيطر على بلاد المسلمين سيطرة تامة، وبقيت الحرب سجالاً؛ لأن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا حياة صراع بين الحق

(١) محمد علي الهرفي، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، ص ٣٦.

والباطل، كما يقول جل وعلا :

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [(١)].

٢ ـ تأثير الحروب الصليبية :

أ ـ تأثير الحروب الصليبية على المسيحيين :

مامن شك أن أي حرب من الحروب تترك آثاراً في بلدان وشعوب المتحاربين. والحروب الصليبية ـ كما يشهد التاريخ والمنصفون من المؤرخين ـ أنها أفادت كثيراً في الدول الأوروبية، ومانقله النصارىٰ من سمات الحضارة الإسلامية ونظمها، فلقد كانت الأمية ضاربة أطنابها في شعوب أوربا عندما تحرّكت هذه الشعوب إلىٰ الحروب الصليبية. وكان الغالب منهم لايتصور من العالم إلا المحيط الذي يعيش فيه. ولم تكن لهم معلومات، ولاصور صحيحة عن بلاد الشرق، وعن المسافة التي تفصل بينهم وبينه، وحتىٰ عن المناطق والأقطار التي يجب عليهم اجتيازها وسلوكها، فكان من أهمّ ما استفاد هؤلاء الصليبيون الخبرة والمشاهدة، وإدراك صورة صحيحة عن المجتمع الإسلامي وبلاد الشرق.

لقد استفاد النصارىٰ الكثير. ولم تجد أوربا في الحروب الصليبية سبيلاً للاتحاد الداخلي فحسب، ومؤثراً جديداً في شتىٰ مرافقها الداخلية، ولكنها كسبت عن سبيلها نظرة جديدة واسعة للحياة، وقد كان هذا

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥١.

الاتساع في مدىٰ النظر إلىٰ ما اكتسبته من الحروب الصليبية إذا أضفنا إليه روح الكشف ، وتقدّم الجغرافية .

وقد وجد الصليبيون أنفسهم أمام حضارة إسلامية ذات إشعاع عظيم ، فبهرهم هذا الإشعاع ، ولمسوا التفوّق السياسي والتنظيم الاجتماعي عند العرب ، فعادوا يحملون انطباعاتهم ، وينشرون الدعوة إلىٰ إصلاح شامل ، يبدأ بتحرير الفكر وبتسهيل التبادل المادي والفكري ، وصون الحرية الفردية . وغير ذلك مما يكفل للفرد الرعاية والرفاهية والطمأنينة [1] .

وإن فصْلَ الدين عن الدولة في العالم المسيحي ، الذي يعد من أهم الاصلاحات في نظر الأوروبيين ، كان من آثار رؤية المسيحيين لفقدان سلطان علماء الدين علىٰ الملوك . رأوا ذلك ، سواء في الأندلس ، أو في الحروب الصليبية . كما أن دستور إنجلترا المتين يعد نتيجة بعيدة ، وأثراً من آثار الحروب الصليبية ، وتعد الاصلاحات التي أدخلها لويس التاسع في مملكته (فرنسا) نتيجة لمشاهداته التي رآها بمصر والشام ، عندما ذهب إلىٰ المشرق متزعماً الحملة الصليبية السابعة ، أما فريدريك الثاني ، ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا ، الذي يعد أعظم ملوك أوروبا تشبعاً بالحضارة الإسلامية ، واحتذاءً لها ، والذي قاد الحملة الصليبية السادسة ، فإنه أول من أسس جامعة علمية بأوروبا (جامعة نابلي) ، وأول من أسس مجلساً نيابياً ، ووضع قاعدة المساواة في الحقوق والتكاليف ، وأيد سيطرة

(١) المرجع السابق .

القانون على جميع الطبقات ، وأطلق حرية كافة العقائد ، وأصدر قانوناً بالإسعاف الدولي للفقراء ، وقد رتب أمور الدولة ترتيباً، أجمع المؤرخون على أنه كان حجر الأساس في تكوين الدول الحديثة ، وأسس الدواوين المختصة ، وفصل بين السلطة القضائية والمالية والتشريعية ، التي كانت من خصائص الملك وحده ، وقضى على سلطة الكهنوت . وتشبُّع فريدريك الثاني بالأفكار الإصلاحية ، ومحبته للثقافة الإسلامية وتقليدها هو ما دعا البابا إلى حرمانه والحكم بإلحاده .

ظلّت أوربا في عصورها الوسطى، وزمن الحروب الصليبية خاضعة للنفوذ الكنسي والسلطة البابوية . وكانت الكنيسة متسلطة على الشعوب الأوروبية وطبقاتها المختلفة ، تفرض عليهم القوانين التي يتقبلونها مهما كان نوعها . وحرمت الكنيسة الغربية الاستحمام ، وحظرت فتح الحمامات بعد أن كانت شائعة في الدولة الرومانية .

وكانت الكنيسة الغربية تحرم الطب وصناعته ؛ لأن المرض عقاب من الله ، لاينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه ، وظل الطب محجوراً عليه إلى مابعد استهلال القرن الثاني عشر للميلاد [١] .

وكانت طرق المعالجة عند الصليبيين الذين وردوا إلى المشرق بدائية تعتمد على الشعوذة والدجل ، أو على أساليب في غاية الفظاظة والقسوة .

ونتيجة لاختلاط الصليبيين بالعالم الإسلامي ، واطلاعهم على أساليب

---

(١) المرجع السابق .

العلاج والتداوي، بدأت تظهر دور المعالجات ، والبيمارستانات، وطرق العلاج الصحيحة في أوروبا منذ القرن الثاني عشر الميلادي .

ولعلّ من أعظم ما استفادته أوروبا من الحروب الصليبية ذلك النشاط التجاري الذي حصل بين الشرق والغرب ، وذلك التقدم في الملاحة البحرية، وتحسين وسائلها ومقوّماتها ، لاسيما استعمال الإبرة المغنطة (البوصلة)، التي شاع استعمالها في السفن العربية ، ونقلها عنهم ملاحو البحر الأبيض المتوسط الأوربيون . ثم شاعت شيئاً فشيئاً عند بقية الملاحين الأوروبيين .

وكانت السفن الصليبية التي ترد من جنوب أوروبا ومن شمالها ، محملة جنوداً ومقاتلين ، تعود إلىٰ أوربا مملوءةً بمختلف السلع والبضائع ؛ من أقمشة حريرية ، ومزركشة ، ومن أوان مطعمة مزخرفة، ومن مواد غذائية متنوعة ، لعلّ من أعظمها قيمة السكر الذي لم تكن أوروبا قد عرفته بعد، فقد كان اعتمادها قبل ذلك علىٰ العسل فقط . وانتقلت إلىٰ أوروبا الزرابي الفاخرة التي تنافس في شرائها النبلاء والسادة ، وزينوا بها قصورهم ، واستعاضوا بها عن سجاجيد الزعف والقش . ثم أخذوا في تقليدها والنسج علىٰ منوالها . وإلىٰ اليوم ما زال بعض الأقمشة بأسماء عربية [١].

وبسبب هذا الاتصال التجاري انتقلت كذلك نباتات جديدة إلىٰ أوربا ، مثل السمسم والخروب والدخن والأرز ، والليمون والبطيخ والمشمش ،

---

(١) المرجع السابق .

كذلك عرفت أوروبا التوابل والأبازير، فاستعملتها في الأكل، وكانت في أشدّ الحاجة إليها، نظراً لبرودة الجو في أوربا .

ودخلت الرفاهية والثروة إلى الأوساط الشعبية . وكانت المدن التي تولت النقل التجاري بين الشرق والغرب من أغنى مدن أوروبا في ذلك الزمن؛ مثل مدن : جنوة ، بيزة ، البندقية، مرسيلية .

وتأثر الصليبيون بهندسة البناء العربي ، خصوصاً في القلاع والكنائس ؛ فقد بنى الإنجليز قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقابل الطراز العربي في مضاعفة الجدران ، وإقامة البروج فيما بينها ، وتخطيط الحصون المركزية ، وإقامة الأبـواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة ، التي تحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأفنية الداخلية(١) .

لقد أثرت الحملات الصليبية في أوربا تأثيراً كثيراً ، فغيرت بنية الحياة السياسية ، ونمط الحياة الاجتماعية ، وأسلوب النظم الاقتصادية ، وإلى هذا تشير دائرة المعارف البريطانية بالقول الآتي : « لم يكن الشرق الروماني، وصقلية وإسبانيا بمقدورها نقل العلوم والفلسفة العربية إلى الغرب. لكن الحروب الصليبية كان لها تأثير بين على تطور الحياة الغربية»(٢) . وتشير دائرة المعارف العالمية إلى أن « تأثير الحروب الصليبية على الحياة الأوربية كان كبيراً، بالرغم من أنه من الصعب الحكم على نتائجها بعيداً عن تأثير

(١) محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ١٥٥ ـ ١٦٤ .

(٢) دائرة المعارف البريطانية ، أدنبرة ، ١٩٧٣ ، ج ٥ ، ص ٣١٠ .
Encyclopeadia Britanica.

الحركات التي تزامنت معها. فمن الناحية الاقتصادية فإن الحروب الصليبية - ودون شك - رفعت مستوىٰ المعيشة، وخلصت أوربا من التضخم الاقتصادي، وأصبحت الأموال المكنوزة متداولة.

ومن الناحية التجارية، فلقد استفادت مدن الولايات الإيطالية من نقل الحملات الصليبية وتزويدها باحتياجاتها. ولقد تمكنت الحملات الصليبيه من تأسيس مستعمرات تجارية كثيرة في المدن الشرقية، والحملات الصليبية مكنت كثيراً من الغربيين للتعرف علىٰ حياة الرفاهية في الشرق، مما ساعد علىٰ اتساع الأفق الأوربي، واتساع الذوق الرفيع في الحياة الغربية.

هكذا استفادت أوربا من الحملات الصليبية التي شنتها علىٰ الشرق الإسلامي، ولكنها تركت الخراب والدمار والسوء في بلدان الإسلام؛ لأن الشعوب الأوربية لم يكن لديها القدر الحضاري الذي يؤهلها لكي تترك آثارها في العالم الإسلامي [1].

وسنعرض إلىٰ ذلك خلال حديثنا عن تأثير الحملات الصليبية علىٰ المسلمين.

ب - تأثير الحروب الصليبية على المسلمين:

لقد تركت الحروب الصليبية آثاراً بعيدة المدىٰ علىٰ الشعوب الإسلامية؛ اجتماعياً ونفسياً وثقافياً. فهذه الحروب لم تكن مجرد معارك قتالية، وكر

(١) دائرة المعارف العالمية، نيويورك، ١٩٧٣م، ج ٥، ص ٣٤٠.
Ensyclopeadia International.

وفر، فالصليبيون الذين يضمون أجناساً مختلفة يؤمن أكثرها بالمسيحية، والذين طال مكثهم في البلاد الإسلامية، فخالطوا أهلها، واستقروا فيها، فتأثروا وأثروا في أهلها، ولكن تأثير النصارىٰ علىٰ المسلمين تأثير سلبي، تأثير ظالم، كما تشير العبارات التالية فيما تصفه عن أفعال النصارىٰ بالمسلمين حين دخل الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان عام اثنين وتسعين وأربعمائة للهجرة بعد حصار طويل؛ (وكان يحكمه افتخار الدولة، وهو والٍ من قبل الفاطميين في مصر)، وقد فعل هؤلاء الغزاة بالمسلمين أفعالاً شنيعة، دلت علىٰ مدىٰ حقدهم الهائل علىٰ المسلمين. وقد قال ابن الأثير في وصف المذبحة التي أحدثها الصليبيون: (وقتل الفرنج ما يزيد علىٰ سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين بالمسجد وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف).

وقد روىٰ ول ديورانت عن القس ريمند الزجيلي، الذي حضر هذه المذبحة قوله: «وشاهدنا أشياء عجيبة؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم قتلاً بالسهام، أو أرغم علىٰ أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا بالنار، وكنت ترىٰ في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام؛ وكان الأنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل».

وقال شاهد عيان آخر: «إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف

والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ، ويقذف بهم من فوق الأسوار ، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد ، وذبح سبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة» .

وبلغ من حقد الصليبين أنهم انطلقوا إلى المساجد والمنازل والشوارع ، يقتلون كل من يصادفهم دون تمييز . وقد ازداد خطر الصليبين في بلاد الشام، وكثر استهتارهم بالمسلمين ، حتى إنهم حينما حاصروا حلب عام ثمانية عشر وخمسمائة، قطعوا الأشجار ، ونبشوا قبور الموتى، وكانوا يعمدون إلى من لم تنقطع أوصاله منهم فيربطونه في حبال، ويسحبونه أمام المسلمين ، قائلين لهم : هذا نبيكم ، وأحياناً : هذا عَلِيُّكم، وكانوا كذلك كلما أمسكوا بمسلم، قطعوا يديه ومذاكيره[١] . وقد استطاعوا لضعف المسلمين أن يفرضوا على كل بلد تجاورهم إتاوة في مقابل كف أذيتهم عنهم، ثم أرسلوا إلى مدينة دمشق فاستعرضوا الرقيق الذي أخذ من كل البلاد النصرانية ، وخيروهم بين البقاء عند أربابهم، أو العودة إلى ديارهم ، فمن أحب البقاء تركوه، ومن رغب في العودة أعادوه[٢] .

إن هذه المصائب التي أصابت المسلمين في فترة الحملات الصليبية الأولى، كان سببها ضعف المسلمين ، وتفرق كلمتهم قبل أن يجمعها الله

(١) محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، ص ١٩٣ - ١٩٥ .

(٢) انظر: Geoffrey Hindley , Saaladin: A Biography, Constablar, London, P.163.

سبحانه وتعالىٰ زمن صلاح الدين الأيوبي، الذي لقن النصارىٰ درساً لا ينسىٰ حتىٰ يومنا هذا، الأمر الذي جعل الإنجليز يطلبون معه الهدنة بعد معركة حطين .

ومهما يكن من أمر، فإن الحروب الصليبية تركت آثاراً سيئة علىٰ أبناء المسلمين، وفي مواطن كثيرة من البلاد الإسلامية ، فلقد اشتدت حركة التصوف في فترة الحروب الصليبية؛ وذلك أن الأخطار التي أحدقت بالمسلمين، وهددتهم في حياتهم وأرزاقهم، جعلتهم يقلعون عن كثير من المعاصي، ويلجؤون إلىٰ الله لكشف الضر عنهم .

ولذا فقد كثر أصحاب الطرق الصوفية ، ولا سيما في مصر ، وقد ابتعد أكثر هؤلاء عن ميادين الجهاد ، واشتغلوا بكثرة الصلاة والصيام، وجاور بعضهم بمكة أو المدينة ، وقد ظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد ، وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله .

ومن آثار الحروب الصليبية : هبوط الحالة الاقتصادية في بلاد الشام إلىٰ حد كبير ؛ لأن الأموال كانت تؤخذ من الناس لصرفها علىٰ المقاتلين، فكثر الفقر، فما ظنك بجيش جنوده من المجرمين والقتلة وحثالة المجتمع ؟ وكيف تكون هذه حرباً مقدسة . لا ، إنها حرب نهب، وسلب، وهيمنة وهذا ما نجده في إحدىٰ دوائر المعارف العالمية، والتي تقول : «لقد كان هناك عنصر السيطرة هو المحرك للحروب الصليبية أشبه ما يكون بالاستعمار الذي وجد في القرن التاسع عشر، والتي فيها كانت أوربا الغربية قد صحت

من اضطرابات العصور المظلمة، وبدأت تنمو ثروتها وسكانها، فأرادت توسيع رقعتها نحو الشرق، حيث وجد الصليبيون في الأراضي الإسلامية حضارة متنورة وأناساً متفتحين»(١).

لا يمكن أن نتصور فائدة كبيرة استفادها العالم الإسلامي من الحروب الصليبية، وكيف تمكن الاستفادة ممن كان أقل ثقافة وأقل حضارة؟ فلم يكن الصليبيون يفوقون المسلمين ثقافة ورقياً، رغم ما أصاب العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية من انحلال وتدهور.

لقد كان غُنْمُ هذه الحروب للصلبيين، أما خرابها ودمارها فكان من نصيب المسلمين، ولقد رأينا الفوائد التي تحصل عليها الصليبيون خصوصا، وأوربا عموما في أثناء تلك الأحقاب التي تطاحن فيها الشرق والغرب، وامتزج فيها العالمان مدىٰ قرنين من الزمن.

لقد بعثت الحروب الصليبية الرعب والفزع والتخريب والتدمير، وجلبت الجدب والقحط أينما حلت، سيما في البلاد الشامية، وكانت دماء الآمنين والأبرياء والضعفاء تراق دون حساب، ولأدنىٰ سبب، وحتىٰ دون سبب، وكانت قساوة الصليبيين وفظاعة أعمالهم محل سخط جميع الأجيال، أورثت الحقد والبغضاء والتنافر بين الأجناس.

وإذا كان العالم الأسلامي قد استفاد شيئا من تلك الحروب من الناحية المادية، فإنماهو شيء قليل تافه لكن المسلمين استفادوا من تلك الحروب

---

(١) دائرة معارف هارفر العالمية، .Harver World Ensyclopeadia ج ٣ ص ١٢٧٦ - ١٢٧٧.

ظهور الوعي الديني، وتحفز العالم الإسلامي للدفاع عن الحمىٰ والدين ورفع المظلمة، ومحاولة البعض من القادة تكوين وحدة إسلامية قوية تستطيع رد العدوان، ومحو وصمة العار، وهذا هو ما سعىٰ إليه عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ثم جاء بعدهما صلاح الدين الأيوبي، الذي يعد أعظم ممثل لانبعاث الوعي الإسلامي، ور دكيد الصليبين.

٣ـ الحروب الصليبية مصدر من مصادر الأدب الإنجليزي للكتابة عن الإسلام :

إن جميع أحداث الحروب الصليبية اهتم بها المؤرخون والكتاب في الغرب، وكانت نقطة ارتكاز أساسية في التراث الأوربي عموماً، وفي التراث الإنجليزي خصوصاً ؛ لأن الحملة الصليبية التي قادها الملك الإنجليزي ريتشارد الأول، المعروف بقلب الأسد، تعد حملة عالمية كبرىٰ، حيث جمعت لها الأموال الطائلة، وحشدت لها الحشود الكبرىٰ.

وتعد الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٣ ـ ٥٨٩هـ) (١١٨٧ ـ ١١٩٢ م) علىٰ وجه الخصوص المضمار الكبير لكتابات الأدباء في إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وغيرها من الدول الأوربيه ؛ ذلك لأن الحملة الصليبية الثالثة تعد بمثابة حملة عالمية كبرىٰ، إذ جمعت لها الأموال الطائلة، وحشدت لها الجيوش الكبيرة من كل أنحاء أوربا بعد نداء البابا من روما، وشملت الجيوش أعداداً كبيرة من النمسا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا وفرنسا، وتمثل المنازلات البطولية، ومواقف الفروسية في هذه الجيوش النصرانية،

وما يقابلها من جيوش إسلامية الكثير من القصص والقصائد الشعرية ، خصوصاً فيما يتعلق بشخصية الملك ريتشارد قلب الأسد ، وشخصية الإمام المسلم صلاح الدين الأيوبي بطل حطين.

ومن أشهر القصص التي تتحدث عن بطولات صلاح الدين الأيوبي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة التي قادها الملك ريتشارد قلب الأسد: القصة الإنجليزية التي ظهرت في العصور الوسطىٰ بعنوان (ريتشارد قلب الأسد)، وقد كتبت هذه القصة في القرن الرابع عشر الميلادي [١]. وهذه القصة كانت ملحمة منظومة تحكي جميع أحداث الحملة الصليبية الثالثة في أسلوب أوربي، يصور الشرق والمسلمين في الأرض المقدسة في فلسطين. ويوجد في هذه القصة الكثير من الدس علىٰ المسلمين ، والإجحاف بهم ، وإن كانت تصور بشاعة الغزو الصليبي، وسلوك المحاربين والنصارىٰ ، ونذكر من أحداث هذه القصة ما يدل علىٰ وحشية الصليبية؛ ذلك أن الملك ريتشارد قلب الأسد كان مريضاً ذات يوم ، وطلب من حاشيته أن يحضروا له طعاماً من لحم الخنزير ، ولما لم يكن لحم الخنزير معروفاً في بلاد المسلمين، لأن أكله محرم في الإسلام ، وكان الملك يلح علىٰ ذلك ، فقد قام رئيس حرس الملك بذبح طفل من أطفال المسلمين ممتلئ الجسم ، وقدمه للملك علىٰ أنه لحم خنزير [٢] ، يا لها من خسة ووحشية . هذا هو حال

(١) انظر : Paul Harvey , The Oxford Companion to English Literature, Oxford University Press, Oxford, 1975,P.639.

(٢) انظر: S. Lane - Pool, Saaladin and the Fall of the Kingdom of=

النصارىٰ ، فهم أكلة لحوم البشـــر إما بالفعل أو بالقتل . والنقاد والأدباء فـــي الغرب يرون أن هذه القصة مثال للبطولة والشجاعة التي قام بها الفرسان في هذه الحملة ، التي اشتهر فيها ملك الفرنجة والإنجليز ريتشارد قلب الأسد .

وهناك قصة مماثلة في الأدب الفرنسي بعنوان (حملة الملك ريتشارد) ، وهي تحكي بطولات ملك الإنجليـــز في فلسطين مع المسلمين . وهذه البطولات التي يراها الأوربيون في أدبهم ليست إلا مظاهر من الهمجية والوحشية ، فهي تمثل قتل الصليبين للمسلمين ، وأكل لحوم المسلمين علىٰ المآدب الملكية ، إذ إنه في إحدىٰ غزوات الملك ريتشارد أمر جنوده بقتل جميع أسرىٰ المسلمين من رجال وأطفال ونساء ، ووضع رؤوس القتلىٰ علىٰ موائد الطعام[١] . هل هذه بطولة أم دناءة وخسة ؟ وهذه القصة وأمثالها تعمل علىٰ تمجيد الصليبين، واعتبار أي موقف من المواقف الحربية التي تلحق الأذىٰ والضرر بالمسلمين مواقف شجاعة وفروسية وبطولة .

وأمثال هذه القصص مليء بالتلفيق والأساطير والأكاذيب عن حقيقة الإسلام، وعن حياة المسلمين ، وفي هذه القصة أخطاء تاريخية، حيث إنها تشير إلىٰ منازلة ميدانية قامت بين صلاح الدين الأيوبي ، والملك ريتشارد قلب الأسد . والمعروف في كتب التاريخ أنه لم يلتق قط صلاح الدين

=Jerusalem, Khayats, Beiurut,1964,p,377.

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ٥ ، ص ٣٠٥.

بريتشارد، لا في حرب ولا في سلم ، وإنما الذي التقىٰ بالملك ريتشارد هو العادل أخو صلاح الدين الأيوبي وسيأتي توضيح ذلك في مكانه لاحقاً إن شاء الله .

ولقد كتب المؤلف الفرنسي مايكل جين سيدين (١١٣٢ ـ ١٢٠٧هـ) (١٧١٩ـ١٧٩٢ م) Michel-Jean Sedaine مسرحية بعنوان (ريتشارد قلب الأسد) ، وذلك في عام ١١٧٨م ـ ٧٦٤ هـ، أشاد فيها ببطولات هذا الملك ، والأخذ بالثأر ، وتحقيق الانتصار علىٰ المسلمين وتأديبهم ، مع العلم أن الملك ريتشارد ، وبقية القواد في هذه الحملة قد منوا بالفشل الذريع ، بسبب تصدي المسلمين لهم ، وبسبب الخلافات التي سادت صفوف الجيوش الصليبية ، كما تروي كتب التاريخ ، فذهبت ريحهم سدىٰ .

فكيف تأتىٰ للملك ريتشارد قلب الأسد أن يأخذ بالثأر ويحقق الانتصار ؟ ولكن المقصود هو الإشادة بقوة المسيحية ، وأن المسلمين ضعاف متخاذلون .

ولو قرأ أحدنا كتاب (حكايات قسس رهميز) التي ظهرت في الفترة مـا بين (٦٥٩ـ٦٦٩هـ) (١٢٦٠ ـ ١٢٧٠ م) the tales of minstrels rhemis ، لوجدها تنسج الكثير من الأكاذيب والأباطيل ؛ ومنها أن القائد صلاح الدين الأيوبي قد وقع في حب زوجة ملك فرنسا قائد الحملة الصليبية الثانية ، وأن حب هذه الملكة لصلاح الدين الأيوبي دعاها إلىٰ ترك دينها ، واعتنقت الدين الإسلامي ؛ لكي تتمكن من

الزواج من هذا البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي ، ولو بحثنا في كتب التاريخ لوجدنا أن هذه القصة مليئة بالأكاذيب والافتراءات الكثيرة ؛ ففي الوقت الذي جرت فيه أحداث الحملة الصليبية الثانية لم يكن عمر صلاح الدين الأيوبي قد تجاوز الحادية عشرة، فالحملة الصليبية كانت بدايتها في عام (٥٤٢هـ ـ ١١٤٧م)، وميلاد صلاح الدين الأيوبي كان في عام (٥٣١ ـ ١١٣٦م).

ومن بين هذه الأكاذيب في هذه السلسلة من الحكايات : القول بأن صلاح الدين الأيوبي اقتنع بالمسيحية كدين صحيح بديل للإسلام ، وأنه ذهب لإحدىٰ الكنائس لتطهير نفسه وجسده بالماء المقدس ، بل الأكثر من ذلك ما تحكيه هذه الروايات من أن صلاح الدين دفن بعد موته في إحدىٰ المقابر الملحقة بإحدىٰ الكنائس المسيحية الكبيرة في مدينة دمشق. كل هذه الأكاذيب والأساطير ذهب إليها الأدباء الأوربيون بقصد الترويج للنصرانية والتبشير بها ؛ ليوهموا القراء بوقائع لا وجود لها علىٰ الإطلاق.

وهناك عدد كبير من الحكايات والقصص والمسرحيات والقصائد التي ظهرت في الأدب الفرنسي في العصور الوسطي، وملأت الكتب بالكثير من الأساطير والأكاذيب عن الحروب الصليبية ، والحملات الثمانية المختلفة[1].

فعن الحملة الصليبية الأولىٰ نظم الشاعر الفرنسي جريند دي دواي

(١) المرجع السابق ، ص ١١٨٢ـ ١٨٣.

Grained de Douai الكثير من القصائد الشعرية مثل (أغنية أنطاكية) Chanson Antioch ، وقصيدة (غزو القدس) Conquete de Jerusalem وظهرت كلتاهما في أوئل القرن الثالث عشر الميلادي[١].

وعن الحملة الصليبية الثالثة كتب الشاعر الفرنسي أمبروادي إيفرو Aimbroise d ' Evreux قصيدة طويلة أسماها (تاريخ الحرب المقدسة) Estoire de la guere Sainte ، وتتألف هذه القصيدة من حوالي اثني عشر ألف بيت ، وتصور هذه القصيدة سوء المعاملة التي يلقاها الحجاج والزوار النصارىٰ للأراضي المقدسة من قبل المسلمين. والشاعر بهذا يرىٰ أن العرب والمسلمين أمة همجية لا تعر ف المظاهر الحضارية والأخلاقية والإنسانية، كما تضمنت هذه القصيدة الإشادة بريتشارد قلب الأسد أيضاً[٢].

ومن أشهر الروايات التاريخية في فن القصة في الأدب الإنجليزي روايات القاص البريطاني السير والتر سكوت Sir Walter Scott (١١٨٥ـ ١٢٤٨هـ) (١٧٧١ـ ١٨٣٢ م)، ومنها روايتا المخطوبة (١٨٢٥) The Betrothed والطلسم The Talisman (١٨٢٥)، وهي حكايات عن الحروب الصليبية ،يظهر فيها الكاتب النيل من الرسول ﷺ والمسلمين بكل ما أوتي من قدرة علىٰ التدليس ،

(١)انظر: Paul Harvey and J. Heseltine, The Oxford Companion to French , Literature, Oxford University Press, Oxford, 1969,p.23.

(٢)المرجع السابق ، ص ١٥ .

والقول بأن النصارى أصحاب حكمة ودراية بالحرب وفنونه، ويصف المسلمين بأنهم جبناء ، وأن الحكمة والهدوء والحنكة هي سمات الصليبيين . وفي هذه الروايات أعمل هذا الكاتب فيها فكره بكل جهوده التبشيرية والاستعمارية في تلفيق الحقائق التاريخية، والحط من قيمة الإسلام والمسلمين، واعتبار أن المسلمين ليسوا بشجعان وأن الأوصاف التي اتصف بها صلاح الدين الأيوبي إنما ذلك من قبيل المصادفة ، وأن تلك الصفات هي سمات الإفرنج، وليس للعرب ولا المسلمين نصيب منها، وليست من أخلاق المسلمين وطبائعهم ، وهو يرى أن المسلمين كفار وملاحدة ووحوش وقطاع طرق. ولقد كتب الأديب الألماني ليسينج G . E . Lessing (١١٤٢- ١١٩٦هـ) (١٧٢٩ - ١٧٨١ م) مسرحية شعرية في عام (١١٩٢- ١٧٧٨ م) تحكي عن الحروب الصليبية أيام صلاح الدين الأيوبي ، ولقد تضمنت المسرحية الكثير من الأخطاء التاريخية، إلى جانب ما جاء فيها من تدليس ، وتحقير للإسلام والمسلمين الذين اعتبرهم الكاتب جبناء ، وصور شخصية صلاح الدين الأيوبي بأنه في منتهى الجبن والخوف ؛ إذ طلب الصلح ، وعقد معاهدة مع المسيحيين، وعلى رأسهم الملك ريتشارد قلب الأسد، بشرط أن تزف أخت صلاح الدين الأيوبي ست الشام إلى أحد إخوان ريتشارد(١). كيف يمكن أن يكون هذا مع إمام عادل ومؤمن تقي مثل صلاح الدين الأيوبي، العالم بأحكام الله ؟ .

(١) انظر: S. Lane-Poole, Saladine and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, pp. 397-398.

هكذا بدأت الكتابات الأدبية من شعر وقصة ومسرحية في الآداب الأوربية، وكان الحديث عن الإسلام بصورة مشوهة هو شغل أوربا الشاغل، فالحديث عن الشرق عموماً ، وعن الإسلام خصوصاً في أي فن من الفنون ، وفي أي علم من العلوم في نظر الغربيين، إنما هو مسألة تتعلق بمصلحة الكنيسة ، وبالاستراتيجية الاستعمارية ، والقوانين التي تخضع لها، والحديث عن الإسلام وحضارته وتراثه، لا ينبغي أن يظهر بحقيقته السليمة ، بل لا بد على كل كاتب - أديباً كان أو غيره - أن يعالج الإسلام في كتاباته ، وكأنه شيء متأخر منحط، ليس له من الرقي الحضاري ومظاهر التقدم نصيب .

وهذا هو المنهج الذي اتبعه الأدباء في كتابتهم عن الإسلام، كما نجد في الأعمال الأدبية التي تتصل بالشرق والإسلام في مؤلفات تشوسر Chaucer Geoffery (٧٤١-٨٠٣ هـ) (١٣٤٠ - ١٤٠٠ م)، وكتابات ماندفيل Mandeville Bernard (١٠٨١هـ ١١٤٦م) (١٦٧٠-١٧٣٣ م)، ووليم شكسبير (٩٧٢-١٠٢٥هـ) (١٥٦٤-١٦١٦ م)، وكذلك في أعمال جون دريدان (١٠٤١- ١١١٢هـ) (١٦٣١ - ١٧٠٠م)، والإكسندر بوب Alexander Pope (١١٠٠ - ١١٥٧هـ) (١٦٨٨ - ١٧٤٤ م)، واللورد بايرون Byron Lord G (١٢٠٣ - ١٤٢١هـ) (١٧٨٨-١٨٢٤ م)، وغيرهم كثير. فهم جميعا يصفون الشرق بأنه بلاد التخلف والانحطاط، وإن تحدثوا عن حضارته، قالوا إنها حضارة

اندثرت وأفل نجمها ؛ وأن الدين الإسلامي الذي ظهر في الشرق مختلق، يغرر بالإنسانية، ويحكم عليها بالشقاء ، وأن رسول هذا الدين شاعر وكذاب [١] .

ومن هذه الكتابات التي تعد امتداداً لتصوير الفروسية وأدب الحروب ما نجده في كتابات المؤلف الإنجليزي تشوسر، وخصوصاً عمله المشهور باسم حكايات كانتربري Canterbury Tales، وعلى وجه الخصوص (حكاية الفارس)The Knight's Tale ، ففيها يظهر الكاتب قوة الفارس النصراني ، ومقدرته على المنازلة، خصوصاً أمام فرسان الشرق من أبناء المسلمين. وهذا التصوير الرمزي وما شابهه يهدف إلى إظهار قوة الرجل الغربي، وقدرته على منازلة الشرقيين ، ويظهر في ذلك التركيز على العصبية العرقية ، أي أن الرجل الأبيض أقدر من غيره على الحرب والصمود، وكأنهم بذلك يوحون أن اللون الأبيض هو سبب القوة. وأين كانت هذه القوة وتأثير اللون الأبيض يوم حطين وغيرها ؟ إنه ليس اللون الأبيض وتأثيره ، ولكن العنصرية التي تملأ نفوس الغربيين، من أمثال هذه الكتابات والتركيز على الرجل الأبيض، ومظاهر العنصرية كثيرة جداً، وذلك ما نجده في كتابات الإنجليزي كبلينج R. Kipling (١٢٨٢ـ ١٣٥٥هـ) (١٨٦٥ـ١٩٣٦ م)، وتوماس آرنولد Thomas Arnold (١٢٨١ـ١٣٤٩هـ) (١٨٦٤ـ١٩٣٠ م)، ولدى الفرنسيين عند آرنست

---

(١) انظر : Edward Said, Orientalism, P. 30.

ريــــــنـان Ernest Renan (١٢٣٩ـ١٣١٠هـ) (١٨٢٣ـ١٨٩٤م)، وغيرهم كثير.

إن مثل هذا التصوير في كتب الأدب والتاريخ والأديان كان هو المصدر الرئيس لكتاب الأدب الإنجليزي في الحديث عن الإسلام، وبادئ ذي بدء، فلقد دلس الرهبان والقساوسة حقيقة الوضع الذي يعيشه الحجاج النصارىٰ إلىٰ بيت المقدس، وقد بدأت الحملات الصليبية بما بدأت وقامت عليه بالكذب والافتراء، فهذا بطرس الناسك، الذي كان يعرف حقيقة الوضع القائم في بيت المقدس غرر النصارىٰ والحجاج المسيحيين، وكذب عليهم، وهو نفسه حج إلىٰ فلسطين، ووجد كثيراً من التسامح من المسلمين، ومع هذا فقد كان يُهيج الشعوب الأوربية حال طوافه علىٰ حماره من بلد إلىٰ آخر، ويروج الدعاية الكاذبة ضد المسلمين، وأن علىٰ النصارىٰ واجباً كبيراً في تخليص بيت المقدس من المسلمين، فهم أمة متوحشة بربرية حاقدة، لا ترحم النصارىٰ، ويُحرمون في دينهم أشياء ويحلون أشياء أخرىٰ، وأنهم يبيحون تعدد الزوجات، ويفرضون الجزية علىٰ النصارىٰ، ويفرضون الصدقات علىٰ أنفسهم. هكذا قدم هذا الناسك صورة قبيحة عن الإسلام وأهله، فكانت هي الصورة الماثلة في الأذهان منذ ذلك الحين وحتىٰ الوقت الحاضر عند كثير من الناس، ومنهم كتاب الأدب الإنجليزي.

كذلك نجد الصورة نفسها في كتاب البابا أوربان الثاني، الذي ألقاه في كليرمونت، داعياً إلىٰ الحروب الصليبية، فهو يصف المسلمين بأنهم شعب

لعين، وأبعد ما يكون عن الله تعالىٰ ؛ ويخلط الحقائق مع الخيال ؛ فيذكر احتلالهم بعض أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وينسب إليهم أعمال السلب والنهب والسرقة والقتل، وما ماثل ذلك. ثم يبدأ بإثارة عواطف الكبرياء لدىٰ الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين، ويذكرهم بماضيهم المجيد زمن شارلمان وغيره من الملوك، وأنهم أقوىٰ البشر وأجدرهم، وأكثرهم أهلية للانتقام من ذلك الجنس الملعون، وإنقاذ قبر السيد المسيح، ويعدهم أن يرثوا خيرات بلاد الشام والأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، ويعدهم النصر علىٰ الأعداء، والدخول في ملكوت السماوات [١].

إذا كان هذا هو حال رجال الدين، الذين يعتقد أنهم هم الصالحون الصادقون، وهم يكذبون ويلفقون الحقائق، فماذا عساه أن يكون حال غيرهم ؟ لقد كذب هؤلاء علىٰ الحقيقة، فكان كذبهم سبباً في إضلال غيرهم، ومنهم كتاب الأدب الإنجليزي، فجاءت كتاباتهم مشحونة بالإفك والافتراء والزور والبهتان، وزاد الأمر سوءاً خلط هؤلاء الأدباء الحقيقة مع الخيال فيما كتبوه، ويؤكد هذا القول سميث B.P. Smith، حيث يقول :

«ومن المعلوم أن بعض الرحالة، ومنهم بعض الصليبيين الذين عادوا إلىٰ إنجلترا من الأرض المقدسة ـ جلبوا بعض القصص والأساطير، والتي كان معظمها محرفاً، القصد منها إلباس الحروب الصليبية لباس الحرب

---

(١) محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، ص ٢٦.

المقدسة»[١].

ثالثاً ـ الفكر الاستشراقي :

أوضحنا في الفصلين السابقين كيف كان تدخل اليهود في حياة النصارىٰ في أوربا سبيلاً للإفساد ومحاربة للإسلام والمسلمين ؛ وكذلك بينا أن اليهود كانوا القوة الخفية التي عملت من وراء الستار علىٰ قيام الحروب الصليبية لتحقيق غرضين اثنين، أولهما : العمل علىٰ إثارة الحقد بين المسلمين والنصارىٰ، وجعلهم في حرب مستمرة مدىٰ الأزمان، ليتمكن اليهود من تنفيذ مخططاتهم. وثانيهما : أن اليهود وجدوا في هذه الحروب فرصة تتيح لهم تقديم القروض إلىٰ زعماء الحملات الصليبية، وأمراء المقاطعات، وسلطات الكنيسة بالربا الفاحش، والمتاجرة بالعتاد والأسلاب. هذا إلىٰ جانب الأهداف السياسية، وهي إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معاً.

ولما منيت أوربا المسيحية بالخسارة والهزيمة في معظم حملاتها الصليبية علىٰ البلاد المقدسة ، امتلأت نفوس اليهود والنصارىٰ حقداً علىٰ الإسلام والمسلمين ؛ فكانت هناك دعوة الكنيسة التي نادت بضرورة الأخذ بالثأر، والتنكيل بالإسلام والمسلمين بشتىٰ الوسائل، وبمختلف الطرق، والعمل الدؤوب للتصدي لحركة الدعوة الإسلامية، وانتشار حضارة الإسلام،

---

(١) انظر: Byron Porter Smith, Islam in English Literature, Caravan Books, New York, 1977, P. VIII.

فزادت الجهود الاستشراقية ضراوة، وكرست الجهد، وأوعزت إلىٰ رجال الفكر والمبشرين بتكثيف العمل، والعكوف علىٰ دراسة الإسلام وأحوال المسلمين ، وبالتالي العمل علىٰ رسم الخطط المناسبة للهجوم علىٰ الإسلام، والقضاء عليه، وما الدراسات الاستشرقية إلا لون آخر من ألوان الحروب الصليبية المتصلة بالناحية الفكرية والفكر، ذلك أن اليهود وجدوا أن المستقبل في الشرق كما يشير إلىٰ ذلك أحد أحفادهم بنيامين دزرائيلي، حيث قال: «الشرق مستقبل» .

١ـ مفهوم الاستشراق :

الاستشراق أو الدراسات الاستشراقية مصطلح أو مفهوم عام، يطلق عادة علىٰ اتجاه فكري يُعْنَىٰ بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، ولقد كان الاستشراق وميدان الدراسات الاستشراقية في بداية ظهوره مقتصراً علىٰ دراسة الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها، ثم بعد ذلك اتسعت مجالات الاستشراق، وأصبحت تشمل دراسة الشرق كله : لغاته ، وأديانه وتقاليده وآدابه ، ولكن أهم ما اعتنىٰ به المستشرقون في دراستهم هو الدين الإسلامي واللغة العربية، لأن ذلك مثار اهتمامات المستشرقين الأول والكبير، والذي يمثل النزاع الفكري والسياسي والعقائدي الذي يسود عصرنا الحالي.

والدراسات الاستشراقية التي تعنىٰ بدراسة الحضارة الإسلامية واللغة

العربية إنما هي وحي من تقاليد موروثة لدى الفرنجة والغربيين، وهي امتداد للحروب الصليبية، كما سنعرض إلى ذلك في حديثنا عن تاريخ ظهور الاستشراق. والاستشراق ـ كما يراه أصحابه من المستشرقين في الغرب ـ يعد في نظرهم مادة علمية معترفاً بها عالمياً، وموضوعاً معترفاً به أكاديمياً، ويوشك أن يكون ممثلاً في كل جامعة من الجامعات الغربية، مع وجود أعداد كبيرة من وظائف المحاضرين والمعيدين والباحثين في مجلات التخصص الاستشراقية، تُدفع لهم الأموال بقصد تأمين مستقبلهم، والمساهمة في استمرارية هذا المجال الأكاديمي، وجميع العاملين في هذا الحقل يشعرون بكامل الولاء والتقدير للحكومات، والمجالس النيابية، والأوساط الكنسية التي تضع تحت تصرفهم الإمكانيات اللازمة لإجراء البحوث والاطلاع والدس، وللحفاظ على حيوية هذا العلم ونشاط العاملين به ؛ لما لهذا الفن من فوائد عظيمة سياسياً وفكرياً، تعود على الدول الغربية، كما أن الحكومات الغربية ـ ممثلة في وزارات التربية والتعليم ـ لا تدخر وسعاً في توجيه أعداد لا بأس بها من الحاصلين على شهادة إتمام الداسة الثانوية للالتحاق بأقسام الدراسات الاستشراقية بالجامعات (١).

إن مثل هذا الاهتمام البالغ بالدراسات الاستشراقية من قبل الحكومات والمجالس النيابية والأوساط الكنيسية، يعد مؤشراً هاماً لما يهدف إليه

---

(١) رودي بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٢ ـ ١٣ .

الاستشـراق، ومـا يمثــله من خطورة. وهذه الخطورة تتـمثل فـي كـتابات المستشرقين التي تهـدف إلىٰ تشويـه حقيقـة الإسلام وحضارتـه، كما نـرىٰ ذلـك - علـىٰ سبيـل المثـال - فـي الموسوعــة المشهورة التي تصـدرهـا منظمة اليـــونسكو بعنوان : History of Mankind Cultural and Scientific Development وهي تتـعلـق بالجنس البـشـري وتطوره الثـقـافي والعـلمي، وهي إصـدار إلىٰ عـدة لغـات، وتقـرأ في جـمـيع أنحـاء العـالم [1]، وهذه الموسـوعـة تحـمل في طيـاتها صـورة سيـئة وقـذرة عن الإسلام والمسلمين والعرب. إن مثل هـذا الإنتاج يشكل خطراً كبيـراً في سبيل الدعـوة إلىٰ الله وإلىٰ دين الاسـلام مما يجعل مـهمـة الداعيـة أمراً ليس بالسهل في تغيير تلك الصـورة المشـوهة والسيئة، التي رسـمـهـا المستشرقـون عن الإسلام بقـصـد الحيلولة دون قبول الإسـلام، واعـتناقه من قبل غير المسلمين، ناهيك عما تقوم به الحـملات التـبشيـرية ذات الصلة القوية بالاستعمـار والاستشراق في تهويد المسلمين أو تنصيرهم، كما هـو حاصل في إفريقيا وشرق آسيا.

والمستشرق هـو في العموم من أبناء اليهود أو النصارىٰ، ومن سار علىٰ نهـجـهم، واقـتـدىٰ بضـلالهم من غيـر اليـهـود والنصـارىٰ من أبناء المسلمين المستغـربين، الذين خرجوا علىٰ دين الإسـلام؛ لأنهم يتفقون مع الاسـتشراق في آرائه وأفكاره .

ولقد كـانت غالبيـة المستشـرقين في بداية ظهور الدراسات الاسـتشراقيـة

---

(١) عبدالجليل شلبي ، الإسلام والمستشرقون ، دار الشعب ، القاهرة، ١٩٧٧ ، ص ٣.

من الرهبان والقسيسين والمبشرين، وكان بعضهم من الذين اهتموا بدراسة اللاهوت. وأمثال هؤلاء كان يهمهم إرساء نهضة الكنيسة وتعاليمها، خصوصاً في العصور الوسطي، أي الرهبان في العصور اللاحقة الذين اهتموا بالتبشير والمساهمة في تذليل الصعاب أمام الاستعمار وتسهيل مهمته في القضاء على الإسلام بطرق تجسسيه ومؤمرات تخريبية.

ومهما اختلفت نحل المستشرقين واتجاهاتهم، فهم يهدفون جميعاً إلى هدف واحد، وهو الإسلام، والإجهاز عليه. والمستشرقون جميعاً متفقون في عدائهم للإسلام، مع تجاهلهم لحقيقته، ومع عدم إتقانهم اللغة العربية، ومن يعرف اللغة العربية منهم قلة، والمستشرق جُبل على الطعن في الإسلام بحسب تفكيره العدائي الموروث منذ عصر الحروب الصليبية، والساكت منهم على المفتريات الموجهة إلى الإسلام والطعن فيه أشد سوءاً من غيره؛ لأن في سكوته إقراراً لصحة ما يزعمه الآخرون؛ إذ الساكت عن الحق شيطان أخرس.

والمعروف أن الحضارة الغربية إنما قامت على أنقاض الحضارة الرومانية الوثنية العقيدة، المادية الاعتقاد، وإنما جعلت المسيحية ثوباً للتستر على الحقيقة (١). لهذا، فإن المستشرق إنما هو بمثابة جزء مكمل للحضارة المادية في أوربا، التي تقوم على البيرقراطية الاستعمارية (٢). والاستشراق قد

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، دارالعلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤١.

(٢) انظر: Edward Said, Orientalism ,P. 2.

يبدو لمعظم الناس وكأنه اتجاه أكاديمي يعمد إلى دراسة الشرق وحضارته عموماً ، وإلى دراسة الحضارة الإسلامية والإسلام خصوصاً كما تقدم، ولكن ليس الأمر كذلك فحسب ، بل إنه أكثر من ذلك كما يراه بعض النقاد المطلعين على حقيقة الاستشراق، فهو جزء من التبشير وحركته، والاستعمار وسطوته، إنه جزء من الحروب الصليبية الحديثة، والتي أخذت صيغة جديدة بأن صارت حرباً فكرية بدلاً من الحرب العسكرية .

إن المستشرقين نصبوا أنفسهم ولاة مسؤولين عن الإسلام، والبحث في حقيقته، وفي الحديث عن الشرق وحضارته بما يمليه عليهم فكرهم، وبما توحي إليه مشاعرهم صدقاً أو كذباً ، وهذا ما يقرره نظام الوصايا أو الانتداب المستمد من النظم العسكرية والاستعمارية، المعتمدة على اغتصاب الحق وإنكاره [١] . من هذا يمكننا القول بأن الاستشراق يقدم يداً كبرى مساعدة للاستعمار، والعمل على مبدأ البقاء للأقوى حقاً أو باطلاً، وهذا من أهم استراتيجيات الاستشراق الذي يرتبط بمصالح جغرافية ، واقتصادية، وحضارية ، وسياسية ، تهدف في المقام الأول إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، والإبقاء على الحياة المادية المجردة من الروح، كما تمثلها حضارة الغرب، وما هو ملحوظ في تلك الحضارة التي اعتمدت في قيامها على النظريات المادية والإلحادية عند دارون ، وفرويد وغيرهما .

إن الاستشراق كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد. وجمهرة المستشرقين مستأجرون لإهانة الإسلام وتشويه محاسنه. « لا ريب أن أصدق مفهوم للاستشراق هو أنه العلم في خدمة السياسة والاستعمار وهدفه إذابة الشخصية الإسلامية، وتغيير ما بالمسلمين من إيمان بالإسلام ومثله، والتمسك بنظمه ولغته وحضارته، والتنكر لهذا كله، وقطع الصلة بينه وبين دينه وربه ونبيه »[١].

والملاحظ أن اصطلاح الاستشراق أخذ يدخل كثيراً من كتب العلم وفنونه في الغرب ، فنجد الاستشراق والحديث عن الشرق والإسلام يدخل في كتب الرحلات ، وكتب التجارة ، وكتب الصناعة ، وكتب الأدب ، وكتب الدواوين الرسمية والحكومية، وكتب التاريخ الطبيعي، والسبب في هذا أن الاستشراق أصبح فناً له أصوله وأهدافه بين الغربيين، وبذلك أصبح مصطلحاً لا يمكن الاستغناء عنه في محاربة الإسلام والمسلمين. هذا هو الاستشراق في أبسط صورة ممكنة، وسيتضح للقارئ تفسيره من خلال العرض لتاريخ الاستشراق وأهدافه . . إلخ مما سيأتي.

٢ـ تاريخ الاستشراق :

إن تاريخ الدراسات الاستشراقية، وأسباب ظهور الاستشراق من الموضوعات التي هي مثار الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين

(١) انور الجندي ، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ، المكتب الإسلامي ، بيروت، ١٩٧٨، ص ٩٥ .

والكتاب. والحقيقة المسلم بها لدينا نحن المسلمين، والتي لا مراء فيها، أن أيدي اليهود والنصارىٰ كانت تعمل عابثة منذ العصور الأولىٰ لظهور الدعوة الإسلامية. والتاريخ يذكر ما كان من يهود المدينة المنورة ومواقفهم ضد دعوة الإسلام ونداء الحق، وضد رسول الله ﷺ. وعليه، فإن الاستشراق في بدايته إنما قام علىٰ أيدي القسس والرهبان والمبشرين، ثم اتصل بالمستعمرين لتكون هناك قوة الفكر، ويمثلها التبشير وقوة السلاح ويمثلها الاستعمار.. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن العداوة التي أوجدها أعداء الدعوة الإسلامية علىٰ مر العصور والأزمان هي البداية الأولىٰ للاستشراق، لأنها أوجدت الاهتمام بدراسة المسلمين وأحوالهم.

إن تحديد تاريخ الاستشراق وزمن ظهوره من الأمور الصعبة التي تواجه كل باحث في هذا الشأن، فبعضهم مثلاً يرىٰ أن ظهور الدراسات الاستشراقية يعود إلىٰ تاريخ دخول المسلمين إلىٰ إسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية في العصور الوسطىٰ، وهذا الأمر لفت أنظار أهل تلك البلاد إلىٰ أحوال المسلمين، وإلىٰ الحركة الإسلامية فعكفوا علىٰ دراسة المسلمين وتاريخ الدعوة الإسلامية، وأهدافها؛ لذلك من هنا يمكن القول بأن الدراسات الاستشراقية بدأت من ذلك الزمن [1].

بينما يرىٰ بعض آخر أن القرن الثالث عشر الميلادي هو الزمن المشهور

---

(١) عبدالجليل شلبي، الإسلام والمستشرقون، ص ٢٧-٢٨.

الذي بدأت فيه حركة المستشرقين والدراسات الاستشراقية [١]. وقد ذكر أحد الكتاب آراء مختلفة عن نشأة الاستشراق ، واستعرض أقوالاً متعددة ؛ منها أن الاستشراق ظهر في القرن العاشر الميلادي ، ويقول بعضهم : إنها - أي الدراسات الاستشراقية - بدأت في أعقاب الحروب الصليبية ، وهناك من يرىٰ أن الحملة الفرنسية علىٰ مصر وغيرها من بلاد الشرق في سنة (١٢١٣هـ-١٧٩٨ م) هي البداية الحقيقية للاستشراق [٢].

وهناك من يقول : إن الاستشراق بدأ بصفة جدية بعد فترة عهد الإصلاح الديني في أوربا ، أي في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، وبداية القرن السابع عشر الميلادي ، ذلك أن النواة الأولىٰ للدرسات الاستشراقية كانت بدأت في عصور وقرون سابقة ، لم تسمح لها الظروف بالظهور والعمل بصورة موجهة ومنتظمة إلا في عهد الإصلاح الديني [٣] ، في حين يرىٰ المستشرق يوهان فوك « أن الاستشراق إنما ارتبط بالحروب الصليبية ، وأن المستشرقين الأوائل كانوا يرون في عملهم أنه نوع من الجهاد والكفاح ضد الإسلام » [٤].

---

(١) محمد عبد الفتاح عليان ، أضواء علىٰ الاستشراق ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) نذير حمدان ، الرسول صلىٰ الله عليه وسلم في كتابات المستشرقين ، رابطة العالم الإسلامي ، مكة المكرمة ، ١٤٠١ هـ ، ص ١٢ .

(٤) رودي بارت ، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ، ص ٤ .

ويقرر رودي بارت في قول له عن تاريخ الاستشراق مايلي : « إذا نظر المرء إلى الوراء، إلى تاريخ تطور الاستشراق، ولم يتردد في التبسيط، رغبة في زيادة الوضوح ، فإنه يستطيع أن يقول: إن بداية الدراسات العربية الإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر؛ ففي عام (٥٢٨ هـ-١١٤٣ م) تمت ترجمة معاني القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية بتوجيه من الأب بيتروس فينيرا بيليس رئيس دير كلوني، وكان على أرض إسبانية ، وفي القرن الثالث عشر أيضاً نشأ أول قاموس لاتيني عربي . وفي القرن الثاث عشر والقرن الرابع عشر بذل رايموندس لالوس، المولود في جزيرة ميورقة - جهوداً كبيرة لإنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية، وكان قد تعلم اللغة العربية على يد رجل عربي[١] .

وكان الهدف من هذه الجهود في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير ، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي، ويمكن الاطلاع على هذا الموضوع بتفصيلاته في الكتاب الكبير الذي وضعه نورمان دانيل باسم « الإسلام والغرب » (١٣٨٠هـ- ١٩٦٠ م) Norman Daniel, Islam and the West[٢] .

مما تقدم يمكننا تحديد الاستشراق وزمن ظهوره ؛ ذلك أن منشأه - كما أشرنا - عداوة غير المسلمين لدين الإسلام، وهذا ظاهر منذ الأزمنة

---

(١)المرجع السابق.

(٢)المرجع السابق ، ص ٩.

الأولىٰ للدعوة الإسلامية ، حيث إن شدة هذه العداوة لم تظهر إلا بعد الحروب الصليبية، والتي دامت زهاء قرنين من الزمان ١٠٩٧هـ - ١٢٩٥م، فإن هذا التاريخ يمثل نقطة التحول في الصراع الفكري والعقائدي والسياسي بين الغرب المسيحي المدعم بالتخريب اليهودي والصهيوني، وبين الشرق الإسلامي من ناحية أخرىٰ.

ولو أمعنا النظر في بعض آراء النقاد السالفة الذكر، والتي تقول: إن القرن السادس عشر هو بداية ظهور الدراسات الاستشراقية، لرأينا التقارب بين بداية هذه الدراسات بصورة منتظمة، تمخضت عن ترجمة معاني القرآن الكريم إلىٰ اللاتينية في عام (٥٣٨ هـ-١١٤٣م)، ففي هذا تأكيد لمن ذهب إلىٰ أن القرن الثالث عشر أو قبله بقليل - أي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي - كانت البداية الموجهة والمنظمة لظهور الدراسات الاستشراقية.

وجملة ما ورد من آراء عن نشأة الاستشراق تعطي القارئ فكرة موجزة عن تاريخ الاستشراق، والمحاولات البدائية، والبذور الأولىٰ التي ساعدت علىٰ ظهور الاستشراق والحروب الصليبية، كما يرىٰ بعض المستشرقين أنفسهم أنها من الأسباب الأولىٰ التي أدت إلىٰ توجيه الاهتمام نحو الدراسات الاستشراقية ، فلقد كانت دعوة الكنيسة لرجال الفكر من النصارىٰ إلىٰ الاهتمام بالشرق الإسلامي ودراسته ومعرفة أحوال المسلمين، وذلك للعمل علىٰ حربهم بكل الوسائل، هي الأساس الأول الذي قامت

عليه الحرب العقائدية، والفكرية والسياسية، التي نعاني الكثير منها في عصرنا الحاضر، وما أعقب ذلك من استعمار وغزو واحتلال عسكري وفكري [١]. ويؤكد إدوارد سعيد هذه الحقيقة، فهو يرىٰ أن الدراسات الاستشراقية في صورتها الحالية ؛ الصورة الموجهة والمنتظمة، والمتمثلة في كراسي الدرسات الاستشراقية في الجامعات والمؤتمرات التي تعقد في هذا الشأن والكتب، والدوريات، والمجلات التي تعنىٰ بدراسة الإسلام، لم تظهر إلا عندما بدأت الكنيسة تهتم بتعليم اللغات السامية، ومنها لغة القرآن الكريم، اللغة العربية، وذلك في عام (٧١٢هـ-١٣١٢ م)، خصوصاً عندما قررت تدريس مواد خاصة بتعليم اللغة العربية في الجامعات الكبرىٰ، أمثال جامعتي أكسفورد وكمبردج في بريطانيا [٢].

٣ـ غايات الاستشراق وأهدافه :

انتهينا فيما سبق من الحديث عن تعريف الاستشراق، وتاريخ ظهور الدراسات الاستشراقية، وهنا ننتقل إلىٰ الحديث عن أهداف المستشرقين وأغراضهم، حيث نلقي مزيداً من الضوء علىٰ وصف المستشرقين وأحوالهم ؛ ذلك أن معرفة أهداف الاستشراق وأغراض المستشرقين من أهم الأمور والواجبات التي ينبغي أن يتنبه إليها كل مسلم .

(١) عمر فروخ وزميله ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(٢) انظر : Edward Said, Orientalism, P.50 .

إن الحروب الصليبية ودوافعها الدينية والتبشيرية كانت وراء الدوافع الاستعمارية والسياسية، التي دفعت ملوك أوربا إلىٰ غزو الشرق واستعماره، خصوصاً بلاد الشام والأراضي المقدسة، التي كانت تتمتع بطمأنينة روحية سرها الدين الاسلامي، وحضارة مدنية عظيمة لا عهد للنصاري ولا لليهود بها أو بمثلها في بلادهم الفرنجية ، إضافة إلىٰ الجو المناخي الذي يسود هذه المنطقة. كل هذه الأمور أوجدت لدىٰ الصليبيين التصميم علىٰ الاستيلاء علىٰ هذه البلاد مهما طال الزمن وكثرت التكاليف، وكانت هناك كرات وفرات طالما انتصر فيها المسلمون، وبعد أن أخفق الغرب عسكرياً في الحروب الصليبية، وحتىٰ في الاستعمار الذي جاء في القرن التاسع عشر، وهو امتداد للحروب الصليبية ، لجأ الغرب كله مجتمعاً إلىٰ حرب الفكر، للنيل من الإسلام والمسلمين، وليسهل المهمة الاستعمارية فيما بعد إذا ما ضعف اعتقاد المسلمين بصلاح الدين الإسلامي.

لقد عجزت اليهود والنصارىٰ وكل من شايعهم متفرقين ومجتمعين في محاربة دين الله ، دين الإسلام ، لقد عجزوا عن قهر المسلمين بواسطة الحروب، وهذا معروف في كتب التاريخ، وخصوصاً تاريخ الحروب الصليبية السبع التي تلت الحملة الأولىٰ، والتي باءت بالفشل والخسران المبين. إن اليهود والنصارىٰ وأتباعهم بعد أن طحنتهم الحروب، وجعلت مجتمعاتهم ممزقة تعيش في ظلمة حالكة لا روح دينية ولا مظاهر حضارية في حالة من البؤس دعت إلىٰ الإصلاح، وتطوير بلادهم والنهوض بها

علمياً واقتصادياً ، وبذلك انتهىٰ الأمر بعدم التفكير في الحروب والغزو ، ومحاربة المسلمين ، ولكن قلوب الأعداء ـ رغم كفهم عن الحروب ـ ظلت مليئة بالحقد والثأر والحسد وغير ذلك ، مما ظهر دفعة واحدة في الحروب الاستعمارية التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر ، إذ إن هؤلاء الصليبيين عندما صلحت بلادهم وقويت شوكتهم عاودوا الكرة لما علموا به من حال المسلمين ، إذ عرفوا أن عزم الدولة العثمانية قد خار وانهار ، فجاؤوا بالقوة وقسموا بلاد المسلمين إلىٰ أجزاء ، واستعمروا الأرض ، وسلبوا المسلمين وشردوهم ، وعملوا علىٰ إيقاع الفتن وإشعال روحها بما نشروه من دسائس ووشايات بين المسلمين .

إن الغرب عندما لجأ إلىٰ الاستعمار وقهر الشعوب الإسلامية ، أخذاً بالثأر ، وما لحق بهم أيام الحروب الصليبية ، لم يكن بالقوة وكثرة السلاح ، ولكن كذلك الفكر والاكتشافات المتوالية والدراسات المكثفة التي عكف المستشرقون عليها منذ أن وجهت الكنيسة نداءها لدراسة الشرق الإسلامي ، وأحوال المسلمين ، ولغة القرآن الكريم ، إن الخطط الاستعمارية التي أدت إلىٰ نجاح الاستعمار كانت محل دراسة الاستشراق وعنايته ، لتسهيل المهمة العسكرية في إصابة الأهداف .

ومن الملاحظ أن الدول الغربية لما قويت في العصور الحديثة ، وبدأت تتطلع إلىٰ استعمار الشرق ، لعب الاستشراق دوراً هاماً في هذا الانفتاح الغربي علىٰ الشرق ، فلما أرادت هذه الدول عقد الصلات السياسية بدول

الشرق، والاغتراف من تراثه، والانتفاع بتراثه والتزاحم على استعماره، أحسنت كل دولة استعمارية إلى المستشرقين فيها، فضمهم الملوك إلى حاشيتهم، كأمناء أسرار وترجمة، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق، وولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة، والمكتبات العامة، والمطابع الوطنية، وأجزلوا لهم عطاءهم في الحل والترحال، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية المجامع العلمية(١).

هكذا ظهرت قوة الاستعمار على البلاد الإسلامية والتي توزعها المستعمرون فيما بينهم وفرقوها أجزاءاً وأشتاتاً؛ ليسودوا في الأرض، ولكن الله لم يمكن لهم، إذ قاوم أهل البلاد من المسلمين، وثارت ثورتهم، وبدأت أوربا تحس المناهضة الكبيرة من أبناء المسلمين المجاهدين لما عانوه من وحشية الاستعمار وظلم المستعمر، فرد الله كيد المستعمرين، ودحروا، ونالت الشعوب الإسلامية الاستقلال بعد أن ضمن المستعمرون النجاح في حرب أخرى، حرب الغزو الفكري، الذي ترك في بلاد المسلمين قبل الخروج منها أتباعاً له فيها، يساعدون في تذليل الصعاب، والقضاء على الإسلام والمسلمين.

لقد لجأ الغرب إلى حرب المسلمين بوسيلة هي أشد فتكاً، وأكثر

---

(١) نجيب العقيقي، المستشرقون، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦، ج ١، ص ١٤٩.

صلابة من حرب السلاح ، لجؤوا إلىٰ الحرب الفكرية التي تعمد إلىٰ هز النفوس وقهرها، وزعزعة الشخصية الإسلامية، بقصد إحداث التخلخل في عُرىٰ الارتباط بالعقيدة والتراث. بهذا قويت حركة الاستشراق ، واشتد عودها بعد أن نجحت الخطط الاستعمارية الأولىٰ في تحقيق الوسائل التي لجأت إليها أوربا في الاستيلاء علىٰ البلاد الإسلامية، وتقسيمها إلىٰ شعوب قومية لا رابطة بينها.

هكذا أصبحت حملات الاستشراق أقوىٰ من الحملات الصليبية ، وأقوىٰ من الأسلحة المقاتلة ، هذه حرب الغزو الفكري الذي يشبه التبشير والذي قام علىٰ دعائمه الاستشراق، فكان من أهداف المستشرقين الأولىٰ أن يحاولوا إطفاء نور الله سبحانه وتعالىٰ في الأرض ، ولن يفلحوا أبداً ، ولو كرهوا ؛ ذلك لأن العليم القدير يقول : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1].

إن من أهداف المستشرقين الوقوف في وجه الشعوب التي لا تدين بالإسلام؛ ليمنعوهم من الدخول في دين الله الحق، الدين الإسلامي، بما يعملون جاهدين علىٰ تشويه الإسلام، وتغيير الصورة الحقيقية لهذا الدين الحنيف، وإظهار الإسلام بصورة محرفة ومستكرهة أمام الشعوب غير

(١) سورة الصف ، الآيات ٧-٩ .

المسلمة؛ بقصد صدهم عن سبيل الله وما نزل من الحق، وردهم عن الدخول إلى دين الإسلام. واعتمد المستشرقون في ذلك على استغلال الكراهية والتعصب الموجود بين الغربيين وأتباعهم منذ الحروب الصليبية، ومن ذلك العمل على رد المسلمين عن الإسلام، وإجبارهم على الكفر، وقبول النصرانية أو اليهودية كدين أمثل وأفضل من دين الإسلام، وهذا ما يشير ويهدف إليه معظم المستشرقين أنفسهم[١].

ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يتأتى لهم إذا استمسك المسلمون بحبل الله، وحكموا شرعه في حياتهم، وإن لم يفعلوا، فإن الله يأتي بقوم آخرين يحملون هذا الدين، ويعملون به ويدعون له، فقد تكفل الله بإتمام نوره، وتركهم يموتون غيظاً وحسداً من عند أنفسهم، كما يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٢].

إن للمستشرقين - كما أسلفنا - من أبناء اليهود والنصارى، أو ممن

---

(١) انظر: . Edward Said, Orientalism, P.59

(٢) سورة آل عمران، الايات ١١٨-١٢٠.

يحقدون على الإسلام - آمالاً وأماني يرجون تحقيقها ، لهذا فهم يعملون على تشويه حقيقة الإسلام وإظهاره بغير مظهره الحقيقي بمظهر غير لائق في مقابل اليهودية والنصرانية ، ويقولون - وكأنهم ملكوا مفاتيح الجنة - إنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى ، كما يذهبون إلى إثبات تفوق الحضارة الغربية المادية ، وأن مرد ذلك هو التمسك بالعقائد اليهودية والنصرانية ، ولقد قالوا أكثر من ذلك ، والقصد من هذا كله هو خلق روح التخاذل ، والشعور بالنقص في نفوس أبناء الأمة الإسلامية ، وهذا الهدف من الأهداف التي يسعى إليها المستشرقون ، وهو أنهم يجعلون الناس يكفرون بالحق ، ليشرحوا صدورهم للباطل والكفر ، وهذا قوله عز وجل :

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾[1] .

هذا هو شأن المستشرقين ، يريدون بالإسلام السوء بما يبذلون من جهد كله كذب وافتراء ، فمن تبعهم فهو منهم . فلا غرابة إذاً أن يكون من أهداف الاستشراق التشكيك وإثارة الشبهات حول الإسلام ورسوله ﷺ ، بقصد

(١) سورة النساء ، الآية ٨٩.

إثارة الفتن بين المسلمين ؛ لأن الاستشراق منذ ظهوره حتىٰ العصر الحالي كان وثيق الصلة بالمؤسسات التبشيرية ، والأوساط السياسية ذات الأغراض الاستعمارية ، التي تعتمد علىٰ إثارة الفتن من مبدأ (فرق تسد) . فكيف يتحقق هدف المبشرين إذا لم يشكك المستشرقون المسلمين وغيرهم في الإسلام ومبادئه ؟ وكيف يتحقق هدف الاستعمار والمستعمرين إذا لم تثر الشبهات حول الإسلام لإظهار الفتن بين المسلمين؟ وكيف يصل الجميع من أعداء الإسلام إلىٰ تحقيق أهدافهم وأغراضهم دون هذا كله ؟ .

ولنعلم أنه إذا كان قصد المستشرقين هو التشكيك وإثارة الشبهات حول دين الإسلام ، وحول دعوة الرسول ﷺ ، فإن هذا القصد ليس بجديد علىٰ الدعوة الإسلامية ؛ إن هذا الأمر المتضمن التشكيك والقدح في الإسلام ورسوله ﷺ كان منطق المشركين والكفار منذ أن صدع عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام برسالته ؛ لقد قال المشركون : إن ما أتىٰ به محمد ﷺ إنما هو إفك مفترىٰ ، وإلىٰ هذا يشير سبحانه وتعالىٰ بقوله :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [1] .

وما قاله المشركون والكفار في العصور الغابرة مجملاً ومختصراً ، جاء المستشرقون ليفصلوا ما أجمل فيه ، فلم يأتوا بجديد ، إذ إن من طمس الله

(١) الفرقان ، الآيات ٤ ـ ٦ .

على قلبه في أي زمن من الأزمنة لا يقول إلا مثل ما قال الأولون . نعم لقد زعم المستشرقون الكثير من الأقاويل التي أشارت إليها الآية ؛ فقالوا : إن الإسلام في تشريعه أخذ من الجاهلية صلاة الجمعة، وصوم عاشوراء، وتطييب البيت الحرام ، ونظام الأشهر الحرم ، والحج والعمرة، وأخذ من الصابئة الصلوات الخمس ، والصلاة على الميت ، وتحريم الميتة، ولحم الخنزير، وتحريم الزواج من القريبات ، وأخذ من الهندية والفارسية قصة المعراج ، والجنة والحور العين ؛ ، وأخذ من اليهودية قصة قابيل وهابيل ؛ وقصة إبراهيم ؛ وأخذ من النصرانية قصة أهل الكهف، وقصة مريم العذراء[1].

لقد جعل المستشرقون من الإسلام خليطاً مركباً من عدد من الديانات الوثنية والسماوية، وكأنه جملة أساطير اكتتبها الرسول ﷺ ، وهم مرة يقولون : إن النبي ﷺ ليس بأمي، فهو يعرف القراءة والكتابة، ومرة ينكرون ذلك. هكذا قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر والبهتان والافتراء عليه ﷺ.

وحتى يكون الغزو الفكري الذي لجأ إليه الغرب من خلال جهود المستشرقين قائماً على قدم وساق، ويتم بصورة محكمة في تحقيق الأهداف، فقد تم تنظيم الدراسات الاستشراقية بتوزيع التخصصات الدراسية والعلمية، التي تتصل بدراسة الإسلام وحضارته ولغته، فنجد من

(١) انظر: Edward Said,p.59.

المستشرقين من ذهب إلى دراسة التاريخ الإسلامي ، ومنهم من عكف على دراسة الفرق والمذاهب ، ومنهم من درس الحديث ومصطلحاته ، وبعضهم ركز على دراسة المظاهر الحضارية والعلمية الأخرى ؛ كالطب ، والهندسة والفلك . وبعض المستشرقين اهتم بدراسة اللغة العربية وآدابها . والقصد من هذا التنظيم الأكاديمي والتخصص هو أن يكون عمل كل مستشرق في مجال فنه مكملاً لأعمال الآخرين ؛ لتكون لدى الهيئات التبشيرية والمنظمات السياسية مثلاً في وزارات الدفاع ووزارات الخارجية صور متكاملة تساعد على التخطيط السليم بما يؤدي إلى تدمير المسلمين والدين الإسلامي ، ونضرب على ذلك مثالاً بما يقوم به قسم الدراسات الاستشراقية في جامعة إنديانا بالولايات المتحدة الأمريكي Indiana University Bloomington ، فهذا القسم تخصص في دراسة اللهجات العربية للأغراض الحربية ، ويوجد به الكثير من الذين يوجهون للعمل في المجالات العسكرية والأعمال الدبلوماسية (١) .

(١) أردت أن أدرس بجامعة إنديانا مادة اللغويات لما لهذه الجامعة من الشهرة في هذا المجال ، وقد تقدمت بطلب الالتحاق لإدارة هذه الجامعة ، وشاء المولى سبحانه وتعالى وقبلت بها لدراسة الماجستير ، ولكنني فوجئت أن قبولي مشروط على أن أدرس بقسمي اللغويات والدراسات الشرقية ، إذ المعروف أن معظم من يدرسون مادة اللغويات يطبقون النظريات اللغوية على لغتهم الأم ، وليس على اللغة الإنجليزية ، فالعربي يطبق على العربية ، والفرنسي على الفرنسية وهكذا . ولقد كنت على صلة مع أحد الزملاء هناك ، وقد أطلعني على مايمكن أن ألقاه من متاعب في قسم الدراسات الشرقية إذا لم أساهم بما يفيد الاستشراق من خلال الأبحاث الدورية التي يكتبها الطلاب للمدرسين ، والموجهة من قبل القسم نحو دراسات معينة ، فأبت عليّ نفسي أن أكون=

إن هذا التخصص وأمثاله من التخصصات الدقيقة يعكس لنا النّيات السيئة التي يكنها الغرب للقضاء على الإسلام والمسلمين ، فهم لا يزالون يقاتلوننا حتى نوليهم الأدبار، ونرتد عن ديننا . لماذا لا تهتم الدراسات الاستشراقية بدراسة النظام الأسري في الإسلام إذا كان زعم الاستشراق هو البحث العلمي والتمحيص الأكاديمي، فالقصد ليس البحث العلمي، ولكنه الحرب الفكرية والهدم العقائدي .

ومن الملاحظ أن للدراسات الاستشراقية أهدافاً ظاهرة، وأخرى غير ظاهرة؛ فالأهداف الظاهرة تبدو للإنسان وكأنها الحق والصواب لما فيها من النزاهة وحسن النية في خدمة الإسلام وتراثه، بما يقوم به المستشرقون من أعمال الترجمة، والفهرسة ، والكشف ، والجمع ، والنشر والتحقيق، والتأليف والتصنيف ، وتخصيص بعض المجلات الدورية باسم الإسلام والشرق، وعقد المؤتمرات والندوات . كل هذه الأمور تعكس مدى الاهتمام بالإسلام وخدمته مما لا نظير له لدى المسلمين، فكيف يشك الإنسان في مثل هذه الأعمال ؟ ولكن تحت هذه الأهداف الظاهرة أهداف غير ظاهرة يتسلل المستشرقون تحت ستارها إلى تحقيق أغراضهم السيئة، وهي الأهداف الحقيقية للاستشراق ، تلك التي تعنى بالإساءة إلى الإسلام والقدح في الشريعة الإسلامية وتعاليمها ؛ والتشكيك في نبوة الرسول ﷺ ودعوته ،

=حرباً على الإسلام ولغة القرآن، فعدلت عن سفري إلى هناك، ووفقني الله إلى خير كثير، والحمد لله رب العالمين .

وإظهار الشبهات حول كتاب الله العزيز .

ويمكن للدارس المتتبع لأهداف المستشرقين وطرقهم في البحث والتأليف أن يتقصىٰ في الاستشراق ميادين تعود المستشرقون الاهتمام بها في كتاباتهم ، ويمكننا الإشارة إلىٰ أن المنهاج العام والطريقة الرئيسة المتبعة عند معظم المستشرقين في التأليف والكتابة عن الإسلام تشمل ما يلي من المجالات :۔

١ ۔ حياة الرسول ﷺ ودعوته ونبوته .

٢۔ العقيدة الإسلامية .

٣۔ الشريعة الإسلامية ، وتشمل القرآن والحديث .

٤ ۔ الخلافة ونظام الحكم .

٥ ۔ الفرق المتعددة التي ظهرت بين المسلمين عبر التاريخ .

٦ ۔ الحياة العقلية .

٧۔ اللغة العربية وتراثها وآدابها .

٨ ۔ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية .

وهذا المنهج لا يكاد يخلو منه الاتجاه العام لكتابات المستشرقين ، وهو موجود في غالبية كتب الاستشراق ، كماهو ملحوظ في كتاب جولد تسهير المعروف « في الدراسات الإسلامية » ، والذي كان اسمه الأول « في العقيدة والشريعة » . وإذا ما تمكنا من فحص هذا المنهج في كتابات المستشرقين ۔ ولو بدراسة بعض أجزاء منه ۔ أمكننا الوقوف علىٰ أهداف الاستشراق ، ومعرفة

ما تصبو إليه ، وأن الستار الحاجب للأغراض الحقيقية للاستشراق يمكن كشفه، وإثبات بطلان الزعم القائل بأن الاستشراق اتجاه أكاديمي يعنى بالبحث العلمي وخدمة الإسلام وتراثه[(١)].

إن الرسول ﷺ هو نبي مرسل لتبليغ الناس الدعوة الإسلامية، خاتمة الرسالات، فالحديث عن حياته ﷺ وعن دعوته ونبوته بصورة إيجابية وحقيقية هو الأساس لقبول الدين الإسلامي واعتناقه ، والحديث عنه ﷺ بصورة سلبية هو المفتاح الذي عن طريقه يمكن أن يقتنع القارئ بأن هذا النبي إن هو إلا رجل به جِنَّة ، مبتدع كذاب، وأنه لا صحة لدعوته ونبوته عليه السلام[(٢)].

لهذا اعتمد المستشرقون في مناهجهم على أهمية الكتابة عن شخصية الرسول ﷺ، ليردوا الناس عن دينهم إن استطاعوا، ولكي يكونوا حجر عثرة في طريق من يبحث عن الحق ودين الحق. إن الحديث عن محمد رسول الله ﷺ، هو أحد القضايا الكبرى في الفكر الإسلامي والإنساني والحضاري، التي تقوم على اصطفاء الله سبحانه وتعالى للمصطفي الكريم

(١) لقد تناول الشيخ محمد الغزالي في كتابه « دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين » آراء المستشرق جولد تسهير، ورد عليها، وأثبت بطلانها في مجالات كثيرة . انظر كذلك تعقيب الأستاذ أحمد محمد جمال على أقوال جولد تسيهر في كتابه « على مائدة القرآن مع الكتاب والمفسرين» ، الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م ص ١١٠ - ١٢٩ ». كذلك يمكن مراجعة كتاب الدكتور مصطفى السباعي يرحمه الله تعالى « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » .

(٢) عبد الجليل شلبي ، الإسلام والمستشرقون ، ص ٢٧ - ٣٥ .

عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتنامي الإيمان به جيلاً بعد جيل[(١)].

لقد قال بعض المستشرقين الكثير عن حياة الرسول ﷺ وعن نبوته ودعوته، وأن الوحي الذي يقول به إنما هو ادعاء باطل، وإنما هو مجرد نوع من الهستيريا، ونوبات من الصرع، أو نوع من العبقرية الشعرية.

وقال آخرون: إن الدين الذي جاء به سيدنا ونبينا محمد ﷺ إنما يعبر عما كان يعتقده راهب نصراني اسمه بحيرا، وكان هذا الراهب يملي على النبي ﷺ الأقوال والتشريعات فيأتي بها الرسول ﷺ إلى قومه، ويدعي أن ذلك وحي من السماء أوحى إليه به المولى سبحانه وتعالى؛ وهذا ما جعل بعض أعداء الإسلام يذهب إلى أن الدين الإسلامي ليس إلا نتفاً من بعض نسخ التوراة والإنجيل المهجورة وبعض آراء المتحنثين من أهل الكتاب[(٢)].

ولقد قيل: إن القرآن الكريم من وضعه ﷺ وأن السنة المطهرة من تأليف بعض الذين تابعوا محمداً ﷺ بعد أن خدعوا بما زعم. ولقد تورط الكثير من المستشرقين في عدم فهمهم للنصوص وعدم معرفتهم لفقه اللغة العربية في كثير من الأغلاط والأخطاء التي تدل على الجهل والمكابرة، فمن ذلك - مثلاً - ما يذهب إليه المشككون في أن محمداً ﷺ استقى تعليمه من

---

(١) من الكتابات الحديثة عن كتابات المستشرقين عن الرسول ﷺ كتاب «الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين». وقد ظهر هذا الكتاب في سلسلة دعوة الحق التي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي للأستاذ نذير حمدان.

(٢) سفر عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار مكة للطباعة، مكة المكرمة، ١٤٠٢، ص ٥٤٤-٥٤٥.

الكتب والأديان الأخرىٰ، والتي علىٰ ضوئها وضع كتابه المزعوم القرآن الكريم ما نرىٰ من تفسير بعض المستشرقين لقوله سبحانه وتعالىٰ :

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾[١].

فقد ذهبوا إلىٰ أن المقصود هنا مريم العذراء ، أم عيسىٰ عليه السلام، وأنها هي أخت هارون، مع ما يثبت التاريخ وكتب السير من الفارق الزمني الكبير بين الاثنين، ومع هذا فقد ذهب كثير من المستشرقين، ومنهم الإنجليزي « ألفرد جيوم » Alfred Geom إلىٰ تناقل هذه الفكرة، لإثبات أن المصطفي ﷺ استمد تشريعات الدين الحنيف من مصادر متعددة، لا صلة لها بالسماء والوحي الذي نزل علىٰ بقية الأنبياء. ومن مثل هذا ما قاله المستغرب المسيحي اللبناني فليب حتي، ذلك أنه يرىٰ أن الرسول ﷺ استقىٰ معلومات الدين الإسلامي من مصادر وثنية وغيرها، فهو يرىٰ أن الدين الإسلامي مجرد تركيبة مختلطة من عدة عناصر، فيقال: إن الرسول ﷺ أخذ الكثير من صاحبيه سلمان الفارسي ؛ وصهيب الرومي، وكذلك من زوجته مارية القبطية [٢].

ويرىٰ المستشرقون أن الإسلام جزء من مجموعة الأديان الوثنية التي وجدت في بلاد الشرق، والجزيرة العربية ، والهند وفارس [٣]. وهذا مثال

---

(١) سورة مريم ، الآية ٢٨.

(٢) عبد الجليل شلبي ، الإسلام والمستشرقن ، ص ٣١.

(٣) سفر الحوالي ، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص٢٤٤.

آخر للمستشرق البريطاني واط Watt في حديثه عن الرسول ﷺ، إذ إنه يرىٰ أن محمداً ﷺ كان شديد الثقة بنفسه، وكان إذا حدثت حادثة في حياته ﷺ، واعتقد أنها صالحة لقومه، فإنه يصوغ ذلك الأمر في كلام قرآني ثم يعتقد هو نفسه أن هذا كلام الله أوحىٰ إليه به، فيقدمه للناس علىٰ أنه كلام الرب والمولىٰ سبحانه وتعالىٰ [1]. بل ذهب بعض المستشرقين إلىٰ القول بأن القرآن الكريم من وضع النبي محمد ﷺ، وقد أملىٰ معظمه عليه راهب نسطوري تعلم علىٰ يديه الرسول ﷺ مدة طويلة بالشام [2].

كيف يمكن للرسول ﷺ أن يكون قد وضع القرآن بنفسه وكتبه في دفتي المصحف؟ وكيف له أن يعرف القراءة والكتابة، وحقائق التاريخ وكتب السير تنطق بأن الرسول ﷺ كان أمياً، ولم يقم مدة طويلة في الشام؟ ولكن تجاهل المستشرقين ورغبتهم في اتباع الظن والهوىٰ يجعل الرسول ﷺ تارة أمياً، وتارة خلاف ذلك، حسب ما يتفق مع آرائهم. والمولىٰ سبحانه وتعالىٰ يقول في محكم التنزيل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) عبد الجليل شلبي، الإسلام والمستشرقون، ص ٣٤.

(٢) سفر الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص٥٤٤.

إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[١]. إن اتهام المستشرقين وافتراءهم على رسول الله ﷺ بأنه وضع القرآن من عند نفسه، وأوهم الناس بأنه كلام الله، ليس إلا فرية قديمة قال بها مشركوا مكة وكفارها حيث قالوا: إن القرآن قول شاعر، وقول مجنون، وقول رجل به جِنَّة، وقول ساحر، وقالوا: إنه من أساطير الأولين.

فمنطق القدماء هو منطق المحدثين، والكفر ملة واحدة؛ إذ إن الجميع من أعداء دين الحق يهدفون إلى قطع الصلة بين المسلمين والقرآن الكريم، وبالتالي التشكيك في نبوته ﷺ؛ بمثل هذه الأمور والأخطاء التي يقع فيها المستشرقون يمكن أن نجمل القول فيها بأنهم يجدون في البحث والاستقصاء عن شخصية الرسول ﷺ بقصد انتحال الأدلة والبراهين لتسويغ آرائهم، وكل ذلك مبني على تجاهلهم لحقائق التاريخ، وجهلهم باللغة العربية ونحوها. وكتابات المستشرقين عن حياة النبي محمد ﷺ ودعوته تشمل الحديث عن العقيدة الإسلامية؛ تبدأ بالتشكيك في حقيقة القرآن الكريم، وأنه من وضعه ﷺ، وأن ما فعله الصحابة الكرام رضوان الله عليهم في نقلهم للقرآن الكريم على أنه كلام المولى سبحانه وتعالى إنما جاء نتيجة سذاجتهم، وإيمانهم الأعمى بمحمد ﷺ، الذي سحر قلوبهم واستحوذ على

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١٥٧-١٥٨.

عقولهم [١].

ويذهب المستشرقون إلى أن السُّنة المطهرة وأحاديث رسول الله ﷺ إنما هي من تأليف الناس، وهي مجرد أكاذيب وأقوال ملفقة، نسبت إليه ﷺ، وهذا التشكيك في السُّنة المطهرة وأحاديث المصطفي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، إنما هو قائم على معرفة المستشرقين لأهمية السنة ومكانتها عند المسلمين، وأنها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ، فإحداث الشك في معتقدات المسلمين في السنة، والقدح في أقوال النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه يعني زعزعة عقيدة الناس وإيمانهم بدين الله سبحانه وتعالى، وفي هذا يقول الشيخ محمد الغزالي : « ثم هناك السنة وهي المصدر الثاني لتعاليم الإسلام، وقد لقيت هي الأخرى من عناية الأمة الإسلامية ما يجعلها مستيقنة في الجملة. ولما كان بعض الناس ضعيف الدراية بطبيعة هذا المصدر، فنحن نشرحه بكلمات وجيزة . . ونسارع إلى القول بأن التاريخ لم يحك عن أمة من الأمم أنها احتفت بآثار نبيها، واستقصتها وغربلتها ، ووضعت أدق القوانين العلمية لقبولها مثل ما فعل المسلمون بترا ث محمد ﷺ، من قول وفعل وقضاء وتقرير، وليس في دين من الأديان ولا مذهب من المذاهب هذا الوزن العجيب للأسانيد والمرويات

(١) علي جريشة وزميله ، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي ، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٨.

وهذه المحاكمة المنصفة لما ينقل عن صاحب رسالة»[١].

وعموماً، فإن المستشرقين يذهبون إلىٰ القول بأن الشريعة الإسلامية بمصادرها المعروفة من كتاب وسنة واجتهاد، إنما هي من وضع البشر، فخلطوا بين المصادر الإلهية المعتمدة علىٰ الوحي، وجعلوا منها شبهاً للقوانين الوضعية، والمعتقدات التي وضعها الإنسان.

ولتأكيد مثل هذه المفتريات، وإثبات صحة أقوالهم المزيفة، بقصد إحداث البلبلة في نفوس المسلمين، قال المستشرقون بأن الفقه الإسلامي ومصادر الشريعة الإسلامية بنيت علىٰ أسس من القوانين الرومانية، وأن أصول الفقه مستمدة من بعض القوانين التي كانت سائدة في الزمن الذي ظهر فيه الإسلام ونادىٰ محمد ﷺ بدينه ودعوته. كيف يكون الأمر كذلك وهناك الكثير من المفارقات، وأوجه الخلاف والاختلاف بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني في النواحي الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، والنظم المالية، والميراث، والحقوق الزوجية، ونظام الأسرة؟ والقول بأن الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية تقوم علىٰ أصول القانون الروماني قول مناقض للحقيقة، والهدف من هذا الزعم هو إسقاط توحيد الألوهية[٢]، والإشادة بأهمية القوانين الوضعية ليتسنىٰ لضعاف المسلمين الأخذ بالقوانين البشرية، وتطبيقها بما يوافق رغبات النفس ونزعات الهوىٰ،

---

(١) محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص ٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٨.

وهذه ملة اليهود والنصارىٰ، خصوصاً فيما يتعلق بالأنظمة الاقتصادية الربوية ، وأنظمة التأمينات ، والأنظمة الاجتماعية المتعلقة بحياة الزوجين والأسرة، ونظام الطلاق وتعدده، أو اتخاذ الخليلات والأخدان بديلاً عن تعدد الزوجات، دون وازع من إيمان أو رادع من خلق وتشريع .

إن مثل هذا الزعم من المستشرقين أمثال «جولد سيهر» وغيره مرفوض وغير مقبول، كرفضنا لقول أي قائل في زماننا هذا بأن أمريكا لم تعد توجد، والتشكيك في العقيدة والشريعة الإسلامية أخذ جوانب كثيرة في الجدال والنقاش وموضوعات كثيرة طرقت مفاهيم القضاء والقدر، وعقيدة الاختيار عند الإنسان والحيوان وقضايا القدر والفلسفة، وما إلىٰ ذلك من الأمور التي تهدف الدراسات الاستشراقية منها إلىٰ الانتهاء في نهاية المطاف إلىٰ القول بأن الإسلام دين باطل(١) .

ومن أهداف الدراسات الاستشراقية: العمل علىٰ إثارة الفتن، وإحياء النعرات والعصبيات المذهبية والنزاعات الطائفية والعقدية بين الفرق التي وجدت عبر عصور التاريخ الإسلامي، مثل النزاعات التي قامت بين أهل السنة والمعتزلة في فتنة خلق القرآن، وقضايا العذاب وأقوال المتكلمين والأقوال الواردة في البدع ، وأمور الخلافة، بعد مرور قرون طويلة علىٰ هذه الخلافات، والتي تكاد تنسىٰ بين المسلمين .

إلا أن النيّات السيئة والأهداف الفاسدة، التي دفعت المستشرقين

(١) المرجع السابق ، ص ١١١ـ١١٢ .

للخوض في مثل هذه القضايا سبيل من أهم السبل التي عمل الاستشراق على إحداثها، بقصد إيجاد الشقة والفرقة وإثارة الفتن بين صفوف المسلمين[١]. وبمعالجة هذه القضايا في الكتابات الاستشراقية ينتهي المستشرقون إلى تقسيم المسلمين إلى أحزاب وفرق وطوائف، ثم يصفون علاجاً لهذا التفكك، وهو التزام المذاهب الطرقية المتصلة بالصوفية، التي عادة ما تنتهي إلى الرهبانية والخنوع، والقول بأن التصوف مما تتسع له دائرة الإسلام، والهدف من الدعوة إلى الصوفية وطرق التصوف هو صرف الناس عن الجهاد وإعمال الفكر وتحريك الذهن ؛ إذ إن الجهاد وتحريك الذهن من أكثر الأمور التي تخيف الصليبيين وتفزعهم، والتصوف يساعد على تحقيق أهم أهداف التبشير والاستشراق، وهو عدم توسع دائرة الإسلام وانتشاره، بسبب انشغال الناس في مظاهر عبادية تتعلق بالرهبنة والتصوف. وبهذا يتسنى نشر المسيحية واليهودية والعقائد الهدامة المحرفة والمضللة، والتي تعود بنتائج سيئة فيها هلاك الأمم ودمارها. وهي اتجاهات أثبتت إخفاقها في مجالات الحياة خصوصاً في البلاد الإسلامية، فلم تنجح الاشتراكية ولا اللبرالية ولا الرأسمالية؛ فقد أخفقت كلها اقتصاديا، وعسكرياً، وروحياً، وأخلاقياً. وكان كذلك مصير الشيوعية التي هوت إلى هاوية لا قرار لها.

وقد عمدوا إلى بث روح التفرقة، وإثارة الفتن الطائفية، والاعتماد

(١) المرجع السابق، ص ١٢١-١٢٩.

على التصوف والطرق الصوفيــة على أنها المجال الوحيد للتربيـة الروحية، وكـذا الحــال بالنسبة إلى الحياة المادية، فإنهــم يـرون أن لا سبيـل لحيـاة الإنسان إلا باتباع الشيوعية، والرأسمالية، والماسونية، والعلمانية. وهذا هو حاضر العالم الإسلامي وحاله اليوم[١]. وهذا ما سعى إليه الصهاينة اليهود والنصارى، وجميع أعداء الإسلام للعمل على الحيلولة دون اجتماع المسلمين في وحدة واحدة، بتفتيت الجهود، وخلق وحدات زائفة بين شعوب الأمة الإسلامية وحدات مبنية على شفا جرف هار، عادة ما تنتهي إلى خلافات وحروب تؤدي إلى مزيد من الفرقة، وهذا ما يدخل السرور في نفوس الشعوب التي تتربص بالإسلام، وتعمل على دحر الدين الإسلامي وعدم انتشاره.

وقبل الإسهاب في إلقاء الضوء على مزيد من أهداف الدراسات الاستشراقية، يجدر بنا أن نلخص للقارئ ما سبق ذكره في نقاط رئيسة توضح أهداف الاستشراق في جمل مختصرة:

١ - إثبات بطلان الإسلام بوصفه ديناً، وأنه قوة سياسية قامت على القمع والإرهاب، ونشر عقائد فاسدة أرغم الشعوب على قبولها بحد السيف، فأخضع الناس دون رغبة منهم إلى دين مزعوم[٢]. وهو بذلك - أي الدين الإسلامي - عبارة عن سلسلة مخيفة من سفك الدماء والمذابح

---

(١) سفر الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة ص ٥٤٨.

(٢) عمر فروخ وزميله، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٤١.

والحروب، وأن الإسلام ليس إلا مزيجاً مشوهاً من الآراء والقوانين والمدركات الخاطئة.

٢ ـ إثبات عدم صحة دعوة النبي محمد ﷺ ونبوته، وأن الكتاب والسنة إنما هما من وضعه عليه الصلاة والسلام، وأن التشريع الإسلامي مبني على أسس بعض الحضارات القديمة، والقول بأن الرسول ﷺ عابد أصنام وأحد كذابي مكة.

٣ ـ مسخ حقيقة العرب ولغتهم وتراثهم العربي، وبالتالي الانتقاص من شأن حضارة العرب والمسلمين لتحقير حال العرب، لأن النبي ﷺ عربي قرشي، وبالتالي تحقير اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم.

هذه هي خلاصة الأهداف الرئيسة التي تقوم عليها الدراسات الاستشراقية، إلى جانب بعض الأهداف الأخرى، فمثلاً ما يخص التراث العربي الإسلامي، يمكننا أن نرى بعض النماذج الموجودة في كتابات المستشرقين، والتي تتعلق باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، تصفها بأنها لغة لا تصلح لكل أمة وشعب، خصوصاً من أبناء الشعوب غير العربية، فذهب المستشرقون إلى إحياء لغات قديمة وميتة؛ من ذلك مثلاً ما فعله شامبليون الذي بحث في حجر رشيد، وعمل على إحياء اللغة الهيروغلوفية في مصر كتراث، وكذلك إحياء اللغة القبطية، واستعمالها في الحياة اليومية بدلاً عن العربيه. وهذا ما فعله بعض المستشرقين في إحياء حضارات ولغات الأمم الأخرى، وذلك بقصد قطع تلك الصلة التي تجمع

المسلمين والأمة الإسلامية بلغة القرآن الكريم، والقرآن الكريم نفسه المكتوب باللغة العربية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما فعله مصطفي كمال أتاتورك في تركيا المسلمة في العصر الحديث، حيث أمات اللغة العربية وتعلمها، مما أدى إلى جهل الناس بحقيقة القرآن، وعدم الإقبال على تلاوته، وتعلم قواعده وتفسيره. كما حوّل هذا العلماني آتاتورك الحروف العربية، واستبدل بها حروفاً لاتينية، وذلك تنفيذاً لما أخذه على نفسه من عهد في إرضاء اليهود والنصارى الذين جاؤوا به إلى السلطة بعد الإجهاز على الخلافة العثمانية، بل الأكثر من ذلك أن أتاتورك هذا قد جعل المناداة بالأذان للصلاة باللغة التركية بدلاً من العربية في فترة من الفترات.

هكذا لجأ المستشرقون وأعوانهم من المستغربين إلى استخدام جميع السبل والوسائل في تغيير روح الإسلام، والمساس بحضارته ولغته، فباسم البحث الجيولوجي تستر شامبليون في الدعوة إلى الهيروغلوفية، وأنها لغة مصر الأولى، وبهذا يسعى المستشرقون إلى تحقيق هدف القومية والشعوبية، وربط الأمة الإسلامية بالأرض وبالآثار الجاهلية، التي قضى عليها الإسلام، بدلاً من أن يكون ارتباط الأمة الإسلامية بالعقيدة والشريعة الإسلامية[1].

وبالنظر إلى مثل هذه الأمور، والبحث عن الآثار، ومعرفة التركيب الطبقي للأرض، والتحليل الجيولوجي والتربة والصخور؛ كل ذلك وسيلة

---

(١) انظر: . Edward Said, Orientalism, P.121-122

توصل إلى هدف من أهم أهداف المستشرقين، وهو إحياء الجاهلية والماضي الذي كان وبالاً على الأمم والشعوب، وما زلنا نتحدث عن اللغة العربية، وكيف أن المستشرقين يسعون إلى استبدالها بلغات أخرى، فإنهم أيضاً يعملون جاهدين على استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية، وتشجيع الألوان والصور التي يظهر فيها استخدام العامية كالفلوكلور الشعبي، والرقص القومي، والفنون الشعبية[١]، وجعلها مصادر لتعلم اللغة العربية، بدلاً عن القواعد السليمة الموجودة في القرآن الكريم، والشعر العربي، ومؤلفات النحاة وأئمتهم[٢].

إن ربط المسلم بلغة القرآن، اللغة العربية، فيه شد لأزره، وسبيل للحفاظ على دينه، وفي ذلك أيضاً حافز يجعل المسلم يلتمس الطريق للتفقه في أصول عقيدته، وفصل المسلم عن هذه اللغة يقود بالتالي إلى فصله عن أصول العقيدة، وعن معرفة الدين والمنهاج السليم للسلوك الإسلامي الصحيح، وبهذا يمكن للمستشرقين تحقيق هدف من أهدافهم، وهو الانتقاص من شأن اللغة العربية وإماتتها، واعتبارها لغة غير صالحة، ولكن قد غاب عن أذهان هؤلاء المستشرقين أن القرآن الكريم قد تعهد العليم

---

(١) محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٧، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٧٩، ص ٢١٧ - ٢٢٠.

سبحانه وتعالىٰ بحفظه من التشويه والتشويش، وفي هذا يقول عز وجل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ [(١)]. وفي هذا التعهد الإلهي ضمان لحفظ كتاب الله العزيز بتشريعاته، وما احتوىٰ عليه من لغة وكلام لغوي وأدبي، وفي ضمن ذلك حفظ للغة العربية مهما حاولت أيدي العابثين تشويهها ، واستبدالها بالعامية.

وأهداف المستشرقين في القضاء علىٰ اللغة العربية واضحة جداً في حركاتهم المخربة، كاستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، كما حصل في تركيا، أو استخدام العامية واللهجات المحلية عوضاً عن الفصحىٰ، وهي الدعوة إلىٰ القومية والشعوبية، والدعوة إلىٰ إحياء الفرعونية في مصر، والآشورية في العراق، والبربرية في شمال إفريقيا ، وكذلك الدعوة إلىٰ تفضيل الفارسية كلغة آرية علىٰ اللغة العربية كلغة سامية [(٢)].

إن من أهداف الدراسات الاستشراقية العمل علىٰ إيجاد الاضطرابات في التشريعات والأحكام الإسلامية، فهم يخوضون في أبحاثهم في قضايا أحكامها في منتهىٰ الوضوح المدعوم بأدلة العقل والنقل ، فيبحثون في قضية تعدد الزوجات، وأن ذلك مرده حب النساء، وأن هذا الأمر مسألة جنسية بحتة ، ولكن هل قوانين الإسلام التي تدعو إلىٰ الحلال، وأن يكون للرجل

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩.

(٢) محمد البهي ، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٦٠.

أكثر من زوجة بطريق شرعي أفضل ؟ أم قوانين البشر التي تحرم على الإنسان التعدد المشروع ، وتبيح التعدد غير المشروع ، فيعيش الزوج مع زوجة واحدة في البيت ، وعشر خليلات في خارج المنزل؟هل نظام الخليلات واتخاذ الأخدان أولى ؟ أم أن الزواج وتعدده أفضل ؟ ماهو القصد من المجلات الجنسية التي تصدر بالملايين في الغرب ؟ ماهو القصد من دور البغاء ومسارح الإثارات الجنسية في أوربا وأمريكا ؟ أليس القصد هو تفريغ الطاقة عن الزوج التي تستدعي منه أن ينفس عنها بوجود زوجة واحدة حالتها تتطلب (من مرض أو عقم) من الزوج أن يتزوج بأخرى ، فلا يستطيع ؛ لأن ما عقده الله لا يحله إلا الله ، أليست كل هذه الأمور جنسية بحتة؟ أليس ذلك حباً للنساء ؟ .

لكن طمست القلوب ، وعميت العيون عن التفرقة بين تفريغ الطاقة في طريق مشروع أو طريق غير مشروع ، والمستشرقون يرون في بعض أحكام الشريعة الإسلامية الكثير من الشدة والتعسف ، فهم يرون في رجم الزاني ، وقتل القاتل ، وقطع يد السارق أحكاماً وتشريعات غير مألوفة ، وليست فيها أي نظرة إنسانية ؛ هل كان للقاتل الذي قتل نفساً بغير حق نظرة إنسانية ؟هل من زنى لم يرتكب جريمة محرمة ؟ والهدف من حديث المستشرقين عن مقارنة الأديان هو أن ينزلوا القوانين الوضعية والقوانين البشرية المنزلة الرفيعة ، وأنها هي أصلح التشريعات ، وأفضل الأسس للمجتمع الإنساني ، وذلك بقصد الحط من قيمة الشريعة الإسلامية ، والقول بأنها ناقصة ، إنهم

يقولون هذا ، وهم يعلمون جازمين أن التشريعات الإسلامية هي أكمل التشريعات، وأن القوانين الوضعية فيها الكثير من النقص ، وفيها كثير من الشدة التي لا رحمة فيها للإنسان؛ لأن الذي وضعها الإنسان ، والرحمة من صفات ذات الله العليا ، فهو أرحم الراحمين .

إن المستشرقين يريدون القوانين الوضعية ، لأنها نابعة مما تهواه النفس، ويميل إليه القلب ، ولا يسمحون لأحد أن ينتقص هذه القوانين بأي نوع من النقد . إنه لمنطق عجيب لا إنصاف فيه ولا حق ، فالمستشرقون يبيحون لأنفسهم أن يخوضوا في القول على الشريعة الإسلامية كيفما شاؤوا، ولكن يحرمون على غيرهم أن يقول شيئاً عن قوانين الإنسان في الغرب .

بهذا يمكننا القول بأنهم قوم من المطففين لموازين الحق والإنصاف ، وصدق المولى سبحانه وتعالى إذ يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ ﴾[(١)].

وماتزال الدراسات الاستشراقية وأعمال المستشرقين في حركة دائبة؛ فإن أهداف المستشرقين في العصر الحديث اتسعت لتشمل النظريات التربوية والنفسية ، والخوض في مجالات التربية، والعمل على غرس مبادئ التربية

---

(١) سورة المطففين ، الآيات ١-٨.

الغربية في نفوس المسلمين وأبنائهم ؛ وهذا ما نلاحظه في مناهج ومقرارات الجامعات في الدول الإسلامية، وخصوصاً فيما يتعلق بالمواد التربوية والنفسية والاجتماعية؛ فهناك استمرارية لتدريس الفرويدية والدوركايمية كنظريات نفسية واجتماعية، تهدف إلىٰ خلق مجتمع متوازن، ولكن الحقيقة هو هدم القيم الأخلاقية والاجتماعية والسلوكية لتعاليم الإسلام، ووضع الغث الذي هو أدنىٰ بدلاً منها.

ومهما تنوعت أهداف المستشرقين وتعددت فإن الهدف الأول والأكبر هو محاربة الشعوب الإسلامية بشتىٰ الوسائل والطرق، بقصد إخضاع هذه الشعوب لإرادة اليهود والنصارىٰ، ليستقر لهم الأمر، وتكون لهم السيادة، حيث إن الغالبية العظمىٰ من المستشرقين - كما أسلفناهم - يهود ونصارىٰ ؛ وفي هذا الشأن أجمل الله سبحانه وتعالىٰ ما أسهبنا القول فيه في أوجز عبارة وأدق تصوير ؛ إذ يقول جل وعلا :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾[(١)].

إن الهدف الأكبر لدىٰ اليهود والنصارىٰ هو الهيمنة علىٰ الشعوب الأخرىٰ، لتحقيق ذلك عن طريق الوسائل المادية، والإغراءات المحسوسة، التي تستجيب لها الشعوب الفقيرة، ولكن هذه السبل لا تنفع مع الشعوب

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٠.

المسلمة، فالمستشرقون ـ كما أسلفنا ـ يعتمدون على زعزعة العقيدة الإسلامية في النفوس؛ إما بالتشكيك في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، أو في حقيقة نبوته ﷺ، وإذا ما أخفق المستشرقون في تحقيق أهدافهم هذه، لجأوا إلى طرق أخرى؛ ذلك أنهم يقولون بأن الإسلام ـ كدين تشريعي ـ استنفذ أغراضه، مثله مثل أي حركة اجتماعية قصدت إرساء بعض الأعراف والنظم الاجتماعية بنبذ العادات السيئة في البيئة الجاهلية في جزيرة العرب، كعبادة الأحجار، ووأد البنات. وعلى ذلك، فإن الإسلام كدين ليس إلا ظاهرة معينة جاءت في فترة زمنية محددة، وانتهت مهمة هذه الظاهرة في ظل التطورات التاريخية والاجتماعية التي حدثت فيما بعد، وخصوصاً فيما يتعلق بالأنشطة السياسية والحكم والأنظمة الاقتصادية، والمعاملات المالية(١).

ويذهب المستشرقون كذلك إلى القول بأن الدين الإسلامي إنما هو دين قبلي صحراوي، لا ينسجم مع الحياة العصرية المتمدنة في عصر التقنية. والقصد من هذا القول وغيره هو الوصول إلى نتيجة مضللة، وهي أن سبب تخلف الشرق والبلاد الإسلامية على وجه الخصوص، هو التزامها بدين صحراوي قبلي قد استنفد أغراضه في زمن مضى، ولم يعد يصلح للزمن الحاضر.

وقبل أن ننتهي من هذا البحث المتعلق بأهداف الدراسات

(١) سفر الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، ص٥٤٦.

الاستشراقية، يحسن بنا أن نعطي لمحة موجزة عن الوسائل التي استخدمها المستشرقون في نشر أفكارهم، وبث آرائهم المسمومة بين أبناء الأمة الإسلامية من ناحية، وبين شعوب الأمم غير المسلمة من ناحية أخرىٰ، بقصد صد الجميع عن الإسلام؛ إما بالردة عنه، وإما بعدم اعتناقه.

لا بد من التنبيه إلىٰ أن الصلة وثيقة بين الاستشراق من جهة، وحركة التبشير والاتجاهات الاستعمارية من جهة أخرىٰ. وهذه الصلة الوثيقة ساعدت علىٰ تنوع الأساليب الاستشراقية والوسائل التي استخدمها المستشرقون في تصوير الإسلام تصويراً مشوهاً ومحرفاً لا تقبله النفس، ولا يقبله العقل. فمثلاً كانت الآراء الاستشراقية تنشر في المؤسسات التي أنشأها التبشير؛ كالمستشفي والمدرسة والجامعة والمخيم، والنوادي الاجتماعية، وكذلك كانت الآراء الاستشراقية تنشر في أكبر وسيلة لنشر الكلمة المكتوبة من كتب ودوريات ومجلات، ومحاضرات ومؤتمرات. نعم، لقد قام الاستشراق بعد ذلك بتوثيق صلاته بالأجهزة الاستعمارية والتبشيرية، ولازال حتىٰ يومنا هذا يعتمد علىٰ القوة التبشيرية والقوىٰ الاستعمارية، فإن كان أكثر المستشرقين يكرهون أن تكشف حقيقة أمرهم، ويتوارون من ذلك باستخدام عناوين وأسماء تخفي حقيقتهم [1]. مرة أخرىٰ، نقول لقد كان التعليم هو أكبر المجالات الواسعة لنشر الأهداف التبشيرية والآراء الاستشراقية بين شعوب الأمم المختلفة، وفي مقدمتها الشعوب الإسلامية،

(١) محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص ١٣-١٤.

ويمكننا هنا أن نكتفي بالعبارة الآتية :

« رأىٰ المبشرون أن التبشير يجب أن يستمر إلىٰ مرحلة التعليم العالي؛ لأنه هو الذي يهيئ قادة الشعوب، فإذا استمال المبشرون - إذن - بعض هؤلاء الذين ينتظر أن يكونوا قادة في بلادهم، فقد كفلوا التأثير علىٰ الشعب كله. من أجل ذلك تبلورت الإرساليات الأمريكية حول إقامة كليات مجهزة تجهيزاً جيداً في إستنبول وبيروت وأزمير والقاهرة، وغيرها من مراكز البلاد الشرقية، ومع الأيام أصبح الأمريكيون يعتقدون أن المؤسسات التبشيرية؛ سواء أكانت معاهد علمية أو مؤسسات أخرىٰ، إنما هي « مصالح أمريكية» يجب المحافظة عليها، وهم لا ينكرون أن هذه « المصالح » كلها قد نشأت من التبشير، وعلىٰ أيدي المبشرين »[1].

٤ - الاستشراق مصدر من مصادر الأدب الإنجليزي للكتابة عن الإسلام:

انتهينا إلىٰ القول بأن معظم المهتمين بالاستشراق والدراسات الاستشراقية إنما ينصب جهدهم علىٰ تشويه الإسلام، وتحريف حقائقه، والإساءة إلىٰ النبي ﷺ، وإلىٰ صحابته الكرام رضوان الله عليهم، وإلىٰ جميع خلفاء المسلمين وعظمائهم رحمة الله عليهم أجمعين.

ويعتمد أسلوب المستشرقين علىٰ سوء الظن والفهم لكل ما يتصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده، وإخضاع النصوص الإسلامية من القرآن الكريم والسنة المطهرة للفكرة التي يفرضونها حسب أهدافهم، والتحكم فيما

(١) عمر فروخ وزميله، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ٩٤.

يفـرضونه من نصـوص وتفسـيـرات مادية، بالإضـافـة إلى تحـريف بعض النصوص عن مقاصدها لخلق الشك والبلبلة ، كما أن المستشرقين يعتمدون على المصـادر التي تروق لهـم، وتروج لفكرهم؛ فـهم ينقلون مثلاً من كـتب الأدب ما يـحكمـون به عـلى تاريخ الحـديث النبوي الشـريف، وعلى سنتـه ﷺ، ويأخـذون من كـتب التـاريخ مـا يحكمـون به على التـشريع الإسـلامي والفـقه ، وهكـذا يمكن أن نلخص للقـارئ الفكر الاستـشـراقي، ومـا ينحصـر فيه من أهداف في القول الآتي لإدوارد سعيد :

«أصبح الاستشراق مسألة متفقاً عليها بالإجماع (أي بين جميع طبقات المفكرين والكتاب والأدباء) أمور محـددة ، وأفكار معينة وأحكـام ثابتة هـي في نظر كل مستشرق الصواب كل الصواب»[١].

ومن هـذا المنطلق وبناءً على هـذا الإجـمـاع المتـفق عليـه بين جـمـيع المفكرين من أدباء ونقاد ومؤرخين ومختصين في السياسة والاقـتصاد، فإن كتاب الأدب الإنجليزي لا يخرجون عن هـذا الفكر، وعن هـذا الإجـماع في حديثهم عن الإسـلام، كـمـا سنعـرض إلـى ذلك في الفـصـول التـاليـة من هـذا الكـتاب ممـا يؤيـد وجـهـة النظر هـذه، والتي أكدها إدوارد سعيد بقوله : «إن معظم كتاب الخيال في عصر ما، أمثال فلوبير ونيرفال وسكوت، كانوا محـدودين بما خبروه، ومـا قالوه عـن الشرق؛ ذلك أن الاستشراق في حد ذاته يقـوم على نظرة سيـاسيـة يقـوم أساسـهـا على التفـريـــق بـــين المألـــوف

---

(١) انظر : Edward Said, Orientalism, p.202.

«أوربـــا والغـــرب أي نحـــن » وبين غيـر المألوف « الشرق هـم »[١].

ويستمر إدوارد سعيد ليؤكد قائلاً عن الأدب الإنجليزي والاستشراق على وجه الخصوص، فيقرر بأن « كُتَّاب الأدب الإنجليزي بالجملة كانوا أكثر جرأة وجسارة من كتاب الأدب الفرنسي في الحديث عما يستحقه الحجاج الشرقيون وأهل الشرق . . . لذا فإن كتاباً رومانسيين أمثال بيرون وسكوت كانت النتيجة بالنسبة لهم أن ينظروا إلى الشرق الأدنى نظرة سياسية ونظرة إجبار وإخضاع وقهر، لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الشرق والغرب . عليه، فقد كان المفهوم التاريخي في روايتي سكوت التاريخية (الطلسم) وروايته (روبرت كونت مدينة باريس) مفهوماً مبنياً على رسم أحداث هاتين الروايتين في فلسطين زمن الحروب الصليبية وخلال القرن الحادي عشر في الزمن البيزنطي، دون أن يبالي سكوت بماهي عليه القوة السياسية في الخارج)[٢].

من هنا يتضح أن الفكر الاستشراقي أصبح مصدراً من المصادر التي استقى منها كتاب الأدب الإنجليزي أفكار الأدب وموضوعاته التي تحدث فيها عن الإسلام والمسلمين.

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٣.

(٢)المرجع السابق ، ص ١٩٢.

الباب الثاني

الأدب الإنجليزي القديم

الأدب الإنجليزي القديم

٥٦٠ ـ ١٠٦٦

قبل الحديث عن الأدب الإنجليزي القديم وموقفه من الإسلام، لا بد من إعطاء فكرة عن هذه الفترة من التاريخ الإنساني العام عموماً وتاريخ الأدب الإنجليزي خصوصاً، حيث كانت أوربا فيها تعيش الفترة التاريخية التي تسمىٰ تاريخ العصور المظلمة Dark Ages .

لقد عاشت أوربا وجميع الشعوب الأوربية مدة تزيد علىٰ اثني عشر قرناً في حالة من الهمجية والجهل والبربرية ، لأنها كانت بمنأىٰ عن الحضارات والثقافة ومراكزها الرئيسية في الشرق . لقد عاشت أوربا تلك الفترة في جو تسوده الحروب القبلية، والديانات الوثنية، والنظم الفوضوية، التي تقوم علىٰ شريعة الغاب ، لا تعرف الحضارة الإسلامية، ولم تعرف الديانة المسيحية أو النصرانية التي جاء بها عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلا بعد مرور خمسة قرون من انتشارها في جزء من جزيرة العرب، وفي الأرض المقدسة في فلسطين، وفي مصر، وجزء من شمال إفريقيا، وفي الحبشة واليمن، وحول منطقة البحر الأسود، إذ كانت أوربا تعيش في هذه الفترة وثنيةً عارمة وجهلاً مطبقاً .

ولم تعرف المسيحية في أوربا إلا في مطلع القرن السادس، ولم تتغلغل إلا بعد القرن التاسع ؛ ذلك أن المبشرين من النصارىٰ بدؤوا التوجه إلىٰ أوربا من القسطنطينية مقر الكنيسة الشرقية ، لنشر المسيحية بين الشعوب الأوربية في إيطاليا وبين الشعوب الألمانية، وشعوب السلاف والصرب والسلت.

وانتشرت النصرانية في أوربا، وأقيمت الكنيسة النصرانية في الغرب بالفاتيكان الروماني في إيطاليا بادئ الأمر عام ٥٢٩م، وكانت مقر الانتشار الأول للدعوة بالمسيحية في أوربا، وبالذات شمال أوربا وغربها ، واستمرت العلاقة قوية بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، إلىٰ أن ظهر الإسلام، وقضىٰ علىٰ قوىٰ النصرانية في الشرق، خصوصاً بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وقد سبق ذلك الحروب الصليبية [١]. وبالرغم من أن العلاقة بين النصرانية واليهودية علاقة قوية؛ إذ إن كتب العهد القديم تشير إلىٰ أن عيسىٰ عليه السلام جاء ليكمل رسالة موسىٰ بن عمران عليه السلام، ومن جاء بعده من الرسل والأنبياء لإبلاغ دعوة الله للأمم والشعوب، إلا أن هذه العلاقة كانت دائماً متأثرة بمسألة وفكرة صلب المسيح الخاطئة التي يعتقد فيها النصارىٰ حتىٰ يومنا هذا علىٰ الرغم من أن القرآن الكريم يؤكد عدم صحة ذلك، إذ يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ٤ ، ص ٤٣٥-٤٦٠.

﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[١] .

وفي هذه الفترة التي بدأت تنتشر فيها النصرانية في أوربا كانت بريطانيا التي قدمت إليها شعوب السلت من قبائل الإنجل والساكسن والجوت لم تكن بعد عرفت النصرانية حتى مجيء حملة القديس أوغستين ، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد .

ولم تكن هذه القبائل لتعرف شيئاً عن العرب وعن الإسلام حتى القرن السابع الميلادي . وكان كل ما وصل هذه القبائل خلال القرن التاسع عن العرب والمسلمين أخبار غير موثوقة وغير صحيحة عن أحوال العرب قبل الإسلام في جاهليتهم ، وأنهم عباد للأوثان ، ولم يدينوا بالنصرانية التي كانت موجودة في جنوب جزيرة العرب ، وأن العرب ظهر من بينهم رجل ادعى أنه نبي ، جاء ليتمم نبوة الأنبياء جميعاً ، ومنهم عيسى عليه السلام ، وهذه الأخبار نقلت من خلال اتصال المسلمين بغيرهم من الفرس والرومان والإغريق ، وما كان من المسلمين من إظهار للعزة والقوة التي أغاظت أعداءهم ، فجعلت الأعداء - وعلى رأسهم - اليهود يختلقون الأقوال الكاذبة ، ويروجون الأخبار الباطلة . لقد كان المسلمون ينقلون من الحضارة اليونانية والفارسية ويترجمون ، وتعلموا تلك اللغات ، ولكن أبناء الأمة الإسلامية يأخذون ما يلزمهم في المجال العلمي ، وهم في موقف العزة والاستعلاء . كانت نفوسهم مليئه بالعزة الربانية ، العزة بالله ورسوله ،

(١) سورة النساء ، الآيتان ١٥٧ - ١٥٨ .

وكانت الثقة تملأ جوانب قلوبهم، ولم تشعر تلك الأمة السابقة بالضآلة أو الذل أمام الأمم التي نقلوا عنها ما يلزمهم، وكانوا يشعرون دائماً بأنهم الأعلون؛ ومن أجل ذلك فهم لم يفتتنوا ولم ينبهروا بجاهليات من حولهم؛ لأن موقف الاستعلاء في النفس المؤمنة يتيح للمسلم أن يختار وينتقي دون شعور بالهوان والذل[1]، لعلمهم اليقيني بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

إذن، فليس هناك غرابة في عدم انبهار المؤمنين، وافتتانهم بقصص الأساطير اليونانية، ولم تكن لهم ذات بال، فلم يكترثوا بها، ولم يهتموا بترجمتها، استعلاءاً بمنهجهم، واعتزازاً بدينهم، وعملاً بقول ربهم تبارك وتعالىٰ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[2].

إن حالة الاستعلاء والعزة وإن أحوال النصر التي كانت للمسلمين في جهادهم ضد الكفار والإلحاد بغرض القضاء عليهما، ونشر الدعوة الإسلامية؛ كل ذلك أثار حفيظة نفوس الأعداء لمناوأة الإسلام ومحاربته، فكان ذلك بداية العداء السافر من كل كافر بالإسلام، و لم يكن بعد قد عرف هذا العداء في بريطانيا، ولكن بدأت رياحه تظهر في أواخر القرن

---

(١) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ١٤٠٨هـ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) سورة يوسف، الآية ٣.

العاشر الميلادي في بعض كتب الأدب الإنجليزي القديم، كما سنبين ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

لقد اجتازت قبائل السلت من سكان منطقة بريتاني الفرنسية بحر المانش من الجانب الغربي لفرنسا، حتىٰ وصلت الجزيرة المقابلة لها علىٰ حدودها الشرقية، وأطلقوا عليها اسم بريطانيا الكبرىٰ، واعتبار بريطانيا الصغرىٰ هي منطقة بريتاني في فرنسا، واستمر وجود قبائل السلت الفرنسية ردهة من الزمن إلىٰ أن جاء الرومان، وضموها إلىٰ إمبراطوريتهم لحقبات طويلة، وبعد ذلك أجلوا منها؛ عندئذ جاءت قبائل أخرىٰ تنحدر من أصل ألماني ودنماركي، وغزت تلك الجزيرة، وأبعدت سكانها إلىٰ الغرب والشمال، واستوطنت هذه القبائل منطقة بريطانيا الكبرىٰ التي تسمىٰ Brythons ، كما سماها السلت في السابق، وهذه القبائل الألمانية والدنماركية هي من شعوب الأنجل والساكسن والجوت، وهي من أصل قبائل تيوتوني Teutonic ذات أصل سلتي ألماني. لقد جاء الأنجل Angles من شبه جزيرة دنماركية Jatland ، وسكنوا شمال شرق إنجلترا وأواسطها، في حين جاء الساكسن Saxon من جنوب الدنمارك وشرق هولندا، وسكنوا الجنوب والجنوب الغربي لإنجلترا بينما جاء الجوت Jute من الأراضي المنخفضة المتاخمة لشرق نهر الراين، وسكنوا في منطقة كنت والجنوب الشرقي لإنجلترا.

وعندما داهمت هذه القبائل الشعب السلتي الذي سكن منطقة بريتاني الكبرىٰ قبلهم اضطروا إلىٰ الهجرة إلىٰ غرب وشمال إنجلترا في منطقتي

أيرلندا وويلز Ireland And Wales ، وقد جاءت هذه القبائل في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلادي.

ومن المعلوم أن هذه القبائل لم تكن بينها فوارق حضارية أو لغوية ، وحال توطن هذه القبائل في منطقة بريتاني ، شرعت كل قبيلة في إرساء تشريعات وقوانين عرفية من جملة تقاليد وعادات تلك الشعوب ، ويلاحظ أن معظم سجلات هذه القبائل وحولياتها المكتوبة كانت تتحدث عن الحروب والقسوة والجرائم والعنف والفروسية والبطولات ، كماهو حال معظم الشعوب الأروبية في تلك الأزمنة التي كانت فيها أوربا تعيش عصور الجهل والحروب ، شأن أي نظام قبلي معروف في التاريخ العام للإنسانية خلال العصور المظلمة Dark Ages لها.

وبعد استقرارهذه القبائل، بدأت تغير في نمط حياتها، فجعلت لها أنظمة اجتماعية ونظماً تشريعية أخرىٰ مختلفة عما كانت عليه الأحوال في بداية الأمر، كما انتهت روح الحرب والغارات فيما بينها ، ووجدت لغة مشتركة قوامها لغة الآنجل والساكسن التي هي - في الأساس - مركبة من كلمتي أنجل وساكسن، وعرفت بعد التطور باسم English، كما تشير إلىٰ ذلك كثير من كتب تاريخ اللغة الإنجليزية، وفقه اللغة، وكتب أصول الكلمات. ومن هنا - أي من بداية القرن السابع الميلادي - بدأت اللغة الإنجليزية في النمو والتطور، إلىٰ أن صارت إلىٰ ما صارت إليه في الوقت الحاضر. والمعروف أن هذه القبائل كلها كانت قبائل وثنية، إلىٰ أن بدأت

الحملات التبشيرية من إيطاليا تصل إلى تلك المنطقة منذ عام ٥٩٧ م، وكانت أول حملة يرأسها القديس أوغستين Augustine (١)، وبذلك فقد اعتنق الإنجليز المسيحية، وتغيرت أحوال هذه القبائل منذ التاريخ الأول لقدومها إلى جزر بريطانيا، وحتى ساعة دخولها النصرانية. وفي هذه الفترة من التاريخ كانت هذه القبائل لا تعرف عن الإسلام شيئاً لدخول النصرانية إليها، وأن النبي محمداً ﷺ لم يبعث إلا بعد قرنين من الزمان من هجرة هذه القبائل لجزر بريطانيا، إضافة إلى أن اليهود لم يصلوا بعد إلى تلك الشعوب، ليعملوا على تشويه الإسلام وتزييف الحقائق عنه. كما أن الأدب الإنجليزي في صورته المدونة في ذلك الوقت لم يكن في حال يسمح له أن يكون أدباً متوارثاً ومتناقلاً من جيل إلى آخر، وإلى هذا يشير آميل ليجوي معلقاً(٢) بأن الأدب الإنجليزي بالمعنى الدقيق لم يبدأ إلا مع مطلع القرن الرابع عشر. ولكن مع زيادة التبشير بالنصرانية بعد موت القديس أوغستين زادت المعرفة بالإسلام والتحذير منه؛ لذا فإن الأدب الإنجليزي القديم لم يخل من إشارات عن الإسلام والنبي محمد ﷺ، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد.

---

(١) القديس أوغستين هو أول راهب روماني أرسل من إيطاليا للتبشير بالنصرانية بين شعوب الآنجل والساكسن وكان هو أول أسقف للكنيسة الكبرى في مدينة كانتربري في الفترة من ٦٠١ إلى ٦٠٤م، العام الذي توفي فيه.

(٢) انظر: Emile Legouis , A short history of English Literature, the Clarendon Press, Oxford , 1976, P.vii.

والتاريخ الحقيقي لأدب الأنجل والساكسون الذي يمثل البدايات الأولى للأدب الإنجليزي، لم يبدأ إلا من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، أي حتى عام ١٠٦٦م عندما غزا النورمانديون جزيرة بريتاني قادمين من منطقة نورماندي في فرنسا، حيث دخل الدوق وليم جيوم المعروف باسم وليم الغازي William The Conqueror بريطانيا، وأخضع سكانها من الآنجل والساكسن والجوت لسلطانه، وتوج نفسه ملكاً على البلاد ، وأشاع اللغة الفرنسية في حاشيته ، وقصور الأمراء والكبار، ولدى بعض أفراد الطبقة الأرستقراطية .

والأدب الإنجليزي القديم يتألف من مجموعات قصصية أسطورية، وقصائد شعرية ملحمية، ظهرت خلال حقبات مختلفة خلال الفترة المشار إليها، ولقد حفظ الأدب الإنجليزي القديم في مخطوطات كثيرة ، لكن لا يعرف تاريخ تدوينها، مما يصعب معه تحديد المدة الزمنية لكل مخطوط [١] .

وهذه المخطوطات موجودة في أربع مجموعات، المجموعة الأولى جمعها السير روبرت كوتن Robert Cotten [٢] ، وهذه المجموعة محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني . المجموعة الثانية، وهي مجموعة

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) السير روبرت كوتن من رجالات الفكر الإنجليزي خلال العصور الوسطى وعصور النهضة . ولد عام ١٥٧١م، وتقلد مناصب متعددة، إلى أن أصبح أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي، وتحصل على لقب السير . توفي عام ١٦٣١ م . كان مولعاً بجمع المخطوطات النادرة، والتي بعضها لايزال محفوظاً بالمتحف البريطاني .

كتاب إكستر الموجودة في الكنيسة الكبري لتلك المدينة، أي مدينة إكستر Exeter جنوب بريطانيا، وهذه المجموعة يظن بعض النقاد والمؤلفين أن تاريخها يرجع إلى عام ١٠٥٠ ميلادية، وقد جمعها القديس ليوفرك Leofric. والمجموعة الثالثة وتسمى مجموعة فرسالي Vercelli، نسبة إلى قرية صغيرة تقع بالقرب من مدينة ميلان الإيطالية، وقد عُثر عليها عام ١٨٢٢م، ولا يعرف أحد كيف وصلت هذه المخطوطة إلى هناك. أما المجموعة الرابعة، فتلك الموجودة ضمن مقتنيات مكتبة بودليان Bodleian بمدينة أكسفورد البريطانية.

وإذا ما قال قائل: إن الأدب الإنجليزي القديم لا يعد من إنتاج أبناء الجزر البريطانية (باعتبارهم شعب له أصول واحدة)، جاز لنا أن نقول باختصار: إن الأدب الإنجليزي في جملته ليس هو أدب أمة، بل هو أدب لغة، فالأدب الذي كتب في إيرلندا إنما هو أدب إيرلندي، وما كتب في أسكتلندا إنماهو أدب أسكتلندي. وكذلك فإن جوزف كونراد Joseph Conrad بولندي الأصل، ولكنه عاش في بريطانيا وكتب بالإنجليزية. إذن، فالرابطة الأساسية للأدب الإنجليزي ليست الأرض التي كتب عليها الأدب، إنما اللغة التي كتب بها ذلك الأدب، وليس الاعتبار للشعب الذي كتب ذلك الأدب، كماهو الحال بالنسبة للأدب العربي، فهو إنتاج على أرض عربية بأقلام عربية من أمة عربية.

وأهم خصائص الأدب الإنجليزي القديم: اللغة التي كتب بها، وما

فيها من صور بلاغية، وجرس موسيقي في الشعر، وتراكيب لغوية ممثلاً في نظم السجع والفواصل، إضافة إلىٰ جملة الأفكار والأحاسيس الوثنية لما قبل النصرانية، وكذلك أفكار وترانيم دينية بعد النصرانية، إضافة إلىٰ تقديم صور عن آداب الحياة الاجتماعية وآداب الفروسية. من هذه الأعمال نذكر كتابين اثنين The widish و The Complaint of Doer .

والأدب الإنجليزي القديم قبل النصرانية يعد امتداداً لأدب البطولات والفروسية والخوارق، وأقدم مثال لهذا التراث ملحمة بيولف Beowulf الشعرية، التي لها مكانة خاصة، لأنها الملحمة الوحيدة من نوعها التي تحمل مآثر الأدب الأنجليزي القديم في صورة التراث الألماني لأصل المناطق التي نزحت منها شعوب الأنجل والساكسن والجوت، وهذه الملحمة تنقسم إلىٰ قسمين رئيسين:

القسم الأول يروي قصة زيارة بيولف ابن أخت الملك هيجلاك إلىٰ قصر الملك هورتجار في هولندا. وبيولف في طريقه من السويد عرف قصة وحشٍ ضارٍ علىٰ شكل جني وإنسي، له نصف شيطاني جني ونصف إنساني واسم الوحش جريندل. لقد حاول هذا الوحش مرات عديدة مهاجمة قصور أحد الملوك، فجاء بيولف من السويد لمساعدة الملك ومنازلة الوحش الشرير، والقصة كلها تقوم علىٰ تراث البطولات والمآثر الوطنية.

والقسم الثاني للقصيدة يحكي أحداث بطولات بيولف بعد خمسين عاماً عندما أصبح ملكاً علىٰ البلاد بعد وفاة خاله الملك هيجلاك.

وقصيدة بيولف تعد بمثابة حجر الزاوية لنهوض الأدب الإنجليزي القديم، وظهور الشعر والقصص، وكانت الوحي الملهم لقريحة الأدباء في نظم الشعر القائم على الجرس الموسيقي، وإيقاع القافية والأوزان الشعرية، إضافة الى الصور البلاغية والتراكيب القائمة على السجع المعروف بالجناس الاستهلالي Alliteration . وكذا الجناس الختامي أو جناس الحركات اللفظية أو الكتابية Assonance . وساعد ذلك على ميلاد اللغة الإنجليزية وتطورها .

ومن القصائد التي تناولت موضوع الرثاء في الأدب الإنجليزي القديم نذكر قصيدتين ؛ هما : The Ruined burg و The sea Farer .

وبعد اعتناق شعوب الإنجلو والساكسن والجوت للنصرانية وبعد نجاح القديس أوغستين في حملته التبشيرية، أصبح الأدب الإنجليزي القديم يركز على موضوعات لها صلة بالدين النصراني وبأنبياء النصرانية، خصوصاً المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأصبحت الموضوعات الدينية ظاهرة في إنتاج كثير من الأدباء، خصوصاً في الأعمال الشعرية التي ظهرت خلال عامي ٦٧٣ ـ ٧٣٥م ؛ ذلك أن الدين المسيحي جعل لبريطانيا صلة قوية بأوربا وحضارتها . وتظهر آثار الدين في شعر الأدب الإنجليزي القديم في عبارات الثناء والشكر للرب وروح القدس والابن ، وجملة من التمجيدات التي ظهرت عن الكتب المقدسة (العهد القديم ؛ والعهد الجديد)، ويمكننا أن نشير هنا إلى أربع قصائد للشاعر سينولف

Cynewulf [1] وهي :

المسيح : Christ

القسيسة جولينا : St. Juliana

إلين : Elene

مصائر الرسل : The Fates of Apostles

وبالنسبة للنثر في الأدب الإنجليزي القديم، فلم يكن له صلة بتاريخ التراث الألماني، كما هو الحال بالنسبة لقصيدة بيولف، والنثر الذي كتب في هذه الفترة لم يكن نثراً أدبياً، ولكنه يمثل مجموعة القوانين التي وضعها حكام الشعوب المهاجرة من الأنجل والساكسن والجوت بعد استقرارهم في بريطانيا، ومنها : قوانين إين Ine Laws، وجملة قوانين ملك الساكسن في الغرب Laws oF The King of The West Saxon، وكذلك مجموعة سلسلة تواريخ الأنجل والساكسن The Chronicles of The Anglo Saxon، لكن النثر الأدبي الذي يمكن الإشارة إليه في الأدب الإنجليزي القديم لم يبدأ إلا في القرن التاسع الميلادي، كما يمثله الأدباء والعلماء الذين كانوا بين يدي

(١) أحد شعراء الأدب الإنجليزي القديم خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، اشتهر بقصائده الأربع التي ذكرناها أعلاه وهذه القصائد متضمنة في مجموعات المخطوطات التي تحفظ الأدب الإنجليزي القديم، وعلى الأخص المجموعة الموجودة في مدينة إكستر في بريطانيا، والمجموعة الموجودة في قرية فرسالي الإيطالية. وكان في السابق ينسب إليه جملة الأعمال الشعرية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن وبدايات القرن التاسع الميلادي فترة حياته، ولكن النقاد والمحققين أثبتوا له فقط القصائد الأربع المذكورة .

الملك إلفرد ملك منطقة وسكس Alfred King of Wessex، ومن أشهر من كتب النثر الأدبي: الأديب إيلفرك AElfric [١]. وكذلك قديس مدينة يورك واسمه ويلفستن Walfstan[٢]. والنثر في الأدب الإنجليزي القديم أقرب إلى اللغة الإنجليزية اليوم منه إلى الشعر الذي يحتوي على ألفاظ قديمة لم تعد تستخدم في الوقت الحاضر [٣].

بعد هذا العرض الموجز عن الأدب الإنجليزي القديم، يتضح أن الكتابة عن الإسلام والمسلمين، وعن الرسول محمد ﷺ لم تكن واردة، ولم يكن لها ذكر واسع في أدب هذه الفترة التي بدأت من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الميلادي.

ذلك أن النبي عليه الصلاة وأزكى السلام لم يولد إلا في عام خمسمائة وسبعين ميلادية، تقريباً في نفس الوقت الذي بدأت فيه هجرة قبائل الأنجل والساكسن والجوت إلى بريطانيا. ولم يصدع عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلا عام ستمائة وعشرة ميلادية، وحينها كان الأدب الإنجليزي القديم في بداياته الأولى، ويقوم على الفكر الوثني؛ إذ لم تبدأ بعد الحملات

(١) كان إيلفرك راهباً، من أشهر أعماله كتابه المعروف باسم Catholic Homilies يقوم على بعض أعمال الرهبان الأوائل الذين بشروا بالنصرانية في بريطانيا، أمثال القديس أوغستين، وله كتاب آخر بعنوان Lives of Saints، وهو مجموعة من المواعظ والترانيم الدينية. ويعتبر إيلفرك من أشهر كتاب النثر في الأدب الإنجليزي القديم توفي عام ١٠٢٠ م.

(٢) كان ويلفتسن أسقف كنيسة مدينة يورك ومن مشاهير كتاب النثر الإنجليزي القديم توفي عام ١٠٢٣ م.

(٣) المرجع السابق.

التنصيرية التي كانت في عام ٥٩٧م ولم تتغلغل النصرانية إلا بعد مرور ما يزيد على قرنين من الزمان .

لذلك ؛ فإننا لا نجد في القرون الأولى من الأدب الإنجليزي القديم أي إشارة إلى الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، ولكن يلاحظ أن مؤرخي الأدب الإنجليزي ـ مثل السير إيفار إيفانز Ifor Evans ـ في كتابه المشهور (المختصر في تاريخ الأدب الإنجليزي) يحاول أن يربط بين تاريخ ظهور قصيدة بيولف ، واسم النبي محمد ﷺ ، فيقول السير إيفانز : «لقد جلب الأنجل معهم قصة بيولف إلى إنجلترا في القرن السادس ، وبعد فترة قصيرة من عام ٧٠٠ ميلادية نظمت القصيدة ، أي حوالي سبعين عاماً بعد وفاة محمد ﷺ »(١) .

وتظهر الإشارة إلى الإسلام والمسلمين في الأدب الإنجليزي القديم في حدود ضيقة بعد انتشار الكتابات الدينية في الأدب ، ونعطي لذلك مثالاً ماجاء في كتاب أساطير الملك آرثر King Aurther وفرسانه ؛ إذ تحكي قصة من هذه الأساطير أن فارساً من فرسان الملك ، واسمه موردرد Mordred ، كان يجد كثيراً من المعونة والمساندة من فرسان الشراكسة (الشرقيين)

(١) انظر : Ifor Evans,A Short History Of English Literture,Penguin,London , 1970 , P.13.

إن ما أورده ايفانز في العبارة السابقه يبين العلاقه بين عصور الأدب وأحداث التاريخ العام ، خصوصا التاريخ المقارن بين النصرانية والإسلام تلك العلاقه ذات الأهمية الكبرى في مثل هذه الدراسات التي تشبه هذه الدراسة التي بين يدي القارئ .

Saraceen ، أي المسلمين [١] ، بل تذكر بعض كتب تاريخ الأدب أن الأنجل والساكسن بعد اعتناقهم النصرانية ، كانت تسمى قبائل الشمال في الدنمارك بالشرقيين الشراكسة Saraceens الذين يعبدون محمداً ﷺ [٢].

ويمكن من قراءة إحدى قصائد الشاعر سينولف Cynewulf التي ذكرناها سابقاً ، وهي بعنوان مصائر الرسل The Fates Of Apostles ، أن نجد الشاعر قد تحدث عن أنبياء بني إسرائيل الوارد ذكرهم في كتب اليهود والنصارى ، وكذلك تحدث عن عيسى عليه السلام ، وغيره من الرسل ، وما لاقوه من العنت ، وما بلغ بهم من الجهد في إبلاغ ما أرسلوا به ، كما تحدث عن استشهاد بعض الرسل . وفي القصيدة كلها لا نجد الشاعر يذكر الرسول محمداً ﷺ على الإطلاق ، وهو بذا قد أنكر نبوته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه اعتمد على مصادر العهد القديم التي حرفتها أيدي اليهود التي تنكر بعثه ﷺ ، والثابتة حقاً لديهم ، فهم بالفعل حرفوا الكلم من بعد مواضعه ، ولا أدلَّ على ثبوت نبوته ما قاله تعالى على لسان عيسى ابن مريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑥ ﴾ [٣].

---

(١) انظر : J.C. Dunlop,History of Prose Fiction, London, 1888, vol 1., P.P.226-227.

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة الصف ، الآية ٦ .

هكذا قال سلف اليهود والنصارىٰ عنه ﷺ، بأنه سحر، إنكاراً لنبوته، وهكذا قال الخلف من اليهود والنصارىٰ فيما زعموا، وإنما يقولون منكراً من القول وزوراً، لقد أنكر أهل الكُتَّاب نبوة الرسول ﷺ وهم يعلمون صدقه وصدق رسالته، ويعلمون حقيقته وحقيقه نبوته، كما يجدون صفته في كتبهم، ولكن ينكرون ذلك حسداً من عند أنفسهم، وقد أورد الإمام البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» الحديث المروي في صحيح البخاري عن صفة الرسول ﷺ في التوراة والإنجيل والزبور، فيروي عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يحدث عن صفة رسول الله ﷺ في كتب أهل الكتاب، فيقول: «إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين. أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويغفر، ويتجاوز، ولن أقبضه حتىٰ يقيم الملة العوجاء، بأن يشهد أن لا إله إلا الله نفتح به أعياناً عميًا، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»(١).

هكذا فعل كتاب الأدب الإنجليزي في كتاباتهم عن الإسلام، كما سنتعرض إلىٰ ذلك في بقيـة أجزاء هذا البحث، فتارة ينكرون نبوة النبي محمد ﷺ، وتارة يدعون أن الإسلام دين منكر، وتارة يقولون: إن النبي محمد ﷺ بطل من أبطال الأساطير، وتارة يدعون أن الرسول عليه الصلاة

(١) رواه البخاري، الفتح ٨/ ٥٨٥ برقم ٤٨٣٨، والدارمي ١/ ٥، وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨، ج ١، ص ٣٧٣-٣٨٣.

والسلام مدعٍ لدين غير حقيقي ، وما أكثر هذه الأقوال التي سيراها القارئ من خلال قراءة هذا الكتاب . والله المستعان وعليه البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب الثالث

العصر النورماندي

العصر النورماندي

١٠٦٦ ـ ١٣٥٠ م

إذا كان الحديث عن الإسلام في الأدب الإنجليزي القديم محدوداً جداً، فلا غرابة أن نجد التوسع العظيم الذي ظهر في كتابات الأدباء في هذا العصر النورماندي؛ لأن هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي تميزت بأنها عصر الاتصال المباشر بين المسلمين والنصارى.

يتمثل هذا الاتصال في الحروب الصليبية التي دامت قرابة قرنين من الزمان، وكانت عام ١٠٩٥م، أي بعد ما يزيد عن عشرين عاماً من الغزو النورماندي لبريطانيا، واستمرت حتى عام ١٢٧٠م. ولقد كانت أوربا خلال القرن الحادي عشر الميلادي تتألف من عدد كبير من الممالك الإقطاعية، وبدأت بعض الحكومات الأوربية تضع وتطور أنظمة الحكومة والسياسة الخارجية مع الدول والممالك المجاورة، ونتيجة لذلك، فقد بدأت الثروة الاقتصادية تزداد، وبدأت الأموال تزداد في أيدي الناس، ولاحظ اليهود في حينها الثراء الذي يعود على رجال الإقطاع، والأموال التي تدر من النظام الإقطاعي، فبدأت الهجرات اليهودية من الشرق إلى أوربا، وبدأ اليهود الدخول في أعماق الأوربيين بإفساد الحالة الدينية السائدة هناك،

وإفساد الحالة الاقتصادية بإنشاء المصارف والنظم الربوية .

ولقد شهد القرن الحادي عشر الميلادي في أوربا ازدياد أعداد السكان، ونمو هذه الأعداد بشكل كبير، وصاحَبَ ذلك تفشي الأمراض، وانتشار الجرائم، بينما كان في هذه الفترة من التاريخ المد الإسلامي والفتح الإسلامي يزداد يوماً بعد يوم، باسطاً حضارته ومدنيته وثقافته . ففي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، (السابع الهجري)، كان الإسلام قد بسط سلطانه علىٰ معظم بلاد الروم في الشام والعراق، وفي بلاد الفرس في إيران، وبلاد ما وراء النهر ووصل الىٰ أواسط آسيا في تركيا واليونان، ووصل إلىٰ إفريقيا والأندلس . وبدأ يهدد الدولة البيزنطية، وبالذات العمل علىٰ فتح القسطنطينية ، كل هذا مع عوامل أخرىٰ، جعلت أوربا تخاف من القوىٰ الإسلامية، ومن الدين الإسلامي وانتشاره بتوسع عظيم .

إن خطر المد الإسلامي علىٰ اليهود، ونمو الثروة لدىٰ النصارىٰ جعلت اليهود يفكرون في استغلال هذه الظروف، وبعث روح العداوة بين الإسلام والنصرانية من غير وجه حق، والإيقاع بين الطرفين بإشعال نار الحرب باسم الأراضي المقدسة، لحماية الحجاج النصارىٰ إلىٰ تلك البقاع، وانتزاعها من سلطان المسلمين . لا شك أن اليهود يجيدون استغلال الفرص لتنفيذ مخططاتهم، مع أنهم لا يحدثون الأحداث كما يزعمون لأنفسهم؛ لأنه لو شاء الله ما فعلوه . لهذا كان هدفهم من إيقاد نيران الحروب الصليبية بين

المسلمين والنصارىٰ استعباد البشرية كلها وسحقها؛ ولأن الإسلام عدوهم الأول الذي يحقدون عليه الحقد الأشد، فإنهم لم يوجهوا إليه حربهم الضروس بادئ ذي بدء، لأنهم لم تسنح لهم الفرصة للانقضاض علىٰ الإسلام، لذا بدأ اليهود بأوربا، إذ وجدوها أيسر منالاً لما كان في حياتهم من الثغرات التي أحدثتها الكنيسة بحماقتها وخطاياها، فيسرت لليهود أن يخرجوا من أجحارهم، ويعيثوا فساداً في الأرض المقدسة، وذلك باستحمار الأمميين [(١)]. هكذا يقول التلمود لليهود، الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلما نفق حمار ركبنا حماراً آخر [(٢)]. وكذا يقول التلمود: إن سرقة أموال الأمميين، واستباحة أعراض نسائهم، وإزهاق أرواح الأمميين كله حلال فعله لليهود.

بهذه التعاليم وبهذه المفاهيم فتحت اليهود أوربا، وزينت لها سوء عملها، فحملتها علىٰ النظام الربوي، فكثرت الجرائم، وتضخم الميزان الاقتصادي، ثم بتحريفها كتب الله وتحريفها للحقائق، أظهرت أن المسلمين يسومون النصارىٰ في الأراضي المقدسة سوء العذاب، فلعبت اليهود دوراً في تحريك الكنيسة، التي بدورها حركت مشاعر الملوك والأمراء ورجال الإقطاع علىٰ ضرورة محاربة المسلمين، وتخليص النصارىٰ وبيت المقدس

(١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ص ٧٩ ـ ٨٣.

(٢) ج. روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص ٧٢ ـ ٨٥.

منهم، فكان ذلك سبباً ظاهراً لقيام الحملات الصليبية. ويظهر دور الكنيسة في شن هذه الحملات في خطاب البابا أوربان الثاني، الذي وجهه إلىٰ الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت، داعياً إلىٰ الحروب الصليبية. وقد تضمن روح الحماسة لحرب المسلمين الذين وصفهم بأسوء الأوصاف كما يقول:

« يا شعب الفرنجة، شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغىٰ وبغىٰ في تلك البلاد، بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرىٰ إلىٰ بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر، بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، وهم يهدمون الأضرحة والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

علىٰ من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم، أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة علىٰ إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم، أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم. فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من

الأماكن المقدسة التي لوثت ودنست. لا تدعو شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم. ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً وتتحاربون، وهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج.

إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها؛ فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين، تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات»[١].

ومثال آخر لتلك الرسائل المتبادلة التي تدل على تحريك اليهود للأمراء والملوك المسيحيين إزاء قيام الحروب الصليبية، تلك الرسالة التي بعث بها القسيس كومنين الأول إمبراطور الدولة البيزنطية إلى بعض ملوك أوربا في الغرب عام ١٠٨٨ م، أي قبل سبعة أعوام من قيام الحملة

(١) محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي، ص ٩٩-١٠١.

الصليبية الأولىٰ التي كانت عام ١٠٩٥م، جاء في الرسالة ما يلي :

« من إمبراطور القسطنطينية إلىٰ السيد الأجل اللورد روبرت أمير الأراضي الواطئة ، وإلىٰ جميع كبار رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية، وإلىٰ رجال الدين والدنيا : تحية وسلاماً . . . أيها السيد العظيم حامي العقيدة المسيحية ، أود أن أحيطك علماً بما وصل إليه تهديد البجاناكية والأتراك للإمبراطورية الإغريقية المسيحية المقدسة، فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون في أراضيها دون انقطاع ، وكم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف يقترفونها ضد المسيحيين الإغريق ، فضلاً عن السخرية والتحقير، فإنهم يذبحون الأطفال والشباب داخل أماكن التعميد حيث يريقون دماء القتلىٰ محتقرين بذلك المسيح .

لقد استولىٰ أولئك القوم علىٰ كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الإغريق ؛ إذ امتلكوا بلاد اليونان كلها بما في ذلك أجزاؤها العليا، وهي : كبادوكيا الصغرىٰ ، وكبادوكيا الكبرىٰ ، وفريجية وبثينية ، وفريجية الصغرىٰ إلىٰ طروادة ، وكذلك بنطش وغلاطية وليدية وبمفيلية وأيسورية وليكيا وجزائر خيوس وميتيلينيا الرئيسية ، كما وضعوا أيديهم علىٰ مناطق وجزائر أخرىٰ حتىٰ تراقية ، وغير هذا وذاك مما لا يقع تحت عد أو حصر ، ولم يبق الآن تقريباً سوىٰ القسطنطينية .

لذا : أستحلفك بمحبة الله، وباسم جميع المسيحيين الإغريق أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة ، وذلك بتقديم جميع الجنود

المسيحيين من كبير وصغير ، فضلاً عن العامة ممن يتسنىٰ جمعهم من بلادك .

وبناءً علىٰ ذلك ، يجب أن تحاربوا بكل ما أوتيتم من قوة وشجاعة قبل سقوط القسطنطينية ، وستسعدون ويكون لكم في السماء أجراً عظيم (كذا) . ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتك ، وليست في قبضة الأتراك ؛ لأن بها أثمن آثار السيد ، وهي الصليب الذي صلب عليه ، والسوط الذي ضرب به ، والرداء القرمزي الذي ألبسوه إياه ، وتاج الشوك . . . وكذلك الملابس التي نزعت عنه أمام الصليب الذي صلب عليه ، ورأس يوحنا المعمدان ، وخصلات شعره بأكملها ولحيته ، فضلاً عن بقايا أجساد كثير من القديسين ، فإذا لم يحفزهم كل هذا للقتال ، ويفضلون عليه الذهب ، فسوف يجدونه في هذا المكان أكثر مما يوجد في العالم كله ، فكنائس القسطنطينية ملأىٰ بكنوز من الفضة والذهب والحلي ، والأحجار الكريمة ، والمنسوجات الحريرية ، التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم . سارعوا إذن بكامل رجالكم ، وحاربوا بكل ما لديكم من قوة حتىٰ لا تقع كل هذه الكنوز والنفائس في أيدي البجاناكية والأتراك ؛ إذ ينتظر وصول ستين ألفاً منهم بين وقت وآخر .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، اعملوا قبل فوات الأوان ، كيلا تفقدوا مملكة مسيحية ؛ وما هو أهم وأعظم : قبر المسيح ؛ وسوف يكون جزاؤكم ليس الدنيوية في هذا العالم ؛ وإنما ثواب الآخرة عند الله[١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٧ ـ ٩٩ .

وقد كان للنصارىٰ شيء من الانتصار في حملاتهم الأولىٰ على المسلمين، ولكن بعد ذلك مُنُوا بالخسران، خصوصاً بعد الهزيمة التي لحقت بهم علىٰ يد صلاح الدين في معركة حطين. فلقد تمكن صلاح الدين، بعد أن أعاد توحيد بلاد الشام ومصر تحت حكمه، وبعد أن قضىٰ على الأعداء الداخليين والمنافسين المناوئين، وبعد أن حشد القوىٰ الإسلامية لمواجهة الصليبيين، استطاع أن ينزل بالفرنجة ضربات قاصمة، كان مفتتحها معركة حطين التاريخية، التي أعادت للمسلمين كرامتهم، وأحيت فيهم الآمال، وأعادت للإسلام نضارته، ووجهه الأبيض المشرق، وأدت إلىٰ تحرير القدس واسترجاع قسم كبير من الأراضي المحتلة. ونحن المسلمين الأحياء في هذه الأيام، نستطيع أن نتخيل وقع أنباء معركة حطين علىٰ نفوس أسلافنا الذين ذاقوا مرارة الهزيمة قبلها، وما أثارت فيهم من كرامة، وما أحيت من آمال، وما ألهبت فيهم من عزائم.

والملاحظ أن الصليبيين، خلال إقامتهم المديدة في ربوع بلادنا، لم تهدأ الحرب بينهم وبين المسلمين مطلقاً، منذ وطئت أقدامهم هذه الأرض حتىٰ ارتحالهم عنها، إلا في فترات قليلة جداً وفِي أواخر أيامهم.

صحيح أنهم كانوا يجدون حلفاء من المسلمين، ولكن ذلك كان استثناءً، وإذا تحالفوا أوعقدوا هدنة مع هذا الحاكم، فإنهم يظلون بحالة حرب مستمرة مع بقية الحكام، وقد سبقت معركة حطين عدة معارك أبدىٰ فيها صلاح الدين تفوقه، واقتلع عدداً من المعاقل من العدو، وأرسل

الرسائل إلى هنا وهناك يحشد الجنود ويستدعي القواد، ليخوض مع العدو معركة فاصلة.

وقد أدرك أنصار صلاح الدين أن تحركه بجيشه عشية معركة حطين لم يكن لأمر اعتيادي، وهناك آمال جسيمة معقودة على هذا الجيش، كما يظهر ذلك من رسالة أرسلها أحد أفراد حاشيته إلى صديق يخبره بذلك: قد نَهَضَتْ بالسلطان به همة، لا يُرجى غير الله لإنهاضها، وحجبت به عزمة، الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها... وأرجو أن تتمخض عن زبدة، وتستريح الأيدي من المخض.. ولكن هناك نتيجة ثانية ظهرت بعد انقضاء فترة على معركة حطين، وتحرير القدس، وما تلا ذلك من معارك، وتحرير أراضٍ أخرى، أعني بذلك ما عرف باسم الحرب الصليبية الثالثة[١].

وهذا - في الحقيقة - رد فعل أوربا ضد الإسلام والمسلمين، لما وصلتها من أنباء تحطم أحلامها، وتبخر آمالها في القضاء على الإسلام وأهله، ذلك أن الكنيسة التي حرضت على الحروب الصليبية وتبنتها ودعت لها، وكانت الروح المحرك لها، جن جنونها وثار ثائرها، وأصيب رجالها بالجنون نتيجة لحروب صلاح الدين، وانتصاراته، وتحرير بيت المقدس، ولذلك انطلقت الصيحات عالية في أوربا مجدداً تطالب بالقضاء على صلاح الدين، واسترجاع البيت المقدس، وتحطيم المشركين الوثنيين الكفرة.

ولقد لبى ملوك أوربا هذا النداء، وعلى رأسهم ريتشارد ملك بريطانيا

(١) المرجع السابق.

وفريدريك بربروس ملك ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، إلىٰ جانب عدد كبير من الأمراء، وتقاطروا زرافات ووحدانا ، براً وبحراً، إلىٰ بلاد الشام، تحدوهم رغبة واحدة ، علىٰ الرغم من الخلافات المميتة بينهم ، هذه الرغبة هي القضاء علىٰ الإسلام والمسلمين، واسترجاع البيت المقدس، كما لبىٰ النداء جمهور عظيم جداً من طغاة الناس ورعاعها في أوربا، واختلطت الدوافع الدينية مع الدوافع الدنيوية في جعل القوم يستميتون في محاولتهم القضاء علىٰ الإسلام، واستعمار أراضيه، وإبادة أهله. ولقد توقع صلاح الدين مثل ردة الفعل هذه ، ولكن قواه المحدودة ، بالمقايسة مع قوىٰ أوربا ، لم تمكنه من الاستعداد لصدهم ومنعهم عن الوصول إلىٰ البلاد الإسلامية ، كما أنه كان علىٰ علم بمجريات الأمور، وأن ملك الألمان سلك طريق البر عن طريق القسطنطينية بجيش لَجِبٍ قاصداً البلاد الإسلامية.

ولما لم يكن صلاح الدين يملك إمكانات عسكرية أو اقتصادية تمكنه من صد هذه الغزوة ؛ لذلك لجأ إلىٰ خليفة بغداد الذي يدين له بالولاء ، يخبره بما حدث، ويطلب منه المدد، فيقول : حيث قد وصل الخبر بالداهية الدهياء، والغمة الغماء ، والنكبة النكباء، والشدة الدهماء ، والليلة الليلاء، وهي أن ملك الألمان ، ومعه ملوك الفرنجة وحشودها وقوامصها وكنودها . . . وصل جاراً علىٰ السماء ذيول قتامة ، مجرياً في الأرض سيول لهامة [١] . . وبعد أن يطنب في وصفه ووصف جيشه يقول : « إن

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠-٤١ .

سلاجقة الروم متعاطفون مع صلاح الدين ضد هذا الخطر الماحق، ولكن بعد فترة انقطعت الأخبار، ليعلم أن صلاح الدين أن القوم صانَعوا ملك الألمان، وتركوه يعبر بلادهم، ويصل إلى بلاد الشام، ثم يقول: وقد تعين الجهاد على كل مسلم.. والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض. والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض، وهو واثق بأن بركات العلي القدير تدركه ولا تتركه.

والواقع؛ لقد أثار ملك الألمان بسلوكه المتغطرس، وسلوك جيشه الأشبه بالعصابات، عداء جميع من مر في أراضيهم. فقد أرسل ملك الروم وإمبراطورها رسالة إلى صلاح الدين يخبره بخبر ملك الألمان، وكيف أنه اجتاز بلاده بالعنف، وكيف آذى فلاحي بلاده، وكيف أن الحرب دارت بين الطرفين، وكيف أن الجيش الألماني آذى وتعب أكثر مما آذى فلاحي بلادي، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا... وقد ضعفوا، بحيث إنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم، ولا يضرون نسبتك[1].

كذلك أرسل ملك الأرمن صاحب قلعة الروم على أطراف الفرات كاغيكوس رسالة إلى صلاح الدين، يخبره خبر ملك الألمان، وكيف أنه اجتاز الأناضول، وكيف اضطر ملك الألمان إمبراطور بيزنطة على

---

(١) المرجع السابق.

مصانعته، وكيف حاربه سلاجقة الروم ، ولكنهم هُزِمُوا أمامه واضطرهم لمساعدته . ثم يقص عليه نبأ غرق ملك الألمان في مياه نهر من أنهار آسيا الصغرىٰ، ويهول في عدد جيشه والأجناس التي يضمها، ولكنه يذكر في رسالة تالية ضعفهم وعجزهم. والطريف في الأمر هو أنهم حرموا علىٰ أنفسهم الملاذ حزناً علىٰ بيت المقدس : وقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرموا ما حَلَّ، ولم يلبسوا إلا الحديد، وكان ذلك أهم من الصبر علىٰ الشقاء والذل والتعب في حال عظيم.

ولكن الله تعالىٰ أراح صلاح الدين من الألمان وملكهم، فقد تفرَّق القوم أيدي سبأ بعد موت ملكهم، وضعفوا وتخطفوا ، ولم يتمكنوا أن يجدوا لهم ملجأ في كل من أنطاكية وطرابلس إلا بشق النفس.

والواقع كان رد فعل أوربا علىٰ ذهاب القدس عنيفاً كل العنف ، عارماً . فقد تعاقد القوم علىٰ أن يجعلوها وقعة الانفصال مع الإسلام، وبذلت الكنيسة أقصىٰ جهودها المادية والمعنوية ، واستجاب القوم ـ ملوكاً وحكاماً وأفرادا ـ لنداء البابوية ، وانثالوا انثيالاً علىٰ البلاد الإسلامية ، وبدؤوا هجوماً كاسحاً يسندهم تفوق عددي رهيب ، وإمداد بحري متصل ، تحمله من أوربا بشكل مستمر أساطيل دول المدن الإيطالية ؛ وخاصة البندقية وجنوىٰ وبيزا [١].

ولم يكن لدىٰ صلاح الدين سوىٰ قوته الذاتية ، وهي لا توازن

(١) المرجع السابق.

بقوىٰ الصليبيين ؛ ولا سيما أنهم سادة البر ، والبحر يمدهم بسيل لا ينقطع من المال والعتاد والرجال . والشيء المؤلم في الموضوع أن خليفة بغداد الناصر لدين الله، الذي أرسل له صلاح الدين الرسائل تلو الرسائل يشرح الوضع ويستنجد ويستغيث ، لم يمدده إلا ببركاته المعنوية، ودعواته الروحية، ولم يتقدم أحد إلا بعض الأمراء المحليين، مثل ملك الموصل ، لمساعدته في هذا الموقف البالغ الحرج الذي استمر أكثر من أربع سنوات حول عكا [١] .

ولكن النصر كان للمسلمين، وأخفقت أوربا في التمكن من المسلمين، ومن بيت المقدس التي ظلت في أيدي المسلمين إلىٰ عهد قريب في أواخر الستينات من هذا القرن، حيث أصبحت بعد ذلك في أيدي اليهود .

والملاحظ أن أحداث معركة حطين وما تلاها من معارك أثارت قرائح الأدباء والكتاب، فأنتجوا أدباً كثيراً عند الأوربيين، وعلىٰ الأخص في الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي، الذي كان تحت تأثير اللغة الفرنسية إبان العصر النورماندي خلال الحملة الصليبية الثالثة، التي تعد حملة عالمية كبرىٰ، جُمِعَتْ لها الأموال الطائلة، وحشدت لها الجيوش الكبيرة من كل أنحاء أوربا، بعد نداء البابا من روما. وشملت الجيوش أعداداً كبيرة من النمسا، وألمانيا ، وإيطاليا ، وإنجلترا ،وفرنسا .

وتمثل المنازلات البطولية، ومواقف الفروسية في هذه الجيوش

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢-٤٤

النصرانية، وما يقابلها من جيوش إسلامية، الكثير من القصص والقصائد الشعرية، خصوصاً فيما يتعلق بشخصية الملك ريتشارد قلب الأسد، وشخصية الإمام المسلم صلاح الدين الأيوبي بطل حطين.

ومن أشهر القصص التي تتحدث عن بطولات صلاح الدين الأيوبي في أثناء الحملة الصليبية الثالثة التي قادها الملك ريتشارد قلب الأسد القصة الإنجليزية التي ظهرت في العصور الوسطى بعنوان «ريتشارد قلب الأسد»، وقد كتبت هذه القصة في القرن الرابع عشر الميلادي [١]. وهذه القصة كانت ملحمة منظومة تحكي جميع أحداث الحملة الصليبية الثالثة، في أسلوب أدبي يصور الشرق والمسلمين في الأرض المقدسة في فلسطين. ويوجد في القصة الكثير من الدس على المسلمين والإجحاف بهم ، وإن كانت تصور بشاعة الغزو الصليبي وسلوك المحاربين النصارى. ونذكر من أحداث هذه القصة ما يدل على وحشية الصليبية ، ذلك أن الملك ريتشادر قلب الأسد كان مريضاً ذات يوم، وطلب من حاشيته أن يحضروا له طعاماً من لحم الخنزير، الذي لم يكن معروفاً في بلاد المسلمين؛ لأن أكله محرم في الإسلام، وكان الملك يلح على ذلك ، حينها قام رئيس حرس الملك بذبح طفل من أطفال المسلمين ممتلئ الجسم، وقدمه للملك على أنه لحم خنزير [٢]. . . يا لها من خسة ووحشية، هذا هو حال النصارى، فهم أكلة

(١) انظر : Paul Harvey, The Oxford Companion to English Literature, P ,639.

(٢) انظر : S.Lane - Poole, Saladin and the Fall of the Kingdom of=

لحوم البشر، إما بالفعل أو بالقتل. والنقاد والأدباء في الغرب يرون أن هذه القصة مثال للبطولة والشجاعة التي قام بها الفرسان في هذه الحملة التي اشتهر فيها ملك الفرنجة والإنجليز ريتشارد قلب الأسد.

وهناك قصة مماثلة في الأدب الفرنسي بعنوان « حملة الملك ريتشارد»، وهي تحكي بطولات الملك الإنجليزي في فلسطين مع المسلمين، وهذه البطولات التي يرويها الأوروبيون في أدبهم ويمجدونها ليست إلا مظاهر من الهمجية، وضربًا من الوحشية، فهي تمثل قتل الصليبيين للمسلمين، وأكلهم للحوم المسلمين على المآدب الملكية؛ إذ إنه في إحدى غزوات الملك ريتشارد أمر جنوده بقتل جميع أسرى المسلمين من رجال وأطفال ونساء، ووضع رؤوس القتلى على موائد الطعام[1]. هل هذه بطولة أم إنها دناءة وخسة؟.

وهذه القصة وأمثالها تعمل على تمجيد الصلبيين، واعتبار أي موقف من المواقف الحربية التي تلحق الأذى والضرر بالمسلمين مواقف شجاعة وفروسية وبطولة، وأمثال هذه القصص مليء بالتلفيق والأساطير والأكاذيب عن حقيقة الإسلام، وعن حياة المسلمين، وفي هذه القصة بعض الأخطاء التاريخية، حيث إنها تشير إلى منازلة ميدانية قامت بين صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلب الأسد، والمعروف في كتب التاريخ أنه لم يلتق قط صلاح الدين بريتشارد، لا في حرب، ولا في سلم، وإنما الذي

(١) دائرة المعارف البريطانية، ج ٥، ص ٣٠٥.

التقىٰ بالملك ريتشارد هو العادل أخو صلاح الدين الأيوبي .

كتب المؤلف الفرنسي جين سدیان (١١٣٢ ـ ١٢٠٧ هـ) (١٧١٩ـ ١٧٩٢ م) Michel - Jean Sedaine مسرحية بعنوان « ريتشارد قلب الأسد»، وذلك في عام ١١٧٨هـ ١٧٦٤ م، أشاد فيها ببطولات هذا الملك، والأخذ بالثأر، وتحقيق الانتصار علىٰ المسلمين وتأديبهم. مع العلم أن الملك ريتشارد وبقية القواد في هذه الحملة قد منوا بالفشل الذريع بسبب تصدي المسلمين لهم، وبسبب الخلافات التي سادت صفوف الجيوش الصليبية، كما تروي كتب التاريخ، فذهبت ريحهم سدىٰ. فكيف تأتىٰ للملك ريتشارد قلب الأسد أن يأخذ بالثأر، ويحقق الانتصار؟ ولكن المقصود هو الإشادة ـ ولو بالباطل ـ بقوة النصرانية، وأن المسلمين ضعاف متخاذلون.

ولو قرأ أحدنا كتاب « حكايات قصص راهمز »، التي ظهرت في الفترة ما بين (١٢٦٠ ـ ١٢٧٠ م) The Tales Minstrels Rhemis، لوجدناها تنسج الكثير من الأكاذيب والأباطيل . ومنها أن القائد صلاح الدين الأيوبي قد وقع في حب زوجة ملك فرنسا قائد الحملة الصليبية الثانية، وأن حب هذه الملكة لصلاح الدين الأيوبي دعاها إلىٰ ترك دينها، واعتنقت الدين الإسلامي؛ لكي تتمكن من الزواج من هذا البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي . ولو بحثنا في كتب التاريخ لوجدنا أن هذه القصة مليئة بالأكاذيب والافتراءات الكثيرة. ففي الوقت الذي جرت فيه أحداث الحملة الصليبية الثانية، لم يكن عمر صلاح الدين قد تجاوز الحادية عشرة،

فالحملة الصليبية الثانية كانت بدايتها في عام (٥٤٢ هـ ١١٤٧م)، أي بعد مولد صلاح الدين بأحد عشر عاماً فقط؛ لأن مولده كان في عام (٥٣١ هـ ١١٣٦ م).

ومن بين هذه الأكاذيب في هذه السلسلة من الحكايات القول: بأن صلاح الدين الأيوبي اقتنع بالمسيحية كدين صحيح بديل للإسلام، وأنه ذهب لإحدىٰ الكنائس لتطهير نفسه وجسده بالماء المقدس، بل الأكثر من ذلك أن تحكي هذه الروايات أن صلاح الدين دفن بعد موته في إحدىٰ المقابر الملحقة بإحدىٰ الكنائس المسيحية الكبيرة في مدينة دمشق. كل هذه الأكاذيب والأساطير ذهب إليها الأدباء الأوربيون بقصد الترويج للنصرانية والتبشير بها، ليوهموا القراء بوقائع لا وجود لها علىٰ الإطلاق.

وهناك عدد كبير من الحكايات، والقصص والمسرحيات، والقصائد، التي ظهرت في الأدب الفرنسي في العصور الوسطىٰ، وملأت الكتب بالكثير من الأساطير والأكاذيب عن الحروب الصليبية، والحملات الثمانية المختلفة [1].

فعن الحملة الصليبية الأولىٰ نظم الشاعر الفرنسي جريند دي دواي Grained de Douai الكثير من القصائد الشعرية، مثل «أغنية أنطاكية» Chanson Antioc، وقصيدة «انتصار القدس» Conquete de Jerusalem،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٢-١٨٣.

وكلتاهما ظهرت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي[١].

وعن الحملة الصليبية الثالثة كتب الشاعر الفرنسي أمبروادي إيفروا Aimbroise d' Evreux قصيدة طويلة أسماها « تاريخ الحرب المقدسة» Estoire de La Guere Sainte، وتتألف هذه القصيدة من حوالي اثني عشر ألف بيت ، وتصور هذه القصيدة سوء المعاملة التي يلقاها الحجاج والزوار النصارى للأراضي المقدسة من قبل المسلمين ، والشاعر بهذا يرى أن العرب والمسلمين أمة همجية لا تعرف المظاهر الحضارية والأخلاقية والإنسانية، كما تضمنت هذه القصيدة الإشادة بريتشارد قلب الأسد أيضاً[٢].

وبعد هذه المقدمة التاريخية، التي توضح حقيقة الأدب الإنجليزي في هذا العصر الذي كان تحت تأثير الأدب النورماندي الفرنسي ، وأنه أدب يتحدث عن الإسلام بما يتصل بالحروب الصليبية التي ألهب نارها اليهود، الذين اكتشف أمرهم في أوربا فيما بعد ذلك بعد أن نخر السوس قوى المسيحيين، وأضلهم اليهود عن معرفة الحق، وملؤوا رؤوس النصارى بالحقد على المسلمين بغير وجه حق، فطردت أوربا اليهود من بلدانهم[٣]،

(١) انظر : Paul Harvey and J. E. Heseltine, The Oxford Companion to French Literature, P.23.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٣)راجع الباب الأول في هذا الكتاب وما قدمناه عن اليهود باعتبارهم مصدراً من مصادر الكتابة في الأدب الإنجليزي عن الإسلام.

ولكن العداوة بين الإسلام والنصرانية ظلت وستظل إلىٰ أن ينزل عيسىٰ ابن مريم عليه السلام من السماء، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويرفض الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام؛ لأن الدين عند الله الإسلام.

والآن نلقي الضوء علىٰ هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي، أي في العصر النورماندي وما كتب فيها عن الإسلام، وعوداً علىٰ بدء، فإن كلمة نورمان Norman تعني إنسان الشمال North - Man، والنورمانديون شعب من شعوب شمال أوربا من أصل دنماركي، سكنت بادئ ذي بدء في هجرة لها إلىٰ فرنسا المنطقة المسماه حاليا باسم نورماندي نسبة إلىٰ ذلك الشعب.

وفي تلك المنطقة ترك النورمانديون جميع طقوسهم الدينية الوثنية، وعاداتهم الاجتماعية، وقوانينهم التشريعية. ففي فرنسا تعلم النورمانديون اللغة الفرنسية، واعتنقوا المسيحية، واقتبسوا القوانين الفرنسية، وتقمصوا حياة الفرنسيين الاجتماعية. وبعد أن طال مقام النورمانديين في تلك المنطقة، وقويت شوكتهم، غزا النورمانيديون بريطانيا، وجلبوا إليها الثقافة الفرنسية، حيث تمكن الإمبراطور وليم الغازي William the Conquror أن يجتاح جميع أجزاء بريطانيا التي كان يسكنها قبائل الأنجل والساكسن والجوت بممالكهم المعروفة [1].

وبهذا الغزو النورماندي فرضت اللغة الفرنسية علىٰ أنها لغة الطبقة

---

(١) المرجع السابق.

العليا من المجتمع، ولغة القوانين والأعمال الحكومية والرسمية . وتطور الامر إلى أن أصبحت الفرنسية لغة الأدب ، خصوصاً وما كان من ممارسات الأدباء النورمانديين في إنتاجهم الأدبي، الأمر الذي جعل الفرنسية تطغى على اللغة الإنجليزية القديمة، التي كتب بها الأدب الإنجليزي القديم، حتى كادت اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي القديم أن يختفيا مع مجيء النورمانديين بقوانينهم وبحصونهم وبمعرفتهم بفنون الحروب، فإن الأنجل والساكسن اندثروا إلى موقع الدون، فماتت حضارتهم، واندثرت وتلاشت، وأصبحت لغتهم نسياً منسياً، وانتهى الأدب الإنجليزي القديم[١].

وبالموازنة بين أدب النورمانديين والأدب الإنجليزي القديم في بداياته الأولى، فإننا نجد أن موضوعات كلا الأدبين كانت متماثلة متشابهة، ويتقدمها موضوعات الفروسية، وفنون الحرب، والمنازلات الحربية. وأوضح مثال لذلك « قصيدة أغنية رونالد» Chanson de Ronald . لكن الأدب النورماندي كان متعدد الألوان والأطياف والصور، على خلاف الأدب الإنجليزي القديم.

كما أن الأدب النورماندي، الذي يقوم على أسس الأدب الفرنسي القديم، يتسم بالوضوح والصفاء في صور بلاغية جميلة ورائعة، كما يصور

(١) أنظر : John Burgess Wilson, English Literature, Longman, London ,1970, P.31.

الشاعر تلألؤ الأسلحة الفضية بلونها الأبيض والدم الأحمر بلونه القاني في ساحة معركة من المعارك تحت السماء الصافية بزرقتها الجذابة ، كل ذلك يظهر في قصيدة «أغنية رونالد» السالفة الذكر .

والأدب النورماندي الذي ظهر في هذه الفترة في بريطانيا لم يكن أدباً فرنسياً محضاً، ولم يكن أدباً إنجليزياً بحتاً، ولكنه أدب يختلط فيه التراث الهيليني اللاتيني والتراث الفرنسي مع بعض خصائص الثقافة الأنجلو ساكسونية . وكان هذا الأدب يسمى أدب الإنجلونورمن Anglo - Norman ، الذي امتد لفترة طويلة تزيد على ثلاثة قرون ، وصل ذروته في عهد الملك هنري الثاني فيما بين ١١٥٤ـ١١٨٩م، وانتهى العصر النورماندي بعد انتهاء نفوذ النورمانديين وظهور الشاعر الإنجليزي جيفري تشوسر [١] . ومن أهم الأعمال التي أنتجت في هذه الفترة مجموعة القصائد الملحمية بعنوان Chansons de Geste ، ومنها القصيدة التي بعنوان«أغنية رونالد» التي ذكرناها آنفاً . ومن هذه الأعمال أيضاً Roman de Burt, Histoire des Angles.

وكل هذه الأعمال سلسلة من الأخبار والأحداث التاريخية مختلطة

---

(١) جيفري تشوسر Geoffery Chaucer يعتقد أنه ولد عام ١٣٤٠م، أي قبيل إجلاء النورمانديين من بريطانيا بعشرة أعوام . تدرج في مناصب رسمية متعددة في الدولة والبلاط الملكي، وكان أحد الفرسان الذين حاربوا الفرنسيين تحت قيادة الملك إدوارد الثالث عام ١٣٥٩م، وإنتاج هذا الأديب يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل: مرحلة التأثير الفرنسي إبان الغزو النورماندي، ومرحلة التأثير الإيطالي وقراءاته لأعمال دانتي وبيكاسيو، والمرحلة الثالثة: مرحلة الأصالة والنضج الأدبي، وفيها كتب أشهر عمل أدبي له، وهو حكاياته المشهورة باسم The Canterbury Tales . وقد توفي عام ١٤٠٠م.

ببعض الأساطير والخرافات، وتصوير لبعض الشخصيات المعروفة ببطولتها وحماسها، الأمر الذي أثر في الأدب الإنجليزي فيما بعد الغزو النورماندي، وبدأ ظهور مثل تلك الشخصيات في أحد كتب جيفري منموث Geoffery Of Monmouth، واسم هذا الكتاب History Of The Britons [(١)]. ومع مرور الزمن بدأ النورمانديون يتعلمون الإنجليزية، كما بدأ بعض الإنجليز يتعلمون فرنسية النورمانديين، الأمر الذي ساعد على عودة ظهور الأدب الإنجليزي مرة أخرى بعد اندثار دام ما يزيد على قرنين من الزمان، فظهر أدب هذه الفترة بلغة مطعمة بالألفاظ والمصطلحات الفرنسية، كما أن مجيء النورمانديين ساعد على دخول كثير من الألفاظ اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية وأدبها في هذه الفترة، وفي أدب العصور الوسطى، أو بما يسمى عصر الانتقال Transition Age، الأمر الذي مهّد السبيل إلى توطيد الأدب الإنجليزي وترسيخ قواعده مع ظهور أول شاعر إنجليزي، ألا وهو جيفري تشوسر، الذي ولد قبيل عشرة أعوام من انتهاء الاحتلال النورماندي لبريطانيا، والذي انتهى عام ١٣٥٠م.

ولقد تنوع الأدب في هذا العصر في موضوعاته الدينية والدنيوية،

(١) أحد رهبان مدينة مونموث ولد عام ١١٠٠م، وفي كتابه «تاريخ بريطانيا» يتحدث عن حياة ملوك الانجل والساكسن وحياتهم قبل النصرانية، ويعد الكتاب من التراث الإنجليزي الخالد، الذي اهتمت به الدوائر الأدبية وأيدي النقاد، وأحدث ترجمة لهذا الكتاب ظهرت عام ١٩٠٣، ومن أشهر مؤلفاته قصص الملك آرثر، المعروف باسم (وفاة آرثر) مورت آرثر Morte d' Arthur، وهي قصيدة تقع في ما يزيد عن أربعة آلاف بيت، والقصيدة لها قيمة أدبية في الادب الإنجليزي.

وكان الأدب الدنيوي مستوحىٰ من أدب الفروسية في الأدب الفرنسي، وكذلك من أدب الأغاني والموشحات، وكان كله يتحدث عن بريطانيا والحياة فيها، كما كان ذلك يتضمن تمجيد الفرسان الإنجليز وبسالتهم، وذلك واضح في الأعمال التي ترجمها القسيس الإنجليزي لايمن Laymon، والتي استفاد منها في كتابه وعمله المشهور باسم بروت أوبروتس Brut، أو « تاريخ إنجلترا » من زمن وصول شخصية بروتس الأسطورية حتىٰ شخصية كادولدار. ويقوم هذا الكتاب في أساسه علىٰ كتاب جيفري مونموث الذي تقدم ذكره [١].

وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ظهرت بعض القصص المستوحاه من الآداب الإسكندينافية تمجد بريطانيا ورجالها، ومن هذه القصص قصة هافلوك Havelok، وقصة هورن Horn. والقصة الأولىٰ من قصص المغامرة للشباب الدانماركي من الأمراء، الذين حرموا حقوقهم من بعض الأوصياء الأشرار الظلمة، والقصة الثانية تحكي قصة حب، أكثر من أنها قصة فروسية وبطولة، وهناك قصة القصيدة الإنجليزية المشهورة بعنوان «البوم والعندليب » Owl and the Nightingale، وفيها يمثل العندليب الشباب الطائش في الماضي، وما يمثله

---

(١) لايمن Laymon، ويقال له: Lawemon أيضاً. هو أحد الرهبان المشهورين خلال عام ١٢٠٠ ميلادية بكتابه المعروف باسم «تاريخ إنجلترا »، وهو أول كتاب يكتب بالإنجليزية منذ الغزو النورماندي لبريطانيا، وقد كتب بأسلوب الأدب الإنجليزي القديم، واهتم به كثير من الكتاب، فظهرت له طبعة عام ١٨٤٧ م، وأخرىٰ عام ١٩٦٣ م.

من حكمة وعقل في الحاضر.

أما بالنسبة للأدب الديني في هذا العصر، فكانت موضوعاته تتركز على المسيحية والتبشير بها، وعن حقيقة نبي المسيحية عيسى ابن مريم عليه السلام، وأمه مريم العذراء الناسكة البتول. وقد ازداد الشعور بالحاجة إلى الشعر الديني في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، واستمر الأمر حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، حيث كثرت المواعظ الأدبية الدينية شعراً ونثراً، والاستشهادات البارزة من الأناجيل، وخصوصاً المزامير الدينية التي تدعو إلى الإيثار والورع والتصوف، وكل الأعمال الأدبية الدينية التي ظهرت في هذه الفترة لم تكن تحمل سمات الأدب القومي لتأثير النورمانديين، ولانتشار النصرانية التي جاءت من إيطاليا، فكانت كل الأعمال الأدبية الدينية ترجمات من الفرنسية واللاتينية، وأظهر مثال للشعر المترجم المتضمن للأقوال الدينية والأدب الديني ما نراه في قصيدة أورمليوم Orumulum للراهب أورم Orm التي كتبها عام ١٢٠٠ [١]، وفيها قام الراهب بترجمة بعض أقوال المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، في إرشاد

(١) اشتهر الراهب أورم Orm، وأحياناً يسمى Ormin على أنه أحد أتباع القديس أوغستين في القرن الثالث عشر، وقصيدته أورميلوم المترجمة تتألف من عشرة آلاف بيت كتبت على نمط الشعر الإنجليزي القديم، المتميز بالسجع الاستهلالي، والسجع الختامي Alliteration andAssonance، وتتنوع موضوعات القصيدة من حيث ذكر ميلاد المسيح وبعثته وتعاليمه، ومن كان معه من الحواريين من بني إسرائيل، وما إلى ذلك من سيرة عيسى ابن مريم ودعوته، إلى حين ذكر صلبه المزعوم.

قومه، وتعليمهم أركان النصرانية التي حرفها اليهود، والدعوة إلىٰ التمسك بها.

وقد سبق ظهور هذه القصيدة المترجمة قصيدة أخرىٰ بعنوان أغنية الأخلاق Moral Ode ، يظن أنها ظهرت عام ١١٧٠م، وتعد أقدس مقطوعة أدبية بالنسبة للنصارىٰ ، إذ تدعوهم إلىٰ نبذ الحياة الدنيا، والعمل علىٰ طريق القداسة والفداء للخير . وقد تضمنت القصيدة كثيراً من وصف الثواب لكل صالح، والعقاب الأليم لكل فاسد .

ومن أمثلة الأدب الديني الذي كتب نثراً: العمل الذي ظهر في الفترة من ١٢٠٠ إلىٰ ١٢٥٠ ميلادية بعنوان Ancrene Riwle ، وهو مجموعة من التعاليم والإرشادات المسيحية، تصور شخصية ثلاث ناسكات من راهبات ذلك العصر ، هجرن الحياة الدنيا وملن إلىٰ التصوف في خلوة تامة للعبادة، علىٰ غرار ما فعلت مريم العذراء عندما انتبذت مكاناً شرقياً ، واشتمل هذا العمل علىٰ عدة رسائل ونداءات للنساء وضرورة العمل الصالح .

ولقد تميز العصر النورماندي في تاريخ الأدب الإنجليزي بظهور فن الأدب التمثيلي، وظهور بعض الأدب المسرحي ، ففي نهاية القرن التاسع كانت البدايات الأولىٰ لهذا الضرب الأدبي، إذ ظهرت بعض أنواع الحوار المسرحي في كتب الأدب، كذلك الحوار الذي يجري يوم الأحد في عيد الفصح، والاحتفال بعودة المسيح وبعثه عليه السلام، كما تعتقد النصارىٰ في ذلك ، وهناك الحوار التمثيلي عن يوم الجمعة المقدس Good Friday ،

وعن ميلاد المسيح . واستمر هذا الأمر إلى عهد الغزو النورماندي، الذي يعد التاريخ الحقيقي لظهور المسرحية والأدب المسرحي في الأدب الإنجليزي، ذلك أن النورمانديين أدخلوا فن المسرح عن طريق المسرحية المقدسة والمسرحيات الدينية، التي تقوم على أسس الدين المسيحي، وعلى سبيل المثال نذكر أن البابا أوربان الثاني وضع في عام ١٢٦٤ ميلادية أساساً لمسرحية دينية تسمي « جسد المسيح » Body Of Christ ، والتي استمرت بين الناس حتى عام ١٣١١ ميلادية .

وكانت الغالبية العظمى للمسرحيات في العصور الوسطى - أي خلال العصر النورماندي - مستقاة من النصرانية المحرفة، وهي مبنية على قصص دينية، مثل قصة خلق آدم وحواء، وخروجهما من الجنة بسبب خطيئتهما، وكذلك قصة الأخوين قابيل وهابيل، التي فيها أعلنت لأول مرة حرب الإنسان لأخيه، كما قام قابيل بقتل أخيه هابيل ، وكذلك قصة نوح عليه السلام، ودعوته لقومه الذين عصوه، فعاقبهم الله بالطوفان العظيم، الذي أغرقهم وأهليهم إلا ذرية قليلة من نسل نوح ممن آمن معه. وهناك مسرحية « مريم العذراء »، وقصة ابنها، وموقف قومها منها ومن ولدها .

وكانت كل تلك المسرحيات تعكس في جملتها الطقوس النصرانية، وما يتخللها من أساطير وعقائد فاسدة، سادت كتب الأناجيل المتعددة المحرفة تحريفاً فكرياً وعقائدياً وتاريخياً عن أصولها التي أوحى الله بها إلى أنبيائه عليهم صلوات الله وسلامه. ولقد كان القصد من هذه المسرحيات هو

تعريف الناس بالدين النصراني وتعليمهم أمور دينهم، حتى يرتبطوا به ارتباطاً وثيقاً.

وكان الأدب المسرحي في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي يعد بمثابة مؤسسة دينية مسيحية، تقدم للجمهور ما في التوراة والأناجيل من الأخبار والأحداث، وعرض للأسرار الدينية، والمعجزات الإلهية، وأحوال الأمم، وما كانوا عليه في حياتهم ومهنهم . . . إلخ. ولقد ظهرت في الآداب الغربية - ومنها الأدب الإنجليزي - أنواع متعددة من المسرحيات الدينية أهمها:

النوع الأول: - ما كان يسمى بالمسرحيات الأخلاقية Morality ، وهو يكتب عادة للطبقة المثقفة والمتعلمة من أبناء المجتمع فقط، وتهدف الى إعطاء دروس أخلاقية للناس، لمعرفة ما لهم وما عليهم.

والنوع الثاني: - ويسمى بالمسرحيات الإعجازية، أو مسرحيات المعجزات Miracles ، وهذا النوع يتعلق في موضوعاته بمواقف الإعجاز التي وردت في الإنجيل عن شخصيات الأنبياء والرسل والرهبان والقسس.

والنوع الثالث: - وهو المعروف باسم مسرحيات الأسرار Mystery ، وتتضمن موضوعاتها أسرار الدين ، مثل سر القربان المقدس، وأسرار الطقوس الخاصة بالمهن والمصائر والحرف، وتقوم فلسفة هذه المسرحيات أيضاً على مسألة الخطيئة والقصاص و الغفران ، وهو أن الإنسان مسؤول عن خطيئة غيره ؛ الخطيئة الأولى لأبي البشر آدم عليه السلام [1].

(١) انظر : Allardyce Nicoll, British Drama, London , 1978 , P.P. 3-5 and 80 - 85.

وعن الأدب الديني في العصر النورماندي يقول أحد مؤرخي الأدب: «لم يكن الأدب يعتمد على الشخصيات الأسطورية، وإن كانت موجودة مادام الاعتقاد في الدين موجوداً إزاء شخصيات عظيمة ارتبطت بالذات الإلهية، مثل المسيح وكرشنا، أو أنها تنسب للذات الإلهية مثل محمد»[1] أي النبي محمد ﷺ.

هكذا كان الأدب الإنجليزي الذي كتب عن الإسلام يعتقد أن الرسول ﷺ دَعِيٌّ، وأن الإسلام دين باطل، كما سنعرض لبعض النماذج التي تحدثت عن الإسلام في هذا العصر، ذلك أن الأدب الإنجليزي في العصر النورماندي، أو أدب العصور الوسطى، كما أسلفنا، هو بداية تاريخ الانطلاقة الأولى للحديث عن الإسلام والمسلمين، ونبي الإسلام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فإنَّ النصارى في هذا العصر بدؤوا حملاتهم الصليبية على المسلمين والأراضي المقدسة في فلسطين، وبالذات على بيت المقدس منذ عام ١٠٩٥ حتى عام ١٢٧٠ ميلادية، أي خلال الجزء الأكبر من الغزو النورماندي لبريطانيا، الذي امتد منذ عام ١٠٦٦ وحتى ١٣٥٠م.

لذا كان من الطبيعي أن يهتم كتاب الأدب الإنجليزي في هذه الفترة، وفي فترات لاحقة من تاريخ الأدب الإنجليزي بالكتابة عن الإسلام، خصوصاً في موضوع الحملات الصليبية، وعلى الأخص الحملة الصليبية

(١) انظر: John Burgess Wilson, English Literature, P.32.

الثالثة التي قادها الملك الإنجليزي ريتشارد الأول، المعروف بقلب الإسد؛ لأن تلك الحملة تمثل حدثاً تاريخياً عظيماً عند الأوربيين عامة، وعند الإنجليز خاصة. وفي هذا يقول بايرون سميث: (إن الإصرار المستمر في الاعتقاد الأسطوري عن محمد ﷺ كان بسبب العداوة والكبر الذي كونه النصارىٰ عن دين غريب، والذي قوىٰ شوكته الحروب الصليبية والمخاوف السائدة حينذاك عند استمرار ونهوض وتوسع الإمبراطورية التركية خلال القرن السادس عشر)(١).

إن كلمة Saracen (شرقي أو شركسي أو سراسين)، كما يترجمها البعض، كانت تطلق علىٰ العرب وسكان الصحراء في الشرق، ولكن مع ظهور الإسلام وانتشار المسلمين، أصبحت هذه الكلمة خلال العصر النورماندي تعني المسلم أو المسلمين، وكان المسلم في القصص والمسرحيات والشعر من أدب هذا العصر في تاريخ الأدب الإنجليزي يصور علىٰ أنه يمثل الكفر والإلحاد، كما أن أدباء العصر النورماندي كانوا يستعملون هذا اللفظ علىٰ الوثنيين في شمال أوربا، وعلىٰ كل إنسان لا يدين بالإنجيل أو التوراة.

ومن الصور التي ظهرت في الأدب الإنجليزي في العصر النورماندي عن الإسلام هو ذلك الدين الذي يقر في شريعته تعدد الزوجات، كما أنه يحرم شرب الخمر، ولا يبيح اختلاط النساء بالرجال، وصورة النبي محمد ﷺ ظهرت في أدب هذا العصر ليست علىٰ أنه نبي، بل علىٰ أنه إله معبود،

---

(١) انظر: Byron Porter Smith, Islam in English Literature,p.1.

وأن كلمة التوحيد لا إله إلا الله قال بها محمد ﷺ، ويعني أنه هو الإله الواحد ، ولا رب سواه .

كما أن أدباء هذا العصر يجعلون الرسول ﷺ إلهاً ضمن الآلهة الوثنية التي عبدت عند الفراعنة والإغريق والرومان .

إن تعدد الزوجات في الإسلام لم يكن شيئاً جديداً في الأديان ، فمن المعلوم أن الأنبياء السابقين ومنهم أنبياء بني إسرائيل كانوا يعددون زوجاتهم بأعداد كثيرة ، كما بيَّن الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]. وهكذا كان حال كثير من الأنبياء كإبراهيم وداود وسليمان ويعقوب وغيرهم عليهم الصلاة والسلام ؛ فما جاء به الرسول محمد ﷺ كان موجوداً في شرائع السماء السابقة .

وليعلم أدباء الأدب الإنجليزي ومن في حكمهم من أعداء الإسلام أن تعدد الزوجات في الإسلام خير وأبقى من تعدد العشيقات، واتخاذ الأخدان ، وزواج الرجال بالرجال .

وإذا كان الإسلام يحرم الخمر ، فلأنه يفسد العقل ، ويذهب بالحس ، ويورث الإنسان سوء التصرف ، فقد يقع الرجل وهو سكران على أمه أو أخته أو ابنته وهو لا يدري ، فهو يخبل العقل ، وهي أم الكبائر ، وهي أم الخبائث ؛ من أصر على شربه سقاه الله يوم القيامة من طينة الخبال . عن جابر

---

(١) سورة الرعد ، الآيه ٣٨ .

أن رسول الله ﷺ قال : « كل مسكر حرام . إن على الله عز وجل عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » . قالوا : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : «عرق أهل النار أو عصارة أهل النار » (١).

وما نرى في أوربا وأمريكا من مشكلات الحياة من السكارى والمدمنين للمسكرات ليعجز المكان عن حصره ، بل إن هذه الدول لجأت إلى تحذير الناس من الخمر ، وأعدت أقساماً خاصة لتوجيه الناس إلى ترك المسكرات ، لكثرة سوئها ومضارها ، وهذا ما أرشد إليه القرآن الكريم في قوله جل وعلا :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ (٢).

والخمر من عمل الشيطان ، الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب النار . فكم من قوم سكروا ، وانتهى بهم الأمر إلى القتل أو الزنا ؟ وهذا ما يؤكده خالقنا والعالم بأحوالنا سبحانه وتعالى ، إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (٣).

---

(١) رواه مسلم ٣/ برقم ٢٠٠٢ وأبو داود ٣/ برقم ٣٦٨٠ عن ابن عباس . والترمذي ٤/ برقم ١٨٦٢ عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٩٠ .

والإسلام يحرم أكل لحم الخنزير ؛ لما فيه من مضار كثيرة يعرفها اليهود والنصارىٰ وغيرهم ، ولما في لحمه من عفن ونتن وجراثيم تضر بالجسد ، ولماذا يذهب الإنسان إلىٰ أكل السيىء وما فسد وضر ، ويترك ما أحل الله له من الطيبات ؟ .

وأخيرا ، فالإسلام يحرم اختلاط النساء بالرجال ؛ لما يترتب علىٰ ذلك من مفاسد ، الغربيون أدرىٰ الناس بها ، إذ إن الاختلاط يدعو إلىٰ فساد الأخلاق وانتشار الرذيلة . وما دور البغاء ووسائل الإعلام المرئية والمقروءة لجرائم الجنس إلا دليل علىٰ هذا الاختلاط ، الذي انحدر بالغرب إلىٰ أسفل سافلين ، ولم يحفظ للمرأة كرامتها وعفتها ، وجعلها من سقط المتاع ، مُهانة مبتذلة ، بل أوجب الإسلام احتجاب المرأة ، لما في ذلك من الخير . قال جل وعلا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٥٩﴾ ﴾[1] .

أما بالنسبة للقول بأن الرسول ﷺ ادعىٰ أنه إله المسلمين ، وقوله بكلمة التوحيد هي توحيد الرب الواحد ، وأنه هو الإله الواحد ، فهذا الأمر لم يقل به حتىٰ مشركو العرب ، لعلمهم بوجود الرب الخالق ، وأنه مالك الملك ، وهذا ما صرح به القرآن في قوله تعالىٰ عن المشركين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

(١)سورة الأحزاب ، الآية ٥٩ .

أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾[(١)].

وأما جهل أكثرهم حقيقة التوحيد، واتخاذهم آلهة أخرىٰ أشركوها مع الله، فقالوا عن فعلهم ذلك مايحكيه القرآن عنهم في قوله تعالىٰ :

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ...﴿٣﴾[(٢)].

والمعروف أن أدب العصر النورماندي اتسم بظهور الأدب المسرحي الديني، ممثلاً في أنواع مسرحيات الأخلاق، ومسرحيات الأسرار، كما أسلفنا، وفي إحدىٰ مسرحيات الإعجاز نجد في مجموعة من تلك المسرحيات التي تسمىٰ The Digby plays مسرحية بعنوان « ماري ماجدلين» Mary Magdalene ، وهي من المسرحيات التراثية التي اعتني بحفظها كثيراً عبر العصور والأزمان . وموضوع المسرحيه يحكي قصة القديسة ماري ماجدلين ، وحياتها الدينية الطويلة في ظل المسيحية ، وفي هذه المسرحية تظهر شخصية الرسول ﷺ علىٰ أنه إله معبود يعبده المسلمون ، وهو ليس إله الشرقيين The Saracens فحسب، بل إنه إله الفراعنة وغيرهم من الأمم .

وهذا إشارة إلىٰ سيطرة المسلمين علىٰ مصر، وسيادة الدين الإسلامي عليها . كما أن هذه المسرحية يظهر فيها احتفاء ديني خاص بمحمد الإله،

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٣ .

وعلى شرفه يأمر ملك مرسيليا تقديم القرابين لكل الآلهة ، ويزيد المؤلف في ذلك ، فتظهر الملكة زوجة الملك لتطلب منه أن يقدم شيئاً خاصاً يميز محمداً الإله عن بقية الآلهة ، ويظهر الخلط في الطقوس الشركية والطقوس المسيحية ، وتتضح كثير من الأغلوطات الدينية والإفك المبين المختلق عن النبي محمدﷺ .

وفي منظر آخر للمسرحية تظهر القسيسة ماري ماجدلين ، وهي تزور المعبد الذي توجد فيه صورة الرسولﷺ ؛ وحينها يأمر الملك الصورة لتتحدث إلى ماري ، فلا تقول تلك الصورة شيئاً ، ولاتقوى على حِراكٍ ، وتظل ماري ماجدلين واقفة شاخصة أمام تلك الصورة ، تأمل في أن ترى معجزة لها فلا يظهر من ذلك شيء [١] . وفي هذه المسرحية يظهر اسم النبي بلفظ Mahoun ، يعني محمد ، وهي تعني الشيطان .

ومن الصور الشعرية التي ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر القصة الملحمية في « قصيدة الملك هورن » King Horn ، التي سبق ذكرها وفيها الحديث عن الإسلام ، والقصيدة بها ما يزيد عن ألف وخمسمائة بيت .

والملك هورن طفل صغير (يصبح ملكاً فيما بعد) ابن الملك ميوري Murray ملك أحد الجزر البريطانية التي تسمى جزيرة الرجل Isle of Man .

وقد وقع هذا الأمير الصغير في أسر بعض المسلمين الذين هجموا على

(١) انظر : F. J. Furnival (ed.), The Digby Plays, Early English Society, Extra Series, No. 70, London, 1896, Part 2, Act 2, P.P. 1133 - 1538 .

تلك الجزيرة هجمة وحشية بربرية، وقتلوا كثيراً من أهلها، وأسروا بعضهم، وعاثوا فساداً ونهباً وسلباً، وساقوا النساء والأطفال. والقصيدة في مجملها تصوير حاقد للإسلام والمسلمين، يقوم على أساس تلك الصور الكاذبة التي نقلها جنود الحروب الصليبية إلى بريطانيا؛ إذ إن من المعلوم تاريخياً أن المسلمين لم يعرفوا بريطانيا في ذلك الزمن إلا في الحروب الصليبية. ومن هذه الصور هجوم مجموعة من المسلمين على أحد قصور الملك، والاعتداء على النساء في صورة وحشية، تظهر أن المسلمين أنذال وأوغاد، على خلاف الإنجليز، كما يمثلهم الفارسان الشجاعان أثولوف Athulf وفيكنهيلد Fikenhild، اللذان أبديا بسالة نادرة في إنقاذ الأمير وبقية الأسرى والسبايا من النساء والأطفال، بعد أن تمكنا من قتل رئيس سرية المسلمين الذي أظهر جبناً وخوراً حين منازلته (١).

هذا شأن العدو الحاقد الحاسد الذي يقول ما يرضي هواه، ويسيء إلى خصمه، وينزع إلى إلصاق التهم وأصناف الأوصاف المقيتة بعدوه، ولكن الإسلام على خلاف ذلك، فقد حذر من فعل هذه الأفعال، وحث المسلمين على قول الحق. وهذا قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى

(١) انظر: Paul Harvey, The Oxford Companion to English Literature P.449.

الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾[(١)].

ومن ذا الذي يقول : إن المسلمين يقتلون النساء والأطفال ؟ ألم يعلم الغرب ما سطره التاريخ من حوادث القتل والسلب والنهب التي تمت على أيدي الصليبين في العصور الوسطىٰ ؟ وكذلك هل نسي التاريخ وقائع الاستعمار الحديث ، وما فعلته قوىٰ البغي والعدوان بالمسلمين وأموالهم وتراثهم ؟ يشهد بذلك المسروقات الموجودة في متاحف الدول الغربية القائمة حالياً، كما هو موجود ببعض المتاحف البريطانية . والإسلام نهىٰ عن قتل الرهبان والأطفال والنساء . عن بريدة قال : « كان رسول الله ﷺ اذا أمَّر أميراً علىٰ جيش أو سرية، أوصاه بتقوىٰ الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال : اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً » الحديث[(٢)].

إن قصيدة وليم لانجلاند William Langland [(٣)]، المعروفة باسم

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ٣٠/ برقم ١٧٣١ وأبو داود ٣/ برقم ٢٦١٢، ٢٦١٣ وابن ماجه ٢/ برقم ٢٨٥٨ والنسائي في الكبرىٰ ٥ / برقم ٨٥٨٦ والترمذي ٤ / برقم ١٦١٧ .

(٣) وليم لانجلاند من أشهر شعراء العصر النورماندي. وقد ولد عام ١٣٣٠ ميلادية، وهو مشهور بقصيدته « رؤيا بيرز الحارث»، الذي ظل يؤلفها لمدة طويلة في الفترة من ١٣٦٢ حتىٰ عام ١٣٩٢م، ومن أعماله أيضاً قصيدة بعنوان Richard the Redeless، ومن أحسن الكتب التي جمعت أعمال لانجلاند ما جمعه ولتر سكيت Walter Skeat ، والشاعر من المتحمسين للنصرانية في جميع كتاباته. . توفي عام ١٤٠٠م.

«رؤيا بيرز الحارث» The Vision of Piers Plowman ، من أشهر القصائد التي ظهرت في هذا العصر ، وللقصيدة ثلاث نسخ مختلفة ، يتراوح عدد أبياتها من ألفين وخمسمائة إلىٰ سبعة الآف وثلاث مائة بيت ، في عدد من الأناشيد المنظومة علىٰ طريقة نظم السجع الاستهلالي في الشعر الإنجليزي القديم .

والقصيدة ذات موضوع رمزي ، يعرض رؤيا الحق والباطل والخير والشر ، ويتناول موضوعها نقد الباطل والسوء والفساد والفقر ، والدعوة إلىٰ المحبة والخير والائتلاف ، علىٰ نفس منهج نبي النصرانية عيسي ابن مريم عليه السلام ، كما أن القصيدة تهجو الكنيسة الإنجليزية ، وتدعو الناس إلىٰ اتباع الحق المقدس . والحارث بيرز ، الذي اسمه عنوان القصيدة ، يظهر في إحدىٰ المزارع الكبيرة وأمامه جموع غفيرة من الناس ، وهم يرمزون إلىٰ العالم بأسره ، فيبين هذا الحارث لهم الطريق الصحيح للخلاص والنجاة لإرضاء الرب ، وفي هذا الموقف تصور القصيدة الرسول محمداً ﷺ علىٰ أنه الرمز الذي يمثل قوىٰ الشر وقوىٰ الشيطان الرجيم ووجه الباطل [1] ، وفي بداية الحديث عن الإسلام في النشيد الثامن عشر للقصيدة ، نجد الشاعر يركز القول علىٰ المسلمين ، وإطلاق اسم الشراكسة Sarrasyns ، وأن أخلاقهم وسلوكهم ودينهم لا يدعو إلىٰ السلام والحب والخير . لكن هذا

(١) انظر : Walter W. Skeat (ed.), The Vision of William Langland : Piers the Plowman, The Clarendon Press, Oxford, 1886, P. 592 .

الشاعر لم يعلم أن الإسلام دين السلام، وهذا صريح ما جاء به القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ (١).

وقال عليه الصلاة والسلام: « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمّنه الناس على دمائهم وأموالهم » (٢).

ومما يلاحظ أن القصيدة كتبت عام ١٢٩٣م عقب الأحداث التي أظهرت جرائم اليهود وطردهم من بريطانيا عام ١٢٩٠م، وما كتب عنهم في هذه الفترة في الأدب الإنجليزي، على أنهم أشرار وأهل سوء؛ لذا فإن الشاعر وجد من المناسب أن يجعل المسلمين واليهود في السوء سواء، فيقول:

Wher Sarrasyns' ich syde 'seo nat what is Charite?
Hit may be that Sarrasyns hauen a suche manere Charite
To That Lord that hym lyf lente. and lyflode him sendeth
Ac meny manere men ther beoth as Sarrasyns and Jewes, (٣)

ويستطرد الشاعر ليتحدث عن المسلمين، ويساويهم باليهود، وأنهم أصحاب خرافات وأساطير أضلت الشعوب والأمم، وحادوا بها عن طريق الخير والصلاح، ويري الشاعر أن من الواجب على الناس أن يحترزوا من محمد ﷺ وتعاليمه وأفعال أتباعه؛ لأنها كلها أساطير وأكاذيب. ويقول

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٢) رواه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه في باب صفة المؤمن.

(٣) انظر: Walter W. Skeat (ed.) The Vision of William Piers the Plowman, P. 463.

الشاعر :

Louyeth nat that lorde a-ryght. as by the legende Sanctoram,
And lyuen oute of lee by - leyue . For thei leyue in mene .
A man thate hite Makamede. For Messye thei hym heolde
And after hus lerynge thei lyen . and by lawe of kynde .(١)

بعد أن يصف الشاعر تعاليم الشريعة الإسلامية بأنها كلها إفك وكذب وأساطير جاء بها الرسول ﷺ، فإننا نجد الشاعر يحاول أن ينكر نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيختلق من عنده فرية يقول فيها : إنه عليه صلاة الله وسلامه كان أحد البطارقة أو الكرادلة النصارىٰ في مجلس البطارقة في مركز البابوية في روما، ولما فشل في تحقيق طموحاته لكي يصبح البابا في الفاتيكان هرب إلىٰ الجزيرة العربية، ونادىٰ بنفسه نبياً علىٰ العرب، وهذه إشارة إلىٰ قول الشاعر في قصيدته ما يلي :

Men Fyndeth that Makamede.was a man ycrystned
And a cardinal of court . a gret clerk with - alle ,
And porsuede to haue pope . pryns of holy churche ,
And for he was lyke a lussheborgh . ich leyue oure lord hym lette(٢)

إن هذا القول الذي جاء به أدباء الإنجليز سبق أن قالت به قريش ومن آزرها من مشركي العرب، وهو أن كلام الرسول ﷺ، ووحي الله والقرآن الكريم كله أساطير الأولين، وهذا ما جاء في محكم التنزيل، يقول تعالىٰ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً

(١) المرجع السابق.

(٢)المرجع السابق.

﴿٥﴾[1].

إن إنكار نبوة الرسول ﷺ، والزعم بأنه عليه الصلاة والسلام دَعِيٌّ وأنه ادَّعى النبوة والرسالة، فهذا من وجوه التمحل الذي عرف به أهل الكتاب، والجدل الذي لا طائل من ورائه، بما اعتملت به نفوسهم من الغل والحسد، وإلا فإنهم يعرفون هذا النبي كما يعرفون أبناءهم، إذ يقول جل وعلا:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[3].

وفي مكان آخر من القصيدة نجد لانجلاند يتحدث عن هجرة الرسول ﷺ، فيقول: إنه هاجر إلى سوريا، ولعله لم يعلم أن هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام كانت إلى المدينة المنورة.

وهنا نجد ولتر سكيت يعلق في حاشيته القصيدة، فيقول: «إن تاريخ

---

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٤ ـ ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

محمد ﷺ لم يكن معروفاً بوضوح وبكماله في هذه الفترة في إنجلترا، والحديث عن الإسلام في هذه الفترة بغير الصواب مرده جهل الإنجليز «بتاريخ الإسلام»[١].

ولا غرابة إذا ما علمنا أن قصيدة لانجلاند تقوم في أساسها على شروح ومفهوم النصرانية الموجودة في العهد الجديد. وتصوير الإسلام في هذه الكتب - أي الأناجيل - يقوم على ما أملته أيدي اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولعل ذلك يتضح مما فعله الشاعر في أن جعل الحارث بيرز، وهو تشخيص رمزي لشخصية المسيح عليه السلام، منقذاً بعثه الله لينقذ البشرية، في حين تصوير الإسلام ونبيه على عكس ذلك[٢].

ومن الصور الشعرية البارزة في الأدب الإنجليزي في العصر النورماندي: الحديث عن الحروب الصليبية، وتصوير النصارى بصورة مشرفة، على أنهم الشجعان والفرسان البواسل، في حين يصور المسلمين بصورة قاتمة سوداء، وأنهم برابرة ووحوش.

ومن هذه القصص موضوع القصيدة الملحمية الإنجليزية التي بعنوان: « الملك ريتشارد قلب الأسد » Richard Coeur de Lion، وكاتبها غير معروف، وقد ظهرت القصيدة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي،

---

(١) انظر: Walter W. Skeat (ed.), The Vision of William Langland Piers the Plowman, P. 228.

(٢) انظر: Robert J. Blanch, Style and Symbolism in Piers Plowman, The University of Tennessee Press, Knoxville, 1960, P.P. 160 - 161.

وموضوع هذه القصيدة يحكي قصة الملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا مع السلطان المسلم صلاح الدين الأيوبي خلال أحداث الحملةالصليبية الثالثة، التي حشدت لها الحشود من جميع أنحاء أوربا، وكل ما قيل عن المسلمين في هذه القصيدة مجانب للحقيقة والصواب؛ إذ إن القصيدة تظهر ضعف المسلمين وخورهم، وأنهم استسلموا لسياسة ريتشارد قلب الاسد، والحقيقة واضحة تذكرها دائرة المعارف البريطانية، وكتب التاريخ الصادقة، ذلك أن الجيوش الصليبية دَبَّ بينها الخلاف وأصابها الوهن والخِذلان والخيبة، فرجعوا أدراجهم يجرون أذيال الهزيمة.

هذا وإن جهاد صلاح الدين وإيمانه وصبره وتسامحه، وبعد نظره، ونظرته الرحبة، قد كوفئت خير مكافئة وأجَلِّها، فإن ملك الإنجليز الذي كان أكبر ملوك الحملة الصليبية الثالثة، والذي حضر إلى المشرق لنصرة الصليبيين وتدمير الإسلام، حارب صلاح الدين حول عكا، وأدرك استحالة ما كان يحلم به، وأراد الرجوع إلى بلاده، فبدأ يفاوض السلطان من أجل الصلِح، وتحقيق أطماعه بالسياسة والمفاوضة، وهو ما عجز عن تحقيقه بالحرب.

ولقد دارت بين الطرفين مفاوضات طويلة معقدة، أظهر فيها صلاح الدين كياسة وأدباً وحنكة ودراية، وتمكن أن يحطم أحلام الصليبيين باسترجاع القدس، والسيطرة على كامل الساحل السوري واستعادته إلى حوزة الإسلام. ولقد حاول ريتشارد ملك الإنجليز أن يجتمع بالسلطان

صلاح الدين بعد أن تحارب الملكان حول عكا ، ولكن صلاح الدين علَّمه درساً في الدبلوماسية ، وما يجب أن تكون عليه علاقات الملوك ، فقد رفض الاجتماع به، إلا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان ؛ لأن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة. وإذا أراد الملك ذلك، فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجمان نثق فيه في الوسط ، فإذا استقرت القاعدة، وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

ولذلك لجأ ريتشارد إلىٰ الملك العادل يوسطه للصلح بينه وبين أخيه صلاح الدين ، وطلب منه أن يتوسط لدىٰ السلطان حتىٰ يصطلح السلطان مع فرنجة الساحل الشامي، ويرجع ملوك أوربا إلىٰ بلادهم، وقد سأله الملك العادل علىٰ أي شيء يكون الصلح ؟ فأجابه ملك الإنجليز : علىٰ أساس إرجاع الأراضي المحررة لهم فأجابه الملك العادل : علىٰ أن يتم ذلك دون قتل أي فارس أو راجل ، وعلىٰ الرغم من إلحاح ريتشارد علىٰ استرجاع القدس والبلاد الساحلية كشرط للصلح، إلا أن السلطان رفض ذلك رفضاً قاطعاً ، وأفهمه أن القدس للمسلمين كما هي للمسيحيين : وهو عندنا أعظم مما عندكم . . . فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر علىٰ التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد، فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها .

كذلك اقترح ملك الإنجليز علىٰ السلطان أن يزوج أخته (أي أخت

ملك الإنجليز) إلى الملك العادل ، ولكن رجال الدين المسيحي عارضوا في ذلك ، وأراد بذلك أن يبرهن على حبه ووده لصلاح الدين ، ورغبته الجادة في الصلح . وبعد مراسلات كثيرة ، أبدى فيها ملك الإنجليز كل مودة وصداقة ، وتنازل عن أشياء كثيرة من طلباته ، بل أبدى فيها خضوعاً وتذللاً وتضرعاً ، عقدت بعدها بين الطرفين هدنة عامة ، أخذ الصليبيون بموجبها ما في أيديهم فقط ، ولم ينالوا من القدس شيئاً ، وتمكن السلطان العظيم المجاهد أن يسترد يافا وينتزعها من الصليبين في أثناء المفاوضات ، وأن يهدم عسقلان وسورها . وبعد أن أعلنت الهدنة العامة ، أرسل السلطان إلى الخليفة رسائل يشرح له ما حدث من الهدنة العامة ، ويفصل له فيما أحرزه من انتصارات[1] .

ونعود مرة أخرى إلى القصيدة الملحمية بعنوان « ريتشارد قلب الأسد » ، وفيها يصور الشاعر ريتشارد قلب الأسد ، وقد اشتهى أن يأكل لحم خنزير ، ولما لم يكن الخنزير موجوداً في بلاد المسلمين وفي فلسطين ، قرر أتباع الملك وحرسه السطو على طفل مسلم مليء البدن ، فقتلوه ذبحاً ، وسلخوا جلده وطبخوه وقدموه للملك على أنه خنزير .

والشاعر قصد بهذا الفعل أن يقول : إن المسلمين دمهم حلال ، ويجوز استباحة أرواحهم ، وقتلهم ، وسبي نسائهم ، وقد نسي الشاعر أن هذه

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ص ٣٠٤-٣١٠ .

الصورة البشعة تعكس همجية الأوربيين وبربريتهم وعدم حضارتهم [١].
ولعل ما يؤكد ذلك ما فعله الملك ريتشارد قلب الاسد ـ الذي تتغنى أوربا بفروسيته وشجاعته، وتنسى قسوته وجلافته ووحشيته ـ فإن ذلك الملك قد أمر جنده بعد سقوط عكا أن يذبحوا المسلمين رجالاً ونساءاً وأطفالاً، والتاريخ يشهد بذلك [٢].

وبالجملة، فإن الحديث عن الإسلام والمسلمين، وعلى الأخص شخصية الرسول محمد ﷺ، في الأدب الإنجليزي في هذه الفترة ـ أي في العصر النورماندي ـ كان يقوم أساساً على الأخبار التي تناقلها النصارى عن الإسلام، وما استقوه من معلومات خاطئة مزيفة محرفة، هي حشو التوراة والإنجيل المحرفة، والأخبار التي دسها اليهود على الإسلام، وكذلك الأخبار الكاذبة التي حملها أفراد جيوش الحروب الصليبية إلى أوطانهم، إضافة الى الروح العدائية، وروح التحامل التي ملأت نفوس النصارى ضد المسلمين.

---

(١) انظر: S. Lane - Poole, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, P.377 .

(٢) المرجع السابق.

الباب الرابع

أدب العصر الوسيط

أدب العصر الوسيط

١٣٥٠ ـ ١٥٣٠م

سبق أن تحدثنا عن المد الاسلامي، والفتح الإسلامي الذي بدأ وأوربا تعيش فيما يسمىٰ بالعصور المظلمة، واستمر الأمر إلىٰ العصر النورماندي، وظل كذلك إلىٰ العصور الوسطىٰ ، إذ كانت أوربا في القرون الوسطىٰ تعيش حياة شاقة وسيئة، رغم ظهور قوىٰ سياسية متعددة في بلدانها .

وقد طفحت هذه القرون بالعيوب والآثام ؛ وخلت من النظافة والعناية بالإنسان والمكان. وزخرت بالجهل والفوضىٰ والتأخر، وشاع الظلم والاضطهاد، وعاشت أوربا في ظلام وهمجية وقسوة، فتفشت فيها الأمية ، وقامت فيها الحروب والأعمال الوحشية ، وكانت للحروب مسرحاً، وللاضطهاد ميداناً ، افترستها الفوضىٰ، وطحنتها المحن ، فهي غائصة في فتن كقطع الليل المظلم .

كانت حياة الناس تعسة وشاقة وكئيبة ، تموج دنياهم بالمنكرات والسيئات، وهم عليها مقيمون، وبها يتعاملون ، بل لعلهم غدوا بذلك يتفاخرون ويتنافسون، وأضحىٰ هذا الحال عاماً، وعلىٰ كل مستوىٰ .

بدا هذا الدرك ـ من الهبوط الإنساني العام ـ واضحاً في جنبات الحياة

الأوربية، وملموساً في غارتها على الشرق الإسلامي خلال قرنين من الحروب الصليبية، ومثيلتها في الغرب الإسلامي في المغرب والأندلس. بدت ظواهر هذا الهبوط في الفكر والعلم والثقافة، والخلق وأسلوب التعامل والتصرف، والنظرة إلى الآخرين، وإلى الإنسان، والالتزام بالقيم والعهود. كانوا عراة في الفكر والنفس والخلق، فضلاً عن عري بعضهم الجسدي، وهو غير ذي بال، فكان ذلك عاماً حتى في الطبقات العليا عندهم من الزعماء والحكام والسادة النبلاء والإقطاعيين والرهبان «محتكري المعرفة القليلة المحدودة»، دل على ذلك المصادر العلمية والتاريخية الموثوقة.

وإذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جداً، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء وحكام متوحشون، يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين، الذين يقضون أوقاتهم في أديرتهم، ليكشطوا كتب الأقدمين بخشوع. ويعلق غوستاف لوبون بقوله:

«ودامت همجية أوربا البالغة زمناً طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر، وفي القرن الثاني عشر من الميلاد؛ وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا ركام الجهل الثقيل عنهم؛ فولوا وجوههم شطر العرب (المسلمين)، الذين كانوا أئمة

وحدهم »[١].

لقد كان المسلمون في حضارة باهرة في الشرق وفي شمال إفريقيا والأندلس، في حين بقيت الحالة في أوربا في بؤس تام، وزاد الأمر سوءاً تسلط الكنيسة وسطوتها، وتبنيها الأفكار الجامدة والمواقف الفجة، وإثارتها روح الحروب، ودعوتها الصليبية، وهو أمر تتبرأ منه النصرانية التي أوحىٰ الله بها إلىٰ رسوله الكريم عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

إن الحروب الصليبية في المشرق كانت تهدف إلىٰ تخليص بيت المقدس، وكانت الحروب الصليبية في المغرب ترمي إلىٰ استرجاع إسبانيا، لقد كانت الكنيسة ضالة ، وأضلت الشعوب التي كانت في همجيه تامة، كما يقول ستانلي لين بول :

« تظهر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من الأقاليم إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حمأة من الجهل وخشونة الأخلاق، ويستطرد قائلاً : إن قرطبة العظيمة كانت أعجوبة العصور الوسطىٰ، والتي حملت وحدها في الغرب شعلة الثقافة والمدنية متقدة وهاجة وقت كانت أوربا غارقة في الجهالة البربرية فريسة للشقاق والحروب»[٢].

إن سوء الأحوال في أوربا في كل جوانب الحياة كان موجوداً من قبل،

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) ستانلي لين بول ، العرب في إسبانيا ، ترجمة علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٧، ١١٦.

برغم استفادة أوربا من المسلمين والحروب الصليبية، كما تقدم في مبحث سابق من هذا الكتاب، ولم تعرف أوربا التقدم ـ وكان تقدماً مادياً ـ إلا بعد السوء العام الشامل الذي أصابها، وانتهى إلى قيام الثورات المختلفة مثل الثورة الفرنسية.

وقد اتسم تاريخ الأدب الإنجليزي في العصر الوسيط بالحديث عن العرب في إسبانيا وشمال إفريقيا، ذلك أن حكم الإسلام استقر في شبه جزيرة ليبيريا (إسبانيا والبرتغال) منذ فتحها موسى بن نصير وطارق بن زياد في عام ٧١١ م حتى سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، ومرت دولة المسلمين في الأندلس عبر هذه القرون في تقلب بين الضعف تارة والقوة تارة أخرى، في عهد الولاة منذ عهد عبدالرحمن الداخل، ثم عهد الإمارات حين أعلن عبدالرحمن الناصر الخلافة، ثم عهد الطوائف، وعهد المرابطين والموحدين، انتهاءاً بمملكة غرناطة حكم دولة بني الأحمر الذي استمر قرنين ونصفاً أو تزيد.

ويلاحظ أن كثيراً من كتب التاريخ ودوائر المعارف الغربية تشهد بالوجود الإسلامي في إسبانيا على أنه سيمثل عصر ازدهار ورقي وحضارة، الأمر الذي لا ينكره منصف بما يراه كل زائر اليوم لإسبانيا، وما تركه المسلمون من مآثر وشواهد حضارية تبرز تقدم المسلمين، إذا ما قيس بحكم الرومان واليونان والأوربيين في تلك المنطقة. كما أن تلك الكتب تشير إلى التسامح الإسلامي.

لكن الأطماع السياسية والروح الصليبية والحقد الديني في نفوس النصارىٰ، دفعهم ذلك كله لمحاربة المسلمين في أوقات مختلفة بقصد القضاء علىٰ الإسلام والمسلمين [١]. ويلاحظ أنه لما أسفرت الحرب الصليبية الأولىٰ في الشرق عن شيء من النجاح، أعلن البابا باسكال الثاني الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ، فأذن البابا لملوك الإسبان في استعمال أموال الكنائس لمحاربة المسلمين، وكانت هناك بعثات صليبية من إنجلترا وألمانيا وهولندا تدعم تلك الحروب، وتحث المحاربين النصارىٰ علىٰ بذل الجهد في القتال ، فقد أصدر البابا قريقوري أوجريجوري في عام ١٢٤٤م قراراً وعد فيه النصارىٰ الذين يحاربون المسلمين بغفران ذنبهم [٢].

وما من شك في أن الحروب الصليبية وحملات التتار المغول ذات التفوق العسكري حملت الخراب إلىٰ العالم الإسلامي والمسلمين في كل مكان ، إذ كانت هذه القوىٰ عاتية مدمرة ؛ تغتصب البلدان، وتفتك بالناس، أو تحكمها بالقوة والتسلط والاضطهاد، ثم ينشأ الصراع فيما بينهم، أو مع أهل البلاد لإزالتهم. والاستعمار الحديث ليس إلا صورة لهذا التراث الزاخر بالطغيان ، وفي الإسلام تمتزج العناصر كلها في ظل العقيدة، متعايشة متعاونة متحابة، لذلك استمر الإسلام في المناطق التي وصل إليها، وحافظ أهل البلاد عليه، وحملوه الىٰ الآخرين ، وفدوه بأنفسهم ، وصبروا

(١) دائرة المعارف العالمية ، ج ١٧ ، ص ١٤٨ـ١٥٠ .

(٢) محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ١٩١ .

حتىٰ النهاية علىٰ كل ألوان الاضطهاد الخارجي والداخلي، المتلون في كل صورة، والسالك لأي سبيل .

ارتضىٰ العالم الإسلامي تولي السلطة من قبل مختلف العناصر والأجناس، ما داموا يدينون بالإسلام، ويعملون به، والحديث عن الفتوحات الإسلامية وقوتها، وسرعة مسيرها، يجعلنا لا نشير إلىٰ ذلك بتفوق المسلمين في القوة العسكرية والسلطة والسياسة، ولا نعلل ذلك بأي تفسير، بل نرجع انتصار المسلمين إلىٰ العقيدة الصافية، وقوة الإيمان، واليقين فيما وعد الله سبحانه وتعالىٰ عباده (١) .

ومن الأحداث البارزة إضافة إلىٰ سقوط غرناطة في العصر الوسيط من تاريخ الأدب الإنجليزي والذي كان عام ١٤٩٢م، يمكننا الإشارة إلىٰ فتح المسلمين القسطنطينية قبل ذلك في عام ١٤٥٣م، هذا الحدث الذي أدىٰ إلىٰ زيادة نشاط النصارىٰ في إسبانيا لمهاجمة المسلمين، والذي ساعد فيه سوء الأحوال الداخلية في مملكة غرناطة .

ويعد تأسيس مدينة القسطنطينية مبنياً من أول أمره علىٰ الاعتبار الديني، زيادة علىٰ الاعتبار السياسي ؛ فإن قسطنطين الأكبر ما أسس القسطنطينية إلا لما رأىٰ أن روما كانت مبنية علىٰ شكل وثني لا يتناسب مع العقائد المسيحية ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطنطينية عاصمة دينية

---

(١) عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتىٰ سقوط غرناطة ، دار القلم ، بيروت ، ١٣٩٦ هـ-١٩٧٦م ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

وعاصمة سياسية، واستمرت في عظمتها واعتبارها إلىٰ مبدأ العصور الحديثة حين فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م. وقد كانت القسطنطينية طيلة صمودها للإسلام منذ سنة ٦٣٤م تمثل العدو اللدود والخصم العنيد للإسلام ما بين مدافعة ومهاجمة، ولهذا فإن أي خطر يهدد هذه المدينة بالاحتلال، فإن معناه انهيار خط الدفاع المسيحي، وفتح الباب علىٰ مصراعيه ليكتسح المسلمون القارة الأوربية، كما سنعرض إلىٰ ذلك في الفصل التالي إن شاء الله تعالىٰ.

إن الأدب الإنجليزي في العصر الوسيط يفتخر بترسيخ البذور للتراث الأدبي له فيما يتأتىٰ من عصور مختلفة للأدب، فمن المعلوم أنه قبل نهاية عصر الأدب النورماندي بعشرة أعوام، ولد الشاعر الإنجليزي المشهور جيفري تشوسر Geoffery Chaucer، الذي يعده نقاد الأدب الإنجليزي ومؤرخوه علىٰ أنه هو البداية الحقيقية لنمو الأدب الإنجليزي. وفي هذا الشأن يقول إميل ليجوي: «إن الأدب الإنجليزي بمفهومه الاصطلاحي لم يوجد من قبل القرن الرابع عشر، ذلك أن وحدة الأدب تكون عادة في استمرارية اللغة وبقائها من البداية حتىٰ النهاية بصورة واضحة جلية. هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ: استمرار الإنتاج الأدبي وتوارثه من جيل إلىٰ جيل»[١].

---

(١) انظر: Emile Legouis, A short History of English Literature, Oxford, 1976, P. 1.

لقد ولد تشوسر في مدينة لندن لأب كان يعمل في تجارة الخمور ، وبعد أن أكمل تعليمه ، عكف على تعلم فنون الفروسية ، وركوب الخيل ، وقد أفاده ذلك في مشاركته في جيش الملك إدوارد الثالث في غزوه لفرنسا . ثم أصبح تشوسر بعد ذلك من الرجال المشهورين في السلك الدبلوماسي . وهو أديب وشاعر مشهور بإنتاجه الأدبي في الأدب الإنجليزي خلال العصر الوسيط . ويعتقد أنه هو الذي وضع الأسس الأولى للغة الإنجليزية المعروفة اليوم في العالم ، والتي بنى عليها مآثر إنتاجه الأدبي الذي استقى معلوماته من التاريخ العام وتعاليم الدين المسيحي ، وأضفى على أدبه روح الحياة الإنجليزية والفكر المسيحي ، كما يتضح في أحد أعماله الأدبية المعروف باسم حكايات كانتربري Canterbury Tales . وإنتاج تشوسر يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى : وتقع ضمن تأثير الأدب الفرنسي ، وقراءته فيه من ١٣٥٩م ، حتى ١٣٧٢م وأهم ما أنتج في هذه الفترة هو The Romaunt of The Rose و The Boke of Duchesse . أما المرحلة الثانية ، وهي الفترة التي تأثر فيها تشوسر بالأدب الإيطالي ، خصوصاً بالأعمال الأدبية لكل من دانتي وبوكاشيو [(١)] .

---

(١) دانتي من مشاهير الأدباء الإيطاليين في العصور الوسطى (١٢٦٥-١٣٢١ م) ، وقد اهتم بالموضوعات الدينية في كثير من أعماله ، وأبرز مثال لذلك كتاب الكوميديا الإلهية . قال الدكتور شوقي ضيف في كتابه « عصر الدول والإمارات : الشام » [القسم الأول في رسالة الغفران للمعري ، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية : إذ كتب وأثنى الشاعر الإيطالي المتوفى ١٣٢١م على غراره الكوميديا الإلهية] ص ٤٣٧ . =

وقد كتب تشوسر في هذه المرحلة بعض الأعمال، منها : Troylus and crysede و The Legend Of Good The Parlement Of Foules Wom و The House of Fame . والمرحلةالثالثة والأخيرة تقع في الفترة من ١٣٩٦ ـ ١٤٠٠م، وهي مرحلة الأصالة والإبداع ، وفيها ظهر عمله الشهير حكايات كانتربري .

إن تشوسر في نظر النقاد يعد شاعر الأدب الإنجليزي الأول، الذي بدأ به الأدب الإنجليزي بدايته الصحيحة منذ أن كتب قصائده الأولى، وبما كان يتمتع به من مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الإنجليزي ، ويعلق أحد النقاد على ذلك بقوله : « خلال خمسة وعشرين عاماً من الترحال والحب والخدمة الوظيفية والقراءة المتواصلة ، كل ذلك ساعد باستمرار على نضج نظرة تشوسر الشعرية، وعلى تنقية مهارته الكتابية فيما قدمه من عبقريته ومقدرته التي طبع عليها »[1] .

هذه هي نظرة النقاد إلى أديب الإنجليز الأول، خصوصاً من خلال حكايات كانتربري، التي هي مجموعة من حكايات عشرين حاجاً، يمثلون طبقات المجتمع المختلفة في مهنه ومصائره وحرفه المتعددة، فمنهم الثري

= وبوكاشيو من الأدباء الإيطاليين في العصور الوسطى، وقد ولد قبل وفاة دانتي بثمانية أعوام (١٣١٣ـ ١٣٧٥م)، وكان مشهوراً بأدبه، إضافة إلى أعمال الرسم والتصوير، وقد تعلم في جنيف وأكسفورد، وهو أحد من كتب عن بريطانيا وحياتها السياسية والاجتماعية .

(١) انظر : Nevill Coghill, The Poet Chaucer, Oxford University Press, London, 1967, P.95.

والتاجر والموظف والفارس والحاجب والقسيس والطبيب والطباخ، ومنهم المرأة والرجل، وفيها يحكي كل شخص حكايته خلال رحلة السفر إلىٰ الضريح العظيم، والمزار المقدس في منطقة كانتربري، وفيها صورة المجتمع وتراثه الديني وعاداته وتقاليده، وشرح للطقوس الدينية فيما هو حق وباطل وخير وشر. وتركيز المؤلف الأساسي في هذه الحكايات علىٰ الدين المسيحي وأهميته في حياة الناس، خصوصاً زمن الحج إلىٰ الأماكن المقدسة. ويرىٰ أحد الكتاب أن الحج وسلوك الحجاج في زمن تشوسر كان يلعب دوراً هاماً وكبيراً في حياة النصارىٰ، ويقارن ذلك بحياة الناس في حجهم في الدين الهندوسي والدين الإسلامي، وأهمية ذلك في الحياة الاجتماعية العامة، وما يصاحب ذلك من شعائر دينية عند أصحاب الأديان الأخرىٰ في الوقت الحاضر (١).

وفي أكثر من موضع من حكايات كانتربري، فإن تشوسر تعرض للحديث عن الإسلام والمسلمين، وعن النبي محمد ﷺ. في حكايه المحامي أو رجل القانون The Man of Law's Tale، يتحدث تشوسر عن شرعية وقانونية الزواج من الملل والنحل الأخرىٰ غير الملة المسيحية، ويوضح بأنه في نظر رجل القانون أن ذلك أمر غير مشروع في النصرانية، إذ إن علىٰ النصراني ألا يتزوج إلا نصرانية، ولا يجوز أن يتزوج من غير ذلك الدين، وليس الأمر في مثل ماجاء في تعاليم

(١) انظر: John B. Wilson, English Literature, P.43.

محمد ودينه، الذي عبر عنـه بلفظ Mahoun، أي الشيطان :

that no cristen prince wode Fayn
wedden his child under oure law Sweete
That us was taught by Mahoun ,(١)

لم يكن تشـوسـر يعلم أن الدين الإسـلامي لا يبـيح الزواج من المجوسيـات والوثنيات والمشـركـات، وأنه إن أباح الزواج من الكتـابيات، فذلك بشروطه وأحكامه. وما أورده تشوسر هنا ليس إلا دليلاً على جهله بالإسلام، الذي لم يعرفه إلا من خلال تحريف اليهود لكتب الله، ومن خلال القصص الموضوعة من الصليبيين ومَنْ شاكلهم. إن الإسلام لا يبيح الزواج من المشركات وأصحاب الديانات الوثنية، ولكنه أباح الزواج من الكتابيات بشرط أن تكون المرأة عفيفة طاهرة، غير مشركة، من غير المثلثة، تؤمن بوحدانية الله وأنه الإله الواحد لا شريك له. وهذا ما يؤيده قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢). ويروى عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال: خطب أبو طلحة أمَّ سُليم، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرَدّ، ولكنك رجل كافر، وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك،

(١) انظر: F. N. Robinson (ed.), The Poetical Works of Chaucer , Oxford University Press, London, 1957, P. 236 .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢١ .

فإن تسلم، فذاك مهري، وما أسألك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرها. قال ثابت: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سُليم: الإسلام، فدخل بها فولدت له »[1].

ويستطرد تشوسر في حكايته هذه، عاقداً المقارنة بين الدين المسيحي وبين الدين الإسلامي، ويبدأ بقوله: إن المسلمين يعبدون الأوثان، وإلههم الوثن المعروف في العصور الوسطى باسم Termagaumnt. وهذا من تلفيقات من كتبوا تاريخ الحروب الصليبية. الأمر الذي جعل تشوسر يقول بضرورة كُره الإسلام وبغضه، وبغض الكتاب المقدس القرآن الكريم الذي جاء بلفظ Alkaron، وكذلك بغض نبي الإسلام محمد، والذي جاء بلفظ Makomete، كما يتضح في الآتي :-

"Lordes" qusd she ye knowen everichon
Haw that my sone in point is for to lete
The hooly lawes of our Alkaron
Yeven by Goodes message Makomete
But oon avow to grete God I heete
The Iyf shal rather out of my body sterte
Or Makmoetes law of myn herte[2]

إن المسلمين لا يعبدون الأوثان كما يظن كثير من الأدباء أمثال تشوسر. إن المسلمين يعبدون الله وحده، ولا يشركون به شيئاً، وهم يدْعُون كل الكفار والمشركين إلى عبادة الله إله الحق ورب الخلق ورب

(١) النسائي، كتاب النكاح ٦/ ١١٤.

(٢) انظر: F.N.Robinson (ed.) The Poetical Works of Chaucer, P. 236 .

العالمين، وهذا مصداق قول الله تعالىٰ علىٰ لسان رسوله ﷺ في دعوته إلىٰ عبادة الله وحده؛ إذ يقول جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]. وتوحيد الله وإفراده بالعبادة من أعظم ما أمر الله به عباده، والشرك به من أعظم ما نهىٰ الله عنه. وأعلىٰ شعبة في الإيمان توحيد الله جل جلاله؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأوضعها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[2]. فهل علم هؤلاء الأدباء أن الشرك في مسألة التثليث من أبرز خصائص النصارىٰ وشريعتهم المحرفة أم لا ؟.

لقد تحدث تشوسر في الأبيات السابقة بسخرية عن القرآن الكريم، وعن النبي ﷺ، إذ يقول: إن بعض الناس بعد اعتناقهم للإسلام ارتدوا عنه؛ لأنهم لم يروا فيه شفاءً للقلوب وراحة للنفس، وأن تعاليم القرآن والنبي محمد وإرشاداته ورسالته إفك مفترىٰ، الأمر الذي جعل هؤلاء المرتدين يكرهون محمداً عليه الصلاة والسلام وقرآنه الذي جاء به.

إن الإسلام هو الدين الذي رضيه الله لعباده، فقال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

(٢) رواه النسائي في كتاب الإيمان وشرائعه ٨/ ١١ وقد روىٰ هذا الحديث البخاري ١/ برقم ٩. ومسلم ١/ برقم ٣٥ وأبو داود ٤/ برقم ٤٦٧٦ وابن ماجه برقم ٥٧ والترمذي ٥/ ٢٦١٤.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴿٣﴾[1].

والطمأنينة والراحة والخير في الإسلام؛ إذ يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[2].

هكذا ضاقت نفوس الأدباء حسداً من عند أنفسهم، فرموا الإسلام بكل النقائص والتهم لما هم فيه من ضلال مبين ورجس عظيم. والنقاد في هذا يؤكدون أن تشوسر بعمله هذا، عمل على إظهار مزيد من العداوة بين النصرانية والإسلام، وتصوير الحق والخير والجمال في المسيحية، والباطل والشر والسوء في الإسلام[3].

وفي حكاية أخرى لتشوسر بعنوان حكاية الفارس The Knight's Tale، وموضوعها قصة الفارس الحاج الذي يتحدث عن شجاعته وبطولاته التي توارثها عن أسلافه منذ الحروب الصليبية، والحديث عن قوة الفارس النصراني وبسالته في منازلاته مع الأعداء من المسلمين.

ما من شك أن الإسلام يدعو إلى مجاهدة الكفار، والجهاد عند المسلمين هو القتال في سبيل الله، وفي سبيل طلب الشهادة لنيل النعيم المقيم في جنات الخلد، والجهاد عند المسلمين ليس لغرض الدنيا والسلب

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

(٢) سورة الانعام، الآية ١٢٥.

(٣) انظر: F. N. Robinson (ed.), The Poetical Works of Chaucer, P. 236.

والنهب، إنما للفوز بثواب الآخرة، ولإعلاء كلمة الله جل جلاله.

والإسلام يحض المسلمين على إظهار القوة والشجاعة، وليس بخاف على أحد مدى شجاعة المسلمين في مواقف الجهاد، ولنذكّر الصليبيين بالمسلم الشجاع صلاح الدين الأيوبي وأمثاله ممن سبقوه من أمة الإسلام، كخالدٍ وأبي عبيدة وسعد، رضوان الله عليهم أجعين.

إن الإسلام يدفع المسلم إلى البطولة الإيمانية، وإلى الشجاعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

كما أن المولى جل وعلا ذمَّ المتخاذلين في القتال، فقال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[2].

وهذا رسول الله ﷺ يحث المسلمين على الثبات والصبر في القتال، فيقول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[3].

وفي الجزء المتعلق بالإسلام، فإن هذه الحكاية تصور مدى إقدام

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٤٥.

(٢) سورة الانفال، الآيتان ١٥-١٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير ٣/ برقم ١٧٤٢.

الفرسان النصارىٰ علىٰ القتال وشجاعتهم، التي لا مثيل لها، والتي أساسها الروح المفعمة بتعاليم الدين المسيحي . كما أن الحكاية تصور المسلمين علىٰ أنهم قوم غلاظ القلوب، برابرة، ووحوش، لاهمَّ لهم سوىٰ السطو والسلب والنهب والقتل وسبي النساء ، علىٰ عكس النصارىٰ الذين تميزوا بالسمو والرفعة ، الأمر الذي يؤكد علو الجنس المسيحي الأوربي وصفاءه.

وفي ثنايا الحكاية يتحدث تشوسر عن الحروب التي خاضها النصارىٰ مع المسلمين في المغرب والجزائر، وفيها وصف المسلمين بالنذالة والخسة والخوف والخنوع والجبن، وأنهم الأعداء الوثنيون الملاحدة، فقال :

A Knyght ther was, and that a worthy man,
That fro the tyme that he first bigan
To riden out, he loved Chivalrie, ...
As wel in cristendom as in hethensse,
And ever honoured for his worthynesse .
At Alisaundre he was whan it was wonne ....
No cristen man so ofte his degree.
In Gernade at the seege eek hadde he be
Of Algezir, and riden in Belmarye. .....
And foughten for ovre feith at Tramyssene
In lystes thires and ay slayn his foo.
This ilke worthy knyght hadde been also
somelyme with lord of Palatye
Agayn another hethen in Turkye .[1]

وإذا ما تحدثنا عن حكاية ثالثه من حكايات كانتربري للشاعر تشوسر ، فهنا تطالعنا حكاية القسيس The Parson's Tale، التي يتضح فيها شدة كره هذا الكاتب للإسلام ولنبيه محمد ﷺ، فيري أنه وأتباعه من عباد الأصنام

(١) انظر : F. N. Robinson (ed.), The Poetical Works of Chaucer,P. 271.

والأوثان، وأنهم حساد؛ لأن تلك هي شيم عباد الأوثان، فيقول الشاعر :

What difference is bitwixe an ydolastre
and avaricious man but
that an ydolastre, per aventure he hath but
O Mawmet or two[1]

هكذا ينظر تشوسر إلىٰ عباد الأصنام - أي المسلمين - علىٰ أنهم حساد بُغضاء، جاحدون لنعم الله، لا يقدرونها حق قدرها، كما يمكن أن يرىٰ ذلك في حال القسيس الراهب الذي يشكر نعمة ربه، ليس مثل ذلك الدعي محمد ﷺ.

ونقاد الأدب الإنجليزي يعطون أهمية كبرىٰ لحكايات كانتربري ومؤلفها تشوسر كما أشرنا سابقا. ولكن الاهتمام الأكبر ينصب إلىٰ حكاية الفارس، وحكاية القسيس؛ لأنهما تمثلان مفترق الطريق في العداوة بين النصرانية والإسلام، ولأنهما تقدحان في حقيقة الإسلام وحقيقة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام.

وهذا ما يؤكده أحد النقاد بقوله عن الحكايات الثلاث، حكاية المحامي، وحكاية الفارس، وحكاية القسيس، إذ يقول: «إن هذه الحكايات الثلاثة كما سمعت وكما رويت، فإنها تمثل نصراً عظيماً للنصرانية»[2].

من هذا كله ندرك مكانة جيفري تشوسر في تاريخ الأدب الإنجليزي

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٤٩.

(٢) انظر: Nevil Coghill, The Poet Chaucer, Oxford University Press, London, 1967, P. 95.

بالنسبة للأدب نفسه من ناحية، وبالنسبة لموضوع الإسلام والمسيحية من ناحية أخري.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن أدباء آخرين من الذين أدركوا جزءاً من عصر تشوسر، أو جاؤوا بعده خلال العصر الوسيط، فإننا نجد عدداً قليلاً من الأدباء الذين كتبوا مثل ما كتب تشوسر، مع أنه لمدة قرنين من الزمان لم يتبوأ أي أديب المكانة التي تبوأها تشوسر في تاريخ الأدب الإنجليزي في إنتاجه وعبقريته . وذلك بسبب الحروب التي خاضتها بريطانيا مع الممالك المجاورة لها منذ عام ١٤٨٥م حتى ١٥٤٥م، التي أثرت على النشاطات الأدبية ونمو الأدب وتطوره ، ومع هذا، لا يفوتنا القول عن أحد الشعراء المعاصرين لتشوسر وهو جون جوّر John Gower [(١)]. (١٣٢٥-١٤٠٨م) وهو صديق حميم لتشوسر، يلتقي معه في شدة كرهه للإسلام، واشتهر بما كتبه في قصائده عن الإسلام لما تتوقد في نفسه روح النصرانية، التي يرى فيها أنه لا دين غير المسيحية فيه الحق ، وأن النصرانية هي الدين الأمثل للبشرية. لقد كتب جوّر عن الإسلام، بنفس الروح الفكرية السائده في العصور الوسطى عن الإسلام، والتي يعبر عنها الكاتب بمشاعر العداء التي ألهبت نارَها الحروبُ الصليبية. ففي مجموعة قصائده المشهورة باسم Confessio Amantis، والتي كتبها خلال الفترة من ١٣٨٦م

---

(١)أحد الأدباء الأثرياء المعروفين في البلاط الملكي في عصره، كتب الشعر باللاتينية والفرنسية والإنجليزية، أصيب بالعمى عام ١٤٠٠م، وكان من المسيحيين المتزمتين في فكره وأدبه، وهو كاتب وفيلسوف في علوم الأديان والأخلاق.

حتى ١٣٩٠م، ومجموعة هذه القصائد تقوم في فكرتها العامة على ضرورة حصول الإنسان على النفس المطمئنة عن طريق الحب العذري، الذي به يعترف المحب بمشاعره وأحاسيسه لآلهة الحب الذي يبحث عن صفاء الروح وصفاء الحياه من عداوة الأعداء، وفيها يتساءل المحب أمانتز: هل إن الإنجيل يبيح قتل المسلم العدو اللدود للنصارى:

I prei you tell me nay or yee,
To passe over the grete see
To werre and sle the Sarazin,
Is that lawe? (1)

إن المسألة بالنسبة للنصارى لا تحتاج إلى استفسار، لأن ذلك تحصيل حاصل، فقد قتلوا المسلمين في حروبهم معهم دون الرجوع إلى الإنجيل، وإن رجعوا إليه، فإنما هو كتاب أفسده التزييف والتحريف، وأتاه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ومع هذا، فإن الإنجيل - كما في القصيدة - لا يبيح قتل المسلمين.

Sone myn,
To preche and soffre the faith,
That have I herd the gospel seith,
But forto slee that hiere I noght. (2)

ومعنى الأبيات السابقة يشير إلى عدم قتل المسلمين، بل العمل على التبشير بالمسيحية، ودعوتهم إلى دين النصرانية. وإذا كان النصارى يبيحون قتل المسلمين بقصد القضاء عليهم، وعلى دينهم، فذاك إكراه في شرعهم،

---

(١) انظر: G.C. Macauly (ed.), The Complete Works of John Gower, Oxford, 1902, vol.2., P.239.

(٢) المرجع السابق.

لكن الإسلام لا إكراه فيه على الدين. وإن أباح الإسلام قتال الكفار، فذلك بشروطه، وهذا قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾(١).

وقال جل جلاله:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩ ﴾(٢).

ومن أدباء هذه الفترة الذين تكلموا عن الإسلام، يطالعنا اسم الكاتب جون لايت جيت (١٣٧١-١٤٥١م) John Lydgate(٣)، كان شاعراً فحلاً وصاحب إنتاج غزير، ظهر معظمه خلال القرن الخامس عشر، ومن أهم ما كتب: The Pilgrimage of man ,The Fall of Princes ,The Temple of Glass Stories of Thebes، وأخيراً Troy Book. وقد تأثر في إنتاجه الأدبي بقراءاته في الآداب الأوربية، خصوصاً الأدبين

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٠.

(٢) سورة الممتحنة، الآية ٨-٩.

(٣) أديب ومفكر إنجليزي، كان متدفقاً في شعره؛ حيث كتب عدداً من الدواوين الشعرية، وله كتابات فلسفية وأخلاقية ودينية، وقد تميز باهتمام الدوق همفري له، مما دعمه أخلاقياً ومادياً، الأمر الذي ساعده على الارتقاء بإنتاجه الأدبي والفكري.

الإيطالي والفرنسي، اللذيـن كانا مصدرين لكثير من موضوعات قصائده .

ويعد لايت جيت من أمثل الشعراء الذين تابعوا تشوسر في نماذج قصائده وأسلوبها، واللغة التي كتب بها شعره ونثره، وما ترجمه من الآداب الأخرىٰ. ومن أشهر مؤلفاته التي تأثر فيها بالأدب الإيطالي: قصيدته سقوط الأمراء The Fall of Princes ، حيث استوحىٰ موضوعها من قصيدة لبوكاشيو بعنوان De Casibus Virorum ، وبها ثلاثة آلاف وستمائة بيت من الشعر ، كتبت في الفترة من ١٤٣٠م وحتىٰ ١٤٣٨م، ونشرت لأول مرة عام ١٤٩٤م. ويعد النقاد قصيدة «سقوط الأمراء» ملحمة شعرية لحياة الفروسية، وللحروب الدينية والقومية في العصور الوسطىٰ ، وأنها ملحمة الحياة الاجتماعية والتاريخية والأدبية ، وأنها ملحمة تاريخ الأنبياء والرسل، أمثال نوح وإبراهيم ويوسف وعيسىٰ عليهم أفضل الصلاة والسلام. وفي هذه القصيدة يتحدث الشاعر عن صلب اليهود للمسيح عيسىٰ عليه السلام، وتظهر فيها العداوة بين النصارىٰ واليهود علىٰ حقيقتها في هذه القصيدة، وهذا يتضح من كثرة طباعتها، وظهور الطبعات المتعددة لها مرات عديدة، وتداولها بين القراء والأدباء والنقاد إلىٰ ما بعد عصر شكسبير [١].

ولقد كان لايت جيت مثل من سبقه من الأدباء في عداوته للإسلام،

---

(١) انظر: Walter F. Schirmer, John Lydgate : A Study in the Culture of the XV Century, Methuen & Co,London, 1961, P.P. 206 - 225 .

فنجده في أكثر من موضع في قصيدته «سقوط الأمراء» يتحدث عن النبي محمد ﷺ، فقد وصف النبي بأنه عاش يتيماً في فقر مدقع، الأمر الذي جعل لايت جيت يقول: إن النبي عليه السلام جاء من طبقة منحطة في المجتمع الذي عاش فيه [١]، لذا فهو يرى أنه عليه الصلاة والسلام جاء بمنكر من القول وزور، وأنه يدَّعي النبوة . ثم يتحدث الشاعر عن الحالات التي كانت تصيب الرسول ﷺ عند نزول الوحي ، فوصفها بأنها حالات من الصرع والهستيريا ، وليست وحياً إلهياً ، وإنما ذلك إفك مفترىٰ منه عليه الصلاة والسلام، فيقول الشاعر :

In his excuse seide that Gabriel
Was sent to hym from heuenli mansioun
Be the Hooli Goost to his instruccioun
For the angle shewed hym so sheene
To stand upriht he Mythe not susteene .[٢]

إن ما وصف به الشاعر رسول الله ﷺ بالهستيريا والصرع ماهو إلا محض خيال وكذب ، فهذا النبي معروف عند أهل الكتاب، وبين قومه بأنه الحليم ذو الخلق العظيم، ليس بفظٍّ ولا غليظ، والله شرح صدره للخير، فقال تعالىٰ : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤]. وأما ما كان يحصل له عليه الصلاة والسلام من تفصُّد العرق في

(١) انظر: H. Bergen (ed.), Lydgate's Fall of Princes, London, n.d., part 3, Book 9 , P. 50

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٧.

(٣) سورة الشرح ، الآية ١ .

(٤) سورة القلم ، الآية ٤ .

جبينـه في شـدة البرد، قـالت عـائشة رضـي الله عنهـا : «إنه كـان لينزل على رسول الله ﷺ في الغـداة البـاردة، ثـم تفيض جبهتـه عرقاً»[١]. وعـن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال : « كان نبي الله ﷺ إذا نــزل عليه الوحي، كـرب لذلك وتربَّد وجـهـه »[٢]. وهذا لعظـم القـرآن الـذي قـال عنـه المولىٰ سبحانه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾[٣].

وفي صورة من الصـور الـشعرية الملفَّقة عن الرسـول ﷺ يرىٰ لايد جيت أنه عليه السلام مـثله مثل من سبقه من قادة الأديان البـاطلة من عُبَّاد الأوثان، كما هو حال الإغريق والرومان، ذلك أن محمداً عليه الصلاة والسلام يدعو إلىٰ تقديس يوم الجمعة، الذي هو يوم آلهة الحب عند الرومان، فيقول :

And for he was lecherous of corage,
He made of Vens sette up image.
Made Sarsyns to worshep the friday[٤]

وفي مكان آخر مـن قصيـدته « سقوط الأمـراء » يتحـدث لايد جيت عن وفـاة الرسـول ، وأنه ﷺ شــرب في يوم من الأيام الخـمـر ، وأكـثـر منه حتىٰ الثمـالة، فسـكر سكراً شـديداً، مما أثر عليـه، وصـرعه إلىٰ أن طرحـه أرضـاً، فجاءت الكواسر والضـواري من الطير، فأكلته جيفةً نتنةً، فيقول الشـاعر :

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ٤/ برقم ٢٣٣٣.

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ٤/ برقم ٢٣٣٣.

(٣)سورة المزمل ، الآية ٥ .

(٤) انظر : H. Bergen (ed.) , Lydgate's Fall of Princes, P. 132 .

Like a glotoun deied in dronkenesse,
Bi excesse of mykil drynkyng wyn,
Fill in a podel, deuoured among swyn .[1]

هكذا أفصح لايد جيت عن شدة كرهه للإسلام والمسلمين، وأظهر حقده على نبي الإسلام، وعبَّر عن فكره أن يكون محمداً قد مات جيفة أكلتها الجوارح، وما هكذا يكون موت الأنبياء الذين اصطفاهم ربهم برحمة وفضل، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[2].

ومعروف قصة وفاته عليه الصلاة والسلام، حيث توفي أثر حمى أصابته، ومعروفة مكان وفاته، ومكان دفنه. وماقول هؤلاء الأدباء إلا من نسج الخيال ووحي الشيطان، والشعراء يتبعهم الغاوون.

ومن أدباء العصر الوسيط المشهورين الذين جاؤوا بعد تشوسر، وتابعوه في أسلوبه ومنهجه : الشاعر الأسكتلندي وليم دنبار William Dunbar (١٤٦٣ ـ ١٥٣٠م)[3]، ولد بعد وفاة لايد جيت باثني عشر عاما، له قصائد كثيرة ودواوين شعرية متعددة، اتَّسمت بالتنوع في مبناها ومعناها من حيث الموضوعات الفكرية، والصور اللغوية الأدبية،

---

(١) انظر : المرجع السابق.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٥.

(٣) دنبار من كبار الشعراء في عصره، كان شاعر البلاط الملكي زمن الملك جيمس الرابع، وتولى السفارة والعمل الدبلوماسي أكثر من مرة زمن الملك جيمس الرابع، وممثلاً له لدى الممالك المجاورة. عرف بشعره الساخر وهجائه اللاذع في معظم قصائده التي تميل إلى كثير من الخيال .

وموسيقى الشعر، وإن كان دنبار في شعره يحافظ على أسلوب النظم الذي ساد في العصر الوسيط، كما عند تشوسر ولايد جيت، إلا أنه حافظ على الروح العامة للموضوعات التي تناولت النواحي الدينية والحربية وأدب الفروسية . من أشهر أعماله الأدبية قصيدة The Thrissil and Rois التي ظهرت عام١٥٠٣م، وقصيدة السبع الموبقات The Dance of The Seven Deidly Synnis، التي كتبها خلال الأعوام ١٥٠٣-١٥٠٨م . وتعد قصيدة السبع الموبقات من القصائد المشهورة في الأدب الإنجليزي وتاريخه. وفي هذه القصيدة نجد الشاعر يتحدث عن الموبقات السبع، وأن النبي ﷺ موبقة من الموبقات، واللعنات التي حالت دون الحق، وأن الرسول ﷺ شيطان مريد وشرير مكانه في الآخرة نار جهنم، وهو في قصيدته هذه يصور الشاعر دنبار على أنه الرئيس القائد المحتفى به في النار، وهو يتخبط فيها مثقلاً بذنوبه وخطاياه، فيقول :

Than Cryd Mahoun for a Heleand Padyane :
Syne ran a feynd to feche Makfadane,
Far northwart in a nuke,
Be he the Correnoch had done fehout,
Ersche me so gadderit him abowt,
In Hell grit roume thay tuke:(1)

ويستطرد الشاعر في القصيدة مصوراً كيف أن النبي ﷺ كان يساق إلى نار جهنم كما يساق أكابر المجرمين والمذنبين :

(١) انظر: David Laing (ed.), The Poems of William Dunbar, Laing and Forber, Edinburgh, 1834, vol .1, P. 53 .

Bot yit lunche nevir Mahoun,
Quhill presitis come in with bair shevin nekkis,
Than all the feyndis lewche and maid gekkis,[1]

بكل هذا السوء وهذا البهتان الذي وصف به دنبار الرسول ﷺ بغير وجه حق وبغير صدق، يقوم على الحقيقة وصف دنبار الرسول ﷺ في قصيدته «السبع الموبقات»، التي يعطيها النقاد مكانة عالية، وخاصة في الأدب الإنجليزي، خصوصاً ذلك الجزء المتعلق بالإسلام وبالرسول ﷺ، الذي يقول عنه النقاد: إنه تصوير حيوي وشيق. وبهذه القصيدة ارتقى دنبار في نظر كثير من النقاد إلى مصاف عظماء رجال الأدب العالمي والمفكرين، فهو رسام دقيق، أعطى صورة صادقة عن الحياة والمجتمعات والأديان، وذلك بما أوتي من قوة الفكر والإلهام[٢].

وفي مجال النثر، نجد رانولف هجدن Ranulf Higden (١٣٠٠ - ١٣٦٤م)[٣]. وقد اشتهر هذا الكاتب بمؤلفه التاريخي المسمى Polychronicon، وهو عرض تاريخي لأحداث العالم منذ القرن الميلادي الأول وحتى العصور الوسطى، وفي معرض حديثه عن العرب وسكان الجزيرة العربية، تكلم عن الرسول ﷺ وزوجته خديجه أم المؤمنين رضي الله عنها. وأنه عليه السلام تزوجها بقوة تأثير السحر الذي سحرها به؛ لأنه

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) هجدن، من كتاب النثر والتاريخ ظهرت معظم مؤلفاته باللاتينية، وترجمت إلى الإنجليزية. له جهود تبشيرية واضحة، وعداؤه للإسلام جلي في الجزء الخاص بالإسلام والعرب في كتابه المذكور أعلاه.

طمع فيها وهي أرملة ثرية من قريش؛ فقد مال إلىٰ مالها ولم يمل إلىٰ قلبها. وهو بسحره هذا أثر علىٰ كثير من العرب وغيرهم ودعاهم لعبادته[١].

كما تحدث هجدن في كتابه عن بعض القصص المصطنعة عن رسول الله ﷺ، وهي دعوىٰ الرسول عن معجزاته الملفقة، والتي منها أنه عليه السلام يعمل علىٰ تدريب حيوان من الحيوانات، كأن يكون جحشاً برياً أو ثوراً أو بعيراً، وهو - أي هذا الحيوان - يرفض أن يأكل الطعام من أي أحد سوىٰ من يده الشريفة ﷺ، الأمر الذي يجعل الناس يؤمنون بأنه رسول من رب العالمين، ويؤمنون بكتابه الذي جاء به علىٰ أنه من عند الله العظيم[٢]، والدعوة إلىٰ أركان الإسلام الأربعة كما يقول هجدن، الذي يجهل أن الأركان خمسة.

ويستطرد المؤلف قائلاً: إن دين محمد دين باطل، يغري الناس به بما جاء من تشريعات؛ منها إباحة تعدد الزوجات ولذائذ الجنس. بل إن محمداً يدعو أتباعه إلىٰ تقديس يوم الجمعة، الذي يظهر فيه كوكب الزهرة إله الجنس والحب عند الرومان[٣].

وقبل أن نختم هذا الفصل عن العصر الوسيط في تاريخ الأدب الإنجليزي، نود أن نوضح أنه في الحقب الثلاث الأخيرة من هذا العصر، نشطت حركة الإصلاح الديني، وقويت أنشطة المراكز التبشيرية، والدعوة

(١) انظر: Ranulf Hidgen, Polychronicon, London, 1865 - 1886, Vol. 6, P.P. 23 -25.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥ - ٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٩.

إلى المسيحية، وازدادت حركة عرض المسرحيات، كما هي في كتب العهد القديم والعهد الجديد، وانتشرت مسرحيات الأخلاق، ومسرحيات الإعجاز، ومسرحيات الأسرار، وكانت هذه المسرحيات تكتب وتقدم بأسلوب أدبي رفيع، وتعرض على المشاهدين في المسارح بغرض تعليم الناس أمور دينهم، كما هي في الإنجيل، وعقد المقارنة بين الدين المسيحي، وغيره من الأديان، والتأكيد على أن النصرانية هي الطريق الصحيح إلى الرب، والسبيل القويم للخلاص من متاعب الحياة وكثرة الذنوب. وكانت هذه المسرحيات في نصها وروحها دينية محضة، تمثل فكرة التجسيد والصلب والبعث، وحقيقة الأب والابن والروح القدس(١).

ومن بين هذه المسرحيات موضوع قابيل وهابيل، وأن هابيل يمثل الخير كما يمثله المسيح عيسى ابن مريم في صلاحه وفضله وخلقه، بينما يمثل قابيل اليهود في شرهم وتعنتهم ومكرهم وخبثهم، أما ما يخص الدين الإسلامي في هذه المسرحيات، ففيها كثير من التلفيق والمعارضة، والاختلاق والاختلاف عن حقائق خلق آدم عليه السلام، وعن طوفان نوح، وعن قصة إسماعيل الذبيح، وكلها إساءة إلى الحق الموجود في الإسلام، وبين دفتي كتاب الله العزيز وسنة النبي الكريم ﷺ(٢).

(١) انظر: A.C. Cawley (ed.), Every Man and Medieval Miracle Plays, J.M. Dent & Son Ltd, London, 1974, P. ix.

(٢) انظر: معالجة نقدية لبعض الموضوعات لهذه المسرحيات في كتابنا بعنوان: مطالعات في الأدب المقارن، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

الباب الخامس

عصر النهضة

عصر النهضة

١٥٣٠ - ١٦٢٥م

إذا كانت أوربا تعتز بعصر النهضة، وتنظر إليه على أنه عصر التحرر والانطلاق، وأنه زمن البعث للفكر والعلم والفن والأدب، وأنه البداية الأولى لمسيرة الحضارة الأوربية، فإنه في ذلك الوقت كان المسلمون في أوج حضارتهم، وأسمى النظم الإدارية والعلمية والفكرية، حيث كان على خلافة المسلمين السلطان سليم الأول العثماني، الذي كان حفياً بالعلم والعلماء، ومولعاً بالآداب والتاريخ، وصاحب دراية بالحروب والفروسية، حتى إنه نظم بنفسه ديواناً بالفارسية. وهكذا كان الأمر بالنسبة لخلفه ابنه السلطان سليمان القانوني، الذي تولى دفة الحكم عام ١٥٢٠م، وذلك بنحو عشرة أعوام قبل تاريخ عصر النهضة في بريطانيا، الذي يؤرخ لها بعام ١٥٣٠م.

كان سليمان القانوني حاكماً مسلماً محنكاً، لم تقدر عليه أوربا متفرقة أو مجتمعة، فلقد انتزع جزيرة رودس من أيدي فرسان القديس يوحنا. تلك الجزيرة التي طالما استعصت على أسلافه من قبل، وفيهم محمد الثاني نفسه فاتح القسطنطينية، كما اقتحم مدينة بلغراد، واستولى على بلاد المجر،

ودخل عاصمتها بودابست عام ١٥٢٦م، وكان الأوربيون قد طمحوا إلىٰ استرداد المجر من أيدي العثمانيين، حتىٰ زحف إلىٰ مدينة فينا حاضرة النمسا، وكان في خطته من بعد ذلك أن يواصل زحفه حتىٰ نهر الراين، واستطاع سليمان بالفعل أن يقتحم أسوار المدينة الحصينة برغم تركه لمدافعه الثقيلة ببلغراد، وظل جند العثمانيين يردون النمساويين عن خطوطه، برغم بسالتهم واستماتتهم في القتال، حتىٰ نزلت بهم خسائر فادحة في رجالهم ومعداتهم، وما إن جاء الشتاء ببرده القارس حتىٰ اضطر سليمان ـ بسبب نقص المؤن ـ أن يرجع عن المدينة إلىٰ بلاده، فكان ذلك أول إخفاق حربي يلقاه في حياته، وكانت فينا هي آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في فتوحاتهم بأوربا؛ إذ شغلوا من بعد ذلك عنها بحروبهم مع الفرس أعدائهم الأشداء إذ ذاك.

وخاض سليمان معارك متكررة مع الفرس حتىٰ عام ١٥٥٤م، كلفته خسائر كثيرة في الرجال والعتاد بسبب حسن بلاء الفرس ووعورة مسالك بلادهم. وصار لسليمان كذلك أسطول بحري ضخم قوي، نشر سلطانه مهاباً في بحر الروم والبحر الأحمر حتىٰ المحيط الهندي. والمعروف أن سليمان كان قد بعث إلىٰ بحار الهند الغربية ببعض سفنه لتساعد سلطان الكجرات محمود بيكر إذ ذاك في حربه مع البرتغاليين، الذين كانوا قد بدأوا يقيمون لهم قواعد حربية علىٰ شواطئ المحيط الهندي في زحفهم الاستعماري المعروف إلىٰ تلك المناطق.

وظهر في الدولة جملة من أمراء البحر العظام، وفي مقدمتهم خير الدين بربروس، الذي صار له أيام السلطان سليم سطوة عظيمة في البحر الأبيض المتوسط، حتى استولى على جملة من ثغور شمال إفريقيا، وأخضع بلاد الجزائر لنفوذ الدولة العثمانية، كما التحم بمراكب الإسبان القوية في خليج الجزائر، فهزمهم، واستولى على سفنهم جميعاً(١).

وفي عهد السلطان سليمان القانوني أنزل هذا الملاح التركي الهزيمة القاسية بأسطول شارلمان. كما أغار على سواحل إيطاليا ثم تعاون من بعد ذلك مع القرصان التركي المشهور سنان على إنقاذ سبعين ألفا من مسلمي الأندلس، إن هذه الأحداث التي سارت زمن الخلافة العثمانية وعلى الخصوص في عصر السلطان سليمان القانوني، سببه سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين عام ١٤٥٣م؛ إذ إنها كانت تمثل السد المنيع والحصن الحصين في مواجهة المد الإسلامي، وكانت أوربا تعلم أن أي خطر يهدد هذه المدينة بالاحتلال، فإن ذلك يعني انهيار الدفاع المسيحي، وفتح الباب على مصراعيه، ليكتسح المسلمون القارة الأوربية. وهذا ما وقع بالفعل في عصر السلطان سليمان القانوني كما أشرنا سابقاً، ولكن هذا الأمر عاد على أوربا بكثير من النفع في قيام النهضة، وانتفاض أوربا من جهلها، وما كانت تعيشه من سيطرة الفكر المسيحي، وتسلط رجال الدين النصراني على الناس.

---

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص ١٩٢-١٩٥.

وكما أسلفنا، فإن بوادر عصر النهضة لم تظهر في بريطانيا إلا مع مطلع عام ١٥١٦، واستمرت حركة النهضة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. *وعصر النهضة أصله انطلاقة أوربية اتسمت بنهوض الأدب والفن في* ظل النماذج الكلاسيكية. وأول ما بدأت حركة عصر النهضة كانت في إيطاليا، ثم انتشرت في بقية الدول الأوربية بقصد التحرر من الأفكار القديمة والفلسفة النصرانية وحركات الإصلاح الديني، التي ظهرت في أواخر العصور الوسطىٰ، وسيطرة الدين علىٰ الأدب والفن في الشعر والمسرحية، فكان عصر النهضة بمثابة انتفاضة أو ثورة علىٰ الدين والروح الدينية السائدة في الأدب والعلوم والفن، واكتساب النماذج الكلاسيكية من الآداب الإغريقية والرومانية[(١)].

إن عصر النهضة الذي بدأ في إيطاليا - ويؤرخ له من عام ١٥٣٠م حتىٰ عام ١٦٥٠م - لم تصل تأثيراته علىٰ الأدب الإنجليزي والحياة في بريطانيا - كما أشرنا سابقاً - إلا في عام ١٥١٦م. وعصر النهضة بمصطلح Renaissance يعني بالفرنسية الميلاد الجديد، ذلك أن حياة أخرىٰ وجديدة ولدت في أوربا بعد انتهاء عصر الإقطاع وعصر الدويلات الصغيرة والحكومات الصغيرة، فقامت الحكومات الكبيرة، وتحولت حياة الناس إلىٰ مجموعات من الشعوب التي يمثلها البلد الواحد، فكان الشعب الفرنسي والشعب الألماني والشعب الإسباني، وهكذا وهذا الأمر أدىٰ إلىٰ

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٤.

الاتصال بين الشعوب في المجالات السياسية والتجارية والأدبية والعلمية، وبدأ الاقتصاد في النمو، وبدأت العملات في الانتشار، كما أن الاكتشافات العلمية، والاختراعات تتوالى، فمن الاكتشافات تلك الاكتشافات الجغرافية التي قام بها فاسكوداجاما وماجلان وكولمبس وغيرهم، وفي مجال الأدب نشطت الحركات الأدبية في أوربا؛ ففي إيطاليا نجد تاسو (١٥٤٤-١٥٥٩م) Torquato Tasso، وميكافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧م) Niccolo Machavelli ، وفي أسبانيا سرفنتيس (١٥٤٧ - ١٦١٦) Migvel de Cervantes ، وأخيراً في فرنسا فرانسوارابيليه (١٤٩٤- ١٥٥٣م) Francios Rabelais .

ومن مزايا عصر النهضة في الأدب الإنجليزي نمو اللغة الإنجليزية وتطورها، وميلها نحو الثبات في كثير من قواعد وتراكيب اللغة نحواً وصرفاً وألفاظاً . كما اتسم عصر النهضة في بريطانيا بنمو النثر عموماً والنثر الأدبي خصوصاً الذي لم يكن موجوداً في العصورالسالفة، سوىٰ ما كان في صورة كتابات تاريخية، أو تعليقات، أو جملة نظم وقوانين. كما ظهرت الكتابات الأدبية في فروع الفن الأخرىٰ، كالتصوير والنحت، كما ظهرت الدراسات الإنسانية والعلمانية بصورة كبيرة منذ عام ١٤٩٠م، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ كثير من الخلافات الفكرية والصراعات بين الكنيسة والأدباء والمفكرين والمتحررين، أمثال وليم جروكن (١٤٤٦ - ١٥١٩م) William Grocyn وقد سبقه في ذلك توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥م) Thomas

More ، الذي نشر كتاب الطوبيا Utopia ، والذي نادىٰ فيه بأنَّ علىٰ الإنسان أن ينشد السعادة في حاضره ، بدلاً من الانتظار إلىٰ الحياة الأخرة ، ولم يعلم هذا الكاتب أن الآخرة خير وأبقىٰ .

وفي عصر النهضة ظهرت حركة التربويين ورجال التعليم ، الذين نادوا بالفلسفة التربوية ، كما يتضح في أعمال توماس إليوت (١٤٩٠ ـ ١٥٤٦م) Thomas Elyot ، وجـون تشـيك (١٥١٤ ـ ١٥٥٧م) John Cheke ، وتومـاس ولسن (١٥٢٥ـ ١٥٨١م) Thomas Wilson ، وغـيـرهم آخرين .

لقد عقد رواد الدراسات الإنسانية العزم علىٰ تنفيذ مقترحاتهم وتطبيق فكرهم العلماني ، وتقديمه للمجتمع الذي كان في حيرة من أمره . هل يتبع هؤلاء المجددين أم يتبع الكنيسة ؟ ومن أوجه الصراع التي قامت بين رجال الكنيسة والعلمانيين : مسألة الحفاظ علىٰ الكتب المقدسة في لغتها الأصلية العبرية ، أو الإغريقية ، أو ـ علىٰ الأقل ـ المحافظة علىٰ النص اللاتيني ؛ لأنه أقرب إلىٰ العبرية ، خوفاً من تعرض الكتاب المقدس للتأويلات والتفسيرات البشرية ، وخروجه من قيمته الروحية ، ليصبح شيئاً لا قيمة له سوىٰ في المؤسسات الدينية والكنائس . ولكن الأمر انتهىٰ بترجمة الكتاب المقدس العهد القديم عام ١٥٣٥م ، وتلا ذلك ترجمة بقية الكتب والأسفار المقدسة إلىٰ الإنجليزية ، وأصبحت هذه الكتب في متناول الجميع بعد أن كانت حكراً علىٰ الرهبان والقسس ورجال الدين .

ولقد توالت الدراسات المختلفة والتفسيرات والتأويلات لهذه الكتب ، الأمر الذي أفسد عقائد الناس ، بل زاد من فساد عقائدهم ، لما في هذه الكتب من تحريف وتزوير أصلاً ، ولقد أدىٰ هذا الأمر إلىٰ إنهاء سلطة الأديرة والصوامع والكنائس ، بدءاً من عام ١٥٣٩م ، ذلك أن عنف رجال الدين وشدتهم ، وتسلط الكنيسة وقسوتها ساعد علىٰ نهضة الدراسات اللاهوتية والناسوتية ، وظهور الفلسفات الإنسانية ، وبعث ونهضة الكلاسيكيات القديمة وأنشئت المكتبات العامة ، كل هذه الأحداث أدت إلىٰ تغيرات كبيرة في حياة الناس اجتماعياً وسياسياً ، بل ودينياً .

ونشطت حركات الأدب ، وتعددت موضوعات الشعر وتنوعت ، وازدهر الأدب المسرحي ، وفاق الشعر بمراحل كثيرة في هذا العصر ، وخرج المسرح من موضوعاته الدينية . وظهرت الكتابات المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، وتاريخ الأمراء والملوك ، وموضوعات الحب والغرام التي كانت موجودة في الآداب الكلاسيكية لدىٰ اليونان والرومان .

وكان من أوائل أدباء عصر النهضة في إنجلترا الشاعر المشهور السير توماس وايت Thomas Wyatt (١٥٠٣ ـ ١٥٤٢م)[(١)] ، الذي كتب الشعر الغنائي ، علىٰ غرار نماذج الشعر الإيطالي ، وأظهر في شعره موضوعات الكرامة والسعادة والحب ، وغير ذلك من الموضوعات التي لم تكن معروفة

(١) توماس وايت : من الشعراء البارزين في عصر النهضة وهو يحمل لقب سير . تقلد مناصب متعددة في داخل بريطانيا وخارجها ، بأن عمل سفيراً لحكومة الملك تشارلز الخامس وهنري الثامن ، وكان من المهتمين بدراسة الآداب الأجنبية . اتسم شعره بالتجديد والأصالة .

في الشعر الإنجليزي منذ عصر تشوسر وحتىٰ عصر النهضة .

ومن شعراء عصر النهضة الذين ساهموا في حركة الأدب في هذه الفترة : الشاعر المبدع الذي أسهم في ترجمة بعض الكتب الإغريقية والرومانية . إنه الشاعر هنري هاورد Henry Howard (١٥١٧-١٥٤٧م)[١]، حاكم منطقة سري Surrey . لقد ترجم الشاعر بعض أعمال فرجيل Virgil ، ومنها Aeneid . وما أثرت به الترجمة من إدخال لبعض عناصر التجديد علىٰ فن الشعر ، ومنها الشعر الحر غير المقفّىٰ ، أو الموزون ، وإدخال موضوعات الشعر الملحمي .

ويعد توماس سكافيل Thomas Sackville (١٥٣٦-١٦٠٨م)[٢] من شعراء عصر النهضة الذين أحيوا التراث الكلاسيكي ، برغم أنه اعتمد في بعض قصائده علىٰ أسلوب النظم في الأدب الإنجليزي خلال العصر الوسيط .

كما أن من رواد الشعر الذين ساهموا في حركة النهضة السير فيليب سدني Sir Philip Sidney (١٥٥٤-١٥٨٦م)[٣]، وقد اشتهر في الأدب

---

(١) هنري هاورد: شاعر رصين، وفارس مغوار، حارب في الجيش الإنجليزي ضد الفرنسيين. تابع في شعره ـ وخصوصاً الغنائي منه ـ أسلوب النظم الإيطالي. وكتب عدداً كبيراً من القصائد بالشعر المرسل.

(٢) سكافيل : من الشعراء المتعلمين الذين درسوا العلوم الدينية ، وأصبح من المحامين المشهورين ، إلىٰ أن أصبح حاكماً لبعض المقاطعات الإنجليزية ، وأعماله الشعرية متنوعة في موضوعاتها وتراكيبها اللغوية .

(٣) سدني : هو سليل أبناء الحكام الإنجليز في المقاطعات البريطانية ، له مكانة رفيعة بين الأدباء=

الإنجليزي، لمكانته الاجتماعية ولقوة شعره وعلمه وثقافته، وكان فارساً شجاعا، له عدد من المؤلفات، منها مجموعة القصائد بعنوان: Astrophel and Stella (١٥٩١م)، وهو مشهور بدراسته النقدية عن الشعر والشعراء، كما في عمله المشهور Apology for Poetry ، الذي ظهر عام ١٥٩٨م، وله مسرحية بعنوان Arcadia ، التي ظهرت أيضاً عام ١٥٩٨م.

ومن شعراء النهضة: إديموند سبنسر Edmund Spenser (١٥٥٢-١٥٩٩م)، الذي ظهرت أعماله الأدبية، وهي تعكس روح العصر، خصوصاً في قصيدته «تقويم الرعاة» The Shepherd's Calender، ومنها انطلقت كثير من مظاهر النهضة في الأدب الإنجليزي، وازدهار اللغة الإنجليزية، كما ظهرت فيها الروح الوطنية وحب الوطن والحماسة نحو ذلك. وكان أسلوب القصيدة بديعاً جداً في نظمه وجرسه الموسيقي، والجو العام للموضوع، وفي نفس الوقت فقد كتب سبنسر قصيدة بعنوان «ترنيمات على شرف الحب والجمال» Hymnes in Honor of Love and Beauty . ومعظم قصائد سبنسر الأخرى يجد فيها القارئ ازدراء الشاعر للأحوال العامة للناس والأدب قبل عصر النهضة، وما كان من رجال الدين، وتسلط الكنيسية. ولا يفوتنا هنا أن نذكر قصيدة سبنسر الطويلة بعنوان «ملكة الجان» The Faerie Queen ، وهي عرض عام لصور

=من معاصريه، وقد أثر في كثير من أدباء عصره، وفي كثير ممن جاء بعدهم.

أخلاقيـة واجتماعية في المجتمع الإنجليزي.

يعد الشاعر الإنجليزي جون للي John Lyly (١٥٥٤ ـ ١٦٠٦ م) أحد الشعراء الذين بحثوا بإحساس أدبي وفني عن أسلوب جديد للتعبير المناسب عن عصر النهضة، وترسيخ الأخلاق الإنسانية والسلوك الإنساني إلى ما هو أفضل لحياة الناس والمجتمع. ولا أدل على ذلك من قصيدته بعنوان Euphes the Anatorny of Wit ، والتي نشرت عام ١٥٧٩م، وظهر الشعر في هذه القصيده مليئاً بالمحسنات والترصيع اللغوي والبلاغي المنمق.

لقد شغل شعراء هذا العصر ـ أي عصر النهضة ـ الاهتمام كثيراً بالكلاسيكيات، وترجمة الشعر اليوناني والروماني، فلم تظهر كتابات شعرية تتحدث عن الإسلام، على خلاف النثر الذي تناول الحديث عن الإسلام وبصورة واضحة، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد.

إن النثر في عهد النهضة لم يكن له دور بارز في تاريخ الأدب الإنجليزي في هذه الفترة ، إلا أنه لم يكن في وسعنا أن نغفل الكتابات التي قدمها الكاتب الإنجليزي الشهير السير فرانسيس بيكون (٥٦١ـ ١٦٢٦ م) Sir Francis Bacon [(١)]، الذي كتب في موضوعات الدين والعقائد وفلسفة الأخلاق من منطلق الفكر الثوري في عصر النهضة.

فقد كان يكتب بحرية مجردة من قيود الدين حتى من الدين المسيحي،

(١) تعلم بيكون بكلية الثالوث بجامعة كمبرج، وعمل في البرلمان الإنجليزي منذ عام ١٥٤٨م، وكان يكتب مقالات يومية عن الشؤون العامة والحياة اليومية، وأعماله تنقسم إلى أربعة أنواع : فلسفية وأدبية ، وسياسية ، وفكرية.

وهو من أوائل الفلاسفة الإنجليز الذين ساهموا بكتاباتهم في إثراء النثر الأدبي في تاريخ الأدب الإنجليزي في حدوده الوطنية، وتحديث الفلسفات الكلاسيكية في الفكر الإغريقي اليوناني والروماني الهيليني. وكانت معظم كتابات بيكون باللاتينية.

ومما كتبه بالإنجليزية مقالة بعنوان « تطور التعليم » The Advancement Of Learning، وقد ظهر عام ١٦٠٥م، وكتابه التاريخي «الملك هنري السابع» The History of King Henry VII ، والذي طبع عام ١٦٢٢م. وبيكون اشتهر بكتابة مقالات Essayes بأجزائها المتعددة، والتي كتبها خلال الأعوام ١٥٩٧ وحتىٰ ١٦١٢ ، وفي أحد مقالاته هذه مقال بعنوان الشجاعة On Boldness ، لفق المؤلف فيها قصة، مختصرها أن النبي محمداً ﷺ قال بمعجزة الجبل ، حيث إنه أمر أحد الجبال أن يأتي إليه ليري أتباعه مدىٰ طاعة الأشياء له ، لكن الجبل لم يتحرك، ولكنه عليه السلام لم يعبأ بذلك، فذهب هو بنفسه إلىٰ الجبل[1]. ومقصد المؤلف هو أن يظهر بأن الرسول عليه السلام كاذب.

وامتد هذا الإفك المفترىٰ، ليصبح جزءاً من تراث الأدب الإنجليزي مما صنعه بيكون، فتدوول ذلك علىٰ ألسنة الناس، حتىٰ أصبح مثلاً سائراً، ونصه: « إذا لم يأت الجبل إلىٰ محمد، فإن محمداً يجب أن يذهب

(١) انظر : Francis Becon, Essays Civil and Moral, No. 12 London, 1843.

إلى الجبل » If The Mountain Will Not Come To Mahomet,[1]
Mahomet Must Go To The mountain .

ومن كتاب النثر المعاصرين لبيكون : الكاتب جورج ساندیز George Sandys (١٥٧٨ـ١٦٤٤م) ، وهو من الرحالة المشهورين الذين سافروا إلى أوربا وبعض البلدان الإسلامية ، منها تركيا وفلسطين ومصر ، ومن الذين ساهموا في عصر النهضة بترجمة أحد كتب أوفيد Ovid إلى الإنجليزية بعنوان Metamorphoses .

ويعدجورج ساندیز من الذين كتبوا كثيراً عن الإسلام ، وعن النبي محمد ﷺ في كتاب رحلاته المشهورة ؛ فقد صور الرسول عليه الصلاة والسلام على أنه لم يكن ملكاً ولا رسولاً نبياً ، بل لقد كان جندياً ثائراً مع بعض الجنود العرب ، الذين كانوا مع هرقل إمبراطور الروم ، إذ إن الرسول عليه السلام تزعم حركة ثورية على الإمبراطور ، وخرج هو وفرقته على الإمبراطور وحاد عن طريق الحق .

وفي مكان آخر يتحدث ساندیز عن أساطير محمد التي ادعاها ، ومنها قوله للناس بأنه في اليوم الثالث لموته ، فإنه سيكون في الجنة ، فيعلق ساندیز بقوله : « وهذا كذب من نوع جاء به محمد ، إذ المعروف أن محمداً مات على الأرض ، ودفن بالمدينة التي يحج إليها المسلمون كل عام »[2] .

---

(١) انظر : William George Smith (ed.), The Oxford Dictionary of English Proverbs, The Clarendon Press, London, 1966, P. 436 .

(٢) انظر : George Sandys, A Relation of a Journey An Dom, London, 1670, P. 41. =

وهذا من الأمور الملفقة في الفكر الغربي، فكيف يحج الناس إلى مكة ويحجون إلى القبر. إن هذا هو الفرق بين دين التوحيد ودين القبوريين، الذي يقوم عليه الفكر النصراني.

ويذهب سانديز للقول بأن النبي محمداً ﷺ وعَدَ قومه بأنه بعد موته سيعود إليهم بعد ألف عام، وهو لم يعد حتى الآن. وبالرغم من أن سانديز يعجبه أحد أركان الإسلام في مسألة دفع الزكاة، إلا إنه يقدح في أساسيات الدين وأركانه، وأنه من صنع محمد وأتباعه، فلماذا هذا التناقض؟ يقول: «بالرغم من أن دين المحمديين يقوم على أساس قواعد وضعها أحد الرهبان الأشرار المنغمسين في ملاهي الدنيا.. إلخ، لذا، فإن هذا الدين لا يمكن أن يكون لله رب العالمين، وأتباعه لا يمكن أن يكونوا من عباد رب العالمين»[1]. ويستطرد قائلاً: إن هذا الدين دين الرهبنة والتطرف عندما يصف المسلمين، وهم يؤدون الصلوات الخمس، ويقول: إن القرآن الكريم جملة من الحكايات والقصص الخرافية والأساطير»[2]. وهذه الأقوال تشبه أقوال مشركي قريش كما وصفهم المولى جل وعلا في قوله:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ

= وهنا تناقض مع ما سبق به أحد كتاب الأدب الإنجليزي، الذي قال بأن النبي ﷺ مات جيفة في الصحراء، وأكلته الضواري والكواسر، وقول هذا الكاتب بأن الناس يحجون إلى قبر النبي ﷺ.

(١) المرجع السابق ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢.

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾[١].

في هذه الآية يخبر الله تعالىٰ عما كان يقوله المشركون من الكذب والافتراء والبهتان بأن الرسول ﷺ إنما علَّمه هذا الذي يتلوه من القرآن بشر، ويشيرون إلىٰ غلام لدىٰ بعض القرشيين من النصارىٰ . وقد بين العليم الخبير حقيقة جميع المشركين والنصارىٰ واليهود وغيرهم، إذ يقول جلّ شأنه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[٢].

لقد قال المشركون هذه المقولة ، وهم يعلمون أن الرسول ﷺ كان أمياً، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة ، كما أن المشركين كانوا يعلمون حقيقة هذا الرسول ﷺ، فقد نشأ بين أظهر قومه من مولده إلىٰ أن بعثه الله تعالىٰ ، وهم يعرفون صدقه ونزاهته وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور، وسائر الأخلاق الرذيلة، حتىٰ إنهم سموه بالأمين عليه الصلاة والسلام، وإذا كان قومه يعلمون هذا منه، ومع ذلك فقد افتروا علىٰ الله الكذب، وقالوا: إن القرآن والشريعة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام أساطير الأولين، وإنها مما كتبه له بعض الرهبان من النصارىٰ ، فلا غَرْوَ إذن لمن لم يعرفه ـ أمثال الأدباء الإنجليز ـ أن يقولوا أيضاً منكراً من القول وزوراً ، كما قالت قريش من

(١) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان ٤ـ٥ .

قبل، وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون .

خلال حديثنا عن أعمدة رجال النهضة في بريطانيا أشرنا إلى السير توماس مور، الذي كان من الأوائل المنادين بالثورة على الكنيسة والدين، ودعوته الصريحة إلى الدراسات الإنسانية، وإلى الفكر العلماني، ولا أدلَّ على ذلك من كتابه الذي بعنوان « الطوبيا » Utopia ، الذي يعبر عن نفسية هذا الكاتب المعقدة المزدوجة، ومزاجه غير الطبيعي، حتى في أسلوبه .

وفي خضم كتاباته النثرية ألف كتاباً عن الدين، وقد استغل الخلافات المذهبية، حتى في المسيحية بين الكاثوليك والبروتستانت، ومن ذلك عرَّج للحديث عن دين الأتراك، أي المسلمين، وأنهم غلاظ شداد مثلهم مثل المتنطعين في المسيحية ورهبانها[1]. هكذا يقدح مور في الأديان؛ لأنه لم يعرف قيمة التراث الديني - خصوصاً في الإسلام - بسبب فكره العلماني .

إن القرآن الكريم كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، تعرض إلى الحملات الشرسة من الكتاب الإنجليز، والقول بأنه جمله من أساطير الأولين ، ومن المعلوم أن القرآن ترجم أول الأمر إلى اللاتينية في منتصف القرن الثاني عشر، ولم يترجم إلى الإنجليزية إلا خلال عصر النهضة من نص مترجم بالفرنسية، والغرض هو إخضاع القرآن للتحليلات والتأويلات التي خضع لها الإنجيل،

(١) انظر : Thomas More, The Dialogue Concerning Tyndale, Campbell, London , 1927,PP 305 - 306 .

وهل يستوي الأعمىٰ والبصير ؟ والمعروف أن معظم الترجمات ظهرت وبها كثير من الأغلاط والتشويه للمعاني، وسببه جهل ترجموه بالعربية من ناحية، ودوافع المترجمين المغرضة والتحريف من ناحية أخرىٰ ، وهذه الأخطاء قادت ـ بالطبع ـ كل من تكلم عن القرآن أن يقول منكراً من القول وزوراً، حتىٰ وقتنا الحاضر ، فيدعي من يدعي أن القرآن خلط من أقوال محمد ﷺ، وأقوال بعض الرهبان وبعض الأساطير، والعمل علىٰ دحضه، وتكذيب قصصه وتشريعاته . وقد قال الرحاله الكاتب السير توماس هربرت بأن القرآن الكريم كله كذب وأساطير وخرافات [(١)].

ومن الكتاب المشهورين في مجال النثر الأدبي في عصر النهضة : السير والتـــر رالي (١٥٥٢ـ١٦١٨م) Sir Walter Raleigh ، وهو من الأدباء المثقفين ثقافة عالية، ومن الذين درسوا بجامعة أكسفورد، وكان صديقاً حميماً للشاعر الإنجليزي إدموند سبنسر، الذي قدم له السير رالي في كثير من مؤلفاته مقدمة كتبه، كما في قصيدة « ملكة الجان » The Faerie Queen . ولقد كتب السير رالي كثيراً من الكتب؛ منها : كتابه «تاريخ العالم» The History Of The World ، وقد ظهر عام ١٦١٤م، والجزء الأول من الكتاب يتعلق باليهود والمصريين وأساطير الإغريق وتاريخهم. والمعروف أن كتب النثر المتعلقة بالنصوص التعليمية لا تكاد تخلو من بعض النماذج من كتابات

(١) انظر: Thomas Herbert, Some Years Travels into Divers Parts of: Asia and Afrique, London, 1638, P.P. 262 - 267 .

السير رالي ؛ إذ إن أسلوبه يعد نموذجاً جيداً للنثر الأدبي في عصر النهضة ، الذي تطور فيما بعد في اللغة الإنجليزية . ومن كتب النثر التي تناول فيها السير رالي الإسلام كتاب بعنوان حياة وموت محمد The Life And Death Of Mahomet ، وفيه يتحدث الكاتب عن النبي محمد ﷺ مع كثير من المغالطات والأخطاء التاريخية وتزوير الحقائق والأحداث ، فيقول : إن الرسول ﷺ أخذ المدينة عنوة وبقوة السيف ، وفي مكان آخر يقول : إنه دخل المدينة سلماً ، ورحب به أهل المدينة ترحيباً حاراً ، بصفته خليفة أو ملكاً لهم . ويضيف قائلاً : إن محمداً ﷺ ولد يوم الجمعه ، وأنه جعل ذلك اليوم هو اليوم المقدس في الأسبوع . نجد المؤلف ينكر نبوة الرسول ﷺ ، ويصفه بالملك ، ويدلس حقيقة اليوم الذي ولد فيه ، ويقول : إنه ولد يوم الجمعة ، وما إلىٰ ذلك من الأقوال(١) .

وإذا ما تناولنا الحديث عن الأدب المسرحي في هذا العصر ، فإنه قد تطور وازدهر إلىٰ أن وصل ذروته في عهد الملكة إليزابث الأولىٰ ، حيث ظهر عدد كبير من مشاهير الأدب المسرحي ، يتقدمهم وليم شكسبير ومعاصروه ومن جاء قبله أو بعده من الأدباء ، أمثال ربورت جرين Robert Greene ومارلو Marlowe . ويعد الأدب المسرحي الضرب الأدبي الذي طغىٰ علىٰ أنواع الأدب الأخرىٰ في عصر النهضة ، علماً بأن هذا اللون من الأدب لم

(١) انظر : Sir Walter Raleigh, The Life and Death of Mahomet, the Conquest of Spaine, London, 1637, P.P. 15 - 22.

يعرف في الأدب الإنجليزي إلا بعد القرن التاسع الميلادي بعد الغزو النورماندي، عندما بدأ النورمانديون في تأليف المسرحيات الدينية المقدسة، التي تحكي قصص الإنجيل والمعجزات والأسرار والأخلاق.

ومنذ ذلك الحين والأدب المسرحي يعد مؤسسة دينية تقدم للجمهور صور الحياة الدينية بقصد تعليم الناس أمور الدين وتوعيتهم، وكان هذا هو حال المسرح في بداية ظهوره حتىٰ عصر النهضة، حتىٰ إن العروض المسرحية كانت لا تقدم إلا في الكنائس فقط، وكان الرهبان هم الذين يقومون بالتمثيل، ولا يسمح لغير رجال الدين أن يقوموا بذلك؛ لأن الدين وأغراضه من اختصاص القساوسة والرهبان حسب مراتبهم الدينية، وظل الأمر كذلك حتىٰ عام ١٢٦٤م؛ إذ لم يكن أحد يستطيع أن يمثل دور المسيح عليه السلام سوىٰ البابا لرفعة مرتبته الدينية.

ولا شك أن البذور الأولىٰ للأدب المسرحي في تاريخ الأدب الإنجليزي كانت ذلك الموروث الأدبي من المسرحيات الدينية، التي انتهت مع نهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة، حيث خرج دور التمثيل من أيدي الرهبان ومن الكنائس إلىٰ أيدي الأفراد من الأدباء والممثلين المحترفين والهواة. ومع عهد الملكة إليزابث الأولىٰ، فإن الفن المسرحي (وبعد خروجه من الكنائس) بدأت حركة تمثيله في بعض الدور الخاصة، وأفنية الحدائق العامة ومتنزهات الجمهور، ولم تكن المسارح المعروفة حالياً قد أقيمت حتىٰ تم تأسيس أول مسرح في عام ١٥٧٦م في أطراف مدينة لندن،

وبعد ذلك توالت حركة بناء المسارح ودور التمثيل، وبدأ كُتّاب المسرحية في كتابة المسرحيات المأساوية، والمسرحيات التاريخية علىٰ منهج الأديب الإيطالي سينيكا، الذي كان لإنتاجه الأدبي كبير الأثر في المسرحية الإنجليزية، كما يتضح في كتابات توماس نورمن وتوماس سكافيل من حيث الأسلوب، وطريقة الحوار، ونظام الشعر الحر والشعر المرسل ، فلقد كتب توماس كد Thomas Kyd مسرحية بعنوان « المأساة الإسبانية » The Spanish Tragedy ، وتبع ذلك ظهور مسرحيات الملهاة، التي تدين بالفضل إلىٰ الملاهي الرومانية في نشأتها عندما كتب نيكولاس أولدال (١٥٠٥-١٥٥٦م) Nichollas Uldall مسرحية بعنوان Ralph Roister Doister ، كما أن جورج بيل (١٥٥٨ - ١٥٩٧) George Peele كتب مسرحية بعنوان حكاية الزوجات العجائز The Old Wive's Tales .

ونعرج بالحديث هنا لنذكر روبرت جرين (١٥٥٨-١٥٩٢م) Robert Greene ومسرحيته المشهورة Frair Bacon And Frair Bungay . وهذا الكاتب تميز بأصالته وإبداع موضوعاته .

إن جميع هؤلاء الأدباء المسرحيين مهدوا السبيل لازدهار المسرحية في الأدب الإنجليزي، لتصل إلىٰ قمتها وعصرها الذهبي، متمثلة في أعمال وليم شكسبير ومعاصريه. ولا ننسىٰ أن نذكر بن جنسون (١٥٧٣ - ١٦٣٧م) Ben Jonson ، أحد أعلام الحركة الأدبية المسرحية في عصر النهضة، الذين تابعوا الفكر الكلاسيكي ، وكان ممن مهد السبيل لظهور

الإنتاج الأدبي لكثير من أعمال شكسبير، حيث كان جنسون أكثر أصالة في إنتاجه من شكسبير، مع درايته الواسعه بالأدب الكلاسيكي ؛ لعلمه وخبرته ومهارته بالفن المسرحي، وكان على دراية واسعة بمفهوم السخرية، ومفهوم الهجاء، ومفهوم المأساة في معناها الاصطلاحي والفني، وقد كتب عدداً كبيراً من المسرحيات منها :

1- Everyman in his Humour .
2- The Devil is an Ass .
3- The Alchemist .
4- Cynthia Revels
5-Volpone.

ومن أدباء المسرح الذين سبقوا شكسبير ، وكان لهم إسهامات في دفع عجلة المسرح إلى عصره الذهبي، نذكر كُلاً من جون مارستون (١٥٧٥-١٦٣٤م) John Marston، ومسرحياته التي اصطبغت بالصبغة الهزلية المأساوية، وقد استفاد شكسبير في كتابة بعض مسرحياته من هذا النوع ، كما في مسرحيتي « دقة بدقة» Measure For Measure ، «ومسرحية العاصفة » The Tempest. ولقد كتب مارستون عدداً من المسرحيات الجيدة في موضوعها وأسلوبها .

ثم يأتي بعد ذلك توماس ديكر (١٥٧٠-١٦٣٢م) Thomas Dekker، الذي يذكر النقاد والقراء بسلفه الكاتب روبوت جرين ؛ ذلك أن ديكر اشتهر بمسرحيته The Honest Whore التي اتسمت بالصور الواقعية في تصوير المجتمع مع بعض اللمسات الرومانسية لمفهوم الحب والزواج .

وأخيراً نذكر جون فليتشر (١٥٧٩-١٦٢٥) John Fletcher ، وقد كتب ما يزيد عن خمس عشرة مسرحية، منها :

1- The Mad Lover .
2- Valentinian.
3- Wit Witout Money.
4-The Faithful Shepheredess.

وهذا الأديب معروف بأنه كتب أيضاً بعض المسرحيات بالتعاون مع ماسينجر وجنسون، وربما شكسبير ، ويعد أول من نادىٰ بالإنتاج المشترك بين أديبين أو أكثر .

لقد كان كريستوفر مارلو (١٥٦٤-١٥٩٣ م) Christopher Marlowe أحد معاصري شكسبير ، وقد ولد من أب صانع للأحذية في مدينة كانتربري، وتعلم فيها جميع مراحل التعليم ، ثم بعد ذلك التحق بجامعة كامبردج، وكان عضواً في جمعية نوتنجهام المسرحية، التي قدمت جميع مسرحياته التي كتبها ضمن إنتاجه الأدبي الذي بدأه عام ١٥٨٧ ، ومن أهم أعماله المسرحية نذكر :

1 - Tamburlaine.	تيمورلنك
2 - Dr Faustus .	الدكتور فاوستس
3 - The Jew Of Malta .	يهودي مالطه
4 - Edwar II .	إدوارد الثاني

ومن المعلوم أن من إسهامات مارلو في عصر النهضة أنه ترجم بعض الأعمال الأدبية للأديب الروماني أوفيد Ovid .

وتعد مسرحية « تيمورلنك » من أشهر ما كتبه مارلو عن الشرق الإسلامي والمسلمين ، وهي مسرحية في جزأين كبيرين، في كل جزء خمسة فصول، وعدد كبير من المشاهد، وتدور جميع الأحداث في بلدان العالم الإسلامي، وتمثل الصراع القائم بين عدد من الشخصيات الإسلامية، مثل ملك الفرس تيمورلنك والسلطان العثماني بايزيد. والجزء الثاني من المسرحية يرسم الصراع بين المسلمين الأتراك والنصارىٰ(١)، والمسرحية كلها تظهر المسلمين بصورة الأغبياء والمغفلين، وهي مليئة بالازدراء والتحقير للإسلام والمسلمين، وما تمثله من سقوط الخليفة العثماني بايزيد. والمسرحية تعبر عما يداخل نفوس النصارىٰ من حقد دفين وكره شديد للإسلام في ذلك العصر، كما تمثله قوة الحكم العثماني(٢) .

والحديث عن النبي محمد ﷺ في مسرحية « تيمورلنك » يقوم علىٰ أسطورة ملفقة من وضع النصارىٰ، وهي أن جثمان الرسول عليه الصلاة والسلام - بعد وفاته - وضع في تابوت حديدي معلّق في الهواء بين السماء والأرض بواسطة أحجار مغناطيسية موضوعة علىٰ ظهر الكعبة في مكة المكرمة، وذلك يمثل ضريحه الشريف عليه السلام :

By Sacred Mahomet, the friend of God
Whose holy Alcaron remains with us
Whose glorious body when he left the world

---

(١) انظر: Gilford Leech, Christopher Marlowe Poet for the Stage, A.M.S. Press, New York, 1986, P.P. 203 - 209 .

(٢) انظر : Fredson Bowers (ed.), The Complete Works of Christopher Marlowe, Cambridge University Press, 1981, vol.1, P.P. 80 - 92.

Closed in a coffin mounted up the air
And hung on stately Mecca's temple roof
I swear to keep this truce inviolable .[1]

إن الواقع يكذب القول بأن ضريح الرسول ﷺ موضوع في تابوت معلق على ظهر الكعبة ، أو أنه معلق على ظهر مسجده بالمدينة المنورة . والعرب ما كانت تعرف التابوت ، ولكنهم يعرفون اللحود والدفن في الأرض ، ومعلوم قول أبي بكر الصديق عندما اختلف الصحابة في الموضع الذي يدفن فيه عليه الصلاة والسلام بعد أن قبض ، فقال رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض » ، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه فحفر له تحته»[٢] .

وقد شاع هذا المفهوم لدى الإنجليز وأدبائهم ، حتى إنهم أصبحوا يضربون به المثل ، كالذي نشاهده على ألسنة الناس في بريطانيا ، إذ إن أي كلام أو سلوك غير مفهوم يتسم بالغموض يقولون عنه : ذلك كضريح محمد Like Mahomet's (Tomb) Coffin ، وهذا ما نجده في ثنايا المسرحية ، ومنها الذي كان يتحدث فيه أوركانز ملك ناتوليا مع بعض جلسائه من المسلمين ، فيقسم لهم بأنه سيعقد هدنة مع ملك هنغاريا ، ويقول : بمحمد المقدس صديق الرب وبقرآنه العظيم ، وما إلى ذلك من عبارات الحلف غير المشروع ، ولكن ليس بعد الكفر ذنب .

من المعلوم أن الكفار والمشركين والمنافقين كانوا يقسمون بالله ، وقد

(١) المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٢) سيرة ابن هشام ، باب دفن الرسول والصلاة عليه ، ٤/ ٣١٤ تحقيق مصطفى السقا وزميله .

ذكر القرآن حالهم، وفي ذلك يقول جل وعلا :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[١].

وقوله جل وعلا : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[٢].

فإذا كان هذا حال من كفر بالله يعتد بالحلف بالله ، فمن باب أولىٰ وبالأحرىٰ ألا يحلف المسلم إلا بالله ؛ لأن من حلف بغير الله ، فقد أشرك ، وإن الشرك لظلم عظيم، بل إنه أعظم الذنوب عند الله ، وهو أن يجعل المسلم لله نداً وقد خلقه. قال ﷺ : « من حلف بغير الله فقد أشرك»[٣]. لذا فيحرم علىٰ المسلم أن يقسم بالكعبة ، وبالنبي ، وبلحية النبي ، وبصحابة النبي ، ويحرم الحلف بالقرآن وبالأمانة. قال عليه الصلاة والسلام : «من حلف بالأمانة فليس منا »[٤]، ونهىٰ ﷺ عن الحلف بالآباء ، فقال : « لا تحلفوا بآبائكم ، ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولاتحلفوا إلا وأنتم صادقون »[٥].

ومسرحية « تيمورلنك » تعد من المصادر الأسياسية للحديث عن الإسلام والمسلمين في الأدب المسرحي إبان عصر النهضة ، والتي أعطت

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٦ .

(٢) سورة النور ، الآية ٥٣ .

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور ٣/ برقم ٣٢٥١ ، وكذا رواه أحمد والترمذي والحاكم.

(٤) رواه أبو داود ٣/ ٣٢٤٨ ، كذا رواه النسائي أيضاً.

(٥) المرجع السابق.

مشاهير النقاد والمشاهدين متنفساً لأحقادهم الصليبية، خصوصاً في المشهد الذي يظهر فيه انتصار الطاغية تيمور لنك على الخليفة العثماني، وما تبع ذلك من مشاهد أخرى، صورت التنكيل والكيد والمكر الذي لحق بالمسلمين، ويظهر تيمور لنك بعد انتصاره وهو يندد بالرسول عليه السلام وبالقرآن الكريم، وكتب السنة المطهرة، فيقول :

Now, Casane, where's the Turkish Alcaron
And all the heaps of supersitious books
Found in the temple of that Mahomet
Whom I have thought god? they shall be burnt.(1)

هذا هو فكر مارلو وإحساسه عن الإسلام والقرآن وكتب الحديث، فقد ظن أن الرسول إله، فظهر له الأمر على غير ذلك. لذا، فهو يرى حرق كتبه المقدسة؛ القرآن الكريم، وكتب الصحاح وكتب السنة الشريفة؛ لأنها في نظره أساطير وأكاذيب؛ ولأنها الحق الذي يزاحم النصرانية. وفي ثنايا مسرحيته نجد مارلو يتحدث عن شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، ويصفها بأنها مرّة كالعلقم، وأنها كرؤوس الشياطين.

That Zoacom, that fruit of bitterness
That in the midst of fire is ingraffed
Yet flourishth as flora in her pride
With apples like the heads of damned fiends(2)

عندما تحدث الكاتب عن شجرة الزقوم، فقد أخطأ القول وعكس

---

(١) انظر : William George Smith (ed.), The Oxford Dictionary of English Proverbs, P. 397.

(٢)المرجع السابق، ص ١٧٦.

الحقيقة، ذلك أن شجرة الزقوم هي طعام الكفار بالله، المكذبين برسالة نبيه ﷺ، وليست طعام المسلمين، وهذا نص القرآن في محكم التنزيل في الحديث عن حقيقة هذه الشجرة؛ قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾[(١)].

وبعد الإشارة إلىٰ مارلو وما كتبه عن الإسلام في مسرحيته «تيمورلنك» ننتقل للحديث عن معاصره الشهير في الأدب الإنجليزي والآداب العالمية، ألا وهو وليم شكسبير.

لقد ولد شكسبير بمدينة سترادفورد بمنطقة واريك شاير يوم الثالث والعشرين من إبريل عام ١٥٦٤م، وكان والده جون شكسبير تاجراً من تجار الطبقة الوسطىٰ في المجتمع، وأمه ماري أردن تنتمي إلىٰ أسرة من مُلاَّك العقارات. تلقىٰ تعليمه في حياة والديه حتىٰ وصل إلىٰ ما يعادل المرحلة الثانوية في أيامنا هذه، وهو ما يعرف في بريطانيا باسم Grammar School، وهي مدرسة تعنىٰ وتؤكد علىٰ تدريس اليونانية واللاتنية.

وكانت برامج الدراسة في هذه المدارس، التي اشتهرت باسم مدارس الأجرومية الحرة، تقتصر علىٰ دروس مقررة في أنحاء البلاد الإنجليزية، يتلقىٰ فيها التلاميذ بعض مبادئ القراءة والحساب، وطرفاً من

---

(١) سورة الدخان، الآيات ٤٣ ـ ٤٧.

اللغة اللاتينية، ويقرؤون فيها حكايات أيسوب، ومختارات من شيشرون وفرجيل وهوراس وأوفيد، ويمثلون بعض مناظر بلوتس وسينيكا، ويستظهرون نبذاً من كتابات البلغاء في القرون الوسطى. ولا يدرسون من الإغريقية إلا ما يمكنهم من مراجعة الآيات في الكتب الدينية[1].

ولما بلغ الثامنه عشرة من عمره تزوج فتاة تكبره بثمان سنوات، وهي آن هاثوي، فولدت له بنتاً خلال السنة الأولى من زواجهما، وفي عام ١٥٨٥م، ولدت له توأمين ابنةً وابناً. ومن المعلوم أن شكسبير ترك مسقط رأسه عام ١٥٨٦م، حيث استقر به المقام في لندن حتى عام ١٦١١م، ففي لندن زعموا أن شكسبير وصل إليها بغير زاد وبغير معين، فقاده حبه للتمثيل إلى باب المسرح، ولبث يتردد عليه بغير عمل يستطيعه في داخله أو خارجه غير حراسة الخيل لمن يرتادونه من النبلاء والنبيلات. ولم يلبث غير قليل حتى لفت إليه أنظار الرواد، فجعلوا يسألون عنه ويتفقدونه، ولا يسلمون خيلهم إلى غيره إلا إذا كرروا السؤال عنه فلم يجدوه. وتكاثر الطلب في حراسته، فاستعان بصبيان له يجيبون النداء عليه، ويقول: حاضرهم لمن يسأله عن ولد شكسبير أنا صبي شكسبير[2]. وما إن جاء عام ١٥٩٢م حتى ذاع صيته ممثلاً وكاتباً مسرحياً، إذ إنه زاول التمثيل بعد فترة من عمله سائساً عند باب المسرح، وبعد مزاولة التمثيل خاض في الكتابة

(١) عباس محمود العقاد، التعريف بشكسبير، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤.

وإنتاج المسرحيات .

هذه نبذة مختصرة عن حياة شكسبير ، الذي لم تتعد ثقافته العلمية المرحلة الثانوية ، إذ لم يكن كأقرانه من سابقيه ومعاصريه ممن تعلموا بالجامعات ، ودرسوا فن الأدب المسرحي وأتقنوه . إنه الشاعر الذي حاول نظم الشعر وهو شاب يافع ، واكتفى بالتعليم الذاتي لما كان يقرؤه في أوقات فراغه في مجال فن المسرح الروماني ، والتاريخ الإنجليزي ، والأساطير والحياة الاجتماعية لبلاده [1] . ما نذكره عن شكسبير الممثل في قراءاته عن الحياة الإنجليزية والتاريخ الإنجليزي ، خصوصاً في عصر النهضة ، وهو عصر شكسبير الذي يسمى بعصر إحياء العلوم ، أو اسم عصر الدعوة الإنسانية الذي سبق عصر النهضة بقليل ، بدءاً من فتح المسلمين القسطنطينية ، وما كان لانتشار الحضارة الإسلامية من أثر في النهضة والإحياء على الدول الأوربية التي ثارت في طلب الإصلاح ، إذ ساهم في ذلك العلماء والرهبان الذين هاجروا من الدول البيزنطية ، وكذلك تلاميذ العرب في غرب أوروبا بفرنسا وجنوباً بالأندلس وصقلية ، ولكن لم يكتب للجزر البريطانية هذا البعث المبكر ، الذي أصاب دول أوروبا الأخرى ، بسبب عزلتها الجغرافية ، ولكن هذا قاد أخيراً إلى ثورة مطبقة ، ثورة مشتركة ، إذ دخلت إنجلترا المذهب البروتستانتي ، فكانت تلك بمثابة ثورة من طرفين ، ثورة

---

(١) انظر : C. J. Sisson, Shakespeare, British Council & Longman, London, 1971, P.P. 3 - 9 .

الملوك على سيطرة الكنيسة الكاثوليكية في روما، وثورة الشعب لخلع الرئاسة الدينية المفروضة عليه [١].

هذه هي الخلفية المكونة للأديب الشاعر وليم شكسبير، الذي نظم الشعر، وأبقى تراثاً خالداً في جميع أنحاء العالم، بما أنتجه من مسرحيات عالمية، منها التراجيديا، ومنها الكوميديا، ومنها التاريخية. لقد كتب شكسبير سبعاً وثلاثين مسرحية راجت وترجمت في معظم الآداب العالمية في شرق الدنيا وغربها، فأصبحت تراثاً عالمياً.

والواضح أن شكسبير تأثر في إنتاجه الأدبي وتكوينه الفكري بالتراث الكلاسيكي، وتراث القرون الوسطى بالذات، ومنه التراث الروماني الذي تأثر به أكثر من تأثره بالتراث الإغريقي، كما يتضح من قراءته لسينيكا وأوفيد، وغيرهما من الأدباء الرومان، وبالذات بلوتارك Plutarch .

لقد اطلع شكسبير على أعمال الأدباء الرومان في صورتها المترجمة؛ لأنه لم يكن يجيد اللغات التي كتب بها التراث الكلاسيكي، لقد اعتمد شكسبير على تلك الترجمات التي قام بها توماس نورث (١٥٣٦-١٦٠٥م) Thomas North ، وبالذات ترجمة أعمال بلوتارك، وما فيها من ذكر لأعمال وتراجم للأدباء وحياتهم، وكذلك عن الشخصيات الرومانية التاريخية [٢]، وهذا ما أثر تأثيراً مباشراً في مسرحيات شكسبير

(١) انظر: Emile Legouis, A Short History of EnglishLiterature,P.P. 80 - 83.

(٢) عباس محمود العقاد، التعريف بشكسبير، ص ٥-١٣.

ذات الصبغة الرومانية، وتصويرها على ما كتبه بلوتارك ، كما نجد على سبيل المثال في مسرحية تيمون الأثيني Timon Of Athen ، فعلى الرغم من أن المسرحية تتعلق كما يشير عنوانها بموضوع عن الأغريق، إلا أننا لا نجد سوى ذكر لثلاثة أسماء إغريقية ، وبقية الأسماء رومانية ، وكما أن صورة أثينا في المسرحية صورة باهتة، بعيدة كثيراً عن الحقيقة، بل ويصور مجلس الشيوخ الروماني مما يدل على أن الأثر اليوناني أقل من الروماني في الخلفية الأدبية للإنتاج الأدبي لشكسبير .

إذن، فالتراث الثقافي الذي ينتمي إليه وليم شكسبير هو التراث الغربي بحدوده الجغرافية الواسعة، من اليونان شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ويشتمل على مكوناته الأساسية، وهي الفكر اليوناني والفن الروماني والدين المسيحي. وركيزة الفكر اليوناني وتشريعات الدين المسيحي لهما بالغ الأثر في تشكيل الإنتاج الأدبي وتوجيهه في الغرب بكل آدابه، في ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا وأمريكا وروسيا . . . إلخ. وقد امتد فيه هذا التأثير إلى حين العصر الحديث، وخصوصاً بعد الثورات القومية، كما في فرنسا وإسبانيا مثلاً، والثورات الصناعية في معظم بلدان أوربا ، كما في بريطانيا على سبيل المثال، إذ الملاحظ أن المسرحية كانت تحت تأثير التوجيه الديني في اختيار الموضوعات، أما فيما يتصل بتأثير الفكر الإغريقي، فقد ظلت المسرحية ـ كما أشرنا سابقاً ـ تستمد شكلها العام وموضوعاتها وتقاليدها ومادتها من هذا التراث، حتى ليمكن أن يقال: إنه لولا المسرحية

اليونانية، لما عرفت الآداب الأخرىٰ هذا اللون الأدبي علىٰ الإطلاق.

هكذا إذن تأثر شكسبير بالتراث الكلاسيكي بصورة مباشرة، فقد سبق أن أوضحنا أن الرومان نقلوا الفن المسرحي إلىٰ أدبهم، وتأثروا به تأثراً كبيراً، فقد كانت الإمبراطورية الرومانية مزدوجة اللغة، إذ كانت الإغريقية لغة الحياة الرفيعة يقرأها ويكتب بها أبناء الطبقة العليا في المجتمع، في حين أن اللغة اللاتينية كانت للطبقات الأخرىٰ، وبعد ذلك أصبحت اللغتان تعبران عن تراث واحد، وهو التراث الكلاسيكي، إلىٰ أن تكونت الدولة الرومانية الشرقية، فأصبحت لغتها الإغريقية، وكانت اللاتينية لغة الدولة الرومانية الغربية، وظلت الإغريقية سائدة في الدول الرومانية الشرقية إلىٰ حين الفتح الإسلامي التركي للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، وهذا هو بداية عصر شكسبير، إذ إنه «هو عصر النهضة في إبان ازدهاره، وهو العصر الذي اصطلحوا علىٰ تحديده من منتصف القرن الخامس عشر إلىٰ نهاية القرن السابع عشر، ويبدأ من فتح القسطنطينية، وينتهي عند أوائل القرن الثامن عشر»(١).

إن شكسبير معروف في الأوساط الأدبية العالمية بأنه كتب عن اليهود بسبب كره المسيحيين لليهود، لقد كتب شكسبير مسرحية تاجر البندقية، واشتهر عمله هذا، وعلىٰ أن شخصية شيلوك تمثل النموذج السليم لليهودي المرابي الجشع، وأوضح دليل ملموس يحدد موقف شكسبير بفكره

(١) المرجع السابق، ص ٥.

النصراني، هو إظهار عدالة القانون المسيحي في مشهد المحاكمة التي تعرض لها شيلوك، وانتهىٰ الأمر بخسارة ذلك اليهودي لأمواله . إن بغض النصارىٰ لليهود في إنتاج شكسبير المسرحي لم يقتصر علىٰ مسرحية تاجر البندقية ، بل إنه امتد ليشمل عرضاً لليهود والحديث عنهم في ست مسرحيات أخرىٰ له، هي :

١ ـ سيدان من فيرونا Two Gentlemen Of Verona

٢ ـ خاب سعي العشاق Love's Labour Lost

٣ ـ حلم منتصف ليلة صيف A Midsummer Night's Dream

٤ ـ هنري الرابع Henry IV

٥ ـ لجاجة في غير طائل Much Ado About Nothing

٦ ـ مكبث Macbeth(١)

وكون شكسبير يكره اليهود لظاهر سلوكهم وأفعالهم ومعاملتهم مع سائر الأمم والشعوب ـ كما تشهد بذلك كتب الأديان والتاريخ والأدب ـ فإن هذا الأمر لا ينجرُّ علىٰ المسلمين، الأمر الذي يجعل شكسبير يهزأ بالمسلمين، ويسخر بدينهم وبنبيهم محمد ﷺ؛ ففي مسرحيتين من مسرحياته تحدث شكسبير عن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم؛ المسرحية الأولىٰ: مسرحية الملك هنري الرابع King Henry IV ،

(١) عدنان محمد وزان ، اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير ، الدار السعودية للنشر ، جدة ، ١٤٠٩ ، ص ١٥٥.

وهذه المسرحية تقع فى جزأين، وموضوعها يتعلق بثورة أحد حكام المقاطعات الإنجليزية على الملك هنري ومحاولة إقصاء الملك عن الحكم، لكن الأمر انتهى بانتصار الملك، وهزيمة الوالي المتمرد حاكم مقاطعة ورشستر، وعلى لسان هوتسبر بن حاكم إحدى المقاطعات، وفي خضم المعركة ضد الوالي يتحدث هوتسبر عن حبه لوطنه، وأنه جادٌّ فيما هو فيه، وأنه لا مجال للهو واللعب كما يلعب المسلم بإلهِهِ محمد:

Away
Away, you trifler ! love, I love thee not
I care not for thee Kate; this is no world
To play with Mammets and to tilt with lips(1)

إن شكسبير يرى في الإسلام اللهو والغرور والتهريج، بدءاً بالمعبود محمد ﷺ إله المسلمين، كما يظن، وأنه لا فائدة من الكلام مما لا طائل وراءه.

وفي مسرحية الملك هنري السادس King Henry VI، نرى شكسبير مرة أخرى يتعرض للإسلام. ومسرحية هنري السادس مسرحية تاريخية مثل مسرحية هنري الرابع، والمسرحية تقع في ثلاثة أجزاء رئيسة؛ الجزء الأول يتعلق بحروب بريطانيا مع فرنسا، والجزء الثاني يتصل بزواج الملك هنري بإحدى الجميلات من مقاطعات يورك، وهي فتاة مدسوسة على الملك في حكمه وملكه، والجزء الثالث يتحدث عن حرب الملك ضد حاكم

---

(١) انظر: Peter Alexander (ed,.), The Complete Works ofWilliam Shakespeare, Collin, London,1971,P.490.

مقاطعة يورك، وانتهاء الأمر بمحاصرة الملك واستسلامه وإبعاده عن الحكم، حتىٰ قتل من قبل الأمير ريتشارد حاكم منطقة كولشستر.

وفي مسرحية هنري السادس يتحدث شكسبير مرة أخرىٰ عن الرسول ﷺ بقصة مختَلَقة، كلها إفك وبهتان، وأنه عليه الصلاة والسلام دَرَّب حمامة من الحمام علىٰ أن تأكل الحب من فوق أذنيه، أو من فوق رأسه، ثم عرض ذلك علىٰ الناس، وأوضح لهم أن تلك الحمامة هي الروح القدس، الذي يُلقي عليه الوحي الذي يأتيه من السماء. وفي أثناء حصار الملك يصيح الأمير تشارلز عما يأتيه من أوامر من الملك المحاصر، ويقول متعجباً ومستنكراً وساخراً بالرسول ﷺ، فيقول: إن كان محمدٌ يأتيه الوحي من الحمامة، فليأتكم الوحي من النسر:

Was Mahomet inspired with a dove ?
Thou with an eagle art inspired then[1]

وبقوله هذا يشير شكسبير إلىٰ صغر شأن الحمامة وحقارتها في ذاتها إذا ما قورنت بالنسر، وذلك كناية إلىٰ الإسلام وصغره.

إن القرآن الكريم والشريعة الإسلامية من وحي الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ رسوله وصفيه من خلقه محمد بن عبدالله ﷺ، أوحاه الله إليه بواسطة روح القدس جبريل عليه السلام، ومعلوم في كتب الأمم السابقة حقيقة نبوته وبعثته وشريعته عليه الصلاة والسلام؛ يقول المولىٰ جل وعلا:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ

(١) المرجع السابق، ص ٥٩٣.

لتكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ (١).

وأما الحمامة التي توحي إلىٰ الرسول ﷺ، أو أنها مصدر الوحي، فهو ما عبثت به أيدي الكتاب الإنجليز، الذين يريدون أن يصدوا عن الحق وعن الطريق المستقيم بتلفيق الأكاذيب، ونصب الأحابيل، وإعمال هاجس الخيال وخلط الحقيقة، وتلبيس الحق.

والمعروف أن المسرحيات التاريخية لشكسبير كلها يتخللها الفكر المسيحي، وفكرة الحروب القديمة منذ عهد الصليبين. وتتضمن المسرحيات بعض الاستشهادات الدينية الموجودة في العهد القديم والعهد الجديد (٢). لذا فإن مسرحيتي الملك هنري الرابع ، والملك هنري السادس هي ضمن سلسلة المسرحيات التاريخية في الأدب الإنجليزي ، وتعد بمثابة سجل تاريخي لبريطانيا وحياة الملوك والأمراء عبر التاريخ، منذ مجيء الأنجل الساكسن وحتىٰ الآن . وفيها تسجيلات لتراث الإنجليز الذي يقوم في ركائزه الأساسية علىٰ الدين المسيحي والحضارتين الإغريقية والرومانية بطقوسها الوثنية . فلا غرو إذن أن تعبر هذه المسرحيات عن علاقة الإنجليز بغيرهم من الأمم ونظراتهم إليها، خصوصاً إذا ما عرفنا أن العصر الذي ظهر فيه شكسبير - وهو عصر النهضة - توافق مع المد الإسلامي في أوربا، وقد سبق هذا المد

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٢-١٩٧ .

(٢) انظر: Ivor Brown, Shaespeare, Collin, London, 1946,p.p.246 - 251.

فتح القسطنطينية معقل النصرانية في شرق أوربا، الأمر الذي زاد ألم النصارىٰ وحقدهم علىٰ المسلمين الذين توالت انتصاراتهم عليهم . فما كان منهم إلا النيل من الإسلام وأهله بسلاح اللسان ، وهو أمضىٰ من سلاح السنان، كما جاء في المثل العربي « كلم اللسان أنكىٰ من كلم السنان» ولعلنا نذكر قول الشاعر الذي يقول :

وقد يرجىٰ لجرح السيف برءٌ ولا برء لما جرح اللسانُ

فالحرب تصبح في ذمة التاريخ ، وقد ينسىٰ الإنسان آلامها علىٰ مر السنين والأعوام ، ولكن الكلمة تبقىٰ خالدة تتناقلها الأجيال خلف عن سلف . ولقد غمز شكسبير الإسلام في معظم مسرحياته، حيث احتقر المسلمين ، وعرَّض بهم علىٰ أنهم الأتراك الشرقيون البلهاء الوثنيون الملاحدة [(١)].

وينظر النقاد في بريطانيا، وفي العالم أجمع، إلىٰ شكسبير علىٰ أنه أديب عالمي ترجمت معظم أعماله إلىٰ لغات كثير من الأمم وآدابها، فأصبحت تراثاً إنسانياً ذا رسالة كبيرة في تاريخ الفكر الإنساني، ألغىٰ بها شكسبير الفروق والمفارقات الشعوبية والنعرات المذهبية ، ويقول البعض : تلك هي آية « الفكر الإنساني » [(٢)].

(١) والحديث عن شكسبير، وفكره النصراني سيكون محل بحث طويل ودراسة مستفيضه ننوي إخراجها قريباً بمشيئة الله تحت عنوان«التنصير في مسرحيات شكسبير» .

(٢) انظر : M.C. Bardbrook, Shakespeare the Craftsman, Chatto & Winduse, London, 1969,p.1.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم تتسع إنسانية شكسبير لتشمل الإسلام والمسلمين، وتبعد عن الباطل الذي به افترىٰ علىٰ نبي الإسلام الرسول الإنسان ؟ بل قال عنه ﷺ منكَراً من القول وزوراً فيما قدمناه من نماذج مما كتب في بعض مسرحياته . لكن هذه ليست هي الإنسانية ، وآية الفكر الانساني ، بل هي كوامن الفكر النصراني والحقد الصليبي في نفس هذا الكاتب الذي غلبت عليه شقوته، فقال بإفكه المبين ونثر شره المستطير .

ومن كتاب المسرحية الذين كتبوا عن الإسلام في عصر النهضة : يطالعنا اسم الكاتب الراهب جون بيل (١٤٩٥ ـ ١٥٦٣م) John Bale[1]، وهو مشهور بكتاباته المسرحية التي تقوم علىٰ الفكر المسيحي من المنظور الديني المتعلق بتاريخ الأديان، وقد اشتهر هذا الكاتب بمسرحيته الملك جون King Johan ، وهي أول مسرحية تاريخية في المسرح الإنجليزي خلال عصر النهضة ، وكانت بمثابة الإلهام المتوقد، والمصدر الرافد لكثير من مسرحيات شكسبير التاريخية، وعلىٰ الأخص مسرحية الملك جون King Jhon .

ومن المسرحيات الأخرىٰ التي كتبها بيل نذكر :

1 - John an Baptsytes Preachynge
2 - The Temptation of Our Lord
3 - Three Laws

وفي مسرحياته الدينية حاول جون بيل الدعوة إلىٰ المذهب

(١) بيل : أسقف مدينة أوسوري، اشتهر بكتاباته الحوارية والمناقشات والمناظرات الجدلية في التاريخ والدين والأدب ، ويعد الرائد الأول للمسرحية التاريخية في الأدب الانجليزي .

البروتستانتي، وتوظيف مسرحيات الإعجاز التي ظهرت في العصور الوسطي لتخدم الفكر البروتستانتي والأفكار الأخلاقية والعلمانية لخدمة التاريخ وأحداث الواقع ، كما في كتابه زواج الملك هنري الثامن مرتين The Two Marriages of Henry VIII .

وبالرغم من تأخر حركة النهضة التي ظهرت في أوربا قبل قرنين من الزمان من ظهورها في بريطانيا، بسبب موقعها الجغرافي وعزلتها عن بقية الدول الأوربية الأخرىٰ ، ولكن تأخر النهضة في بريطانيا قاد إلىٰ ثورة مطبقة في البلاد، ثورة مشتركة، ثورة الملوك الإنجليز علىٰ سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، ودخول بريطانيا المذهب البروتستانتي، وتم بذلك تأسيس الكنيسة الإنجليزية[1]، وبعد ذلك تمت ثورة الشعب لخلع الرئاسة الدينية المفروضة عليه ، وبما يخص الفكر البروتستانتي، فإن الأسقف جون بيل أخذ علىٰ عاتقه الترويج له، والمثال الواضح لذلك موضوعاً ومحتوىٰ: مسرحيته الملك جون التي فيها يعقد المؤلف صوراً مقارنة بين المذهب

(١) إن السبب الرئيسي الذي جعل بريطانيا تتخذ المذهب البروتستانتي، وتقيم الكنيسة الإنجليزية منفصلة عن الفاتيكان هو أن الملك هنري الثامن أراد أن يطلق زوجته لعدم رغبته فيها ، ولكن البابا لم يسمح له بذلك؛ لأن المعتقدات المسيحية الفاسدة تنص علىٰ أن ماعقده الرب لا يحله البشر أي: عقد الزواج. لهذا قرر الملك هنري أن ينفصل عن الفاتيكان، وأن يجعل كنيسة إنجلترا مستقلة تعمل بمقتضىٰ المذهب البروتستانتي الذي يسمح بالطلاق، الأمر الذي جعل هذا الملك يتزوج ، ويطلق لأكثر من ست مرات. راجع في ذلك دائرة المعارف البريطانية ، ج ٨ ، ص ٧٦٩-٧٧١.

الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي، ومن شدة امتهان جون بيل للمذهب الكاثوليكي، فإنه قد عبر عن كرهه لهذا المذهب، وجعله من أسوأ المذاهب السيئة، حتى إذا ما قورن بالإسلام، فإنه - أي الإسلام - سوؤه ليس كسوء الكاثوليك، إذ يقول:

As I Sayde afare I abhore to showe your doynges
The Turks, I dare say, are a thousand tymes better than you .(١)

وإن ذكر المؤلف أن الإسلام خير من المذهب الكاثوليكي، إلا أنه لم يقل بأنه أيضاً أفضل من المذهب البروتستاني. كيف يقارن ذلك، والله يقول:

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٢).

لا، لم يعلم ذلك تجاهلاً وجهلاً، إذ ذهب هذا الكاتب ليؤكد أن البروتستانت أفضل من المسلمين، حيث يقول:

I praye to God! Els I be dampned tyke a Turke .(٣)

هذه العبارة توضح نظرة الكاتب إلى المسلمين على أنهم أغبياء أذلاء محتقرون، وعلى أي حال فإن صورة المسلم في الأدب الإنجليزي إبان عصر النهضة لم تختلف كثيراً عما كانت عليه في السابق بالرغم من أن بعض الرحالة والتجار إلى البلاد الإسلاميه تحدثوا بشيء من الإيجابية عن بساطة

---

(١) انظر: Barry B. Adams (ed.), King Johan,The Huntington London&,San Marino, California,1969,p.137.

(٢) سورة القلم، الآيتان ٣٥-٣٦.

(٣) أنظر: Barry B. Adams (ed.), King Johan,P .58 .

الإسلام وكرم خلق المسلمين، كما يتضح ذلك في كتابات المؤرخ الرحالة توماس فولر Thomas Fuller في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»، الذي صدر عام ١٦٣٩م. وخفت حدة كره النصارى للمسلمين في عصر النهضة قليلاً بسبب الخلافات المذهبية التي نشبت بين البروتستانت والكاثوليك.

ومن الملاحظ أنه مع نهاية عصر النهضة توفر عدد كبير من الكتب والمصادر التي تتحدث عن المسلمين والبلدان الإسلامية، وعلى الأخص الدولة العثمانية فيما يظهر من كتب الرحالة وقصصهم عن بلاد فارس والمغول، وعن الهند وتركيا، كما يتضح ذلك في بعض مؤلفات كل من فاينز مورسون Fynes Moryson، وجورج سانديز George Sandys، والسير هنري بلونت Sir Henry Blount، كما أنه في هذه الفترة تم تأسيس بعض الشركات التجارية للأعمال الاقتصادية بين أوربا وبلاد المسلمين والشرق، فتأسست شركة موسكوفي Muscovy عام ١٥٥٥م، وشركة ليفنت (شركة الشرق الأدنى)، قامت عام ١٥٨١م، وأخيراً شركة شرق الهند East India، والتي أنشئت عام ١٦٠٠م. كل ذلك ساعد على كتابة التقارير عن الشرق وتصويره من خلال أقلام التجار والبحارة والرحالة والمبعوثين السياسين والسفراء.

الباب السادس

القرن السابع عشر

القرن السابع عشر

١٦٢٥ - ١٦٦٠ م

أشرنا في الفصل السابق إلى أن الدولة العثمانية بسطت نفوذها الواسع على شواطئ بلاد العرب من عدن والخليج العربي حتى سواحل الهند، وتحطمت أساطيل الأوربيين، وبلغت الدولة العثمانية أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني، فعمَّ نفوذها البحار الثلاثة: الأبيض والأحمر والأسود، فكانت سلطات العثمانين ممتدة من مكة المكرمة وعدن جنوباً حتى بودابست شمالاً، ومن بغداد شرقاً إلى الجزائر وحدود مراكش غرباً. هذا إلى جانب تعمير السلطان سليمان لبلاده بالطرق، ثم المنشآت الفخمة من المساجد والمدارس والرباطات ودور الشفاء، التي أقامها له سنان معمار الترك الأكبر، وسنان هذا هو الذي تمَّ على يديه تحويل كنيسة أياصوفيا تحويلاً نهائياً إلى مسجد جامع، وألحق بها جملة أبنية فخمة على الطراز الفارسي.

غير أن السلطان سليمان - في سبيل حرصه على النهوض بالاقتصاد والتجارة في بلاده - عمد إلى منح التجار الأجانب من الأوربيين بعض الضمانات التي توفر الأمن والطمأنينة لهم، ومنها حق التقاضي أمام قناصلهم، وصارت هذه الامتيازات - فيما بعد - حقاً مشاعاً ثابتا لكل النزلاء

الأجانب بكل أراضي الدولة العثمانية، وكل الأقطار التي يشملها نفوذها؛ فجرَّت بذلك على شعوبها كثيراً من المتاعب والأضرار.

ولقد ولع السلطان سليمان بالثقافة، حتى إنه نظم الشعر بنفسه، ودوَّن سيرته في تفصيل وصدق ووضوح، وقد ضمَّنها حروبه وكافة أعماله. وفي عهده ظهر جملة من الأدباء والمؤرخين المعروفين، ولكن هذا لم يستمر؛ لأن الضعف بعد وفاة هذا السلطان بدأ في عهود مَنْ خَلَفَهُ مِنَ السلاطين. نعم لقد بدأ الضعف يدب إلى الدولة العثمانية عقب وفاة السلطان سليمان القانوني، عدا فترات قليلة كانت تستعيد فيها نشاطها العسكري القديم.

ويرجع هذا التفسخ والضعف في هذه الدولة إلى أسباب متعددة، منها ما هو خارجي، ومنها ما هو داخلي.

فمن الأسباب الخارجية التي أدت إلى انتقاص مساحات واسعة من أراضي الدولة - لا سيما في أوربا - هو ظهور طائفة من القواد الأكفاء في المجر والنمسا وبولندة، ثم ظهور روسيا على مسرح التاريخ قوية ذات خطر.

أما العوامل الداخلية التي كانت تفتُّ في عضد الدولة، فكان مردها إلى اختلاف الأجناس والعقائد في ولاياتها الواسعة، ولقد دخل نفر غير قليل من المسيحيين في الإسلام، إلا أنهم لم يذوبوا في البوتقة التركية، وحين فتح الترك أبواب الترقي أمام هؤلاء، حتى وصل نفر منهم إلى مرتبة الصدارة العظمى والوزارة، وجدنا الرشوة والخيانة تتفشى في عهدهم

بأنحاء البلاد .

هذا وقد عرف الترك بتسامحهم مع غيرهم من غير المسلمين في بلادهم، حتىٰ تمتع بطريرك الروم بإستانبول عندهم بسلطان ونفوذ أكثر مما كان له في بيزنطة نفسها، وذلك بشهادة المؤرخين الأوروبيين أنفسهم، كذلك رحب العثمانيون باليهود الذين كانوا قد نزحوا من الأندلس هرباً من الاضطهاد الذي تعرضوا له عقب سقوط حكومة المسلمين هناك ، فنزل عشرون ألفاً منهم بالروملي غرب إستانبول، ولم يمض غير القليل من الوقت حتىٰ صار لهم نفوذ مخرب بالدولة التي آوتهم.

وانصرف أمراء آل عثمان بعد موت السلطان سليمان إلىٰ التناحر فيما بينهم، والالتفات إلىٰ شهواتهم في الغالب، مما أسقط هيبتهم في نظر الناس، وبين صفوف الجند علىٰ وجه خاص، فعانت الدولة بذلك من الهزائم والاندحارات المتتالية التي دفعت بها إلىٰ حافة الهاوية [١] .

كل هذه الأمور والأحداث كانت تجري والتاريخ يسير لصالح أوربا، التي كانت تعمل علىٰ القضاء علىٰ القوة الإسلامية كما تمثلها الدولة العثمانية، كما سيأتي تفصيله في الفصل القادم حينما دخلت الدولة العثمانية حروبها مع الروس، وعندما عملت أوربا علىٰ تقسيم العالم الإسلامي، وقيام الحملات المتسترة تحت شعار الاكتشافات ، الأمر الذي انتهىٰ إلىٰ الاستعمار للبلدان الإسلامية ، وبالتالي إنهاء الخلافة العثمانية،

(١) محمد العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٠١ .

وإقامة تركيا العلمانية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك اليهودي[١] ونحن عندما نتحدث عن الأدب الإنجليزي في القرن السابع عشر، فإننا نتكلم على النصف الأول من القرن، أي قبل حركة التجديد التي ظهرت في الجزء الأخير من القرن، والتي ستكون موضوع الفصل التالي في هذه الدراسة .

ومن المعلوم أن الأدب المسرحي وصل قمته في عصر النهضة، وبالذات في الإنتاج الأدبي لشكسبير ومن جاء قبله ومن جاء بعده، ومعاصريه من أدباء المسرح ، لكن المسرحية فيما بعد عام ١٦٢٥م أصابها شيء من الفتور، بالرغم من أن عدداً من الأدباء المسرحيين الذين جاؤوا بعد شكسبير ساهموا في إثراء الأدب المسرحي كثيراً؛ أمثال فليب ماسنجر (١٥٨٣ - ١٦٣٩م) Philip Massinger، حيث كتب ما يزيد عن ثماني عشرة مسرحية ، وكذلك فعل جون فورد (١٥٨٦ - ١٦٣٩م) John Ford ، الذي شارك في كتابة بعض المسرحيات كثيراً من معاصريه؛ أمثال وبستر وديكر، وكذلك كان الأمر بالنسبة للأديب جيمس شيرلي (١٥٩٦-١٦٦٦م)، الذي وإن لم يكتب مسرحيات كثيرة إلا أن مسرحياته اتسمت بالأصالة والجدية ، لأنه كان ماهراً بفن الأدب المسرحي، خصوصاً لون المأساة والملهاة .

ومع سير الفن المسرحي في طريقه من حيث الإنتاج والأداء والتمثيل، إلا أنه مع ظهور حركة الطهريين أو المتطهرين Puritans ، فإن الأدب

---

(١) المرجع السابق.

المسرحي أصابه الفتور؛ لأن المسرح خرج من دائرة الحدود المعقولة والمقبولة في عرف رجال الدين إلى دائرة غير المعقول، حيث أصبحت المسرحيات تتحدث عن الواقع الاجتماعي ومعالجة موضوعات اجتماعية، وتصوير مواقف وصور عن الحب الماجن والعنف وصور الجريمة ومظاهر الإسفاف، كل هذه الأمور جعلت الطهريين يقفون في وجه الفن المسرحي ، ومما ساعد الطهريين في حركتهم هذه: ظهور الشعر وعدد من الشعراء الذين كتبوا الشعر الديني والدعوة إلى الأخلاق، كما يتضح في كتابات جون ملتون ، John Milton ومن سبقه خلال العقدين الأخيرين من عصر النهضة ، وخلال حركة البعث الدينية التي ظهرت مع مطلع القرن السابع عشر، وظهور كثير من الأدباء المتمسكين بالدين والفكر الديني، وضرورة ذلك في الأدب ، وفي هذه الفترة طالب كثير من الشعراء وكتّاب النثر بضرورة إقصاء الأدب المسرحي عن الساحة الأدبية، والحد من نموه وازدهاره، فتوقفت المسرحيات التاريخية والمسرحيات المتصلة بالتاريخ الوطني والقومي لبريطانيا[1] .

إن مظاهر التغير التي لحقت بالأدب الإنجليزي في هذه الفترة هو تأثير المسرح الكاثوليكي الأسباني على المسرح الإنجليزي بعد وفاة شكسبير، ووجود الانقسامات المذهبية الدينية ، ومحاولة تجريد أصحاب المذهب البروتستانتي من سلطاتهم في أواخر عهد الملكة إليزابيث، والتي ما ظهرت

(١) انظر : Allardyce Nicoll, British drama ,p.p 2,13.

آثاره إلا في عهد الملك تشارلز الأول ، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ حرب أهلية طاحنة ، وأهم سبب للانقسام والحرب هو الصراع بين نمط الحياة القديم ونمط الحياة الجديد في بريطانيا ، حياة الإقطاعيين وحياة التجار الصناع ، حياة الطبقات وصراعاتهم ، حيث كانت طبقات المجتمع المختلفة تطالب بالحكم ومشاركة الملك في ذلك ، والاستفادة من اقتصاد البلد .

وباختصار فإن مشكلات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وتكوين الأحزاب ، وتقسيم المجتمع إلىٰ طبقات اجتماعية مختلفة ، أدىٰ إلىٰ وجود بريطانيا الجديدة ، وكانت السيطرة الغالبة في هذه التحركات لجماعة الطهريين الذين كانوا يرغبون في الإصلاح الديني ، وجعل بريطانيا بلداً مسيحياً دينياً ، لا علمانياً ، لأنهم يعتقدون أن ذلك هو السبيل السليم لحياة أفضل للناس .

لقد كان عصر الملك تشارلز الأول فترة نضال وخصام وانقسامات بين السلطة وأعضاء البرلمان ، مما أدىٰ إلىٰ إبعاد الملك عن الحكم ، وانتهىٰ بعد ذلك الأمر بقتله ، ومن ثم وجد الحكم البرلماني بقيادة الوزير كرومويل Cromwell ، وفي عهده عادت السلطة إلىٰ الحكم بشيء من التنظيم حتىٰ وفاته عام ١٦٥٨ ، بعدها أعيد الملك تشارلز الثاني من منفاه عام ١٦٦٠ ، واستمر الأمر كذلك ، وقد حددت مهام الملك وسلطاته ، وانتهىٰ الأمر بإخراج دستور الحكم ونظام البرلمان المعمول به حتىٰ الآن في بريطانيا ، وأصبح المجتمع البريطاني ينقسم إلىٰ طبقاته المعروفه بالطبقة الكادحة ،

والطبقة الوسطى ، والطبقة الأرستقراطية .

في ظل هذه الخلفية العامة لظروف الحياة يمكن للقارئ أن يتصور حقيقة الأدب الذي ظهر في هذه الفترة من الأدب الإنجليزي، التي أغلقت فيه المسارح عام ١٦٤٢م بأمر البرلمان، مما أعاق إنتاج الأدب المسرحي من قبل الطهريين، وبدأ الشعر الذي ـ فتر في عصر النهضة ـ ينمو ويزدهر؛ مما جعل الشعر يكون اللون الأدبي الغالب في القرن السابع عشر متأثراً فيه بالصبغة الأدبية لشعراء عصر النهضة [١]، أمثال بن جنسون Bunn Jonson وجون دن (١٥٧٣ـ ١٦٣١م) John Donne ، الذي أصبح ذا مكانة مرموقة في الكنيسة ، وتغيرت طبيعة شعره عندما أصبح متديناً، وأنه شاعر مشهور ظهر معظم إنتاجه الأدبي خلال عهد الملكة إليزابيث، ولقد كان شعره شعراً ثورياً يتحدث عن الفروسية والحب والبطولة .

وكان جون دن يكتب الشعر الحر لصور إنسانية مختلفة عن العاطفة والانفعالات والأحاسيس المتصلة بالفطنة والذكاء، كما أن دن كتب الكثير من القصائد الدينية، المتضمنة للأفكار الفلسفية والتربوية والعلمية، من منطلق ديني وروحي وميتافيزيقي وصوفي ، ذلك أن جون دن يعد من رواد الشعر الصوفي والروحي في تاريخ الأدب الإنجليزي .

لا شك أن كتابات جون دن وقصائده الشعرية ذات الموضوع الديني كان

---

(١) انظر : Emile Legouis ,Ashort History of English literature, P.P. 110-125 .

لها كبير الأثر في شعر القرن السابع عشر وشعرائه، ونرىٰ ذلك واضحاً في شعر توماس كارو (١٥٩٨-١٦٣٩م) Thomas Carew، وكان معروفاً بأنه شاعر الغزل والحب، مشهوراً بالشعر المقفّىٰ والمنمق، ثم تأتي مجموعة الشعراء المنتمين لمدرسة الفرسان الأفذاذ، ومنهم جون سكلينج (١٦٠٩-١٦٣٩م) John Suckling . وريتشارد لوف ليس (١٦١٨-١٦٥٨م) Richard Lovelas وجون كليفلند (١٦١٣- ١٦٥٨م) Jhon Cleveland .

وقد كتب هؤلاء الشعراء في موضوعات دينية من خلال الهجاء والسخرية .

ومن شعراء المذهب الديني الإنجيلكي تطالعنا أسماء، منها : الشاعر جورج هربرت (١٥٩٣ - ١٦٣٣م) George Herbert، وريتشارد كراشو (١٦١٢-١٦٤٩م) Richard Crashaw، وهنري فوجان (١٦٢٢-١٦٩٥م) Henry Vaughan وأندرو مارفيل (١٦٢١-١٦٧٨م) Andrew Marvell ، وغيرهم آخرون . وجميع هؤلاء اهتموا بموضوعات الأدب الديني، مع المحافظة علىٰ ملامح الشعر في عصر النهضة من حيث الشكل العام للقصائد ، كما تناولت قصائدهم موضوعات الإصلاح الأخلاقي والروحي، والسلوك الإنساني في ظل النصرانية وتعاليمها ، إذ المعروف أنه خلال هذه الفترة أصبح كتاب العهد القديم هو المصدر الذي يستمد منه دستور المجتمع والحياة .

كل هؤلاء الشعراء لم يتميزوا في كتاباتهم وإنتاجهم الأدبي كما تميز الشاعر الإنجليزي جون ملتون (١٦٠٨-١٦٧٨م) John Milton ، الذي

كان من أبرز الشعراء الطهريين، حتىٰ إن بعض مؤرخي الأدب الإنجليزي يذهب إلىٰ تسمية هذا العصر من تاريخ الأدب الإنجليزي باسم عصر ملتون The Age Of Milton ، لقد نجح ملتون في دمج روح عصر النهضة مع روح عصر الإصلاح الديني في شعره ونثره ، لقد عاش ملتون حياة طيبة، وتعلم المراحل الأولىٰ في لندن، ثم درس بجامعة كيمبردج خلال الفترة من١٦٢٩م وحتىٰ١٦٣٢م، وقد نظم الشعر وهو لا يزال طالباً، وكانت معظم قصائده ذات موضوع ديني مثل قصيدة On The Morning of Christ Nativity ، وبعد أن أنهىٰ دراسته لم يشغل نفسه بأي عمل وظيفي، بل ظل مع والده مشتغلا بقراء ة كتب التراث، وتهيئة نفسه ليصبح شاعراً مبدعاً ، وخلال الفترة من ١٦٣٢م وحتىٰ ١٦٣٧م كتب بعض قصائده المشهورة، منها : L'Allegro و Il Penseroso، وخلال الفترة من ١٦٣٧م وحتىٰ ١٦٣٩م سافر إلىٰ بعض الدول الأوربية، ومنها إيطاليا.

لقد اشتهر ملتون بقصائده الطويلة بعنوان «الفردوس المفقود» Paradise Lost «والفردوس المردود» Paradise Regained ، ولقد تأثر ملتون في كتابة هاتين القصيدتين بالعمل الأدبي لدانتي بعنوان «الكوميديا الإلهية»، وفيها يتحدث الشاعر عن الجنة والنار ومفهومهما المسيحي، كما تأثر دانتي في عمله هذا بقصة الإسراء والمعراج، وبأبي العلاء المعري في «رسالة الغفران» عند المسلمين ، ولكنه صاغ ذلك بما تسيغه نفسه وتهواه، كما جاء ذلك في الفكر الصوفي المنحرف عند ابن عربي، الخارج عن عقيدة

أهل السنة والجماعة[١]، ويلاحظ أن دانتي في الجزء الأول من الكوميديا الإلهية ، وفي النشيد السابع عشر يمتهن المسلمين ويزدريهم، ويزعم أنه لا حضارة لهم[٢] . وعلىٰ هذا النسق سار ملتون في شعره، وفي الجزء الأول من هذا العمل، أي « الفردوس المفقود» و«الفردوس المردود »، والمتعلق بالحديث عن الجنة، فإن ملتون يرىٰ أنه لايدخل الجنه إلا النصارىٰ، أما المسلمون الذين أسماهم بالوثنيين، فهم لا يدخلون الجنة؛ لأنهم من أهل النار، ولأنهم أتباع محمد[٣] .

إن هذا الزعم الذي جاء به ملتون بأنه لا يدخل الجنة إلا اليهود والنصارىٰ هو ما قال به أجداد هذا الشاعر الكافر، وهو يردد مقولة أبطلها القرآن الكريم، حيث يقول عز من قائل :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾[٤].

لقد سار جون علىٰ نهج دانتي ملتون في حديثه عن الإسلام في قصيدته «الفردوس المفقود» و«الفردوس المردود»، وقال: إن النصارىٰ هم أهل الجنة، وإن المسلمين أهل النار، وسخر من الرسول ﷺ، وقال بتلك المقالة

(١) انظر : Miguel Asin, Islam and the Divine Comedy, John Murry London,1926, P.P. 3-25.

(٢) انظر : C.H. Sisson,The Divine Comedy, Oarcnet New press ltd, Guilford,1980, PP.338 - 342 .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٤) سورة البقرة ، الآية، ١١١ .

المزعومة: إن ضريحه ﷺ معلق بين السماء والأرض على ظهر الكعبة المشرفة، كما جاء في إحدى مقالاته النثرية بعنوان Eikon Basilike، وفي مقال آخر بعنوان Areopagistica تحدث بشيء من التكريم عن اليهود والنصارى، ثم عرَّج ليتحدث عن المسلمين، وبالأخص عن النبي محمد ﷺ فتحدث عن كهف الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد استخدم لفظ كلمة Mammon ظاهرها أنها اسم من أسماء محمد ﷺ، ولكن فحواها تعني الشيطان في كهفه، ولعله يشير إلى غار حراء، حيث كان يتحنَّث عليه السلام، وينزل عليه الروح الأمين.

هذا كل ما كتب عن الإسلام خلال القرن السابع عشر، وذلك بسبب الظروف المحيطة بالأدب في بريطانيا خلال العقود الأولى لهذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي، كما أشرنا في مقدمة هذا الفصل، الأمر الذي شَغَل الأدباء عن الحديث عن الإسلام والمسلمين.

الباب السابع

عصر التجديد

عصر التجديد*

١٦٦٠ - ١٧٤٠م

أوضحنا في الفصل الخاص بالقرن السابع عشر من تاريخ الأدب الإنجليزي ما لحق الدولة العثمانية من ضعف، وما أصابها من هجمات حربية من الدول المجاورة. ومن المعلوم أن السلطان مراد الثالث كان من السلاطين الذين ضعفت في عهدهم الدولة كثيراً، حتىٰ أصبحت مناصب الدولة في عهده تباع لصاحب العطاء الأكبر. وما لبث القرس في عهده أن هاجموا أراضي الدولة، ولكن جند الترك ما طفق أن انطلق يخترق القوقاز، ويفتح تفليس، ثم يهاجم تبريز وبلاد فارس، فلم يرجع عنها حتىٰ أعلن الشاه الصفوي عباس الأكبر تنازله للعثمانيين عن أذربيجان والكُرج وجزء من لورستان، مع تعهده بالكف كذلك عن سب الخلفاء الراشدين الثلاثة: أبي بكر، وعمر، وعثمان في بلاده.

وبوفاة مراد الثالث يظهر علىٰ عرش عثمان جملة من السلاطين الضعاف؛ منهم: محمد الثالث. وفي عهده ثار الانكشارية علىٰ ولاة

* إن كلمة Restoration تعني التجديد، وهناك خلاف بين النقاد ومؤرخي الأدب في تحديد مسمىٰ لهذا العصر، والبعض يميل إلىٰ تسميته بعودة الملكية وتميزها عن الأسماء أو المصطلحات الأخرىٰ، كما يرىٰ البعض أن هذا العصر انتهىٰ بموت الشاعر درايدن عام ١٧٠٠م، وسنوضح ذلك أعلاه في المتن في هذا الجزء من الدراسة.

الدولة في دمشق وبغداد، كما ثار على الدولة في عهد خلفه السلطان أحمد الأول الأمير جانبلاط الكردي، واضطر السلطان عثمان الثاني من بعده إلى مصالحة البولنديين عام ١٦٠٢ م، بسبب تمرد الانكشارية عليه، وقد تم لهؤلاء المتمردين من بعد ذلك خلع السلطان، وتولية السلطان مصطفى نصف الأبله مكانه؛ حتى صار الأمر بعد قليل إلى السلطان مراد الرابع.

وفي هذه الفترة تعرضت الدولة إلى كثير من المتاعب؛ إذ استرد الفرس حدودهم القديمة، واستولوا على بغداد، كما بسط المعنيون أصحاب الأمير فخر الدين المعني نفوذهم على لبنان وكل شواطئ الشام حتى أنطاكية، وحاول السلطان مصطفى الثاني عام ١٦٩٥م أن يسترد للدولة ما ضاع من أراضيها، لكنه أصيب بالهزيمة أمام النمسا وروسيا، واضطر آخر الأمر إلى قبول صلح كارلوفتز المشهور عام ١٦٩٩م، وفي أثره أخذت هيبة العثمانين الحربية تضمحل وتسقط في أعين أعدائهم، وعاد السلطان مصطفى الثاني من بعد ذلك إلى أدرنه ليواجه ثورة عليه عارمة أطاحت به، وأُجلس مكانه أخوه السلطان محمد الثالث.

ولقد كان من أهم العوامل التي ساعدت على تفسخ الدولة العثمانية وضعفها ابتداءً من القرن الثاني عشر الهجري، الموافق الثامن عشر الميلادي: نهوض روسيا وتحالفها مع النمسا لطرد العثمانيين من أوربا، بل وتخطف أراضيهم كذلك، ولم يكن سلطان الروس على الأرض حتى القرن السادس عشر الميلادي يعدو في الواقع إقليم موسكو وما حولها، حتى أتيح

لأميرهم إيفان الرابع، المعروف بالرهيب، أن يرد الأوزبك الآسيويين عن بلاده إذ ذاك، ويوسع من رقعة ملكه في نواحي البلطيق، بل لقد أفلح كذلك في منع العثمانيين من حفر قناة تصل ما بين نهري الدون والفولجا لتنفَذَ منها السفن التركية عبر البحر الأسود إلىٰ بحر قزوين، فتهاجم بلاد فارس من هناك في يسر وسهولة، متفاديةً بذلك سير الجيوش التركية براً عبر الصحراوات.

علىٰ أن أوزبك القرم ما لبثوا أن اقتحموا موسكو من جديد عام ١٥٧١م هذا والمعروف أن الأوزبك طالما دخلوا موسكو من قبل، وأرغموا أميرهم الروسي علىٰ دفع جزية سنوية لهم لسنين طويلة، بل إنه كثيراً ما كان ليرتقي عرش بلاده إلا علىٰ إرادتهم، ولو كان العثمانيون قد عمدوا إلىٰ الائتلاف إذ ذاك مع أوزبك القرم علىٰ الأخص بدلاً من معاداتهم لهم، لما اشتد ساعد الروس، حتىٰ صار لهم ذلك الخطر الداهم، الذي ساعد علىٰ تفسخ الدولة العثمانية وانهيارها [1].

وبتنازل العثمانيين للبطرس الأكبر عن بحر آزوف في صلح كارلوفتز، فُتحت أبواب البحر الأسود في وجه الروس بعد أن كان ذلك البحر بحيرة تركية خالصة، واتخذ بطرس الأكبر من بتروغراد (بطرسبرج) قصبة له بدلاً من موسكو، ثم بسط نفوذه علىٰ البحر البلطي بعد أن هزم شارل الثاني عشر ملك السويد، الذي لجأ بعد انكساره هذا إلىٰ الترك، فأسبغوا حمايتهم

---

(١) محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، هي ١١١- ١١٧.

عليه، وقادت بطرس الأكبر أطماعه، فنزع إلى حرب الترك بهدف بسط سلطانه على البحر الأسود، لكن القائد العثماني بلطجي باشا استطاع أن يطوق القوات الروسية كلها عند نهر بروث، حتى كاد القيصر الروسي نفسه أن يقع أسيراً، لولا ما كان من دهاء زوجته كاترين، وحيلتها مع القائد التركي وما قدمته له من رشوة اشترت بها ضميره، وعقد صلح بروث مع الروس على شروط مشينة لهم، أخلوا من بعدها منطقة آزوف، كما تعهدوا بنسف حصون طيغان (تاجنروك). وحاول العثمانيون من بعد ذلك استرداد المجر، ولكن النمساويين أنزلوا بهم هزيمة اضطرتهم إلى عقد صلح ساروفيتز عام ١١٣٠هـ - ١٧١٨م، وفيه بقيت الموره بيد الأتراك. كذلك استطاع نادر شاه سلطان الفرس أن يرغم العثمانيين عام ١٧٣٦م بعد حروب طويلة على أن يرجعوا عن بلاده، وما كانوا قد استولوا عليه من أراضيها حتى بغداد.

وعقد العثمانيون صلحاً آخر مع روسيا عام ١٧٣٩م؛ هو صلح بلغراد، بعد أن أوقف القيصر حروبه مع الترك، بسبب قيام بعض القلاقل في بلاده، فكان هذا آخر صلح مشرف وقَّعه الترك في أوربا، وفيه تعهد الروس بسحب سفنهم من البحر الأسود الذي عاد بحيرة عثمانية من جديد[١].

وساد السلام بين روسيا وتركيا فترة طويلة، استطاع فيها السلطان

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٨، ١٢٣.

القدير مصطفىٰ الثالث - وكان وقد ولي العرش عام ١٧٥٧م - أن ينهض بالجيش، وينظم شؤون الدولة الإدارية والمالية علىٰ وجه سليم، وفي عهده سقطت القرم في يد الروس، الذين هددوا بأسطولهم عاصمة الترك نفسها، لولا ما أبداه القبطان التركي حسن باشا الجزائرلي من شجاعة وحسن بلاء.

ولئن استطاع العثمانيون أن يصدوا هجوم الروس في البلقان، ويكرهوهم علىٰ رفع الحصار عن سلستره ووارنه، ثم الانسحاب من بعد ذلك إلىٰ وراء الدانوب، إلا أن هؤلاء استطاعوا من بعد ذلك عام ١٧٧٤م؛ أيام عبدالحميد الأول خليفة مصطفىٰ الثالث، أن ينزلوا الهزيمة بالترك، و يرغموهم علىٰ عقد معاهدة كجوك قينارجه، ليزعموا من بعد ذلك أنهم أصحاب الحق الطبيعي في رعاية المسيحيين من رعايا العثمانيين، والإشراف علىٰ شئونهم، بل وإن من واجبهم المقدس أساساً العمل علىٰ إحياء الدولة البيزنطية من جديد. وفضلاً عما ناله الروس من امتيازات سياسية في هذا الصلح، فقد صار لهم كذلك شمال البحر الأسود، ومُنح أسطولهم حق اجتياز الدردنيل، والمرور منه إلىٰ البحر الأبيض المتوسط.

وفي عام ١٧٩٢م صار نهر الدنيستر هو الحد الفاصل بين الدولتين العثمانية والروسية، وتنازل الأتراك نهائياً للروس عن شبه جزيرة القرم، وذلك في صلح ياشي الذي عقد بينهما في نفس السنة.

كل هذه الأحداث فتحت الأبواب أمام الأوربيين للدخول إلىٰ العالم الإسلامي والتأثر به، إذ يلاحظ تأثير الشرق علىٰ حياة الملوك في بريطانيا،

حتى إن الملك تشارلز الثاني بعد توليه سلطة الحكم أحب أن يتمثل بحياة ملوك الفرس في لبس الملابس الحريرية والمصوغات الذهبية، كما يلاحظ أن الأعمال التجارية وحركة التجارة ازدادت بعد إنشاء الشركات التجارية وشركات السفن، كما أن العلاقات السياسية بين الشرق والغرب ازدادت في عصر الإمبراطور المغولي أورانج زيب وقد كتب بعض الأدباء - ومنهم دريدن - موضوعات أدبية عن هذا الإمبراطور[1].

كما كانت هناك علاقات تجارية بين تجار الدول الإسلامية في شمال إفريقيا في الجزائر وتونس وليبيا، وبين تجار إنجلترا والرحالة، علماً بأن عدد الرحالة إلى الشرق تناقص في عصر التجديد عما كان عليه في عصر النهضة، بل كان معظم الرحالة الغربيين في هذا العصر من الفرنسيين؛ أمثال تافينير Tavenier ثيفينوت Thevenot، وتشاردن Chardin ، وكان بعضهم يسافر إلى البلاد الإسلامية على أنهم تجار مجوهرات، وبعضهم على أنه من الأطباء، وكان بعضهم يسافر على أنهم طلاب علم ومعرفة، بقصد الإلمام بالإسلام لاعتناقه[2].

وكان من اهتمامات الرحالة هي دراسة الدين الإسلامي، ومعرفة الفرق بين الفرق الإسلامية؛ مثل أهل السنة والجماعة والشيعة، وذلك كما فعل ثيفينوت في بعض مؤلفاته عندما تحدث عن الجنة والنار، وعن

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٢، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق.

العـذاب والنعـيم، وعن شـجـرة الزقـوم، وعن أهل الأعـراف، وعـن منكر ونكير، وسؤالهما للإنسان في القبر عن أعماله من صيام وزكاة وصلاة وحج، وما يكون عليه مصير الإنسان في حياة البرزخ ، كما أنه تحدث عن الركن الأول للإسلام وهو الشهادتان، ومسألة التوحيد، وتحدث عن مسألة المهدي ونزول عيسىٰ عليه السلام آخر الزمان، وتحدث عن الشيعة الذين يضعون قطعة من حجر يسجدون عليها، وتحدث عن موقعة كربلاء، واستشهاد الحسين رضي الله عنه .

كما أن ثيفينوت حبك قصة مفادها أن النساء المسلمات لا يدخلن الجنة ؛ لأن المسلمين لا يرون المرأة من المخلوقات التي تعقل ، ولعل هذا إشارة إلىٰ قوله عليه الصلاة والسلام : «النساء ناقصات عقل ودين» ، وفرق بين هذا وذاك .

ولقد ضمن تشاردن بعض كتبه الحديث عن الفرس، من حيث حبهم للعلم والمعرفة، وأنهم أناس أمناء، ويحبون العدل والبساطة ومن المعلوم أن تقارير الرحالة عن الشرق الإسلامي وعن المسلمين في عصر التجديد زودت الأدباء والكتاب بكثير من الأفكار والموضوعات التي حفلت بها كتبهم ومؤلفاتهم ، كذلك فإن كتب التاريخ العام ، وكتب العلاقات السياسية عن الشرق والغرب زودت الأدباء بموضوعات ضمَّنوها إنتاجهم الأدبي، من ذلك مثلاً كتاب بول ريكوت Paul Rycaut، وعنوانه :

The Present State of the Ottoman Empire, Containing the Maxims of the Turkish Politian, the Most Material Points of the

Mohometan Religion.

كـمـا أن ريتشـارد نولز Rishard Noles أصـدر كـتـاباً بعـنوان : التاريخ العام للأتراك General Histoire of the Turks.

ومن الذين كـتـبـوا في مـوضـوع تاريخ الأديان والعـقـائد، وهاجـمـوا الإسـلام هجوماً شـرساً : المؤرخ إسحاق بارو Iasac Barrow ، الذي عاش في إستانبول عـامـاً كـامـلاً ، وألف كتاباً باللاتينية بعنوان Epitome Fidei et Religion Turcicae ، وكـلا العـمـلين مليء بالسباب والشـتـائم التي كـتـبـهـا المؤلف عن النبي محمد ﷺ، وعن المسلمين .

ومن الذيـن هاجـمـوا الإسـلام في كـتـاباتهم أيضـاً ألكسندر روس Alexander Ross ، كـمـا نجد ذلك في كتابه الذي ظهر عـام ١٦٣٥ بعنوان : A View of all the Religions of the World ، وهـــو خـلـــط مـن المعلومـات والأفكـار المخلـوطـة ، مفـادهـا : أن القرآن الكريم جـملة من الإفك المبين وأسـاطير الأولين ، وأنه ـ أي القـرآن ـ من تأليف الرسـول ﷺ، وأنه هو الـذي كتب القـرآن ، وتحـدث المؤلـف عن قـصـة الحـمـامـة ، أو الجحش أو الثور ، الذي يعتبره الرسول عليـه السـلام الروح القـدس .

ولقـد كـتب لانكليـوت أدسـون Lancelet Addison ، والـد الكاتب جوزيـف أديسون Joseph Addison ، بعض أعمالـه التاريخيـة ، وحـاول أن يتحدث عن الإسـلام بشيء من الإنصاف ، خصـوصـاً عن شخصية النبي محمـد ﷺ، وتخليص أفكـار السابقين من الاتهامات ، وقال : إن الإسلام

ليس إفكاً ، ونبيه ليس بدجال ، وإن دين المسلمين ليس فيه هرطقة أو جنون أو أساطير ، وقد استفاد أديسون في كتاباته من كتاب جون هنريك بعنوان Historia Orientalis .

ومن المعلوم أن أول ترجمة للقرآن الكريم بالفرنسية ظهرت في عصر التجديد ، وذلك عام ١٦٤٩م ، ومنها نقلت الترجمات إلى الإنجليزية . فلقد قام القنصل الفرنسي في الإسكندرية ـ واسمه أندريه سيور Andr'e Sieur ـ بهذه الترجمة ، وأول ترجمة نقلت من هذه الترجمة إلى الإنجليزية تضمنت مقدمة تحدثت عن خطر القرآن الكريم على الناس .

ويلاحظ أن عصر التجديد توافق مع بعض الانقسامات في الدولة الإسلامية ، فقد ظهرت بوادر حركة الدولة الصفوية في إيران ، كما أن حركة الاستشراق زادت في هذا العصر ، وزادت كتابة المستشرقين عن الشرق ، إذ لقد كان لسيمون أوكلي Simon Ockley نشاطه الاستشراقي البارز في الحديث عن الإسلام وترجمة بعض الكتب العربية ، كما فعل عندما ترجم كتاب « حي بن يقظان » لأبي بكر بن الطفيل إلى الإنجليزية ، والتي كان لها تأثير كبير في دانيال ديفو وفي روايته ربنسون كروزو Robinson Crusoe ، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد .

لا شك أنه خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر أصبح هناك انفتاح واضح من أوربا نحو الدولة العثمانية ، وزادت حركة الرحلات والتجارة بالرغم من أن تركيا العثمانية كانت في حرب دامية مع النمسا ،

ولقد كان للأدب الإنجليزي إنتاج وفير في هذه الفترة؛ إذ ازداد نشر كتب الرحلات ذات الموضوعات المختلفه عن الإسلام وتاريخه، وأشهر كتاب ظهر في هذه الفترة كتاب للمستشرق الإنجليزي سيمون أوكلي بعنوان تاريخ الشرقيين The History Of The Saracens، الذي ظهر خلال الفترة من ١٧٠٨م وحتى ١٧١٨م ، كما أن جورج سيل George Sale قام بترجمة القرآن الكريم عام ١٧٣٤م. كما أن ترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » - الذي قام به أنطونيو جالان Antoine Gallan المستشرق الفرنسي - كان له تأثير كبير في الآداب الأوربية، ومنها الأدب الإنجليزي، فقد رغبت الشعوب الأوربيه في معرفة الشرق الإسلامي كما تصوره قصص ألف ليلة وليلة، وعلى أنها حياة المسلمين الحقيقية، بما فيها من قصص ملفقة عن حياة الخليفة العباسي هارون الرشيد[١] .

ومن كتب الرحلات التي صورت الشرق ما كتبته الليدي ماري Lady Mary Wootley Montahu عن ملاحظاتها التي دونتها عن حياة المسلمين في إستانبول . وما كتبه هنري موندريل Henry Maundrell عن رحلته إلى حلب . وكتاب توماس شو Thomas Shaw عن رحلاته إلى الجزائر . وكتاب ريتشارد بيكوك Richard Peacock عن رحلاته في مصر وفلسطين وقبرص ، وكذلك جملة ما كتبه القراصنة البحريون الإنجليز فيما صنفوه من

(١) انظر : Adnan M. Wazzan, The Arabian Nights in Western Literature : A Discourse Analysis, Islamic Studies, Islamabad, No.1. Vol. 32. 1993 .

وصف لسواحل بلدان الشرق وأحوال المسلمين، ومنها كتاب جوزيف بتس Joseph Pitts بعنوان: A Faithful Account of the Religion and the Manners of the Mohammetans الذي ظهر عام ١٧٣١م، وفيه وصف المؤلف الرسول ﷺ بأنه طاغوت دجال، وأتباعه الذين يسيرون في ركابه بصورة عمياء، لا يميزون بين الحق والباطل.

والآن ما هو الإنتاج الأدبي الذي ظهر في عصر التجديد، وهو يتحدث عن الإسلام . في البداية نود أن نوضح أن عصر التجديد Restoration، أو اسم الكلاسيكية المحدثة Neo - Classicism أو عصر The Augustan، ماهو إلا امتداد للقرن السابع عشر، وتطلق عليه هذه الأسماء، لما اتسم به من روح التجديد التي حصلت لبعث الكلاسيكيات التي ظهرت في عصر النهضة، وأحياناً يسمى هذا العصر باسم عصر درايدن وبوب؛ لأنهما أبرز كاتبين اشتهرا في هذا العصر، وتسمية العصر بـ Augustan نسبة إلى الملك الروماني أغسطس سيزار Augustus Ceasar .

والقصد بهذه التسمية أن الأدباء الإنجليز في هذه الفترة قاموا بالدور نفسه الذي قام به الأدباء الرومان، أمثال أوفيد وفيرجل وهوراس زمن الملك أغسطس سيزار، ويمتد عصر التجديد في الفترة من أواخر القرن السابع عشر حتى العقود الثلاثة الأولى من القرن الثامن عشر[1].

وكما يقول أحد مؤرخي الأدب الإنجليز: إن أهم ميزة للأدب في هذه

---

(١) انظر: John B. Wilson, English Literature, P.P.181-185 .

الفترة أنه أدب العقل، وليس أدب القلب أو العاطفة ، ذلك أن الأدب في الماضي كان يعطي أهمية للعواطف والمشاعر والأحاسيس، ويهتم بعلاقة الإنسان بربه، والإنسان مع الإنسان، وعلاقة الرجل بالمرأة، وأن أدب الماضي كان فيه صور خيالية أصبحت مكان الشك في عصر التجديد، حيث يرىٰ أدباء العصر أن الخيال مصدر للجرائم والعنف، وأن الخيال يوحي بالجنون والوحشية والتزمُّت والفظاظة (١).

واتسم عصر التجديد بالتغير في المبنىٰ والمعنىٰ، في الشكل والروح، وسبب ذلك تعطل الأدب خلال الأحداث التي مرت ببريطانيا في القرن السابع عشر، وثورة الشعب علىٰ الملك ، وأصبح الأدب يتحدث عن السياسة والمسرح، الذي كان أداة الترفيه والتعليم والثقافة فتر نشاطه ، الأمر الذي جعل أدب عصر التجديد يتحدث عن موضوعات تتصل بالعقل والسلوك والأخلاق والفضائل، وانتشر الهجاء في الشعر بأسلوب دقيق بسيط واضح، كما يتضح في القصائد التي اشتملت علىٰ الأبيات الثنائية Heroic Couplet ، كما اتصلت موضوعات الشعر بالسياسة والآداب الاجتماعية ، وموضوعات الجدل الفكري.

ومن أسماء الأدباء التي ظهرت في عصر التجديد ، واشتهرت بالنثر الأدبي يطالعنا اسم الأديب جون بنين (١٦٢٨ - ١٦٨٨م) John Bunyan، وهو من خلف جماعة الطهريين . ولد لأسرة فقيرة الحال ، وعمل في

(١) المرجع السابق.

بعض الحرف إلىٰ أن أصبح قديساً ، وقضىٰ حياته كلها في دراسة الكتاب المقدس، وعاش حياة التصوف والتبتل، وكان لكتابته الدينية أثر كبير في نفوس القراء، ويعد الرائد الأول لظهور الرواية الإنجليزية.

عندما توقف الإنتاج المسرحي وأغلقت المسارح، كتب رواية بعنوان رحلة حاج The Pilgrim's Progress ، ظهرت عام ١٦٧٨م، وهي رواية دينية في صورة رمزية عن حلم رآه الكاتب عن النصارىٰ وما عليهم من الذنوب ، وأن علىٰ الإنسان النصراني أن يعمل الصالحات، ويخلص نفسه من الموبقات . فعمل الكاتب علىٰ تصوير الفضائل والرذائل، وجعل لكل جانب منزلاً من المنازل، فهناك منزل الجمال ، ومنزل الحق و التواضع ، وهناك وادي الشر ووادي الموت، ورسم المؤلف بعض الشخصيات بصورة رمزية، فهناك شخصية الأمل، وشخصية الحق، وشخصية التوبة؛ كل هذا بقصد إصلاح المجتمع ، والرواية تصور الإنسان والصراع بين الحق والباطل، وبين الرذيلة والفضيلة ، بين الطاعة والمعصية ، والشهوات والمنكرات[1] .

والمعروف أن معظم كتابات جون بنين كانت تنطلق من منطلقات دينية ركيزتها تعاليم النصرانية، فلقد كتب كتاباً بعنوان « إنقاذ عاصي بيت المقدس» The Jerusalem Sinner Saved، وكتاباً بعنوان

(١) انظر : John Bunyan, The Practical Works, Ball, Arnold & Co, London, 1871, Vol.1, P.P.60-61.

«معبد سليمان الروحي» Solomon's Temple Spiritualised ، وكتاباً آخر بعنوان « بيت غابة لبنان » The House Of The Forest Of Lebanon .

وفي مجال الكتابة عن الأديان، كتب بنين عن الإسلام بشيء من الاعتدال، فيقول: « إذا كان العقل يداهمني بالشك عن الأديان الأخرىٰ، فأقول للعقل: ماذا يمكن أن أقول ؛ إن الأتراك - أي المسلمين - لديهم كتاب طيب، يبين أن محمداً هو منقذهم ، وهذا ما نقوله عن عيسىٰ[١] . وهل يمكن أن نظن بمئات الألوف في بلدان وممالك عديدة أن يكونوا جاهلين الطريق الصحيح إلىٰ الجنة[٢] . وبنين بقوله هذا كأنه يقول: لكم دينكم ولي دين. وفي مقام آخر يقول بنين « إذا كان هناك جنة حقاً، فإن كل واحد يعتقد أن دينه هو الصحيح ، وكذلك يعتقد اليهود والمسلمون والوثنيون»[٣]، هكذا كانت نظرة جون بنين إلىٰ الأديان الأخرىٰ.

ومن كتاب النثر الأدبي الروائيين، نذكر الأديب دانيال ديفو (١٦٦٠-١٧٣١م) Daniel Defoe ، وقد أشرنا فيما تقدم إلىٰ أنه تأثر في روايته «ربنسون كروزو » بكتاب « حي بن يقظان » لأبي بكر بن الطفيل[٤]. وفي

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر: E.A. Baker and J.Packman, A Guide to the Best Fiction, London, 1968, P. P. 134-135.

هذه الرواية تحدث ديفو عن الشرق، وأنه مكان المخاطر والسوء، خصوصاً في ديار الإسلام ؛ ذلك أن ديفو صور رحلة ربنسون كروزو، وأنه في بداية رحلته وقع أسيراً في أيدي أحد المسلمين، ولكنه تمكن من الهرب بعد أن لاقىٰ الأمرين من المسلمين، وإن كان ساعده علىٰ الهرب مسلم آخر، إلا أنه لا يزال يشك ربنسون كروزو في أمانة المسلمين، إذ طلب من المسلم الذي هرب معه الكثير من المواثيق والعهود، فما كان من هذا المسلم إلا أن قدم العهد بأن أقسم بالنبي محمد ﷺ وبلحية أبيه بأنه لا يخون كروزو، ومع هذا، فإن كروزو لم يكافئ الفتىٰ المسلم لأنه ملحد وثني[١].

وفي قصة قصيرة لديفو بعنوان: «دفاعاً عن حقه» In Defence of His Right، نجد أن أحد الشخصيات في القصة ـ وهو ابن لأحد الأثرياء ـ غاب عن والده في سفر خارج إنجلترا، وانقطعت أخباره فلم يعلم الأب أين يجد ولده، ولكنه هدأ نفسه، وقال: إن ابنه قد وقع أسيراً عندالمسلمين الأتراك، أو عند الفرس أو العرب[٢]. هذه هي صورة الإسلام عند ديفو: الاتهام وسوء الظن.

إن جوزيف أديسون (١٦٧٢ ـ ١٧١٩م) Joseph Addison يعد من أبرز مَنْ كَتَبَ في مجال النثر خلال عصر التجديد، وكانت له محاولات في كتابة المسرحيات، فكتب مسرحيتين الأولىٰ بعنوان «المشاهد»

---

(١) انظر: Daniel Defoe, Robinson Crusoe, Penguin Books, London, 1970, P. 45.

(٢) انظر: Adnan M. Wazzan (ed.), The Study of Fiction, , 1984, P.38.

Spectator ، ظهــــرت عــام ١٧١٢م، والأخــرىٰ بعنوان « الطبــال» The Drummer ، وظهـرت عام ١٧١٥م، ولكـن كـان أديسـون أكثـر نجاحـاً في النثر .

تخـرج أديسون من جـامـعة أكـسفـورد مـتـخـصـصاً في الدراسـات الكلاسيكية ، وعـمل في مناصب حكومية متعـددة، خصـوصاً في الشؤون الخارجية ، وتمكن من أن يصبح نائباً برلمانيا في بريطانيا ، وقد أنشئ عدد من الصحف البـريطانية المشهورة التي صدرت بها كثير من كتاباته النثرية الأدبية والسـيـاسـيـة ؛ من هـذه الصـحف Freeholder وكـذلك The Gardian وكـذلك The Spectator ، وقد كـتب فيـهـا عن الإسـلام، ومنهـا : حـادثة الإسراء والمعـراج عندما عُرِجَ بالنبي مـحمد ﷺ إلىٰ السمـاء، وأسري به إلىٰ بيت المقـدس ، فـهـو ـ أي أديسـون ـ يتعـجب في مـقـالة له عن مسـألة الزمن، فكيف في وقت قـصير تمكن جـبريل عليه السلام أن يصعـد بالرسول إلىٰ السماء ويأخذه إلىٰ بيت المقدس، ويرىٰ كل ما في السماوات السبع؟ (١) .

ويستطرد قـائلاً بأن كل من يقدر للزمن قدره، فإنه يعلم أنه ليس بالإمكان أن يتم كـل ذلك في ذلك الـوقت الوجـيـز فـهـو بذلـك ينكر هـذا الأمـر جـملة وتفصيلاً ، كـمـا فعـل مشركو مكـة الذين أنكروا ذلك، وهم يعلمون صدقه وأمانته ﷺ .

ويسأل سائل : مـاهو مـوقف أديسـون لو عاش ليرىٰ التلفـزيون والنقل

(١) انظر : Joseph Addison, Spectator, No.587, 30 Angust, 1714.

الحي والنقل المباشر للأحداث ؟ وماهو حال أديسون لو عاش ليرىٰ الفاكس والتلكس ؟ إذا كان الإنسان قادراً علىٰ ذلك ، فالله قدير وقادر، يحكم ما يشاء ، ويفعل ما يريد .

إن تاريخ الدعوة الإسلامية وسيرة الرسول ﷺ منذ مبعثه وحتىٰ وفاته وهو عليه السلام يجد العنت والتعنت من مشركي العرب، ومن المكذبين من أهل الكتاب. وما حادثة الإسراء [١] إلا نوع من المعجزات التي خص الله بها رسوله عليه صلوات الله وسلامه، فقد أنكرت قريش تلك الحادثة، ولم تصدق قول الرسول ﷺ؛ إذ لم يتصور العرب أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أسري به إلىٰ بيت المقدس في تلك الليلة، وعرج به إلىٰ السماء في الليلة نفسها، وما أصبح الصباح إلا وهو في المسجد الحرام بمكة، فكان عجباً لدىٰ الكفار أن يقع مثل هذا الأمر، وهم يضربون أكباد الإبل شهراً من الزمن حتىٰ يصلوا إلىٰ بيت المقدس، وكان لهذا الحدث وقعه في النفوس، يحلفون بالله إن العير لَتُطْرَدُ شهراً من مكة إلىٰ الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلىٰ مكة، وارتدَّ عدد ممن أسلم، وذهب الناس إلىٰ أبي بكر، فقالوا: هل لك يا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلىٰ فيه ورجع إلىٰ مكة! . قال : فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ؛ فقالوا: بلىٰ، ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس ، فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق، فما

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٦ وما بعدها تحقيق مصطفىٰ السقا وزميله.

يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه (من الله) من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعدُ مما تعجبون منه؛ ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ؛ فقال : يا نبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبي الله، فصفه لي؛ فإني قد جئته قال الحسن : فقال رسول الله ﷺ : فرفع لي حتى نظرت إليه - فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر : صدقت، أشهدُ أنك رسول الله ؛ كلما وصف له منه شيئاً، قال : صدقت، أشهدُ أنك رسول الله، حتى (إذا) انتهى، قال : رسول الله ﷺ لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق ؛ فيومئذ سماه الصديق، وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك قوله تعالى :

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (١).

وفي مقال آخر يتحدث أديسون عن ضريح الرسول ﷺ المعلق على ظهر الكعبة بين السماء والأرض، وهو في هذا المقال يقارن هذه الصورة بصورة المقامرين، الذين لا يعلمون ماذا سيكون أمرهم ونتيجة قمارهم ، فهم معلقون في توقعاتهم مثل الأغبياء الجحوش، الذين لا يدرون ماذا يفعل بهم وهذا حال المسلمين المعتقدين في محمد ودينه ،

(١)المرجع السابق.

والإيمان بحقيقة ضريحه وصورة الإعجاز فيه [١] .

وفي مقال آخر كتب أديسون تحريراً عن أحد أمراء المغرب، وهو مولاي إسماعيل، فيقول: « إن هذا الأمير كان ذكياً ، وله حس طبيعي، وله ذهن متوقد، وشجاعة ظاهرة، وإقدام عظيم، وهو من أتباع محمد (من المسلمين) المتمسكين بدينه ودين نبيه، وهو لا يشرب الخمر ، ويبدأ الاحتفال بالصيام السنوي بشهرين قبل بدء الصيام، وكان مواظباً في صلاته . لكن كل هذا التمسك بالدين وكل هذا الذكاء كان يلغى بسبب حبه وتعطشه لسفك الدماء، الذي به يظهر عظمة قوته ، إذ إنه لا يترك الأجانب الأسرى دون أن يستمتع بقتلهم أمام ناظريه» [٢] .

إن القرآن الكريم سجل في أكثر من موضع أن أهل الكتاب أهل حرب وقتال، خصوصاً مع المسلمين، قال تعالى :

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [٣] .

وقال جل وعلا :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

(١) انظر : Joseph Addison, Spectator, No.191,9 October,1711 .

(٢) انظر : Joseph Addison, Freeholder,No.10,10 Jan,1916.

(٣) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾(١).

فمن المتعطش لسفك الدماء ؟

ومن المناظرات الأدبية التي ظهرت في عصر التجديد : ما كتبه جون شفيليد (١٦٤٨ ـ ١٧٢١م) John Shaffield تحت عنوان Dialogue between Mahomet and the Duke of Guise ، وهي مناظرة حوارية ، جعلها المؤلف تجري على لسان الرسول ﷺ و أحد الأمراء السياسيين ، وكانت له رتبة من رتب البطارقة الكاثوليك ، حيث جاء في هذه المناظرة : أن النبي ﷺ قال للبطريق : « تعال واجلس معي لنضحك قليلاً عن تلك الخدائع التي جئنا بها أنا وأنت إلى هذا العالم »(٢).

والمناظرة طويلة جداً ، خلاصتها أن النبي ﷺ كذاب مفتر ، أفاك مخادع ، مثله مثل القساوسة والرهبان ، الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، ولم يعلم من سيرة النبي ﷺ وسلم أنه ناظر يهودياً أو نصرانياً قط ؛ لأنه يعلم أنه على الحق المبين ، وأنه رسول رب العالمين ؛ ولكنه خاصم نصارى نجران بالقرآن والوحي ، كما في قوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ

---

(١) سورة البقرة : الآية ، ٢١٧ .

(٢) انظر : John Shaffield, The Works of John Shaffield, London,1729,Vol.2, P.P.166-172.

بَعْده أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[١].

وكذلك مخاصمته ﷺ لليهود كما في قوله تعالىٰ :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[٢].

لقد خاصم الرسول ﷺ أهل الكتاب يهوداً ونصارىٰ ؛ لأنهم ناهضوا الحق دين الإسلام ودعوة رسول السلام والإسلام، وهم يعلمون الحق ، ولكنهم اتبعوا كتبهم المحرفة وأفكارهم الفاسدة التي أوحىٰ إليهم بها أحبارُهم ورهبانُهم حسداً من عند أنفسهم ، لذا فالرسول ﷺ لم يناظر أهل الكتاب قط ، بل دعاهم إلىٰ الحق، ليذعنوا إليه كما في قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

ومن أشهر من كتب عن الإسلام في عصر التجديد من الشعراء الشاعر الإنجليزي المشهور صموئيل بتلر (١٦١٢ ـ ١٦٨٠) Samuel Butler ، الذي

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) سورة المائدة : الآيات ٧٧ ـ ٧٩ .

(٣) سورة المائدة : الآيه ٦٨ .

ولد لأب مزارع، وتعلم تعليماً جيداً، وكان من أبرز الأدباء المناهضين لحركة الطهريين، وهو معروف بقصيدته الملحمية الطويلة بعنوان Hudibras [١]، والتي تأثر فيها بالكاتب الإسباني سرفنتيز صاحب الرواية المشهورة «دون كوشت» Don Quixote. وقصيدة بتلر هذه تقع في ثلاثة أجزاء طويلة، كل جزء به ثلاثة أناشيد، والقصيدة عن السير Hudibras وبطولته وبسالته في محاربة الأشرار، وانتصاراته التي يحققها أمام من ينازله أو يتعرض له . واسم البطل مأخوذ من قصيدة إدموند سبنسر التي بعنوان «ملكة الجان» The Faerie Queen . وقصيدة بتلر قصيدة هجائية، تهاجم الطهريين وتطرفهم الديني، ومَنْ على شاكلتهم ممن يعرف تطرفهم في الدين، مثل المسلمين كما يظن هو . والقصيدة مليئة بالحقد على المسلمين والتعريض بهم، كما يتضح فيما سنذكره من أبيات تدل على ذلك .

ففي خضم حديث الشاعر عن شجاعة هيودبراس، الذي كان يمشي متبختراً في ساحة معركة من المعارك، متغنياً ببعض قصائد الشاعر اليوناني هومر، أو هومروس، في كل تؤدة واعتزاز وثقة بالنفس، لخبرته بالمنازلة والحروب التي خاض فيها ما يزيد على خمسين معركة ، فهو لا يبالي ولا

---

(١) يجب ألا يخلط بين اسم الشاعر بتلر في عصر التجديد والأديب صموئيل بتلر الكاتب المسرحي (١٧٧٤-١٨٣٩م) في العصر الرومانسي ، وللتفريق بين الكاتبين، فإن النقاد والمؤرخين للأدب يسمون صموئيل بتلر الأول باسم بتلر هيودبراس Hudibras، والآخر يسمى نسبة إلى أشهر عمل عرف به وهو Erewhon Butler مع أن هناك مايزيد على قرنين من الزمان بين الكاتبين .

يخاف أن يمشي كذلك، ولو كان يمشي إلى جنبه دب من الدببة الذي يشبه في ذلك المسلم التركي قريب محمد، أي الرسول ﷺ فيقول:

No less than dint of sword culd kill
The gallant Bruin march'd next him
With visage form idably grim
And rugged as a saracen
or Turk of Mahomet's own kin.(1)

ويستمر الشاعر في الحديث عن بطله هيود براس، الذي يدعو محبوبته ترولا Trulla للخروج معه لمقاتلة الأعداء ومنازلتها لهم، لتبدي شجاعتها، وتظهر شجاعة المرأة النصرانية، وألا تكون في نفسها مثل المرأة الجبانة الشرسة السليطة الفظة، مثل نساء المسلمين:

That woman should prented to war
(To swear Hercules's name)
Make feeble ladies in their works
To fight like termagants and Turks(2)

واستطرد بتلر في قصيدته ليتكلم عن النبي محمد ﷺ، مشيراً إلى قصة الحمامة المزعومة، وأنه عليه السلام دربها لتأكل الحب من فوق أذنيه، وأنها هي الروح القدس، كما أنه ﷺ عَلَّمَ جحشاً برياً أو بعيراً، جعله لا يأكل أي طعام إلا من يده الشريفة ﷺ. ثم يعقد الشاعر مقارنة بين دين الإسلام وبين مذهب الطهريين، واتجاههم الفظ في الدين، وأنهم في ذلك مثل محمد ﷺ في فظاظته وفظاظة دينه، وأنهم مثل الجحوش:

---

(١) انظر: Alexander Chalmers(ed.), The Works of English Poets from Chaucer to Cowper, C. Wittingham,London,1810,Vol.2, P.104.

(٢) المرجع السابق ج ٨، ص ١٠٠.

Th' Apostle's of this fierce religion
Like Mahomet's were ass and Widgeon

ما عرف عن النبي محمد ﷺ القسوة ، أو الشدة ، أو فظاظة القلب ، ولو كان كذلك ، لما انتشر الإسلام ، ولما أقبل عليه الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ؛ إنه رسول الله ﷺ ، الرؤوف الرحيم ، الذي قال عنه مولاه سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ (٢) .

وعندما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول ﷺ قالت : (كان خلقه القرآن) (٣) . وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) .

فهل بعد هذا يمكن أن يقول قائل : بأنه فظ غليظ ؟ ما يقول بهذا إلا مفترٍ وكذاب ضال مغضوب عليه .

وفي مكان آخر من القصيدة نجد بتلر يتحدث عن المصريين المسلمين ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

(٣) صحيح مسلم ١/ برقم ٧٤٦ .

(٤) سورة القلم ، الآية ٤ .

وأنهم عباد للكلاب بمقتضىٰ ما في تعاليم دينهم، الذي يأمرهم بمحاربة الخير وأهله، وهم مثل الجرذان والديدان والحشرات؛ لأنهم أمة ساقطة، ليسوا مثل الهنود الذين حاربوا الشر والجهل من أجل العلم والمعرفة والحكمة، إن المصريين حاربوا النصارىٰ وقتلوهم، وجعلوهم في جلود بعض الحيوانات، ورموا بهم إلىٰ الكلاب.

وفي قصيدة أخرىٰ لصموئيل بتلر ظهرت بعد وفاته بعنوان «المنافق غير الملتزم» Upon an Hypocritical Nonconformist تصف المنافق بأنه سكير مخمور مثل المسلم، فيقول :

Lays by his reason in his bowls,
As Turks are said to their souls,
Until it has so often been
Shut out of its lodging , and let-in,
At length it never can attain
To find right way back again(1)

والمعنىٰ أن السكير الذي يفقد صوابه وعقله نتيجة لتأثر عقله بالخمر وسكره، فإنما مثله في ذلك مثل الذي يعتنق دين الإسلام، فإنه يضل ضلالاً بعيداً لعدم التزامه بدين النصرانية، الدين الصحيح، مثل المنافق غير الملتزم.

وفي قصيدة ثالثة تتحدث عن الالتزام بالدين بعنوان «أغنية أو أنشودة السقيم» A Pindaric Ode يؤكد بتلر القول بأن غير الملتزم بالدين

---

(١) انظر : Alexander Chalmers (ed.), The Works of English Poets from Chaucer to Cowper, P.101 .

صاحب أهواء وشهوات ، يريد أن يبث أفكاره وآراءه بالقوة والعنف ، كما فعل محمد ﷺ الذي نشر دينه بقوة السيف :

For the Turks' patriarch Mahomet,
Was the first great reformer, and the chief
of th' ancient belief,
That mix'd it with new light and cheat,
With revelations, dreams and vision
To be held forth, and carry'd on by war [1].

لم ينتشر الإسلام بقوة السيف ، بل هو الجهاد في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وما قتل ممن قتل إلا لأنهم هم أعداء الله ، وقد كتب الله عليهم القتل بما استحقوه على أنفسهم مِنْ كفرهم بالله ومحادتهم لهم ، والإسلام يدعو الناس للدخول فيه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذه وصية القرآن الكريم إلى نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام ، حيث يقول جل وعلا :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [2].

ويقول الشاعر : هكذا الإنسان غير الملتزم أفكاره خلط من الأشياء ، كما خلط محمد ـ بطريق أو أسقف المسلمين ـ تعاليم النصرانية القديمة بشيء جديد من الأفكار والأحلام والمعتقدات ، وشيء من الدجل والشعوذات ، وطلبَ مِنَ الناس أن يقبلوا منه ذلك وقاتلهم عليه .

وأخيراً في قصيدة له بعنوان «آراء متنوعة »

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .

(٢)سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

Miscellaneous Thoughts ، فإن بتلر يستخدم كلمة مفتي في مقام يزدري به البابا في روما ، على أن كلمة مفتي كلمة تخص المسلمين وهي من مراتب العلم الرفيعة في الإسلام ، فالشاعر يقصد أن المفتي منافق يخدع الناس بحكم سلطته الدينية ، وهكذا يفعل البابا في الفاتيكان ، وفي جميع أبناء النصارىٰ في أنحاء العالم :

The Roman Mufti with his triple crown
Does both the Earth and Hell and Heaven own,
Beside the imaginary territory,
He lays a title in Purgatory(1)

إذا كان الدين النصراني في تعاليمه يعطي الرهبان والقساوسة السلطة لتطهير الناس ، وتخليصهم من الذنوب ، والعفو عنهم ، وإدخالهم الجنة بما يفتون به الناس ، ويأخذون مقابل ذلك الأموال ، فإن هذا ليس شأن المفتي المسلم ، الذي تقيده ضوابط شرعية لا يخرج عنها ، ولا يستطيع أن يخلص الناس من ذنوبهم ، ولا حتىٰ أن يشفع لأحد إلا بإذن الله .

ولا يستطيع المفتي أن يغير الشرع وأوامره ونواهيه ، فهو إنما يخبر عن الحكم الشرعي كما هو موجود في الكتاب والسنة ، أو أن يجتهد في الاستنباط من الكتاب والسنة ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، وما العلماء إلا ورثة الأنبياء (٢) . ولقد نهىٰ القرآن الكريم المسلم أن

---

(١) انظر : Alexander Chalmers (ed.), The Works of English Poets from Chaucer to Cowper, vol. 8. P.100.

(٢) حديث «العلماء ورثة الأنبياء» حديث صحيح أخرجه أحمد ٥/ ١٩٦ ، وأبو داود في سننه ٣/ ٤٣٢ ، والترمذي في جامعة ٣/ ٣٨١ ، وابن ماجه في سننه ١/ ١/ ٨١ ، والدارمي في سننه ١/ ٩٨ .

يقول بغير علم، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (١).

ومن الأدباء المشهورين الذين ظهروا في عصر التجديد خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر أو عصر التجديد: الشاعر ألكسندر بوب Alexander Pope (١٦٨٨ـ١٧٤٤م)، وهو أحد أبناء الكاثوليك المتعصبين.

عاش بوب مريضاً طوال حياته، وعلَّم نفسَه بنفسِه بسبب تردي حالته الصحية، التي لم تمكنه من التعلم في المعاهد، له إنتاج وفير، سار فيه على نفس منهج معاصره جون درايدن، وله عدد من الحوارات الأدبيه والتمثيلية، وعدد من دواوين الشعر، خصوصاً شعر أدب الرسائل المتصل بموضوعات الدين والأخلاق والفضائل (٢).

من أدب الرسائل مجموعته الشعرية بعنوان Eassy On Man، ومن قصائده المشهورة في كتب الأدب The Rape of the Lock، وله قصائد ملحمية هجائية في ديوان Dunciad، وموضوعها يتحدث عن السأم

(١) سورة النحل، الآيه ١١٦.

(٢) انظر: دراستنا المقارنة عن موضوع أدب الرسائل في الأدبين العربي والإنجليزي ممثلاً في الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، بحث قدم ضمن فعاليات المؤتمر العالمي لاتحاد اللغات والآداب الحديثة بجامعة قلف في كندا بعنوان: "The Literary and Linguistic value of: Epistle in English and Arabic', Fillm, University of Guelph, Canada, P. P. 261 - 280, 1989.

والغباء والملل ؛ الذي اعتبر فيه الملل والأديان ملكاً من الملوك أخذه شبح من الأشباح إلىٰ ناحية جبل ناء ليريه الماضي والحاضر والمستقبل، فنظر الملك إلىٰ الشرق، حيث نار تطلع من العين، وبها أضرم أحد ملوك الصين النار، وأحرق العين شعلة ترمز للعلم، إعلاناً أنه الأدب والتاريخ، الذي يبدأ في فترة حكمه وملكه، فيقول:

Thence to the south extend thy gladden'd eyes
There rival flames with equal glory rise,
From shelves to shelves see greedy Vulcan roll,
And lick up all physic of the soul :(١)

وبعد ذلك نجد الملك ينظر من ناحية الجبل، فيرىٰ هجوماً وحشياً من الشرق علىٰ النصارىٰ وعلمائهم في أوربا، وذلك هجوم الإسلام الذي دمر الشعوب، وخرب حضارات الأمم، ومنها حضارة الفينقيين(٢):

See the bold ostrogoths on latium fall ;
See the fierce visigoths on Spain and Gaul !
See, where the morning gilds the palmy shore
(The soil that arts an infant letters bore)
His conqu'ring tribes th'Arabian prophet draws,
And saving Ignorance enthrones by laws(٣)

هنا يصف الشاعر النبي محمداً ﷺ بتسلطه علىٰ الناس تحت شعار الشريعة والقانون، ولم يكن يعلم أن سلوكه يقوم علىٰ الجهل المطبق الذي لا حضارة له.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) المرجع السابق ص ٩٣.

(٣) انظر: Alexander Pope, The Complete Works of Alexander Pope, London, 1897, vol. 2, P.P.79-80.

وفي إحدىٰ رسائله الشعرية بعنوان رسالة إلىٰ الدكتور أربوثنت Epistle To Dr Arbuthont نجده ينتقد الكاتب الإنجليزي أديسون، الذي يحب التسلط علىٰ الناس، مثله في ذلك مثل السلطان التركي المسلم، الذي يحب أن يستأثر بالسلطة وحده، فيقول :

Should Such a man, too found to rule alone
Bear, like the Turk, no brother near the throne(1)

وأخيراً في رسالة شعرية أخرىٰ من مجموعة رسائل بعنوان Essay On Man يتحدث بوب عن شخص مسلم أخذ أسيراً؛ ليعمل في خدمة الملك جورج الأول ، واسم هذا المسلم محمد . والشاعر في قصيدته يومئ إلىٰ شخصية الرسول ﷺ ممثلاً في شخص هذا الخادم، الذي هو ابن باشا تركي ، واسمه يطابق نفس اسم النبي محمد عليه الصلاة والسلام :

From Peer or Bishop tis no easy thing
To draw the man who loves his God or King.
Alas ! I copy (or my draught would fail)
From honest Mah'mot or plain Parson Hale(2)

هنا يستخدم الشاعر كلمة (واحسرتاه) بصورة ساخرة، يوحي بها كيف أن المسلم خادم للنصراني ، ويعني بذلك أن النصرانية أعلىٰ من الإسلام .

وتجدر الإشارة إلىٰ أنه في الوقت الذي كتب بوب قصائده ورسائله ، التي تضمنت الحديث عن الإسلام، ظهر مقال أدبي عن قصة فتح جبريل عليه السلام صدر النبي ﷺ وغسله بالماء عندما كان عند بني سعد عند حليمة

(١) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق.

السعدية ، وهذا المقال لم يعرف كاتبه ، ولكنه قال صاحبُه منكراً من القول وزوراً ، منه أن الرسول عليه السلام مُدَّعٍ دجال، يقول عن حلم رآه : إن جبريل فتح صدره وغسله [١]، وما ذلك إلا من الأحلام ونسج الخيال، وليس من الحقيقة في شيء [٢] .

إن الإيمان بالغيبيات - كالإيمان بالملائكة والجن - من أركان الإيمان الأساسية؛ فإن ما يُجريه الله من معجزات لأنبيائه مما لا تدركه العقول البشرية المحدودة، والقول بأنْ لا إيمان إلا بما هو محسوس، يجعل كل إنسان ينفي وجود أشياء كثيرة ثابتة ؛ لأنه لم يحسها ، ولم يرها ، فهو ينفي وجودها، وهذا هو الجهل المطبق، والعناد والتعسف الذي أدىٰ بأهل الكتاب إلىٰ الهاوية . واليوم يقوم الأطباء بإجراء عملية جراحة القلب وزراعته، فالذي أعطىٰ الأطباء القدرة علىٰ ذلك، قد أعطىٰ الملائكة مثل تلك القدرة، وبصورة لا تماثل في حادثة شق صدره ﷺ، ولا يصح لعاقل أن يقول : نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

وعن فكرة ضريح الرسول عليه السلام المعلق علىٰ ظهر الكعبة في الهواء، نجد أحد الشعراء الإنجليز في هذه الفترة ينظم قصيد بعنوان Alma ؛ لقد كتب ماثيو بريور (١٦٦٤-١٧٢١م) Matthew Prior هذه القصيدة من منطلق ديني؛ لأنه تتلمذ علىٰ يد رجال الدين، وتعلم ذلك في كنيسة لندن

(١) رواه البخاري ٧/ ١٦٩ برقم ٣٨٨٧، ومسلم ١/ ١٤٧ برقم ١٦٢ .

(٢) انظر : Spectator,No.94,18 June. 1711.

وست مينستر، ثم بعد ذلك في كلية القديس جون بجامعة كمبردج، وكتب قصائده الدينية التي تدعو إلى النصرانية، وفيها امتهان للإسلام والمسلمين، إذ إن الشاعر - إضافة إلى عمله التبشيري - كان يعمل في السلك الدبلوماسي والأعمال التجارية مع تركيا وأوربا، وبعض دول شمال البحر المتوسط (١).

ولقد أخذ فكرة ضريح محمد من مقالات أديسون، وأخذ عنوان قصيدته Alma أو تطور الفكر The Progress Of Mind من قصيدة الشاعر إدموند سبنسر (ملكة الجان) وكلمة «ألما» Alma تعني حارسة منزل المزاج أو الأمزجة.

والقصيدة طويلة جداً تقع في ثلاثة أناشيد رئيسة، توضح عدم التوازن في الأهداف الإسلامية، خصوصاً في شخص الرسول ﷺ، وضريحه.

That Alama merely is a Scale
And Motives like the Weights prevail
If neither side turn down nor up
The Balance always would hang ev 'n
Like Mahomet's Tomb'twxit Earth And heaven (٢)

ومن الشعراء الوطنيين الذين عملوا في السلك السياسي كأحد أعضاء البرلمان البريطاني: الشاعر رتشارد قلوفر (١٧١٢ - ١٧٨٥م) Richard

---

(١) انظر: Charles Kenneth Eves, Mathew Prior : Poet and Diplomatist, Columbia University Press, New York, 1939, P. 150 .

(٢) انظر: H. Bunker Wright (ed.), The Literary works of Matthew Prior, The Clarendon Press, Oxford, 1959,P.490.

Glover ، كتب بعض المسرحيات ، وله عدد من الدواوين الشعرية ، واشتهر بمجموعة قصائده التي بعنوان Hosier Ghost .

أما عن الإسلام ، فقد كتب قصيدة له عام ١٧٣٩ م بعنوان « لندن أو تطور التجارة » London or the Progress of Commerce يطالب فيها الحكومة البريطانية أن تقيم جيشاً قوياً ، له قدرة كبيرة وفائقة لمحاربة الأعداء ، وأن تعمل الحكومة البريطانية على التحالف مع أي قوة تساعدها وتؤازرها ضد الأعداء ، كما فعل محمد نبي المسلمين ، الذي اتحد حتى مع من يكرههم في سبيل تحقيق مطامعه وأهدافه :

Though Mahomet Could league
His powerful crscent with hostile Gaul[1]

والشاعر كتب هذه القصيدة في حملة ضد حزب العمال الحاكم في ذلك الوقت ، والذي لم يعمل على حفز الهمم لمحاربة المسلمين .

ومن شعراء عصر التجديد المجيدين - وإن كان مقلاً في إنتاجه الأدبي ، بسبب وفاته المبكرة ، إذ لم يتجاوز الثامنة والثلاثين - الشاعر وليم كولنز (١٧٢١ - ١٧٥٩ م) William Collins. تعلم وتخرج في جامعة أكسفورد ، وكان شعره غنائياً ، وقد طبع بعض إنتاجه وهو لا يزال يدرس بالجامعة ، مثل قصيدته المشهورة باسم «أناشيد رعاة الفرس» Persan Eclogues ، التي ظهرت عام ١٧٤٢ م ، وأعيد طبعها مرة أخرى بعنوان «أناشيد شرقية»

(١) انظر : Alexander Chalmers (ed.), The Works of English Poets from Chaucer to Cowper, vol. 17, P.22.

Oriental Eclogues عام ١٧٥٩ ، وله جملة قصائد غنائية أخرى مثل : «أغنية المساء» Ode to Evening ، «وأغنية البساطة» Ode to Simplicity ، وله بعض الرسائل الشعرية .

وفي قصيدته الطويلة «أناشيد رعاة الفرس» الواقعة في أجزاء متعددة ، وعلى صورة فصول ومشاهد مسرحية ، يتحدث فيها كل شخص مع الآخر في حوار عن حياة الرعاة والمراعي وبهيمة الأنعام . ومن أبرز الشخصيات الإسلامية التي تعرض في القصيدة : شخصية سليم الراعي المهتم بالأخلاق ، وشخصية حسن من رعاة الإبل ، وشخصية أبرا السلطانة ، والهاربان عاقب وإسكندر ، والأحداث التي ترسمها القصيدة كلها تجري في البلاد الإسلامية في صحراء بلاد العرب وجبال تركيا والعراق .

وخلاصة القول ، فإن الشاعر انتهى إلى أن المسلمين سفاحون ، محبون لسفك الدماء ، وإهلاك الحرث والنسل :

To shield your Harvest, and defend your Fai ;
The Turk and Tartar like Designs pursue,
Fix'd to destory and stedfast to undo
Wild as land, in native Deserts bred,
But lust incited or by Malice led
The Villian-Arab as he prowls for Prey
Oft marks with Blood and wasting flames the way (1)

هكذا كان وصف الشاعر للمسلمين من الأتراك والمغول والعرب بأنهم قساة كريهون وحوش ، مثل وحشة الصحراء وقسوتها .

---

(١) انظر : Roger Lonsdale (ed.), Thomas Gray and William Collins : Poetical works, Oxford University Press, London, 1977, P.126.

والشاعر إدموند ولار (١٦٠٦-١٦٨٧م) Edmund Waller حاكم منطقة أكسفورد المشهور تلقىٰ تعليمه في جامعة كمبردج، وتخرج فيها ليعمل نائباً في البرلمان. كتب عدداً من القصائد الحماسية والرسائل، بعض قصائده تتحدث عن الحروب الصليبية، وضرورة محاربة المسلمين والقضاء عليهم، وفي إحدىٰ قصائده بعنوان «الهجوم علىٰ الأتراك وهزيمتهم» The Invasion and Defeat of the Turks، والتي كتبها بعد أحداث حصار فينا عام ١٦٨٣م، فإن الشاعر أخذ يمجد الملك تشارلز الثاني، ويصفه بأنه أمير اختارته السماء ليوحد النصارىٰ، ويقودهم لمحاربة المسلمين، فيقول :

A Prince more fit from Heaven we can't ask
That Britain's King for such glorious task
His dreadFul navy and his lovely mind
Give him fear and favour of mankind(١)

ولما توفي الملك تشالرز الثاني، ولم يتمكن من محاربة المسلمين، رثاه الشاعر، وأمل في خلفه الملك جيمس أن يحارب العدو اللدود، فيقول في قصيدة له بعنوان :

A Presage Of The Ruin Of The Turkish Empire
Peace to embrace, ruin the common foe
Exalt the cross and lay the crescent low(٢)

هنا تتجلىٰ عداوة الشاعر للمسلمين ؛ ليؤكد علىٰ ضرورة تدمير المسلمين، وأن يرفع الصليب عالياً وينزل الهلال إلىٰ أسفل سافلين.

وفي قصيدة بعنوان «من الحب» Of Love، فإن ولار يرسم صورة

---

(١) انظر : Thorn Dury (ed.), The Poems of Edmund Waller, London 1893, P.P.228-230.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠-٢٣٣.

أحد المسلمين بصفته مراقباً خارجياً يشاهد ظاهرة اختلاط النساء بالرجال الموجودة في المجتمع الإنجليزي، والعلاقة السيئة بين الجنسين، وهي علاقة اصطلح عليها المجتمع، وليس ذاك مثل ما فعل المسلمون بكثرة النساء وتعدد الزوجات، واتخاذ الجواري والسراري، فيقول :

Should some brave Turk, that walks among
His twenty lasses bright and young,
And beckons to the willing dame
Preferred to quenchhis present flame(1)

إن الشاعر في هذه القصيدة يقول : إن المسلمين يعبدون المرأة لشهواتهم الظاهرة ليطفئوا لهيبها، وتعدد الزوجات أوضح دليل على ذلك، كما أنه ضمناً ينكر التعدد لما تحمله الأبيات من سخرية وازدراء.

ومن شعراء عصر التجديد الذين كتبوا عن الإسلام يطالعنا اسم الشاعر أبراهام كاولي (١٦١٨ ـ ١٦٦٧م) Abraham Cowley أحد أبناء أثرياء مدينة لندن، تخرج من كلية الثالوث بجامعة كمبردج، وقد قرض الشعر وكتب في بعض فنون الأدب وهو لا يزال في العاشرة من عمره. كتب قصة ملحمية بعنوان Pyramus and Thisbe، وله مجموعة كبيرة من القصائد، منها Loves Riddle، «لغز الحب» The Guardian، و«الوصي» The Mistress، و«الخليلة» Odes on the Restoration، «وأغاني عن عصر التجديد».

وفي قصيدته التي هي بعنوان «إلى السيد هوبز» To Mr Hobs

(١) المرجع السابق، ص ٨٧ ـ ٨٨.

يتحدث الشاعر عن العلم والمعرفة والفلسفة من لدن أرسطو وحتى هوبز Hobs، ويقول: كيف إن العرب حافظوا على تراث الحضارة الإغريقية، وساعدوا على نقلها إلى الغرب، بالرغم من نكاية محمد بالعلم والعلماء، بوحشيته الضارية ونفسيته الجاهلة:

Long did the migty Stagirite retain
The Universal intellectual reign
Saw his own countrys short - liv'd Leopard Slaini
The stronger Roman Eagle did out fly
Oftener renewed his Age and saw that Dy
Mecha itself in spite of Mahumet possest
And chas'ed by a wild Deluge from theEast
His Monarchy new planted in the West(1)

والشاعر هنا يشير إلى أنه بالرغم من أن دين محمد، الذي جاء من مكة المكرمة، فإنه يؤكد بأن العرب وليس المسلمين هم الذين أخرجوا جملة تراث اليونان إلى الغرب، لتقديرهم لأعمال الإغريق أمثال أرسطو. فقد ترجموا كتبهم ومعارفهم، على عكس محمد وأتباعه، الذين يحاربون العلم والمعرفة.

هذا قول غير حق، فالإسلام لا يوجد دين مثله يدعو إلى العلم؛ فمنذ العهد الأول في فجر الدعوة الإسلامية والرسول ﷺ يدعو المسلمين للعلم، فانظر كيف فعل عليه الصلاة والسلام عندما اشترط في فداء أسرى بدر أن يعلم كل أسير عشرة من أبناء المسلمين مقابل فك أسره(٢). ثم يكفي أن

(١) انظر: Abraham Cowley, Poems, Cambridge, 1905, P.188.

(٢) طبقات ابن سعد. ٢/ ٢٢ انظر مسند الامام أحمد ٤/ ٤٧ برقم ٢٢١٦ والمنتقى لابن تيمية برقم ٤٣٨٧.

نتدبر هذه الآيات المحكمات من كتاب الله العزيز، يقول تعالىٰ:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[١].

وقوله جلا وعلا: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[٢].

وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[٣].

وهذا رسول الله ﷺ يحث علىٰ طلب العلم وتعلمه، فيقول عليه الصلاة والسلام: « طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم »[٤]، وقال عليه السلام: « الخير عادة والشر لجاجة، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[٥]، وقال ﷺ: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلىٰ الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض حتىٰ الحيتان في الماء، وإن فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب، إن العلماء ورثه الأنبياء إن الأنبياء، لم يُوَرِّثوا

(١) سورة التوبة، الآيه ١٢٢.

(٢) سورة فاطر، الآيه ٢٨.

(٣) سورة المجادلة، الآيه ١١.

(٤) ابن ماجه، باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم.

(٥) المرجع السابق ١/ ٨٠ برقم ٢٢١، وأخرجه أحمد في الزهد ٢٨١ من كلام الحسن.

ديناراً ولا درهما، إنما وَرّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[(١)].

فهل بعد هذا كله يأتي من يقول: إن الإسلام ضد العلم، وإن الرسول ﷺ لم يشجع العلم ولم يحث عليه، وإن المسلمين لم يعتنوا بالعلم، هذا إفك وافتراء مبين.

إن المسرح والأدب المسرحي خلال عصر التجديد لم يكن له إسهام واضح في الأدب الإنجليزي، حيث لم تظهر عناصر تجديدية أو مسرحيات متميزة طورت هذا اللون من الأدب، إذ إن كتاب المسرحيات لم يكن لهم نشاط يذكر؛ لأنهم كرروا الموضوعات السابقة في كتاباتهم، بالرغم من ظهور ممثلين بارعين، ولكن لم تظهر مسرحيات رائعة، إذ إن معظم المسرحيات اعتمدت على إنتاج الأدباء السابقين، أمثال شكسبير في عصر النهضة، وأمثال جون درايدن في أوائل عصر التجديد، ذلك لأن حركة الطهريين في إغلاق المسارح عام ١٦٤٢م، والحد من نشاط الأدب المسرحي أعاق تطور هذا الفن مدة طويلة.

وعندما حاول السير دافينانت Sir William Davenant إنشاء الجمعيات المسرحية، كان عليه أن يبدأ المشوار من بدايته بتقديم فنيات جديدة لجذب المشاهدين، وإثارة اهتماماتهم، وتقديم ما يوافق الذوق العام، حيث إن متطلبات الأدب المسرحي والمشاهدين في عصر التجديد كانت تختلف

(١) سنن ابن ماجه ١/ برقم ٢٢٣ . وقوله: «ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة»، أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ برقم ٢٦٩٩.

عما كان عليه الحال زمن شكسبير في عصر النهضة، وحيث إنه منذ ظهور الفن المسرحي لم يكن يسمح للنساء بالتمثيل أو ظهورهن على خشبة المسرح. وكان يستعاض عن النساء (في الأدوار التي تتطلب المرأة) بالأولاد الذين هم دون سن البلوغ، وأصواتهم قريبة من أصوات النساء حتى هذا الأمر توقف بسبب حركة الطهريين، التي جعلت المسرح مقصوراً على الطبقة العليا من المجتمع . كل هذه الأسباب كان لها تأثير واضح في الأدب المسرحي.

ومع هذه الأحداث والأحوال التي حدَّت من تطور الأدب المسرحي، إلا إنه ظهر عدد كبير من المسرحيات التي ظهرت في عصر التجديد تتحدث عن الإسلام؛ فموضوع النبي محمد ﷺ والخلفاء الراشدين، والحديث عن الشرق والأسماء الإسلامية كثر في هذه المسرحيات، بسبب ما لحق النصارى من الهزيمة الفادحة على أيدي العثمانيين عندما فتحت القسطنطينية، فإنه كثر الحديث عن الدولة العثمانية وسلاطينها، والتعريض بالإسلام، وأَنه إنما انتشر بقوة السيف والجبروت والطغيان، ولعل سبب كثرة المسرحيات التي صدرت تتحدث عن الإسلام في عصر التجديد ؛ يعود - كما أشرنا سابقاً - إلى أن العقود الأخيرة من عصر التجديد، والعقود الأولى من القرن الثامن عشر ظهر فيها اهتمام الغرب بالمسلمين والشرق كثيراً، لتيسر سبل المواصلات وكثرة كتب الرحلات. وصادف ذلك ترجمة «ألف ليلة وليلة» إلى معظم اللغات الأوربية.

وكانت الكتابات المسرحية التي ظهرت في عصر التجديد ازداد فيها عنف الأدباء في الإساءة إلى الإسلام والمسلمين والقرآن الكريم والسنة المطهرة، وإلى الرسول ﷺ؛ لأن نفوس الكتاب ظلت تلتهب بنفس الروح التي كانت سائدة منذ العصور الوسطى، وما قبلها في عصر الحروب الصليبية. حتى إن بعض الأدباء كانوا يضمنون إنتاجهم الأدبي إشارات إلى الإسلام، أو ذكر بعض الأسماء الإسلامية ولو من باب الترصيع أو من باب التقليد والمتابعة بقصد تذكير القراء بهذا العدو الذي يجب محاربته.

ومن كتاب المسرحية في عصر التجديد الذين كتبوا عن الإسلام نجد الأديب وليم كونجريف (١٦٧٠ ـ ١٧٢٩م) Wiliam Congreeve، ولد بمدينة صغيرة بالقرب من مدينة ليدز لأسرة إنجليزية قديمة. وعاش مع والديه في أيرلندا، حيث تعلم بها وتخرج من كلية الثالوث بمدينة دبلن. وكان صديق دراسته الروائي المشهور جوناثن سويفت Johnathan Swift، وكان كونجريف يرغب العمل في حقل القانون والمحاماة، ولكنه ترك ذلك في سبيل دراسة الأدب.

لقد كتب كونجريف عدداً من المسرحيات، منها: Love For Love وظهرت عام ١٦٩٥م، و The Double Dealer طبعت عام ١٦٩٤م، وIncognita ونشرت عام ١٦٩٢م، وكذلك The Way of the World والتي ظهرت عام ١٧٠٠م.

وكان كونجريف قد اشتهر براويته التي هي بعنوان «العجوز الأعزب»

The Old Bachelor، والتي ظهرت عام ١٦٩٣م، ومعظم مسرحياته كانت من نوع الملهاة التي تتحدث عن السلوك والأخلاق، ولم يكتب سوى مأساة واحـدة، هي : The Mourning Bride، وطبعت عام ١٦٩٧م ، وهذه المسرحية تحدث فيها المؤلف عن الإسلام كما يظن بعض النقاد، وهي تقع في ثلاثة فصول، مع عدد من المشاهد في كل فصل، مع مقدمة وإهداء لأحد الأمراء الإنجليز ، والمسرحية ـ كما يقول الدكتور جنسون ـ تحتوي على مقطوعات شعرية رائعة، بل هي من أرفع روائع الشعر الإنجليزي، مما جعل المسرحية تعد من المآسي المشهورة في الأدب الإنجليزي.

وبالنظر في المسرحية، فإن القارئ لايجد فيها شيئاً له صلة بالأسماء سوى أسماء شخصيات من المسلمين، ومنها : عثمان أحد النبلاء السجناء، وصديقه خليل، وسليم أحد الخصيان. وأحداث المسرحية تجري في فارس قبل الإسلام (١).

ولكن في مسرحية «الطريق إلى العالم» The Way of the World كتب كونجريف فيها عن الإسلام بوضوح . وهذه المسرحية ملهاة تقع في خمسة فصول رئيسية مع مقدمة وخاتمة، معظمها مكتوب بالنثر الحواري، ويتخللها بعض الأبيات والمقطوعات الشعرية والغنائية ، وجميع شخصياتها نصرانية، وفيها يتحدث المؤلف عن حرية شرب الخمر التي يتمتع بها كل

(١) انظر : John C. Hodges, William Congreeve The Man, Oxford University Press, London, 1941, P.P.57-61.

إنسان إلا المسلم، الذي يحرم ذلك على نفسه بسبب دينه القاسي، الذي يحرم الملذات.

وفي أحد المناظر تتحدث السيدة وشفورت إلى ابن أخيها السير ولفول غاضبة منه ؛ لأنه يكثر من الشرب حتى الثمالة، فتنهره قائلة : «يجب أن تعيش مع الأتراك المسلمين»، ثم يجيبها هو بقوله : إن المسلمين هم آخر من يمكن أن يتعاطف معهم؛ لأنهم يحرمون شرب الخمر على أنفسهم، لأنهم ملاحدة وثنيون، ولا يحبون العنب :

To drink is a christion diversion
Unknown to the Turk or the Persion
Let Mahometan fools
Live by heathenish rules
And be damned over teacups and coffee.
But let British lads sing
Crown a health to the king
And a fig for your sultan and sophy[1]

هكذا يسخر السير ولفول من المسلمين، ويدعو البريطانيين لشرب الخمر في صحة الملك، ويتركوا أكل التين للسلطان المسلم وأمثاله من الصوفية، الذين حرموا العنب وعصيره على أنفسهم ، هكذا يؤكد ولفول قوله عندما يستطرد في الحديث مع عمته، ويقول لها : « الأتراك كل الأتراك يا عمتاه، إنهم ملاحدة، لا يعتقدون في العنب ، المحمدي المسلم

---

(١) انظر : Alex Charles Ewald (ed.), The Plays of William Congreve, London , n.d., P.386.

شخص حقير ذليل نتن »[1] . ثم إن عمة ولفول تظن ما يظنه ابن أخيها، وترىٰ أنه يجب ألا يعيش مع النصارىٰ، بل ليكون مكانه مع الشرقيين المسلمين، أو التتار أو الأتراك عباد الأوثان [2]، وهذه المسرحية لم يكتبها كونجريف لإمتاع القراء والمشاهدين ، بل كتبها ليبرز مقدرته الفنية والأدبية في فن المسرحية، الذي تدهور منذ حركة الطهريين. وهذه المسرحية مشهورة في تاريخ الأدب الإنجليزي.

ويعد السير وليم دافينانت (١٦٠٦ـ١٦٦٨م) William Davenant أحد الرواد المؤسسين لأدب المسرح الغنائي Opera عندما كتب مسرحية The Siege of Rodes . وقد كتب هذا الأديب عدداً من المسرحيات : The Tragedy Of Albovine ظهرت عام ١٦٢٩م، The Cruel Brother ظهرت عام ١٦٣٠م. The Platonick Lovers، وأخيراً The Unfortunate Lovers طبعتا عام ١٦٤٣ .

وفي مسرحية حصار روداس The Siege of Rodes تناول دافينانت الحديث عن الإسلام ، وموضوع المسرحيه هو الحب والشرف، حيث إن البطل الصقلي الفونسو استل سيفه، ونذر أن يحاصر الأتراك المسلمين ؛ لينقذ محبوبته إنيث التي أسرها القائد المسلم سليمان، وبشيء من الحقد نجد أن المؤلف جعل أحد الشخصيات المسلمة ـ وهو أحد الوزراء ـ يتحدث عن أن

---

(١) المرجع السابق.

(٢)المرجع السابق ، ص ٦٧ـ٧٠ .

الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ، وأنه لم ينتشر إلا بحـــد السيف، فيقول :

'Tis well our Valian Prophet did
In us not only loss forbid,
But has conjoin'd us still get
Empire must move apace
When she begins the race
And apter is for wings than feet(1)

إن المؤلف أراد من أحد المسلمين أن يتحدث بسوء عن الإسلام ورسوله ﷺ؛ ليثبت أن المسلمين أنفسهم يقرون بأن الإسلام انتشر بحد السيف، لا بالدعوة والحكمة والموعظة الحسنة، وهذا ما يدل على ما تعتمل به نفس الكاتب بأن ينظر إلى المسلمين بأنهم متعطشون إلى القتل والتوسع والتسلط، بقصد السيطرة على الشعوب.

وقد غفل المؤلف عن أن الدعوة إلى الله ونشر الدعوة الإسلامية بحد السيف من الموضوعات التي استأثرت بكثير من اهتمام الكتاب، حتى صغار الأدباء، ومنهم فولك جريفل (١٧٥٤-١٨٦٥م) Fulke Greville الذي كتب مسرحية مأساوية بعنوان «مصطفى» Mustaph عام ١٨٢٩م، وفيها تحدث المؤلف عن السلطان سليمان القانوني، وكيف أن مسألة القتل عنده سهلة وبسيطة، حتى إنه قتل ابنه الأكبر لأنه لم يبد ولاءه للإسلام ونبيه محمد ﷺ؛ فقتل هذا الابن ثم نصب ابناً آخر له من وزجته روكسانا ليتولى الملك من بعده. والمؤلف تحدث عن السلطان سليمان القانوني بكل سوء؛

(١) انظر : William Davenant, The Dramatic Works, Edinbrugh, 1872-1874, vol. 3, P. 273 .

لأنه هو ذلك الرجل الذي أخاف أوربا، وتوسعت في عهده الخلافة بما تم له من فتح كثير من البلـدان الأوربية .

ومن الكُتّاب الذين كتبوا عن موضوع انتشار الإسلام بقوة السيف كما يزعمون السير روجر بويل (١٦٢١-١٦٧٦م) Sir Roger Boyle . لقد كتب بعض القصص، والمسرحيات؛ فمن قصصه : Parthenissa وهي قصة حب وقتال وفروسية بين محبوب باريثينسيا وأحد أمراء العرب الذي أسر تلك الفتاة . كما أن المؤلف له رسالة عن فنون الحرب والقتال، ولكنه اشتهر بمسرحيته المأساوية «إبراهيم باشا» Ibrahim The Illustrious Bassa. وأهم الشخصيات الإسلامية في المسرحية السلطان سليمان القانوني ، ووزيره إبراهيم باشا، ومجموعة من علماء الصوفية، ومفتي الأتراك، وأحد الباشوات، وهو مراد باشا . وموضوع المسرحية يتعلق بالحب والشرف ، ذلك عندما وقع ابنا السلطان سليمان القانوني زانجر ومصطفى في حب ملكة هنغاريا، هذا الحدث أدى إلى نزاع كبير بين الأخوين، مما أزعج السلطان كثيراً، ولكن المؤلف صرف أحداث المسرحية إلى زوجة السلطان روكسانا، التي خدعت زوجها في أمور كثيرة، واكتشف أمرها بعد ذلك، فطلقها وأبعدها عن البلاد . وهنا يصور المؤلف السلطان سليمان على أنه متحيز عنيد، لا يتحدث ولا يتصرف في سلوكه إلا بلغة السيف، كما هو شأنه مع الممالك المجاورة له، وهو في عنفه وتسلطه مثل النبي محمد ﷺ، الذي نشر دينه بحد السيف ، وفي هذا الصدد نجد الوزير

إبراهيم باشا ينصح السلطان بأن يكون قوياً بقوة الحرب ، وأن يقاتل الأعداء والخونة بالجبروت وحده :

In Lazie peace Le Christion Monarch rust
Who think no war, but what's defensive just.
Our Valiant Prophet did by slaughter rise.
Conquest a part of our religion is (1)

بهذا التصوير صوَّر المؤلف سلطان المسلمين سليمان القانوني على أنه رجل سيئ ومصاص للدماء ، وأنه - كما قال وزيره - يجب أن يعمل على القتل والهيمنة كما يملي عليه الإسلام ، وهذا ليس بالحق ، ولكن النصارى دأبوا على تشويه صورة الإسلام والمسلمين .

ومن أبرز كتاب المسرحية وأشهر أدباء عصر التجديد ، الذين ينسب إلى اسمهم هذا العصر أحياناً في كتب تاريخ الأدب : الأديب جون درايدن (١٦٣١-١٧٠٧م) John Dryden ، وهو من أسرة عريقة ، تربى على تعاطفه مع أحزاب البرلمان والعمل السياسي ، فقد كتب بعض قصائده عن كروميل ؛ ومدح الملك تشارلز الثاني بعد عودته إلى الحكم ، ومدح كنيسة إنجلترا ، وأساء إلى الفاتيكان ، ولكنه عاد عن ذلك ، وأيقن أن الكنيسة في روما أفضل وأصدق ديناً ، وأصبح شاعر البلاط الملكي لفترة من الزمن ، ويعد من عظماء الأدب الإنجليزي في عصره ؛ إذ يصل إلى مصاف تشوسر وسبنسر وشكسبير وملتون وغيرهم .

---

(١) انظر : Roger Boyle, Ibrahim The Illustrious Bassa, Chapman, London, 1694, P.51.

ولقد كتب درايدن أكثر من عمل أدبي فيه الإشارة إلى الإسلام والمسلمين في بعض قصائده ومسرحياته، ومن تلك المسرحيات: «مسرحية المنصور والمهدي، أو فتح غرناطة» Almanzor And Al Mahide or The Conquest of Granada، وقد ظهرت عام ١٦٧٢م. والمسرحية تقع في جزأين كبيرين، كل جزء به عدد من الفصول والمشاهد، مع مقدمة وخاتمة. وجميع الشخصيات ممن لها وزن في الإسلام وتاريخه، منها: الخليفة محمد آخر ملوك غرناطة، وحليمة إحدى الأسيرات وحبكة المسرحية وموضوعها مأخوذان من مسرحية الكاتب الفرنسي مادلين دي سكيدري بعنوان المهدي Almahide، والتي في أساسها تقوم على رواية دي حتى de Hita Gines Pere بعنوان Gueras Civiles de Granada، والتي تصور النزاع بين فرسان المسلمين المور المغاربة السُّمْر، وبين فرسان النصارى، والمنازلات القتاليه قبل سقوط غرناطة، وفيها تظهر بسالة المنصور، ذلك الفارس المغوار الذي جاء من إفريقيا لمساعدة المسلمين ضد الأسبان، ولكنه ما لبث أن وقع في حب خطيبة الأمير المهدي.

والمسرحية تصور بطريقة رومانسية الحياة في غرناطة، وبطولة المسلمين، بالرغم من أن المؤلف يجعل المنصور في نهاية المسرحية على أنه من أصل أسباني ويدين بالنصرانية، ليؤكد بطولة النصارى وشجاعتهم، وعدم شجاعة المسلمين، وهنا نجد المؤلف يصور المسلمين على أنهم يقدمون الصدقات لبهيمة الأنعام بصرف النظر عن الإنسان وحاجته، وهذا رمز إلى

بهيمة الإنسان وعدم إنسانيته :

Our holy Prophet wills that charity
Should even to birds and beats extended be
None knows what fate is for himself designed
The Thought of human chaance should make us kin. (١)

إن مثل هذه الإشارات والأقوال عن الإسلام - كما يقول ولتر سكوت في مقدمة المسرحية - كثيرة، خصوصاً الإشارات إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى النبي محمد ﷺ، القصد منها تحقير الإسلام، كما يتضح فيما يلي :

O holy Alla that I live to see
The Granadines assist their enemy !
You fight the christians battles; every life
You lavish thus in this intestine strife
Does from our weak foundations take one prop
Which helped to hold our private enemity country up. (٢)

ويرى المؤلف أن الدعوة الإسلامية باطلة وغير صحيحة، عندما تحدث عن قتال المسلمين و النصارى، وأن ذلك لا يقوم على هدى سليم أو منهج مستقيم، وإن أقسم المسلم بالقرآن، فيقول :

Swear on the Alcoran your cause is right
And Mahomet so prosper in fight(٣)

والكاتب هنا يؤكد أن المسلم لو حلف بالقرآن فإنه يشك أن محمداً يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

---

(١) انظر : Walter Scott (ed.),The Works of John Dryden, London,1808, vol.4, P.39.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩١ .

وفي القصيدة المسرحية أو التمثيلية The Hind and the Panther «العامل والنمر» التي ظهرت عام ١٦٨٧م، وهي مسرحية شعرية طويلة تقع في ثلاثة أجزاء، موضوعها الحديث عن الأديان والمقارنة بينها، انتهى درايدن فيها إلى القول بأن أرفع الأديان وأفضلها الدين المسيحي، وقد ذكر المؤلف في مسرحيته هذه قصة فرعون مع موسى، وقصة انفلاق البحر، إضافة إلى بعض القصص المحرفة الموجودة في التوراة والإنجيل. وقد كتب درايدن مسرحيته هذه عندما تحول من المذهب البروتستانتي إلى المذهب الكاثوليكي، وفي المسرحية تحدث الكاتب عن حمامة النبي ﷺ، التي زعمها النصارى، وأنها الروح القدس، ومصدر الوحي الإلهي لنبي الإسلام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام:

New doubts indeed they daily strove to raise
Suggested dangerous interposed delays
And emissary Pigeons had in store
Such as the Meccan prophet used of yore,
To whisper counsels in their patron's ear
And veiled their false advise with zealous fear .(1)

بهذه المشاعر يصف درايدن نبي مكة ﷺ، وفي وجه المقارنة بين المذهب البروتستانتي والمذهب الكاثوليكي، ويخلص إلى القول بأن محمداً عليه السلام أشبه بالمذهب البروتستانتي؛ لأنه يدعي غير المعقول، وكل دينه إفك ومحض افتراء.

وفي مسرحيته بعنوان «النساء المتنافسات» The Rival Ladies التي

(١) المرجع السابق ج ١٠، ص ٢٥٨-٢٥٩.

طبعت عام ١٦٦٤م، و التي تعد نموذجاً لاستخدام الأبيات المزدوجة أو الثنائية Heroic Couplet في الشعر ، يتحدث درايدن عن المسلمين، وأنهم أشرار، وأن على النصارىٰ عدم التقاعس عن مقاتلة المسلمين [(١)] .

ومن مسرحيات درايدن التي ظهرت قبل وفاته بفترة قصيرة: مسرحية بعنوان «دون سابستيان» (١٦٩٠م) Don Sabastian ، وهي مسرحية كتبت نظماً ونثراً ، وهي من أحسن ما كتب درايدن في عصر التجديد . والمسرحية تجمع بين مزايا الملهاة ومزايا المأساة، وتحكي قصة ملك البرتغال سابستيان، الذي وقع أسيراً عند أحد ملوك المسلمين من المور المغاربة السُّمْر، وهو مولاي محمد، وكان مع ملك البرتغال محبوبته الأميرة الميادة .

وفي المسرحية تروي الأميرة الميادة وحشية الملك المسلم، الذي أمر بقتل ملك البرتغال أشراً وبطراً، الذي لقي حتفه قبل أن ينفذ أمر القتل، الأمر الذي أنقذ سابستيان ومحبوبته من شر ذلك الملك الطاغية بأعجوبة القدر . والمسرحية فيها إساء ة كبيرة للإسلام والمسلمين، والتعريض بهم، ومن ذلك أن مفتي المسلمين أمر بقتل أسرىٰ الحرب قرباناً إلىٰ النبي محمد ﷺ، فيقول المفتي :

For this victorious day our mighty Prophet
Expects your gratitude, the sacrifice
of Christian slaves, devoted, if you won
(Muley Moluch) The purple poesent shall be richly paid

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

Wine is a holy livoue for the greet[1]

إن ذبح النصارىٰ هو مما يتقرب به إلىٰ النبي كما يقول المفتي، وقد قصد الكاتب أن يصور المسلمين علىٰ أنهم يحبون القتل، وأن نبيهم يفرح بذلك، وفي نفس المسرحية يتحدث الملك مع المفتي عن الصيام وشرب الخمر، فيطلب المفتي من المسلمين أن يتركوا الصيام، وعلىٰ الأعداء أن يتعلموه، وأن شرب الخمر لا يجوز للدهماء من البشر، ولكنه جائز للسادة والكبراء والملوك والأمراء، لأن الخمر هو الشراب المقدس، فيجوز لهم، فيقول المفتي:

Fasting is but the letter of law
Yet it shows well to preach it to the vulgar
Wine is against our low that's literal too
But not denied to kings and guides;[2]

أي مفتٍ ينكر الصوم، ويبيح المحرمات؟ لا بد وأن هذا المفتي من صنع المؤلف درايدن، الذي يريد أن يظهر علماء المسلمين بصورة المنافقين.

إن من أنكر ركناً من أركان الإسلام فقد كفر، ومع هذا نجد الكاتب يستمر في تصوير المسلمين بأسوأ صورة عندما يتحدث عن الملك المسلم الذي يطلب من المفتي أن يفسخ عقد القران بين سابستيان ومحبوبته الأميرة الميادة، وألا يعبأ بحكم الإسلام، وما جاء في القرآن، فيجيبه المفتي بقوله: لا عليك، بالرغم من أن الشريعة لها ضوابطها إلا أن المفتي هو سيبيح له

(١) المرجع السابق، ج ٧، ص ٣١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٥.

ذلك، حيث يقول :

Tis true our law forbids to wed a christian
But it forbids you not to ravish her .[1]

يا له من مفتٍ جاهل، صنعه كاتب جاهل بالحكم الشرعي بالقرآن وبحقيقه الإسلام، وإباحة زواج المسلم من الكتابيات .

إن درايدان ركز كثيراً على شخصية المفتي خلال مسرحيته ، وهو يعلم أن عمل المفتي من الأعمال الدينية المهمة في الإسلام ؛ لذا فقد أراد أن يزعزع ثقة المسلمين في العلم والعلماء ، والمسرحية كلها إشارات إلى القرآن الكريم، وإلى الرسول العظيم ﷺ، وإلى المفتي وابنته مريم ، وذلك في ثنايا الفصل الثاني والرابع فيها، نجد أن ابنة المفتي هربت مع أحد النصارى لعدم إيمانها بالإسلام وعدم اعتقادها في القرآن، وأنها تريد أن تعتنق النصرانية[٢] .

وأخيراً نجد درايدن في مسرحيته بعنوان «حب المساء» (١٦٦٨م) An Evening's Love، أو منجم ساخر The Mock Astrologer ، وهي مسرحية في خمسة فصول وتقع أحداثها في أسبانيا، ومعظم شخصياتها من غير المسلمين .

إن المؤلف ازدرى فيها الإسلام كما فعل في غيرها من مسرحياته،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) هذا الموقف يذكرنا بمسرحية «تاجر البندقية» لشكسبير، الذي جعل جيسيكا ابنة اليهودي شايلوك تهرب مع الشاب لورنزو الذي تزوجته واعتنقت المسيحية؛ لأن اليهود كما يصورهم شكسبير هم الشيطان، وهكذا أراد درايدن أن يقول بأن المسلمين شياطين .

وعنوانها الثاني « منجم ساحر »، يرمز به إلى شخصية الرسول ﷺ، وفيها تصوير ماجن لشخص إنجليزي، اسمه واليد بلود ، وهو يجامع فتاة اسمها جاكينتا ، وقد جرى بينهما حديث طويل، استنكر الإنجليزي بادئ الأمر أن تكون الفتاة مسلمة ، ولكنه ما لبث أن صدقها، وصار يحلف لها بالله وبمحمد :

Wildblood : Are you then a Mahometan ?
Jacinta : A Mussulman at your service.
Wildblood : A Mussulwoman Say you ?
Jacinta : But In earnest Do you love me ?
Wildblood: Ay by allah do I, most extemely ?
Jacinta : And can you be constant to me ?
Wildblood : By Mahomet Can I.
Jacinta : You swear like a Turke, sir ; but take heed ; for our prophet is a severepunisher of promisebreakers .
Wildblood : Your prophet's a cavalier . I honour your prophet and his law for providing so well for us lovers. (١)

هكذا يصور درايدن أن المرأة المسلمة تحب العهر والفجور، كما يرى في شخص جاكينتا التي رضيت أن تكون مبتذلة بين يدي نصراني امتهنها، ولم يعجبه من الإسلام وشريعته ونبيه عليه السلام سوى النساء المسلمات في الشرق الجميل . ويقول بعض النقاد: إن هذه المسرحية من أقذر ما كتبه درايدن ، لأن المسرحية تتعلق بالعهر والفجور، وتدل بذلك على سفاهة كاتبها وسوء خلقه (٢).

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤.

ومن المعلوم أن بعـد درايدن جـاء عـدد من الكتـاب الذين نالـوا من الإسلام كـثيـراً في بعض مـسرحـياتهم ، فلقد كـتبت أفـرابهن (١٦٤٠ـ ١٦٨٩م) Aphra Behn مـا يزيد عن خـمس عشـرة مـسـرحـيـة ، إلا أنهـا اشتهرت بمسرحيتها The Rover، التي صدرت عام ١٦٨١م.

وعن الإسلام فـقد كتبت (بهن) مسرحية بعنوان «عبدالآزر أو انتقام المسلم» Abdelaer or the Moor Revenge (١٦٥٧م)، والمسرحيـة تقع في خمسة فصول ومقدمة وخاتمة. وشخصيات المسرحية معظمها من المسلمين، وحبكتهـا تحكي أن أحـد ملوك أسبـانيـا سطـا على مـدينة فـاس في المغـرب، وقتل ملكهـا المسلم الأسـود من المور المغـاربة السـمر الأمـر الـذي تسبب في ترمل زوجتـه، وتيـتم ابنه الوحـيـد عبـدالآزر، الذي أخـذه الملك الأسبـاني معـه، وجعله تحت وصـايته، وفي حمـايته، إلى أن كبـر هذا الأمير، وأصبح أحد قـواد الملك ، وكان هذا الأمير يطمع دائماً في الانتقـام ليأخذ بثأر أبيه ؛ وكانـت زوجة الملك الأسباني تهـوىٰ هذا الأمير، لشهـوتها العـارمة وشبـقهـا الظاهر، وهنا تأتي الصور البشعة التي صورت بها المؤلفة هذا الأمير على أنه محب للمعصية، مجالس للنساء، وأنه قد واقع الملكة زوجة الملك أكثر من مـرة، ودبـر مكيدة لقتل زوجـها، وجـاء في مقـدمة المسـرحية بأن العـاطفـة الجنسيـة التي طغـت على هـذه المأسـاة بـدت طبيـعـيـة في الأحـداث؛ لأنهـا أظهـرت بربـرية الأمـير وشـهـوته وهمجيته [1]، وقـد كـان هـذا الأمير يوصـف

(١) انظر : Montague Summer (ed.), The Works of Aphra Behn, =

في ثنايا المسرحية بأنه بربري متوحش، وأنه صاحب قوة وحشية ضاربة، قائمة على معتقدات باطلة في دينه واعوجاج في سلوكه، وأنه نذل خسيس، إضافة إلى كثير من الشتائم وعبارات السباب التي وجهتها الكاتبة للمسلمين(١).

وفي نفس التاريخ الذي ظهرت فيه مسرحية عبدالآزر لافرا بهن عام ١٦٧٥م، ظهرت مسرحية مأساوية لكاتبها نيفل باين Nevil Payne وعنوانها «حصار إستانبول أو القسطنطينية» The Siege of Constantinople. تقع المسرحية في خمسة فصول رئيسة، ولا يوجد بها سوى شخصية إسلامية واحدة من الشخصيات الرئيسة، وهو الباشا التركي سنان، إضافة إلى مجموعة من الجنود الأتراك المسلمين. وموضوع المسرحية يتعلق بإحدى الغزوات التي حاول فيها المسلمون فتح القسطنطينية قبل أن يفتحها السلطان محمد الفاتح، وفي المسرحية كان الملك الروماني يتحدث مع وزرائه وأعوانه عن السبيل للدفاع عن المدينة، ورفع الحصار الذي ضربه المسلمون عليها، وقوله بأن المسلمين لا رحمة في قلوبهم، وأنهم أهل حرب وفساد(٢). وفي الفصول التالية يتحدث الإمبراطور عن أمنيته في القضاء على المسلمين وسحقهم، فيقول:

= London, 1675, vol.2, P.4.

(١) المرجع السابق، ص ٥، ٩٢.

(٢) انظر: Nevil Payne, The Siege of Constantinople, Dring, London, 1675, P.P.1-14.

Theophilues command that all the forces
Do presently drow out I will myself
Share part of the Glory in the Turk Defeat[1]

إن نيكولاس رو (١٦٧٤ـ١٧١٨م) Nicholas Rowe من أدباء عصر التجديد، الذين اهتموا بالأدب المسرحي كثيراً . ولد وتعلم في لندن، وأصبح فيها محامياً، ثم ترك مهنته ليعمل في الأدب وبالذات في كتابة المسرحيات ؛ إذ إنه كتب ما يزيد عن عشر مسرحيات في الفترة من ١٧٠٠م حتى ١٧١٦م، ومن مسرحياته «زوجة الأب الطموح» (١٧٠٠م) The Ambitious Stepmother، وتيمورلنك (١٧٠٢م) Tamerlane «ويوليسيس» (١٧٠٦م) Ulysses .

أما مسرحية «تيمورلنك»، فهي المسرحية التي تناول فيها الحديث عن الإسلام؛ إذ إن المولف كتبها لأغراض سياسية لمدح الملك وليم الثالث، على أنه يمثل تيمور لنك الذي انتصر على المسلمين ، وقد استفاد الكاتب من مسرحية مارلو بنفس العنوان، والتي ظهرت في عصر النهضة، وفيها صور نيكولاس رو تيمورلنك على أنه رجل نبيل، له أخلاق وشيم عالية وراقية، لا يحب إراقة الدماء أو الحروب، لولا أنه أكره على ذلك بسبب السلطان العثماني بايزيد، الذي صوره الكاتب على أنه في ذلك مثل الملك الفرنسي لويس الرابع عشر[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٢) انظر : J. R. Sutherland (ed.),Three Plays by Niholas Rowe, London, 1929, p.106.

وبالرغم من أن تيمور لنك في مسرحية مارلو أظهر عداونه للإسلام وحرق كتب القرآن والحديث، إلا أنه في هذه المسرحية جعله المؤلف يعطي أحاديث عن الدين وأهميته، حتى إن أحد الدراويش نصبه نبياً من الأنبياء، فيقول :

Prophet, take notice, I disclaim thy Paradise
Thy fragnant Bow'rs and ever lasting shades,
Thou has plac'd Woman there, and all thy Joys are tainted(1)

هكذا نرى تناقض الأدباء في أقوالهم، واختلاط الأمور عليهم، فمفهوم النبي غير واضح عندهم ، وكذا مفهوم الإله . وبعضهم يرى أن الإسلام يحتقر المرأة، وتيمور لنك جاء ليرفع من مكانة المرأة، وهكذا يزداد التناقض والاختلاف من كاتب إلى كاتب، ومن عصر إلى عصر ، سببه الجهل بالإسلام وحقيقته التي هو عليها .

إن موضوع محمد نبي الإسلام ﷺ من الموضوعات، بل والأسماء البارزة في الأدب المسرحي الذي استأثرت به عدد من المسرحيات التي كتبت في عصر التجديد، فلقد كتب جوزيف تراب Joseph Trapp مسرحية عنوانها Abra - Mule موضوعها يظهر الموقف البطولي، والحب العنيف، والعواطف المتأججة في قصة فتاة نصرانية وقعت أسيرة لدى أحد السلاطين المسلمين الأتراك، واسمه محمد الأول ، وكانت هذه الفتاة تعيش مع نساء السلطان، وكان السلطان يحبها كثيراً ، وصادف أن أخا السلطان وقع في

(١)المرجع السابق.

حبها أيضاً ؛ وقد حاول عشيقها النصراني أن ينقذها من الأسر، ولكن ما لبث أن كشف أمره، وتعرض هو وهي إلىٰ عذاب شديد، ولكنهما هربا من ظلم محمد، كما يشير المؤلف إلىٰ ذلك، حيث استخدم اسم محمد إشارة إلىٰ الرسول محمد ﷺ ، ويقصد بذلك أن كل إنسان بهذا الاسم إنما هو ظالم يفرق بين المحبين ، ويسومهم سوء العذاب ، وعلىٰ هذا المنهج سار تشارلز جورنج Charles Goring في مسرحية «إرين» أو «الإغريقية الحسناء» Irene or the Fair Greek ، إذ أن المؤلف يتخذ من اسم محمد شخصية للإساءة إلىٰ صاحب ذلك الاسم ، ألا وهو الرسول الكريم ﷺ.

من المعلوم إن تشارلز جنسون Charles Johnson كتب مسرحية اسمها السلطانة The Sultaness في عام ١٧١٧م. وموضوع المسرحية وشخصياتها ومعظم أحداثها مستقاة من مسرحية الأديب الفرنسي راسين بعنوان بايزيد Bajazet. وفيها أظهر المؤلف أن المسلمين أصحاب خيانة وفساد، ذلك أن السلطان بايزيد خرج لبعض أموره ، وترك مقاليد الحكم لزوجته روكسانا التي كانت تحب أخا زوجها ، وكان أخو الزوج يحب إحدىٰ أميرات القصر، وهي الأميرة أتليدا . والمسرحية تنتهي بنهاية مأساوية، وإراقة كثير من الدماء، أظهرت قسوة السلطان دون تمييز بين حق أو باطل ، والمسرحية قصيرة جداً، ولكن لا توجد فيها أي إشارة صريحة إلىٰ الإسلام، إلا أن المؤلف قصد النيل من المسلمين والإسلام ممثلاً في

شخص السلطان المشهور بايزيد، الذي كان يحارب النصارىٰ والأوربيين، فجعله عنواناً لمسرحيته .

ومن المعلوم أن ديفيد مالت (١٧٠٥-١٧٦٥م) David Mallet من كتاب الشعر الغنائي، ولكنه عرف بكتابة المسرحيات، ومنها مسرحيته المأساوية بعنوان «مصطفىٰ» Mustapha، والتي ظهرت عام ١٧٣٩م، وتقع المسرحية في ثلاثة فصول رئيسة ومقدمة وخاتمة . وأهم شخصياتها الإسلامية مصطفىٰ وزنجار ابنا السلطان العثماني سليمان القانوني، ورستان وزير السلطان، والمفتي، وأحمد وعثمان صديقا مصطفىٰ، وكل هذه الشخصيات صورت علىٰ غرار الشخصيات التي احتوتها مسرحية «مصطفىٰ» لروجر بويل، التي سبق ذكرها في هذا الفصل ، ولكن حبكة المسرحية بدت أقل تأثيراً بسبب موضوعها السياسي، الذي قامت عليه أحداث المسرحية ، ولكثرة الإشارات الرمزية فيها أيضاً . والمسرحية مليئة بالإشارت إلىٰ الإسلام والإساءة إلىٰ المسلمين، ومنها حديث المفتي إلىٰ الوزير رستان عن نية الملك في الحد من حرية ابنه مصطفىٰ، عندها حلف رستان بملك الموت عزرائيل قائلاً :

By Azrael, the angel that must sever
His soul and mortal part ! I was in hopes,
His execution, Mufti had been ordered .[1]

وفي مقام آخر نرىٰ السلطان سليمان ينظر إلىٰ زوجة ابنه مصطفىٰ

(١) انظر : David Mallet, The Works of David Mallet, London,1759,P.190.

وجمالها، فيقول محدثاً نفسه عن جمالها وأنها مثل حوريات الجنة :

Fancy not fairer points those heavenborn maids,
Daughters of Paradise for ever young
For ever blooming; who on beds of flowers,
By streams of living water, soft repose
To crown th' immortal bliss of happy souls
With raptures Unconceiv' d[1]

ومن المسرحيات التي تحدثت عن موضوع البطولة : ما كتبه جورج ليلو (١٦٩٣ - ١٧٣٩م) George Lillo، عن شخصية جيورجو كاستريوتا Giorgio Castriota وهي شخصية نصرانية تعلمت فنون الحرب والفروسية عند المسلمين، ثم خذلهم وأصبح ضدهم، وحاربهم ونازلهم، كما فعل النصراني البطل في مسرحية The Christrian Hero التي ظهرت عام ١٧٣٥م .

وجورج ليلو أديب مسرحي مشهور كتب عددا من المسرحيات، منها «تاجر لندن» The Merchant of London، ومسرحية «الفضول المحتوم» Fatal Curiosity .

ومسرحية «البطل النصراني» The christian Hero مسرحية أصيلة في موضوعها وشخصياتها، من أبرز الشخصيات التي ظهرت في المسرحيات في عصر التجديد التي كتبت عن موضوع أسكندر بك . والمسرحية تقع في مقدمة وخاتمة وخمسة فصول. ومعظم الأحداث تجري في منطقة ألبانيا، وبعضها في تركيا ، وقد قسم المؤلف شخصيات المسرحية إلى قسمين :

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٢-٢٠٣ .

القسم الأول ، وأسماه شخصيات الأتراك ، يعني المسلمين ، ومنهم السلطان التركي مراد وعمورة ومحمد وعثمان الوزير وهيلانا . والقسم الثاني - وأسماه شخصيات النصارىٰ - ومنهم : إسكندر بك وأرانت وآلثيا . لقد كان إسكندر بك أحد النبلاء النصارىٰ الذي أنقذ حياة محبوبته آلثيا من أسرها لدىٰ المسلمين ، وفي نفس الوقت فإن هيلانا ابنة السلطان مراد كانت تحب إسكندر بك الذي حاول الهرب معها ، وثارت لذلك ثائرة السلطان ، وبدأ غضبه ، وأصبح يندد ويشتم الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله ﷺ :

False or ungrateful Prophet ! Have I spread
Fell Devastation over half the Globe,
To raise the Crescent's pale, uncertain light,
Above the christians, glowing, crimson Cross
In hoary Age to be rewawded thus !
He doth well
Death has o'er took me Lord of so many
Oppressed with age, misfortune, grief and Shame
Amusath breathes his last, and leaves his bones
To beg from foes an ignominious grave(1)

إن المسلم لا يشتم الله ورسوله ، وإنما ذلك هو من عمل اليهود والكفار والملاحدة ، فقد وصف اليهود الله سبحانه وتعالىٰ بالبخل والشح ، وما علموا أن ما عند الله لا ينفد ، وأنَّ ما عند الله باق ، وأن الله الكريم الرزاق هو أغنىٰ وأقنىٰ ، وبيده ملكوت السموات والأرض ، ومع هذا كله قالت اليهود - كما يحكي القرآن عنهم في قوله تعالىٰ - :

---

(١) انظر: Thomas Davies, The Dramatic Works of George Lillo, : Lowndes, London, vol.1, P.259.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾[1].

وأمعن اليهود في مثل قولهم هذا عندما قالوا ـ كما حكى القرآن عنهم في قوله جل وعلا ـ:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿٦٤﴾﴾[2].

إن أهل الكتاب هم الذين يسبون الله وكتابه الكريم ورسوله، وهذا الكاتب وما سطره من أقوال وغمز ولمز، وطعن ولعن لله وكتابه ورسوله وسنته المشرفة، لدليل قاطع على أن أهل الكتاب هم السفهاء . والمسلم لايجوز له شتم الله، وهو محرم عليه. وإن فعل ، فحكمه أن يقتل بعد الاستتابة حداً، وليعلم أن الإسلام ينهى المسلمين أن يتعرضوا إلى الكفار وآلهتهم بالسب أو الشتم، حتى لا يردوا عليهم فيسبوا الله ، وهذا صريح القرآن في قوله جل جلاله :

﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[3].

وفي المسرحية كلها من حين لآخر يؤكد المؤلف على ضرورة اتحاد قوى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨١ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٤ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٨ .

النصرانية لمواجهة الإسلام.

ومن المسرحيات التي اعتمد موضوعها على التاريخ الإسلامي: مسرحية «المينة أو القسم العربي» Almyna or The Arabian Vow. وقد كتبتها الأديبة الإنجليزية ماري ديليفري مانلي (١٦٦٣-١٧٢٤م) Mary de Lariviere Manely من النساء اللائي تعبن في حياتهن كثيراً، تزوجت ابن عم لها، فخدعها لأنه كان متزوجاً من امرأة أخرى، فأصابها إحباط كبير، مما دفعها إلى دراسة الأدب، والتنفيس من خلاله عن مشكلاتها النفسية. من مسرحياتها مسرحية New Atlantis ظهرت عام ١٧٠٩م.

أما بالنسبة لمسرحيتها «المينه»، والتي تتحدث فيها عن الإسلام، فهي تقع في خمسة فصول، وموضوعها يقوم على قصة حياة الخليفة المسلم الوليد بن المنصور، الذي هزم أسبانيا واستولى عليها، إضافة إلى هذه القصة، فالمسرحية بها بعض الموضوعات المتعلقة بقصص «ألف ليلة وليلة»[1]، وشخصيات المسرحية منها الخليفة الوليد سلطان المسلمين، وأخوه عبدالله، ووزيرهما الأكبر، وشيخ الدراويش، ورئيس الخصيان، والمينة كبرى بنات الوزير، وأختها زريدا.

وأحداث القصة تجري في بلاد العرب دون تحديد واضح للمكان،

---

(١) انظر: Marry Manely, Almyna or The Arabian Vow, William Turner, London, 1707, P.P.2-3.

وفيه تتحدث المؤلفة عن امتهان المسلمين للمرأة، وأنه لا إحساس عند المسلمين أو شعور نحو المرأة، وأنه لا قيمة لها، والدليل على ذلك ما فعله السلطان شهريار بالنساء في قصص ألف ليلة وليلة، حيث تزوج نساءاً كثيرات وقتلهن وهن بريئات . وفي المسرحية أثبتت البطلة المينة للسلطان أنها ذات حس وروح، وأثبتت أن لها قيمة في المجتمع، ولذلك فقد تنبه السلطان، وقرأ ما يدل على ذلك في القرآن الكريم، وما كان من شيخ الدراويش الخضر إلا أن أوضح تفسير ذلك بقوله :

,The Right is his
To explain what in our holy Alcoran,
Or dark or deep or difficult appears,
Hence he expounds that failer Womankind,
Have mortal Souls, in common with the Brutes :
So are they born to dye, to perish ever.
Not to immortal life ordain'd as we,
No Blissful Paradise, nor cursed Tree of Zacon(1)

إن تفسير الخضر بالقول بأن المرأة لها قيمة، وأنها من بني البشر، تموت وتحيا، وتكون في الجنة، ولا تأكل من شجرة الزقوم الملعونة، كل ذلك يفسر لك أن المؤلفة قصدت أن تصور السلطان بأنه رجل جاهل، لا علم له بالشريعة ، فإذا كان المسلم يجهل شريعته ، والمعرفة بدين الإسلام، فمن الذي يعرف حقيقة الإسلام ؟ والمسرحية مليئة بالأيمان والحلف غير الجائز، الذي أجرته المؤلفة على ألسنة الشخصيات المسلمة، كالحلف بالرسول . . .

(١)المرجع السابق ، ص ٩٩.

إلخ .

إن ماري بكس Mary Pix من أديبات عصر التجديد اللاتي كتبن في فن المسرحية ، وقد كتبت عن الإسلام مسرحية ظهرت عام ١٦٩٦ م «بعنوان إبراهيم الثالث عشر إمبراطور الأتراك Ibrahim the Thirteenth Empror of the Turks ، وقد صدَّرت المؤلفة مسرحيتها هذه باعتذار للقراء بأنها قرأت عن التاريخ الإسلامي التركي كتاباً في مكتبة أحد أصدقائها ، وفكرت في كتابة المسرحية ، وأنها لم تتذكر أن إبراهيم كان الإمبراطور الثاني عشر أم الثالث عشر ، إلى أن طبعت المسرحية .

والمسرحية تتضمن مقدمه وخاتمة وخمسة فصول ، وجميع أحداثها تقوم على بعض أحداث التاريخ الإسلامي الذي شوهته وزيفته المؤلفة . ومن شخصيات المسرحية السلطان إبراهيم باشا ، وآزم الوزير الأكبر ، والمفتي ، ومصطفى أغا ، وسليمان صديق مراد بن مصطفى أغا ، وموريثا ابنة المفتي ، وجارتها زادة . والمسرحية قصيرة جداً ، وأحداثها مختصرة ، والإشارة إلى الإسلام جاءت بصورة بسيطة فيها أيْمَان وحلف باسم الرسول ﷺ في موقف خلافي بين بعض المسلمين ، ويظهر المفتي في موقف نزاع معين ، ويحلف بالنبي ، فيقول :

Now by our prophet, what's all this but gaudy Pageantry
All acted scenes of pomp show[1]

---

(١) انظر : Mary Pix, Ibrahim The Thirteenth Empror of the Turks, John Hardy, London, 1696, p.2.

أي إن خلافات المسلمين الدينية والسياسية إلخ مجرد استعراض للقدرات، وهي مواقف تمثيلية ليس فيها جد أو حق.

كما كتبت ماري بكس مسرحية أخرىٰ عن الإسلام ظهرت بعد مسرحيتها الأولىٰ بتسعة أعوام، أي عام ١٧٠٥م. تسمىٰ هذه المسرحية «فتح إسبانيا» The Conquest of Spain ، معظم شخصياتها غير إسلامية، ماعدا الأسير المسلم وبعض العساكر من جيش المسلمين، وفيها أن الملك روزوريق سطا علىٰ ابنة الأمير جولينيس أحد أمراء الممالك الإسبانية، فما كان من الأمير جولينيس إلا أن استعان بأحد الأمراء المسلمين وجنوده ليغزو الملك روزريق؛ لينتقم لابنته جاكينتا. وخلال عملية إنقاذ الأميرة جاكينتا تصور المؤلفة بطولة محبوب تلك الأميرة، وأنه فارس شجاع، استطاع ببسالته إنقاذ الأميرة، ولكن المسلمين الذين استعان بهم الأمير أبدوا جبناً وخوراً وخوفاً.

ومن أدباء عصر التجديد يطالعنا الأديب إدوارد ينج (١٦٨٣ـ ١٧٦٥م) Edward Young. تعلم وتخرج في جامعة أكسفورد، وحصل علىٰ الزمالة في القانون، ولما فشل في العمل السياسي لكي يكون نائباً في البرلمان، درس الدين والعلوم النصرانية، وأصبح قسيساً، وظل كذلك حتىٰ توفي، وقد كتب الشعر، وله عدد من المسرحيات أهمها Busiris، و The Revenge.

وفي المسرحية الثانية بعنوان «الانتقام» التي نشرت عام ١٧٢١م تناول

المؤلف الإسلام والمسلمين، وهي مسرحية مأساوية بمقدمة وخاتمة وفصول خمسة، تركز على ضرورة توحيد القوى النصرانية، ومحاربة المسلمين، واستئصال شأفتهم من على الأرض، ولا توجد في المسرحية سوى شخصية الأمير المسلم زنجا، الذي وقع في الأسر في يد أحد النصارى، الذي عمل جاهداً لفك أسره، والانتقام من سوء المعاملة التي وجدها من المسيحيين، وعناصر الحسد والبغض والشك التي اعتملت بها نفس النصراني نتيجة للعذاب والإساءة التي عانى منها كثيراً، الأمر الذي أدى بزنجا أن يناجي الرسول، ويدعوه وكأنه ربه، فيقول :

Be Propitious
O Mahomet, on this important hour
And give at tength my famish'd soul revenge !
what is revenge, but courage to call in
Our honour's debts and wisdom to convert
Other's self - love into our own protection .(١)

هنا صور المؤلف الرسول على أنه إله المسلمين، فما كان من الأسير إلا أن يدعو إلهه لينقذه، وهو - أي المؤلف - يشير إلى هذا الإله بسخرية من النبي محمد ﷺ ودينه، وتنتهي المسرحية بقتل المسلم الذي كان ذنبه الوحيد أنه كان مسلماً، وقد رمز المؤلف بذلك إلى أنه يمكن قتل الإسلام والمسلمين بهذه السهولة التي قتل بها المسلم (٢).

---

(١) انظر : Edward Young, The Revenge: A Tragedy, Oliver Boyd, Edinburgh, n. d., P.6.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨.

ومن المسرحيات المشهورة في عصر التجديد مسرحية جون هيوز John Hughes بعنوان «حصار دمشق» The Siege of Damscus ، وهي مسرحية مأساوية طويلة في مقدمة وأربعة فصول وعدد كبير من المشاهد ، والشخصيات تنقسم إلىٰ نصرانية ومسلمة ، فمن الشخصيات النصرانيه : أميونز حاكم مدينة دمشق، وابنته إديوكيا، وصديقهما هريز وفوكياس، أحد الأعيان الشرسين من سوريا، ومن الشخصيات المسلمة - وهي شخصيات الشرقيين Saracens كما أطلق عليها المؤلف ذلك الاسم -: خالد قائد جيش المسلمين، ومساعده أبو عبيدة، وداران أحد الفرسان، وبعض قواد الجنود من العرب . وقد اتخذ المؤلف دمشق مكاناً لأحداث المسرحية، وموضوعها يقوم علىٰ تاريخ فتح المسلمين لمدينة دمشق، ورغبة كثير من سكان المدينة البقاء في دمشق بعد فتح المسلمين لها ، ولكن بعض الناس طلبوا اللجوء إلىٰ بلدان أخرىٰ، وحملوا معهم أمتعتهم وأموالهم، وكان من بين الفارين فتاة من بنات النبلاء، وقد وقعت هي ومحبوبها جونز في أيدي العرب المسلمين، الأمر الذي جعل جونز يعتنق الإسلام تحت تهديد السلاح، وقد ساهم في إرشاد المسلمين إلىٰ النصارىٰ، مما جعل تلك الفتاة تجزع وتقتل نفسها بسبب سلوك محبوبها، وبسبب قهر المسلمين للناس . ويوضح المؤلف أن إسلام جونز إنما كان خديعة ليتخلص بها من أذىٰ المسلمين [١]، ولكنه بعد فترة وجيزة غدر جونز بقائد المسلمين خالد وقتله .

(١) انظر : John Hughes, The Siege of Damscus, John Walts, =

والحديث عن الإسلام - وخصوصاً عن النبي ﷺ - كثير في هذه المسرحية، خصوصاً عن سفره ﷺ إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وعن هجرته ﷺ إلى المدينة، وعن بعض غزواته عليه السلام مع مشركي مكة، وتصوير تلك الغزوات على أنها الدعوة إلى الدين بقوة السيف، وقال: إن الشهادة هي زعم من النبي ﷺ، وأن من يقاتل للدعوة إلى الإسلام، فيقتل يدخل الجنة لاستشهاده. إنه ليقين كل مسلم مؤمن أن ما وعد الله به عباده الشهداء المجاهدين في سبيله حق آتٍ لا ريب فيه، وقد وعدهم سبحانه بأن مصيرهم إلى الجنة خالدين فيها، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال تعالى:

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أعدّ الله لمن خرج في سبيله لا يُخرِجه إلا جهادٌ في سبيله وإيمانٌ وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة

=London,1770, P.P. 2-17.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٧٤.

أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[١]. وقال ﷺ: «المجاهد في سبيل الله مضمون على الله إما أن يكفته إلى مغفرته ورحمته، وإما أن يرجعه بأجر وغنيمة، ومثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم الذي لا يفتر حتى يرجع»[٢].

وهنا وعلى لسان القائد خالد يتحدث عن جنة المسلمين، فيقول :

Hear, all ! Poepare ye now for boldest deeds
And know, the prophet will reward your valour.
Think that we all to certain triumph move;
Who falls in fight yet meets the prize above.
There, in the gardens of eternal spring,
while birds of Paradise around you sing.
Each with his blooming beauty by his side
Shall drink rich wines that in full rivers glide,
Breathe fragnant gales o'er fields of spice that blow,
And gather fruits immortal as they grow;
Eastatic bliss shall your whole powers employ
And every sense be lost in every joy[٣]

وهذا الوصف للجنة حقيقي، كما جاء في القرآن الكريم، وعلى الأخص في سورة محمد، ولكن المؤلف يقول ذلك بشيء من السخرية بما يتصل بذكر الرسول ﷺ، ووعده للمسلمين بالجنة[٤]، ويستمر المؤلف ليتحدث عن الإسلام كما في الحوار التالي بين أبي عبيدة وفوكياس،

(١)رواه ابن ماجه ، كتاب الجهاد ٢٠/ برقم ٢٧٥٣، وقد أخرجه البخاري ومسلم بنحوه.

(٢) المرجع السابق ٢٠/ برقم ٢٧٥٤ وقوله (يكفته) أي يضمّه.

(٣)انظر : John Hughes, The Siege of Damscus, P.P. 25-26.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٩.

حيث قال :

The light divine whose beams
Pierc'd thro' the gloom of Hera's sacred cave
And there illumined the great Mahomet,
Arabia's morning star, now shines on thee
Arise salute with joy the guest from heaven
Follow he steps and be no more a captive
Turn they eye to Mecca ! Mark
How far from Cabba first, that hallow'd temple
Her glory dawn'd. then look how swift its course
As when the sun beams shooting thro'a cloud
Drive o're the meadow's face the flying shades(1)

نعم إن المؤلف يذكر الإسلام بكلام طيب عن انبثاق نور الإسلام من غار حراء ، وإشعاع نوره على الدنيا ، ومن ذلك الغار المقدس خرج محمد العظيم، ولم يقل النبي العظيم ، وجعل مكة، حيث بها أقدم معبد ليكون قبلة المسلمين، كلام عام غير دقيق ، وليس فيه اعتراف بنبوته ﷺ.

وعلى العكس من مسرحية «حصار دمشق»، فإننا نجد مسرحية بعنوان «محمد الدجال» Mahomet The Imposter، وقد ظهرت عام ١٧٤٤م، وهي تحوير وترجمة لمسرحية فولتير بعنوان «التطرف أو محمد النبي» Fanatisme ou Mahomet le Prophete ، قام بتحويرها وترجمتها الكاتب الإنجليزي جيمس ميلر James Miller . والمسرحية بمقدمتها وفصولها الخمسة تتحدث في نفس موضوع مسرحية فولتير، وهو اعتبار بعثة الرسول ﷺ نازلة حلت بالعالم، والحقّ أنها ـ كما ذكر القرآن ـ رحمة للعالمين، قال

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[١]. ووجه المأساة هو أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، بعث وببعثته نسخت اليهودية والنصرانية، وما كان ذلك ليروق اليهود وأتباعهم من النصارىٰ، الذين عادَوُا الإسلام، وحادوا عن الحق.

ومسرحية ميلر تختلف قليلاً عن مسرحية فولتير، ففي مسرحية ميلر توجد شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه بدلاً من شخصية الزبير رضي الله عنه عند فولتير ، وأن الرسول عليه السلام لم يكن رسولاً، بل هو دجال جاء يطلب الحياة والمال باسم الدين [٢] ، وأن المسلمين أتباع الرسول لا يعتقدون أنه نبي ، بل يعتقدون أنه إله عظيم يعبدونه ، لأنه سيدخل الناس جنة جديدة لم يسمع بها أحد ، ولم تخطر علىٰ قلب بشر، وأن من لا يصدقه سيكون مثواه جهنم وبئس المصير .

والمؤلف يتحدث بهذا، وكل كلامه سخرية بنبي الإسلام عليه أزكىٰ الصلاة والسلام ، وهذه جملة من الافتراءات أوردها المؤلف في مسرحيته، ويؤكد في أكثر من مرة أن الشهوة والطموح هما أغراض النبي في دعوته :

Lust and ambition ---- are the springs
Of all his actions, whilst without one virtue
Dissmulation, like a flatt'ring painter
Bedecks him with colouring of them all[٣]

---

(١) سورة الأنبياء الآيه ١٠٧ .

(٢) انظر : James Miller,Mahomet The Imposter, London 1764,P.23.

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١ .

ثم يستمر المؤلف ليقول: إن النبي محمداً ﷺ شهواني يحب النساء، وهو يعبدهن ويقدسهن فيقول:

Fruit of my labours idol of my incense
And sole divinity that I adore[1]

بئس ماقال هذا الكاتب من زور وبهتان، وحاشاه عليه الصلاة والسلام، فإنه لم يتزوج عليه السلام للشهوة، وكل من تزوجهن من النساء كُنَّ ثيبات، عدا عائشة رضي الله عنها. ولم يتزوج إلا ليشرع لأمَّتُه بألاَّ يستنكف المسلم عن زواج الثيب، وقد تزوج من تزوج عليه السلام إكراماً لأزواجهن الذين تركوهن بعد وفاتهم، أو كنَّ صالحات مؤمنات ونحو ذلك. والرسول ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فكثير من الرسل من قبله كان له أزواج وذرية، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾[2].

والواضح من العرض السابق أن المسرحية في عصر التجديد هي اللون الأدبي الذي استأثر بالحديث عن الإسلام أكثر من أي لون آخر من ألوان الأدب، وكان هذا العصر مليئاً بكثرة الشتائم والإساءة الموجهة إلى الإسلام أكثر من العصور السابقة، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) سورة الرعد، الآية ٣٨.

الباب الثامن

القرن الثامن عشر

القرن الثامن عشر

١٧٤٠ - ١٨٠٠م

هذه الفـتـرة من تاريخ الأدب الإنجليـزي تمثل الجـزء الثـاني من القـرن الثامن عشر ، إذ إن الجزء الأول كان يقع ضمن فترة عصر التجديد، وهذا العصـر يمثل بداية ضـعف قوة الدول الاسـلامية، الذي ظهـرت بوادره في أواخر القرن السابع عشر، خصوصاً عندما دخلت الدولة العثمانية في حرب ضـروس مع روسـيـا منذ عـام ١٧٦٢م، وكـانت إيران ترزح تحت وطأة الخلافات السياسية والصراعات المذهبية والمنازعات الشعبية ؛ وبدأ حكم البرابرة في الأفول في شمال أفريقيا وحول منطقة البحر المتوسط، وازداد نشاط حركة الأوربيين وسجلاتهم المكتوبة عن الإسلام والمسلمين، من ذلك كتاب جونز هان دي بعنوان «عرض تاريخي عن التجارة البريطانية في بحر القزوين» A Historical Account of the British Trade over the Caspian Sea . وفي الكتاب عرض ومقارنة لنظام الحكم في تركيا ونظام الحكم في إيران، والخلافات القائمة بين النظامين ، وشرح لمواقع المدن الإسلامية، وأهميتها الاستراتيجية .

ومن المؤلفات التي صدرت في هذه الفتـرة ، ولهـا صلة بالإسـلام والمسلمين : كتاب القائم بالأعمال البريطانية في حلب، وهو الإسكندر

رسل Alexander Russel ، حيث ألَّف عام ١٧٥٦م، كتاب «التاريخ الطبيعي لحلب» The Natural History of Aleppo ، والكتاب يتحدث عن جغرافية مدينة حلب، وسكانها، وطبيعة الناس بها وحياة النبات والحيوان، كما أن الكتاب تحدث بإعجاب عن المسلمين وحياتهم الدينية، خصوصاً في أداء صلاة الجمعة، على أنها مظهر من مظاهر التضامن والوحدة.

وعلى النقيض من ذلك، نجد كتاب «ملاحظات» Observations الذي كتبه السفير البريطاني في إسطانبول جيمس بورتر James Porter ، وقد صدر عام ١٧٦٨م، وفيه يقول: إن المسليمن لا يحبون السلام، فهم يضنون بتحية الإسلام « السلام عليكم » على النصارى، ويرى بورتر إن كان عند المسلمين بعض المزايا في دينهم، فإنما هي مظاهر نفاق وخداع .

وفي عام ١٧٩٠م أصدر جيمس بروس James Bruce كتابه عن «رحلات لاكتشاف منبع النيل» Travels to Discover the Source of the Nile، والكتاب في موضوعه تاريخي، ولكنه مليء بالصور الخيالية والشعر، ومجموعة من القصص عن بعض الرحلات في إفريقيا، وعن الحبشة على الأخص ومصر والسودان ، وعن هجرة المسلمين إلى الحبشة، وملاحقة مشركي مكة لهم وطلبهم من النجاشي إعادتهم ، والكتاب يكيل السباب، ويظهر عداوة سافرة للإسلام وللنبي محمد ﷺ.

ومن مشاركات المستشرقين والدراسات الاستشراقية، نذكر المحاضرات الدينية التي ألقاها أستاذ اللغة العربية جوزيف وايت

Joseph White بجامعة أكسفورد ، وتحدث فيهاعن ضرورة تأسيس الديانة النصرانية وتثبيتها ، وأهمية ذلك بالمقارنة مع الأديان الأخرىٰ خصوصاً الدين الإسلامي ، ومسألة التوحيد والمعجزات التي جاء بها محمد ﷺ، كل ذلك لا يصدق نبوته .

وجاء بعد ذلك المستشرق وليم بيلي William Paley ، ليؤكد ما قاله جوزيف وايت ، وكتب كتاباً بعنوان View Of The Evidences Of Christianity ، وقد صدر عام ١٧٩٤م ، وقد افترىٰ وليم بيلي بأن الإسلام وتعاليم محمد ﷺ كلها من أعمال الجاهلية ، مثل الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج إلىٰ بيت الله الحرام ، وأنها موجودة من قبل مجيء الإسلام ، ويرىٰ بيلي في ذلك الدليل الكافي علىٰ أن محمداً ﷺ جمع بعض العبادات والعادات في التراث الجاهلي عند العرب ، ثم جاء يدعي بأنه أُوحي إليه بدين جديد من السماء .

ما من شك أن حركة التأليف في الرحلات والفكر الاستشراقي كلها كوَّنت معيناً خصباً للكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي خلال القرن الثامن عشر ، وما أعقبه من عصور في تاريخ الأدب الإنجليزي .

وهذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي تعد فترة ازدهار ونضوج في الأدب ؛ لأنها تعد فترة الفهم والنبوغ ، وظهور بعض الألوان الأدبية بصورة كبيرة أثرت علىٰ التراث الأدبي ، فظهرت الرواية ، وتطورت عما كان كتبه ريتشاردسون وفيلدينج ، ثم ما تلا ذلك في أعمال السير ولتر سكوت

وجين أوستن وآخرين غيرهما ، كما أن هذا العصر اتسم بحركة النقد الأدبي في الشعر والنثر ، ذلك أن عصر التجديد وحركة الأدباء بعد ذلك كانت بمثابة رد فعل لحركة الطهريين الذين ظهروا في أواخر عصر النهضة ، وكان هدف أدباء عصر التجديد ومن جاء بعدهم خلال القرن الثامن عشر هو إيجاد التوازن العام بين الدين والفكر والأدب ، ولكن هذا التوازن انتهى في نهاية القرن الثامن عشر لينطلق إلى حرية الفكر ، الأمر الذي مهد السبيل لظهور الرومانسية فيما بعد ، كما يظهر في بعض أعمال الدكتور جنسون ، الذي يطلق على هذا العصر أحياناً اسم عصر جنسون The Age of Johnson ، أو عصر مابعد التجديد Post - Restoration . وتسمية هذا العصر باسم عصر جنسون ؛ لأن النادي الأدبي الذي أسسه هذا الأديب هو اسمه البارز في تاريخ الأدب الإنجليزي في هذا العصر .

كان الدكتور صموئيل جنسون (١٧٠٩ـ ١٧٨٤م) ناقداً وأديباً وشاعراً وصحفياً ومترجماً وكاتباً روائياً ، وكاتب تراجم وسير ، ومعلقاً ومؤلفاً معجمياً ، له كتابات نثرية في النقد والفكر ، وهو ابن أحد بائعي الكتب ، درس وتعلم بالمدينة التي ولد فيها ، وهي ليكفيلد Lichfield ، ثم دراسته بجامعة أكسفورد ، وقد اهتم بالقراءة والأدب منذ أن كان صغيراً ، وكتب الشعر وهو يافع ، وترجم بعض الكتب من الفرنسية في الأدب والنقد ، وألف قاموساً عن اللغة الإنجليزية اتسم بالدقة في التعاريف وتوضيح المعاني ، وكتب روايته الوحيدة بعنوان راسيلاس Rasselas عام ١٧٥٩م ،

وهو من أبرز من قدم للأدب دراسات أدبية ونقدية في الأدب الإنجليزي ومجموعة التراجم للأدباء والمفكرين الإنجليز.

وفي روايته راسيلاس Rasselas، وفي مجال النثر في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي، نجد جنسون يتحدث عن الإسلام. وموضوع الرواية يحكي قصة الأمير الحبشي راسيلاس، الابن الرابع لأحد أباطرة الحبشة. وكان راسيلاس يبحث عن حياة أفضل في ظل دين ومعتقد ديني سليم، ليعيش حياة سعيدة كتلك الحياة التي عاشها الناس في الوادي السعيد باليمن، لذا فقد هرب هو وأخته نكيّة ومعهم أحد الفلاسفة إلى مصر، وبمساعدة هذا الفيلسوف حاول راسيلاس دراسة حياة الشعوب وأديانهم من خلال رحلاته في بعض البلدان، ثم يعود بعد ذلك إلى الحبشة، وفي حديث راسيلاس عن الأديان المختلفة ـ ومنها الإسلام ـ تظهر وجهة نظر الدكتور جنسون، فيقول: «كنت أتمنى أن يكون اسمي مشهوراً، فقد قرأت شعراء الفرس وشعراء العرب. ولقد استظهرت قصائد المعلقات التي تعلق في مسجد مكة، إن المسلمين برابرة، لذا فلم يجد راسيلاس ضالته في الإسلام، وبذا فإن جنسون يقول: «إن الإسلام دين غير صالح للناس»[1]. وعلى لسان الفيلسوف إملاك يقول: «من فلسطين مروراً بالمقاطعات الآسيوية، وفي أكثر الممالك المتحضرة مررت كأحد التجار،

(١) انظر: Mona Wilson (ed.), Johnson Prose and Poetry, Rupert Hart Davis, London,1970, P.409.

وفي بلدان وجبال البرابرة المتوحشين مررت كأحد الحجاج، ولكنني بعدها بدأت أشتاق إلى موطني»، مرة أخرى يصف المؤلف المسلمين بأنهم متوحشون (١).

ومن تعليقاته الصحفية نجد الدكتور جنسون في مجموعة مقالاته بعنوان The Rambler يؤكد وجهة نظره القائمة على الاتهامات والافتراءات على الإسلام، وخصوصاً عن النبي محمد ﷺ (٢). وفي مجموعة المذكرات الشخصية للدكتور جنسون، والتي جمعها جميس بروك، نجد للمؤلف آراءاً مقارنة بين الشرق والغرب؛ ففي حديثه عن ملابس النساء وجمالها، فإنه يرى جمال الملابس يتأثر باللطف الأنثوي مثل الرومانسية الإسلامية، بمعنى أن الأسلام محض خيال كما هو حال الرومانسية (٣).

وفي مقام آخر يقرر جنسون بأن الفقر لدى أي مسلم سببه الدين الإسلامي، فيقول: إذا رأيت تركياً فقيراً، فاعلم أنه من المحمديين، أي أنه مسلم (٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ٤١٤.

(٢) انظر: S. Johnson, The Rambler, Yale University Press, New Haven, 1969, vol.4, p.p.286-287.

(٣) انظر: R. W. Chapman (ed.), Boswell Life of Jonson, Oxford University, Press, London, 1970, P.32.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص ٣٦١.

والذي يمكن ملاحظته في كتابات جنسون عن الإسلام أنه أحياناً يستخدم كلمة إيلام، وهو يعني أن الإسلام مصدر الألم، لا مصدر للأمل، كما هو حاصل في الوقت الحاضر بين الشعوب المتحدثة بالإنجليزية، تنطق كلمة مسلم بالظاء، أي مظلم كناية عن أن الإسلام ظالم أو ظلام[1].

إن اولفر جولد سمث (١٧٣٠ ـ١٧٧٤م) Oliver Goldsmith من الروائيين المشهورين في القرن الثامن عشر، وقد اشتهر بروايته «راهب ويكفيلد» The Vicar Of Wakefield التي ظهرت عام ١٧٦٢م. لقد ولد جولد سمت لأب قسيس في إحدىٰ المدن الإيرلندية، ودرس بكلية الثالوث بمدينة دبلن، وحصل علىٰ البكالوريوس منها عام ١٧٤٩م، وبدأ الكتابة في بعض الصحف المحلية وقد تعرف علىٰ الدكتور جنسون عام ١٧٦١م، وصار صديقاً له. وبالرغم من أنه كتب الشعر الذي عرف في القرن الثامن عشر بالجودة والجدة، وكان لشعره جاذبية خاصة، لما يحتويه من صور شعرية وبلاغية، إلا أن جولد سمث اشتهر بكتابة النثر، وبالأخص في فن الرواية أكثر من كتابة الشعر، وأشهر رواياته ـ كما أسلفنا ـ رواية راهب ويكفيلد.

وفي مجموعتين من الرسائل النثرية التي كتبها جولد سمث نجده يتحدث عن الإسلام، ففي مجموعة الرسائل الأولىٰ بعنوان «ساكن العالم» Citizen OfThe World التي ظهرت عام ١٧٦٠م، والثانية بعنوان

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٥.

«يوميات الجمهور» The Public Ledger، وظهرت عام ١٧٦٥م . وفي هذه الأعمال تحدث جولد سمث عن الشرق والفلسفة الصينية وعلماء الصين، ودوّن مذكرات عن الشرقيين الذين يأتون إلى لندن .

وقد ظهرت عجائب في سلوكهم تختلف عما هو عليه الحال بالنسبة للإنجليز، ولما لم يجد المعلومات التي يمكن أن يكتب بها عن الإسلام، فقد خلط فيما كتبه عن الإسلام والفلسفة الصينية، وبعض المعلومات الموجودة في الدين الإسلامي ، وعلى سبيل المثال، فقد كتب عن جنة الخلد التي وعد الله بها عباده المتقين، وجاء وصفها في القرآن الكريم ، وفي أحاديث الرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

هنا نجد جولد سمث يتكلم عما قرأه في أحد الكتب، بأنه في منطقة من مناطق جزر الهند الغربية توجد أشجار تحمل فتيات جميلات، معلقات من شعورهن بأغصان تلك الأشجار، وهن جذابات في منظرهن، جميلات في طباعهن، ويدهشن كل من رآهن. ثم يتحدث المؤلف عن النبي محمد ﷺ، وكيف أنه غفل عن هذه الغابة (الجنه) المحسوسة، وقال بجنة غير محسوسة ، فيقول عن تلك الغابة : « عند دخولي تلك الجنان، وجدت أن كل شيء آخذ حقه من المتعة أكثر من المتوقع ، وكل شيء خيالي يعبر عن مناظر السعادة والمتعة التي جاء بها صاحب دين العرب، ولا أعرف كيف أن محمداً قد غفل عن مثل هذا في جنته . . . وهؤلاء الفتيات مثلهن مثل الحوريات، يبعثن السعادة والسرور. إذن، لاداعي أن نذهب إلى جنة

السماء »[١].

هذا محض خيال وكذب وهوس ، ووالله ، فإن جنة الله فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، يقول تعالى : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾[٢].

هذه دعــوة المؤلف الذي يريد أن يصـــد الناس عن دين الله ، وعن الإسلام ، وعن جنة الخلد . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، يريد أن يكذب الله ورسوله .

وفي رسالة أخرى لجولد سمث نجده يتحدث عن النساء في قارة آسيا ، ويعني بذلك المرأة المسلمة ، وأنهن ممتهنات لا ينظر إليهن ، وأنه ليست لهن أحاسيس ومشاعر ، بل إنهن من سقط المتاع ، وأنهن لا يدخلن الجنة ، فيقول : إن محمداً استبعدهن من دخول الجنة[٣].

لم تتمتع المرأة بمكانة عالية ، وبحقوق وفيرة كثيرة في أي دين أو أي شريعة ، كما تتمتع به في الإسلام منذ أن صدع الرسول ﷺ بالدعوة الإسلامية منذ خمسة عشر قرناً . ولكن المرأة في الغرب عند أهل الكتاب لم تعط تلك الحقوق التي في الإسلام ، ولم يعترف بقيمة المرأة في الغرب إلا

(١) انظر : J.W.M. Gibbs (ed.), The Works of Oliver Goldsmith, London,1885, vol.3, P.267.

(٢) سورة الرعد ، الآية ٣٥ .

(٣) انظر : J.W.M. Gibbs (ed.), The Works of Oliver Goldsmith,P.364.

منذ زمن قريب، وبنظرة سلبية ، فلننظر كيف أن الإسلام كرم المرأة، وأنها مثلها مثل الرجل فيما وعدهم الله به ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [١] .

وقال جل وعلا :

﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [٢] .

فهل بعد هذا يأتي من يقول : إن النساء في ظل الشريعة الإسلامية لا يدخلن الجنة، وهن في جهل من حقيقة أمرهن في الآخرة ، لأن محمداً ﷺ استبعدهن من دخول الجنة، وجعلهن فقط لملاذّ الدنيا ؟ هل هذه هي حقيقة قول الرسول ﷺ الذي أوصىٰ بالنساء خيراً، ودعا إلىٰ الرفق بهن ، وحض علىٰ حفظ حقوقهن، قال ﷺ: «واستوصوا بالنساء خيراً » [٣]، و«النساء شقائق الرجال». والقرآن الكريم أثنىٰ علىٰ كثير من النساء أمثال مريم ابنة عمران أم عيسىٰ عليه السلام ، وآسيا امرأة فرعون ، وزوجات النبي ﷺ، وأكد القرآن الثواب للجميع، فقال تعالىٰ :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا

(١) سورة التوبة ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة الفتح ، الآيه ٥ .

(٣) رواه البخاري ، كتاب النكاح ٩/ برقم ٥١٨٦ .

لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1] .

والمعروف أيضاً أن جولد سمث في إحدىٰ رسائله إلىٰ صديقه D . Hodson بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٧٥٧م كتب يعاتب صديقه لعدم زيارته له مدة طويلة، وجاء في طي الرسالة الاستشهاد بالمثل السائر عند الإنجليز: إذا الجبل لم يأت إلىٰ محمد، فيجب علىٰ محمد أن يذهب إلىٰ الجبل، فيقول هنا ساخراً: إذا الجبل لم يأت، فأت إلىٰ محمد، فلا داعي أن يذهب محمد إلىٰ الجبل، بمعنىٰ: إذا لم يزره صديقه، فسوف لن يزور صديقه[2] .

ومن الأعمال النثرية التي اشتهرت في القرن الثامن عشر: الرواية التي كتبها الأديب وليم بيكفورد (١٧٥٩ ـ ١٨٤٤م) William Beckford بعنوان «تاريخ الخليفة الواثق» (١٧٨٤م) The History of the Caliph Vathek ، ظهرت هذه الرواية لأول مرة بالفرنسية عام ١٧٨٢م، وهي من أبرز المؤلفات الأدبية التي عنيت بمحاكاة كتاب «ألف ليلة وليلة» في تصوير الأشخاص، وأدائهم للأدوار، وكذلك في تصوير الملابس والألوان، ومكان الأحداث، وطريقة العرض والسرد القصصي إلىٰ حد ما . ولقد اعتمد بيكفورد في كتابة روايته علىٰ بعض الكتب الأدبية والتاريخية التي تتحدث عن الإسلام والتاريخ الإسلامي، مثل كتاب جون ريتشاردسون J . Richardson

---

(١) سورة آل عمران، الآيه ١٩٥ .

(٢) انظر : J.W.M. Gibbs (ed.), The Works of Oliver Goldsmith, p.436.

بعنوان «رسالة عن لغات وآداب وحياة الشعوب الشرقية» :
Dissertation on the Languages , Literatures and Manners of Eastern Nations . وموضوع الرواية يقوم على الواقعة التاريخية بين الفقهاء من أهل السنه والمعتزلة في مسألة خلق القرآن الكريم، وهل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ ومساندة الخليفة العباسي الواثق لرأي المعتزلة[1] ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن، وماكان للشيطان إبليس عليه لعنة الله من دور كبير في هذه الفتنة في حياة المسلمين .

وقد اعتنى المؤلف بتصوير إبليس على أنه شاب من النبلاء، له ملامح جذابة، وسيم الوجه، ذو سمت وخلق وعيناه الكبيرتان مليئتان بالفخر والغرور، وهو في ذلك يشبه ملك الضوء أو النور .

والمؤلف تحدث في هذه الرواية بتشف عن هذه الفتنة، وازدرى بالمسلمين كثيراً، ومن ذلك رأيه بأنه لو كان الدين الذي جاء به محمد ﷺ ديناً سماوياً وديناً حقيقياً وصحيحاً، لما كانت هذه الشقة وهذا الصراع بين المسلمين[2] ، ويعلق الكاتب قائلاً : « يامحمد، ابق هناك، فلا رحمة بعد ذلك »[3] .

لعل المؤلف يعيب أن يكون بين المسلمين خلافات ونزاعات وفتن . إن

---

(١) أنظر : Harrison R.Steeves (ed.),The Eighteenth Century Romances The vathek etc., New York, 1971, P. P. 224 - 226 .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ـ٢٤٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

هذا الأمر مما قدره الله على عباده يقول جل وعلا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١).

فليعلم من يعلم أن مثل هذه الفتن تحدث في جميع الأمم والممالك والأديان، كما كان حال النصارى في الصراع القائم بين البروتستانت والكاثوليك، وهو كائن ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذا إشارة إلى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢).

ومن كتاب الرواية الذين ساهموا بإنتاجهم الأدبي خلال القرن الثامن عشر: الكاتب الروائي توبياس سمولت (١٧٢١ ـ ١٧٧١م) Tobias Smollett ، وكان طبيباً جراحاً ، وصحفيا ماهراً، كتب عدداً من الروايات، منها رواية Roderick Random، ظهرت عام ١٧٤٨م، وكذلك له رواية أخرى بعنوان «مغامرات فرديناند أمير مقاطعة فاتروم» The Adventures of Ferdinand Count Fattrom ، وقد ظهرت عام ١٧٣٥م. والرواية تتحدث عن اليهود ، وفيها صور الكاتب أحد اليهود ـ وأسماه

---

(١) سورة هود، الآيتان ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١٤ .

ميناسا ـ على أنه إسرائيلي سخي كريم، يفعل الخيرات مع كل إنسان، حتى إنه كان يفعل ذلك بصورة سرية وخفية مع الأميين الأغيار، وسمولت في روايته هذه إن لم يكن قد تحدث بصورة مباشرة عن الإسلام، لكنه غمز المسلمين والإسلام بتمجيده لليهود وتعظيمه لهم، كما جاء ذلك في تصوير ميناسا. والمعروف أن اليهود شر وبلاء على الأمم والشعوب [(١)].

والحديث عن الشعر والشعراء في تاريخ الأدب الإنجليزي خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، نجده محدوداً في بعض الأعمال الأدبية لقليل من الأدباء الذين اهتموا بالموضوعات السياسية والدينية، ومن أمثلة الموضوعات السياسية في الشعر بعض قصائد الشاعر الإنجليزي كريستوفر سمارت (١٧٢٢ـ ١٧٧١م) Christopher Smart، الذي تعلم في مدينة درم Darham، وأكمل تعليمه بجامعة كمبردج، وله عدد من القصائد الهجائية. ومن قصائده السياسية، والتي تحدث فيها عن الإسلام، قصيدة The English Bull Dog, Dutch Mastif and Quail، وفي صور شعرية رمزية يظهر الشاعر صراعاً بين كلبين، يظهر فيها المسلم بصورة ساخرة عن عمامته، وأن حياته كلها خير، فيقول الشاعر:

In foggy Holand wist may reign,
I' ve known humility in Spain;
Free'd was I by a turban'd Turk

---

(١) هاني الراهب، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنجليزية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص ٥.

Whose life was one entire good work[1]

ومن المستشرقين الأدباء الذين نشطوا في هذه الفترة المستشرق المشهور السير وليم جونز William Jones ، الذي كان يجيد ثلاث عشرة لغة شرقية ، فهو يحسن العربية والتركية والفارسية وبعض اللهجات الهندية ، له كتاب بعنوان قواعدالفارسية ، وله كتاب عن دستور القانون الهندي .

إن هذا المستشرق مغرض في كتاباته، حاقد في أقواله؛ ففي كتابه «الذكرىٰ الرابعة عند نصوص عند العرب» The Fourth Anniversary Discourses on the Arabs يقول : إن العرب ولغتهم وفنونهم وعاداتهم تقوم علىٰ أساس الحضارة الهندية؛ لأنه يعتقد أن الجزيرة العربية كانت جزءاً من الهند، وانقسمت عنها بسبب تأثيرالعوامل الجغرافية . بل ويذهب للقول بأن الحروف العربية القديمة في جزيرة العرب لم تكن معروفة كثيراً ، وحتىٰ الحروف التي كتب بها القرآن الكريم عرفت لأول مرة في الكوفة ، وتقوم في أصلهاعلىٰ اللغة العبرية [2] .

وهذه الأقوال التي يقول بها وليم جونز يظهر فيها التباين والتناقض؛ فإذا كانت اللغة العربية جزءاً من الحضارة الهندية، كيف ـ وفجأة ـ تقوم في أصلها علىٰ اللغة العبرية؟ نتساءل عن الجواب ؟ .

---

(١) انظر : Alexander Chalmers, The Works of the English Poets from Chaucer to Cowper, vol.16, p.60.

(٢) انظر : William Jones, The Works of Sir William Jones,G.G.And Robinson, London, 1799, vol.1. p.p.35-50.

وفي مقام آخر يتحدث المؤلف عن أتباع محمد محمد ﷺ The Mohammedan Dynasties ، فيقول : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبعه ثلة من الخلفاء الذين يمكن أن يطلق عليهم بابوات آسيا ، ومنهم بنو أمية وبنو العباس [١].

وعن الشعر العربي فقد تحدث عن إحدىٰ قصائد «مجنون ليلىٰ» ، وترجمها إلىٰ الإنجليزية ، واعتبرها قصيدة من أصل فارسي ؛ لأنه ليس ثمة مايثبت نسبتها في الأدب العربي [٢].

كما أنه نشر عام ١٧٧٢م ديواناً للشعر يسمىٰ : « قصائد مترجمة خاصة من لغات آسيوية» Poemes Chiefly Translated from Aisatic Languages ، ومن هذه القصائد قصيدة بعنوان «سُليم» Solima ، وقصيدة «نشيد عربي» An arabian Eclogue ، و قصيدة «قصر السعادة» The Palace of Fortune ، وقصيدة «أغنية حافظ الفارسية» A Persian Song of Hafiz ، «ومعزوفة تركية» A Turkish Ode .

وقصيدة سليمة يتحدث فيها الشاعر عن شخصيات مشهورة ومرموقة من الكبراء و الأمراء ، ويتكلم عن حداة القوافل ، ويقول عن أحدهم :

He sang , till on the bank the moonlight slept

(١) المرجع السابق ، ج ٥ ، ص ٦٠٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٦ ، ص ٤٣٥-٤٤٠ .

And closing flowers beneath the night dew wept[(1)]

ومن اهتماماته بالشعر العربي ترجمته المعلقات السبعة [(٢)]، وكانت ترجمته جيدة، أوحت إلى اللورد تينسون Lord Tennyson بكتابة إحدى قصائده بعنوان Locksley Hall على غرار نمط ترجمة وليم جونز للمعلقات، كما أن الشاعر جون سكوت أحد معاصري وليم جونز كتب قصيدة، استوحى فيها النموذج العربي في الشعر، وقصيدته هذه تسمى زيردا Zerda طبعت عام ١٧٨٢م، وتسمى أحياناً «بالمحبوب الغائب» The Absent Lover. وزيردا هذا شاب فارسي متيم، قال وهو يبكي على محبوبته في الأبيات الآتية :

Age oft learn'd knowledge from his tuneful tongue
And list'ning beauty languish'd while he sung.[(3)]

وصورة البكاء على الحبيب وفراقه من صور الشعر الغزلي في الأدب العربي، وقد أثرت في الأدب الإنجليزي.

ومن الشعراء الذين كتبوا عن الإسلام في القرن الثامن عشر، إلياس إروين Elyes Irwin ، ففي قصيدة «أناشيد شرقية» Eastern Eclogues ـ التي ظهرت عام ١٧٧٧م ـ كتب يصف رحلته من الهند إلى إنجلترا، ويقف خلال

---

(١) المرجع السابق.

(٢) إن المعلقات السبع حظيت بترجمات كثيرة من الغربيين، خصوصاً في أعمال المستشرقين، وهي مجال خصب للدراسات اللغوية والأدبية، وفن الترجمة والنقد الأدبي لطلاب الأدب الإنجليزي والأدب المقارن.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤٥.

القصيدة باكياً على أطلال الإسكندرية ، حيث التقى أنطوان وقيصر وشربا الخمر حتى الثُّمالة ، فيقول :

O death to think ! must now the abject race
of Turk and Arab Lord it in their place(١)

لقد بكى الشاعر مدينه الإسكندرية ، وأبدى حزنه وأسفه بأن هذه المدينة أصبحت بلداً إسلامياً ، يحكمه العرب والأتراك بدلاً من النصارى أصحاب الدين الصحيح ، والحكام الأقوياء ، بدلاً من هؤلاء المسلمين الشعب المرفوض والأمة المرذولة .

وفي ظهيرة يوم من الأيام نجد الشاعر يصف نفسه وهو جالس بين نساء العرب ، وبينهن فتاة إغريقية جميلة ، أُسِرَت لتكون في حضرة الباشا المسلم . وهذه الفتاة كان يساء إليها كثيراً كما يقول الشاعر ، ويكفي في ذلك أن تعيش بين المسلمين ، فتلك أعظم إساءة لما تحسه الفتاة من غربة ووحشة ذلك الدين . وفي تونس يصف الشاعر بعض الأسرى من الإسبان الذين ذاقوا ألوان العذاب ، وهم يحاولون الهرب من براثن الظلم والقهر من المسلمين وحكامهم .

وفي قصيدة أخرى بعنوان «معزوفة الصحراء» Desert ode نجد إروين يصف قوة الجمل وتحمله :

The Patient Camel I bestride
May no ill haps his steps beside .(٢)

---

(١) انظر : Elyes Irwin, Eastern Eclouges, London,1780, p. 7 .

(٢) انظر : Elyes Irwen, A Series of Adventures in Course Voyage up =

وفي قصيدة ثالثة بعنوان «معزوفة إلى النيل» Ode to the Nile ، فإن إروين يعيد ذكرى التاريخ القديم للنيل ، ويحكي قصة التمساح الذي يبتلع عذراء كانت تسبح فيه، فبكاها بكاءً حاراً .

Lo ! to avenge a mother's tears
The hippopotamus appears .[1]

وهنا يرمز إلى الإسلام بالتمساح، ويعني أنه ابتلع الفرعونية والنصرانية من مصر وحل محلها .

وأخيراً، فلقد كتب إروين قصيدة مسرحية بعنوان : Beduka Indian Pastoral ، وتحتوي على ثلاثة أناشيد طويلة، وهي تتحدث عن الأديان الشرقية في الهند[2]، وفيها يتحدث الكاتب عن المتاعب التي لاقاها الشاب بدوكا Beduka باتباعه للدين الإسلامي الذي يعده المؤلف ديناً باطلاً[3] .

ومن الأدباء المتعصبين في فكرهم الديني، وكان رمزياً في أدبه ملتزماً لفلسفة الصوفية، ولا يهمه شيء سوى الدين، مع أنه كان ثورياً في شعره الذي اتسم بالحماس الديني والسياسي؛ إنه الشاعر وليم بليك (١٧٥٧-١٨٢٧م) William Blake .

كان هذا الشاعر متعصباً للنصرانية، ويبغض العلوم البحتة، ويراها من عمل الشيطان ، وكان يسمي بعض العلماء والمخترعين أمثال بيكون ونيوتن

= to the Red Sea, London,1787, vol.2, p.142.

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر: Elyes Irwin , Beduka: An Indian Pastoral , London,1776 , p.p. 10-16 .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢-٢٤ .

بأنهم أساتذة الإلحاد وكتاب تعاليم الشيطان ، وهذه الأفكار واضحة في كثير من قصائده، مثل :

١ ـ زواج الجنة والنار The Marriage of Heaven and Hell

٢ ـ الثورة الفرنسية The French Revolution

٣ ـ من القدس From Jerusalem

٤ ـ ملتون Milton

وكان هذا الشاعر ـ كما أسلفنا ـ لايرىٰ في حياته وأدبه سوىٰ الدين ، وأن الدين المسيحي هو الدين الأمثل للناس أجمعين ، وما سواه من أديان فهي باطلة فاسدة ، وهذا ما نراه في قصيدته «من القدس» التي يعدها النقاد من أعظم قصائده . وهذه القصيدة قدم لها الشاعر مقدمة جيدة بقصيدة أخرىٰ أسماها «ملتون» ، وذلك باسم الشاعر ملتون، وفيها كان الشاعر يتغنىٰ بشدة حبه وولعه بالقدس، لدرجة أن خياله أوحىٰ له أن «قدساً» جديدة يجب أن تُبنىٰ علىٰ أرض إنجلترا ذاتها بين تلالها ووديانها وأرضها الجميلة الخضراء. وهذه مجرد رغبة تتوق نفس الشاعر إلىٰ أن تتحقق ، لا لسبب معين، بل لأن الشاعر يتصور أن يوماً ما وطأت قدم المسيح عيسىٰ عليه السلام أرض إنجلترا وتلالها الخضراء، وأشرق نور وجهه علىٰ تلك التلال والأراضي الخضراء ، رغم ما يكسوها من سحاب داكن.

ثم يعمل الشاعر علىٰ تحقيق أمله خيالاً حين طلب بإحضار قوسه الذهبي وسهام رغبته ورمحه، وعربته الحربية، التي تشتعل فيها نار الحرب

حيثما تكون ، ويعلن عن عزمه على الاستمرار في حربه الفكرية، وعلى عدم التخلي عن سيفه حتى تبنى « قدسه » على أرض إنجلترا الجميلة الخضراء، ولعله بهذا يرمز إلى تحرير القدس، وأخذها من المسلمين، وأن تكون تحت سيطرة إنجلترا والحكومة البريطانية، ولعله يعني على وجه الخصوص أن تكون تحت سيطرة الكنيسة الإنجليزية ، وهذا ما يشير إليه الشاعر في قوله :

England ! awake ! awake !
Jerusalem thy Sister calls !
Why wilt thou sleep the sleep of death ?
And close her from thy ancient walls.[1]

وهنا يتضح أن الشاعر يرى ضرورة محاربة أي إنسان لا يدين بالنصرانية، وهو يغمز الإسلام والمسلمين في ثنايا قصيدته ؛ إذ يرى أن القدس هي للنصارى وليس لسواهم من المسلمين.

والشاعر توماس وارتون (١٧٢٨-١٧٩٠م) Thomas Warton الذي تعلم في كلية الثالوث بجامعة أكسفورد ، كان أستاذاً للتاريخ ، وشاعراً للبلاط الملكي في زمنه ، وكان صديقاً حميماً للدكتور جنسون ، وكان أحد السابقين للمدرسة الرومانسية في الأدب الإنجليزي . له عدد من الدواوين الشعرية، وهو ممن أعاد القصائد الغنائية المعروفة باسم الـ Sonnett في الأدب الإنجليزي في هذا العصر.

(١) انظر : Alexander W. Allison, The Norton Anthology of Poetry, London & New York,1975, p.561.

وقد اشتهر بقصيدة له عنوانها «الحملات الصليبية» The Crusades نشرت عام ١٧٧٧م، وفيها يقول الشاعر :

Bound for holy Palestine
Nimbly we brush'd the level brine,
....
Syrian virgins wail and weep,
English Richard ploughs the deep !
Tremble , watchmen as ye spy,
From distant towers , with anxious eye
The radiant range of shield and lance
Down Damascus' hills advance(1)

إن الشاعر يصور الملك ريتشارد بالصورة المناسبة ، وأنه بطل شجاع ومغوار مقدام هو وجيشه ، أخاف المسلمين، حيث ارتفع عويل النساء المسلمات، ورجف رجال المسلمين المراقبين، وعيون العسكر المسلمين حينما قرب الملك ريتشارد من أسوار دمشق ، كما أن الشاعر يتحدث في القصيدة عن أرض القداسة فلسطين، التي أصبحت أسيرة بين حراب المسلمين ، وفيها ينادي الشاعر هذه الأرض ويقول : إنا قادمون لفك أسرك، وإنقاذك من العدو المسلم .

ومن أشهر شعراء القرن الثامن عشر : وليم كوبر (١٧٣١ـ ١٨٠٠م) William Cowper، وهو ابن أحد القساوسة، تعلم في المدارس الخاصة ، وكان والده يريده أن يعمل في سلك القضاء والمحاماة، ولكنه ـ أي كوبر نفسه ـ عزف عن ذلك ، وعمل موظفاً بمجلس اللوردات البريطاني ،

(١) انظر : Thomas Warton, The Poetical Works of Thomas Warton, London, n.d., P. 58 .

ولكنه أحس بالهوس، وترك عمله، وكاد ينتحر، ولكنه وجد ضالته في الأدب والكتابة فيه، وهو صاحب إنتاج وفير في الشعر منذ عام ١٧٧٩م حتىٰ توفي.

والمعروف أن هذا الشاعر تربىٰ علىٰ الفكر الديني المسيحي، وفكر التبشير من خلال الدعوة النصرانية، وتحقير الأديان الأخرىٰ، وهذا الاتجاه واضح في شعره؛ إذ كان منهجه الديني أشبه بمنهج الطهريين المتعصبين، الذين لا يميزون بين الحق والباطل، واعتبار أن المسيحية هي الدين الحق الذي يجب علىٰ العالم كله أن يعتنقه، ويترك ماسواه [١].

وعن الإسلام كتب كوبر قصيدة عام ١٧٨٢م بعنوان «حب الحياة الدنيا» Love of the World Reproved، وفي القصيدة يتحدث الشاعر عن تحريم المسلم لأكل لحم الخنزير، ويصور ذلك بصورة ساخرة ملؤها المراوغة والخداع، فيقول:

Thus says the Prophet of the Turk,
Good mussulman, abstain from Pork,
There is a part in ev'ry swine,
No friend or follower of mine[٢]

يقول الشاعر: إن الخنزير ليس كله نجساً ومحرماً، ومع هذا، فإن محمداً رسول الله ﷺ حرم الخنزير. ثم يقول الشاعر: لو أن المسلم ترك

(١) انظر: Vincent Neway, Cowper's Poetry, Liverpool University Press, Liverpool,1982, p.p.9-11.

(٢) انظر: John D. Baird (ed.), The Poems of William Cowper, the Clardon Press, Oxford,1980, p.412.

أساطير محمد، ولو أن الإسلام سمح بأكل الجزء الطيب من الخنزير لكان ذلك أدل للفهم، ولما قاد تحريم الخنزير، إلى نزاعات مذهبية وفكرية بين أتباع محمد:

On pain of excommunication
Such Mahomet's myserious charge.
And thus he left the point at large.
Had he the sinful part exprssed

They might with saftey eat the rest,
But for one piece they Thout it hard
From the whole hog to be debarr'd,
And set their wit at work at find
what joint the prophet had in mind
Much controversy strait arose,
These chuse the back, the belly those[1]

ويستطرد الشاعر في السخرية من المسلمين، وأنهم لا يأكلون الخنزير مثل النصارى، الذين يفخر بهم الشاعر في قصيدته، وأنهم يأكلون الخنزير، ويتمتعون بأكله في جميع أنحاء العالم، دون وجود خرافة التحريم التي جاء بها الإسلام على لسان محمد عليه السلام:

Thus, conscience freed from every clog
Mahometns eat up the hog
Yon laugh - tis well - the tale apply'd
May make you laugh on t' other side.[2]

لقد حرم الإسلام أكل لحم الخنزير للأضرار التي في لحمه، والدود الموجود به، والتي شهد بها الأطباء بعد تحليل دمه ولحمه في معامل التحليل

(١) المرجع السابق، ص٤١٢ـ٤١٣.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٢ـ٤١٣.

العلمية والطبية .

ومن شعراء القرن الثامن عشر الذين كتبوا عن الإسلام والمسلمين : الشاعر الاسكتلندي المشهور روبرت برنز (١٧٥٩ ـ ١٧٩٦م) Robert Burns .

كان من أبرز الشعراء في عصره، تولى تعليمه والده، وعمل مزارعاً، ولكن ميوله الأدبية القوية طغت على عمله في الزراعة ، وكان يقرض الشعر في صباه. ومن قصائده التي تحدث فيها عن الإسلام تلك التي ظهرت عام ١٧٨٨م بعنوان The Deil's Awawi the Exciseman ، ولقد كان (برنز) كمن سبقه من الشعراء الأسكتلنديين، أمثال وليم دنبار حيث استخدم كلمة مهاون Mahoun عن الرسول ﷺ، ومعناها الشيطان، فيقول :

The deil fidd lin thro' the town
And danc'd awa with Exciseman
And ilka wife cries"Auld mahoun"
I wish you luck o'th Prizeman.[1]

إن الأبيات السابقة يقول فيها الشاعر : إن الشيطان (أي محمداً ﷺ) كان يلعب في المدينة ويرقص رقصات المترنح ، وكان يأتي إلى كل إنسان ، مثله في ذلك مثل رجل الضرائب ، وهذا الرقص ، وهذا الترنح جعل النساء يصِحْنَ ويقُلْنَ: حظاً سعيداً يا محمد يا شيطان .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الأدب المسرحي في القرن الثامن عشر ،

(١) انظر : Robert Burns ,The Poems and Songs of Robert Burns,London, 1906, P.368.

فإننا نجد أن المسرحية مثلها مثل الشعر في هذه الفترة، لم يكن لها حظ وافر مثل النثر والفن القصصي ، إذ إن الأدب المسرحي لا زال يرزح تحت وطأة تأثير حركة الطهريين زمن إغلاق المسارح، بالرغم من اهتمام الأدباء خلال عصر التجديد وخلال هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي بدفع حركة المسرح إلى الأمام ، حيث استمر خروج المسرحيات المبنية على موضوعات الأدب الكلاسيكي وموضوعات التاريخ ، بينما كانت الميلودراما Melodrama أو « المشجاة» ـ كما تسمى أحياناً ـ المتميزة بالروح الرومانسية لم تحرز نجاحاً يذكر ، ولم تقدم للقراء ما يرضي الأذواق كما هو شأن الرواية والأدب النثري ، إضافة إلى أن كُتَّاب الأدب المسرحي في هذه الفترة لم يقدموا أعمالاً مسرحية تتسم بالأصالة والجدة ، ذلك أن مسرحيات أدباء عصر التجديد، ومن سبقوهم، استخدمت كمادة لمسرحيات القرن الثامن عشر الذي هو امتداد لعصر التجديد ، كما أن كثيراً من أدباء المسرح اعتمدوا على النقل والترجمة من الأدب الفرنسي، وبالأخص من أعمال موليير، وسيدان ، وفولتير، وغيرهم.

كما أن قصص «ألف ليلة وليلة» والحكايات الشرقية أثرت في موضوعات الأدب المسرحي في هذه الفترة كما يتضح مثلاً في مسرحيات إسحاق بيكر ستاف (١٧٥٤ ـ ١٨١٢م) Isaac Bickerstaffe، حيث كان بعض هذه المسرحيات استقى موضوعاتها من الأدب الفرنسي وبعضها من القصص الشرقي، ومن ذلك مسرحية «السلطان» ar a Peer into the

Seraglio The Sultan التي ظهرت عام ١٧٧٥م، وتظهر فيها شخصية الفتاة روكسلانا بنفسيتها المتأججة، وشهوتها الجامحة، لتثير السلطان أمام نسائه، فيقع على تلك الفتاة ويفعل الفاحشة.

كما أن هنا كولي (١٧٤٣-١٨٠٩م) Hannah Cowley كتبت عام ١٧٩١م مسرحية هزلية بعنوان «يوم في تركيا» A Day in Turkey أو العبيد الروس The Russian Slaves. والمسرحية تحكي قصة عروس روسية أخذت أسيرة إلى قصر الحريم والنساء الأتراك ليلة زفافها للنكاية بها وبزوجها، الذي جاهد كثيراً لاسترجاع عروسه من أيدي المسلمين، التي عادت في النهاية إلى زوجها معززه مكرمة.

أما المسرحيات التي استفادت من ترجمة المسرحيات الفرنسية، فيمكننا أن نشير منها إلى الأعمال المسرحية لجون بيرجويين (١٧٢٢- ١٧٩٢م) John Burgoyne، وهو من رجال الجيش المعروفين، وقد استقى موضوع الحروب الصليبية من مسرحية للكاتب الفرنسي سيدان بعنوان «ريتشارد قلب الاسد» Richard Coeur de Lion. وقد سمى بيرجويين مسرحيته بنفس الاسم، وأضاف إلى عنوانها عبارة «قصة تاريخية». وقد صدرت هذه المسرحية عام ١٧٨٦م، والمسرحية بها ثلاثة فصول، كلها تمجيد وتعظيم للملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي قاد الحملة الصليبية الثالثة، والانتصارات المزعومة التي حققها ضد المسلمين. وكل شخصيات المسرحية من النصارى، وبها الكثير من المقطوعات الغنائية والصلوات المسيحية،

التي تظهر عظمة الفرسان النصارى وشجاعتهم الحربية [١].

والمسرحية في بدايتها تبين على الخصوص بسالة الفرسان الإنجليز، وحنكتهم الحربية، وخططهم الدقيقة، ويمثل المؤلف لذلك بشخصية بلوندل الفارس المتمرس، الذي أخرج الملك ريتشارد من كثير من المآزق والمحن[٢]. وبمنظور ملؤه الحقد، وبلغة ملؤها الإساءة، نجد المؤلف يبرز المسلمين بصورة الأغبياء العاجزين عن المنازلة والحرب أمام الصليبيين [٣].

ويلاحظ أن السيدة سيلسيا ابنة الأديب الإنجليزي دفيد ماليت David Mallet كتبت مسرحية بعنوان «الميدا» Almida نشرت عام ١٧٧١م. وموضوع المسرحية مستوحى من مسرحية لفولتير بعنوان Tancre"de[٤]. حيث إن المؤلفة قامت في البداية بترجمة تلك المسرحية إلى الإنجليزية، ثم لاحظت أن الحوار في اللغة الفرنسية - أي في النص الأصلي للمسرحية - منمق إلى حد كبير، وطويل جداً، الأمر الذي يجعله لا يلائم ذوق القارئ الإنجليزي، لذا فقد تصرفت في الترجمة، مما حدا بها أن تفكر في كتابة مسرحية مأساوية مستقاة من مسرحية فولتير. وقد كتبت المؤلفة مسرحيتها «الميدا» في خمسة فصول، وموضوعها أن الفتاة الميدا وعدت الشاب تانكرد

---

(١) انظر: John Burgoyne, Richard Coeur de Lion : A Historical Romance, London,179, p.p. 1- 4.

(٢) المرجع السابق، ص ٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٠-٥٢.

(٤) انظر: Mrs. Celesia, Almida: A Tragedy, T. Becket & Co, London,1771 p.: VII.

بالزواج، وقد أرسلت إليه رسالة سرية توضح فيها أن أباها يريد تزويجها من أحد الفرسان، وهو اوداسان [١]، وصادف أن هذه الرسالة وقعت في يد أحد المسلمين، الذي عرف سر هذه الفتاة التي كان قد صدر بحقها أمر القتل من قبل المسلمين، ولاحقها ذلك المسلم إلى أن قتلها . وهنا نجد الكاتبة تكيل سيلاً من الشتائم والسباب للمسلمين، وتصفهم بالكفر والإلحاد ، وأن قتل المسلم جائز ، ودمه مباح، لأنهم يقتلون الأبرياء، ويحْرِمُون المحبين بعضهم من بعض [٢].

ومن المعلوم أن قلم الأديب الدكتور جنسون كان يعمل كثيراً في مجال النثر والنقد الأدبي كما أسلفنا في بداية هذا الفصل ، إلا أنه شارك الأدباء المسرحيين ببعض المسرحيات، وبالأخص مسرحية «إيرين» Irene ، وهي مسرحية شعرية في أبيات مزدوجة صدرت عام ١٧٤٩م ، وموضوعها يتصل ببعض الأمور عن الإسلام، وبالمسرحية خمسة فصول، وشخصيات المسرحية هم: السلطان محمد، ووزيره الأول جالي باشا ، ومصطفى أغا ، وبعض القواد؛ منهم عبد الله، وحسن، وأسباسيا، وإيرين فتيات يونانيات وبعض الخدم والوصيفات . وقد اعتمد الدكتور جنسون في موضوع المسرحية على كتاب لنولز Knolles بعنوان «التاريخ العام للأتراك» General Histoire of the Turks .

(١) المرجع السابق ، ص ٦٤ـ ٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ ـ ٤٧ .

ومسرحية «إيرين» مسرحية مأساوية ، وفيها توبيخ للفتاة إيرين على أنها شاركت في مؤامرة مزعومة ضد السلطان ، الأمر الذي أدى إلى الحكم عليها بالقتل، ومحاولة الوزير الخاص للسلطان الهروب من المسؤولية، وطلب من السلطان أن يسمح له بالسفر إلى مكة للحج وزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام .

These years , unconqurer'd Mahmet , demand
Desires more pure , and othr cares than love.
Long have I wish'd , before our prophet tomb
To pour my prayers for thy successful reign
To quit the tumults of the noisy camp,
And sink into silent grave in peace[1]

إن المؤلف يصف المسلمين بأنهم عباد للقبور، كما يتضح في قول الوزير للسلطان بأنه سيزور قبر الرسول ﷺ، ولم يقل لأداء فريضة الحج أو نحو ذلك. ثم يستطرد الكاتب ليجعل السلطان يجيب وزيره بأنه لا يسمح له بذلك ، ويجعل السلطان يقول بأن الإسلام انتشر بالحرب وبحد السيف ، وأن السلطان لايسمح لوزيره أن يذهب إلى مكة إلا بعد أن يجعل كل الناس مسلمين .

For those who could not please by nobler service.
Our warlike Prophet loves an active faith
The holy flame of enterprizing virtue,
Mocks the dull vows of solitude and penace
And scorns the lazy hermit's cleap devotion.
Shine thou distinguished by superior merit
With wonted zeal pursue the task of war

(١) انظر : E . L. McDam (ed.), Samuel Johnson's Poems , New Haven &co London , 1964 , p.p.129-130.

Till every nation reverence the Koran
And ev'ry suppliant lift his eyes to Mecca (1)

يتحدث الكاتب في الأسطر السابقة عن أن الرسول ﷺ محب للحرب، وإن السلطان محمداً يريد أن يكره الناس على الدخول في الإسلام، وعلى احترام القرآن، وأن يشخصوا بأبصارهم إلى مكة، ولو بقوة السلاح وبالحرب. وهكذا فالمؤلف كأنه يثبت أن الإسلام ليس إلا دين قتال وحرب، وليس بدين سلام وأمان.

وفي أحد مشاهد المسرحية يصور المؤلف السلطان محمداً ورغبته في الزواج من الفتاة اليونانية إيرين، التي رفضت طلب السلطان؛ لأنه يدين بدين غير دينها، وهي بذا ترى من وجهة نظر الكاتب أن الإسلام أقل شأناً من المسيحية:

Why all this glare of splendid eloquence
To point the pageantries of guilty state?
Must I for these renounce the hope of Heav'n ?
Immertal crowns and fulness of enjoyment ?(2)

وبعد ذلك نرى جنسون يأتي في مسرحيته بنفس الفكرة القائلة بأن المسلمين لا يحترمون المرأة، ولايظن المسلمون أن للنساء أرواحاً ومشاعر وأحاسيس، وأنهن لا يدخلن الجنة. كل ذلك أورده جنسون في حديث السلطان محمد مع إيرين.

Vain raptures all - for your inferior natures
From'd to delight , and happy by delighting,

(١) المرجع السابق، ص ١٣١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٦.

Heav'n has reserv'd no futuer Paradise(1)

وهنا نجد المؤلف يقول : إن السلطان حاول إقناع إيرين بقبول الزواج منه، لكي تستمتع بالحياة الملكية معه، وألا تخسر الدنيا؛ لأنهن لا يدخلن الجنة في الآخرة، لكن إيرين تؤكد للسلطان أن المسيحية ليست كالإسلام؛ ذلك أن النساء في المسيحية لهن أرواح مثل الرجال، ولهن أحاسيس ومشاعر، ولكن السلطان لم يقتنع بذلك القول، ثم يعد إيرين أنها إذا قبلت الزواج منه أن يجعلها في جنة جميلة في الدنيا؛ لأنه لايضمن لها جنة السماء.

ومن مسرحيات القرن الثامن عشر التي تحدثت عن الإسلام يمكننا أن نجد مسرحية فرانسيس جنتلمان Francis Gentleman، وعنوانها «السلطان» The Sultan، أو بعنوانها الآخر «الحب والشهرة» Love and Fame، وقد ظهرت عام ١٧٥٤م. وهي مسرحية مأساوية ذات خمسة فصول، ومعظم شخصياتها من المسلمين : السلطان عثمان، وسولان، وعمر، وأورسامين، والأفندي، وعلي بك، وزاما، وبعض النساء؛ وهن الميدا، وفاطمة، وأفندينا.

ويرتكز موضوع المسرحية على قصة السلطان عثمان، الذي وقع في حب الفتاة أفندينا، وترك عشيقته الأولى الميدا، التي وقعت في حب سولان، وأقنعته أن ينضم معها، ومجموعة من العسكر في مؤامرة ضد

(١) المرجع السابق.

السلطان ، وقد أخطأ سولان في فعله ذلك ، وما لبث أن اعتذر للسلطان ، وأكد ولاءه له .

والمسرحية بها كثير من الأحداث والملابسات المتداخلة ، من مسائل الحب والعشق والقتل بالسم ومسائل الخيانات السياسية إلخ . . . كل ذلك أدرجه الكاتب في مسرحيته ، ليدلل على ضعف المسلمين ، وأنهم أصحاب شهوات وفتن . ومن الإشارات إلى الإسلام التي أظهرها المؤلف على ألسنة الشخصيات منها الحلف بماء زمزم [١] ، والحلف بالنبي [٢] ، وأمثال ذلك كثير . وفي مشاجرة كلامية بين أورسامين وجمع من الناس حوله ، نجد أورسامين يهدد بأنه سوف يخنق السلطان حتى الموت ، فتصيح أفنديتا مستنجدة بالنبي محمدﷺ ، فتقول :

Canst thou hear this O Mahomet, in peace
Nor cast a vengeful thunderbolt of fate
As such an impious and abandon'd wretch[٣]

والمؤلف يريد بهذا أن يقول : إن محمداً لا ينفع أحداً من أتباعه مهما استنجدوا به . وخلاصة القول : إن المسرحية ليس فيها أي قيمة أدبية تذكر سوى هدفها الرخيص ، وهو النيل من الإسلام .

وفي مسرحية مأساوية بعنوان «برباروسا» Barbarossa لمؤلفها الدكتور

---

(١) انظر : Francis Gentleman, The Sultan: A Tragedy, John Bell, London,1770, p.p.30-38.

(٢) المرجع السابق ص ، ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ، ٣٧ .

جون براون (١٨١٠ـ ١٨٨٢م) John Brown، الذي درس بجامعة أدنبرا، وتخرج منها طبيباً، ولكنه كان يميل إلى الأدب؛ إذ أنه كتب عدداً من المقالات وبعض المسرحيات والقصص، وقد درس المسيحية والدين المسيحي إلى أن أصبح قسيساً بمدينة نيوكاسل.

ومسرحيته «بربا روسا» التي تحتوي على خمسة فصول رئيسية ومقدمة وخاتمة، يقول المؤلف في مقدمتها: إنه كتب هذه المسرحية على أسس وأصول المسرحيات المأساوية في مبناها العام، وعلى أسس وقواعد كتابة المسرحية كما وضعها السابقون الأولون من الإغريق والرومان، ومن حذا حذوهم في الأدب الإنجليزي من لدن شكسبير حتى الوقت الحاضر. كما أن المؤلف أظهر معرفته الدينية بالكتاب المقدس والإنجيل [1].

ومعظم شخصيات مسرحية «بربا روسا» من المسلمين، ومنهم: القرصان برباروسا، أو خير الدين، ثم شخصيات: عثمان، وعلاء الدين، وسعدي، وأحمد، وسليم. وموضوع المسرحية مستقى من تاريخ قصة القرصان برباروسا المعروف بقوته خلال القرن السادس عشر في منطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال إفريقيا، حيث إن برباروسا اغتصب حكم ملك الجزائر وقتله، ثم بعد ذلك عاد الأمير سليم ابن ملك الجزائر من منفاه، وجاهد كثيراً في سبيل استعادة ملك أبيه، وعمل بجد لمنع زواج برباروسا من أمه.

(١) انظر: John Brown , Barbarossa , J & R Tonson , London ,18 75,p.5 .

والمسرحية تصف المسلمين بالوحشية، وأنهم أهل نهب وسلب وقتل، حتىٰ فيما بينهم، لأن ذلك مباح في شريعتهم، وأن المسلمين يهتمون بالمال وإصابة الثراء الفاحش بأي وسيلة [١].

ومن الإشارات إلىٰ الإسلام في هذه المسرحية: الأيمان والحلف غير المشروع، الذي قالت به بعض الشخصيات المسلمة، كالحلف بالنبي محمد ﷺ [٢].

يعـــد هنري بروك (١٧٠٣ـ ١٧٨٣م) Henry Brooke من الأدباء المسرحيين في القرن الثامن عشر، درس وتخرج من كلية الثالوث بدبلن، كتب بعض الروايات، ولكنه اشتهر بكتابة المسرحية، وكان مسيحياً متعصباً للمذهب البروتستانتي، ويتهكم بالمذهب الكاثوليكي.

من مسرحياته التي تحدثت فيها عن الإسلام: مسرحية «الدجال» The Imposter التي نشرها عام ١٧٧٨م، وموضوع المسرحية مستمد من المسرحية الفرنسية بعنوان «محمد» لفولتير، والتي سبق ذكرها فيما تقدم. ومسرحية بروك «الدجال» تتألف من خمسة مشاهد، وجميع شخصياتها من المسلمين: محمد الدجال، أي النبي محمد ﷺ، وزافانا، وكعب، وعمر، وسفيان، وخالد، وامرأة باسم الميرا، هي ابنة محمد.

والمسرحية تحكي قصة أسر سفيان للميرا ابنة محمد. والصراع الذي

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨.

دار بين الطرفين بغرض تخليص الميرا ابنة محمد. ووجهة النظر الأساسية التي يريد أن يؤكدها المؤلف في المسرحية هذه هي مسألة الصراع حول مسألة التوحيد التي جاء بها الرسول ﷺ، واستغراب المشركين من ذلك النبي الذي جعل الآلهة إلهاً واحداً، إشارة الى قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (١). لذا، فالمؤلف يدرج هذه الفكرة في مسرحيته بقصد تعضيد فكرة مشركي مكة والقول بعدم نبوة الرسول ﷺ، وأنه دجال محتال:

Now by the soul of our freat father Ishmael
This is not faith , but wonderful conviction
Soft - let me sum thy reasons in my soul
" No Gods " Thou sayst " But ONE , one power suprme(٢)

والمسرحية تحكي بعض مواقف الرسول ﷺ مع أصحابه، ومنها عندما خلع بردته على أحد أصحابه (٣).

ومن المسرحيات التي تحدثت عن الإسلام والمسلمين خلال القرن الثامن عشر: تلك التي كتبها وليم هدسون William Hodson بعنوان «زوريدا» Zoraida: A Tragedy. وقد ظهرت عام ١٧٧٩م، وهي مسرحية مأساوية بها مقدمة وخاتمة وفصول خمسة، وأهم شخصياتها الإسلامية:

---

(١) سورة ص. الآيتان ٤ـ٥.

(٢) انظر: Henry Brooke , A Colletion of Pieces , Plays and Poems , London, 1778 , vol . 3 , p2.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٨.

السلطان سليم الأول، والمأمون بك حاكم مصر، وعثمان وزير السلطان سليم، وأحد الدراويش ، وبطلة المسرحية زوريدا فتاة يتيمة في بلاط الحاكم المصري، وصديقة زوريدا ابنة مورلمين والي القاهرة ونائب المأمون.

ويقول المؤلف في مقدمة المسرحية : إن موضوعها يقوم على حادثة تاريخية معروفة، وهي حصار السلطان سليم الأول لمصر، وتمكنه منها ، ثم يضيف المؤلف أن المسرحية في موضوعها تختلف عن المسرحيات الأخرى التي تناولت الموضوع نفسه، ويؤكد الكاتب للقراء أن الصور والملابس والأماكن والشخصيات كلها من الشرق، وتختلف عما هو موجود في الغرب.

وقصة المسرحية تحكي عن تمكن السلطان سليم من مصر وهزيمته للحاكم المأمون ، وقد كان من بين الأسرى الفتاة زوريدا محبوبة المأمون وخطيبته، والتي أراد السلطان سليم الزواج منها بعد أن شاع في الناس أن المأمون قد قتل. وفي أثناء مراسيم عقد النكاح ظهر أحد الدراويش ليقول : إن زوريدا هي شقيقة السلطان سليم، وحينها ظهر المأمون، وفاز بخطيبته. والمسرحية تردد ذكر عزرائيل ، وذكر الجنة والحلف بالحجر الأسود في الكعبة . . إلخ.

The sacred stone
Which erst self - mov'd from paradise descended
To deck the holy Caaba[1]

(١) انظر : William Hodson, Zoraida: A Tragedy, G.Keasly, London,1780, p.p. i-ii.

هنا يحلف المأمون بالحجر الأسود الذي هبط من الجنة ، ليكون جزءاً من الكعبة المشرفة ، والمؤلف يسخر من مثل هذا الاعتقاد عن نزول الحجر الأسود من الجنة . ثم في موقف آخر نجد أن السلطان سليماً يقسم بجذع سدرة المنتهىٰ ، فيقول :

By the sacred trunk
Of Zedrat's tree whose everlasting folige
Shadows the throne of Alha(1)

والمؤلف هنا أيضاً يهزأ من الفكر الإسلامي ، وتراث المسلمين ومعتقداتهم ، ومن ذلك قوله : سدرة المنتهىٰ التي تحمي بأغصانها وأوراقها عرش الرحمن ، بعد ذلك ينتقل المؤلف ليصف جمال زوريدا ، وأنها من متع الحياة في جمالها ، ومتعتها أكثر من الحور العين ، وريحها طيب كريح الزنجبيل ، وهذا الوصف أورده المؤلف علىٰ لسان المأمون ؛ إذ يقول :

Afflicted beauty ! Yes I will behold thee,
Will hear once more the music of thy lips
Far more melodious than the dulcet sounds
Bearth'd from the harps which hang amid the bow'rs
Of paradise, when first their golden chords
Fann'd by the gale which issues frol the mount
Where Alha sits enshrin'd, spontaneous chime
To more than mortal minstresly. (2)

وفي صورة أخرىٰ من التهكم بما يعتقده المسلمون في أن المجاهدالشهيد يدخل الجنة ، يصور المؤلف حديث المأمون إلىٰ رجاله ، وحثهم علىٰ القتال ، وأن مصيرهم الجنة ، فيقول :

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢)المرجع السابق ، ص ٣٧ .

Fall who may
In such a cause , the everlasting gates
Of paradise shall open to recieve
His mounting spirit - There , while crowds of warriors
Hail his arrival , and the rose - lipt Houris
Invite him to thier arms , his weary limbs
In spicy Zenzibil's ambrosial flood
Shall bathe voluptuous ; from the nectar'd fruits[1]

ونختم هذا الفصل بالحديث عن مسرحية لصوفيا لي Sophia Lee التي صدرت عام ١٧٩٦م بعنوان «الميادة ملكة غرناطة» Almeyda Queen of Granada ، والمسرحية بمقدمتها وخاتمتها وفصولها الخمسة تجري أحداثها في إسبانيا خلال الحكم الإسلامي . وأهم الشخصيات بها هي : راميزا ملك قتشالة ، وعبد الله حاكم غرناطة ، وابنه أوراسمين ، وحامد قائد الحرس ، ثم الميادة ملكة غرناطة . والأحداث تجري في أسبانيا على حدود المغرب .

وتؤكد المؤلفة في مقدمة المسرحية أن عملها هذا ليس من الواقع في شيء ، بل إنه يقوم على الخيال المحض . ووجه المأساة يكمن فيما كان يلحق الناس من دعوة المسلمين لهم للإسلام ، واعتناقهم لهذا الدين الذي كله باطل .

والمعروف أن ملكة غرناطة الميادة أخذت أسيرة إلى حاكم قشتالة ، وكانت تحب ابن الحاكم . ولما عادت إلى غرناطة كان عمها عبد الله تآمر عليها ليقتلها ويستولي على الحكم ، ولكن ابن عبد الله أوراسمين كان يحب ابنة عمه ملكة غرناطة ، لكن تلك الملكة قلبها معلق بألنزو ابن حاكم

(١) المرجع السابق .

قشتاله، الذي قبض عليه عبد الله، فجن جنون الملكة ، وظنت أن عمها عبد الله قد قتله، ولكنها علمت بأنه لا زال حياً ، وأن عمها سيفك أسره إن هي تنازلت له عن الحكم. وهنا تصور المؤلفة المسلمين بأنهم أهل خيانة وغدر حتى فيما بينهم ، وأنهم لا يعرفون الله إلا في وقت البلاء والشدة، كما حدث لعبد الله عندما دس له السم وأكله، فأحس بالموت، ونادى قائلاً :

Oh, transport! glory! Oh! tremendous triumph!
Sons may forget, but Mahomet remembers!
He has not scorn'd my pray'r not quite renounc'd me.
Prophetic was thy voice; for thou shalt find
A long repose indeed! This was the poison

وفي موقف آخر صورت المؤلفة ملكة غرناطة الميادة ، وهي في أسرها تناجي بقولها :

When late I closed these lips I fully purposed
Never again to break the awful silence
Or view the light of Heav'n or face of man
When then Ia'm dragg'd forth ...[1]

وهكذا نجد أن الحديث عن الإسلام في هذا العصر لم يختلف كثيراً عما سطره الأدباء في العصور السابقة في تاريخ الأدب الإنجليزي.

---

(١) انظر : Sophia Lee , Almeyda Queen of Granada : A Traggedy, Cadell, Davies , London , 1796 , p.117.

الباب التاسع

العصر الرومانسي

العصر الرومانسي

١٨٠٠ ـ ١٨٣٠م

يعد القرن الثامن عشر في تاريخ الأدب الإنجليزي نقطة انطلاق في اتصال الأدب الإنجليزي بآداب العالم الأخرى. ففي عصر النهضة كان الأدب فيه متأثراً بنماذج الأدب الإيطالي وموضوعاته، وفي عصر التجديد استفاد الأدب الإنجليزي من الاتصال بالأدب الفرنسي، ونما هذا الاتصال وامتد حتى العصر الرومانسي، الذي اتصل فيه الأدب الإنجليزي بالأدب الألماني. ويلاحظ أن الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م، وهدم سجن الباستيل، كل ذلك أثرَ تأثيراً قوياً في الفكر والحياة في بريطانيا، وامتد هذا التأثير ليشمل الأدب نفسه. لكن مع بداية عام ١٨٠٠م بدأ نوع من التحول، فاتجهت بريطانيا نحو ألمانيا، البلد الذي أنجب عدداً كبيراً من المفكرين والأدباء والنقاد. إن ألمانيا هي التي أيقظت نبض الحركة الرومانسية في إنجلترا بأفكار فلاسفتها ومفكريها وأدبائها، ذلك أن فريدريك شليجل Friedrich Schlegel هو أول من أرسى جذور الرومانسية ومصطلحها الأدبي في الأدب، كما كان لمدام دي ستيل الفضل في نشر ذلك الفكر في الأدب الفرنسي، ولكن نشاط الرومانسية كانت بصماته الواضحة في الأدب الإنجليزي ضمن تاريخ الآداب العالمية، كما يتضح في أعمال كوليبردج، ووردز وورث، وشيللي، وكيتس، واللورد بايرون، وساوثي وغيرهم آخرين، هذا

على الرغم من تأخر ظهور هذه الحركة في الأدب الإنجليزي التي لم تعرف إلا بعد ما نشرت مجموعة القصائد الغنائية Lyrical Ballads لوردز وورث عام ١٧٩٨م . وسبب تأخر ظهور الرومانسية في الأدب الإنجليزي هو تأثير بعض الأدباء المحافظين أمثال الدكتور صموئيل جنسون .

لقد ظهرت الرومانسية مناهضة للكلاسيكية وجميع المدارس التقليدية الاتباعية ، فكانت الرومانسية مدرسة أدبية ابتداعية تقوم على رسم وتصوير العواطف والأحاسيس والأفكار من صور الخيال والنفس البشرية ، والاهتمام بالطبيعة ومناظرها الخلابة الجميلة وما تؤثر به في النفوس والعقول والأمزجة .

وقبل الحديث عن الإسلام في الأدب الإنجليزي في العصر الرومانسي ، يجدر بنا أن نشير إلى بعض الأحداث التي واكبت هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي ، وخصوصاً كثرة الرحلات إلى الشرق ، وكثرة الكتب الخاصة بالرحلات ، التي كثر ظهورها في هذه الفترة ، بسبب حرية التنقل وسهولة المواصلات ، وازدياد اهتمام الغرب بالشرق وبلاد المسلمين ، إضافة إلى كثرة ظهور كتب التاريخ العام عن الإسلام والمسلمين ، إلى جانب الاهتمام بتداول التراث المكتوب عن الإسلام في الأدب الإنجليزي والتاريخ ، كل ذلك ساعد على تكوين خلفية علمية واسعة عن الإسلام لأدباء العصر الرومانسي في ألوان الأدب المختلفة ، وعلى وجه الخصوص في مجال الشعر والرواية ، ذلك أن

هذين الضربين من الأدب كان لهما السيادة على غيرهما من فروع الأدب الأخرىٰ ، إذ إن الأدب المسرحي ـ علىٰ سبيل المثال ـ لم يكن شيئاً مذكوراً، إذا ما قورن بالشعر والأدب الروائي .

وإذا كان عصر التجديد من العصور التي اهتمت كثيراً بالكتابة عن الإسلام، وكان النتاج الأدبي في موضوعات الإسلام والمسلمين والنبي محمد ﷺ وفيراً وغزيراً، كما يتضح في كتابات درايدن وبوب، فإن العصر الرومانسي يتميز بصورة أكبر وإنتاج أوفر وأكثر، كما سنعرض إلىٰ ذلك في الصفحات التالية .

ومن المعلوم أنه قد تزامن مع ظهور الحركة الرومانسية في الأدب الإنجليزي أحداث تاريخية كثيرة في العالم وفي البلدان الإسلامية خاصة، ذلك أن حركة التجديد الإسلامي علىٰ يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يرحمه الله بدأت في الجزيرة العربية ، وواكب ذلك مطالبة اليونان باستقلالها خلال الفترة من ١٨٢٠ ــ ١٨٣٠م، كما أن حركة القرصنة في شمال أفريقيا في حوض البحر الأبيض المتوسط انتهت، حيث قويت شوكة الأساطيل الأوربية في حملاتها البحرية ورحلاتها إلىٰ الشرق منذ عام ١٨٢٠م، وبدأت الدول الأوربية تفرض نفوذها، وتنشر قواها الاستعمارية في بعض البلدان الإسلامية، حيث خضعت إيران والهند لذلك النفوذ . كما يلاحظ أن الرحلات الغربية إلىٰ المدن الإسلامية ازدادت، وسهلت زيارة الأماكن التي كان يصعب زيارتها من قبل النصارىٰ ، فتخفَّىٰ عدد كبير من النصارىٰ وأظهروا إسلامهم في

سبيل زيارة الأماكن المقدسة في الحجاز، وبالذات الحرمين الشريفين بمكة المكرمة ، والمدينة المنورة .

ومن كتب الرحلات التي ظهرت في هذه الفترة: كتاب الطبيب البريطاني في سفارة بريطانيا في تركيا جيمس دالوي James Dallaway، الذي ظهر عام ١٧٩٧م بعنوان «مدينة القسطنطينية قديماً وحديثاً» Constantinople Ancient and Modern . وتضمن الكتاب الكلام عن الإسلام، وبعض المسائل السياسية، وأعمال استخبارية لصالح الاستخبارات البريطانية التي قام بها المؤلف ، ومن أهم ما أورده المؤلف في هذا المجال تغير الفكرة السائدة عن نظرة الإسلام إلى المرأة، وأوضح أن النساء في الإسلام لهن اعتبار، ولهن أحاسيس ومشاعر وأرواح، وقد وُعِدْنَ بكل خير في الحياة الدنيا والآخرة، كما ينص على ذلك القرآن الكريم.

ومن كتب الرحلات التي ظهرت في هذه الفترة: كتاب وليم جورج براون William G . Brown بعنوان رحلات في إفريقيا ومصر وسوريا خلال الأعوام ١٧٩٢ ـ ١٧٩٩ ، وفيه وصف قوافل الحجاج بعد عودتها من رحلة الحج، وعنوان الكتاب بالإنجليزية Travels in Africa, Egypt and Syria from the year 1792-1799 ومن كتب الرحلات التي كان لها أهمية كبرى في هذه الفترة، وقد ترجم إلى اللغة الانجليزية كتاب شاتوبريان بعنوان : L' Itin'eraire de Paris a Jerusalem الذي ظهر عام ١٨١١م، وترجم عام ١٨١٤م، وفيه يظهر

الفكر الصليبي لهذا الكاتب، الذي دافع عن الحملات الصليبية، وقال : إن النصارىٰ ليسوا أشراراً، وليسوا عدوانيين أو متعسفين؛ لأنهم كانوا في حملاتهم إلىٰ القدس يقومون بزيارة تلك الأماكن في مقابل غزو المسلمين لإسبانيا . وأضاف: أن النصارىٰ كانوا أبطالاً، اتصفوا بالشجاعة والنبل، علىٰ عكس المسلمين.

ومن الرَّحَّالين الذين كان لهم الأثر الواضح في الفكر الغربي بما تركه من آثار: المفكر جيمس باكينج هام James Silk Bughingham .

ومن المستشرقين الذين قاموا برحلات متعددة إلىٰ الشرق ـ خصوصاً إلىٰ إيران ـ السير وليم أوييسلي Sir William Ouseley ، وله كتاب بعنوان «رحلات في بلدان مختلفة في الشرق» Travels in Various Countries of the East . وقد صدر هذا الكتاب خلال الأعوام ١٨١٩ و ١٨٢٣م في ثلاثة أجزاء كبيرة.

أما كتب التاريخ التي ظهرت خلال العصر الرومانسي، فهي كثيرة جداً، خصوصا تلك التي لها صلة بالإسلام، ومن أهمها ما يأتي :

١ ـ كتاب الضابط البريطاني ديفيد برايس David Price وعنوان الكتاب Chronological Retrospect of Mahommedan History ، والذي كتبه المؤلف بعد تقاعده من العمل في الجيش البريطاني بالهند، وقد صدر الكتاب خلال الأعوام ١٨١١ ـ ١٨٢١م.

٢ ـ كتاب تشارلز ميلز Charles Mills ، وهو من المتخصصين في القضاء والقانون، ولكنه قضىٰ وقتاً طويلاً من عمره لدراسة التاريخ

العام، وبالأخص دراسة التاريخ الإسلامي، وقد أصدر عام ١٨٢٠م كتاب تاريخ المحمديين أو المحمدية History of Mahommadanism .

٣ ـ كتاب إدوارد أبهام Edward Upham ، وهو بائع كتب في مدينة إكستر. ومن خلال قراءاته واطلاعه الواسع كتب كتاباً بعنوان «تاريخ الإمبراطورية العثمانية» A History of the Ottoman Empire، الذي صدر عام ١٨٢٩م. وفي الكتاب يتحدث المؤلف عن الرسول ﷺ ويصفه بأنه دجال محتال، اعتمد على السحر والشعوذة في التأثير على الناس وإكراههم على الدين.

٤ ـ كتاب حياة محمد Life of Mahomet كتبه قديس مجهول، يكيل في هذا الكتاب كثيراً من السباب والشتائم للنبي محمد ﷺ، وأنه وحش فظ القلب، وما إلى ذلك من الأوصاف التي لا تليق بالرسول الكريم الرؤوف الرحيم، المبعوث رحمة للعالمين . واستطرد المؤلف في قوله بأن محمداً عليه السلام عندما قصَّ على خديجة ماحدث له في غار حراء، فإنها لم تصدقه، وعلمت أن محمداً يسخر بقوله ذلك. بئس ماقال هذا المفتري !.

٥ ـ كتاب صموئيل بُش Samuel Bush ، أستاذ اللغة العبرية بجامعة نيويورك، الذي أصدر كتاباً عام ١٨٣٠م بعنوان «حياة محمد» Life of Mohammed وتنبأ بقوله : إن الإسلام وسلطة البابوية التي جمع بينهما بأنهما دينان مزيفان من صنع الخيال، وأنهما سينتهيان في عام ١٨٦٦م.

٦ ـ وأخيراً نذكر كتاب جود فري هيجنز Godfrey Higgins ، وقد

صدر عام ١٨٢٩م بعنوان An Apology for the Life and Character of the Celebrated Prophet of Arabia called Mohamed , or the Illustrious ، وقد ركز المؤلف فيه على دراسة المعتقدات الإسلامية وأصولها الدينية، وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه يريد أن يدحض المفتريات، ويرد الشبهات التي جاء بها محمد ﷺ. وعقد المقارنة بين أتباع عيسى ابن مريم عليه السلام وأتباع محمد ﷺ ، كما أنه شكك في حقيقة زواج أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بالرسول عليه الصلاة والسلام، وهي تكبره بخمسة عشر عاماً، وأنه بزواجه منها ـ إن صح ـ مدعياً أن ذلك مخالف لتعاليم القرآن الكريم ،كما أنه يرى أن رسالة النبي قد تكون مقبوله قبل الهجرة، ولكنه بعد الهجرة فقد بدا وكأنه بطل ومات فيلسوفاً . وتحدث المؤلف عن صحبة النبي محمدﷺ مع أبي بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وعلاقة الرحم بينهم، وكل كلام المؤلف إثارة لشبهات مع كثير من التناقض والتلون في الكلام والسرد .

ومما اتسمت به هذه الفترة من التاريخ : ازدياد اهتمام المستشرقين بكتاب «ألف ليلة وليلة»، وترجمته إلى اللغات الأوربية المختلفة، كما سنوضح ذلك فيما يأتي.

إن كتاب «ألف ليلة وليلة» يرِدُ ذكره أحياناً في بعض المصادر العربية، ولكن أول من نبه إلى وجود هذا الذكر هم المستشرقون في الغرب، الذين اهتموا كثيراً بدراسة هذا الأثر الأدبي المشهور ، فيما يتركز مجهود الشرقيين على كتاب «ألف ليلة وليلة»، ونسخهم الكتاب نسخاً مختلفة،

وطبعهم له طبعات متعددة. وأهم طبعة لهذا الكتاب هي طبعة بولاق التي طبعت في مصر، والتي اعتمدت على نسخة هندية أصلها مصري طبعت في كلكتا عام ١٨٣٣م، ومن هذه النسخة خرجت مختلف الطبعات بعضها ناقص بعض الليالي، وبعضها يختلف عن الآخر في ترتيب الليالي وهكذا.

ومن الطبعات الأخرى المعروفة طبعة برسلو، التي قام بها هابشت Habicht عام ١٨٢٤م على أساس نسخة من تونس. وهناك طبعة ثانية طبعت في كلكتا، أحضرها إلى الهند من مصر الميجر ماكان Macan، والتي ظهرت خلال ١٨٣٢ ـ ١٨٤٢م، وهناك طبعة بولاق التي اعتمدت على نسخة كلكتا الثانية، وظهرت عام ١٨٣٥م. وللكتاب مخطوطات كثيرة تحتفظ بها مكتبات العالم في الشرق والغرب. ومن جهود المستشرقين في هذا المجال ماقاموا به من ترجمة للكتاب، فلقد ترجم الكتاب إلى الهندية، والفارسية، والتركية، والأردية، والملاوية، والصينية، وأخيراً إلى اليابانية. والحديث عن أصل هذا الأثر الأدبي العظيم والتراث الذي ينتمي إليه كتاب «الف ليلة وليلة» مجال بحث وجدال بين النقاد والكتاب والعلماء، فبعض الآراء تقرر أنه من أصل عربي، وآراء أخرى تقول: إنه من أصل هندي، وبعضها يشير إلى أنه فارسي.

ومن المعلوم أن جهود البحث العلمي في الغرب لم تقف عند حد ترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة» ودراسته، بل لقد شغل هذا العمل بال الباحثين لمعرفة أصل هذا الكتاب، حيث ظهرت عدة دراسات يدركها

القاريء من خلال مقدمات النسخ المطبوعة والمترجمة إلى لغات متعددة، إلى جانب الدراسات الجانبية التي أصدرها الكتاب والنقاد لمعرفة الأصول التاريخيه والأدبية والقوميه لهذا العمل، وإن كانت بعض هذه الدراسات يشوبها بعض الخلل، إذ لم تعرف طبيعة هذا الكتاب الذي هو في الحقيقة لم يؤلَّف على نحو مايفهم من تأليف الكتب ، بل إن الكتاب هو مجموعة من القصص، لم تؤلف لتقرأ وتحفظ في دور الكتب ، وإنما هو مجموعة من القصص المتفرقة، كان القصد منها تسلية العامة مشافهةً وسماعاً ، إذ ظل القاص قروناً طويلة يحمل نسخته الخاصة من هذا الكتاب، يحوُر فيها ويحذف ويضيف كيف شاء ، حتى جاء العصر الذي نُظِرَ فيه إلى هذه القصص بعين التقدير، فقُيِّدَت إما بالمطبعة ، وإما بحفظ هذه النسخ في دور الكتب. ولقد عاشت هذه المجموعة من القصص تؤدي غرضها الأول، وهو إرضاء السامعين قروناً متتالية، يتحكم فيها ذوق السامعين فلا يجد هذا التحكم من القاص أقلَّ تحرُّجٍ من التلاعب بالأصل بأقصى مايمكن التلاعب به . ولقد ساعد على ذلك طبيعة العمل نفسه ، الذي هو في الحقيقة مجموعة من القصص المتفرقة لا وحدة ولا رابط لأجزائها ، بحر خِضَمٌّ حدوده قصة الملك شهريار وزوجته شهرزاد . عاش هذا العمل حراً طليقاً، حتى جاء اهتمام الغربيين، فقيد من حريته ، ونقل نصه من آذان العامة وأفواههم إلى المخطوطات والمطبوعات في دور الكتب . إذن، عدم معرفة طبيعة كتاب «ألف ليلة وليلة»، وأنه من الأدب الشعبي، جعلت مسألة البحث عن أصله لا تَقَرُّ إلى قرار، خصوصاً في الغرب .

وهنا يمكننا القول بأن البحث عن أصل «الإلياذة» أثَّرَ أثراً قوياً في البحث عن أصل «ألف ليلة وليلة» لا لأن كليهما أدب شعبي ، بل لأنهما خضعا للتطوير والتحريف والتبديل، دون أن تقيد وتحفظ في المكتبات.

والمطلع على الأبحاث التي عملت حول أصل «الالياذة»، ويقارن ذلك بالأبحاث التي عملت لمعرفة أصل «ألف ليلة وليلة» ـ كما في أبحاث لين Lane على سبيل المثال ـ فإنه سيجد الأثر الواضح في مجريات هذه الأبحاث، التي تركزت على فكرة المؤلف: هل هو واحد أو اكثر من واحد؟، وفكرة الزيادات التي طرأت على النص: هل كانت في عصر أو وقت واحد أم أنها كانت في أوقات وعصور متعددة ؟ وعلى أية حال، فإن أول من قدم شيئاً له قيمة علمية عن أصل كتاب «ألف ليلة وليلة» ما وصل إليه المستشرق النمساوي فون هامر، حيث أشار في مقدمة ترجمته التي ظهرت في أوائل القرن الثامن عشر إلى أن أصل هذه القصص هندي، مستدلاً بمقولة المسعودي في كتابه «مروج الذهب»، المتضمنة أن كتاباً مترجماً عن الفارسية اسمه «ألف ليلة وليلة» كان معروفاً أيام المسعودي إبان منتصف القرن الرابع الهجري، أي حوالي التاسع الميلادي [1].

ومع هذا التوضيح، فإن البحث عن أصل هذا الكتاب ظل مستمراً، وطال الجدل في ذلك، إلى أن جاء فون هامر أيضاً في عام ١٨٣٩م، ونشر نصاً آخر يؤيد وجهة نظره الأولى عن أصل

(١) علي بن حسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م ، ج١ ، ص ١٣١ ـ ١٩٥ .

كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث إنه وجد في «الفهرست» لابن النديم مايشير إلىٰ ذلك[١] . وبعد هذا بدأ الخوض والمراء حول أصل «ألف ليلة وليلة» يخف قليلاً، ويتركز الجهد علىٰ الدراسات والترجمة لهذا الكتاب.

ومن المعلوم أن أول ما لفت نظر الغربيين إلىٰ كتاب «ألف ليلة وليلة» هي الترجمة التي قام بها أنطوان جالان، وهو أستاذ متخصص في العلوم الشرقية في فرنسا، وله ترجمة للقرآن الكريم . ويرجع كثير من النقاد والكتاب في الغرب، بل والمستشرقين، إلىٰ أن النجاح الكبير التي لاقته الليالي في الغرب إنما يعود إلىٰ جالان وترجمته، التي أضفىٰ عليه روحاً من طبيعته القصصية ، وما قام بترجمته جالان لم يكن يمثل كل الليالي.

لقد ظلت ترجمة جالان طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تمثل للأوربيين المعنىٰ المفهوم من «ألف ليلة وليلة» والشرق، إذ قامت معظم الشعوب الأوربية بترجمة الكتاب من الفرنسية إلىٰ لغاتها المختلفة، فترجم الكتاب إلىٰ الإنجليزية، والإيطالية، والأسبانية، والبرتغالية، والرومانية، والهولندية، والدنماركية، والألمانية، واليونانية، والسويدية، والروسية، والبولندية، والهنجارية ، ولاقت هذه الترجمات نجاحاً عظيماً . وكانت ترجمة جالان قد طبعت ما يزيد عن ثلاثين مرة، خصوصاً خلال الفترة من ١٨١٠ إلىٰ ١٨٨٥م ، ولقد حاول أكثر من مترجم في فرنسا أن يحذو حذو جالان في ترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة»، ولكن لم تفلح كثيراً، إذ لو نظر الإنسان مثلاً في ترجمة

---

(١) محمد بن إسحاق النديم ، الفهرست ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ ــ ١٩٧٣م ، ص ٤٢٠ـ٤٢٥ .

مردروس Mardrus فإنه قام بترجمة الليالي وأحسن إخراجها من حيث اللوحات والطبع، ولكن الترجمة لم تكن علمية، فهي تأليف وحشو بما هو مبتذل ومسخ أكثر مما هو ترجمة . إذن لهذا السبب ولأسباب أخرىٰ تميز بها جالان في ترجمته، ظلت تلك الترجمة نبراساً في الفرنسية .

وبالنظر في اللغة الانجليزية وترجمة «ألف ليلة وليلة» بهذه اللغة، فالملاحظ أن الإنجليزية ظلت قرناً من الزمان تعتمد علىٰ الترجمة الفرنسية لجالان ، إلىٰ أن نشط المستشرقون، وعملوا علىٰ ترجمة الليالي من أصلها العربي، ذلك أن حصول ماكان Macan علىٰ نسخة مخطوطة لهذا الكتاب كان حافزاً عظيماً لترجمته إلىٰ الإنجليزية، وكان أول من قام بذلك هو سكوت Jonathan Scott عام ١٨١١م، والأمر مشكوك في حقيقة ترجمة سكوت، ثم جاء بعد سكوت هنري تورنز Henry Tor-rens، وترجم الليالي في عام ١٨٣٨م، وكان عمله جدياً في الترجمة . ثم جاء لين Lane فيما بين عامي ١٨٣٩ ــ ١٨٤١م ليقدم ترجمته الكبيرة الكاملة، ثم تلا ذلك ترجمة بين John Payne.

وتوالت الترجمات إلىٰ أن يأتي العمل الضخم الكبير لترجمة الليالي، ممثلاً في الجهد الذي بذله برتن Burton لينشر ترجمته عام ١٨٨٥م، فينشره في عشرة أجزاء، ملحق بها سبعة أجزاء أخرىٰ . وقد حافظ في ترجمته علىٰ تقسيم الكتاب إلىٰ ليال .

ما من شك في أن «ألف ليلة وليلة»، كان له تأثير كبير على الغرب والغربيين نجمل ذلك في بعض الفقرات الآتية .

لقد فتحت الليالي الباب على مصراعيه لدراسة الشرق دراسة متعمقة، ويظهر ذلك اهتمام الغربيين في جمع أكبر عدد من نسخ المخطوطات وإعداد الفهارس لها، وعمل الدراسات والأبحاث عن الشرق ولغاته وعاداته وتقاليده وطبائعه ومناخه وأديانه ، الأمر الذي أثار الشغف في نفوس الغربيين لجمع الأدب الشعبي الشرقي، والعمل على وصف الشرق. وبدأت حركة جمع كتب الرحلات التي قام بها الرحالون إلى الشرق، وأوضحت وصف بعض بلدان ومدن الشرق، ثم إن هذه الكتب عن الشرق التي تصف الرحلات أخذت تقترب من الأدب شيئاً فشيئاً، حتى أصبحت أدباً صرفاً ، ولكن تأثرها بألف ليلة وليلة لم يتعدَّ آثارها العامة، لأن اهتمام الغرب بالشرق كان اهتماماً تجارياً، ثم اقترب الغرب من الشرق بفضل السياسة، فقد أحس الغرب هذا السلطان الشرقي العظيم على رقعة واسعة من الأرض، وكانت الدولة العثمانية ميدان الاتصال الحقيقي، حيث اتصل الغربيون بأناس أعلى درجة من التجار في مدن الشرق، مما جعل هناك اتصالاً مباشراً بحياة الملوك وسائر الطبقات الاجتماعية، وكان لهذا الاتصال أثره الكبير في الغرب وآدابه، خصوصاً في الأدب الفرنسي لمكانة فرنسا السياسيه إذ ذاك .

ومن المعروف أن ترجمة جالان غيَّرت اتجاه النظرة إلى الشرق، مما أثر على حياة الغربيين وما داخلها عن طريق الأدب الذي تضمنته الليالي من خيال رائع، قدم معيناً غنياً وبديلاً جميلاً عن الكلاسيكية التقليدية

التي بدأ الغرب يملُّها.

ولقد أثرت ترجمة «ألف ليلة وليلة» في حركة التأليف والكتابة في الغرب، فبدأ يظهر التقليد في تأليف بعض الحكايات المماثلة لحكايات «ألف ليلة وليلة». ونذكر علىٰ سبيل المثال: كتاب لاكروا Lacrux المعروف باسم Le 1oo1 Jours contes Persanes.

وبفضل كتاب «ألف ليلة وليلة» تطور أدب الأطفال في الغرب. وهناك الكثير الكثير من قصص الأطفال التي يضيق المجال عن حصرها في الآداب الغربية، التي ألفت أو نقلت إليها لتسلية الأطفال، ومنها قصة علي بابا، وقصة علاء الدين وفانوسه، وقصة السندباد، وقصة الأميرة الصغيرة. كل هذه القصص أصبحت جزءاً من ثقافة الأطفال في الغرب.

وبالنسبة للإسلام والكتابة عنه في الأدب الإنجليزي خلال العصر الرومانسي، نجد أن الشعر قد شغل حيزاً كبيراً في الحديث عن الإسلام والمسلمين والنبي محمد ﷺ، ومن أبرز من كتب عن الإسلام في هذا العصر الشاعر الرومانسي المشهور، وحامل لواء الرومانسية: وليم وردزورث (١٧٧٠ـــ ١٨٥٥م) William Wordsworth ابن أحد نواب المقاطعات الإنجليزية. تعلم بمدارس الآجرومية، وتخرج في إحدىٰ كليات كمبردج. زار في شبابه بعض الدول الأوربية مثل فرنسا وسويسرا وإيطاليا، ولقد أحب فرنسا كثيراً، وأعجب بالثورة الفرنسية. كان شاعراً مميزاً بالأصالة في إنتاجه الأدبي، وكتب بتدفق وأنتج قصائد كثيرة جداً اتسمت بالجدة والإبداع، والصور الخيالية والفكرية في لغة الشعر

وموضوعاته، كتب مجموعة القصائد الغنائية The Lyrical Ballads بالتعاون مع زميله رائد الرومانسية والطرف الآخر لها صموئيل كوليردج. وظهرت عبقرية ورد زورث عندما كتب مجموعة قصائده بعنوان The Prelude . ومن مجموعة هذه القصائد قصيدة مشهورة بعنوان «العندليب» The Nightangle، وفيها اختار الشاعر هذا الطائر بديلاً عن الحمامة التي تحدث عنها الأدباء السابقون في عصور تاريخ الأدب الإنجليزي السابقة على أنها روح القدس التي يستلهم منها النبي محمد ﷺ الوحي، فيقول الشاعر :

O Nightangle than surely art
A creature of "fiery heart"
These notes of "thine they pierce and pierce"
Tumultuous harmony and fierce.(١)

والشاعر باستعماله قوسين لعبارة «قلب ناري»، فإنه يشير إلى إبليس وأعوانه، ولعل المقصود بذلك النبي محمد ﷺ كما تشير كتب النقد الأدبي . وقد لا تكون الصورة في الحديث عن الإسلام واضحة تماماً في هذه القصيدة كما هو الحال في قصائد أخرى(٢).

وعلى العموم فالمعروف أن وردزورث أيام دراسته كان يحمل معه كتاباً عن حكايات عربية، لعلها قصص «ألف ليلة وليلة»، وجعلها

(١) انظر : W.M.Merchant (ed.) Wordsworth Poetry and Prose, Rupert Hart-Davis, London,1970, P.550

(٢) انظر : Byron Porter Smith, Islam in English literature,P129

رفيقـاً له في ساعات اطلاعه وقراءته[١] .

وفي مجموعة قصائد بعنوان «معزوفات سماوية» Ecclesiastial Sonnetts ، وبالذات قصيدة تتحدث عن الحملات الصليبية ، نجد الشاعر يصف القواد النصارىٰ وأنهم هزموا من قبل المسلمين ، وذلك بسبب طغيان الإسلام وتعسف المسلمين ، أولئك الكفار ، أي : المسلمون الذين يعتقدون في الضريح الشريف ، أي ضريح النبي محمد ﷺ ، فيقول الشاعر :

Then blame not those who, by mightest lever
Known to the moral world imagination
Upheave, so seems it, from her natural station
All christendom:- they sweep along (was never
So huge a host !) to tear from the unbeliever
The precious Tomb, their heaven Salvation. [٢]

وفي موضوع الحملات الصليبية وضمن مجموعة «المعزوفات السماوية» فالشاعر وردزورث نظم قصيدتين عن الملك ريتشارد الأول قلب الاسد ، يمجِّدُ فيها هذا الملك علىٰ أنه قائد محنك ملهم ، أجاب نداء القداسة ، نداء البابا ، وجمع قوىٰ النصرانية ليقود الحملة الصليبية الثالثة ، لتخليص بيت المقدس وفلسطين من براثن العدو والطغاة ، وهذا ما قاله في مقدمة قصيدة «ريتشارد الأول» Rechar I

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر : John Morley (ed.) Complete Poetical Works of William Wordsworth , Macmillan, London, 1891 , P. 617 .

Redoubted king of courage Leonine
I mark thee Richard ! urgent equip
In conqured Cyprus see the bride decline
Her blushing cheek love-vows upon hir lip
And see love-emblems streaming from thy ship
As thense she holds her way to Palestine (١)

إن الشاعر يستحث الملك ريتشارد ، لكي يذهب لإنقاذ قبرص ، وكذلك فلسطين بحرب ضروس يخوضها مع المسلمين .

وأخيراً في قصيدة بعنوان «حب سيدة أمريكية» The American Lady's Love يستمر وردزورث في حديثه عنالصليبيين، ذلك أن سيدة أمريكية وأحد الصليبيين وقعا في أسر المسلمين، ولكن شاء الله أن يهربا، وأحبت السيدة الأمريكية ذلك الفارس الصليبي، الذي لم يكن يبادل تلك السيدة ذلك الحب، ويقول الشاعر: إن سببه المثل العليا التي يتمتع بها الفرسان الصليبيون :

Judge both fugitives with knowledge:
In those olld romantic days
Mighty were the soul's commandments
To suport , restrain , or raise
Foes might hang upon their path snakes rustle near,
But nothing from their inward selves had they to fear. (٢)

يعد صموئيل تايلر كوليردج (١٧٧٢ ــ ١٨٣٤م) Samuel Taylor Coleridge ، وهو ابن أحد القساوسة بمنطقة ديغون، من الرواد الأوائل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٢٥ .

للحركة الرومانسية في الأدب الإنجليزي . تخرج من جامعة كمبردج، وهو صديق حميم لوردزورث، ويرتبط اسماهما كثيراً في كتب النقد والأدب وتاريخ الأدب . وقد كتب مع وردزورث القصائد الغنائية . وقد اشتهر كوليردج ببعض قصائده البديعة التي يفخر بها الأدب الإنجليزي كثيراً، مثل قصيدة The Rime of the Ancient Mariner والرومانسية في نظر كوليردج هي نهضة التأمل والفكر(١) .

ومن المعلوم أن كوليردج كان قد اتفق مع الشاعر الرومانسي المعاصر له روبرت ساوثي على كتابة قصيدة ملحمية عن نبي الإسلام بعنوان «محمد»، تتحدث عن النبي محمد ﷺ منذ بعثته ، وحتى فتح مكة ، ولكن هذا الأمر لم يتم، بالرغم من أن كوليردج كتب قصيدة بعنوان «محمد» تقع في أربعة عشر بيتاً، طبعت لأول مرة عام ١٨٣٤م. وقد كتب كوليردج إلى ساوثي رسالة يخبره: إذا لم يعد هو مهتماً بكتابة القصيدة الملحمية، فهو سيستمر في ذلك ، ولكن لم يكتب لهذا العمل التوفيق والحمد لله . وفي قصيدة «محمد» المشار إليها سابقاً، تحدث كوليردج في الأبيات الأولى من القصيدة على أن الإسلام عقوبة السماء للنصارى عُبَّاد الأصنام في الشرق، الذين تقاعسوا عن التبشير بالنصرانية ، وأعطوا المجال لظهور محمد والإسلام، فيقول :

Utter the song O my soul ! the flight and return of Mohammed,
Prophet and priest who scatter'd abroad both evil and blessing

---

(١) انظر : Emile Legouis , A Short History of English Literature , P.283.

Huge wasteful empires founded and hallow'd slow presentation,
Soul-withering , but crush'd the blasphemous rites of the Pagan
And idolatrous christians , For veiling the Gospel of Jesus (١)

الشاعر يصف الرسول ﷺ بأنه نشر الشر، وأنه هو وأتباعه أصحاب دين وثني، عُبَّادٌ للأصنام، وأن الرسول رجل حرب، لا رجل سلام جاء من مكة المكرمة لينشر الجور والظلم والإثم والخطيئة، كما يتضح في الأبيات التالية :

Wherefore Heaven dcreed th' enthusiast warrior of Mecca,
Choosing good from iniquity rather than evil from goodness
Loud the tumult in Mecca surrounding the fane of the idol , (٢)

بعد ذلك ينتقل الشاعر ليتحدث عن المسلمين وهم في ملابس الحج أو العمرة وهم في صلاتهم ساجدون، وهم في تكبيرهم وتهليلهم ذاك، يصفهم الشاعر، بأن ذلك أصوات إزعاج مثل إزعاج الرعد، أو أشبه مايكون بإزعاج نباح الكلاب :

Naked and prostrate the priesthood were laid-the
people with mad shouts
Thundering now, ans now with saddest ululation (٣)

إذن، من الواضح أن القصيدة كلها إساءة إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وخصوصاً في مسألة

---

(١) انظر : Ernest Coleridge, (ed.), The Complete Poetical Works of Samuel Taylor Coleridge, the Clarendon Press , Oxford , 1970 , vol.1,p.329.

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

الحج وذكر الله . فلم يعلم هذا الشاعر أن ذكر الله أكبر وأعظم ، وأنه فضل وخير يقول المولى سبحانه وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [١] . والذكر في الحج يقول عنه جل وعلا : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه بالرغم من أن كوليردج اشتهر بكتابة الشعر ، إلا أنه كانت له مساهمات في النثر والأدب المسرحي والأعمال الصحفية ؛ من ذلك ما كان ينشر في صحيفة The Morning Post . ففي عامي ١٨٠٤م، ١٨٠٥م كتب بعض المقالات المتصلة بالإسلام والدولة العثمانية والمسلمين . ففي مقال له بعنوان مالطا ومصر Malta, Egypt ,etc. يتحدث فيه عن مكانة الرجل الإنجليزي ، ويقول : إن اسم إنجليزي شيء محترم ومبجل في مصر وتركيا ، ولدى المماليك ، وحتى في ألمانيا ، وهو الرجل الأعلى اليوم الذي يستحق الامتياز ، وهو الذي يرفع رأس كل مسيحي ، وعلى العكس من ذلك الحال بالنسبة للمسلم [٣] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٤١ ـ ٤٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٠٣ .

(١) انظر: David V. Erdman, (ed.), Samuel Tylor Coleridge Essays on His Times, Routledge & Kegan Paul, London,1978, p.31.

وفي مقال آخر بعنوان «مصر قبعات على عمائم»"Egypt : Hats over Turbans" نجد الكاتب مرة أخرى يظهر عُلُوّ النَّصارى، كما رمز لهم بالقبعات على المسلمين الذين رمز لهم بالعمائم (١) .

يعد السير ولتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢م) Walter Scott من الأدباء المجيدين في الأدب الإنجليزي، ولقد بدأ حياته الأدبية بقراءة التاريخ والكتابة عن أحداث الماضي، ونظم ذلك شعراً، ذلك أن شعره الرومانسي كان مختلطاً بألوان الصور التاريخية المستوحاة من الماضي، وهذا الاتجاه أثر في إنتاج رواياته القصصية (التي سنتحدث عنها فيما بعد في هذا الفصل)، والتي لم يسلم الإسلام فيها من قلمه ولسانه، بما افتراه على الإسلام والمسلمين، كما فعل في شعره، وعلى الأخص في قصيدته التي كتبها عام ١٨١١م بعنوان « رؤيا دون روزريق » The Vision of Don Roderick، وهي تحكي أحداث الصراع الإسلامي المسيحي في إسبانيا وبالذات في أواخر فترة حكم ملوك القوط ومنهم الملك روزريق. والقصيدة تتكون من اثنين وستين نشيداً، كل نشيد به تسعة أبيات، وللقصيدة مقدمة في اثني عشر بيتاً وخاتمة في ثلاثة عشر بيتاً . والشاعر في قصيدته هذه ينهال بسيل عرمٍ من السباب، وإلصاق التهم، وأوصاف الرذائل، وخصائص الهمجية بالمسلمين، الذين أطلق عليهم لفظ شرقيين Saracens، ولفظ المور أو المغاربة السمر Moor وأنهم الأعداء البربريون :

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٠

Explore those regions , where they flinty crest
of wild Nevada ever gleams with snow,
Where in the proud Alhambra's ruin'd breast
Barbaric monuments of pomp repose,
Or where the banners of more ruthless foes
Than the fierce Moor , float o'er Toledo's fame, (١)

ثم ينتقل بعد ذلك الشاعر ليتحدث ـ وبقلب حزين ـ واصفاً هزيمة روزريق أمام الأعداء الملحدين الكفار، أي المسلمين، والذين يأسرون النساء، ويهينون الرجال، ويمقتون الصليب.

Then rose the grated Harem to enclose
The loveliest maidens of christian line
Then menials , to their misbelieving foes
Castile's young nobles held forbidden wine
Then , too , the holy cross , salvation sign,
By impious hands was from the alter thrown,(٢)

هذه نظرة سكوت في شعره نحو المسلمين، والتي بعد ذلك فصّلها بعمق في كثير من رواياته.

ومن المفكرين وأساتذة الجامعات، الذين كتبوا في الأدب عن الإسلام خلال هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي: المستشرق المشهور جوزيف كارلايل Joseph D.Carlyle أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة كمبردج، وقد اختير لصحبة أحد اللوردات السياسيين، الذين عينوا للسفارة في الدولة العثمانية، ذلك أن الإدارة البريطانية رأت ضرورة

(١) انظر: Sir Walter Scott , The Poetical works of Sir Walter Scott, Adam and Black , Edinburgh 1865 , P.351.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٦ .

مصاحبة ذلك السفير من قبل أحد المتخصصين في الشرق وعلومه ولغاته، فكان كارلايل هو الشخص المعين الذي ذهب لمدة عامين، منذ ١٧٧٩ وحتى ١٨٠١م. ولهذا المستشرق مجموعة من القصائد الشعرية عن الشرق مجموعة في ديوان بعنوان :

Poems Suggested chiefly by Scenes in Asia-Minor, Syria and Greece.

و قد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٠٥م، ومن أهم القصائد التي جاءت في هذا الديوان نذكر ما يأتي : «قضاء أمسية في قافلة من العرب» : On Passing an Evening with Caravan of Arabs «عن منظر لوادي ومدينة نيقوسيا عند شروق الشمس» On Viewing the Vale and City of Nicaea at sunrise وقصيدة كامنيون Caraminians «سماع صوت الكوكو بوادي سبأ» On Hearing a Cuckoo in the valey of Saba ، وأخيراً قصيدة «على ضفاف نهر البسفور» Bank of Bosphorus . وقد اشتمل هذا الديوان على ترجمة لبعض القصائد العربية، ومعظمها من شعر المتنبي ؛ لأن هذا المستشرق كان معجباً بالشاعر المتنبي . وقد علق هذا المستشرق بعض الملاحظات على الشعر العربي، وبالأخص على الحب العذري عند العرب، و ما يجده المحب من محبوبته عندما يراها في ليلة قمراء، إذ أنه يرى قمرين في إنه واحد[١].

---

(١) انظر : Joseph D. Carlyle , Poems Suggested chiefly by Scenes in Asia Minor , Syria and Greece , London ,1805 , P.11

ومن مؤلفات هـذا المستشرق جوزيف كارلايل: كتابه عن نماذج من الشعر العربي الجاهلي حتى عصر الخلافة الراشدة Specimens of Arabian Poetry Pre-Islamic to Caliph times from Earliest صدر هذا الكتاب عام ١٨١٦م، ويتضمن مختارات من شعر عظماء الشعراء العرب وحكمائهم من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي. والمعروف أن معظم كتابات هذا المستشرق اتسمت بالغمز واللمز للإسلام وتصوير المسلمين بصورة الباطل والرذيلة[1].

ومن الشعراء المكثرين في الكتابة عن الإسلام في العصر الرومانسي: الشاعر روبرت ساوثي (١٧٧٤ـ١٨٤٣م) Robert southey، كان متحمساً منذ صغره، نشطاً في أفكاره، وكان صديقاً حميماً لكوليردج، واتفق معه على كتابة قصيدة ملحمية عن الإسلام بعنوان «محمد»، كما تقدم ذكره، ذلك أن ساوثي منذ أن بدأ كتابة الشعر، كان ينوي أن يكتب بعض القصائد الملحمية التي تتصل بتشريع الأديان المختلفة والمعتقدات الأسطورية، ولما لم يتمكن من فعل ذلك، ركز على الكتابة عن الإسلام كاختياره الأول للكتابة عن الأديان . و كتاباته عن الإسلام اعتمدت على كتب الرحلات التي قام بها الرحالة إلى الشرق، وعلى كتب المستشرقين، وعلى الكتب المتصلة بالتاريخ الإسلامي في الغرب. وقد شرع في كتابة قصيدة عن محمد، منطلقاً في ذلك من قصة حادثة هجرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع النبي محمد ﷺ إلى المدينة المنورة،

---

(١) المرجع السابق ص ٢ ـ ٤.

واختفائهما بغار ثور. يوضح في القصيدة عدم صدق الرسولﷺ، لأنه هرب خوفاً من قريش، واختفى مع صاحبه في ذلك الغار، وجعل سبب هروب الرسول ﷺ - كما يزعم الشاعر - موت خديجة في ذلك العام، وضعف عزيمته عليه السلام في مواجهة قومه :

Over the plains they pursue him , pursue him with cries and curses
Sounds that rang over the plain , and rung in the echoing mountains:
And Mecca recieved in her streets the din of their clamourous uproars.
But the voice of Moslem , the silent prayer of the faithful
Rose to the throne of the God , and tears of the heart overflowing
Intercreded for him whom they loved and believed his apostle(١)

إن هجرة الرسول ﷺ لم يكن سببها موت زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فقد توفيت قبل الهجرة بوقت طويل من العام الذي هاجر فيه، وليس كما ادعى الكاتب أنه هاجر في نفس العام الذي ماتت فيه رضي الله عنها.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام دعا ربه أن ينصره في أمره وما يكون عليه قبل الهجرة، فقال تعالى على لسان نبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (٢)

(١) انظر : C.C. Southy (ed.), The Life and Correspondence of Robert Southy, NewYork,1855, p.119.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٠ .

و في قصيدة بعنوان «ثعلبة الفتاك» Thalabah the Destroyer ، والتي استقى موضوعها من ألف ليلة وليلة، أضاف إلى «كتاب الساحر المغربي» The History of Maugraby the Magician ، وثعلبة هذا شاب قوي ينوي أن يدمر الجريمة، ويقضي عليها، ويفتك بكل شخص مجرم، لذا سمي بالفتاك. ومن أبرز موضوعات القصيدة: قصة مقتل ليلى ابنة عقبة التي وجدها ثعلبه في حديقة مسحورة مغطاة بالنار المضرمة، وهنا يحاول ثعلبة قتل عقبة، ويقضي عليه بالموت كما يفعل عزرائيل بقبض الأرواح :

Her leaf hath wither'd on the Tree of life
This is the hour , and from thy hands
Commission'd to recieve the Maid I come (١)

و بينما كان ثعلبة في حال من الذهول و الخوف سمع صوتاً غريباً من السماء يقول :

She dies for thee , or thou for her ;
It must be life for life (٢)

و القصيدة بجملتها تتحدث عن شجاعة و بطولة ثعلبة، الذي عمل على مكافحة الشر، طلباً للمكافأة في الجنة بالحور العين، وتمثل الحور العين أمام ناظري ثعلبة جمال الفتاة عُنيزة، فهي فتاة عذراء جميلة جذابة، كلها عفة وطُهر.

---

(١) انظر : C.C. Southy (ed.), The life and Correspondence of Robert Southy,p.283 .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٣ .

والقصيدة كلها تصوير لشخصيات مسلمة وأحداث مختلقه. و لم تظهر نظرة الشاعر نحو الإسلام في نص القصيدة، و لكن في حواشيها تحدث الشاعر عن النبي ﷺ وهو يقرأ بعض الآيات من الإنجيل، ويقصد بذلك ميله عليه السلام إلىٰ دعوة المسيح وليس إلىٰ ما بعث به ﷺ، وحبه لكتاب النصارىٰ وليس لقرآن المسلمين.

لم يعلم هذا الأديب أن الرسول ﷺ كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، وهذه سيرته بين قومه أكثر الناس معرفة به وهذا القرآن يؤكد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1]. والرسول لم يأت بشيء من عنده، ولم يكن يعلم الغيب ولا الشريعة كما يصف القرآن ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

إن الرسول ﷺ جاء ليتمم دعوة من سبقوه من الرسل والأنبياء. يقول المولىٰ جل و علا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[3].

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٨.

(٢) سورة الشورىٰ، الآية ٥٢.

(٣) سورة الشورىٰ الآية ١٣.

و من اهتمامات ساوثي بالإسلام في أدبه: ما كتبه في مقدمة قصيدة بعنوان Curse of Kehena ، حيث أوضح ساوثي كيف أنه كتب بعض القصائد ليعرض فيها أشهر نماذج الأساطير المعروفة. ويقول: إنه بدأ بأساطير دين المسلمين، ذلك أن كل من قرأ كتاب «ألف ليلة وليلة» تكون لديه الخلفية الكافية لفهم تلك الأساطير، خصوصاً عن النبي المزعوم الذي أسرف في مزاعمه بما لا يعقله عاقل، ولا يدركه ذو بصيرة، فيقول: لقد اعتمد محمد على الإيحاء، ذلك الإيحاء الشرقي لينهض بدينه الباطل [١].

وفي قصيدة بعنوان «رزريق آخر ملوك القوط» Roderick the last of the Goths . وقد ظهرت عام ١٨١٤م ، فيها تحدث ساوثي عن الفتح الإسلامي ، وقد احتوت هذه القصيدة على سبعة آلاف سطر من الشعر غير المقفى ، وهنا يؤكد ساوثي بأن الملك رزريق لم يمت ولم يقتل في حربه مع المسلمين ، بل إنه أفلت من أيدي المسلمين، وعندها قدم ساوثي صورة مزرية عن الإسلام والمسلمين، ووصفهم بأسوأ الأوصاف، فقال:

A countless multitude they came,
Syrian , Moor , Saracens , Greek renegade
Persian and Copt , and Tatar in one bond
Of erring faith conjoin'd--strong in the youth
And heat of zeal , ---a dreadful brotherhood,
In whom all turbulent vices were let loose ,.
While conscience , with their impious creed accurs'd

---

(١) انظر: C.C southy (ed.),The Life and Correspondence Of Robert Southy,P.568.

Drunk as with wine , hed sanctified to them
All bloody , and abominable things [١]

وفي نفس القصيدة يعطي ساوثي صورة جديدة عن مفهوم ضريح النبي محمد ﷺ غير تلك الصورة السائدة في الأدب الإنجليزي كما مر بنا في السابق، وأن ضريحه عليه الصلاة والسلام معلق في السماء على ظهر الكعبة ، فيقول هنا : إن الضريح معلق في الهواء في المدينة المنورة بين أرض المسجد وسقفه، وأن الملائكة تأتي إليه بالأخبار من أطراف الدنيا، فيقول :

They say, quoth one , that though the prophet's soul
Doth , with the black- eyed Houris bathe in bliss
life has not left his body , which bears up
By its miraculous power the holy tomb
And holds it , at Medina , in the air
Buoyant between the temple's floor and roof
And there the angels fly to him with news
From East , West , North and South of what befalls
His faithful people [٢]

الشاعر يظهر في الأبيات الأخيرة الرسول ﷺ وكأنه لا زال حياً، مما يجعل القراء ـ خصوصاً في الغرب من نصارىٰ ويهود ـ يسخرون من مثل هذا الاعتقاد. والمعلوم أن الله سبحانه وتعالىٰ كتب الفناء علىٰ ابن آدم فمصيره الموت، فكل من عليها فانٍ. وكل نفس ذائقة الموت فكيف

(١) انظر المرجع السابق، ص٦٤٩.

(٢) المرجع السابق ، ص٧٠١.

يكون الرسول ﷺ حياً وهو من البشر الذين كتب عليهم الموت، بل إن الله سبحانه وتعالى خاطب الرسول بهذا القول، تأكيداً لهذه الحقيقة، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢). وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(٣). وحياة الرسول ﷺ حياة برزخية، وليست حياة جسدية، كما يزعم هذا الكاتب.

إن اللورد بايرون: جورج بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤م) George Gorden Byron من الشعراء الرومانسيين المشاهير، وهو الأديب الرومانسي الوحيد الذي تمتع بالشهرة في حياته وبعد مماته، لقد عاش حياة النبلاء حياة راغدة سعيدة. اتسم شعره بالقوة والرصانة في معظم قصائده، وقد كان في قصائده يظهر اتجاهه السياسي والفكري المعتمد على التفكير الحر الطليق، والمعروف أن اللورد بايرون كتب عدداً كبيراً من القصائد التي تتحدث عن الإسلام، ضمَّنها بعض خبراته التي حصَّلها من زياراته التي قام بها إلى الشرق الأدنى لمدة عامين منذ عام ١٨٠٩م، وكذلك استفاد من زياراته لأثينا، وألبانيا وإستانبول، ففي النشيدين الأولين من قصيدته The child Harold Pilgrimage كتب عن انطباعاته عن الإسلام، وتحدث عن جمال فتيات إسبانيا وشبَّههنَّ بالحور العين في الجنة، اللائي يذكرهن

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) سورة الزمر، الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

الإسلام وما وعدهم به النبي ﷺ :

Match me , ye climes ! which poets love to laud,
Match me , ye harams of the land ! Where now
I strike my strain for distant , to applaud
Beauties that ev'n cynic must avow
Match me those Houries , whomye scarce allow
To taste the gale lest love should ride the wind
With Spain's dark-glancing daughters- deign to know
There your wise prophet's paradise we find
His black-eyed maids of Heaven angelically kind.(١)

والشاعر في قوله هذا إنما يُعَدُّ من جملة المكذبين بنبوة الرسول عليه السلام، وبما جاء به من عند ربه من حق، ومن ذلك حقيقة الحور العين. والشاعر يقول: إن كان النبي وعد بالحور العين، فإن ما وعد به موجود في الحياة الدنيا، فلا داعي أن يُتْعِبَ الإنسان نفسه بالإيمان بالجنة، وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي النشيد الثاني من القصيدة نفسها يتحدث الشاعر عن رحلته إلى ألبانيا، وقد سمع المؤذن ينادي للصلاة وبكلمة التوحيد.

Here the Albanian proudly treads the ground,
Half whispering these the Greek is heard to prate
Hark! from the mosque the nightly soleman sound
The Muezzin's call doth shake the minaret
There is no god but God ! to prayer- lo! God is great !(٢)

ثم بعد ذلك ينتقل الشاعر ليتحدث عن الصيام وشهر رمضان

---

(١) انظر: Jerome J. McGann (ed.) Lord Byron the Complete Poetical Works, Oxford , 1980 , vol.2 , p.31

(٢) المرجع السابق، ص ٦٢ .

المبارك في البلدان الإسلامية.

Just at this season Ramazan i's fast
Through the Long day its penance did maintain:
But when the lingering twilight hour was past,
Revel and feast asum'd the rule again (١)

ومع ذكر الشاعر لبعض أركان الإسلام ومبادئه، فإنه يصف الرسولﷺ بأنه كذاب مشعوذ، كل دينه رموز وألغاز، وأن عقيدته نمت وطغت بين الناس، ولكن لا بد وأن تنتهي يوماً ما، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام عدو الشعوب، يجب الانتقام منه ومن دينه ومن أتباعه.

وفي قصيدة أخرى لبايرون بعنوان«الغيور» The Giaour صدرت عام ١٨١٣م. ولكن مَنْ هذا الغيور؟ لقد عرَّفه الشاعر في قصيدته السابقة بأنه هو الإنسان النصراني الذي يقاوم المسلمين:

The city won for Allah from the Giaour
The Giaour from Othman's race again my wrest
And Serai's impenetrable tower
Recieve the fierty Frank , her fromer guest (٢)

تلك إشارة إلى عودة النصرانية إلى البلدان التي فتحها المسلمون. ومع أن بايرون في قصيدته «الغيور» يتحدث عن الإسلام وعن مسألة الصدقات والزكاة والاحسان، فيقول: إن كانت تلك ميزة في الإسلام، إلا أن بقية تعاليم الإسلام لا تلائم الجنس البشري والإنسانية كلها؛ لأن

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، ج٢، ص٦٩.

المرأة - على سبيل المثال - محرومة الحقوق في ظل الشريعة الإسلامية :

But soulbean'd footh in every spark
That dasted from beneath the lid
Bright as the Jewel of Giamschid
Yea , soul , and should our prophet say
That form was nought but breathing clay
By Alla, I would answer nay,
Though on Al-Sirat's arch I stood,
Which totters o'er the fiery flood,
With Paradise within my view
And all his Hoursis beckoning through.
Oh! who young Leila's glance could read
And keep that portion of his creed
Which saith , that woman is but dust,
A soulless toy for tyrant's lust ? (١)

واستطرد الشاعر قائلاً: إن النساء لا قيمة لهن في الإسلام ، وإنهن مجرد تراب ولعب للشهوة، وإنهن لايدخلن الجنة، هكذا يدعي أن تعاليم الإسلام تقول بذلك، إلا أننا نجد الشاعر يكثر من التناقض، اذ يقول: إن بعض النساء يمكن لهن دخول الجنة ، ويعزو هذا التناقض إلى القرآن الكريم، وأنه مرجع غير سليم، وأنه مليء بالزيف والتناقض والأفكار السيئة، مثل قصة منكر ونكير، وسؤال الملكين للإنسان عندما يوضع في قبره. وكل ما في الإسلام، كحشر الناس ومسائل الحساب والعقاب، وهوّلَ ذلك بقوله :

A turban carv'd in coarsest stone,
A pillar with rank weeds o'ergrown,
Whereon can now be scarcely read

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

The koran verse that mourns the dead;
Point out the spot where Hassan fell
A victim in that lonely dell .
There sleep as true an Osmanlie
As e'er at Mecca bent the knee;
As ever scorn'd forbidden wine,
Or pray'd with face towards the shrine,
In orisons resumed anew
At solemn sound of "Alla Hu!"
Yet died he by a stranger's hand,
And stranger in his native land
Yet died he as in arms he stood,
And unaveng'd , at least in blood.
But him the maids of Paradise
Impatient to their halls invite
And the dark Heaven of Houri's eyes
On him shall glance for ever bright ;
They come-their kerchiefs green they wave,
And welcome with a kiss the brave!
Who falls in battle' gainst a Giaour
Is worthiest an immortal bower. (١)

وبالجملة، فإن القصيدة كلها مليئة بالسباب والشتائم، والأوصاف السيئة عن المسلمين وعن الإسلام، وعن السلاطين الأتراك، ومَنْ حولَهم من العلماء والمقربين.

وفي قصيدة بايرون بعنوان «عروس أبيودز أو أبيدوس» The Bride of Abydos، والتي نشرت عام ١٨١٣م، يستطرد الشاعر للحديث عن المسلمين، وبالأخص الأتراك والسلاطين العثمانيين، وحول تمسكهم بكلمة التوحيد وكلمة «الله أكبر»، وشدة اعتقاد المسلمين بذلك،

(١) المرجع السابق ج٣، ص٦٣.

واعتزازهم بهما ، حتى إن المسلمين يجعلون هاتين الكلمتين في خواتمهم وبعض حليهم .

وحُقَّ للمسلم أن يعتز بكلمة التوحيد، التي هي شعار المسلمين في الإيمان والأذان والصلاة والذكر ؛ لأنها تمجيد لله وتعظيم، وإفراد له بالعبادة ، وأنه المستحق لها دون سواه ، وأنه المعبود بحق ولا إله غيره . ولكن الشاعر يُلَبِّسُ حقيقة الإسلام بقوله : إن المسلمين تختلط عليهم الأمور، فأحياناً يكتبون على خواتمهم وحليهم بعض الآيات من العهد القديم ولا يشعرون بالحرج، ويقول: إن اليهود مفخرة للمسلمين، لأن القرآن الكريم فيه إشارات كثيرة إلى اليهودية واليهود .

إن اليهود ليسوا مفخرة للمسلمين كما ادعى هذا الكاتب، وإن جاء ذكرهم في القرآن، فإنما جاء بذمهم وتبيان مخازيهم وجرائمهم، مثل قتلهم الأنبياء وتكذيبهم إياهم، وأكل أموال الناس بالباطل، وأخذهم الربا، وعدوانهم في السبت، وفعلهم المنكرات، ولا يتناهون عنها . وما الفصل الأول في هذا الكتاب إلا دليل على حقيقة اليهود وأفعالهم وخلالهم .

كما أننا نجد الشاعر في هذه القصيدة يسخر في حديثه عن النساء والجنة، وأن النساء في الإسلام جعلن في جهل تام عن حقيقتهن في الجنة كما جاء ذلك في القرآن حسب زعمه :

And oft her Koran conn'd apart;
And oft in youthful reverie
She dreamed what Paradise might be :

Where woman's parted soul shall go
Her prophet had disdain'd to show (١)

ومن القصائد التي تناولت الحديث عن الإسلام والمسلمين في شعر اللورد بايرون: قصيدة «القرصان» The Gorsair، وقد ظهرت عام ١٨١٤م وفيها تصوير للمواقف البطولية لبعض الشخصيات الإنجليزية، ثم المقارنة بينها وبين بعض الشخصيات المسلمة. وفيها يتحدث الشاعر عن هجوم شرس من فرسان إنجليز على المسلمين من الأتراك، بقصد الوصول إلى قصر السلطان العثماني؛ لإشعال النار بالقصر، وقتل كل من يمرون به من المسلمين، وأخذ الكثير من الغنائم.

And soon the night-glass through the narrow bay.
Discovers where the Pacha's galleys lay.
Count they each sail- and mark how these supine
The lights in vain o'er heedless Moslem shine.
Secure unnoted Conrad's prow passed by,
And anchored where his ambush meant to lie;
Screened from espial by the jutting cape,
That rears on high its rude fantastic shape. (٢)

وفي ثنايا القصيدة يتحدث الشاعر عن المسلمين، وأنهم فقدوا الأمل في الحياة، لجبنهم وتخاذلهم أمام شجاعة الفرسان النصارى، وبسالتهم:

More glittering eye , and black brow's sabler gloom,

(١) المرجع السابق ج٢، ص١٩١.
(٢) المرجع السابق ج٣، ص ١٧٠.

Glared on the Moslem's eye some Afrit sprite,
Whose demon death-blow left no hope for fight.
The wild confusion , and the swarthy glow
Of flames on high , and torches from below;
The shriek of terror , and the mingling yell
For swords began to clash , and shouts to swell,
Flung o'er that spot of earth the air of hell !
Distracted , to and fro, the flying slaves
Behold but bloody shore and fiery waves;
Nought heeded they the Pacha's angry cry, (١)

ثم يصور الشاعر جبن السلطان العثماني وخوفه من الأسر، حينما هجم النصارىٰ علىٰ قصره، ففر وطلب الأمان بين نسائه، وجلس يفكر فيما سيكون عليه مصيره:

Within the Haram's secret chamber sate
Stern Seyd , still pondering o'er his Captive's fate;
His thoughts on love and hate alternate dwell, (٢)

ومن القصائد التي كتبها بايرون قصيدة «حصار كورنث» The Siege of Cornith، وصدرت عام ١٨١٦م، وفيها حديث عن الإسلام، وكورنث مدينة ساحلية في اليونان. وفي هذه القصيدة يشير الشاعر إلىٰ تعاليم الإسلام، وما أعده الله سبحانه وتعالىٰ للمجاهدين في سبيله من النعيم المقيم في الجنة:

The Thoughts like troubled waters roll
He stood alone among the host
Not his !ovd fanatic boast

(١) المرجع السابق ج ٣، ص ١٧٦.
(٢) المرجع السابق ج ٣، ص ١٩٤.

To plant the Crscent o'er the Cross

Or risk a life with little loss

Secure in paradise to be
By houris loved immorally. (١)

وفي هذه القصيدة يؤكد الشاعر كيف أن اليونان كانت بأيدي المسلمين لمدة طويلة إلى أن جاء النصارى الصليبيون ، وأنقذوها من أيدي المسلمين ، مما جعل السلطان العثماني يفكر طويلاً وبحسرة كيف أفلتت هذه البقعة من تحت سيطرة المسلمين :

Thus at length , outbreathed and worn,
Corinth's sons were downward borne
By the long and oft renewed
Charge of Moslem multitude.
In firmness they stood , and in masses they fell,
Heaped , by the host of the infidel,
Hand to hand , and foot to foot:
Nothing there , save death , was mute;
Stroke, and thrust , and flash , and cry
For quarter , or for victory,
Mingle there with the volleying thunder,
Which makes the distant cities wonder
How the sounding battle goes
If with them , or for their foes;

لقد خرجت اليونان من تحت الحكم العثماني كما يصف الشاعر

(١) المرجع السابق ج٣، ص ١٧٠ .
(٢) المرجع السابق ج٣ . ص١٧٦ .
(٣) الرجع السابق ج٣، ص٣٤٥ .

ذلك، وأنها خلصت من أيدي الأعداء الألداء والمسلمين الأوغاد.

Coumourgi-he whose closing scene
Adorned the triumph of Eugene,
When on Carlowitz' bloody plain
The last and mightiest of the slain
He sank , regretting not to die,
But curst the Christian's victory-
Coumourgi-can his glory cease,
That latest conqueror of Greece,
Till Christian hands to Greece restore
The freedom Venice gave of yore?
A hundred years have rolled a way
Since he refixed the Moslem's sway;
And now he led the Mussulman,
And gave the guidance of the van
To Alp , who well repaid the trust
By cities levelled with the dust;
And proved , by many a deed of death,
How firm his heart in novel faith. (١)

وفي القصيدة ـ أو المنظومة ـ المسرحية التي كتبها اللورد بايرون عام ١٨١٩م بعنوان «دون جون»، والتي تحدث فيها عن مغامرات دون جون ورحلاته في أنحاء العالم، وأنه عرف طباع الشعوب وعاداتها وأديانها، فهو يستطيع أن يدلي بدلوه، ويقول عن شعوب العالم ما مر به من خبرات. ومن هذه الشعوب شعوب الأمة الإسلامية، وعلى الأخص المسلمين الأتراك، وهنا نجد الشاعر يتحدث عن الحور العين وعن تعدد الزوجات. ويصف شخصية من شخصيات القصيدة ــ وهي جوليا ــ

(١) المرجع السابق ج٣، ص٣٢٦.

بجمالها الخلاَّب، وكأنها حورية من الحور العين :

The darkness of her oriental eye
Accorded with her Moorish origin;
(Her blood was not all Spanish , by the by,
In Spain , you know , this is a sort of sin .)
When proud Grenada fell , and , forced to fly,
Boabdil wept , of Donna Julia's kin
Some went to Africa , some staid in Spain
Her great great grandmamma chose to remain . (١)

وعن كثـرة الحـور العين في الجنـة، وما يبدأ الإنسان المسلم به من هذه الكثرة تعدد الزوجات وكثرتهن في الدنيا، يصف الشاعر ذلك بقوله :

'Tis said they use no better than a dog any
Poor woman , whom they purchase like a pad :
They have a number , though they ne'er exhibit' em,
Four wives by law , and concubines "ad libitum.
No chemistry for them unfolds their gases,
No metaphysics are let loose in lectures,
No circulating library amasses
Religious novels , moral tales , and strictures
Upon the living manners , as they pass us;
No exhibition glares with annual pictures ;
They stare not on the stars from out their attics,
Nor deal (thank God of that) in mathematics. (٢)

---

(١) المرجع السابق ج٥، ص٢٦ .
(٢) المرجع السابق ج ٥، ص ١٨٦ .

هكذا يصف الشاعر تعدد الزوجات، ويستمر ليصف هذا التشريع بأنه يقوم على الشهوة، وأنه تشريع متعب مكلف، يسبب كثيراً من المتاعب للإنسان.

Polygamy may well be held in dread,
Not only as a sin , but as a bore :
Most wise men with one moderate woman wed,
Will scarcely find philosophy for more;
And all (except Mahometans) forbear
To make the nuptial couch a "Bed of Ware" . (١)

وفي القصيدة نفسها يظهر الشاعر بطولة دون جون وهو يقاتل المسلمين، ويظهر مدى شجاعته وبسالته في محاربة الأتراك والتتار، وهو يقف إلى جانب الروس في حربهم ضد المسلمين.

The eldest was a true an tameless Tartar,
As great a scorner of the Nazarene
As ever Mahomet pick'd out for a martyr,
Who only saw the black-eyed girls in green,
Who make the beds of those who won't take quarter
On earth , in Paradise ; and when once seen,
Those houris , like all other pretty creatures,
Do just whate'er they please by dint of features.

* * * * *

And what they pleased to do with the young khan
In heaven I know not , nor pretend to guess;
But doubtless they prefer a fine young man
To tough old heroes , and can do no less;
And that's the cause no doubt why , if we scan
A field of battle's ghastly wilderness,
For one rough , weater-beaten veteran body,

(٢) المرجع السابق ج ٥ ، ص ١٨٦ .

You'll find ten thousand handsome coxcombs bloody. (١)

ويتمكن دون جون في أَثناء حربه مع المسلمين أن يأسر فتاة مسلمة كما يقول ؛ لينقذها من أضاليل الشريعة الإسلامية ، وسوء عادات وتعاليم الإسلام والمسلمين . وأخذ تلك الفتاة المسلمة إلى إنجلترا لكي يجعلها تتنصر بعد أن دعاها إلى النصرانية ، ولكنها رفضت ذلك ، وهذا إشارة إلى حركة التنصير المسيحي بين المسلمين .

But one thing's odd , which here must be inserted,
The little Turk refused to be converted.
T was strange enough she should retain the impression
Through such a scene of change , and dread and slaughter;
But though three bishops told her the transgression,
She show'd a great dislike to holy water. (٢)

وبالرغم من أن هذه الفتاة لم تعتنق النصرانية ، فقد أخذت إلى كنيسة كانتربري ، وهناك يقول الشاعر : إن الفتاة ظنت أن تلك الكنيسة مسجدٌ من مساجد المسلمين ، فتقول الفتاة في هذا الأمر :

... and her infant brow
Was bent with grief that Mahomet should resign
A mosque so noble , flung like pearls to swine. (٣)

ومن شعراء الرومانسية المشهورين الذين كتبوا عن الإسلام والمسلمين الشاعر شيللي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) P.B. Shelley. ولد هذا الشاعر لأسرة ثرية ، ولكنه ضحى بثراء والديه وأسرته للعمل على معالجة

(١) المرجع السابق ج ٥ ، ص ١٩٣ .
(٢) المرجع السابق ج ٥ ، ص ١٩٣ .
(٣) المرجع السابق .

قضايا الإنسانية ومآسيها من خلال الأدب. ولقد كان شيللي يرىٰ أن حياة الأمراء والملوك والأثرياء وحياة القساوسة والرهبان وما وضعوه من تعاليم وقوانين، كل ذلك إنما هو من عمل الشيطان وعَقَبة في سبيل حرية الإنسان وسعادته، فأوضح في بعض قصائده وأعماله الأدبية والفكرية روح التحدي والمروق بما تبديه حياة الشباب وطيشه[١].

لقد كتب شيللي قصائد كثيرة بالرغم من أنه توفي وهو في مقتبل العمر؛ إذ إنه مات ولم يتجاوز الثلاثين من عمره. ومن قصائده التي كتبها عن الإسلام قصيدتان، الأولىٰ بعنوان «ثورة الإسلام» The Revolt of Islam، والثانية بعنوان «هيلاس» Hellas، ونحاول أولاً أن نتحدث عن القصيدة الأولىٰ.

لقد كتب شيللي في عام ١٨١٧م قصيدة أو ملحمة شعرية باسم «ثورة الإسلام»، ولم تطبع هذه القصيدة إلا في عام ١٨١٨م. والقصيدة ـ كما أشرنا ـ عبارة عن ملحمة شعرية تتألف من اثني عشر نشيداً، فيما يزيد علىٰ أربعة آلاف سطر[٢].

والقصيدة في محتواها العام تتحدث عن الثورة الفرنسية، والمناداة بالحكم المطلق الذي لا يخضع إلىٰ أي قانون أو شريعة، وهذا ما لا يرضاه عاقل.

(١) انظر: Emile Legouis, A Short History of English Literature, p.p.288-289.

(٢) انظر: P.B. Shelley , Long Poems , Plays and Translations , London : n.d vol.2 , p.p. 1-143

والقصيدة بهذا الاتجاه تُمَجِّدُ الثورة الفرنسية، وكل من يساند هذه الثورة ويدعو إلىٰ الحرية ، وخصوصاً حرية الإنسان، وإطلاق ذاتية الفرد وفكره وعقله إلىٰ حدود تنفيذ رغباته وشهواته . والهدف من ذلك هو الشعور بالأمل في النصر الذي سيبعث في نفوس الشعوب الروح الطيبة، والأمل في حياة سعيدة متحررة من استعباد الحكام الطغاة، وسيطرة الكنيسة، ورجال الإقطاع، الذين كانوا يقهرون الناس.

والقصيدة أعطت صورة مقارنة بين حياة الناس في ظل الاستعباد والقهر وجبروت الطغاة، وماسيكون عليه مستقبلهم في ظل الثورة إذا ما أطلقت للإنسان حريته، وأعطيت المرأة حريتها . ويبدو أن الشاعر لايقصد الحرية بمفهومها المحدد في إطار القوانين، والتشريعات الأخلاقية، والأعراف والعادات والتقاليد، بل يقصد الإباحية، وهذا مايعيشه الغرب في حاضره اليوم، ولقد قصد الشاعر الحرية، ونادىٰ بها باعتماده علىٰ التعمية اللفظية والرمزية المليئة بالثورة، فنادىٰ بحرية الفكر عند العلماء والمفكرين دون وجود للإرهاب والتعسف والقمع، حيث إن الوجود كله للحرية والعدالة.

وتمثلت الصورة المقارنة للخير والشر في هذه الملحمة الشعرية في النشيد السادس، الذي يصور فظائع الحرب، وماتتركه علىٰ الإنسانية من دمار ووبال وهدم وخراب. ولقد صور الشاعر هذا الخراب في النشيد العاشر وقد رمز له بالطاعون ، هذا المرض الذي يفتك بالبشرية ويقضي عليها . أما النشيدان الحادي عشر والثاني عشر، ففيهما الإشادة بوفاء بطلَي الملحمة وهما لاون وسيثنا، Laon and Cythna ، إذ إنهما يَنْشُدان

المحبة والحرية للإنسان، فالبطلة سيثنا تطالب بحرية المرأة، وتجد التأييد من لاون، ففي هذا الوفاء كل الوفاء لمساندة مطلب الحرية.

من هذا نرىٰ أن الشاعر من تصويره للحرب ومرض الطاعون يصور بطريقة رمزية مدىٰ ما يلحق الإنسان من ظلم وقمع وجبروت في ظل الجور وحكم الطغاة، وفي تصويره لوفاء البطلين يرمز الشاعر إلىٰ أهمية الحرية التي تجلب السعادة للإنسانية جمعاء، وهي نتاج الحب والإخلاص والوفاء.

ما تقدم هو الملخص العام للقصيدة المسماة «ثورة الإسلام» والواضح من الملخص أنها لا تتصل بالإسلام ولا بالمسلمين، لا من قريب ولا من بعيد بحال من الأحوال. وكل محتوىٰ القصيدة فيه دلالة علىٰ مدىٰ إطلاق زمام الحرية والهوىٰ والنزعات، والمطالبة بحرية غير مقيدة، حرية غير معتمدة علىٰ خلفية أو أَساس أخلاقي أو عقائدي، وصدق الله العظيم الذي أحسن وصف أمثال هؤلاء الشعراء في قوله عز وعلا: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(١)].

فدعوىٰ الشاعر كأي دعوة علمانية متحررة من شريعة السماء، يطالب بحرية مطلقة وبترك الأديان السماوية، وغيرها من النظم الاجتماعية والقوانين الأخلاقية، وكأنه بهذا يعزو أسباب تعاسة الشعوب

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

وبؤسها إلى الأديان والقوانين التشريعية، والتي جعلت الناس طغاة متجبرين [1].

لكن الحقيقة أن في الإنسان فطرة سوية تميل إلى الخير، فإن عمل هذا الإنسان على صيانتها، وحمايتها من التشويه والإفساد، وعمل على تربية النفس على الخير، فهو بذلك مصدر خير وسعادة، وطريق إصلاح، لا طريق قهر وجبروت، وإن كان الأمر خلاف ذلك، فهو مصدر شر وتعاسة، كما هو الحال الذي كان يسود أوربا من حالة القهر والقمع والجبروت، والتي هي مصدر الشر والتعاسة التي لا زالت تسود في الغرب في الوقت الحاضر، ويتمثل ذلك في الفساد الأخلاقي والاجتماعي في البلدان الغربية.

كل هذه الأمور الشريرة من فساد وجبروت ليست من الإسلام في شيء، وهي ليست من خصائص الإسلام، أو الدعوة الإسلامية، كما ظن الشاعر شيللي عندما اختار عنوان قصيدته «ثورة الإسلام»، كما سنوضح ذلك فيما يأتي. فمن المعروف بين النقاد ومؤرخي الأدب الإنجليزي أن الشاعر شيللي عندما كتب هذه القصيدة في عام ١٨١٧م جعل لها عنوان «ثورة المدينة الذهبية: رؤية القرن التاسع عشر». The Revolution of the Golden City : Avision of the Nineteenth Cenetury.

ولقد سبق أن كان اسم القصيدة باسم بطليها "Loan and Cythna"

(١) انظر: John Burgees Wilson , English Literature, p.222

ولكن الدوافع التي دعت الشاعر إلىٰ تغيير عنوان القصيدة إلىٰ «ثورة الإسلام» إنما هي مبنية علىٰ دعوىٰ عدائية للإسلام والمسلمين، ففي ذلك العصر ـ وكغيره من العصور التي تلت الحروب ـ كانت أفكار الغرب مشحونة بتيارات فكرية قوية معادية للإسلام والمسلمين، بسبب ما كانت تمثله الدولة العثمانية من قوة، فيها الكثير من التهديد لسلطان الغرب وهيمنة الكنيسة. فلقد اتفق الشاعر مع ناشر القصيدة علىٰ تسمية القصيدة باسم « ثورة الإسلام » (١)، لأن القصيدة عمدت إلىٰ وصف أحوال ومناظر كثيرة فيها إراقة للدماء وقسوة وإرهاب الحكام وجبروتهم. فلقد رأىٰ الشاعر والناشر أن هذه الصفات المليئة بالقمع والاضطهاد، والصور الوحشية ألصق ما تكون بخصائص الإسلام وحقيقة الدولة العثمانية المسلمة، إذ إن الحال التي كانت تعيشه فرنسا قبل الثورة لا يختلف كثيراً ـ حسبما تصور الشاعر والناشر ـ عما هو عليه الحال بالنسبة للشعوب التي تعيش تحت ظل الحكم العثماني. والشاعر قد وضع هذا العنوان وهو يمجد الثورة الفرنسية، ليحرض شعوب الأمة الإسلامية علىٰ القيام بثورات مماثلة لإسقاط سلطان الدولة العثمانية. ولكن في الحقيقة، فإن الدين الإسلامي والحكم الإسلامي والتشريع الإسلامي ماجاء إلا لهداية البشر.

و يؤكد هذا القول عن سبب اختيار شيللي عنوان «ثورة الإسلام» لقصيدته ما ذهب إليه سمث في قوله: إن الشاعر كان يرىٰ أن الجبروت والقهر هما ألصق مايكون بالسلطان المسلم، وبالدين الذي يدين به.

(١) انظر: G.M. Matthews, Shelley, London, 1970, p.13.

وقد وصف الشاعر المسلمين بأنهم أعداء النصرانية والنصارى، وأنهم كفار ملحدون، وأن الحاكم المسلم جبان، لا يستطيع أن يقاتل الملحدين الكفار، حيث قال :

He dared not kill the infidels with fire
Or steel , in Europe ; the slow agonies
Of legal torture mocked his keen desire :
So he made truce with those who did despise
The expiation and the sacrifice,
That , though detested , Islam's kindred creed
Might crush for him those deadlier enemies,
For fear of God did in his bosom breed
A jealous hate of man , an unreposing need (١)

وإذا ما أمعنا النظر في قصيدة شيللي بعنوان «هيلاس» نجد الشاعر يتحدث فيها عن الإسلام بشدة وكراهية، أوضح مما قال وأفصح عنه في قصيدته بعنوان «ثورة الإسلام».

والقصيدة عبارة عن مسرحية غنائية منظومة، كتبها عام ١٨٢١م، وطبعت قبل أشهر قلائل من وفاته، وموضوعها يتحدث عن تحرير اليونان من المسلمين ونفوذهم، والدعوة إلى تحرير القسطنطينية أيضاً، والعمل على إسقاط الخلافة العثمانية. وأبرز الشخصيات في هذه القصيدة: السلطان العثماني محمود، واليهودي آشورس، وبعض النساء والأسرى اليونانيات، وبعض المسلمين، ومنهم: داود وحسن،

(١) انظر : C.D. Locock (ed.), The Poems of Percy Bysshe Shelley, Methuen&Co. Ltd., London,1911, Vol.II., p.p.384-385.

وفي ثنايا القصيدة نجد الشاعر يعبر عن اعتقاده بأن هزيمة تركيا والمسلمين تعني سقوط الإسلام ونهايته .

A power from the unknown God
A Promethean conqueror came;
Like a triumphal path he trod
The thorns of death and shame.
A mortal shape to him
Was like the vapour dim
Which the orient planet animates with light;
Hell, Sin, and Slavery came,
Like bloodhounds mild and tame,
Nor preyed , until their Lord had taken flight;
The moon of Mohamet
Arose and it shallset :
While blazoned as on Heaven's immortal noon
The cross leads generations on . (١)

وفي مقدمة القصيدة نجد الشاعر خصص حواراً بين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وبين الرسول محمدﷺ وبين الشيطان ، وفيها يظهر أن محمداً عليه السلام في موقف الضعف وهو يدعو ربه أن يظهر الدين الإسلامي ويظهر نور الإسلام .

CHRIST

Obdurate spirit !
Thou seest but the Past in the To-come.
Pride is thy error and thy punishment.
Boast not thine empire , dream not that thy worlds
Are more than furnace-sparks or rainbow-drops
Before the Power that wields and kindles them.

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

True greatness ask not space , true excellence
Lives in the Spirit of all things that live,
Which lends it to the worlds thou callest thine.

MAHOMAT

Haste thou and fill the waning crescent
With beems as keen as those which pierced the shadow
Of Christian night , rolled back upon the West,
When the orient moon of Islam rode in triumph
From Tmolus to the Acroceraunian snow.
Wake , thou Word
Of God , and from the throne of Destiny
Even to the utmost limit of thy way
May Triumph
Be thou a curse on them whose creed
Divides and multiplies the most high God. (١)

بعد ذلك يصور الشاعر السلطان محمود وهو في حالة من الذعر والاضطراب لزوال الإسلام وأُفول نجمه، والألم الذي يلحق المسلم، وقد رمز الشاعر في القصيدة إلى أن النصرانية هي النور، وأَنَّ الإسلام هو الظلام.

MAHMUD

Then , take this signet ;
Unlock the seventh chamber , in which lie.
The treasure of victorious Solyman.....
An empire's spoils stored for a day of ruin.
O spirit of my sires ! is it not come ?
The prey-birds and the wolves are groged and sleep;
But these , who spread their feast on the red earth,
Hunger for gold , which fills not . -See them fed;
Then , lead them to the rivers of fresh death . [Exit Daood.]

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥ .

Oh , miserable dawn , after a night
More glorious than the day which it usurped !
O faith in God ! O power on earth ! O word
Of the great Prophet , whose o'ershadowing wings
Darkened the thrones and idols of the West,
Now bright !-for thy sake curse'd be hour,
Even as a father by an evil child,
When the orient moon of Islam rolled in triumph
From Caucasus to white Ceraunia !
Ruin above , and anarchy below ;
Terror without , and treachery within ;
The Chalice of Destruction full , and all
Thirsting to drink ; and who among us dares
To dash it from his lips ? and where is Hope ? (١)

وبما أَنَّ الشاعر ينظر إلى المسلمين على أنهم أعداء البشرية ، فقد تحدث عن ضرورة إجهاض الخلافة الإسلامية ، وزعزعة أركانها عن طريق إثارة القلاقل والثورات للقضاء على الإسلام .

The Christian tribes

Of Lebanon and the Syrian wilderness
Are in revolt ;-Damascus , Hems , Aleppo,
Tremble ;-the Arab menaces Medina;
The A Ethiop has intrenched himself in Sennaar,
And keeps the Egyptian rebel well employed,
Who denies homage , claims investiture
As price of tardy aid . Persia demands
The cities on the Tigris , and the Georgians
Refuse their living tribute . Crete and Cyprus,
Like mountain-twins that from each other's veins
Catch the volcano-fire and earthquake-spasm,
Shake in the general fever . Trough the city,

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

Like birds before a storm , the Santons shriek,
And prophesyings horrible and new
Are heard among the crowd : that sea of men
Sleeps on the wrecks it made , breathless and still.
A Dervise , learned in the Koran , preaches
That it is, written how the sins of Islam
Must raise up a destroyer even now.
The Greeks expect a Saviour from the West,
Who shall not come , men say , in clouds and glory,
But in the omnipresence of that Spirit
In which all live and are . Ominous signs
Are blazoned broadly on the noonday sky :
One saw a red cross stamped upon the sun;
It has rained blood ; and monstrous births declare
The secret wrath of Nature and her Lord. (١)

ومن أدباء العصر الرومانسي المتأخرين، الذين ظهروا في أوائل القرن التاسع عشر، وفاقت شهرتهم شهرة بعض من سبقوه من الأدباء، يطالعنا اسم توماس مور (١٧٧٩ ـ ١٨٥٢م) Thomas Moore الذي كان مشهوراً في بريطانيا وأوربا، وقد تميز بمقدرته الأدبية، خصوصاً في نظم الشعر القصصي، كما يتضح في بعض قصائده، ومنها : قصيدة Lalla Rookh التي كتبها عام ١٨١٧م، كما أنه كتب عدداً من القصائد التي يتصل موضوعها بالشرق الإسلامي والإسلام، والتي سنتحدث عن بعضها، ونعطي منها نماذج للإشارات التي ألمح فيها إلى الإسلام في شعره، وعلى الأخص في قصيدة بعنوان Two Penny Post Boy ، والتي نشرت عام ١٨١٣م، وهي قصيدة طويلة تشتمل على ثماني

(١) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

رسائل، وفي الرسالة السادسة منها بعنوان «من عبد الله في لندن إلى محسن في أصفهان» From Abdallah in London to Mohsan in Asfahan.

وتقول بعض كتب الأدب: إن مناسبة القصيدة ترجع إلى زيارة المبعوث الإيراني المرزا عبد الخلاس إلى لندن خلال رحلته مع الرحالة الإنجليزي موير. والجو العام للقصيدة يعبر عن الروح الفكاهية للشخصية الأسطورية حاجي بابا، وفيها يتحدث الشاعر بقوله:

WHILST thou , Mohassan , (happy thou !)
Dost daily bend thy loyal brow
Before our King_our Asia's treasure !
Nutmeg of Comfort ! Rose of Pleasure !--
And bear'st as many kicks and bruises
As the said Rose and Nutmeg chooses ;--
Thy head still near the bowstring's borders,
And but left on till further orders !--
Through London streets , with turban fair,
And caftan floating to the air,
I saunter on-the admiration
Of this short-coated population
This sewed-up race -this buttoned nation -
Who , while they boast their lows so free,
Leave not one limb at liberty,
But live , with all their lordly speeches,
The slaves of buttons and tight breeches ! (١)

وهنا يصور الشاعر شخصية عبد الله بفكره الديني المتحرر،

(١) انظر: Thomas Moore , The Poetical works of Thomas Moore, Glasgow , n.d. , p.156

وتصويره لحياة الإنجليز على أنها مثال يجب أن يُحتذىٰ للإصلاح الذي يجب أن يكون في إيران، وخصوصاً إصلاح الوضع الديني بما يعتقده عبد الله عن الإسلام، وأنه مظهر للجمود وعدم الحرية . كما نجد الشاعر يتحدث بلسان عبد الله في رسالته إلى صديقه محسن عن سماحة النصارىٰ البروتستنانت مع النصارىٰ الكاثوليك، وهم في ذلك شأنهم شأن الشيعة في تسامحهم مع السنة . ولكن ما نلبث أن نجد الشاعر يناقض نفسه في القصيدة، عندما يجعل الشيعي يتحدث بألفاظ الشتم والسوء على أهل السنة بما تعتمل به نفس الشاعر وصاحبه الشيعي من ذم الإسلام ، وذم المتمسكين بسنة نبي الأنام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام :

And on Religious Toleration,
I own I like their notions quite,
They are so Persian and so right !
You know our Sunnites , Hateful dogs !
Whom every pious Shiite flogs
Or longs to flog _'tis true , they pray
To God , but in an ill-bred way ;
With neither arms , nor legs , nor faces
Stuck in their right , canonic places !
'Tis true they worship Ali's name
Their heaven and ours are just the same
(A Persian's heaven is easily made,
'Tis but _black eyes and lemonade).
Yet _through we've tried for centuries back_
We can't persuade the stubborn pack,
By bastinadoes , screws , or nippers,
To wear the established pea-green slippers !

Then _only think_ the libertines !
They wash their toes _they comb their chins_
With many more such deadly sins!
And (what's the worst , though last I rank it)
Believe the Chapter of the Blanket !
....
The same mild views of Toleration
Inspire , I find , this buttoned nation,
Whose Papits (full as given to rogue,
And only Sunnites with a brogue)
Fare just as well , with all their fuss,
As rascal Sunnites do with us . (١)

والمعروف أن الشيعة أعداء للسنة من قديم الزمان ، ويحمل الشيعة في قلوبهم حقداً دفيناً علىٰ أهل السنة والجماعة ، وهم فرقة من الفرق الضالة التي تكفر جُلّ اصحاب النبي ﷺ الذين مدحهم الله سبحانه وتعالىٰ بقوله : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢) .

وقال تعالىٰ : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾(٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ـ ١٥٨ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ١٠٠ .
(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

فهؤلاء الأصحاب رضوان الله عليهم، الموصوفون في التوراة والإنجيل، هم محل سخط هؤلاء الشيعة الذين يُسقِطُون كثيراً من أحاديث الرسول ﷺ، ويأتون كثيراً من المخالفات في أحكام الدين وشرائعه . بل أكثر من هذا كله، فهم منحرفون عن العقيدة الصحيحة، وفي اعتقادهم عصمة أشخاص من أئمتهم، والعصمة لا تكون إلا لنبي. والكاتب أورد مسألة الشيعة والسنة لإثارة الفتنة بين المسلمين.

ومن المعلوم أن قصيدة «لالا روخ » Lalla Rookh هي القصيدة التي أذاعت صيت توماس مور في الآفاق، خصوصاً في الأوساط الأدبية في أوربا؛ في فرنسا، وألمانيا، وأسبانيا، وإيطاليا، حتىٰ أصبحت تسمىٰ القصيدة بألف ليلة وليلة الحديثة.

وهي مجموعة قصص شعرية تحكي كيف أن الإمبراطور الهندي أوارنج زيب أرسل ابنته من مدينة دلهي، إلىٰ مقاطعة كشمير لتزف إلىٰ زوجها هناك ، وهو أمير من أمراء بخارىٰ، الذي تخفَّىٰ في ملابس أحد الشعراء، وكان يزجي وقت الأميرة في أثناء الرحلة ببعض القصائد، ويحدو لها بعض الأناشيد، ويروي لها بعض القصص ، ولم تكتشف الأميرة حقيقة الشاعر الشاب، وأنه هو محبوبها وخطيبها إلا بعد وصولها إلىٰ كشمير. وكانت الأميرة قد وقعت في حب هذا الشاعر وتعلق قلبها به، ويظهر عنصر الطرافة في القصة عندما أفصحت الأميرة عن حبها للشاعر، ورفضها الزواج من الأمير خطيبها فيكشف العَالِم فضل الدين حقيقة حاجب الأميرة وحارسها «لالاروخ».

ومجموعة القصص التي تتألف منها هذه القصيدة هي أربع قصص، منها قصة «النبي الخراساني المقنع» The Veiled Prophet of Khorasan، والتي فيها نجد مور لا يفرق بين التاريخ وواقعه، وبين الأساطير وخيالها، ففي ذلك نجد الشاعر يقارن بين زليخة وحالها في القصيدة بين النساء، وضريح النبي محمد ﷺ، الذي يقول عنه إنه معلق في أجواء المدينة المنورة . فالشاعر يرىٰ أن زليخة حالها ليس واضحاً بين النساء، فهي ليست بالوصيفة المحبوبة، كما أنها ليست بالمقدسة المحترمة، مثلها في ذلك مثل ضريح الرسول المعلق بين الجنة والنار، أو بين السماء والأرض.

وفي نفس قصة «النبي الخراساني»، نجد الشاعر يسخر من النبي محمد ﷺ ، ويقول عنه : إنه نبي الرمال، إشارة الىٰ الصحراء ، وإنه جاء في أقواله بأن المسلم سيجد جنة ليست كالجنة التي يعلمها النصارىٰ وأصحاب الأديان الأخرىٰ، ودلَّل علىٰ ذلك بما جاء به من المعجزات والآيات الدالة علىٰ نبوته، ولكن كل ذلك كان محل سخرية الشاعر:

Ye shall have miracles , ay , sound ones too,
Seen , heard , attested , ev'ry thing_but true.
A heav'n too ye must have , ye lords of dust ,
A splinded Paradise , _pure souls ye must :
That Prophet ill sustains his holy call,
Who finds not heav'ns to suit the tastes of all;
Houris for boys , omniscience for sages,
And wings and glories for all ranks and ages. (١)

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

وعن الجنة التي وعد الله بها رسوله وعباده المؤمنين، نجد الشاعر مرة أخرىٰ في القصة الثانية من القصيدة بعنوان Paradise Peri يتحدث بأوصاف غريبة عجيبة، قصد بها تشويه صورة الإسلام وحقيقه الجنة:

And she already hears the trees
Of Eden , with their crystal bells
Ringing in that ambrosial breeze
That from the throne of Allah swells;
And she can see the starry bowls
That lie around that lucid lake,
Upon whose banks admitted Souls
Their first sweet draught of glory take !(١)

وفي قصة «عباد النار» The Fire Worshipper القصة الثالثة من القصيدة، فإن الشاعر يصف المسلمين بأنهم سفاحون ومصاصون للدماء، محِبُّون للحرب حملة للسيف، وأن القرآن يحث علىٰ قتال الكفار والمشركين، وأنَّ الحرب - أي الجهاد - هو السبيل إلىٰ الجنة (٢).

One of that saintly , murd'rous brood,
To carnage and the Koran given,
Who think through unbelievers' blood
Lies their directest path to heav'n; __
One , who will pause and kneel unshod,
In the warm blood his hand hath pour'd,
To mutter o'er some text of God
Engraven on his reeking sword.(٣)

(١) المرجع السابق.

(٢) أما أن القرآن يحثّ علىٰ قتال الكفار والمشركين، فهذا صحيح، ولكن بعد أن يدعوهم إلىٰ الإسلام، فإن أبوا وأرادوا القتال قاتلهم وحث علىٰ ذلك، وأما أن الجهاد وهو السبيل إلىٰ الجنة، فهذا صحيح، ولكن ينبغي أن يعترف بأن التاريخ ما عرف فاتحين أرحم من المسلمين، فالجهاد في سبيل الله ليحرر المظلومين من الظلم وليضع عنهم الآصار التي كانت عليهم.

(٣) المرجع السابق.

وبمثل هذه الادعاءات والأقوال المخلوطة، نجد أنَّ الشاعر قد شحن قصيدته الطويلة بكثير من الشتائم للقرآن الكريم، وللرسول العظيم عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم، وكذلك شَتَم المسلمين، وشَوَّه صورة الإسلام بقصد صد الناس عن دين الله، وعن الحق، وهو الإسلام.

ومن شعراء الرومانسية غير المشهورين في الأدب الإنجليزي، والذين تناولوا الإسلام في كتاباتهم: القديس الراهب جورج كراب George Crab (١٧٥٤ ـ ١٨٣٢م). ولد لأسرة فقيرة الحال تسكن الساحل الشرقي لإنجلترا، وبعد أن أكمل تعليمه العام، التحق لدراسة الطب، ولكنه لم يتمكن من مواصلة ذلك، ثم تحول إلىٰ دراسة الأديان، فعمل علىٰ مخالطة الناس، والتعرف علىٰ أحوالهم، ومعرفة أسباب السعادة والبؤس في حياة الناس، وتوصل إلىٰ أن الأدب هو السبيل إلىٰ الإصلاح، ونادىٰ بضرورة الواقعية وعرض الحقيقة في الأدب.

ولقد كتب هذا الشاعر عدداً من القصائد، وقد جمع في شعره خصائص الكلاسيكية شكلاً والرومانسية موضوعاً في بداية إنتاجه، ولكنه تحول عن ذلك فيما بعد.

من قصائده التي تحدثت عن الإسلام: قصيدة بعنوان«الواثقة» The Confidant، ظهرت عام ١٨١٨م، وموضوع هذه القصيدة قصة زوجة غَوَتْ واقترفت معصية في شبابها، وتابت من ذلك، ولكن في آخر عمرها حاولت صديقة الواثقة، والتي كانت تعلم عن فِعْلَةِ صديقتها، وقد حاولت أن تبتزها، فكانت تحدثها عن شبابها، وكان الزوج يسترق

السمع، وحينها علم الزوج بذلك، فقرر الصفح عن زوجته، ويقول الشاعر: إن الزوج تمثَّلَ في ذلك سلوك هارون الرشيد الخليفة المسلم، الذي كان يغفر الذنوب، ويعفو عن خطأ المذنب:

The Caliph Harun , as historian tell
Ruled , for a Tyrant , admirably well;
Where his own pleasures were not touch'd to men
He was humane . and sometimes even then.(١)

وهنا الشاعر لم يكتف بالإساءة إلىٰ هارون الرشيد بأنه محب للشهوات والملذات، بل إنه شاعر متكبر حكم بالجبروت والطغيان.

ومن شعراء الرومانسية الذين اهتموا بالشرق والإسلام: الشاعر لي هنت (١٧٨٤ ـ ١٨٥٩م) Leigh Hunt، حاول دراسة الطب بعد أن أكمل تعليمه العام، ولكنه ما لبث أن تحول إلىٰ الأدب والكتابة، فقد كان شاعراً وقصصياً وكاتباً مسرحياً، إلا أنه اشتهر بالصحافة، حيث بدأ حياته العملية بالعمل محرراً لإحدىٰ الصحف، وهو من مشاهير كتاب المقال في العصر الرومانسي.

من أهم قصائده عن الشرق والإسلام قصيدة عنوانها «النيل» The Nile، وأخرىٰ عنوانها «أبو بن أدهم» Abou Bin Adhem، وقصيدة ثالثة بعنوان «محمود» Mahmoud. والقصيدة الأولىٰ ليس فيها شيء يتصل بالإسلام سوىٰ وصف نهر النيل، ووصف لحضارة المصريين التي قامت علىٰ ضفاف هذا النَّهر.

(١) انظر: George Crabbe , Life and Poetical Works edited by his son, London , 1847 , p.346

وأما قصيدة أبو بن أدهم، فموضوعها يتصل بناسك مسلم عُرِفَ بحبه للخير، وحبه للناس، مع صدق نيته وتوجهه للصلاح والمعروف.

لكن قصيدة «هنت» التي ظهرت عام ١٨٢٣م بعنوان«محمود» تحكي حياة السلطان القازاني محمود، وشهرته بالحزم والعدل، حتىٰ إنه أمر بتنفيذ حكم الإعدام بابنه الذي تألم لمقتله كثيراً، وأنكر قسوة الإسلام :

Who'er was , I knew my task , but feared
A father's heart , in case the worst appeared.
For this I had the light put out , But when
I saw the face , and found a strange slain
I knelt and thanked the soverign arbiter,
Whose work I had performed through pain and fear.(١)

يعد ريتشارد بارهام (١٧٨٨ــ ١٨٤٥م) Richard Barham ، وهو معروف أيضا باسم Thomas Ingoldsby وهو قسيس لأحد الأديرة الملحقة بإحدىٰ الكنائس القريبة من أحد القصور الملكية. كتب مجموعة من القصص الخرافية بعنوان Ingoldsby Legends عام ١٨٤٠م، وقد تضمنت بعض القصائد التي يتصل موضوعها بالحروب الصليبية مثل ماهو موجود في«أسطورة فلسطين» A legend Of Palestine . وفي القصيدة يتحدث المؤلف عن المسلمين، وخصوصاً عن الأمراء، والشيوخ، وبعض الفرسان الذين حاولوا منازلة أحد الفرسان النصارىٰ، وهو إنجولدزبي Ingoldsby ، الذي مزقهم كل ممزق ما عدا فارساً واحداً، الذي ولىٰ هارباً. والشاعر بهذا يصف شجاعة النصارىٰ،

(١) انظر : H.S. Milford (ed.), The Poetical Works of Leigh Hunt, Oxford,1923,p.55.

وتخاذل المسلمين وضعفهم، وهنا يقول الشاعر :

Oh , they came West , and they came east,
Twenty-four Emirs and sheik's at least,
And they hammer'd away At Sir Ingoldsby Bray
Fall back , fall edge , cut , thrust , and points,-
But the topp'd off head , and he lopp'd off joint.
Twenty and three , of high degree
Lay stark and stiff on the crimson'd lea
All - all save one - and he ran up a tree.(١)

وفي نهاية القصيدة يظهر الكاتب بطولة الملك ريتشارد قلب الأسد، وأنه هو الذي أنقذ النصارىٰ في بيت المقدس، وأنه هو الذي ألهب الحس المسيحي نحو الشجاعة والفروسية التي ظلت متأججة في نفس كل صليبي(٢).

وأخيراً نتحدث عن الأديبة الرومانسية إماروبرتس Emma Roberts التي قامت برحلات متعددة إلىٰ الشرق، وبالأخص إلىٰ شبه القارة الهندية، ثم ألفت كتابها المشهور بعنوان «مناظر شرقية : صور وحكايات» Oriental Scenes : Sketches and Tales. وقد طبع هذا الكتاب عام ١٨٣٢م، وهو ـ كما أشارت المؤلفة ـ ومقدمته عبارة عن مجموعة خواطر لرحلاتها في الشرق، دوَّنتها في صورة قصائد شعرية قصصية، منها قصيدة «تاج محل»، و«ليلة علىٰ نهر الغانج»، و«منظر

(١) انظر : Richard Barham , The Ingoldsby Legends , J.M Dent co, London, 1898 , p.p.342-343

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

أمسية في هندستان»، ومجموعة قصائد عن الأديان الموجودة في الهند: البراهمية الهندوكية، الإسلام .... إلخ.

ومن القصائد التي تناولت فيها الكاتبة الإسلام: قصيدتان؛ الأولى بعنوان «قبر المسلم»، والثانية «قبر المؤمن».

ففي القصيدة الأولى بعنوان «قبر المسلم» The Moosulmaun's Grave تصف الشاعرة مكان القبر، وأنه في دوحة خضراء، تحيط بها أشجار النخيل:

Sweet is the shelter of yon verdant glade,
Where lofty palms and waving mangos bloom,
Where the tall peepul spreads its greatful shade
Above the pious Moslim's lowly tomb.
Severe in chaste simplicity it stands
Bearing no records of the donor's name,
To tell the world from whose all-bounteous hands
The smiling gifts of that fair valley came.
'Twas he who planted all those clustering topes,
And scooped the basin of the well-filled tank,
The pleasant haunt of playful antelopes,
Who leap rejoicing o'er the flowery bank; (١)

وتستمر الشاعرة في وصف بعض الطقوس الدينية في تلك الدوحة، ومنها: طلب الفقير الزّكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وكذلك وجود المؤذن الذي ينادي بالصلاة، ويدعو المسلمين إلى أداء تلك الفريضة، التي هي ركن من أركان الإسلام أيضاً، وهنا تظهر المؤلفة

---

(١) انظر: Emma Roberts , Oriental Scenes : Sketches and Tales , London, 1832 , p.69.

وهي تشوه صورة الدين الإسلامي ابتداءً من أركان الإسلام :

Beside the crystal tank , with modest air,
Peeps forth between the trees a pillared mosque;
And the poor wand'ring fakeer resting there,
Chants the muezzin from the high kiosk:
He feeds the lamp with palm-nut's fragrant oil,
A lonely star upon the brow of night,
And plucks the fairy offsprings of the soil,
To crown with votive wreaths the altar's height.(١)

بعد ذلك تشرع المؤلفة في إعطاء صورة مختلطة عن الإسلام ، وتجعل العقيدة الإسلامية مساوية للعقيدة الهندوكية ، وهي بذلك تصد الناس ، وتبعدهم عن قبول الإسلام واتباعه :

Whate'er his creed , or Moslem or Hindoo,
The pilgrim twines in radiant diadems.
With votive offering of a gratetful breast,
Mosque or pagoda by his hand is wreathed,
For where the tank invites the fainting guest,
He asks not who the precious gift bequeathed.(٢)

أما في قصيدة «ضريح المؤمن» The Tomb Of The Faithful فالمؤلفة تسير على نفس المنهج الذي اتبعته في قصيدتها السابقة ؛ إذ إنها تخلط بين شعائر الإسلام وتعاليم الهندوكية والبراهمية ، وقصدها تشويه وتشويش صورة الإسلام :

The Moslem warriors earliest sacrifice,
While o'er the towers and domes of proud Rajmahal
The golden glories of thee crescent rise.

---

(١) المرجع السابق، ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٧٣ .

His was the meteor's course , resistless , bright
He swept along in desolating wrath,
Then sank for ever into endless night
Without a trace to mark his fiery path.
The Hindoo Gods arose in blood and gloom,
The sword-won proselytes waxed weak and faint,
And lorn and lonely is the crumbling tomb,
Which bears the reliques of the Moslem saint.(١)

ما من شك في أن الشعر كان له النصيب الأكبر في إنتاج الأدباء في العصر الرومانسي من تاريخ الأدب الإنجليزي، إذا ماقورن بالنثر والأدب المسرحي، ومع هذا، فإن بعض الأدباء لم تنضب أقلامهم عن المشاركة في النثر العام والنثر القصصي، كما سنتعرض إلىٰ ذلك في الصفحات الآتية.

ويمكننا القول بأن أشهر ما كتب في النثر العام كتاب ساوثي بعنوان: Chronicle of the Cide، الذي ظهر عام ١٨٠٨م، وموضوعه يتناول تاريخ وجود المسلمين في أسبانيا، وخصوصاً في الزمن الذي ضعفت فيه القوة الإسلامية هناك، وما لحق بالمسلمين من هزيمة. وفي الكتاب أظهر ساوثي (كما فعل في شعره كما بينا سابقاً) جُلَّ حقده علىٰ الإسلام والمسلمين، ونبي الله محمد ﷺ، فهو يرىٰ أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يصدع بما صدع به إلا لرغبة جامحة، وطموح شديد عارم في نفسه، كان يطلب به الملك والسلطان. وأظهر مايمكن أن يرىٰ في شخصية الرسول ﷺ، تمكنه من السلطة وأنه عدَّدَ زوجاته وأكثر منهن،

(١) المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٧.

وأن الإسلام وظهوره ليس إلا بمثابة الحظ الذي حالف الرسول عليه الصلاة والسلام بما قام به من ثورة حربية وعقدية على دين آبائه وأسلافه، وأن القرآن الكريم من وضعه عليه الصلاة والسلام؛ لأن القرآن ليس فيه ما يطيب الخواطر، ويريح العواطف، ويصلح الصدور، وينور العقول، والإسلام كله دعوة للقتال والنهب والسلب[(١)] . والجزء الأكبر من كتاب ساوثي هذا يتحدث عن حصار مدينة فالينسيا في أسبانيا وسقوطها، وانتصار النصارى على المسلمين، وما لحق بالمسلمين من هزيمة نكراء[(٢)].

وممن كتب بعض المقالات النثرية عن الإسلام في العصر الرومانسي: الكاتب توماس دي كوينسي (١٧٨٥ ـ ١٨٥٩م) Thomas De Quincey الذي اشتهر بكتابة النثر ذي الصبغة الغنائية، والأسلوب المسجوع بألفظ جمالية وبديعية، وقد ذاعت شهرة هذا المؤلف بكتابين له: الأول صدر عام ١٨٢٠م The Confession of an English Opium Eater والكتاب الثاني صدر في عام ١٨٢١م بعنوان The Reminiscenes of the English lake Poets.

ولقد كان دي كوينسي من الذين يتعاطون الحشيش، وقد أثر فيه كثيراً مما جعله يقول: إنه منهك للقوى العقلية، ومجهض للبدن[(٣)]،

---

(١) انظر: Robert Southy,Chronicle of the Cide,London,n.d.,p.p188- 189.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٣) انظر: Emile Legouis,A Short History of English Literature,p.308.

وفي كتابه الأول يتهم الرسول ﷺ بهذا الخلق، وهو تعاطي الحشيش.

ولقد كان من معاصري دي كوينسي الأديب الشاعر المسرحي ولتر سافج لاندور (١٧٨٤ـ ١٨٥٩م) Walter Savage Landor ، الذي تميز بكتاباته النثرية، وهي تمثل معظم إنتاجه الأدبي، وهو من أدباء النثر البارزين في العصر الرومانسي ، إضافة إلى شعره وبعض مسرحياته.

وقد اشتهر لاندور بكتابه الذي كتبه خلال عامي ١٨٢٤ ـ ١٨٢٩م بعنوان: The Imaginary Conversations between certain people of Importance in their Day . والكتاب يتضمن محادثات كثيرة، منها بعض المحادثات بين الرسول محمد ﷺ وبين أحد القساوسة واسمه سيرجس، إذ إن كل واحد منهما كان يطمع في الشهرة، وكل منهما ينادي بالنبوة ، فالقديس كان يريد أن يظهر في القسطنطينية، وبالأخص في كنيستها المشهورة، وأنه كبير البطارقة، وانه كان مبعوثاً من السماء، في حين أن محمداً ﷺ كان يريد أن ينادي بنفسه نبياً في سوريا، ولقد تشاور القديس مع محمد على ما كانا أضمرا في نفسيهما ، وفي هذا يقول الكاتب :

Sergius:
Brother Pemphix , a worthy priest , has espouseda beautifull creature . O the charms of such a friendship as mine with Pemphix ! I am the confessor of the fair Anatolis . Ah Mahomat !Mahomat !! The delight of authority , the diviner power of persuation ! the glory of hearing the appeal
Mahomet:

In the plains of Damascus I myself am fainto this
Exercise . Many gales of Paradise blow about these
gradens and over the banks of these little streams
We have some pleasant river in Arabia , more in
Idumea ; but who posseseth Syria may have
In contempt the possesors of all the earth beside. (١)

وبعد هذا الزور والبهتان عن النبي ﷺ يأتي المؤلف ليقول : إن الرسول محمداً عليه السلام حرَّم الخمر على نفسه ، لما كان يصيبه من صرع وإغماء . ولعل الكاتب بهذا يقول : إذا كان تحريم الخمر على محمد ، فلا يجب أن يكون على أتباعه .

Mahomat:
I dare not drink wine : it aggravates my malady,
the only one to which I am subject Another
Inspiration here comes over me . I will forbid
The use of this beverage.(٢)

هكذا يقول الكاتب : إن محمداً عليه السلام حرَّم الخمر على نفسه بسبب ما يصيبه ، ولهذا فقد حرَّم على أتباعه شرب هذا الشراب ، وذلك يدل على ما في نفسه من حب الذات وعدم حب الخير للآخرين .

وفي محادثة أخرى بعنوان«سليمان والمفتي» Soliman and Mufti نجد لاندور يتحدث عن الإسلام والقرآن الكريم . وسليمان هنا شخصية السلطان سليمان القانوني ، ويظهر وهو في محادثة محمد المفتي ، يقول

(١) انظر: T. Earle Welby (ed.), The Complete Works of Walter Savage Landor: Barres and Noble , New York , 1969 , vol. 8 , p.p. 171-172,

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

السلطان للمفتي عن اهتماماته بالدعوة الإسلامية ونشرها، ورغبته في ترجمة القرآن الكريم إلىٰ لغات شعوب العالم، والعمل علىٰ دعوة الناس بالحسنىٰ إلىٰ دين الإسلام، لكن المفتي يبدي اعتراضه عن عدم تنوير الناس، وخصوصاً النصارىٰ، وهنا يُظهر الكاتب تضارب الأفكار في صورة الخلاف في الرأي بين السلطان والمفتي، ويرىٰ الكاتب رفض المفتي دعوة النصارىٰ إلىٰ الإسلام، ويعلل ذلك بأن محمداً النبي عليه السلام كان نصرانياً ولكنه صَبَأ، وصار صاحب فرقة دينية مختلفة عن المألوف.

هذه بعض النماذج للنثر العام الذي ظهر في العصر الرومانسي، ولكن النثر القصصي كان له نصيب أكبر في روايات الأدباء التي ظهرت في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي، التي تأثرت بحكايات «ألف ليلة وليلة»، وقصة «مجنون ليلىٰ»، وقصص «كليلة ودمنة»، وبعض القصص الشرقية الأخرىٰ، كما أن بعض الأدباء تأثروا ببعض الكتب التاريخية والمصادر الإسلامية التي استقوا منها موضوعات رواياتهم، والمعروف في تاريخ الأدب الإنجليزي أن الرواية لون حديث في الأدب الإنجليزي ظهر مؤخراً، وعلىٰ وجه التحديد في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وهذا الجنس الأدبي تطور ونما بسرعة مذهلة؛ ففي قرنين من الزمان تمكنت الرواية أن تصل إلىٰ منافسة الشعر الذي ظل اللون الأدبي المهيمن علىٰ الساحة الأدبية في تاريخ الأدب الإنجليزي لعدة قرون طويلة. وهكذا حاول الروائيون الإنجليز الإسهام بصورة كبيرة في إنتاج

الروايات الكثيرة ذات الموضوعات المختلفة تربوياً وأخلاقياً واجتماعياً وتاريخياً ونفسياً . . . . إلخ .

ومن المعلوم أن ماريا إدجورث (١٧٨٦ـ١٨٥٥م) Maria Edgworth كتبت عدداً من الروايات التعليمية والاجتماعية، ضمَّنتها عواطفها وأحاسيسها نحو المجتمع، وكذلك دونت ملاحظاتها عنه، كما في رواياتها The Absntee، Ormond, Belinda، وأخيراً في روايتها Castle Ractret.

والمعروف أن إدجورث كتبت رواية بعنوان هارنغتون Harrington، وهي تعطي صورة اجتماعية عن الخيلاء والكبر المصاحب بالكره ضد اليهود، والاعتقاد بأنهم ليسوا أناساً طبيعيين، هذا ما يُحسه أفراد المجتمع الإنجليزي نحوهم. وما تلبث أحداث القصة تتابع لإذابة ذلك الشعور بالكره والكبر نحو اليهود، عندما يقرب الالتحام والالتصاق في قصة حب نشأت بين اليهودية برينيس والمسيحي هارنغتون، وقصة الحب هذه كانت وسيلة عمدت بها الكاتبة لإظهار عدد من الشخصيات اليهودية بمظهر لائق؛ ليساعد على إخفاء تلك الصورة المرسومة عن الشخصية اليهودية التي أبرزَها شكسبير في شخص شيلوك في «تاجر البندقية»، وكذلك شخصية «اليهودي التائه».

وتذهب الكاتبة ماريا إدجورث إلى تصوير شخصية مونتنيرو والد برينيس على أنه اليهودي الذي يتصف بتلك الصفات التي يتسم بها النبلاء من اللباقة والسماحة، تثبت على وجهه آثار الفكر والشعور والفخر، خصوصاً عندما يتباهى بأن اليهود هم أول من اخترع فواتير

الصرف والأوراق المالية، وأن اليهود هم رواد المصارف ومصرفيو العالم.

وبعد المقارنة بين شخصية شيلوك وشخصية مونتنيرو . يقول هاني الراهب: «اليهودي الطيب ليس بالطبع شيلوك. ولكن ثمة تشابهات ظاهرية بين مونتنيرو ويهودي شكسبير المرذول، فهما غنيان غنى فاحش، ولكل منهما ابنة فقط، وكلاهما يعاني من النبذ الاجتماعي. حقاً، ليس ثمة من ينعت مونتنيرو بكلمة «كافر» أو «كلب مقطوع الحلق»، لكن هارنغتون الأب الذي هدّد بحرمان ابنه من الميراث إنْ هو تزوج برينيس، يؤمن بصلابة بأنه عندما يمضي إنسان مرة إلى اليهودي، يمضي حالاً إلى الشيطان. أما السيدة هارنغتون فتوشك على الإغماء؛ إذ يحاول الدفاع عن السيد مونتيرو »[1].

ويتساءل القاريء عن أسباب هذا التحول الكبير لدى الكاتبة إدجورث في المنطلقات الاجتماعية والنفسية في كتاباتها، وتصوير اليهود بصورة طيبة . أليست هي الكاتبة نفسها التي كانت تملأ قصصها التربوية باللصوص والمجرمين من اليهود ؟ ورسم اليهود كشخصيات مناهضة ومضادة لأبطال القصص الشرفاء والنبلاء، ويتضح هذا جلياً في مجموعة قصصها«التربية العملية» (١٧٩٨م) Practical Education وكذلك في مجموعتها التي أسمتها «حكايات أخلاقية» (١٨٠١م) Moral Tales، والتي ظهرت قبل صدور هارنغتون بزمن طويل؛ ذلك أنه من

(١) هاني الراهب ، الشخصيه الصهيونيه في الرواية الإنجليزية ، ص ١٧ .

«الثابت أن المؤلفة لم تتعمد هذا الاختيار، بدليل السهولة المفاجئة التي غيّرت فيها موقفها من اليهود إثر تلقيها رسالة شاكية من الولايات المتحدة. ومن الثابت الآن أن كتابة هارنغتون «قد سببتها رسالة مكتوبة بفصاحة تلقتها الآنسة أدجورث من سيدة يهودية (الآنسة مورد يخاي)، تتذمر فيها من التحيز الفاضح في معالجة الآنسة إدجورث للأمة اليهودية في بعض أعمالها»[1].

إذاً، فرسم شخصية اليهودي بصورة طيبة لم يكن مبعثه مبادرة من المؤلفة، إنما هو مبعث عنصري من تلك اليهودية التي مارست ضغوطاً معينة، جعلت إدجورث تكتب روايتها «هارنغتون»، وفي هذا دليل واضح على تحيز الكاتبة لليهود (أعداء المسلمين والبشرية جمعاء)، ومعارضة الكاتبة للإسلام.

ولا أدل على ذلك ممّا كتبته من قصص قصيرة عن الإسلام فيها قصة «مراد سيء الحظ» Murad the Unlucky، والتي ظهرت عام ١٨٠٢م، وهي تحكي قصة الأخوين مراد سيء الحظ، وأخيه صلاح الدين المحظوظ، وكلاهما بدأ حياته بميراث مالي واحد، ورثه عن أبيه. والقصة تبدأ بالسلطان الذي كان يخرج متنكراً في الليل كما كان يفعل هارون الرشيد في بغداد، ويتحسس أحوال الرعية، عرف السلطان قصة الأخوين مراد وصلاح الدين، وتقول أم هذين الأخوين: إن زوجها سمى ابنه مراداً بهذا الاسم؛ لأنه رأى في منامه رؤيا جعلته يعتقد بأن ابنه

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

سيء الحظ، ولذا سماه «مراداً سيء الحظ»، وأكدت ذلك القابلة التي رأت ذلك حين ولادته، والواضح أن مراداً ظل يحيا حياة بائسة حتىٰ مات وهو مدمن علىٰ تناول الحشيش[١]. في حين أن صلاح الدين عاش حياة سعيدة، منعماً في ملذات الحياة والشراب والنساء. وتنهي المؤلفة القول بأن حياة المسلمين هكذا؛ إما بؤس وإدمان للحشيش، أو انغماس في الشهوات واللذائذ[٢] وهي بذلك ـ أي المؤلفة ـ تصد الناس عن الإسلام.

ومن المعروف أن ماريا إدجورث كان لها تأثير عظيم علىٰ الكاتب الروائي السير ولتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢م) Sir Walter Scott، إذ إنها أول من أوجد الرواية الإقليمية، حين اتخذت من إيرلندا موطنها الأصلي بيئة خصَّتها في رواياتها، فكتبت عن الفلاح الإيرلندي، وعن الطبيعة الإيرلندية وعن الحياة الإيرلندية بكل صورها. وهكذا فعل سكوت عندما حذا حذو إدجورث، فكتب عن موطنه الأصلي اسكتلندا، وعن حياة أهلها وطبيعتها، وكذلك فإن إدجورث كتبت عن موضوعات مستلهمة من تاريخ العصور الوسطىٰ، وكذا نجح سكوت في الكتابة عن التاريخ حتىٰ صار يعرف بأبي الرواية التاريخية ورائدها الأول. لقد كتب سكوت عدداً كبيراً من الروايات التاريخية، وفي أربع من الروايات تحدث فيها عن الإسلام، وهي:

---

(١) انظر: Maria Edgworth, Murad the Unlucky and other Tales, Blackie&Son Ltd.,London,1906, p.3.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩.

ابنة الطبيب الجراح	The Surgeon's Daughter (1827)
إيفانهو	Ivanho (1819)
المخطوبة	The Betrothed (1824)
الطلسم	The Talisman : A Tales of the Crusades (1825)

وفي «ابنة الطبيب الجراح» لا يتحدث سكوت كثيراً عن الإسلام والمسلمين إلا من خلال إشارات معينة تتصل بالعبارات التي يتداولها المسلمون من الحديث واللقاء، ومن ذلك تحية المسلمين بين بعضهم البعض، وهي: السلام عليكم، وهنا يقول سكوت: إن المسلمين لا يقدمون مثل هذه التحية للنصارىٰ، ويجعلونها حكراً علىٰ المسلمين فقط.

إن السلام خاص بالإسلام، والشريعة الإسلامية تجعل السلام بين المسلمين، وتنهىٰ المسلم أن يبدأ أهل الكتاب بالسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم، فقولوا وعليكم»(١)، ويروىٰ عن سهيل بن أبي صالح، قال: خرجت مع أبي إلىٰ الشام، فجعلوا يمرون بصوامع فيها نصارىٰ، فيسلمون عليهم، فقال أبي: لا تبدؤوهم بالسلام، فإن أبا هريرة حدثنا عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تبدؤوهم بالسلام»(٢). والحقيقة أن أهل الكتاب لا يستحقون تحية المسلمين؛ لأن القرآن حكىٰ حقيقتهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾(٣).

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب ٤/ ٤٧٧ برقم ٥٢٠٦ ورواه البخاري (الفتح) ١١/ ٤٢ برقم ٦٢٥٧ ومسلم ٤/ ١٧٠٦ برقم ٢١٦٤.

(٢) المرجع السابق ٤/ ٤٧٧ برقم ٥٢٠٥ ورواه مسلم ٤/ ١٧٠٧ برقم ٢١٦٧.

(٣) سورة المجادلة، الآيه ٨.

وفي هذا الشأن يصور المؤلف الحوار الذي جرىٰ بين إحدىٰ الشخصيات النصرانية، وهو هارتلي Hartley وبين بعض الشخصيات الإسلامية مثل الفقير بارك الحاج Fakir Barik el-Hadgi وكذلك حيدر علي Hyder Ali وغير هؤلاء من الشخصيات.

أما بالنسبة لرواية «إيفانهو»، فإن سكوت تأثر في موضوعها بماريا إدجورث عندما كتبت عن اليهود، وقدمت عنهم صورة جميلة، ذلك أن أحداث هذه الرواية تدور حول الصراع العرقي الذي دار بين السكسونيين والنورمانديين، وكذلك تصور أحداث تحامل النصارىٰ ضد اليهود، وكل ذلك يجري في العصور الوسطىٰ، وبالتحديد في الأعوام الأخيرة من عهد حكم الملك ريتشارد.

ولعل إعجاب ولتر سكوت بإدجورث وأعمالها الرومانسية ووجود علاقة أدبية بينهما، جعله يتأثر هو الآخر، فيكتب روايته «إيفانهو»، وصوَّرَ اليهود فيها علىٰ أنهم أناس طيبون.

ففي قصة «إيفانهو» التي نرىٰ ولفرد إيفانهو ابن سيدرك من نبلاء الساكسون، وكان والده يحب أن يحافظ علىٰ سلالة الساكسونية، وإحياء التراث الساكسوني، فأراد أن يزوج ابنه من رادنيا سليلة الملوك والعظماء، ولكن الابن رفض ذلك، مما جعل والده يغضب عليه ويطرده، فالتحق بحملة ريتشارد قلب الأسد الصليبية، وما لبث أن لقي حظوة عند الملك ريتشارد، وأصبح من المقربين لديه لشجاعته وبسالته، وخلال غياب الملك ريتشارد عن البلاد، حاول أخوه جون أن

يحظى بتأييد المناوئين لريتشارد، والمؤيدين له لإبعاد أخيه من الحكم، خصوصاً بعدما تعرض للسجن في النمسا في طريق عودته من فلسطين إلى إنجلترا. وفي حملة مباغتة على المدينة التي يسكنها والد إيفانهو، سطا بعض الفرسان على هذه المدينة، ووقع إيفانهو وبعض الآخرين، منهم إسحاق اليهودي وابنته ربيكا، أسرى في أيدي المعتدين، مما أدى إلى قتال عنيف ساعد فيه الفارس الأسود ـ وهو ريتشارد قلب الأسد ـ في إنقاذ صديقه إيفانهو الذي أحبته ربيكا اليهودية برغم محاولة فارس المعبد برايان دبواجيلبرت أن يتزوجها، ويجعلها تعتنق المسيحية، ولكن قلبها كان إلى إيفانهو أمْيَلَ، لكن في نهاية القصة استجاب إيفانهو لأمر والده، وتزوج برادينا، ففرَّ اليهودي وابنته إلى مدينة غرناطة بأسبانيا، لعلهما يحظيان بحياة هادئة وهانئة هناك.

لعل سكوت أظهر شيئاً من الحماسة في تصوير شخصية ربيكا، وقد غلب العنصر الرومانسي في هذا التصوير، خصوصاً عندما أحبت ربيكا إيفانهو حباً جماً بكل عاطفة المرأة في الحب، في حين جاء تصوير شخصية إسحاق والد ربيكا يتسم بقدر كبير من الانفصال، تتسم بشخصية واقعية تاريخياً، تلك هي الشخصية اليهودية.

ومرة أخرى في مجال المقارنة بين شخصية ربيكا سكوت وشخصية جيسكا عند شكسبير يقول هاني الراهب: «إن يهودية سكوت هذا تتباين تماماً مع يهودية شكسبير، وباستثناء الشبه عديم الأهمية في كونهما ابنتي يهوديين ثريين ومهانين، فليس ثمة ما يجمعهما على الإطلاق. فبينما تجد جيسكا أنه من اللائق والمجزي أن تفر إلى المعسكر

المسيحي ببائنة ضخمة مسروقة من خزائن أبيها، تشعر ربيكا بحدة الانحطاط والإذلال اللذين يعاني منهما أهلها، وترفض عروض دبوا جيلبرت الفارس، وهو الذي خطفها، ويقدم التنازل تلو الآخر كيما تشاركه حياته. وبالإضافة إلىٰ ذلك فإن حبها لإيفانهو ـ وهو حب لا ينسجم مع شخصيتها ـ يبقىٰ خفياً وغائباً عن حديثها المتزن معه، علىٰ العكس من ذلك تعتقد جيسكا أن أباها كافر وأمها خاطئة، ومن ثم تعتنق المسيحية لتفوز بحماية الله علىٰ الأرض وفي السماء. وحيث تبدو جيسكا خفيفة ومتنطعة، تتحمل ربيكا مصير أهلها بانزواء وبإيمان ديني استثنائي. إنها تفخر بكل من دينها وشعبها، ويبدو أنها تعرف تاريخهما جيداً ماضياً وحاضراً»[١] .

هكذا رسم سكوت شخصياته اليهودية، فإسحاق يظهر بين عدد كبير من الساكسون والنورمانديين الحاقدين بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، وكلهم يتنافس في كيفية إهانة هذا اليهودي، وإن كان يظهر بمظاهر الرقة والأدب، ولكن يظل اليهودي الذليل المهان.

ومن خلال صور الصراع الديني الذي رسمه سكوت في رواية «إيفانهو»، فإنه أظهر العلو والسمو للنصرانية، وإن ظهر في آخر الرواية الحديث الذي انتهىٰ باختيار ربيكا ووالدها الذهاب إلىٰ غرناطة ؛ ليعيشا في كنف المسلمين، باعتبار أن المسلمين يتقيدون بالعدل في معاملة الذميين. وهذا ما أراد سكوت تحقيقه في نهاية الرواية بأهمية وضرورة العطف والرأفة علىٰ اليهود، ولم يفكر قط سكوت في أن يقول : إن المسلمين يستحقون العطف ، كما سنرىٰ في رواية «الطلسم» .

(١) هاني الراهب ، الشخصية الصهيونية في الرواية الإنجليزية ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

وفي قصة «المخطوبة» نجد سكوت مرة أخرىٰ يتحدث عن تاريخ الحروب الصليبية، حيث تدور أحداث الرواية حول العداء الذي ظهر بين الشعوب التي شاركت في الحروب الصليبية، كما أنها تتحدث عن دور الكنيسة في تحريك حماسة الشعوب في الذهاب إلىٰ الأرض المقدسة بفلسطين. ووصف بسالة الفرسان النصارىٰ، وما ألحقوه من هزيمة وويلات بالمسلمين في الأرض المقدسة. ولقد بين سكوت كيف أن القساوسة ظلوا يدفعون الناس دفعاً قوياً (باستخدام سلاح الدين) إلىٰ فلسطين لتحريرها (علىٰ زعمهم) من أيدي المسلمين، ملبين في ذلك نداء الرب.

وفي هذا الشأن يكيل سكوت السباب والشتائم للمسلمين، الذين كانوا يعاملون غير المسلمين بكل سوء وقسوة، حيث إن الرواية أظهرت العداء بين الشعوب والأجناس التي اشتركت في الحروب الصليبية. وقد استخدم سكوت لفظ كلمة مسلم Moslemah بمعنىٰ سلبي، أي الممقوت والجنس المنبوذ، وهذا يمثل فكرة سكوت عن الإسلام، الذي يمثل عالم المتناقضات والمتنافرات.

وتعد رواية «الطلسم» الرواية الوحيدة التي جاء فيها التركيز علىٰ الحديث عن الإسلام والمسلمين، وخصوصاً بما تمثله شخصية القائد المسلم صلاح الدين الأيوبي. والرواية تحكي قصة «التعويذة» أو «التميمة» التي علقها السلطان المسلم برقبة الملك ريتشارد قلب الأسد. والقصة تبدأ بالتعرف علىٰ شخصية الفارس النصراني كينث الليوباردي، وشخصية المجاهد المسلم شيركوف، كما قدم نفسه، ثم يصبحان صديقين بعد

مناورات فردية دارت بينهما، وكانت سجالاً بين الطرفين، ويقسم كل منهما أن يكون خير رفيق وصديق للآخر.

وعندما عرف شيركوف المجاهد المسلم بخبر مرض ملك إنجلترا، وخوف صديقه الفارس السير كينت وجزعه علىٰ ما أصاب الملك ريتشارد، وعَدَ شيركوف صديقه كينت أن يطلب من السلطان صلاح الدين الأيوبي إرسال طبيبه الخاص لمعالجة الملك بإذن الله، ومع هذا المعروف الذي يذكره التاريخ، ومدىٰ شهامة المسلمين وسُمُوِّ أخلاقهم، إلا أن السير ولتر سكوت وجَّه روايته الطلسم وجهة مسيحية صليبية بحتة، كما سنُظهر ذلك في النماذج التي وردت في الرواية. فيقول سكوت في وصف شخصية ريتشارد قلب الأسد: بأنه قوي شجاع، وشهم همام، ومثال للفرسان الصليبيين. ثم يقول: إن واجهتك بعضُ صفات الصلف والجلف والجبروت التي توجد لدىٰ السلطان الشرقي، مثل صلاح الدين، فتلك أمور عارضة علىٰ شخصية ذلك الملك البطل.

وعن مدىٰ تمسك ريتشارد قلب الأسد بالمسيحية، وإعجابه بصلاح الدين، فإن الملك يرىٰ أن ذلك السلطان أخطأ الطريق في اختيار الإسلام ديناً له، وأنه ــ أي ريتشارد قلب الأسد ــ سيجعل السلطان يعتنق النصرانية، وسوف يطهره بالماء المقدس من خوذته الحربية، ويعمدُه بالصليب بمقبض سيفه، وحينها سيعلم السلطان كل الأخطاء التي وقع فيها بسبب الدين الإسلامي. ويقول سكوت عن القرآن الكريم: إن المسلمين لم يُوَفَّقوا في اختيارهم له لأن يكون كتابهم المقدس.

ويستطرد الكاتب ليؤكد أفكاره السيئة، وإلصاق التهم بالإسلام والمسلمين، بأن يجعل عنوان روايته «الطلسم» أو «التميمة» هي مما وصفه الحكيم المسلم لعلاج الملك ريتشارد، فيقول سكوت: «اعلم أيها الملك أن الدواء الذي شفيت به إنما هو نوع من التمائم التي تقوم في أصلها على الشعوذة، وبها كثير من الغموض والدجل، وهذه حقيقة الإسلام، وكثير من المسلمين، وقد أثر سكوت في حديثه عن الطلسم؛ ليصل إلى هدفه، وان تعاليم الإسلام وتعاليم القرآن وهدي السنة كلها طلاسم وتعاويذ ودجل وغموض» (١).

وتجدر بنا الإشارة إلى قول أحد النقاد الإنجليز عن رواية سكوت «الطلسم» إذ يقول: «إن الرواية ليست إبداعاً سليماً يقوم على الحقيقة، بل إنها ترويج للدعاية والاعتقاد بما يقوله المؤلف، وكل الرواية خيال محض، وتلفيق بحت» (٢).

هكذا إذن نجد سكوت جعل من التاريخ في بعض حقائقه مادة لروايته التي اتخذها وسيلة للهجوم على الإسلام والمسلمين، ووصفهم بكل سوء وباطل، وكان يرى أن الذين يعتنقون الإسلام يضلون الطريق في اختيار الدين الصحيح، وأن النصرانية هي السبيل القويم. والرواية كلها تحتوي على كلمات تصف المسلمين بالكفر والإلحاد والزندقة، وسوء الأخلاق.

---

(١) أنظر Walter Scott The Talisman, T.Nelson & Sons ltd, London,n.d., p.p.70 ,106, 225-2

يعد توماس هود (١٧٩٩ ــ ١٨٤٥ م) Thomas Hood من الأدباء المطبوعين والموهوبين خلال العصر الرومانسي، فقد نظم الشعر وقص القصص، له إنتاج أدبي وفير في الشعر من مجموعات شعرية نذكر منها ما يأتي:

1. Lycus the Centaur
2. The Song of the Shirt
3. The Haunted House
4. The Bridge of Sighs

وفي المسرح كتب مسرحية بعنوان The Plea of the Midsummer Faries ، وله مجموعة قصصية في النثر بعنوان «حكايات وطني» National Tales ، وفي هذه المجموعة قصة عن الإسلام والشرق، وهي «حكاية الحريم» The Tale of The Hareem صدرت عام ١٨٢٨ م، وهي تحكي قصة مُغَنٍّ إيطالي عمل لدىٰ أحد السلاطين في خدمة قصر النساء، وقد حاول إنقاذ فتاة إيطالية كانت بين نساء السلطان. وكان هذا المغني يرسل رسائل إلى تلك الفتاة من خلال الأغنيات التي يغنيها. كان اسم ذلك المغني بتيو، وكانت الفتاة تسمىٰ أنجلينا. فكان يقول المغني في بعض أغانيه: إنه في حروب المسلمين مع النصارىٰ، والتي هزم المسلمون في تسع معارك من عشر، فقد نجحوا في تلك المرة أن يأسروا جميلتين من بنات النصارىٰ. وهكذا يفعل هؤلاء الملحدون الكفار ـ أي المسلمين ـ[1].

وفي رسالة أخرىٰ يقول المغني: إن الشادي بنيتو كان أسيراً لدىٰ المسلمين الملاحدة، الذين أخذوه إلى سلطان استانبول، الذي اشتراه

---

(١) انظر: Thomas Hood's Son and Daughter (eds.), The Works of Thomas Hood , London , n.d. , vol 5 , p.33

وجعله في خدمته [1] .

هكذا يصور الكاتب المسلمين في قصته بالقسوة والشدة، وسوء معاملة الآخرين من غير المسلمين، ويعلل ذلك بسبب تعاليم الإسلام.

ومن أدباء العصر الرومانسي الذين كتبوا عن الإسلام: الأديب المستشرق إدوارد ابهام Edward Upham وهو مستشرق متخصص في الدراسات الاستشراقية، وقد كتب عدداً من المؤلفات عن الشرق والإسلام، منها :

1. The History and Doctrine of Budhism
2. The History of the Ottman Empire

وفي مجال النثر الأدبي كتب قصة تاريخية عن مصر الفرعونية، عنوانها «رمسيس : حكاية مصرية» . Ramses : An Egyptian Tale ، كما أنه كتب حكاية عن الإسلام بعنوان «كارمث : حكاية عربية»: Karmath An Arabian Tale . وقد صدرت كلها عام ١٨٢٧م، وفيها نجد المؤلف يعبر عن مشاعره نحو الخليفة العباسي هارون الرشيد.

وموضوع القصة يحكي أن كارمث ساحر، يحاول بشتى الوسائل والطرق قتل عدوه اللدود هارون الرشيد، وفيها يغمز المؤلف الإسلام ممثلاً في شخص الخليفة هارون الرشيد، وقد تحدث الكاتب صراحة عن الإسلام في مقدمة روايته، فقال : إن النبي محمداً ﷺ أخبر العرب برسالته التي جاء بها القرآن، حيث وجد عند أبناء العرب القوة والشجاعة

(١) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦.

والحرية، فجمعهم تحت لوائه، فوجدوا أنفسهم أمة واحدة وقوة ضاربة، تتكلم بصوت النبي، فاجتمعوا جميعاً: السيف في يد، والقرآن في اليد الأخرى، فتفاعل الحماس المتوقد عند العرب، فتمكنوا من إظهار جهودهم وقوتهم، لترسيخ عقيدة محمد ﷺ وخلفائه من بعده، وأصبحت لهم السلطة العليا في الشرق(١).

هكذا يقول المؤلف: إن الإسلام انتشر بالقوة وبالحرب وبالسيف، فهو بذلك ليس دين أمان ولا دين سلام. بل يستطرد الكاتب ليقول: إن الرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالقرآن الكريم من عنده، وإنه ليس وحياً من الله سبحانه وتعالى. وبهذه المقدمة عن الإسلام وعن الرسول ﷺ يأتي المؤلف ليتحدث عن قوة الخليفة هارون الرشيد، وأنها مما أرساه ذلك النبي من قوة له، ولمن جاء من بعده من خلفائه الذين تسلطوا على الناس، ووضعوا رقابهم تحت حد السيف. وأن هارون الرشيد كان لايعرف إلا سلطان القوة والجبروت، وكان يقتل خصومه، ويشرد أسرهم، ويجعل أطفال خصومه أيتاماً. هذا السلوك جعل الساحر كارمث يسعى في الخفاء لقتل هذا الخليفة الطاغية، ويخلص الناس منه. وبهذا يختم المؤلف القول بأن الناس هكذا كان مصيرهم في الشرق، في ظل هذا الحكم المتعسف، وفي ظل هذه الشريعة التي تسمى الإسلام(٢).

---

(١) انظر: Edward Upham , Karmath :An Arabian Tale , London , 1827 , p.1

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤١.

والآن وبعد ما قدمنا الحديث عن بعض النماذج للأدب القصصي الذي ظهر في العصر الرومانسي في الكلام عن الإسلام، نختم هذا الفصل بعرض بعض الأمثلة التي تناولت الإسلام في الأدب المسرحي، علماً بأن المسرحية في هذا العصر لم تكن شيئاً مذكوراً، كما كان حال الشعر، وكان سبب ذلك قله المهتمين بالمسرح من المشاهدين والقراء، وكذلك قلة انتشار المسارح التي لم يشجع وجودها الجمهور. مع هذا كله فقد ظهرت بعض الأعمال المسرحية لبعض مشاهير الأدباء؛ مثل مسرحية Remorse لكوليردج، وكذلك بعض القصص النثرية التي حُوِّرَتْ إلى مونتاج مسرحي، وعُرضت على خشبة المسرح؛ مثل رواية «الواثق» لوليم بيكفورد، وعرضت بعض المشاهد من قصيدة «لالاروخ» لتوماس مور، كما أعيد عرض بعض الإسهامات المسرحية التي قدمها بعض الأدباء في مجال هذا اللون من الأدب.

لقد كتب كوليردج مسرحية بعنوان Osorio بناءً على طلب من الأديب ريتشارد شيرادن Richard Brinsely Sheridan، وقد مثلت بعنوان Remorse عام ١٨١٣م، والمكان الذي تجري فيه الأحداث إسبانيا زمن الملك فليب الثاني، وكان أوسوريو وأخوه الأمير ألفار Alvar ابناء فالدز Valdez يحبان ابنة خادم والدهما، وقد استخدم أوسوريو أحد المسلمين واسمه أسدور لقتل أخيه ألفار، والخلاص منه ومن مزاحمته في حب تلك الفتاة، وكان هذا المسلم قد أطلَعَ ألفار على ما عزم عليه أخوه، وطلب من ألفار أن يهرب من البلاد متخفياً بشخصية مسلم مشعوذ،

(٢) انظر: Stephen Gwynn,The Life of Sir Walter Scott, London,1930, p.310.

وعندما علم أوسوريو بأن أسدور لم يقتل أخاه ألفار دبر مكيدة فقتله، وتتوالى الأحداث حتى قبض على ألفار وألقى به رجال الشرطة في السجن لشكهم في أمره، ولكن ما لبث أن أوضح للسلطات أمره، وطلب العفو من أخيه، وأنه لن ينازعه تلك الفتاة، وأشعره بالأسف والندم، وخلال ذلك الوقت جاءت زوجة أسدور مع مجموعة من المسلمين لتثأر لزوجها، وتمكنت من قتل أوسوريو.

والمسرحية تؤكد في ثناياها إباحة دم المسلم ؛ لأنه ملحد كافر يجوز قتله؛ لأنه يتبع ديناً ضالاً. ويدلل المؤلف على ذلك بما كان من المسلمين خلال وجودهم في إسبانيا ، وما ألحقوه بالنصارى من سلب ونهب وقتل، وهو يؤكد على ضرورة عدم التعامل مع المسلمين، وتحريم ارتداء ملابسهم.

ومن المعروف أن ولتر سافج لاندور كتب مسرحية مأساوية عام ١٨١٢م بعنوان «الكونت جوليان» Count Julian : A Tragedy والمسرحية ذات فصل واحد وخمسة مشاهد، يتخللها بعض المقطوعات من الشعر الغنائي، وشخصياتها عربية مسلمة ومسيحية، ومن الشخصيات العربية: طارق رئيس حرس المسلمين، وموزا أمير مورتانيا وابنه عبد العزيز. ومن الشخصيات المسيحية: الكونت جوليان، وابنته كوفيلا، وملك إسبانيا وزوجته.

وتجري أحداث قصة المسرحية زمن الفتح الإسلامي لإسبانيا. وبالرغم من أن المؤلف ذكر في عنوان مسرحيته أنها مأساة، إلا أن

المسرحية تفتقد العناصر الرئيسة والضرورية لبناء المآسي من الناحية الفنية والأدبية. وموضوع المسرحية يدور حول حادثة اغتصاب ملك إسبانيا روزريق لكوفيلا ابنة الكونت جوليان، الأمر الذي جعل الكونت يستعين بالمسلمين لمساعدته في الانتقام من روزريق. ويعيب بعض النقاد ـ ولا سيما المتعصبون منهم ـ أن المؤلف لم يعلم وجه الخلاف بين المسلمين والنصارىٰ، الأمر الذي جعل حبكة المسرحية تظهر قوة المسلمين وشجاعتهم، خصوصاً أن المؤلف كتب مسرحيته في وقت ازدهار القوة المسيحية الأوربية في إسبانيا، والإشارة إلىٰ الإسلام جاءت باهتة، كما توضحه العبارة الآتية :

We , whom the prophet sends o'er many lands
Love none above another , Heaven assign
Their fields and harvests to our valiant swrds,
And 'tis enough -we love while we enjoy. (١)

مع اعتبار النقاد ضعف مثل هذه العبارات التي تهاجم الإسلام في المسرحية ، فالواضح كما أسلفنا في حديثنا عن شعر لاندور أنه اتهم الإسلام، ووصفه بكل النقائص، وهذه العبارات أعلاه تدل علىٰ كثير من الإساءة، يكفي في ذلك إنكار نبوة الرسول ﷺ وأنه هو الذي بعث أصحابه، وأتباعه، وكذلك الإشارة إلىٰ انتشار الإسلام بقوة السيف. . . إلخ.

لقد كتب هنري ميلنر Henry Milner مسرحية نثرية عام ١٨١٨م

---

(١) انظر: T.E. Welby (ed.), The Complete Works of Walter Savage Landor,London,1928,vol.13p.170.

بعنوان «البرمكي أومأساة النشء» Barmecide or: The Fatal offspring وتحتوي المسرحية على ثلاثة فصول رئيسة. وموضوع المسرحية مستوحى من التاريخ الإسلامي المتصل بقصة تزويج هارون الرشيد أخته العباسة إلى وزيره جعفر البرمكي. والمؤلف يصور مدى حب الرشيد لسفك الدماء، ذلك أن العباسة حملت حملها الأول، ثم وضعت بعد ذلك ولداً لزوجها، حينها عمد هارون الرشيد إلى قتل وزيره، وسجن بقية أفراد أسرته. والكاتب هنا يشير إلى أحداث نكبة البرامكة. وجميع شخصيات المسرحية من المسلمين وهم هارون الرشيد، ووزيره جعفر، ويوسف رئيس الخصيان، (والرجل الطيب الإنجليزي صديق جعفر)، وحسن ابن الخليفة، ونير ابن جعفر، وأبو القاسم رئيس قبائل العرب، وزايدة اسم العباسة في المسرحية أخت الرشيد وزوجة جعفر.

وأحداث المسرحية كلها تجري في بغداد على أطلال البابليين. ويعلق المؤلف بقوله في مقدمة المسرحية بأن الأحداث التاريخية لحبكة قصة هذه المسرحية مثيرة جداً في التاريخ الشرقي، ولكن لايعرفها إلا القليل وهي قصة جعفر البرمكي الوزير الأكبر والمقرب من الخليفة هارون الرشيد (الذي عاصر شارلمان ملك فرنسا)، وقصة زواج جعفر البرمكي من أخت هارون الرشيد، وما انتهت إليه قصة البرامكة مع هذا الخليفة الجائر الظالم كما يزعمون. ويلاحظ في المسرحية أن المؤلف خلط الحقيقة بالخيال، والحق بالباطل، بل إنه يسخر من المسلمين بأن جعل بينهم رجلاً إنجليزياً وصفه بالطيبة وحسن الخلق، وكأنه شاهد على المسلمين

وتاريخهم. والسؤال: هل كانت إنجلترا شيئاً مذكوراً زمن خلافة هارون الرشيد؟ لقد ضمن المؤلف شخصية الرجل الطيب من الإنجليز في مسرحيته؛ ليجعله رمزاً للعطف والسلام، كما يتضح في المشهد الذي كان يوسف يستعد لقتل مولود جعفر، والرجل الطيب يحاول إنقاذه.

Isouf : what! Is it you ?
Goodman : It is me ! to secure him. (١)

ثم بالمقابل يظهر المؤلف قسوة المسلمين ممثلة في الخليفة المسلم عندما تمكن من جعفر، وعمل على قتله:

Harun : Skillful traitor ! You build your ambitious hopes on my misfortunes.

Giafar : You are right , Harun , I confess the opportunity is irresitably tempting .Aboulecassem! Arabs! and you , my brave soldiers,do you promise to obey(٢)

وهنا يصور المؤلف كيف أنَّ جعفراً وجنوده ألقوا السلاح، وخروا راكعين لجبروت هذا الخليفة، الذي قرر قتلهم والانتقام لنفسه، ولكنه لم يفعل ذلك.

إن مسرحية «زمبوكا أو صانع الشباك وزوجته» Zambuka , or The Nets Maker and his Wife لمؤلفها إسحاق بوكوك Isaac Pocock من المسرحيات المشهورة في العصر الرومانسي، وقد صدرت عام ١٨١٥م،

(١) انظر: Henry Milner , Barmecide or The Fatal Offspring , Richard White, London , 1818 , p.45·

(٢) المرجع السابق.

ووصفها المؤلف بأنها مسرحية رومانسية تتألف من فصلين وعدد من المشاهد .

والمعروف أن هذه المسرحية لاقت إقبالاً كبيراً من المشاهدين عند عرضها لأول مرة . وشخصيات المسرحية هي : زمبوكا السلطان المسلم، والأغا سليم، ومرزا صانع الشباك، وعبد الله، وحسن، وسالك، ومالك، والمزيدة خطيبة سليم، وأبرار زوجة مرزا وبعض الحرس .

وموضوع المسرحية يتحدث عن الواقعة التي سجن فيها السلطان الفارسي زمبوكا خطيبة سليم المزيدة، وجعلها ضمن نسائه، وبعد ذلك أضاف إبرار زوجة مرزا لتكون في حاشية النساء والحريم، عند ذلك تخفّىٰ سليم في ملابس أحد الدراويش، وتسلل إلىٰ قصر السلطان وكانت هناك مناورة بين السلطان وسليم، بعدها علم الشعب بأن زمبوكا سلطان متسلط، وأن الحاكم الشرعي يجب أن يكون سليماً ، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ قتال عنيف أزهقت فيه أرواح كثيرة من الأبرياء، وساد الخوف بين الناس . وهنا يريد المؤلف أن يقول : إن المسلمين شعب خُصَّ بالقتال ومحبته، والشغب وفعله، وأنهم يقسمون أيماناً غير صحيحة بلحية الرسول ﷺ وعمامته، كما يظهر ذلك في معظم المسرحية في الفصل الأول منها (١) .

والمؤلف يستطرد ليوضح قسوة السلاطين علىٰ النساء كما يتضح في

---

(١) انظر Isaac Pocock, Zembuca: or The Nets Maker and his Wife, John: Miller, London,1815, p.p.4-27.

المحادثة التالية بين سليم ومخطوبته المزيدة :

Almazaide: when danger threaten Selim_where should Almazaide be found , but sharing his calamity , and striving to avert it ? No I will not return; if we may not exit together , at least we'll die so.

Selim : How have you contrived to reach this dreary

mansion? Had you accomplices' ?

Almazaide: I had, courage and true faith , they may befriend me still_confident that I could not escape, Zembuca left me in the Harem unattended. (١)

ومن المسرحيات الرومانسية التي تحدثت عن الإسلام ، وأظهرت روح الشعوبية ، وبث روح التفرقة والفرقة بين المسلمين ، مسرحية «إلفي بك أو الدين العربي» Elphi Bey; or The Arab's Faith . وقد كتبها الكولونيل رالف هاملتن Col.Ralph Hamilton . والمسرحية غنائية ذات فصول ثلاثة ، وعنوانها يوضح أن موضوعها هو الحديث عن الإسلام الدين العربي ، وقد طبعت المسرحية عام ١٨١٧م ، وقد حشد المؤلف فيها عدداً كبيراً من الشخصيات : إلفي بك أحد الأمراء المماليك ، عثمان ، زينبا زوجة إلفي بك ، شداد أحد رؤساء قبائل العرب وعدو لدود لإلفي بك ، أمينة زوجة شداد .

وموضوع المسرحية يصور محاولة إلفي بك وهو يحارب الأتراك بقصد استرجاع مصر ، التي اغتصبها العثمانيون ، وفي أثناء تلك المعركة تقع زوجة إلفي بك أسيرة في يد شداد رئيس أحد القبائل العربية ، وهو

(١) المرجع السابق ص ٣٨ .

عدو شــرس لإلفي بك كما أسلفنا، ولكنها ما تلبث أن تتمكن من الإفلات من يد شداد والهرب منه، ويلاحظ أن عثمان ينافس إلفي بك على السلطة، ويحاربه في ذلك الجزء الذي يحكمه، ويقع إلفي بك نفسه أسيراً لدى عثمان، ولكن بمساعدة أمينة زوجة شداد يتمكن أيضاً من فك أسره مقابل دفع مبلغ من المال لصالح شداد، الذي حاول عثمان قتله بسبب خيانته، والمسرحية تنتهي بعد ذلك بانتصار إلفي بك.

والمؤلف قصد بكتابة مسرحيته ـ كما يقول بعض النقاد ـ هو إلقاء بعض الضوء على الحالة السائدة بين المسلمين من تنافس وتناحر فيما بينهم على السلطة في أوائل القرن التاسع عشر، خصوصاً في مصر[1].

ومن المسرحيات التي تتحدث عن قصص الحب والغرام عند سلاطين وملوك المسلمين: ما كتبه توماس نوبل Thoms Noble عام ١٨١٧م، منها مسرحية «الصيادون الفرس» أو «وردة جرجستان» The Persian Hunters : or The Rose of Gurgistan، وهي مسرحية غنائية (أوبرا) مكونة من ثلاثة فصول.

وفي مقدمة المسرحية تحدث المؤلف عن الفن المسرحي وأهميته، فقال: إن المسرحيات الغنائية الإنجليزية الحديثة يتخللها بعض المقطوعات الغنائية، وهي تختلف عن أنواع التأليف المسرحي الأخرى[2]، ثم

---

(١) انظر: Byron Porter Smith , Islam in English Literature , p.215

(٢) انظر. Thomas Noble , The Persian Hunters : or The Rose of Gurgistan,Sherwood Neely and Jones , London , 1817, p.viii

يقول: إنه رغب في كتابة هذه المسرحية؛ لأنه يظن أن فيها تصويراً لالتقاء العواطف بالمحبة والأحاسيس المزوجة بالصدق والعفة، ولذا كتب هذه المسرحية التي يعتقد أنها قد تلائم الذوق التركي، الذي يهتم ويحفظ للإنسانية كرامتها.

وشخصيات المسرحية بعضها من الفرس، وهم: حامد سلطان منطقة طوروس، وعبد الله وزيره وأمين سره، وعمر قائد الجيش، وحسين رئيس الصيادين، ومراد مساعد رئيس الصيادين، وسليم أحد الصيادين، وأخيراً المفتي. وبعض الشخصيات من التتار، وهم: قوزندي، وإيقاسم، إضافة إلى شخصيات النساء، وهن: زيلندا، وزوديا، وليشا.

وموضوع المسرحية يتكلم عن السلطان حامد، الذي كان في رحلة صيد في البراري، وبينما هو يصطاد أبصر فتاة من الفلاحات ووقع في حبها، وهي زيلندا وردة جرجستان، وحيث إن السلطان أخفق مرة في مغامرة حب، فإنه في هذه المرة كان يختبر صدق زيلندا في حبها بطرق شتى، وبعد أن تأكد حامد السلطان من صدق محبوبته، قرر الزواج منها، ولكن اتضح بعد فترة أن الفتاة ابنة أحد القواد من التتار، وكان بعض اللصوص قد اختطفها، وهنا يسخر المؤلف من السلطان حامد، ويضعه في موقف الازدراء، ويصور زيلندا في موقف الأسى والألم. والمؤلف بالرغم من حديثه عن السلاطين بشيء من الاعتدال، إلا أنه كان يسخر من الشخصيات الإسلامية والناس المذنبين، كما فعل

بالنسبة للمفتي الذي أحب أخت زيلندا، فكان يصف المفتي وأمثاله بالزندقة والمروق . . . إلخ[١].

لقد كتب إسحاق براندن Isaac Brandon مسرحية غنائية بعنوان «قيس: أو حب في الصحراء» Kais or Love in Desert صدرت عام ١٨٠٨م. وموضوع المسرحية مستوحىً من القصة الغرامية التي كتبها إسحاق ديزائيلي بعنوان «مجنون ليلىٰ» Mejnoun and Leila . والحبكة العامة للمسرحية تصور الشاب قيس وقد أحب ليلىٰ ابنة أحد الأمراء، وعندما رفض والدها طلب قيس الزواج منها هجر بلده وخرج منها، وما لبثت ليلي أن هربت إلىٰ الصحراء في طلب قيس، ولكنها وقعت في أسر أحد اللصوص، وقد وصل الخبر إلىٰ قيس، فسارع إلىٰ نجدة محبوبته وإنقاذها.

إن جميع الشخصيات في المسرحية تحمل أسماءً عربية أولها قيس وليلىٰ، ثم المنصور، وسالم، وراشد، وأحمد، وعمر، وحسن، والجوقة من العرب مع بعض الشخصيات الإغريقية، مثل روزيلا وصيفة ليلىٰ ومحبوبها الموران، وأحداث القصة كلها تجري في مصر علىٰ مقربة من نهر النيل[٢]، وكل الأحداث تجري حول حب قيس لليلىٰ، كما تصورها الأبيات التالية :

Kais to burning sands is Fled
And desert rocks now bear his head.

(١) المرجع السابق، ص ٣٩ـ ٤٠.

(٢) انظر: Isaac Brandon , Kais , or Love In Desert, London ,1808,p.1

For love of Leila he flies-
For love of Leila he dies-
Seek him , and bid his hope arise. (١)

ويلاحظ أن المؤلف اختار للمسرحية عنوانين، أحدهما «قيس»، والآخر «حب في الصحراء»، والعنوان الآخر لعله يحمل في طياته نوعاً من الازدراء، وكأن المؤلف يشير إلى أن العرب لا يمكن أن تكون لهم عاطفة وأحاسيس، فكيف يكون عندهم مشاعر بالحب، وهو يشير بكلمة الصحراء إلى قسوتها وشدتها، وهي مكان يتعذر فيه الحب. كما يلاحظ أن المؤلف، مع أنه جعل قصة المسرحية تصور موضوع الحب بين قيس وليلى، إلا أن عقليته الصليبية أبت إلا أن تمس الإسلام بسوء، ففي إحدى القصص الجانبية في المسرحية، وهي قصة حب روزيلا وصيفة ليلى ومحبوبها الموران، نجد الإشارة إلى ضريح النبي ﷺ، وأنه معلق بين الأرض والسماء، وكذلك إلى الإساءة إلى الرسول ﷺ ومعجزاته، وأنه عاش يتيماً .... إلخ.

At Mecca where Mahomet swings in the air,
See-saw with a termulous motion,
Old Mustafa Mumble thus muttered his prayer
While his nose touch the earth with devotion
Dear Prophet how funny,
For men without mmey
To get Milk and honey. (٢)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣.

ولقد كتب توماس دبدن Thomas John Dibdinمسرحية اوادبرا كوميدية في عام ١٨١٢م بعنوان «البندقاني أو الخليفة السارق» IL Bon-docani or The Khalif Robber ، والمسرحية هزلية غنائية في ثلاثة فصول، وبها عدد من المقطوعات الشعرية . والمسرحية قصيرة جداً تجري أحداثها في الشرق، وجميع شخصياتها عربية مسلمة، ومنها : هارون الرشيد، وشبيب أحد التجار، وابنه عبد الله، وابنته دارينا، وحسن الشاب العاشق، وحازب، وابنته سليمة، ومسرور رئيس الحجاب، وقاضي بغداد، ومحمد أحد الحراس، وغريب مولىٰ.

وموضوع المسرحية يصور هارون الرشيد في ملابسه الرثة التي يتنكر فيها حين يخرج ليلاً؛ ليكسب عطف الفقراء بما يتصدق عليهم، وكذا تفعل زوجته الملكة دارينا، وأن هارون الرشيد كان كريماً وشجاعاً، إذ أنه استطاع أن يشتري سليمة التي أسرها بعض جنود العرب، ويعيدها إلىٰ محبها عبد الله شقيق دارينا، والمؤلف يعجبه الإسلام بنفس القدر الذي يعجبه الدين اليهودي والدين النصراني ، ولكنه يستنكر ذلك التنافر بين أصحاب تلك الأديان، فيقول :

Though Turks , christians and jews , so flatly refuse
With each other to fast , eat or drink, ---
Yet they all hold it right in one faith to unite
And the faith they hold fast in the chink. (١)

إن الكاتب هنا يدعو إلىٰ وحدة الأديان وتعايشها، وهو بذلك يقصد

(١) انظر : Thomas Dibdin, Il Bondocani: or The Caliph Robber, Longman & Rees, London,1901, p.14.

القضاء على الإسلام، وكأن ظاهر دعوته الخير والسلام.

ومن المعلــوم أن توماس دبدن كتب عملاً مسرحياً مشتركاً مع جون ميلر عام ١٨١٤م بعنوان «الصنم التاسع أو رجـل إيرلندي في بغداد» The Ninth Statue: or The Irishman in Bagdad. والمسرحية غنائية قصيرة جداً، بها فصلان رئيسان وعدد من المشاهد، تصور حياة المسلمين في الشرق كما يتضح في مقدمة كل فصل (١).

ومعظم شخصيات المسرحية عربية مسلمة، وهم: إيمان، ومحمد، وأبوبكر، ومحسن، وحصير، ونور الدين.

والواضح من عنوان المسرحية ومن مقدمتها أنها تحكي عبادة الأصنام والأوثان بين العرب، وانتقال العرب إلى عبادة شخص واحد من بني البشر، والذي يقوم بدوره في المسرحية رجل يقال له زين الأصنام، وهو رمز لشخص النبي محمد ﷺ، كما يتضح في حديث باندك لزين الأصنام حين يقول:

Powerful Prophet assist me to avoid the fearful precipice
To brink of which vice has led me. (٢)

وفي المسرحية إشارات إلى الفكر الشيعي، ووصف زين الأصنام بأنه ابن محمد عليه السلام؛ لأنه من أتباعه من المسلمين.

---

(١) انظر: Thomas Dibdin,The Ninth Statue: or The Irishman in Bagdad, London , 1814 , p.p. 5-27

(٢) المرجع السابق ص ٦

ومن الأدباء الذين كتبوا بعض المسرحيات في العصر الرومانسي، وفيها إشارات إلى الإسلام والمسلمين وإلى الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: وليم ديموند William Dimond، فقد كتب عام ١٨١٢م مسرحية بعنوان «آيثوب أو طفل الصحراء»: The AEthiop or : The Child of The Desert، وموضوعها يتحدث عن تنكر الخليفة هارون الرشيد وخروجه ليلاً؛ ليتحسس أمر الرعية، وصدف ذات ليلة أن المنصور أحد الحكماء في ذلك العصر دبر مؤامرة لقتل هارون الرشيد الذي قتل والد أورسامين. وقد عاضد المنصور في مؤامرته الشاب آيثوب، الذي ادعى أن بإمكانه أن يجعل المتآمرين لا يراهم أحد وهم ينفذون أمرهم، وأن يخفي حقيقتهم؛ لأنه كان يفعل ذلك مع الوزير البرمكي جعفر عندما كان يبحث عن الجناة والمجرمين، إذ كان يعجز عن رؤيتهم وأن كانوا أمامه. ويظهر المؤلف المفاجأة في المسرحية عندما يفصح آيثوب عن نفسه، وأنه هو هارون الرشيد. وانتهت المسرحية بالصلح بين هارون الرشيد والمنصور. والمسرحية تشبه إلى حد كبير مسرحية هنري ميلر بعنوان البرمكي، أو مأساة النشء التي تقدم ذكرها.

ويلاحظ أنه في إحدى القصص الجانبية، والتي تتعلق بأحد القضاة، وأحد الأمراء، وكلاهما كانا يحبان ابنة رعاة الإبل، وهي الفتاة زو، وكانت هذه الفتاة قد حبست هذين الرجلين في صندوقين لها، واستدعت زوجاتهم، وأعطت كل زوجة مفتاح الصندوق الذي فيه زوجها وكلمة السر لفتح الصندوق، والتي تشير إلى مكان مولد الرسول

ﷺ، وأنه المدينة المنورة، ومكان قبره وأنه مكة المكرمة، وذهب المؤلف إلىٰ أكثر من ذلك في أن القاضي عندما قدمت له الفتاة زو الخمر لم يشربها ؛ لأنها محرمة في الإسلام، فقالت له: ولكني لا أحرمها فاشرب، فشرب كافراً بدين الله عندما قال لها: أنت ديني الجديد :

Cadi : Wine ! Mahomet forbids it.
Zoe : Zoe recommends it!
Cadi : Enough ! though art my new faith. (١)

و المؤلف هنا يشير إلىٰ أن الإسلام دين غير قوي، وغير ثابت، والمسلمون إيمانهم متزعز، فهم يتركون الدين لقاء شهوات الدنيا وملذاته من خمر ونساء ومال.

ولقد كتب ديموند مسرحية هزلية ساخرة Farce أخرىٰ بعنوان «أبو حسن» Abu Hassan ، وهي مستوحاة من إحدىٰ قصص ألف ليلة وليلة، وموضوعها يدور حول شخصية «أبي حسن» أحد المقربين للخليفة المسلم، وقد تزوج أبو حسن سليمة إحدىٰ المقربات لدىٰ زوجة الخليفة، وكلا الزوجين فاز بالحظوة الكبرىٰ لدىٰ الخليفة وزوجته، ولكن ما لبث أن أصبح هذان الزوجان فقيرين، بسبب تبذيرهما وبذخهما، وغضب الخليفة وزوجته عليهما. لكن أبا حسن عمد إلىٰ وسيلة يستعيد منها وُدَّ الخليفة ورضاه عنه، فأبدىٰ ذات يوم حزنه الشديد، وأخبر الخليفة أن زوجته قد توفيت، وهكذا صنعت زوجة أبي حسن التىٰ ادعت للسلطانة

---

(١) انظر: William Dimond and John Miller , The AEthiop : or The Child of the Desert , New York , 1813 , p.26.

زوجة الخليفة أن زوجها قد توفي، إلىٰ أن رضي الخليفة وزوجه عن هذين الزوجين، فأظهرا حقيقة أمرهما، وضحك الخليفة من ذلك وفرح لحسن تصرفهما . والمسرحية فيها كثير من عبارات الشتم والازدراء، واعتبر أن المسلمين أفاكون كذابون، كما يصور ذلك أبو حسن وزوجته.

كما أن ديموند كتب عام ١٨٢٧م مسرحية بعنوان «السرايا» The Seraglio، وهي مسرحية غنائية. والسرايا: قصر لأحد السلاطين الأتراك بإحدىٰ الجزر الإغريقية التي كانت تحت الحكم التركي، وذات يوم كانت إحدىٰ السفن تمر أمام السرايا، وبها فتاة جميلة، اسمها كونستانزا، في طريقها لمقابلة خطيبها بلمونت، وقد هجم بعض القراصنة علىٰ السفينة، وأسروا من السفينة من أسروا، ومنهم تلك الفتاة التي بيعت إلىٰ الباشا التركي الذي أحبها وهام بها، وقد علم بلمونت بذلك، فجاء متخفياً في ملابس أحد الفنانين؛ ليدبر أمر هربه مع خطيبته، ولكنهما فشلا في ذلك.

والمؤلف يصور المسلمين علىٰ أنهم لا يحسنون معاملة الناس من غير دينهم ، فهم غلاظ شداد.

وفي المسرحية الغنائيه بعنوان «علي باشا أو الخاتم المنفوش» Ali Pasha or The Signet-Ring التي كتبها جون هاورد باين John Howard Payne عام ١٨٢٣م نجد الحديث في العصر الرومانسي يستمر عن الإسلام والمسلمين، وبالرغم أن المسرحية قصيرة جداً، إلا أنها تتضمن أربعة فصول، وقد علق الناشر في مقدمة المسرحية علىٰ أن المؤلف أجاد

في تصوير الشخصية المسلمة، الممثلة في التركي المسلم بعمامته ولباسه الشرقي المميز، وسلوكه المعروف.

وشخصيات المسرحية معظمها من المسلمين، منهم علي باشا، وسليم، وحسن، وإسماعيل، ومختار أحد الأفارقة، وهيلانا، ومواطن آخر من المسيحيين.

وحبكة المسرحية تحكي ما حصل لعلي باشا من حصار وهو في مدينة يانينا، وعندما طال الحصار قرر أن يفجر القلعة، ويهلك كل من فيها لينجو بنفسه إن أمكن أو يموت مع من سيموت، ويتخلص من ذل الحصار. والمؤلف هنا يوضح مدىٰ غباء حكام المسلمين وولاتهم في اتخاذ قرارتهم.

وأخيراً فهناك مسرحية ولكر C. E. Walker بعنوان «سقوط الجزائر» The Fall Of Algiers صدرت عام ١٨٢٤م، وقد استوحىٰ المؤلف موضوعها من قصص رحلات اللورد إكسموت إلىٰ الجزائر عام ١٨١٦م، وهي قصة شاب اسمه الجرنون، الذي أحب الفتاة أماندا برغم رفض والده الأدميرال، ثم تزوج الجرنون من تلك الفتاة، وهرب معها إلىٰ الجزائر، حيث وقعا في أسر أحد المسلمين، الذي بدوره أحب أماندا وحاول التخلص من الجرنون، ولكن مجيء أسطول بريطاني بحري بقيادة الأدميرال والد الجرنون أدىٰ إلىٰ استعمار الجزائر، وإنقاذ المحبين، والتأم شمل الابن مع أبيه، والمسرحية تصور ضعف المسلمين، وسهولة محاربتهم؛ لجهلهم بفنون القتال والحروب.

وبهذه المسرحية تنتهي حركة الرومانسية في الأدب الإنجليزي ، وبكل ما احتوته من أعمال أدبية تحدثت عن الإسلام والمسلمين؛ ورسول الإسلام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بغير صدق ، وبغير وجه حق .

الباب العاشر

العصر الفلكتوري

العصر الفكتوري

١٨٣٠ ـ ١٨٨٠م

ينسب العصر الفكتوري في الأدب الإنجليزي إلى الملكة فيكتوريا التي اعتلت عرش بريطانيا مدة طويلة منذ عام ١٨٣٧ وحتى عام ١٩٠١م. والمعروف أن الأدب والحركات الأدبية لم تكن قط لتخضع إلى العصور السياسية، وتحديد فترات العصور الأدبية لم يكن يرتبط بأزمنة تولي الملوك والرؤساء سُدَّةَ الحكم، ولكن لأن هذه الملكة كان لها أثر كبير في المجتمع البريطاني، وفي حياة الناس، وامتد هذا التأثير ليشمل الأدب، وذلك بسبب شخصيتها الفذة، كما شمل تأثيرها جوانب التطور الديني، والعلمي، والاقتصادي، والسياسي، والاجتماعي. في مظهر التحرر الكاثوليكي عام ١٨٢٩م، وإنشاء أول خط لسكة الحديد والقطارات عام ١٨٣٠م، وظهور الإصلاحات العامة في النظم النيابية عام ١٨٣٢، وإلغاء الرق في المستعمرات البريطانية عام ١٨٣٣م[1].

كما أن الأدب في هذه الفترة تميز بنقلة واضحة في اتجاهاته، بسبب مشاركة الملكة فكتوريا جميع طبقات الشعب حياتها، إذ تحول الشعر من نمط الرومانسية وأسلوبها، وفردية الهواجس الإبداعية إلى المشاعر الإنسانية وتصويرها، كما أن النثر ـ وعلى الأخص النثر القصصي ـ أخذ

---

(١) كذلك كان الحال في العصر الذهبي للأدب الإنجليزي في القرن السادس عشر في عهد الملكة إليزابيث الأولى، وفيه ظهرت أعمال شكسبير المسرحيه، وكذلك الأمر في عصر التجديد عند عودة الملكية إلى بريطانيا بعد عودة الملك تشارلز الثاني من منفاه في فرنسا، وظهور أعمال درايدن وبوب وغيرهما.

في أداء رسالته الإصلاحية الأخلاقية، وتصوير الإنسان والمجتمع ونقده بصورة أدق وأوضح، فكانت الرواية من أوسع وأهم الأجناس الأدبية التي تصدَّرت الأدب في العصر الفكتوري، كما يرىٰ ذلك في أعمال ديكينز وإليوت وثاكري، وبتلر، وترلوب، وميرديث، والأخوات برونتي والسيدة جاسكل، وآخرين.

وإن كان الأدب في العصر الفكتوري - كما يعتبره بعض النقاد - امتداداً للعصر الرومانسي، إلا أن هذا الامتداد انسلخ من تأثير الرومانسية، ليتمتع بالاستقلال والحرية بطابع متميز، بحيث خاضت طبقات المجتمع الفكرية المختلفة في الحوار في مسائل الخلافات بين الدين والعلم، بين التصوف ومعنىٰ الحياة الروحية وحياة العقل ومسائل حياة الإنسان في المجتمع، وعاداته وتقاليده، ومناقشة حاجات الإنسان بصفته محور الحياة علىٰ هذه المعمورة، وسبب عمارتها والعيش فيها.

ومن المعروف أنه خلال فترة حكم الملكة فيكتوريا ازدادت رقعة المستعمرات البريطانية خاصة، والمستعمرات الأوربية عامة في إفريقيا، والشرق، وبلاد المسلمين، إذ انتشر سلطان فرنسا في كثير من الدول الإفريقية، وكانت هناك بعض الحملات الاستكشافية والعلمية لمصر، ممثلاً في حملة نابليون، كما أن بريطانيا بسطت نفوذها في بلدان كثيرة في إفريقيا والهند، ذلك أن شبه القارة الهندية كانت بمثابة الدرة التي لا يقدر لها ثمن بالنسبة لبريطانيا، حتىٰ إن الملكة فيكتوريا كانت تسمىٰ ملكة بريطانيا وإمبراطورة الهند، وكانت الهند تسمىٰ جوهرة التاج البريطاني،

لما للهند من أهمية اقتصادية وسياسية.

ومع بداية حكم الملكة فيكتوريا بدأ ازدياد النفوذ اليهودي في الحكومات الأوربية، وعلى الأخص في بريطانيا، ولا أدلَّ على ذلك من تولي بنيامين دزرائيلي مقاليد السلطة والحكم، وتوليه رئاسة الوزراء مرتين؛ المرة الأولى لمدة أحد عشر شهراً عام ١٨٦٨م، والثانية لمدة سبعة أعوام من عام ١٨٧٤م وحتى عام ١٨٨٠م، وقد كان صديقاً حميماً للملكة فيكتوريا. وتأثير اليهود ونفوذهم في الحكومات الغربية ساعد على التخطيط للقضاء على الخلافة العثمانية، والتمهيد إلى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، واستعمار الدول الإسلامية، وهدم أخلاق الأمم والشعوب، واستبدال الشريعة الإسلامية ونظام الشورى بنظام المجالس النيابية والقوانين الوضعية والاتجاهات العلمانية. كما أن نفوذ اليهود ساعد على إيجاد مشكلة إسرائيل ومشكلة العرب مع اليهود، وتحريض العالم على المسلمين، بقصد ضعضعة المسلمين وتفريقهم، لأن اليهود ومن شايعهم يعلمون أن الإسلام تأتي قوته من تطبيق شرائع القرآن والسنة المطهرة، ومكان اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم.

وخلال فترة حكم الملكة فيكتوريا بدأت حركة الثورة الصناعية في ازدياد، وأقبل العلماء على الكشوفات العلمية، وكثرت الرحلات الجغرافية، خصوصاً إلى بلدان العالم الإسلامي، من ذلك رحلة الفنسو لامرتين Alphonso Lamartine التي قام بها خلال عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣م إلى سوريا وفلسطين مع زوجته وابنته في سفينة خاصة، وقد استقر به

المقام في بيروت، حيث عاش حياة هادئة رغيدة ، وقد كتب يصف رحلته هذه في كتاب بعنوان «رحلة إلى الشرق» Voyage en Orient صدر عام ١٨٣٥م، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان «الحج إلى الأراضي المقدسة» A Pilgrimage to the Holy Land . وقد طبع في جزئين في نيويورك عام ١٨٤٨م، والشروحات المتضمنة في وصف رحلاته ليست دقيقة، إذ إنها خُلطت بعنصر الخيال والمبالغة.

وكان لامرتين من المهتمين بالأدب العربي، خصوصاً في العصر الجاهلي، إذ حاول ترجمة بعض قصائد عنترة بن شداد إلى الفرنسية.

وفي حديثه عن الإسلام امتدح الكاتب صدق المسلمين في عبادتهم وأدائهم للفرائض، ومدى تسامح المسلمين. كما تحدث عن نظام الزكاة والنظم القضائية، إلا أن لامرتين انتقد الإسلام ، وهاجمه في مسألة الإيمان بالقضاء والقدر؛ لنظرته الخاطئة الجبرية في هذه المسألة [(١)].

وكانت الأديبة الفرنسية والمؤرخة المشهورة جوليا باردو Julia Pardoe قد زارت إستانبول عام ١٨٣٥م لمدة خمسة عشر شهراً ، ثم ألّفت كتابها الذي بعنوان «مدينة السلاطين وأخلاق الأتراك الاجتماعية» City of The Sultans and Domestic Manner of the Turks ، والذي ظهر عام ١٨٣٧م وفيه تحدثت المؤلفة عن المسلمين وعن الشخصية المسلمة، وقد حاولت ـ كما تزعم الكاتبة ـ أن تكون صادقة في حكمها، ومنصفة في قولها، وانتهت إلى القول بأن المسلم لا يحب اللهو والعبث، ولا المخاصمة ولا

(١) انظر : Alphonso Lamartine , A Pilgrimage to the Holy Land , New York, 1848 , vol.2 , p.p 49-86

الشتم، ولكنه لا يحس بالذنب إذا قتل أو أنه سرق وبريء مما فعل، ويعلم أن الفقر جريمة، وانتهت أخيراً إلى القول بأن المسلم خائن غدار أشِرٌ أفّاك [١].

وتستطرد المؤلفة لتتحدث عن المرأة المسلمة، وما تتمتع به من حرية تامة في ظل الإسلام، وأنها دائماً تكون مع بنات جنسها، ولا تختلط مع الرجال، والمرأة المسلمة تنظر إلى المرأة الأوربية على أنها مستعبدة، ولم تتحمل الكاتبة هذا الأمر بالنسبة للمرأة المسلمة، فراحت تغمزها بمسألة تعدد الزوجات، وما عليه طباع الرجال المسلمين وحبهم للتعدد والجنس [٢].

ومن الرحالة المستشرقين الذين عاشوا في بعض البلدان الإسلامية، وكتب عنها إدوارد لين Edward Lane الذي ترجم كتاب «ألف ليلة وليلة» في الفترة من ١٨٣٨ إلى ١٨٤٠م، وقد عاش في مصر مدة خمسة أعوام على فترات متقطعة تحت اسم مستعار، وهو اسم «منصور أفندي». وقد ألف كتاباً عن مصر والمصريين بعنوان «أخلاق وعادات المصريين الحديثة» Manners and Customs of Modern Egyptians صدر عام ١٨٣٦م. وقد تحدث لين عن المسلمين وأنه لم ير كتاباً قط إلا وصُدر بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأن المسلمين حريصون كل الحرص على ألا تقع كتبهم ـ خصوصاً الشرعية منها ـ في أيدي الكفار.

(١) انظر: Julia Pardoe , City of The Sultans and Domestic Manners of The Turks , London , 1854 , p.242

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ ، ١٤٢

كما أن الرحالة الإسباني دومينجو باديا لبليش قد تمكن من زيارة مكة المكرمة تحت اسم مستعار، هو علي بك، وادعى أنه من سلالة العباسيين، وقد بدأ زيارته إلى البلاد الإسلامية عام ١٨٠٣م، وزار مكة المكرمة عام ١٨٠٧م ، وقد تأثر كثيراً عندما رأى حجاج بيت الله الحرام قد أتوا من كل فج عميق لأداء مناسك الحج، وتحقيق الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة. لقد رأى لبليش أمماً وشعوباً جاؤوا تلبية لنداء الله؛ يقول لبليش: «لا يوجد دين يعطي الحواس والعقل نظرة بسيطة ومؤثرة ذات جلال وعظمة كما هو دين الإسلام، لا واسطة بين الإنسان وربه، والجميع متساوون عند خالقهم»(١).

لم تكن هذه هي نظرة هذا الرحالة الحقيقية عن الإسلام، إذ أنه بعد هذا المديح للإسلام، ووصف المسلمين وأحوالهم خلال أيام الحج، نجده في مكان آخر يعرض بنساء المسلمين، وأنهن مهينات فاحشات متفسخات، يجلسن على نوافذ بيوتهن، وهن عاريات يتعرضن للرجال(٢).

ولما يعلم هذا الرحالة من أهمية زمزم عند المسلمين ، فإنه يقول: إنه عاش في مكة المكرمة على خوف من المسؤول عن بئر زمزم، ذلك أن رئيس البئر كان ينفذ أوامر شريف مكة في تسميم من يريد الشريف

(١) انظر : D.B. Leblich, The Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria and Turkey between the Year,1803 and 1807, London, 1816,vol.2 p.67.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥.

الخلاص منهم. وكان رئيس البئر يعطي هؤلاء النفر ممن يريد الشريف الخلاص منهم ماء زمزم وبه شيء من السم ليموت، وقد سمّىٰ رئيس البئر بالسَّمَّام. وهنا نجد هذا المسيحي الحاقد يروج الدعاية ضد شريف مكة وضد ماء زمزم، الذي هو طعام طُعْمٍ وشفاء سُقْمٍ، ليحذر الناس من شربه بسبب أفكاره المغرضة (١).

وقد حصل أنه بعد مغادرة لبليش مكة المكرمة كان الرحالة السويسري جون لويز بركهاردت قد تم توظيفه بمنظمة خاصة لاستكشاف الأراضي الداخلية لإفريقيا عام ١٨٠٩م، وبدأ عمله في نيجيريا لاكتشاف نهر النيجر، ولكنه لم يتمكن من تحقيق الأهداف المطلوبة، وما لبث أن مات عام ١٨١٧م في القاهرة، حيث كان ينتظر قافلة خاصة ترافقه إلىٰ مدينة فزان بليبيا. وخلال الفترة من ١٨٠٩م وحتىٰ ١٨١٧م قام بركهاردت برحلات متعددة إلىٰ سوريا، وفلسطين، وسيناء، والبتراء وفي عام ١٨١٤م ذهب للحج إلىٰ مكة المكرمة باسم الشيخ إبراهيم بن عبد الله، وفي طريقه إلىٰ مكة كان ضيفاً علىٰ محمد علي باشا، وقد ذهب إلىٰ الطائف أيضاً. ففي الحجاز تعرض إلىٰ محورة علمية مع بعض الحكماء واختبرت معلوماته عن الإسلام، فوجد ملماً بذلك (٢). كما أنه زار المدينة المنورة، وقبر الرسول ﷺ، ويقول في هذا الشأن: «إن القصص والأقوال الواردة عن ضريح الرسول، وأنه معلق في الهواء مسألة غير معروفة في

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) المرجع السابق.

الحجاز، ولم أجد أحداً يقول بذلك في أي جهة من الشرق»[١].

وعرف الإيطالي فيلبوبانانتي Fillippo Pananti برحلته التي قام بها على ظهر سفينة إنجليزية إلى الجزائر، حيث وقع في الأسر هناك عام ١٨١٨م من قبل القراصنة الجزائريين. وقد كتب عن هذا الحدث عرضاً يصف رحلته بعنوان «قصة الحياة في الجزائر» Narrative of a Residence in Algiers، فوصف قصة أسره والحياة التي يعيشها الأسير والمملوك في الجزائر، وكيف للإنسان أن ينقذ نفسه من الأسر، وإذا كان مع الإنسان شيء من الحلي والجواهر ذهباً أو نحوه، فلا عليه إلا أن يخفي ذلك عند النساء لأن القراصنة في الجزائر يعدون المرأة شيئاً مقدساً وطاهراً، لا يمكن أن تمس، ولذا فلا تفتش، فبذلك يسلَمُ ما لدى الإنسان من حُليٍّ وجواهر. وعلى المملوك أن يجل سيده، وعلى النصراني ألا يثير حفيظة المسلم بإظهار طقوس النصرانية أمامه[٢].

ومن المذكرات العامة التي ظهرت عام ١٨٣٩م جملة ما كتبه السفراء، ورجال الأعمال والبحارة والتجار عن بلاد الإسلام، نذكر من ذلك: ما كتبه السفير البريطاني في الجزائر هنري بلانكلي Henry Blank-ley، وقد عمل سفيراً لبلاده بالجزائر من عام ١٨٠٦ حتى ١٨١٢م، وقد ألف كتاباً بعنوان «ستة أعوام من الحياة في الجزائر» Six Years Resi-

(١) انظر: John Lewis Burckhardt, Travels in Arabia, London, 1829, p15

(٢) أنظر: Fillippo Pananti, Narrative of a Residence in Algiers, London,1818 .pp.354-355.

dence in Algires، وفيه وصف المسلمين بكل سوء، وأنهم قد يرمون ممثلي الحكومات وقناصلها في السجن إذا ما تأخروا في دفع المستحقات.

كما أن المبعوث البريطاني هارفورد جونز Harford Jones الذي كان يعمل لصالح الحكومة البريطانية في إيران كتب عام ١٨٣٤م كتابه المشهور «عرض بعثة جلالة الملك إلى البلاط الإيراني في الأعوام ١٨٠٧ حتى ١٨١١م» An Account of His Majesty's Mission to the Court. of Persi in the year 1807-1811، وقد كان برفقة هذا المبعوث الأديب الإنجليزي جمس موريز James Morier (١٧٨٠ ـ ١٨٤٩م)، الذي كتب مجموعة القصص بعنوان «مغامرات حاجي بابا الأصفهاني» The Adventure of Hajji Baba of Asphan، كما أنه نشر جزأين لكتاب سجَّلَ فيه انطباعاته عن الرحلات إلى الشرق، وخصوصاً إلى إيران، وقد ظل موريز ممثلاً للحكومة البريطانية في إيران منذ عام ١٨١٢ وحتى عام ١٨١٦م. والمعروف أنه خلال رحلته إلى استانبول كان يرافقه المرزا أبو الهالس أول مبعوث إيراني إلى بريطانيا.

وأخيراً فإن كثيراً من كتب الرحلات التي صورت البلاد الإسلامية خلال العصر الفكتوري كانت باعثاً للحديث عن الأدب والسياسة، والأعمال العسكرية، والتاريخ، والتجارة، والصناعة، والتعليم، والإدارة، والقانون، وأنشطة التبشير. وقد استفاد من ذلك كثير من الأدباء، أمثال كيبلنج Kippling، وفورستر Forster اللذين كتبا عن شبه القارة الهندية، وعن تعدد الأديان بها، وتشعب النظم القبلية بها، إذ

إنهما استفادا من الكتب التي تحدثت عن الهند؛ مثل كتاب الأديبة الإنجليزية إماربورتس Emma Roberts التي كانت تعمل محررة في جريدة «المراقب الشرقي» Oriental Observer، وكذلك في صحيفة «بومباي جازيت للخدمات المتحدة» Bombay United Service Gazette.

لقد كتبت هذه المؤلفة كتاباً بعنوان «صور وسمات الهند مع صور للمجتمع الهندي الإنجليزي» Sketches and Characteristics of Hindostan With Sketches of Anglo-Indian Society، ظهر هذا الكتاب عام ١٨٣٧م، وتناولت المؤلفة فيه الحديث عن الشيعة في الهند، وتعاطف الهندوس معهم ضد السنة، ووصفت أهل السنة بالتعسف والجبروت[١].

وإذا ما انتقلنا من الحديث عن كتب الرحلات إلى الكتب التاريخية، فإنه يطالعنا عدد من الكتب التي ظهرت في العصر الفكتوري تتحدث عن الإسلام والمسلمين، وكانت معيناً للأدباء، ومادة مكتوبة زودت الأدباء بما كتبوا في موضوعات مختلفة عن الإسلام، وقد حاولوا بذلك إزالة الإسلام من على خارطة العالم الدينية، وهذا بمثابة حملة صليبية شنها كتاب التاريخ في هذه الفترة، أمثال ري ولسون Rae Wilson. وكتب وليم سايم William Sime كتاباً بعنوان «تاريخ محمد وأتباعه» The History of Mohammed and his Successors، وفيه رجع إلى بعض التنبؤات التي جاءت في بعض الأناجيل المحرفة، والتي تقول إن ملكاً ذا

---

(١) انظر. es of Emma Roberts, Sketches and Characteristics of Hindostan and Sketch Anglo-Indian Society ,London ,1837, vol.1 p 379

أخلاق شرسة يجيء إلى العالم ، وله تعاليم ضالة مظلمة يسود الناس . فعمد سايم إلى تفسير هذا القول بأن هذا الملك هو الرسول محمد ﷺ، وتعاليمه هي القرآن الكريم (١). ويستطرد المؤلف في الحديث عن الإسلام من خلال عرضه لبعض الاستشهادات المبتورة في الأناجيل بقصد تشويه صورة الإسلام والقرآن الكريم .

كما أن الصحفي الإيرلندي وليم كوك تايلر كتب كتاباً بعنوان «المحمدية ومذاهبها» Mohammetanism and its Sects صدر عام ١٨٣٤م بتمويل من جمعية إحياء المعرفة النصرانية . وكان هذا المؤلف يرى أن الإسلام «هرطقة» وبدعة نصرانية ابتدعها النبي محمد ﷺ ، وأن المكونات غير النصرانية في الدين الإسلامي جاءت من أصل الفلسفة الهندية ، التي تضمنت كل الأفكار التي أدت إلى فساد الحقيقة وتضليلها في الشرق . ثم يقول المؤلف إن نيات محمد النبي ﷺ ، في بدايتها كانت نيات حميدة ، ولكنه لما أدرك بعض النجاح في دعوته ، فإن ذلك النجاح دفعه إلى التدليس والدجل والاحتيال . ويستمر الكاتب يقول : إن أتباع محمد ﷺ في حكمهم زمن الخلافة الراشدة كانوا متميزين بالطغيان والاستبداد ، ولايعملون بمبدأ حكم الديمقراطية (٢) .

ومن الكتاب الذين ظهروا في أواخر العصر الفكتوري ، وكانت لهم

---

(١) انظر: William Sime,The Hisfory of Mohammad and his Succes-sars,Edinburgh,1836,P.289.

(٢) انظر William Cooke Taylor, History of Mohammetanism and its sects, London, 1834,p.vi.

اهتمامات بالشرق الإسلامي وتاريخه، نذكر المؤلف الإنجليزي كينج ليك A.W. Kinglake وقد اشتهر بكتابه «إيوثن» Eothen الذي ظهر عام ١٨٤٤م وهو تصوير عام لحياة الشرق في مناخه وعاداته وأديانه.. إلخ.

وهذا الكتاب قيمته العلمية ضئيلة إذا ما قورن بكتاب السير ريتشارد بيرتون R. Burton، الذي يهتم بنفس الموضوع. وهو عمل موسوعي يتحدث عن مكة المكرمة والمدينة المنورة والشرق عموماً بعنوان«سرد شخصي للحج إلى المدينة المنورة ومكة» Personal Narrative of Pilgrimage to Al-Madina and Meccah.

والكتاب يتضمن تسجيلاً وصفياً لبعض رحلات المؤلف إلى الشرق في آسيا وإفريقيا، وتركز الحديث عن المدينة المنورة ومكة المكرمة يقدم وصفاً لبناء المساجد وحياة الناس خلال شهر رمضان، ورحلة المؤلف إلى الأراضي المقدسة بحراً، ووصوله إلى ينبع ومنها إلى المدينة المنورة، حيث أعجب بحياة المسلمين وحفاوتهم في استقبال المسافرين الغرباء بحب وإخلاص، كما قام بزيارة لقبر الرسول ﷺ، والمسجد النبوي، وقدم له تخطيطاً مع دراسة تاريخية، ثم بين زيارته لمسجد قباء، ومنطقة أُحد، ووصف قرى المدينة وماحولها من هجر، ووصف نخيل المنطقة وتمورها الجيدة، وقد تخلل الكتاب ترجمة لبعض سور القرآن الكريم، ومنها سورة الإخلاص. وكان في حديثه ذلك يصف المسلمين بأسوأ الأوصاف وأنهم لا حضارة لهم، وأنهم دراويشُ مغفلون. كل هذا جاء به في الجزء الأول من الكتاب[١].

---

(١) انظر: Richard Burton,Personal Narrative of Pilgrimage to Al-Madina and Meccah, Dover puplication ,New York,1964.vol.1,p.p.291-301 , 308-314,416.

اما الجزء الثاني من الكتاب، ففيه الحديث عن مكة المكرمة، ووصف بيت الله الحرام، وماء زمزم، والكعبة، ووصف لمناسك العمرة والحج والطواف والسعي، ووصف مناسك الحج بدءاً من يوم التروية حتى أيام التشريق، وتحدث عن الفكر الصوفي في الإسلام، وعن بعض الملل والنحل، وأشار إلى بعض الكتب التي تحدثت عن الإسلام، ووصف مكة والمدينة، مثل كتاب جوزيف بتس Joseph Pitts، وكان بيرتون يتوج مقدمة أبحاثه بشعر المتنبي، حيث يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويختم كتاباته بتوقيع الحاج عبد الله [١].

وبالنظر فيما كتبه أدباء العصر الفكتوري عن الإسلام، نجد أن الشعر والرواية تميزا عن المسرحية بالإنتاج الكبير في هذا العصر عامة، وما كتب عن الإسلام بصفة خاصة. لقد وصلت الرواية أوجها وعصرها الذهبي زمن الملكة فكتوريا؛ إذ لمعت أسماء أدباء كثيرين في هذا المجال، أمثال ديكينز، والأخوات برونتي، وأنطونيو ترلوب، وجورج إليوت، وجورج ميرديث، وآخرين.

فلقد اشتغل ديكينز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠م) Charles Dickens بفن الرواية ردحاً طويلاً من الزمن، حتى ذاعت شهرته في الآفاق الأدبية، فكان كاتباً روائياً من الطراز الأول، مثل ما ذاعت شهرة شكسبير في الأدب المسرحي.

(١) المرجع السابق ج٢، ص١٥٩ ـ ٢٢٧، ٣٥٨.

لقد كتب ديكينز عدداً كبيراً من الروايات، وبتدفق، اهتم فيها بمعالجة القضايا الاجتماعية والإنسانية، حيث كان مرتكز كتاباته ومحوره الإنسان، وتردي الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية في بريطانيا، إذ جنَّد نفسه للإصلاح الاجتماعي، والنقد، والمطالبة بتصحيح القوانين والأنظمة، بما يستقرئه من ملاحظات، وما يصوره من واقع، بالرغم من أنه لم يتحصل على قدر كاف من التعليم، إلا أنه كان مؤثراً بكتاباته، وكانت ملامح السخرية والتهكم تظهر على ما يظهره من نقائص في المجتمع بسبب الفساد والانحطاط ، كل هذه الأمور الداخلية ـ فيما يبدو ـ شغلت هذا الروائي عن الحديث عن الإسلام والنيل منه، وإن لم يسلم اليهود من الكتابة عنهم؛ لأنه كان يعلم حقيقتهم.

إن تشارلز ديكنز في روايته Oliver Twist يرسم شخصية ذلك الطفل أولفر تويست الذي كان غير معروف الأبوين، وقد ولد وتربى في بيوت العمال، ونشأ في ظل ظروف قاسية، حيث الأبناء المنكورون يعانون قسوة الحياة في ظل تعلم مهنة من المهن تحت إشراف أحد المحترفين، وبعد خبرة طويلة وشاقة فيما تعلمه من مهن، هرب من المكان الذي كان يعيش فيه في لندن، وتصادف أنه وقع في أيدي عصابة من اللصوص، وكان رئيس هذه العصابة يهودياً جلفاً صلفاً عجوزاً، اسمه فاغن، وبقية أعضاء العصابة الرئيسيين، منهم بل سكيس، ورفيقته نانسي، ونشال آخر، وقد بذل جهداً كبيراً في سبيل جعل أولفر تويست لصاً محترفاً، ولكن ما لبث أن تم إنقاذ أولفر على يد السيد براون لو، ولكنه خطف مرة أخرى من قبل أفراد العصابة الذين وجدوا فيه ثمناً، ليحصلوا على مبلغ من

أحد الأثرياء الذي يدعىٰ مونكز، أو أن يستمر مع العصابة في أعمال السرقة، وتحت إشراف ذلك اليهودي فاغن.

هنا نلاحظ كيف أن ديكنز صوَّر اليهود علىٰ أنهم مجرمون ولصوص لا أخلاق لهم سوىٰ الإفساد والفساد، فهم أرادوا إفساد أولفر، وهم يفسدون بالسطو علىٰ الأبرياء ومنازلهم وممتلكاتهم، وديكنز بهذا يصور اليهود بأنهم انتهازيون، كما هو الحال في شخصية شيلوك في «تاجر البندقية».

وبالمثل، فإن قصة أنطوني ترولوب، وهي من القصص الاجتماعية، وعنوانها «الطريقة التي نعيش بها الآن» The Way We Live Now (١٨٧٥م) تظهر الرواية، بل تنتقد مظاهر الفساد في المجتمع من الناحية الأدبية والصحفية، والنواحي الأخلاقية والسلوكية، وبالذات الفساد الحاصل في النواحي المالية والاقتصادية، والذي تمركزت الأحداث فيه حول شخصية اليهودي ملموت Melmotte أحد الأثرياء في المجتمع، والذي يجد حوله ـ بسبب مكانته المالية ـ هالة عظيمة، وجمعاً من الناس، وإلا فهو مكان الاحتقار من الجميع، بسبب فكره المادي، وتأثيره السيىء علىٰ المجتمع، الأمر الذي يسبب الدمار علىٰ المجتمع، خصوصاً فيما يخص النظام الزراعي وإنتاج الزراعة، ويذهب ترولوب إلىٰ وصف اليهودي ملموت علىٰ أنه مجرم خمَّار يهودي ذليل متبجح [1].

---

(١) انظر: M.F. Modder , The Jew in the Literature of England to the end of the 19th century , The Jewish Publication Society of America , Philadelphia, 1939, P.P20-25.

وعلى النقيض من ذلك، فإننا نجد جورج إليوت (١٨١٩ ـ ١٨٨٠م) George Eliot الاسم الفني للكاتبة الإنجليزية ماري آن إيفانز Mary Ann Evans في كتاباتها عن اليهود، ذلك أن رواياتها كانت أكثر حماساً لتصوير اليهودي الطيب في الرواية الإنجليزية ،وتبرز فيها الشخصية الصهيونية بوضوح، وتعاطف تام من جانب الكاتبة، وتظهر شخصية اليهود في عددٍ من روايات جورج إليوت، منها رواية «طاحونة على الجدول» The Mille on the Floss، (١٨٦٠م) ورواية «ميدل مارش» (١٨٧٢م) Middle March ، وبالذات في آخر رواياتها «دانيل ديروندا» (١٨٧٦م).

ففي هذه الرواية رسم لبعض الشخصيات،ومنها جوندلن هارلث التي كانت ذات شخصية معنوية عالية وثقة تامة، وقد تزوجت هنليهي جراند كورت، وهو رجل متكبر وأناني لثروته ومكانته، تزوجته لأنه أنقذها هي وأمها من العوز الذي كان بهما، بالرغم من أنها تعلم أنه مرتبط بامرأة وأطفال، وقد استسلمت تحت تأثير دانيل ديروندا اليهودي واعتمادها على إرشاداته، الأمر الذي زاد من عنف زوجها، مما حدا بها إلى الثورة، حتى فكرت في قتله، والمعروف أن أصل أبوي دانيل ديروندا يحوطه شيء من الغموض، وما لبث أن اتضح أنه ينتسب إلى نبلاء اليهود كما تصوره جورج أليوت، وكذا حقيقة أخته وكلاهما ولدا يهوديين، الأمر الذي جعل جوندلن تحس بالذنب إزاء مقتل زوجها المأساوي بعد أن كانت تأمل كثيراً في دانيل ديروندا، الذي كان يكرس جهده في سبيل الحصول على المركز القومي اليهودي العنصري، وانشغاله

بتزويج أخته ماريا، كل ذلك جعل في نفس جوندلن كثيراً من اليأس والانصراف عن دانيل ديروندا، الذي دفعها لقتل زوجها.

إن رواية «دانيل ديروندا» نالت إعجاب الكثير من اليهود، مما حدا بعددٍ كبيرٍ من الجالية اليهودية الإنجليزية أن ترسل خطابات شكر وعرفان إلىٰ المؤلفة؛ لإخلاصها في مناقشة المزايا الحسنة في الشخصية اليهودية بصورة أكثر حماساً وحرارة عما سبق في رواياتها السابقة، ومع أن هذه الرواية راقت لليهود، إلا أن عدداً من النقاد في الأدب الإنجليزي يرون أن الرواية لا تنبثق عن التربية الأخلاقية والاجتماعية للحياة الفكتورية العليا[1].

وبالجملة، فإن هذه الرواية تعالج الصهيونية والشخصيات اليهودية علىٰ أساس المفهوم العريض للانتماء، وعدم الانتماء، كما تمثله شخصيتا جوندلن ودانيل ديروندا. بينما يجد القاريء للروايات السابقة، كما في «طاحونة علىٰ الجدول» The Mill on the Floss أن معالجة الشخصية اليهودية لم تكن بتلك القوة كما في «دانيل ديروندا»، وكذلك الحال بالنسبة لرواية «ميدل مارش» Middle March التي تتعلَّق بشخصية ويل لاديسلو، الذي يثير أمر سلالته نصف اليهودية نفور المواطنين واشمئزازهم.

إن الاهتمام بالصهيونية والشخصية اليهودية لدىٰ جورج إليوت لا بدَّ وأنه خاضع لتأثيرات يهودية، وضغوط معينة، كتلك التي لاقتها ماريا

(١) هاني الراهب، الشخصية اليهودية في الرواية الإنجليزية، ص ٥٧.

إدجورث في الرسالة التي تلقتها من مورديخاي من أمريكا.

يقول مورد: إن السير ريتشارد بورتون في مقالته المشهورة بعنوان اليهود والغجر والإسلام The Jew,The Gypsy and El-Islam، والتي ظهرت ضمن سلسلة مقالاته خلال الفترة ١٨٦٩ ـ ١٨٧١م، والتي أثَّرت في الرأي العام بسبب وصفه لليهود بأنهم أسوياء كرماء، يمكن أن يراهم الإنسان في كل مكان، عدا يوم الأحد في صلوات الكنيسة، ويمكن التخالط والتعايش معهم. ولقد أثر هذا الرأي تأثيراً مباشراً في جورج أليوت التي جارت فيه بورتون في رأيها عن اليهود، مما حدا بها إلى تضمين الآراء في روايتها، وقد ذهب مودور إلى أن ماعملته جورج أليوت ليس إلامسألة توفيق وتسوية Compromise تهدف به إلى تغيير رأي الناس عن اليهود[١]. وإذا لم يكن هناك ضغوط، أو تأثير على جورج أليوت، فلا بد أن تكون معالجتها للقضية الصهيونية والشخصية اليهودية نابعة من إيمان معين باليهودية، وهذا ما نرجحه، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار ما تؤكده إحدى الناقدات الإنجليزيات بقولها عن جورج أليوت: «إن حقوق العرب في فلسطين لم تدخل رأسها قط»[٢].

وإذا كانت نظرة جورج إليوت إلى اليهود نظرة إيجابية، ونظرتها إلى العرب والمسلمين نظرة سلبية، وهي ليست من جنس اليهود، وليست

(١) انظر: M.F. Modder , The Jews in the Literature of England to the end of the 19th century , 249-253

(٢) انظر: Joan Bennett , George Eliot Her mind and Her Art , Cambridge University Press , Cambridge , 1954 , p.18 .

من دينهم، فمن باب أولىٰ أن يتعسف كُتَّاب الأدب الإنجليزي من اليهود في النيل من الإسلام، كما يظهر ذلك جلياً في كتابات اليهودي البريطاني دزرئيلي.

إن بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤ـ ١٨٨١م) Benjamin Disraeli الذي تقلد منصب رئيس الوزراء البريطاني أكثر من مرة، وكان له تأثير كبير في السياسة البريطانية الخارجية، وهو من الذين مهدوا السبيل لتسلط اليهود في البرلمان الإنجليزي بعد ذلك، كما يتضح من وعد بلفور لليهود. لقد كتب دزرائيلي عدداً كبيراً من الروايات، يقول بعض النقاد: إنها للأغراض التعليمية والتربوية والتثقيفية، ولكن كان لها بُعدٌ آخر، هو ترويج الفكر اليهودي والصهيوني، حيث إن رواياته كانت مشحونة بالتعصب لليهود وفلسفة الدين اليهودي في السياسة، كما يظهر في رواياته السياسية Sybil و Coingsby و Tancard ، وقد يبدو للبعض أن دزرائيلي ترك اليهودية، واعتنق المسيحية بما له من إسهامات في بعث النصرانية ودعم الكنائس وعلىٰ الأخص الاهتمام بكنيسة إنجلترا التي استقلت عن الفاتيكان زمن حكم الملك هنري الثامن، وقد أشرنا إلىٰ ذلك في فصل سابق. ولعل دعم دزرائيلي هذا للكنائس، يحقق بعض أغراضه، ومنها زيادة الهوة بين الطوائف المسيحية؛ لأن النصارىٰ في نظر اليهود هم من الأميين الذين تُباح أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، ويجوز لليهود محاربتهم بشتىٰ الوسائل. وما اعتناق المسيحية عند دزرائيلي إلا كاعتناق بعض اليهود للإسلام، ليتمكنوا من تضليل

الناس، وليتستروا عما هم فيه ليكونوا بمأمن عن الناس، ولبعث روح الشقاق والنزاع بين أصحاب الأديان، وإشعال نار الحروب والقتال بين الناس، ولا أدلَّ على ذلك ما نراه في عنوان إحدى رواياته التي أسماها «تانكرد : أو حملة صليبية جديدة» Tancard: or The New Crusade، والتي ظهرت عام ١٨٤٧م.

وفي هذه الرواية كان للمؤلف توجه سياسي جديد، حيث جمع في روايته هذه ـ كما يقول ـ مسوغات جادة لادعاءات ومصير الجنس اليهودي بصورة ساخرة من رؤيا أحد الشباب الإنجليز .

وتانكرد الشخصية الرئيسية في الرواية هو لورد مونتاكيوت ابن أحد الأُسَر المحترمة، الملتزمة بالمذهب البروتستانتي، ووالداه دوق ودوقة بلمونت. وعندما كبر تانكرد، وآنس الرشد من نفسه، صار يفكر كثيراً في الأحوال الاجتماعية والدينية، وقد أفزع والديه عندما رفض قبول العضوية في البرلمان الإنجليزي، وأفصح عن نيته في زيارة الأرض المقدسة بفلسطين، ليستبين سر قارة آسيا، أي: سر الشرق، ولكي يستلهم في نفس الوقت الاتصال المباشر مع الرب. وقد فشل والدا تانكرد في ثني ابنهم عمَّا عزم عليه. وذهب تانكرد إلى القدس وإلى سيناء، وفيها اتصل تانكرد بالرب كما يزعم، وأن الرب طلب منه أن يبشر بمبدأ المساواة من خلال إقامة الحكومة الدينية، وقد كان تانكرد في ذلك الحين قد وقع في بعض المكايد التي دبرت له في لبنان من قبل الموارنة [1]. وهنا يظهر كره

(١) انظر: B. Disraeli , Tancred: or The New Crusade , Henry Colburn Publisher , London,1847 , p.p.238-239 .

دزرائيلي للنصارىٰ كما يشير هو نفسه إلىٰ الموارنة نصارىٰ لبنان، وأنهم قوة ضاربة لها تأثير كبير، وقد لبَّس المؤلف هذا القول بأن وصف نصارىٰ لبنان علىٰ أنهم من العرب؛ ليحول انتباه القارىء إلىٰ العرب والجنس العربي الذي يشكل معظم المسلمين، ولكي يبعد عن نفسه شبهة كرهه للنصارىٰ (١).

وفي حديث دزرائيلي عن المسلمين تحدث عن الدروز في لبنان، وما كان يتزعمه المسلم الدرزي فخر الدين. ومن هذه النقطة بدأ دزرائيلي بنشر أفكاره السامة عن الإسلام والمسلمين، وبدأ الدس عليهم، ويرىٰ أنهم السبب الأول في إعاقة نشر كلمة الله، وأنهم يضعون العراقيل ضد اليهود، وأن اليهود أمة تعمل للخير، وهي بريئة مما ألصق بها من تهم (٢).

وقد أوضح الكاتب الأحداث التاريخية لوضع سوريا ولبنان السياسي منذ حملة نابليون إلىٰ مصر عام ١٧٩٨م، وكيف استولىٰ محمد علي باشا علىٰ سوريا، وسطا عليها، وانتزعها من تحت النفوذ العثماني، ثم استعادة الحكومة العثمانية لها، وهكذا إلىٰ ان انتهىٰ الأمر بالاستعمار الفرنسي لسوريا ولبنان، وتوجه الاستعمار الفرنسي إلىٰ سحق المسلمين، وتتويج النصارىٰ في الحكم، كما يظهر ذلك في الرواية إزاء محادثة جانبية بين المسؤلين المستعمرين، حيث رأىٰ أحدهم أن يكون الأمير فخر الدين المسلم من أسرة الشهابيين أميراً علىٰ لبنان، في حين كان يرىٰ مسؤول آخر ألا يكون فخر الدين أميراً علىٰ لبنان؛ لأنه مسلم ملتزم،

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠٨.

وقد أومأ إلىٰ التزام المسلمين بأنه خطر علىٰ مخططات الاستعمار، وكان هذا المسؤول يرىٰ أن يكون الماروني رضا هو أمير لبنان، لأنه حظي بشرف المسيحية، وأنه سيحمي النصارىٰ في لبنان من سطوة المسلمين[(١)].

وهنا تظهر رغبة اليهود ـ كما يمثلهم رأي دزرائيلي في روايته ـ في أن يكون لبنان في قبضة النصارىٰ، لأنهم وسيلة تساعد علىٰ تنفيذ مخططات اليهود، وما أحداث حرب لبنان الأهلية التي استمرت خمسة عشر عاماً، أو تزيد منذ عام ١٩٧٤م وحتىٰ عام ١٩٨٩م، إلا دليل وشاهد علىٰ ذلك.

ويستمر الكاتب ليؤكد فكرته المرتكزة علىٰ أهمية حكم الموارنة للبنان، فيوضح نظرته إلىٰ جملة الطوائف الموجودة فيه، ومن ثم المقارنة بينها وبين الموارنة، فيقول: «لماذا؟ فكونك أميراً مسيحياً، فعليك يا إيفا أن تتذكر بأن تحكمي مع الموارنة النصارىٰ أسهل من تحكمي بأسرة آل متولي؛ لأنهم محمديون أي مسلمون، وكذلك أسرة الأنصار، فهم ملاحدة، وأما الدروز فلا شيء»[(٢)].

لقد عاب دزرائيلي علىٰ الطوائف المتعددة في لبنان، وكان عيب أسرة آل متولي هو أنهم مسلمون.

ويلاحظ أن المؤلف اختار اسم الأنصار لإحدىٰ الطوائف المسلمة التي يقول عنها في جملة تعليقاته في نهاية الرواية: إن هذه طائفة من الطوائف المسلمة، ولكنها تخلط في طقوسها الدينية بين تعاليم الإسلام وعبادة

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٢) المرجع السابق.

الطبيعة، ولعل المؤلف اختار هذا الاسم بقصد الإساءة إلى أنصار الرسول ﷺ من الأوس والخزرج، الذين ناصروا الرسول في الدعوة، وسطَّروا مواقف مشرفة من الفداء والحكمة، خصوصاً ضد اليهود، ولعلنا نتذكر حادثة حُكم سعد بن معاذ رضي الله عنه على بني قريظة من اليهود.

إن الأنصار أحباب رسول الله وأصحابه الذين ناصروه وآزروه الذين دعا لهم الرسول ﷺ بقوله: **(اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)**[1]. إنهم من المؤمنين الأوائل الذين بايعوا الرسول ﷺ على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله.

وأظهر مثال على الاعتداء على الإسلام والمسلمين في رواية «تانكرد لدزرائيلي»: هو إنكاره عالمية نبوة الرسول محمد ﷺ، إذ يقول: «إن بعض الأطباء بكنيستنا، الذين عرفوا حقيقة دور محمد ﷺ الديني، وإن رأوا أنه دين مقدس، إلا أنه دين محلي ومحدود»[2].

ومن القصص التي تحدث فيها دزرائيلي عن الإسلام: ما كتبه عام ١٨٤٦م بعنوان «حكاية آلوري العجيبة» The Wondrous Tale of Alroy وهي قصة تحكي الثورة اليهودية في بلاد فارس على الحكم السلجوقي في القرن الثاني عشر، واعتبر المؤلف أن آلوري بطل الحكاية هو هازم السلاطين المسلمين في إيران وبغداد، ورأى أن تلك هي الخطوة الأولى لتحرير القدس، ولقد أقام آلوري له دولة في بغداد، وتزوج ابنة السلطان

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابه ٤/ ١٩٤٨ برقم ٢٥٠٦.

(٢) انظر: B. Disraeli, Tancred,p.309

المسلم المنفي ، ولقب نفسه خليفة على المسلمين ، ولكن بعد وقت قصير ثار عليه أتباعهُ ، فوقع أسيراً لدى ألب أرسلان ، وقد أكد المؤلف في قصته هذه على أن أحداثها تسير وفق مباديء منظمة الكابالا السرية اليهودية من منطلقها العبري (١) . ومنظمة الكابالا سبق وأن أوضحنا أهدافها في الفصل الأول من هذا الكتاب .

وفي الحكاية يشير دزرائيلي في مقدمتها إلى أن آلوري رمز لليهود الشرقيين ، في تجمع أتباعه حوله يشبه تجمع اليهود حول داود عليه السلام زمن الحرب مع طالوت . ويلاحظ أن المؤلف تعرض للإسلام والمسلمين كثيراً في ثنايا القصة ، فهو يصور المسلمين في مواقف الخزي والهزيمة والتعرض إلى تعاليم المسلمين الدينية وعباداتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وأنها هرطقة وإفك . كما أنه يصور قوافل الحج والحجاج من مصر ويقول : إن هذه الشعيرة شعيرة الحج مرهقة (٢) .

نعم ، إن السفر قطعة من العذاب ، وكله مشقة ، ولكن الخروج لطاعة الله تهون في سبيله كل مشقةٍ وعَنَتٍ لدى كل من يريد أن يتعرض لفضل الله ورضوانه بقلب مُتَّقٍ منيب ، والحج من أركان الإسلام الخمسة ، ولكن لم يوجبه الله تعالى إلا على المستطيع القادر قدرة مالية وجسدية ونفسية ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ (٣) .

---

(١) انظر : B.Disraeli , The Wondrous Tale of Alory, Leipzig , 1846.p.6

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ .

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن أعمال دزرائيلي أن نذكر أحد كتبه، والذي تضمن مذكرات رحلاته إلى الشرق بعنوان: Contarini Fleming: A psychological Romance الذي صدر عام ١٩٢٧م.

والكتاب عبارة عن جملة خواطر كتبها المؤلف عن رحلاته إلى الأندلس، وتركيا، ومصر، وسوريا، وفلسطين. وقد أشار فليب كوديلا في مقدمته لكتاب دزرائيلي هذا بقوله: «إن الرجل - أي دزرائيلي - عاد وليس معه الذكريات فقط، بل معه الكثير من الأفكار والنيات. هذا الأمر الذي جعله واحداً من أقوى رؤساء الوزراء خلال عصر الملكة فكتوريا»(١). ولا ننسى أن دزرائيلي سمى كتابه «حكاية نفسية»، ولعل ما كتبه من خواطر في هذا الكتاب يعبر عما في نفسه من ناحية، وعن حقيقة النفسية الشرقية، ولا أدلَّ على ذلك قول دزرائيلي عن محمد علي باشا فيما وصفه به قوله: «إنه رجل طيب، معتمد على الله، ودائماً يردد عبارة: الله كريم»(٢)، والعبارة المذكورة عبارة ساخرة، تعيب توكل المسلمين، وأنهم سُذَّجٌ وأغبياء، وللأسف فإن التوكل أصبح الآن تواكلاً عند المسلمين، حتى تداعت عليهم الأمم، لكن الله المستعان وعليه التُّكْلان.

ويعد صموئيل بتلر (١٨٥٣ ــ ١٩٠٢م) Samuel Butler من أعلام الرواية في العصر الفكتوري، الذي اتسم بثورته ضد الكنيسة وتعاليم

---

(١) انظر: B. Disraeli , Contarini Fleming , A psychological Romance , Peter Davies, London , 1927 , p.322

(٢) المرجع السابق ص ٢ ــ ٤.

رجال الدين، بالرغم من أن والده كان قسيساً مشهوراً .

وبتلر اشتهر بروايته Erewhon التي كتبها عام ١٨٧٢م، وكذلك روايته The Way of all Flesh التي ظهرت بعد موته بعام واحد، أي عام ١٩٠٣م. وكان له اتجاه اشتراكي شيوعي، وقد غمز الإسلام، وأشار إليه في بعض مذكراته، إذ نجده يتحدث لصديق له عن الأديان، وقد قال: إن أهل كل دين يدركون قيمة دينهم وأهميته، وأهل كل دين عقلاء نحو دينهم. إلا أن بتلر رفض هذه الفكرة بما يخص الدين الإسلامي، فقال: «إن الاتراك (أي المسلمين) ليسوا عقلاء في دينهم» (١).

وفي إحدى مذكراته الخاصة برحلاته إلى الشرق، وبالأخص إلى تركيا واليونان في ربيع عام ١٨٩٥م يقول : إن المناظر الطبيعية هناك لم تسترع انتباهه كما استرعى سلوك المرشدين المسلمين انتباهه، وعلى الأخص المرشدين إسماعيل ويعقوب، اللذين جعلهما بتلر محور ارتكاز لانتقاد المسلمين، والهجوم عليهم حينما قال بأن المسلمين متخلفون، وليست لهم حضارة، وليس لهم أخلاق، وهم يأكلون بأيديهم كما كانت تفعل بعض الأمم القديمة. وفي خلال حديثه مع هذين المسلمَيْن كان بتلر يشيد بعظمة الغرب ورفعته، وكان يظهر الإسلام في مظهر مستهجن، ويركز على مسألة تعدد الزوجات (٢).

ويعد وليم ميكبيس ثاكري (١٨١١ ـ ١٨٦٣م) William Makepeace

---

(١) انظر: Henry Festing Jones , The Note-Books of Samuel Butler, London, 1912 , p.26

(٢)المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٥ .

Thackery، من مشاهير كتاب الرواية في العصر الفكتوري، الذي تناول في قصصه تصوير حياة الناس في الطبقات العليا والطبقات الأرستقراطية في المجتمع الإنجليزي، وقد بدأ عمله الأدبي بالكتابة في الصحف التي شارك فيها ببعض المقالات الأدبية الساخرة اللاذعة، مظهراً سيئات سلوك الناس من تلك الفئة من المجتمع التي أفسدها الثراء الفاحش.

وبالرغم من أنه أنتج عدداً من الروايات الاجتماعية، إلا أنه لم يتحدث في أي منها عن الإسلام، ولكن مع هذا فإن الإسلام لم يسلم من لسانه وقلمه، وعندما كتب كتاباً له ظهر عام ١٨٤٦م بعنوان «خواطر رحلة من كورن هل إلى القاهرة العظمى» Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo، وفي الكتاب نجد ثاكري أحياناً يمتدح الإسلام، وأحياناً يحتقره ويمتهن المسلمين، وفي معرض التعليق له على الحروب الصليبية، كما صورها السير والتر سكوت في روايته «الطلسم» وعلى الأخص الحملة الثالثة، وعن حقيقة صلاح الدين الأيوبي، وعن الملك ريتشارد قلب الأسد، فيقول: «وما أمكنني إدراكه من الرواية الموثوقة الحقيقية، فإن صلاح الدين كان لؤلؤة أو جوهرة ثمينة إذا ما قورن بآكل لحم البقر الفظ الملك ريتشارد، الذي به أضَلَّ السير والتر سكوت العالم بأسره»(١).

وإذا كان هذا هو موقف ثاكري الإيجابي عن هذا البطل المسلم، فلم تكن نظرته كذلك فيما كتب في نفس كتابه المشار إليه، عندما تحدث عن

(١) انظر: W.M. Thackery, Nolesofa Journey from Cornhill to Grand Cairo,Longmon, London,1846, p.183.

الجنة كما يصورها الدين الإسلامي في الكتاب والسنة. كذلك فإن ثاكري كان يرىٰ أن الإسلام يرتبط بقاؤه بوجود الدولة العثمانية، وبذهاب سلطة العثمانيين واضمحلالها ينتهي الإسلام، وهنا يصور ثاكري المسلمين وجنتهم علىٰ أنها آفلة إلىٰ النهاية، فيقول «إن المحمديين في وضع متأرجح، وفي طريقهم إلىٰ السقوط، فما هو مصير حورياتهم العزيزات في الجنة، وما هو حالهن عندما يعلمن أن المؤمنين في تناقص مستمر كل يوم. إنني أتخيل أنهار الخمر الخالدة بدأت تجف وتنتهي».

بمثل هذا القول أراد ثاكري أن يشكك في صدق الدين الإسلامي، ويستمر قائلاً: «إن الحور العين جلسن تحت أشجار الخُلْدِ يرتقن ثيابهن البالية، وهناك عليٌّ، وعمر (رضي الله عنهما) وأمم أخرىٰ اجتمعوا في ظل جَوٍّ حزين»[1].

بمثل هذه الأقوال شحن ثاكري كتابه المذكور؛ ليصرف الناس عن الإسلام، وعن طريق الحق المستقيم.

وبالنسبة للكتابة عن الإسلام في الرواية في العصر الفكتوري، فإن بعض الكُتَّاب كانوا بمنأىٰ عن هذا الأمر؛ لانشغالهم في معالجة القضايا الاجتماعية في المجتمع البريطاني، لكنهم كانوا لا يكنُّون الخير للإسلام، وما كانوا لينكروا ما يكتبه المعاصرون لهم عن الإسلام، فنجد أن السيدة جاسكل (١٨١٠ ــ ١٨٦٥م) Mrs. Gaskell كان اهتمامها بالمجتمع، وإن كانت تسمع الكثير عما يكال للإسلام من إساءة، فكانت

---

(١) المرجع السابق.

تقر بذلك، كما فعلت عندما سمعت محاضرة كارلايل عن النبي محمدﷺ (١)، كما سنعرض إلى ذلك فيما بعد.

وكان هناك فريق آخر من كُتَّاب الرواية في العصر الفكتوري، الذين انصب اهتمامهم على قضايا تهم الفرد الإنجليزي، مع أنه كانت لهم إلماحات وإشارات إلى الإسلام والمسلمين بين الفينة والفينة، كما نجد ذلك في كتابات شارلز كينزلي (١٨١٩ ـ ١٨٧٥م) Charles Kingsley، الذي أسس المذهب المسيحي الشيوعي، وعَظَّمَ هذا الاتجاه في رواياته، وجعله أعظم المعتقدات الدينية، حتى إنه قال بأن هذا الاتجاه أسمى من الإسلام، بما ظنه من حق وصدق في هذا المذهب، وذلك واضح في روايته Yeast التي ظهرت عام ١٨٤٨م، وكذلك في رواية Altonlocke التي ظهرت عام ١٨٥٠م.

كما أن كتابات جورج بورو (١٨٠٣ـ ١٨٨١م) George Borrow ذلك الكاتب المتزمت لمذهبه البروتستانتي، وتعظيم المسيحية، حيث لم يكن يرى في كتاباته إلا الحديث عن الإنجيل والنصرانية، ويرى أن ما سواهما باطل، وبالذات الدين الإسلامي، وهو في ذلك يشير إلى ضياع النصرانية والإنجيل في إسبانيا زمن الحكم الإسلامي، وهذا واضح في روايته «الإنجيل في إسبانيا» The Bible in Spain التي كتبها عام ١٨٤٣م.

وأخيراً يطالعنا اسم الروائي المعروف جورج ميرديث (١٨٢٨ ـ ١٩٠٩م) George Meredith الذي اهتم بالكتابة عن المجتمع الإنجليزي

---

(١) انظر: Byron Porter Smith, Islam in English Literature, p.228.

ومشكلاته، وأن طريق الحل هو الدين والحكمة، وفي بدء حياته الأدبية كتب حكاية بعنوان «الحلق لشخباط» The Shaving of Shagpat ظهرت عام ١٨٥٦م.

ويشير النقاد إلى هذه الحكاية على أنها على غرار قصص التسلية العربية، مثل قصص «ألف ليلة وليلة» الشرقية. وموضوعها يدور حول شخص يقال له شخباط، وهو مُغَنٍّ يعزف أغانيه بشعرة خَفِيَّةٍ موجودة في رأسه، وحدث أن ابن خاله شبلي قرر أن يأخذ شخباط إلى أشهر حلاق في بغداد وإيران، وهو بابا مصطفى، ليحلق شعر شخباط ويريح الناس منه، ولكن شخباط أُنقذ بمساعدة خطيبته نورانا بنت نوركا، والحكاية تحتوي على عناصر السحر والشعوذة والحيل والخداع، والتي أشار المؤلف على أنها هي الأركان الأساسية في حياة المسلمين ودينهم.

وما دام الحديث متصلاً بالنثر الأدبي في ضرب الرواية وما كتب فيها عن الإسلام، لا بد لنا أن نلاحظ أن من أبرز خصائص العصر الفكتوري في الإنتاج الأدبي كان في مجال النقد والنثر الأدبي الذي تناول الحديث عن السلوك والأخلاق، وكانت لغته مزدانة بالصور البلاغية والأدبية الرفيعة. وفي هذا المجال يلمع اسمان بارزان من كتاب النثر، هما: توماس كارليل وجون راسكن (١).

---

(١) إن كثيراً من الناس يغترون بمقولات قد تكون إيجابية عن الإسلام تصدر من بعض مفكري وأدباء الغرب، (أمثال كارليل وشو وغيرهم)، وكأن لسان حالهم يقول: لولا هذه المقولات لما ثبت صدق الإسلام وصدق نبوة رسوله ﷺ وصدق ما جاء به من التنزيل الحكيم، وأتساءل: إذا كان الإسلام كذلك، فلماذا لم يسلموا هم ولماذا لم يعتنقوا الإسلام ويدعو الناس إلى الإيمان والتصديق... إلخ، ولكن لكل زمان عبدالله بن أبي سلول؟

فمن المعروف أن توماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م) Thomas Carlyle قد بدأ حياته الأدبية بدراسة الأدب الألماني، والفكر الفلسفي الألماني، وترجمة بعض الكتب من الألمانية، الأمر الذي ساعده علىٰ تحليل أعمال الأدباء الألمان بسهولة، وأصبحت له صلة وثيقة بالتراث الأدبي والفكري في ألمانيا، فلقد كان حساساً إزاء مثالية شيلر Schiller، ومعجباً بتصوف نوفالز Novalis، ومهتماً بفكاهة ريختر Jean Paul Richter، إلا أنه لم يتفهم سُمُوَّ جوته Goethe، ولكنه تأثر بفلسفة كانت Kant .

ومن الأدب نقل كارلايل اهتمامه إلىٰ التاريخ، وأبدىٰ اهتماماً بالثورة الفرنسية، كل ذلك دفعه للتفكير بأن العالم لا يمكن أن يكون مكاناً للأمن والسلام من خلال الديمقراطية، ولا يتأتي ذلك ـ أي السلام ـ إلا بطاعة القواد الأبطال الذين أتوا بتعاليم تساعد الناس علىٰ الحياة الآمنة، ولهذا كتب كتابه المشهور «الأبطال : وعبادة البطل» Heroes and Hero Worship وفي هذا الكتاب يتحدث كارلايل عن الإسلام ممثلاً في شخص النبي ﷺ، وفي محاضرة من جملة محاضرات الكتاب بعنوان « البطل الرسول محمد الإسلام»، والتي ألقيت عام ١٨٤٠م، نجد من عنوان المحاضرة أن المؤلف أنكر نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، واعتبره عليه السلام بطلاً من الأبطال، مثله في ذلك مثل شكسبير كما يشير في نفس المحاضرة. وما حوته المحاضرة أدهىٰ وأمر، فقد تحدث كارلايل عن ميلاد الرسول ﷺ، وصدوعه بالنبوة كما يزعم، وهجرته إلىٰ المدينة، وغزواته وتعدد زوجاته، وكل حديثه دَسٌّ وطعن، مع شيء من الإنصاف، فيقول: «إن محمداً ﷺ لم يكن

شهوانياً أو دجالاً سيئاً فظاً، بل كان مصلحاً حقيقياً »[١].

وبالنظر في مثل هذه العبارة وأمثالها، نجد أن الكاتب يثير اهتمامات القراء، ويسترعي انتباههم إلىٰ أمور لم تكن في أذهانهم، فيقول: «لم يكن شهوانياً، ولم يكن دجالاً فظاً»، كل هذه الألفاظ لها معانيها في السياق الذي ذكرت فيه.

وإذا كان النثر الأدبي وفن الرواية شَغَلا حيِّزاً كبيراً في الحديث عن الإسلام في العصر الفكتوري، فإن الشعر ـ مع دوره البسيط في هذا العصر ـ إلا أنه لم يَخْلُ من ذلك. حيث إن الشعر في هذا العصر لا زال يتميز بالجمال والقوة والثراء، برغم العوائق التي حدت من نموه، بسبب مزاحمة الرواية له في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي. والشعر في العصر الفكتوري استمر يحمل سمات العصر الرومانسي إلىٰ حد بعيد، مع بعض الخصائص التي أضفاها عصر الملكة فكتوريا علىٰ الشعر خصوصاً وعلىٰ أجناس الأدب الأخرىٰ عموماً. وفي هذا الجزء من الكتاب سوف نركز الحديث علىٰ أهم الشعراء الذين كتبوا عن الإسلام، ويتقدم هذه الاسماء الشاعر الإنجليزي تينسون.

لقد بدأ ألفرد لورد تينسون (١٨٠٩ ـ ١٨٩٢م) Alfred Lord Tennyson إنتاجه الأدبي بطباعة أعماله الشعرية عام ١٨٣٠م، وكانت أعمالاً هزيلة، لم تلق النجاح المطلوب، ولكن الشاعر كرس جهده لِيُحَسِّنَ من أدائه وإنتاجه، ومع هذا الجهد بدأ اسم تينسون يبرز مع دواوين شعره التي

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

طبعت عام ١٨٤٢م، وعندها لمع نجم هذا الشاعر، وكان تينسون هو الشاعر الذي يعكس حقيقة فن الشعر في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي بخصائصه الرومانسية، وما تميز به من خصائص أخرىٰ في موسيقىٰ الشعر والحس المرهف في النظم، والتأثير الفكري. كما أنه جمع خصائص جون كيتس، والكسندر بوب الشعرية في كثير من قصائده.

وعن صلة تينسون ومعرفته بالشرق والمسلمين والعرب، فيمكن تتبع ذلك في قصيدة له بعنوان Locksley Hall ، ذلك أن الأديب المستشرق السير وليم جونز بعدما ترجم المعلقات السبعة ، أو القصائد المذهبة ونشرها عام ١٧٨٣م ، وأوضح أن هذه المعلقات تعلق علىٰ باب الكعبة المشرفة ، فقد أوحت هذه القصائد إلىٰ تينسون أن يستفيد منها في نظم بعض قصائده في الشكل والمضمون ، فاستفاد من الأبيات الطويلة في النظم وما حوته من أفكار وأحاسيس. وللقاريء أن يتلمس ذلك في قصيدته التي ذكرناها آنفاً، وفيها يقول :

All about a summer occean , leagues on leagues of
golden calm,
And within melodious waters rolling round the Knolls
of palm (١)

وعن المعلقات السبعة يقول تينسون: «إنها مختارات الأدب،

---

(١) انظر: Alfred Lord Tennyson, A Memoir, Macmillan &co.ltd., London, 1897 ,vol. I ,p195.

أوالشعر العربي في الجاهلية، تعلق على معبد مكة (أي الكعبة) قبل مجيء المحمديين (أي قبل الإسلام). ثم يذهب تينسون ليقول: إن الشاعر العربي دائماً يضمن قصائده وصف جواده أو ناقته أو بعيره [١].

ولقد استفاد تينسون من الشرق وحكاياته عندما قرأ حكايات «ألف ليلة وليلة»، وكتب قصيدته المعروفة «ذكريات ألف ليلة وليلة» Recollections of The Arabian Nights، وهي من القصائد التي كتبها في مقتبل عمره، وطبعت عام ١٨٣٠م، وتقوم القصيدة على قصتين من قصص «ألف ليلة وليلة» في ترجمة أنطوان جالان، وهما قصة «نور الدين والفارسية الجميلة» و«قصة تاريخ أبو الحسن». والقصة الأولى تحكي أن فتاة فارسية جميلة أغراها نور الدين واستمالها، ولكنها آثرت هارون الرشيد عليه:

Then stple I up , and trancedly
Gazed on the Persian girl alone,
Serene with argent-lidded eyes
Amorous , and lashes like to rays
Of darkness , and a brow of pearl
Tresse'd with redolent ebony,
In many a dark delicious curl,
Flowing beneath her rose-hued zone;
The sweetest lady of the time,
Well worthy of the golden prime
Of good Haroun Alraschid. [٢]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: Christopher Ricks, The Poems of Tennyson, Longman, London,1969,p.210.

وفي هذه القصيدة يتحدث تينسون عن سوء معاملة الرجال المسلمين لنسائهم ، وسوء العلاقة بينهم ، كما أن القصيدة تركز على شخصية الخليفة المسلم هارون الرشيد، حيث تختم كل مجموعة من الأبيات بعبارة:

The golden Prime
The good Haroun Alraschid.

وإن حياة هارون الرشيد ، وجميع المسلمين حياة سُكر وخمر ونساء وعُهْرٍ وفجور، حياة مترفة، مليئة باللذائذ والغناء، وما إلى ذلك من الصور الدنيوية المتعلقة بحياة الترف والدعة في قصور الأمراء والكبراء والأثرياء، وما فيها من طعام وشراب ونوافير للمياه وبرك للسباحة.

وهذه جملة من الصور التي تضمنتها قصص ألف ليلة وليلة ، واتخذها الغربيون على أنها الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين، وخصوصاً حياة هارون الرشيد الخليفة المسلم، البريء من هذا الزعم والزيف الباطل :

"With daz'ed vision unawares
From the long alley's latticed shade
Emerged , I came upon the great
Pavilion of the Caliphat.
Right to the carven cedarn doors,
Flung inward over spangled floors,
Broad-bas'ed flight of marble stairs
Ran up with golden balustrade,
After the fasion of the time
And humer of the golden prime
Of good Haroun Alraschid.

The fourscore windows all alight
As with the quintessence of flame,
A million tapers flaring bright
From twisted silvers looked to shame
The hollow-vaulted dark , and streamed
Upon the moon'ed domes aloof
In inmost Bagdat , till there seemed
Hundreds of crescents on the roof
Of night new-risen , that marvellous time
To celebrate the golden prime
Of good Haroun Alraschid" .(١)

ويلاحظ بعض النقاد أن قصائد تينسون التي كتبها في سن المراهقة لم تكن موضوعاتها تتحدث عن النساء، سوىٰ قصيدة واحدة له بعنوان «فاطمة» Fatima نشرت عام ١٨٣٢م، وفيها يتحدث عن المرأة والحب. وقد استوحىٰ تينسون عنوان القصيدة من إحدىٰ قصائد المعلقات السبع، وكذلك قصص ألف ليلة وليلة. وفاطمة فتاة متزوجة، ولكنها تعشق شاباً وسيماً، وتنتظر رؤيته بشوق، ولكن الفتىٰ لا يستطيع أن يأتي لرؤية فاطمة، خوفاً من زوجها، ولكن فاطمة تحاول الخروج إلىٰ المروج الخضراء، وترتمي بين أحضان الزهور والأشجار. وموضوع القصيدة يتناول موضوعات الحب والعشق في الشعر العربي، وليس في القصيدة أي إشارة إلىٰ الإسلام، سوىٰ موضوعها وفكرتها الأساسية المستوحاة من الأدب العربي.

"O Love,Love,Love ! O withering might !
O sun , that from thy noonday height

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

Shudderest when I strain my sight,
Throbbing through all thy heat and light,
Lo , falling from my constant mind,
Lo , parched and withered , deaf and blind,
I whirl like leaves in roaring wind.
Last night I wasted hateful hours
Below the city's eastern towers:
I thirsted for the brooks , the shower:
I rolled among the tender flowers:
I crushed them on my breast , my mouth;
I looked athwart the burning drouth
Of that long desert to the south.(١)

مما تقدم يتضح كيف أن تينسون كان مولعاً بالشرق منذ صباه، إذ كتب عام ١٨٢٧م، قصيدة بعنوان« فارس» Persia يصف فيها تلك البلاد وجمالها وهضابها وأنهارها وجوّها، ويلمح إلى حياة الناس فيها، وتسلط المسلمين على غيرهم من أهل الملل الأخرى:

Land of bright eye and lofty brow !
Whose every gale is balmy breath
Of incense from some sunny flower,
Which on the tall hill or valley low,
In clustering maze or circling wreath,
Sheds perfume ; or in blooming bower
Of Schiraz or Isphahan,
In bower untrod by foot of man,
Clasps round the green and fragrant stem
Of lotos , fair and fresh and blue,
And crowns it with a diadem
Of blossoms , ever young and new;
Oh! lives there yet within thy soul
Ought of the fire of him who led

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨٣ .

Thy troops , and bade thy thunder roll
O'er lone Assyria's crownless head ?
I tell thee , had that conqueror red
From Thymbria's plain beheld thy fall,
When stormy Macedonia swept (١)

ثم يستطرد الشاعر في الحديث عن إيران، ويرثي حال تلك البلاد، التي أصبحت في أيدي المسلمين، وتحت حكمهم، وقد سمى تينسون المسلمين بالكفار

Where down the Euphrates , swift and strong,
The shield-like kuphars bound along;
And sad Cunaxa's field , where, mixing
With host to adverse host opposed,
Mid clashing shield and spear transfixing;
The rival brothers sternly closed.
And further east , where , broadly rolled,
Old Indus pours his stream of gold;
And there , where tumbling deep and hoarse,(٢)

وفي العام نفسه الذي نشرت فيه قصيدة «فارس» ـ أي عام ١٨٢٧م ـ نشر تينسون قصيدة له بعنوان «حملة نادر شاه إلى الهند»-The Expedition of Nadir shah into Hindostan ، وفيها يتحدث تينسون ـ حسب قوله ـ عن نادر شاه آخر ملوك فارس من المحمديين، أي المسلمين، الذين فتحوا كل بلاد الهند، ونشروا فيها الإسلام، والشاعر يعبر عن كرهه في رؤية الإسلام وهو ينتشر في أنحاء المعمورة، لأن المسلمين سفاكون للدماء، جعلوا كثيراً من شعوب العالم ملطخين

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٢) المرجع اللسابق ، ص ١٠٣ .

بالدماء، خصوصاً في حملة نادرشاه هذه التي هي موضوع هذه القصيدة، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من أن الدماء أصبحت تسيل أنهاراً في مدينة دلهي، كما يقول في ثنايا القصيدة:

Like the field of destruction they rush on their way,
The vulture behind them is wild for his prey;
And the spirits of death , and the demons of wrath,
Wave the gloom of their wings o'er their desolate path.
Earth trembles beneath them , the dauntless , the bold;
Oh ! weep for thy children , thou region of gold;
For thy thousands are bowed to the dust of the plain,
And all Delhi runs red with the blood of her slian(١)

وفي عام ١٨٢٧م كتب تينسون قصيدة أخرىٰ بعنوان«سقوط القدس» The Fall of Jerusalem ، وفيها يتحدث الشاعر عن سقوط القدس في أيدي الرومان، وما عبث بها بختنصر في تلك الحقبة إلىٰ أن تمكن أهل الكتاب يهود ونصارىٰ من استعادة تلك البقعة المقدسة من السطو والطغيان، حيث نعمت بالحكم العادل والحياة الطيبة زمن ملوك بني إسرائيل منذ عهد سليمان عليه السلام إلىٰ عهد عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام .

ثم يوضح الشاعر كيف أن تلك الحياة التي سادت القدس انتهت، وأهدرت قداسة ذلك البلد المقدس عندما فتح المسلمون بيت المقدس. وهنا يقول تينسون: إن هذه البلدة المباركة أُهينت كرامتها وقدسيتها، ودنَّس أرضها وكنائسها وصوامعها أتباع النبي محمد ﷺ:

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٩ .

Wail ! fallen Salem ! Wail:
Mohammed's votaries pollute thy fane;
The dark division of thine holy veil
Is rent in twain ! (١)

وأخيراً فإن تينسون كتب عام ١٨٩٢م قصيدة بعنوان «رؤيا أكبر» Akbar's Dream ، وأكبر هذا هو أحد ملوك دولة المغول، وفيها يتحدث الشاعر عن اهتمام هذا الإمبراطور في جمع الناس على دين واحد، غير دين الإسلام، والشاعر بهذا يشير إلى أن الإسلام لم يعد يرغب فيه أحد حتى من أبناء جلدته، فمن باب أولى ألا يدخل الإسلام من لم يكن مسلماً من ذي قبل .

وكان الإمبراطور أكبر يريد أن يؤسس خلافة عامة على الناس، ويفسر الشاعر كل ذلك لرؤيا رآها أكبر في منامه، وهي أن الإمبراطور سوف يبني معبداً مقدساً جديداً، وهذا المعبد ليس بكنيسة وليس بمسجد، وليس بأي معبد من معابد الأديان الأخرى، بل إن هذا المعبد أفضل وأسمى من تلك المعابد، فهو مفتوح للجميع، إنه المعبد الذي يمثل التواضع والبساطة، ويكون عنواناً للحقيقة والمحبة والسلام والعدل، ليس كما هو الحال بالنسبة للكنائس والمساجد التي توصد أبوابها في غير أوقات العبادة، ثم يستمر الشاعر ليقول: إن الأمبراطور رأى في رؤياه أنه سيقدم قرباناً جديداً للناس.

وكل هذه الخيالات التي ضمنها الشاعر قصيدته تدل على ما تعتمل

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

به نفسه من إزالة الإسلام من الوجود، واستبداله بأي دين آخر، حتى إن الإمبراطور يريد أن يأتي بقرآن غير ذلك القرآن:

Well , I dreamed
That stone by stone I reased a scared fane,
A temple , neither Pagod , Mosque , nor church,
But loftier , simpler , always opned-doored
To every breath from heaven and Truth , and peace
And love and justice came dwelt therein;
But while we stood rejoicing , I and thou,
I heard a mocking laugh "the new Koran ! "(١)

ومن الشعراء المعاصرين لتينسون، وكان على النقيض له في اتجاهاته الأدبية الشاعر براوننج (١٨١٢ ــ ١٨٨٩م) Robert Browning، الذي كانت اهتماماته الأولى دراسة الروح الإنسانية والنفسية الإنسانية. وقد بدأ نشاطه الأدبي بكتابة المسرحيات، ولكنه ما لبث أن تحول إلى الشعر بعد أن كتب عدداً من الأعمال المسرحية. ومن مسرحياته التي كتبت نَظماً: منظومة شعرية كتبت بالشعر الحر، وعنوانها «عودة الدروز» The Return of the Druses، وهذه القصيدة هي التي تحدث فيها عن الإسلام، وطبعت لأول مرة عام ١٨٤٣م، ومعظم شخصيات هذا العمل من المسلمين، منهم أبناء الدروز: ماني، وفارشوك، وراغب، وأيوب، وخليل، وجبّال، إضافة إلى بعض الشخصيات المسيحية.

والقصيدة تحكي قصة بعض الدروز في المنفى بمدينة قرب اليونان وتركيا، وهم يرثُون حالهم، وما صار إليه مآلهم بسبب تسلط وجبروت

(١) المرجع السابق، ص ١٤٤٨.

الملك روهدز . وحدث أن جبَّال آخر أبناء أمراء الدروز والذي خرج لاجئاً إلى أوربا قرر أن يعود إلى بلاده ويقتل الظالمين والمتعسفين . وحال عودته وقع جبَّال في حب آنيل ، إحدى بنات الدروز الجميلات ، التي اعتبرها من بنات جنسه وعقيدته ، التي ستساعده على إنقاذ وطنه . وكان جبَّال قد تقمص شخصية رجل حكيم من رجال الدين المصلحين لكي يتمكن من قتل الملك الظالم لكي تعود حياة السعادة والأمن والسلام .

Kar. [to Kha.] And who takes charge of Loys?
That's forgotten,
Despite thy wariness ! Will Loys stand
And see his comrade slaughtered ?
Loys. [Aside.] How they shrink
And whisper , with those rapid faces ! What ?
The sight of me in their oppressors' grab
Strikes terror to the simple tribe ? God's shame
On those that bring our Order ill repute !
But all's at end now ; better days begin
For these mild mountaineers from over -sea;
The timidest shall have in me no Perfect
To cower at thus! [Aloud.] I asked for Djabal-
Kar. [A side.] Better
One lured him , ere he can suspect , inside
The corridor ; 'twere easy to despatch
A youngster . [to Loys.] Djabal passed some minutes
since
Thro' yonder porch , and ....
Kha [A side.] Hold ! What , him despatch ?
The only Christian of them all we charge
No tyranny upon ? Who,_noblest Knight
Of all that learned from time to time their trade
Of lust and cruelty among us,_heir
To Europe's pomps , a troust child of pride , -

Yet stood between the Perfect and ourselves
From the beginning ? Loys, Djabal makes
Account of , and precisely sent to Rhodes
For safety ?_I take charge of him ! (١)

وخلال أحداث إنقاذ الوطن، قتلت آنيل محبوبة جبّال، فهرع بعض الدروز إلى الحكيم، وطلبوا منه أن يعيد الحياة إلى تلك الفتاة :

" I have obeyed thee , if I dare say so_
Hath Hakeem thus forgot all Djabal knew ?
Thou feelest then my tears fall hot and fast
Upon thy hand_and yet thou speakest not !
Ere theVenetian trumpet sound_ere thou
Exalt thyself , O Hakeem ! save her_save her !
Nuncio. And the accursed Republic will arrive
And find me in their toils_dead , very like,
Under their feet ! "(٢)

ولكن وجه التهكم والسخرية في هذه القصيدة عندما يعجز الحكيم عن إعادة الروح والحياة إلى آنيل ؛ لأنه بشر لا يملك ذلك، حينها نجد الشاعر براونبج يسخر من النبي ﷺ، ويقول: انهض يا محمد، وقم إن كنت قادراً على فعل ذلك :

Druses. " No , Hakeem , ever thine !
Nuncio. He lies–and twice he lies_and thrice he lies !
Exalt thyself , Mahound ! Exalt thyself ! "(٣)

---

(١) انظر : Robert Browning, Poems of Robert Browning, James R. Osgood& Co Ltd, Boston,1871, vol.II., p.p.34-35.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٥ .

وفي قصيدة أخرىٰ لبراوننج بعنوان «من رودال إلىٰ سيدة طرابلس» Rudel to the lady of Tripoli . نجد الشاعر يتحدث عن لبنان، وعلىٰ الأخص مدينة طرابلس وجمال الطبيعة، وما فيها من مياه وأزهار، وسماء صافية، وهدوء مريح، ورمز إلىٰ لبنان وجمالها، ممثلاً في طرابلس إلىٰ فتاة أو سيدة طرابلس، وحث الحجاج النصارىٰ الذاهبين إلىٰ بيت المقدس بأن عليهم أن يزوروا ملاك الشرق :

" Oh Angel of the east , one , one gold look
Across the waters to this twilight nook,
The far sad waters , Angel , to this nook !

* * * *

Dear Pilgrim , art thou for the East indeed ?
Go !- saying ever as thou dost proceed,
That I , French Rudel, choose for my device
A sunflower outspread like a sacrifice
Before its idol. See ! These inexpert
And hurried fingers could not fail to hurt
The woven picture ; 'tis a woman's skill
Indeed ; but nothing baffled me , so , ill (١)

وهذه القصيدة فيها تعريض بالنساء المسلمات، وأنهن فاجرات فاسقات، ودعوىٰ الشاعر هذه باطلة، لأن الإسلام نهىٰ المرأة المسلمة عن الفسق والفجور، وأمرها بالاحتشام والتستر. والمرأة المؤمنة تخشىٰ الله وتتقيه، وأما المرأة العاصية فلها عذاب عظيم. فما أحسن العفة، والمرأة حتىٰ في الجاهلية كانت لا تزني، وهذا قول هند بنت عتبة للرسول ﷺ أوتزني الحرة يارسول الله ؟ . قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤ .

وَنساءِ الْمُؤْمنينَ يُدْنينَ علَيْهِنَّ من جَلابيبِهِنَّ ذَلكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١).

ولعل الشاعر في قصيدة له بعنوان«سليمان وبلقيس» Solomn and Balkis يستطرد في الحديث الذي أورده في قصيدته «سيدة طرابلس» عندما يتحدث عن جمال بلقيس ملكة سبأ، وحكمة سليمان نبي الله عليه السلام، وقد توج ذلك كله بوجود بلقيس وسليمان علىٰ أرض لبنان الجميلة عندما يقول :

Aspire to the best ! But which? There are Bests and and Bests so

many,

With a habitat each for each, earth's Best as much Best as any!

On Lebanon roots the cedarsoil lofty, yet stony and sandy-

While hyssop, of worth in its way, on the wall grows low but

handy.

'Above may the Soul spread wing, spurn body and

sense beneath her;

Below she must condescend to plodding unbuoyed by aeher.

In heaven I yearn for knowledge, account all else inanity ;

On earth I confess an itch for the praise of fools- that s Vanity.(٢)

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٩ .

(٢) انظر : Robert Browning, Poems of Robert Browning, vol. II, p.670.

ومع أن الشاعر يعلم أن سليمان دعا بلقيس للإيمان بالله وحده، وترك عبادة الشمس، إلا أن نظرة هذا الشاعر تركزت على مسألة العشق والحب ؛ لأن حياة هؤلاء الناس أصبحت لا تقوم إلا على الماديات وحياة الجسد، ولا تقوم على الإيمان وحياة الروح :

Solely for Solomon`s sake, to see whom earth styles Sagest ?
Through her blushes laughed the Queen. 'For the sake of a
Sage? The gay Jest!
On high, be communion with Mind-there, Body concerns not
Balkis:
Down here, do I make too bold? Sage Solomon,-one Fool 's
small Kiss! (١)

ولقد كتب براوننج ضمن أدب الرسائل قصيدة شعرية بعنوان «رسالة تحتوي على الخبرة الطبية العجيبة لكارشيش الطبيب»

An Epistle containing the strange Medical Experience of Karshish, the Arab physcian

والقصيدة تتحدث عن رحلات طبيب عربي في البلدان العربية بقصد نشر خبراته الطبية وأهمية الطب والعلاج، مع أنه لم يكن طبيباً معالجاً. ثم تتحدث القصيدة عن بعض أطباء العرب وخبراتهم في الطب في سوريا وفلسطين ومصر، وماجاورها من بلدان المسلمين، ثم ركزت القصيدة الحديث عن طبيب يهودي في إحدى المدن بفلسطين، وأنه تعلم الطب بما استوحاه من علم المسيح عليه السلام، وفي هذه المقارنة بيَّن

---

(١) المرجع السابق.

الشاعر سُمُوَّ علم الطب ودقته عند النصارىٰ واليهود عنه عند المسلمين والعرب :

By a Nazarene Physician of his tribe:
-'Sayeth, the same bade 'Rise, 'and he did rise.
'Such cases are diurnal' thou wilt cry.
Not so this figment! - not, that such a fume,
Instead of giving way to time and health,
Should eat itself into the life of life,
As saffron tingeth flesh, blood, bones and all !
For see, how he takes up the after-life.
The man-it is one Lazarus a Jew,
Sanguine, proportioned, fifty years of age,
The body`s habit wholly laudable,
As much, indeed, beyond the common health
As he were made and put aside to show.
Think, could we penetrate by any drug
And bathe the wearied soul and worried flesh,
And bring it clear and fair, by three days' sleep!
Whence has the man the balm that brightens all?

This grown man eyes the world now like a child.(1)

ثم يأتي الشاعر بصورة حقيرة، يزدري فيها المسلمين وفشلهم في الطب، وكأنهم كانوا يعتمدون على الشعوذة والسحر والكهانة والنجوم والكواكب :

"Exasperation, Just as like. Demand
The reason why - 'tis but a word.'object-
A gesture'- he regards thee as our lord
Who lived there in the pyramid alone.
Looked at us (dost thou mind?) when, being young,
We both would unadvisedly recite

(١) انظر : Robert Browning, Poems of Robert Browning, vol. II,p.670

Some charm's beginning, from that book of his,
Able to bid the sun throb wide and burst
All into stars, as suns grown old are wont.
Thou and the child have each a veil alike
Thrown o'er your heads, from under which ye both
Stretch your blind hands and trifle with a match" (١)

وبعد ذلك يُنهي الشاعر براوننج القصيدة بأن يدعو أحد الأطباء المسلمين لاعتناق المسيحية ، وترك الإسلام ، لأنه لا خير فيه :

'The very God! think, Abib; dost thou think?
So, the All-Great, were the All-Loving too-
So, through the thunder comes a human voice
Saying, O heart I made, a heart beats here!
Face, hands fashioned, see it in myself!
Thou hast no power nor mayst conceive of mine,
But love I gave thee, whith myself to love,
And thou must love me who have died for thee'
The madman saith He said so, it is strange'(٢)

وفي قصيدة أخرىٰ لبراوننج بعنوان «قائد الجمل» A Camel Driver يتحدث الشاعر مرة أخرىٰ عن الإسلام. والمعروف أن عبارة راكب الجمل، أو قائد الجمل مصطلح يستخدم في الأدب الإنجليزي، ويقصد به الرسول محمد ﷺ، وقد ذكر ذلك برناردشو في بعض مسرحياته، كما سنوضح ذلك فيما بعد. وموضوع قصيدة براوننج هذه يتحدث عن صاحب جمل، وأنه قاطع طريق يعترض سبيل الحجاج وقوافلهم، وهو يرمز بذلك إلىٰ النبي ﷺ، حيث قطع سبيل النصارىٰ، وهدد سلطانهم عندما صدع عليه السلام بأمر الرسالة، وتبليغ الدعوة إلىٰ الله سبحانه

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧٣ .

وتعالى ، فيقول الشاعر :

"How of his fate, the pilgrims soldier-guide
Condemned' (Ferishtah questioned), for he slew
The merchant whom he convoyed with his bales
-A special treachery
'Sir, the proofs were plain:
Justice was satisfied : between two boards
The rogue was sawn asunder, rightly served.[1]

ولا أدلّ من انتقاص براونتج للنبي ﷺ واحتقاره وسلبه حق النبوة ، تعليقه على محاضرة توماس كارلايل عن الأبطال بقوله : « إنه لم يأت إنسان بمفهوم البطولة كما جاء به دانتي الإيطالي » . وهو بذا لا يرى ذلك في الرسول ﷺ الذي هو موضوع محاضرة كارلايل .

وأخيراً يمكننا القول بأن براونتج اهتم بالكتابة عن الإسلام ، لعداوته الواضحة التي أفصح عنها في أعماله الأدبية والتي استمر فيها بما كتبه من قصائد أخرى تتعلق ببعض الشخصيات المسلمة ، مثل : قصيدة «عباس شاه» Abbas Shah ، وقصيدة محراب شاه Mihrab shah ، وغيرها من القصائد .

ومن أدباء العصر الفكتوري الذين كتبوا في فنون الأدب المختلفة نثراً وشعراً ومسرحية : نذكر الأديب ماثيو آرنولد (١٨٢٢ ــ ١٨٨٨م) Matthew Arnold.

لقد اشتهر في العقود الأولى من العصر الفكتوري بكتاباته الفكرية الموجهة ، والتي حذا حذوها كارلايل وراسكن . وكان تركيز آرنولد

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣٢ ـ ٧٣٣ .

الأساسي على القضايا الدينية بما يخص الدراسات المتعلقة بالإنجيل والقصائد المسيحية التي تتحدث عن أنبياء بني إسرائيل. ولقد كان آرنولد مسيحياً ملتزماً، تأثر بكثير من قساوسة زمانه، والدين عنده أثمن شيء في الحياة. ومن أشهر كتبه الدينية كتاب بعنوان «الرب والإنجيل» God and the Bible ظهر عام ١٨٧٦م.

تحول آرنولد إلى الأدب منذ عام ١٨٥٥م عندما عكف على ترجمة أعمال هيومرس، ودراسة الأدب الأيرلندي القديم، ودراسة الحضارات وتاريخها ودراسة الآثار. وقد إرتبط انتاجه الأدبي في بعض الأحيان بالفكر الديني كما يتضح في احد كتبه بعنوان «الأدب والعقيدة» Literature and Dogma

ولقد اهتم آرنولد بالشرق، والكتابة عن الإسلام بما استقاه من قصص شرقية، وملاحم ملوك فارس، المعروفة باسم الشهنامة، وهي تحكي قصص الملوك في إيران، كتبها الأديب الفارسي أبو القاسم حسن الفردوسي خلال الفترة من عام ٩٣٠ وحتى عام ١٠٢٠هـ.

وقد كتب آرنولد قصيدة بعنوان سوهراب ورستم Sohrab and Rustum، وموضوع القصيدة يحكي قصة القائد الفارسي الشجاع رستم الذي ترك زوجته تهمينا وهي حامل لها عدة أشهر، وخرج لمحاربة أعداء ملوك الفرس، وقد أوصى زوجته بأن ترسل إليه بعد وضع مولودها، وتخبره خبره: هل هو ذكر أم أنثى؟ فإن كان المولود ولداً اعتنت به حتى يكمل الرضاع، ثم يترعرع، فترسله إلى والده إلى أرض المعركة، ليتعلم فن الفروسية، ويُنمِّي فيه روح القتال والشجاعة. وبعد أن وضعت

تهمينا زوجة رستم مولودها الذكر أخفت حقيقته وأسمته سوهراب، ولم تخبر والده بذلك، بل أفادت بأنها وضعت أنثى، لأنها خافت على ولدها الموت. وظل الأمر كذلك إلى أن كبر الابن، وبلغ السادسة عشرة من عمره، فأمعن في طلبه لمعرفة من هو والده، فأخبرته الأم على مضض، فخرج يطلب والده في ساحة القتال، ووصل إليه، ولم يكن يعرف الفريق الذي يقاتل فيه والده، فانضم إلى فريق الأعداء، وأظهر بسالة فائقة في الحرب والمنازلة والقتال، حتى جمع القدر بينه وبين والده في منازلة لم يكن أحد يعرف الآخر، وانتهت المنازلة بقتل رستم لابنه دون علم منه، بالرغم من أنه أثناء المنازلة سمع سوهراب منادياً ينادي أباه رستم، فعرف أن ذلك أباه، ولكن سيف والده لم يمهله لحظة، إذ هوى سيف رستم على هامة ابنه فطرحه أرضاً، وسالت دماء الابن، وبعدها عرف رستم أنه قتل ابنه بيده، وهذه القصيدة تعد نموذجاً لمحاكاة ماثيو آرنولد للقصص الشرقي وملاحمه:

So, on the bloody sand, Sohrab lay dead;
And the great Rustum drew his horseman`s cloak
Down o'er his face, and sate by his dead son.
As those black granite pillars, once high-reared
By Jemshid in Persepolis, to bear
His house, now 'mid their broken flights of steps
Lie prone, enormous, down the mountain side-
So in the sand lay Rustum by his son. (1)

---

(١) انظر: Syed Sajjad Husain and A. Al-khoreiby, An annotated Anthology of English Poetry for Arab Students, Dar Okaz, Jeddah, 1984, p.523.

بعد ذلك نجد أن الشاعر يتحدث عن الحروب بين المسلمين من الفرس والتتار، وأنه لا وحدة أو اتحاد بين المسلمين :

And night came down over the solemn waste,
And the two gazing hosts, and that sole pair,
And darkened all; and a cold fog, with night,
Crept From the Oxus. Soon a hum arose,
As of a great assembly loosed, and fires
Began to twinkle through the fog, for now
Both armies moved to camp, and took their meal.
The Persians took it on the open sands
Southward, the Tartars by the river marge;
And Rustum and his son were left alone. (١)

وفي قصيدة بعنوان «الإلهية أو الإله» The Divinity يتحدث ماثيو آرنولد عن عظمة الله وقدسيته وحكمته، وإحسانه إلى خلقه، الذين جعل منهم أناساً طهريين مثل القساوسة والرهبان. ثم ينتهي إلى القول بأن بعض الناس أساؤوا إلى ما تفضل الله به عليهم، وجحدوا ذلك، واستهانوا بقدسيةالرب وحكمته، وافتروا على الله الكذب، وجاؤوا بدين جديد في أرض الصحراء، تلك البلاد النائية التي لم يعرف أنه وجد بها رهبان وقساوسة قط، أرض لم يوجد بها رجالات القدسية والطهارة، أرض لم تعرف الكنائس والمعابد الدينية.

God's wisdom and God's goodness!- Ay, but fools
Mis-define these till God knows them no more.
Wisdom and goodness, they are God! -what schools
Have yet so much as heard this simpler lore?
This no Saint preaches, and this no Church rules;
'Tis in the desert, now and heretofore.(٢)

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٤.

(٢) انظر: Kenneth Allott (ed.), The Poems of Matthew Arnold, Longman : London, 1965, p. 490.

ثم يشير الشاعر في ثنايا القصيدة إلى الرسول ﷺ، وأنه ليس هو بقديس، وهو صاحب دين لا يقوم على شريعة الدين النصراني، فهو من الصحراء وإلى الصحراء، وسيظل في الصحراء إلى الأبد.

وفي القصيدة التي عنوانها «الشرق والغرب» يتحدث ماثيو آرنولد عن المسلمين مرة أخرى، إذ ترتكز القصيدة في أساسها على التمييز العنصري بين شعوب الشرق وشعوب الغرب. وموضوع القصيدة مستوحى من أسطورة بريطانية من مقاطعة ويلز قديمة، تحكي أن قديسين كانا يلتقيان مرة كل أسبوع في مكان ما، حيث ينبع جدولان، فكان أحد القساوسة يسمي أهل الشرق السود السمر الملونين، في حين يسمي القديس الآخر أهل الغرب بالبيض أهل الشجاعة والشهامة. والشرق يصور في القصيدة من خلال نظرة هذين القسيسين بأنه مكان التصوف والتزمت، وهو مصدر الظلام والبؤس، لكن الغرب مكان الحيوية، ومصدر النور والإشعاع:

In the midest of Anglesey they show
Two springs which close by one another play;
And, Thirteen hundred years agone, they say.
Two saints met often where those waters flow.
One came frorm Penmon westward, and aglow
Whitened his face from the sun's fronting ray,
Eastward the other, from the dying day,
And he with unsunned face did always go.
Seiriol the Bright, Kybi the Dark! men said.
The seer from the East was then in light.
The seer from the west then in shade.
Ah! now'tis changed. In conquering sunshine bright

The man of the bold West now comes arrayed;
He of the mystic East is touched with night(1)

ما من شك أن التمييز العنصري هو من خصائص أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، خصوصاً في زماننا هذا، ولكن الإسلام ليس فيه عنصرية، والرسول ﷺ بعث إلىٰ كل أحمر وأسود، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢). ولكن هيهات هيات.

ومن الأعمال النثرية التي تتحدث عن الإسلام: تلك القصة التي كتبها ماثيو آرنولد بعنوان «مسرحية حب فارسي» A Persian Passion Play. ويتصل موضوعها بالشيعة، وقصة أحداث استشهاد علي بن أبي طالب، وابنه الحسين رضي الله عنهما.

ويتحدث المؤلف عن الفكر القادياني الذي اعتبره الكاتب نحلة من النحل الإسلامية. ويبدأ الكاتب القصة بصدع الرسول ﷺ بالدعوة، وأن العرب لم تصدقه في دعواه، ولم يؤمن به إلا القليل أمثال خديجة رضي الله عنها وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولقد كان علي كرم الله وجهه أثيراً عند النبي ﷺ، فكافأه بأن زوّجه أحبَّ بناته إليه، فاطمة الزهراء رضي الله عنها، التي ولدت له سبطين حبيبين إلىٰ قلبه عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهما الحسن والحسين رضي الله عنهما. ويقول المؤلف: إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن له عقب

(١) المرجع السابق، ص٤٩٣ ـ ٤٩٤.
(٢) سورة الحجرات، الآيه ١٣.

من ذرية من الأولاد ليرث ملكه، وهو بذا ينكر نبوة الرسول ﷺ. ثم يقول: وكان الجميع من حول محمد عليه الصلاة والسلام ينتظرون أن يجعل علياً ولياً لعهده(١). ولكنه توفي عليه الصلاة والسلام، وترك الأمر شورىٰ بين المسلمين، حيث أصبح أبو بكر الصديق رضي الله عنه خليفة للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، ثم تلاه عمر رضي الله عنه، ثم جاء بعده عثمان رضي الله عنه، ولم يؤمِّر الرسول ﷺ علياً، ولم يجعله خليفة من بعده.

ثم استطرد المؤلف في الحديث عن الفتن التي حصلت بعد تولي علي كرم الله وجهه الخلافة، وأحداث موقعة صفين والجمل وقصة التحكيم ومعارضة معاوية لعليٍّ، وما انتهىٰ إليه الأمر بمقتل علي رضي الله عنه، ثم ما تبع ذلك من أحداث في ولاية ابنه الحسن، وقصة مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه أجمعين، ثم يبين الكاتب كيف انتهىٰ الأمر إلىٰ انقسام المسلمين إلىٰ مذهب سني وآخر شيعي(٢).

ولقد كان ماثيو آرنولد في قصته هذه يثير الشبهات، ويزج بالافتراءات، ويتشفىٰ بما صار إليه حال المسلمين. وكان يركز في حديثه علىٰ المذهب الشيعي، ويروج له فيتحدث عن أضرحة الأولياء في الكوفة والبصرة والنجف، ومشهد وكربلاء، ويتحدث عن العتبات المقدسة، وأحداث يوم عاشوراء من كل عام. ثم يتحدث آرنولد عن بعض كتب الشيعة المعتمدة، وعن أئمتهم، ويتحدث عن كتب الأدب الشيعي،

---

(١) إن المعاني التي تحملها المباني اللغوية لها دلالاتها، فقول المؤلف مُلْكهُ وولي عهده... إلخ، تدل علىٰ نظرة الكاتب إلىٰ النبي علىٰ أنه ملك وليس بنبي.

(٢) انظر: Kenth Allot (ed.) The Poems of Matthew Arnold p.p.20 - 25.

وقصة مقتل الحسين ومكانة فاطمة الزهراء وذريتها ومدىٰ بغض الشيعة للسنة[(١)].

هذه جملة لنماذج الأعمال الأدبية التي تحدث فيها ماثيو آرنولد عن الإسلام، وقد أوضحنا أنها كلها مشحونة بالكراهية والبغض للإسلام، ومليئة بالدس والحقد علىٰ المسلمين.

ومن شعراء العصر الفكتوري الذين اهتموا بالشرق والإسلام نذكر: الأديب الإنجليزي إدوارد فيتز جيرالد (١٨٠٩ ـ ١٨٨٣م) Edward Fitzgerald، والذي ذاعت شهرته في الأدب الإنجليزي، ليس من خلال أعماله التي تخص الأدب الإنجليزي وموضوعاته فقط، بل عندما ترجم رباعيات الخيام التي تنسب للأديب الفارسي المشهور غياث الدين أبي الفتح عمر الخيام الشيرازي، وهو شاعر وفلكي عاش في القرن الثاني عشر، وكان من جلساء السلطان نظام الملك أحد سلاطين السلاجقة، وكان أيضاً من جلساء وزيره ألب أرسلان، وقد وجد كتاب الآداب الغربية في القرن التاسع عشر، وعلىٰ الأخص الأدباء الإنجليز في ترجمة الرباعيات تعبيراً عن روح عصرهم، إذ بلغ الصراع أشده بين العلم في حقائقه المادية وبين المثالية القائمة علىٰ أسس خلقية ودينية. ويعتبر فيتز جيرالد صاحب السبق الأول في ترجمة هذه الجوهرة الأدبية القيمة من الأدب الشرقي، حيث أصبحت رباعيات الخيام وكأنها من عيون الأدب

---

(١) انظر: Mathew Arnold, God and the Bible, Ann Arbor the University of Michigan Press,1970, p.p.12-18.

الإنجليزي، وليست هي من الأدب الفارسي. وفي ترجمته للرباعيات نجد فيتز جيرالد قد غيَّر وزاد في الأصل الفارسي، بحيث لم تَعُد الترجمة مطابقة للأصل، وإن حافظت على الجو العام والطابع الشرقي للقصيدة، إذ الملاحظ أن الرباعيات في نصها الفارسي تحتوي على ست عشرة رباعية، في حين أن رباعيات فيتز جيرالد جعلها تسعاً وسبعين رباعية، ولعل ذلك سببه اختلاف أوزان وبحور الشعر الإنجليزي والشعر الفارسي. والإشارة إلى الإسلام في قصيدة فيتز جيرالد هذه تظهر في الرباعية الآتية:

A BOOK of Verses underneath the Bough.
A Jug of Wine, a Loaf of Bread - and Thou
Beside me singing in the Wilderness -
Oh, Wilderness were Paradise enow!
Some for the Glories of This World: and some
Sigh for the Prophet's Paradise to come:
Ah, take the Cash, and let the Credit go,
Nor head the rumble of a distant Drum! (١)

وفي هذه القصيدة نجد فيتز جيرالد قسَّم الناس إلى فئتين: فئة شغلتها الدنيا وملاذها ومتعها، وفئة أخرى تعمل للدار الآخرة بجدٍّ واجتهاد، وفي وصف الفئة الأخرى يذكر اهتمامها بالعمل من أجل الجنة التي وعد بها الرسول محمد ﷺ أتباعه، وقول الشاعر ـ كما يتضح في القصيدة ـ إنما يسخر من المسلمين الذين يعملون للدار الآخرة، ويهزأ بوعد الرسول ﷺ لهم.

---

(١) انظر: Syed Sajjad Husain and A. Al-Khoreiby, An Annotated Anthology of English Poetry for Arab Students, p.445.

ومن اهتمامات فيتز جيرالد بالشرق ما قام به من ترجمة قصة «سلامان وأبسال»، وهي قصة ذات أصل يوناني ترجمها إلى العربية حنين بن إسحاق، وملخص هذه القصة، كما نقلناه من كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال، هو: «أنه قد ولد للملك من ملوك اليونان ابن يسمى سلامان من غير أن يباشر امرأة، بتدبير حكيم من حكمائه، وأرضعته امرأة جميلة في سن الثامنة عشرة يقال لها: «أبسال»، وتعلق الفتى بها وعشقها، ولم يستطع فراقها، رغم تحذير أبيه، ونصح الحكيم له. وهمَّ أبوه أن يدبر مكيدة للفتاة الفاجرة يكون فيها هلاكها. فلما علم بذلك سلامان هرب معها الى ماوراء بحر المغرب. وأبطل الملك بحيلة مقدرتهما، فبقي كل واحد منهما في أشد ألم وأنحس عذاب من رؤية صاحبه وشدة الشوق إليه مع عدم الوصول إليه، وحاول الابن أن يستغفر أباه، لعلمه أن ما أصابه من عذاب كان بسبب غضبه عليه. واشترط الأب أن يفارق أبسال حبيبته. فرميا بأنفسهما إلى البحر، ولكن سلامان نجا، وغرقت أبسال. وأخذ سلامان يتسلى عنها، وبخاصة حين رأى الزهرة، فتسلى عن حبه القديم. ثم زال عن قلبه حب صورة الزهرة أيضاً. وكان ذلك كله بتدبير الحكيم، وعلى أثر ذلك جلس سلامان على سرير عرش أبيه. وأمر بكتابة قصته، وأثبت في آخرها: «إن طلب العلم والملك من العلويات الكاملات، فإن الناقصات لا تعطى كاملاً».

واستطرد قائلاً: «والملك هو العقل الفعال، والحكيم هو الذي يفيض عليه مما فوقه، وسلامان هو النفس الناطقه، فإنه أفاضها من غير

تعلق بالجسمانيات[١]، وأبسال: هو القوة البدنية الحيوانية. وعشق سلامان لأبسال: ميلها إلى اللذات البدنية. وهربهما إلى ماوراء بحر المغرب انغماسهما في الأمور الفانية البعيدة عن الحق. وإلقاء نفسيهما في البحر: تورطهما في الهلاك. وخلاص سلامان رمز لبقاء الرح بعد البدن. واطلاعه على صورة الزهرة: رمز لتلذذ النفس بالابتهاج بالكمالات العقلية. وجلوسه على سرير الملك: وصول النفس إلى كمالها الحقيقي، وهذه القصة هي مصدر عبد الرحمن الجامي الفارسي[٢].

وللقصة رواية أخرى من صياغة ابن سينا نفسه، لم يعثر عليها حتى اليوم بين المخطوطات، ولكن ملخصها في مخطوطة محفوظة في جامعة لندن، وهذا الملخص لتلميذ ابن سينا: أبي عبيد الجورجاني، وموجز هذا الملخص: أن سلامان وأبسال كانا أخوين شقيقين. وكان أبسال أصغرهما سناً. صبيح الوجه عاقلاً متأدباً عفيفاً شجاعاً. وقد عشقته امرأة سلامان. ولكي تنال مأربها اقترحت أن يتزوج أبسال من أختها، لتشغل مكان أختها في ليلة الزفاف في الظلام. ولكن لاح برق أبصر به وجهها، فخرج من عندها، ونجا بذلك من مكيدتها في خيانة أخيه. وترك بلده يفتح الأرض شرقاً وغرباً لأخيه. وحين عاد وجد زوجة

---

(١) ولمزيد من التفصيل يمكن مراجعة كتاب تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنه ٤٢٨هـ، وفي آخرها قصة أبسال وسلامان، القاهرة، ١٩٠٨، ص ١٥٨ ـ ١٧٧.

(٢) الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال ط ٣ دار نهضة مصر القاهرة، ١٩٧٣ س ٢٢٦.

سلامان لا تزال متعلقة به. ولما رفضها، اتفقت مع طابخه وطاعمه على أن يدسا له السم، فمات. ولما علم أخوه بموته، اغتم واعتزل الملك.

وتأويل رموز هذه القصة: أن سلامان مَثَلٌ للنفس الناطقة، وأبسال للعقل النظري المترقي في درجات الكمال عن طريق العرفان. وامرأة سلامان القوة البدنية الأمَّارة بالشهوة والغضب. وإباء أبسال معناه انجذاب العقل إلى عالمه. وأختها هي القوة العملية. وتلبيسها نفسها بدل أختها تسويل النفس الأمارة. والبرق اللامع: هو الخطفة الإلهية، وهي جذبة الحق. وفتح البلاد: اطلاع النفس بالقوة النظرية على الجبروت والملكوت، وترقيها إلى العالم الإلهي. والطابخ: هو القوة الغضبية، والطاعم: هو القوة الجاذبة لما يحتاج إليه البدن. وإهلاك سلامان إياهم: ترك النفس استعمال القوى البدنية آخر الأمر. واعتزاله الملك وتفويضه إلى غيره: انقطاع تدبيره عن البدن، وصيرورة البدن تحت تصرف شيء آخر غير النفس الناطقة [١].

وإلى هذه القصة ـ على حسب روايتها الأخيرة ـ أشار الشيخ ابن سينا في الإشارات (النمط التاسع في مقامات العارفين) حين قال: «فإذا قرع سمعك فيما يقرعه، وسرد عليك فيما تسمعه، قصة سلامان وأبسال، فاعلم أن سلامان مَثَلٌ ضُرِبَ لك، وأن أبسالا مَثَلٌ ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله، ثم حل الرمز إن أطقت» [٢].

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢١٥ ـ ٢١٧.

والقصة كما ذكرها ملخصاً برواياتها المختلفة لا تتصل بالإسلام من قريب ولا من بعيد، ولكن فيتز جيرالد، وهو أحد من اطلع على الإسلام، وعلم قول الكفار وافتراءهم على الرسول، وأنّ ما جاء به من القرآن الكريم وما أوحي إليه إنما هو مما يُملَىٰ عليه بكرة وعشياً، وأنه كان يأخذ تعاليم الدين الإسلامي من أحد الرهبان يسمى إسحاق بن حنين، إشارة إلى الراهب بَحيرا، لذا فقد قدَّم فيتز جيرالد لترجمة قصة سلامان وأبسال التي نظمها شعراً، فقال: إن هذه القصة هي التي استوحى منها الرسول محمد ﷺ الوحي وتعاليم الإسلام، فيقول:

From Which the Prophets drew, and none beside:
Who boasts of other inspiration, lies-
There are no other Prophets than The WiSE(١)

ثم يذكر الشاعر في أبيات قصيدته أن إله محمد ﷺ تجري أفعاله بكلمة كن فيكون:

'THE SHAH ceased counsel. and THE SAGE began.
'Oh last new vintage of the Vine of Life
'Planted in Paradise; Oh Master-stroke,
'And all-concluding Flourish of the Pen
'Kun FA YAKUN Yhyself prime Archetype,
'And ultimate Accomplishment of MAN !(٢)

ويعلق الشاعر على كلمة «كن فيكون» بقوله: إن هذه العبارة سرقت

(١) انظر: Edward Fitzgerald, Letters & Literary Remains, Macmillan & Co ltd, London,1903, vol.VII. p.229.

(٢) المرجع السابق.

من النصرانية ، وأودعت كتاب محمد عليه الصلاة والسلام، أي القرآن الكريم.

ثم يستمر الشاعر ليسخر من الإسلام وما تضمنته الشريعة الإسلامية من فضل الدِّيك، وأنه يوقظ الناس للصلاة، فيتهكم الشاعر من نداء المسلمين لصلاتهم أن يكون من ديك، وتقليده المؤذن الذي ينادي للصلاة، ثم يذكر صفة الأذان، وقد ذكرها بشيء من الازدراء والتلبيس :

Quoth a Muezzin to the crested
Cock - 'Oh Prophet of the Morning,
'Never Prophet like to you
'Prophesied of Dawn, nor Muezzin
'With so shrill a voice of warning
'Woke the sleeper to confession
'Crying, "LA ALLAH ILLA " LLAH,
'MUHAMMAD RASULUHU."
One, methinks, so rarely gifted
'Should have prophesied and sung
In Hear'n, the Birds of Hear'n among,
'Not with these poor hens about him,
'Raking in a heap of dung.'
'And, rephied the Cock, in Hearen
Once I was; but by my foolish" (١)

الأذان هو شعار المسلمين لندائهم إلى الصلاة، وفيه تعظيم الله وتوحيده، والاعتراف بنبوة محمد ﷺ؛ يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠

شـق لـه مـن اسـمـه لـيـعـزه فذو العرش محمود وهذا محمد
وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد [١]

وعن عبد الله بن زيد قال: لما أمر الرسول ﷺ بالناقوس ليضرب به للناس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت: ياعبدَ الله، أتبيع الناقوس؟ قال وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ فقلت: بلى. قال تقول: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله الا الله، أشهد أن لا إله الا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، اشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح، الله اكبر الله أكبر، لا إله إلا الله». قال ثم استأخر عني غيرَ بعيد، ثم قال: وتقول إذا قمت إلى الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا اله الا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله الا الله». فلما أصبحت، أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: «الرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألْق عليه ما رأيت فليؤذِّن، فإنه أندىٰ صوتاً منك». فقمت مع بلال، فجعلت أُلقيه عليه ويؤذن به. قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل مارأىٰ، فقال رسول الله ﷺ « فلله الحمد » [٢].

(١) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت _ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤

(٢) أبو داود، كتاب الصلاه ١/ ١٩٥ برقم ٤٩٩.

فوالله لذكر الله أكبر، وإن تعظيم الله وتكبيره وتوحيده لأعظم من ضرب النحاس والحديد في نواقيس النصارىٰ، ولهو أعظم من النفخ في المزامير والصور كما تفعل اليهود، وإن ذلك أولىٰ بالسخرية والاستهزاء من صيغة الأذان التي سخر وهزأ بها هذا الكاتب جهلاً من عنده، وحسداً في نفسه.

وأخيراً، فإن الشاعر يتحدث عن تعدد الزوجات في الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية تبيح ذلك، وما سبب هذا إلا محض الشهوة العارمة، والتلذذ. ويعلق بقوله: إن الطيور ـ وهي من المخلوقات التي لا تعقل ـ تستنكف وتأنف من التعدد:

'Lust to this uncleanly living
'With my sorry mates about me
'Thus am fallen. Otherwise,
I were prophesying. Dawn,
'Before the gates of Paradise.(١)

إن الشاعر دانتي روزتي (١٨٢٨ ـ ١٨٨٢م) D. G. Rossetti أحد أبناء الأسر الإيطالية التي لجأت إلىٰ بريطانيا، حيث نشأ هذا الشاعر متأثراً بالتراث الأدبي الإيطالي، وبالتراث الأدبي الإنجليزي. ومن الواضح أن روزتي تأثر بالكوميديا الإلهية لدانتي.

وفي إحدىٰ قصائده المشهورة بعنوان «داموزيل القديسة» The Blessed Damozel، وهي قصة امرأة مسيحية توفيت، ودخلت الجنة، وتمنت أن يلحق بها محبوبها، ليسعدا بالمحبة التامة والسعادة السرمدية

(١) انظر: Edward Fitzgerald, Letters & Literary Remains, p.231.

في الجنة. والقصيدة ذات فكر تبشيري تؤكد صدق الدين المسيحي، وأنه لا حاجة لأحد لأن يدين بأي دين آخر، والمقصود بذلك الدين الإسلامي، ثم يستطرد الشاعر ليقول للناس: عليهم أن يمشوا على أثر عيسى عليه الصلاة والسلام، وأن ينشروا الحب بينهم، والشاعر بذلك ينكر نبوة الرسول محمد ﷺ :

"There will I ask of Christ the Lord
Thus much for him and me:-
Only to live as once on earth
With Love, only to be,
As then awhile, for ever now
Together, I and he. " (١)

كما أننا نجد الشاعرة كريستينا روزتي (١٨٣٠ ـ١٨٩٤) Christina Rossetti شقيقة دانتي روزتي تسير وفق خطا أخيها الفكرية في التبشير بالمسيحية، وأن الدين النصراني هو دين الحق ولا دين سواه.

ففي قصيدة لها بعنوان «القدس الجديدة وسكانها» The New Jerusalem and its citizens تتحدث الشاعرة عن مدينة القدس وأهميتها بالنسبة للنصارى من الناحية الروحية، ومن ناحية طبيعتها وجمالها، وأنها أرض النبوات الأرض المقدسة، وبعد مديح طويل لهذه المدينة، وكيف أن الرومان خربوها، ولكن الأبطال خلصوها من ذلك الدمار. والآن، فإن القدس بأيدي المسلمين، ويجب تخليصها من يد العدو، أي

(١) انظر: Oswald Doughty(ed.), Rossetti's Poems, Dent, London, 1968, p.6.

المسلمين، فتقول الشاعرة :

By the waters of Babylon
We thirst for Jordan yet,
We pine for Jerusalem
Whereon our hearts are set:
Our priests defiled and slain,
Our princes ashamed and gone
Oh how should we forget
By the waters of Babylon?
By the waters of Babylon
Though the wicked grind the just,
Our seed shall yet strike root
And shall shoot up from the dust:
The captive shall lead captive,
The slave rise up and begone,
And thou too shalt sit in dust,
O daughter of Babylon. (١)

وفي قصيدة أخرى لها بعنوان «اعتبر» Consider تؤكد الشاعرة على فكرة التثليث المنافية لحقيقة التوحيد، التي هي أساس دعوة الرسل، وأساس دعوة الرسول ﷺ، وتؤكد أن الله ثالث ثلاثة، على خلاف زعم دين المسلمين، وهي بذا تبشر بالمسيحية، وتعارض الإسلام :

GIVE me the lowest: not that.
I dare

(١) أنظر: W.M. Rossetti (ed.) The Poetical Works of Christina Georgine Rossetti ,: Macmillan & co ltd , London,1904,p.234.

Ask for that lowest place, but
Thou hast died
That I might live and share
Thy glory by Thy side.
Give me the lowest place: or if for
me
That lowest place too high, make
one more low
Where I may sit and see
My God and love Thee so.[١]

ويعد وليم موريس (١٨٣٤ ــ ١٨٩٦م) William Morris من الشعراء الذين وجدوا مجالاً خصباً لكتابة الشعر في أفكار أدب العصور الوسطى وموضوعاته، كما جاء في أعمال تشوسر ومالوري وغيرهم. كما أنه عكف على دراسة الآداب الاسكندنافية، وتأثر بها، وقد كتب عن الشرق والإسلام قصيدة بعنوان «أرض الشمس الشرق وأرض القمر الغرب» The Land East of the Sun and West of the Moon وموضوع القصيدة موجه في صورة مقارنة بين الشرق والغرب، ووصف شعوب الشرق بالمزاج العصبي والخلق السيئ، وهذا رمز له بحرارة الشمس ووهجها، ووصف شعوب الغرب بالخلق الحسن والمزاج الهادئ، ورمز لهم بنور القمر وضيائه وجماله:

"Was grown the worn Stargazer's brow,
And his thin lips were less close-set,
For well-nigh now did he forget
Fellows and boat and land and sea,
And, waking, seemed no less to be
East of the SUN, West of the Moon,

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

And when they landed at high noon,
From all men would he go apart
In woods and meads, and deal by art
Whit his returning memor;
And, some things gained, and some slipped by,
His weary heart a whilet to soothe,
He wove all into verses smooth,
As tells the tale: that wotteth not
How much its last-told words have got
That his hand write: for soothly he
Was deemed a craftsmaster to be
In those most noble days of old,
Whose words were e'en as kingly gold
To our thin brass, or drossy lead:
- Well. e'en so all the tale is said
How twain grew one and came to bliss-
Woe's me! an idle dream it is!" (١)

وأخيراً، فإنه بالنظر إلى الأدب المسرحي في العصر الفكتوري، نجد أن المسرحية لم تتميز بخصائص خاصة في هذا العصر؛ إذ إن بوادر اضمحلال هذا الضرب الأدبي ظهرت في أواخر العصر الرومانسي، ولا غرابة ألا توجد أعمال مسرحية ذات بال يذكر في هذا العصر، كما هو الحال بالنسبة للشعر والرواية وأنواع الكتابات النثرية الأخرى، وخصوصاً في الموضوعات التي تناولت الإسلام.

---

(١) أنظر: William Morris, The Collected Works of William Morris, Longman, London,1911, p.120.

الباب الحادي عشر

العصر الحديث

العصر الحديث

١٨٨٠ ـ ١٩٥٠م

إن العصر الحديث في الأدب الإنجليزي تتخلله أحداث سياسية وتاريخية كبيرة في أوربا، ممثلاً في نشاط الأحزاب السياسية البرلمانية.

ففي فرنسا ظهرت أحزاب كثيرة، مثل الحزب الشيوعي، والحزب الاشتراكي، وحزب حركة الكفاح، وحزب الاتحاد العام للعمل والعمال، وحزب الاتحاد الاشتراكي الجمهوري كل هذه الأحزاب وتعددها لم يساعد على استقرار الوضع السياسي في فرنسا، حتى إنه في بعض الأوقات كانت الثقة في الحكومة الفرنسية مهتزة؛ بسبب عدم وجود حزب قوي صاحب أغلبية ساحقة يسندها، ويعطيها القدرة للاستمرار مدة طويلة، مما أدى إلى سوء الأحوال الداخلية في فرنسا.

أما في بريطانيا، فإن الوضع السياسي كان يبدو فيه شيء من الاستقرار؛ لأن الأحزاب السياسية لم تكن بتلك الكثرة الموجودة في فرنسا، إذ إن جملة الأحزاب تتمثل في حزب المحافظين، وحزب العمال وحزب الأحرار. ومع هذا، فإن السياسة البريطانية تعرضت لأزمات داخلية كبرى، مثل إضراب العمال في المناجم، وفي شركة السكك الحديدية، ومن هذه الأزمات ظهور مشكلة شمال إيرلندا، ومسألة تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش عام ١٩٣٦م. وهذه الأوضاع السياسية في الدولتين العظميين كانت تنعكس على بقية الدول الأوربية ما عدا

ألمانيا التي اعتبرها الجميع العدو الأول في أوربا .

ويلاحظ أن العصر الحديث شهد حركة صناعية واسعة ، أدت إلىٰ قلة الاهتمام بالزراعة ، فكثر عدد الطبقة العاملة ، وظهرت نتيجة لذلك الطبقة المتوسطة العليا The Upper Middle Class التي تسمىٰ أحياناً بالطبقة البرجوازية .

أما بالنسبة إلىٰ السياسة الخارجية في أوربا كما تمثلها بريطانيا وفرنسا ، فكانت كل القوىٰ متجهة إلىٰ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي ، ومحاولة القضاء علىٰ الخلافة الإسلامية ، وتقسيم العالم الإسلامي إلىٰ دويلات تقع في قبضة القوىٰ الاستعمارية ، كما حدث أن استعمرت فرنسا الشمال الإفريقي : المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ، إضافة إلىٰ بلاد الشام ، واستعمرت بريطانيا مصر ، وشبه القارة الهندية وبعض الإمارات الخليجية ، والعراق ، والأردن والسودان ، واستعمرت إيطاليا ليبيا ، وأخذت إسبانيا جزءاً من شمال المغرب ، وهولندا استعمرت أندونيسيا وهكذا . وقد سبق الاستعمار الأوربي العمل علىٰ تحريض ولاة الدولة العثمانية علىٰ السلطان المسلم في استانبول ، فحُرِّضَ محمد علي باشا الذي أعلن استقلاله عن الدولة العثمانية ، وكذلك حُرِّضَ الشريف الحسين في مكة المكرمة الذي أعلن نفسه ملكاً للدول العربية .

كما أن الغرب سعىٰ إلىٰ إنشاء بعض الجمعيات القومية داخل تركيا ، لتعلن رغبتها في التخلص من اتصالها بالعرب ، فوُجدت جمعية الاتحاد

والترقي، التي ساعدت على مجيء العلمانية إلى تركيا، ممثلة في جمعية تركيا الفتاة بعد حل الخلافة العثمانية، ومن ثمَّ مجيء مصطفى كمال أتاتورك.

يقول الأستاذ أنور الجندي: «أشار ولفرد كانتول سمث إلى أن أحقاد الصهيونية والصليبية كانت من وراء أتاتورك أكثر من خمسمائة سنة، خصوصاً بعد أن رفض السلطان عبد الحميد إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، ثم راحت الصليبية واليهودية تشنع بمبادئ الخلافة العثمانية، لتعمل على هدم قواعدها»(١).

ولقد استغلت الدول الاستعمارية نفوذها على الدول العربية والإسلامية، وسعت إلى تحقيق حلم اليهود في إنشاء وطن قومي لهم على أرض فلسطين، وتمكن اليهود من ذلك بمساعدة رئيس وزراء بريطانيا اليهودي بلفور، الذي أعطى اليهود ذلك الوعد بإقامة الوطن القومي، وتآمرت القوى الصليبية على تنفيذ هذا المخطط، وإيجاد المشكلة السياسية الخفية، مشكلة إسرائيل اليهود أعداء الله.

وأخرجت هذه القضية عن مدارها الديني إلى مدارها القومي الحربي، فجعلت مشكلة إسرائيل قضية بين العرب واليهود. وليت شعري، كيف تكون تلك قضية قومية، بل إنها قضية إسلامية، قضية دين وإيمان، فما أنقذ فلسطين والمسلمين يوم حطين إلا الكردي المسلم

(١) أنور الجندي، معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٠٤.

صلاح الدين، الذي لم يكن يرى القومية في الجهاد، بل كان يرى الإسلام والدين هو صلاح الدين. والعرب لم تكن عزَّتهم قط إلا بالإسلام، لقد مزَّق الاستعمار دول العالم الإسلامي، وحتى بعد رحيله لا يزال يعمل على مزيد من التمزيق، فهذه شبه القارة الهندية المسلمة سابقاً، أصبحت دولاً ثلاثاً، وهي : الهند وباكستان وبنجلاديش.

نعم، لم ينته الأمر عند هذا الحد، بل إن القوى الاستعمارية بعد انتهاء الاستعمار ومنح الدول العربية استقلالها، أوجدت النظم السياسية الخرقاء، وسلخت الأمة الإسلامية من تراثها، فدولة تحكم بموجب القانون الفرنسي، ودولة تأخذ بالمبدأ الاشتراكي، وأخرى بالمبدء الشيوعي، ورابعة تخلط بين الشريعة الإسلامية وبين النظم الوضعية، بل إن الحال امتدَّ ليشتمل حركة التغريب التي تعرض لها أبناء العرب والمسلمين، الذين ذهبوا في البعثات التعليمية إلى الخارج، وعادوا متنكرين للتراث العربي والإسلامي، حيث إنهم أصبحوا رسلاً للدعوة إلى الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده.

كل هذه الأحداث كانت لها آثارها التي انعكست على الأدب الذي قلَّ دوره في تصوير العربي والمسلم الحديث، بنفس الاهتمام والقوة التي كانت سائدة في عصور الأدب السابقة. ذلك أن الغرب تمكن من إجهاد البلاد الإسلامية وإضعافها فكرياً واقتصادياً وثقافياً وسياسياً، فتضاربت الآراء، وكثُرت الأهواء، وتعددت المشارب، وكثرت الخلافات، فتفرقت الكلمة وتشتَّت الشمل. حتى إن هناك عدداً من أبناء

المسلمين نبذوا الإسلام، ونظروا إليه على أنه دين قديم بالٍ لا ينفع مع سمات التطور التي وصلت إليها أوربا، وهي في سباق مع الزمن.

لقد أفسدت أوربا نظم التعليم في البلاد الإسلامية، وعملت على القضاء على أي حركة تدعو إلى الله ورسوله، وسلطت الحكام على من ينادي بالإسلام، وأوجدت أوربا النظم البرلمانية والأحزاب. لماذا الأحزاب في البلاد الإسلامية، أليس المسلمون حزباً واحداً هو حزب الله؟ فلم وجدت الأحزاب الأخرى؟ لتعارض ماذا؟ لتعارض الله ورسوله؟ هذا هو شأن الكفر منذ عهد النبوة، فلم يكن يعارض الله ورسوله إلا الأحزاب الذين هزمهم الله، وأعز جنده ونصر عبده، لقد قلَّ عطاء الأدب الإنجليزي في الحديث عن الإسلام في هذا العصر؛ لأن وسائل الإعلام الأخرى أصبحت تغطي الكثير من صور السوء التي خلفتها أوربا في البلاد الإسلامية، فظهر الفقر، وتدنَّى المستوى الصحي، وضَعُفَ المستوى العلمي لدى الإنسان المسلم، وتعزو ذلك إلى الإسلام لتنفر شعوبها عن اعتناق الإسلام.

وبعد أن ضعفت قوى الاستعمار والقوتان العُظمَيان فرنسا وبريطانيا، اللتان سادتا في النصف الأول من القرن العشرين، تسلمت أمريكا وروسيا زمام الأمر في التسلط على الإسلام، وما يراه الإنسان المعاصر كافٍ له أن يدرك بسمعه وبصره ما تعمله أمريكا وروسيا في اللعب بمصير الإسلام والمسلمين.

وبالنظر إلى حركة الرحالة، وكُتَّاب التاريخ الذين كتبوا عن الإسلام

في العصر الحديث، وجد الأدباء بعض الموضوعات والأفكار عن الإسلام، فإنها كانت مُسَهَّلة ميسرة بسبب النفوذ الأوربي، وتسلط الاستعمار على البلاد الإسلامية، الأمر الذي سَهَّل حركة الرحالة والمؤرخين لزيارة الأماكن التي يرغبون زيارتها من العالم الإسلامي؛ في جو يقلُّ خطورةً وصعوبة عما كان عليه الحال في السابق.

لقد كان اهتمام الناس بالاكتشافات الجغرافية في منتصف القرن التاسع عشر كاهتمامهم اليوم باكتشاف الفضاء، وكان بالإمكان لأي شخص أن يحصل على مساعدات مالية ومعنوية إذا جاء بمقترحات مناسبة، وخطة معقولة للقيام برحلة إلى بلدان العالم المجهول، إلى بلدان عالم السرِّ الغامض في الشرق وإفريقيا.

يتصدر هؤلاء الرحالة: السير ريتشارد بيرتون الذي انفرد بكثرة إنتاجه فيما كتبه عن رحلاته إلى جميع قارات العالم، ما عدا أستراليا، فكتب عن الطعن بالسلاح الأبيض، وعن الصيد بواسطة الصقور، وعن هندسة المناجم، وعلوم الآثار، والطب، والهندسة، وتسلُّق الجبال، وعن الدين والجنس. ولم يعجب بيرتون ببلاد كما أُعجب بالجزيرة العربية، التي يقول عنها: «هي الأرض التي تولَّع بها قلبي».

ففي عام ١٨٥٢م عرض بيرتون خدماته على الجمعية الجغرافية في لندن لغرض إجراء بعض الاكتشافات في المنطقتين الوسطى والشرقية للجزيرة العربية، وكانت خطة بيرتون هي السفر إلى مسقط، ومن هناك يبدأ رحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ماراً بالربع الخالي، وقد

أيدت الجمعية تلك الخطة، إلا أن شركة الهند الشرقية، وهي الممولة للمشروع، رأت أن الخطة مليئة بالأخطار، ولكنها وافقت على أن تسانده في دراسة اللغة العربية في بلاد يتم فيها تعلم اللغة على أحسن وجه. بعد ذلك أصبحت الخطة تبدأ فيها الرحلة من مكة المكرمة إلى مسقط، ماراً بالربع الخالي. هنا وجد بيرتون أن الخطة لها فوائد كثيرة، فبالإضافة إلى اكتشاف مناطق في الجزيرة العربية، فإنه سوف يحصل على لقب رحالة، مثل من سبقه من الرحالة، مثل بوركهارت.

وقد انتحل بيرتون في رحلته عدة شخصيات، فهو مرة طبيب، ومرة بحار، وأثناء إقامته بالقاهرة كان يحضر بعض الدروس الدينية، استعداداً لرحلة الحج إلى مكة والمدينة. والمعروف أن بيرتون كتب مؤلفه الشهير بعنوان (قصة شخصية عن الحج إلى المدينة ومكة) Personal Narrative of Pilgrimage to Al-Madina and Meccah. كما أنه قام بترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة» إلى الإنجليزية، وقد قدَّمنا الحديث عن ذلك في الفصل المتعلق بالعصر الرومانسي.

ومن الرحالة المشهورين: وليم جيفورد بلجريف، والذي كان ضابطاً بالجيش البريطاني في بومباي، وقد وقعت عينه لأول مرة على العرب في أثناء مروره بمصر عام ١٨٤٨م عندما كان في طريقه إلى الهند، ولم تمر سنة على سفره حتى فاجأ أسرته بتركه السلك العسكري وانضمامه إلى جماعة الآباء اليسوعيين المسيحية، بغرض العمل في التبشير بالنصرانية بين المسلمين العرب. فلقد أمضى عامين يسكن ديراً

للرهبان في الهند حتى منتصف عام ١٨٥٣م، بعدها أُرسل إلى روما ليتدرب على الرهبنة والتبشير في روما، ثم عين في عام ١٨٥٧م راهباً، وأرسل إلى بيروت ضمن البعثة التبشيرية، وأول عمل قام به بعد وصوله هو إتقان اللغة العربية التي كان ضعيفاً فيها.

وكانت لبنان في ذلك الوقت تعيش أزمة من الحروب الطائفية، وقد استغل بلجريف هذا الوضع، وقام ببعض المهمات السرية، زار خلالها جماعات الدروز والطائفة الإسماعيلية، وقد كان يتنكر في زي زعيم درزي، ومن المؤكد أنه قام بنشاط تجسسي أيضاً. وفي عام ١٨٦٢م قام بلجريف برحلة إلى الجزيرة العربية، بتمويل من الملك الفرنسي نابليون، الذي كان مهتماً بالعالم الإسلامي. وقد زار بعض البلدان في الجزيرة العربية وهو متنكر في زي طبيب باسم يسلم أبو محمود العيسى، وكان يصحبه شاب يوناني ملامحه عربية، ومجيد للعربية كأهلها. وقد مر بمدينة معان الأردنية وبمدينة الجوف (دومة الجندل)، وزار حائل والرياض. وأشهر ما كتبه مؤلفه بعنوان: «مذكرات رحلة عام كامل في وسط الجزيرة العربية وشرقها» ظهر عام ١٨٦٥م.

هاري سانت جون فلبي هو الرحالة المشهور في الجزيرة العربية، ذلك البريطاني الذي ولد في سيلان، وتعلم بكلية الثالوث بجامعة كمبردج، والتحق بالخدمة المدنية في الهند منذ عام ١٩٠٨م، ولقد كان لغوياً بارعاً، وإدارياً ناجحاً من الدرجة الأولى، فقد اختير لغرض تقديم تقرير للحكومة البريطانية عام ١٩١٤م عندما أعلنت الحرب ضد تركيا،

وأنزلت قوات بريطانية بالعراق، فقام بعمله الإداري لأول مرة في البلاد العربية عام ١٩١٥م.

وقد قام بعدد من المهمات السياسية في القاهرة وجدة والقدس ويظن أنه أصبح مسلماً عام ١٩٣٠م، ولكنه لم يكن ملتزماً بتحريم الخمر، فأي إسلام هذا لدى هذا المستشرق؟ لقد قام برحلات عديدة في الجزيرة العربية. وزار الربع الخالي. ولقد دون فلبي ملاحظاته عن كل رحلاته. وكانت كتاباته كثيرة وشاملة ودقيقة ، فقد كتب عن علم الطيور والحيوان، وعن الأعراق البشرية والآثار.

وفي عام ١٩٣٩م عاد فلبي إلى إنجلترا، وانغمس في خضم الحياة السياسة، وحاول حل القضية الفلسطينية، ورشح نفسه لعضوية مجلس العموم البريطاني.

ومع بداية القرن العشرين ازدادت معرفة الأوربيين بالحجاز، فقد أنهى المهندسون مسح عدة أجزاء لصالح مشروع سكة حديد الحجاز، ووجد بعض الباحثين طريقهم إلى خرائب مدائن صالح.

وفي عام ١٩٠٩م تجول في الجزيرة العربية رجل إنجليزي اسمه دوجلاس كاروثرز Carruthers ، وهو متخصص في علم الطبيعة، وكان قد زار كلاً من الكونغو وتركستان، ثم زار فيما بعد منغوليا، وكانت جولته هذه في سبيل البحث عن حيوان المارية أو المها العربي، هذا الظبي الجميل ذو اللون الأبيض الذي يقارب في حجمه حجم البقرة، والذي يوشك على الانقراض، كما انقرض من قبله الحمار الوحشي، والنعام،

بعد أن كانا يعيشان في هذه المناطق، وأدىٰ اندلاع الحرب العالمية الأولىٰ إلىٰ جلب العديد من الأوربيين إلىٰ الحجاز.

وكان من بين هؤلاء الأوربيين الرحالة الشهير لورنس، المعروف باسم لورنس العربي، الذي كان ضابطاً بالجيش الإنجليزي، فلقد اتصل بالشريف حسين بمكة المكرمة، وشجعه علىٰ الثورة العربية علىٰ الأتراك، ولقد عرف بكتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، الذي ألَّفه في الفترة من ١٩١٦م حتىٰ ١٩١٨م.

ومما يمكن ملاحظته في هذه الفترة علىٰ حركة الرحالة في البلاد الإسلامية: التنسيق المحكم، والتآمر القذر الذي عملت به بريطانيا وبقية الدول الأوربية علىٰ تقويض القوة الإسلامية. فنجد بلجريف يثير الشعوبية بين الناس في لبنان، وفلبي يثير حكام نجد بعضهم علىٰ بعض، ولورانس يثير الشريف حسين علىٰ الخلافة العثمانية، ثم العمل علىٰ جعل الجميع في مواجهة بعضهم بعضاً لتسويغ التدخل الاستعماري العسكري، وبالتالي تمزيق جسد الأمة الإسلامية، وتقسيم العالم الإسلامي إلىٰ دول لا تجمعها قوة الإسلام، بل كل دولة تنادي بالقومية وهوية الجنس، لا هوية الدين، تلك الهوية التي جمعت بلالاً وسلمان وصهيباً وأبا بكر، رضوان الله عليهم جميعاً، تحت لواء الإسلام، فالولاء والبراء لله وحده سبحانه وتعالىٰ.

هذه هي الخلفية التاريخية التي زودت أدباء العصر الحديث في الأدب الإنجليزي بما كتبوه عن الإسلام، فمن المعلوم أن فترة حكم الملكة

فكتوريا قد انتهت بعد وفاتها عام ١٩٠١م، إلا أن الإنتاج الأدبي للعصر الفكتوري بروحه المفعمة انتهىٰ منذ عام ١٨٨٠م، عندما ثار أدباء عظامٌ أمثال صموئيل بتلر، وفيتز جيرالد، وسونبرن، الذين عملوا علىٰ تغيير الوضع التقليدي في عصر الملكة فكتوريا فكرياً ودينياً وثقافياً. كل هذا أدىٰ إلىٰ الإسراع بمجيء العصر الحديث.

والأدب الإنجليزي في العصر الحديث قد تصعُب دراسته أو تتبعه بسهولة تامة؛ لأن الدراسات النقدية، والدراسات الأدبية، ودراسات تاريخ الأدب لم تكتمل بعد عن كل ما كتب، خصوصاً خلال الأربعين السنة الماضية. وأكثر ما يميز الأدب في هذه الفترة من تاريخ الأدب الإنجليزي أنه اتسم بالسرعة والتغير والتحول والتطور، إذ إن الجيل الواحد من الأدباء يرىٰ التغير يزداد يوماً بعد يوم، والاختراعات والابتكارات تتسارع في الظهور.

وإذا كان بيننا من الأدباء المسنين الذين أدركوا ظهور الجرامفون، والتلفون، والمرسلات اللاسلكية، والسينما في زمانهم، فإنهم في هذا الزمن يرون ظهور الحاسبات الآلية، والطائرات النفاثة، والتليفاكس وصراع الإنسان في رحلاته المتتابعة إلىٰ الفضاء وهبوطه علىٰ القمر.

وفي مجال الدراسات الاجتماعية ظهرت تحولات كثيرة حول المرأة وخروجها للعمل، وأصبح بإمكانها العمل في الدوائر النيابية والبرلمانية، وصحب ذلك تغير كبير في التقاليد والعادات بين الناس.

وبالنسبة للشيوعية، فقد انتقلت من دائرة التنظير إلىٰ واقع التطبيق.

واتسم هذا العصر بالحروب العالمية، الحرب الكبرىٰ الأولىٰ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م، والحرب الكبرىٰ الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م، التي أدت إلىٰ تدمير عظيم في أوربا، خصوصاً الحرب الثانية، حيث انهار الاقتصاد الأوربي، وانتشرت الأمراض، وأُزهقت الكثير من الأرواح، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ قيام عصبة الأمم لتحقيق مصالح الغرب ضد الشرق والإسلام، والتي أصبحت ـ فيما بعد ـ هيئة الأمم المتحدة، ودورها ضد الإسلام ليس يخفىٰ، كما يرىٰ الناظر ما يجري من أحداث في منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي والدول العربية، وفي أفغانستان والهند وبورما والفلبين والصومال والبوسنه والهرسك . . . . إلخ. وقد قصد بعصبة الأمم، أو هيئة الأمم الحيلولة دون نشوب الحروب ووقوع الكوارث، باعتبارها هيئة عليا تنظر في القضايا السياسية، هكذا زعموا.

إن كل هذه التغيرات والتحولات وجدت صداها في الأدب الإنجليزي في هذا العصر، مما جعل أدب هذه الفترة يختلف تماماً عن أدب العصور السابقة، فظهر الشعر الحر بكثرة، واعتمد النثر علىٰ فكرة الانطباعية، بدلاً من اعتماده علىٰ البلاغة والأدب الرصين المميز، فظهرت الرواية الواقعية التسجيلية، التي تصور المجتمع من خلال كاميرا الأدباء، وظهر مذهب تيار الوعي، والسريالية، والوجودية، وكثُرَ اللغط والجدال في مسائل الدين والعلم، والتركيز علىٰ ضرورة نبذ الدين، وإحلال العلم محله، حتىٰ غدت المسيحية لدىٰ كثير من الكُتَّاب أمراً غير ذي بال، وحل الفن محل الدين، فظهر الاتجاه الأدبي المعروف باسم الفن

من أجل الفن، وكان حامل لوائه وليم بيتر (١٨٣٩ - ١٨٩٤م) William Peter.

والنقد الاجتماعي في الأعمال الأدبية أصبح لا تحدُّه حدود أخلاقية أو سلوكية أو اجتماعية، فظهر أدب الجنس، وأدب العُري، والأدب المكشوف، وأصبح الشعر يتجه وجهات متعددة. فظهر شعراء التفاؤل والنظرة المستقبلية إلىٰ ما هو أفضل، ومن هؤلاء الشعراء: نذكر جون ديفيدسون، وهاوس مان، وإيرنست دوسن، كما ظهرت وجهة أخرىٰ ممثلة في شعراء الدين، أمثال الشاعرة آليبس مينيل.

كما أن الأدب الإنجليزي أصبح يميل إلىٰ العالمية في ما هو موجود في آداب الأمم الأخرىٰ، إذ أصبح الأدباء يميلون إلىٰ تقليد الاتجاهات الأدبية في فرنسا، وألمانيا، وإسبانيا، وإيطاليا، وتصوير الإنسان بعاداته وتقاليده في أماكن مختلفة من العالم، خصوصاً في المستعمرات في الهند، وأندونيسيا، وماليزيا، وتركيا، ومصر، وبلاد العرب الأخرىٰ، وكذلك في أوربا.

كل هذا أدىٰ إلىٰ الإحساس بالقوىٰ الاستعمارية لدىٰ بعض الكتاب في إنتاجهم الأدبي، أمثال كبلنج وفكره الاستعماري.

لذلك فإن روديارد كبلنج (١٨٦٥ـ ١٩٣٦م) Rudyard Kipling يعد أبرز الأدباء في العصر الحديث، فقد ملأ شعرُه الآفاق، فكان لشعره محبون ومتحمسون، كما كان لشعره المعارضون والكارهون. لقد تناول كبلنج موضوعات الاستعمار، وفكرة بسط النفوذ الاستعماري في

كثير من أعماله الأدبية. لقد كان مولعاً بالكتابة عن الشرق، حيث يعدُّ إنتاجه الأدبي همزة الوصل بين الشرق وبريطانيا في هذا العصر. لقد اهتم بالكتابة عن الهند كبلد من بلدان الحضارات الشرقية وتعدد الأديان. وكان اهتمامه بالدين الإسلامي في الهند أكثر من اهتمامه بأي دين آخر في شبه القارة الهندية، وعنايته بالإسلام والمسلمين تظهر جليَّةً في كثير من أعماله الأدبية، واستخداماته لبعض المصطلحات الإسلامية، والإشارة إلى النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم، والشريعة الإسلامية، والآداب الإسلامية. ويلاحظ أن بعض دواوينه التي طبعها كان يصدرها بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم»(١). وفي الأسطر التالية سوف نعرض إلى بعض النماذج الأدبية التي تحدث فيها كبلنج عن الإسلام.

ففي قصيدة بعنوان «بعض الحقائق عن حافظ» (١٨٨٦م) Certain Maxims of Hafiz، إشارة إلى الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي، يحاول كبلنج أن يحطَّ من قدر هذا المسلم، ويقدم صورة قاتمة عن حافظ ونظرته إلى الرِّقِّ والأرقَّاء، وتسلط حافظ في دولته وبلاده ومن حوله بالاستمتاع بالسراري والتسري بهِنَّ، فيقول:

IF It be pleasant to look on, stalled in the packed serai,
Does not the Young Man try Its temper and pace ere he buy?
If She be pleasant to look on, what does the Young Man say?
"Lo! She is pleasant to look on. Give Her to me to-day!

(١) انظر: Shamsul Islam,The Islamic Tradition in Kipling's Work, The Kipling Journal 1963,vol. 174,p.11.

Yea, though a Kafir die, to him is remitted Johannum
If he borrowed in life from a native at sixty per cent-per annum".(١)

ففي الأبيات السابقة يصف الشاعر المسلمين أثناء شرائهم الأرقَّاء من النساء بأنهم عندما يرغبون في شراء أي جارية، يستعملونها أولاً عن طريق الجماع، فإن صَلُحَت، اشتروها، وإلا فلا. ثم يقول الشاعر: فإذا اشترىٰ المسلم الجارية الكافرة وتمتع بها، فإن مصيرها نار جهنم. بل يستطرد الشاعر ليقول: إن المسلمين يستأجرون الجواري للاستمتاع بهن مقابل مبلغ زهيد من المال لا يزيد عن ستين قرشاً.

إن الزنا محرم في الإسلام، ومن زنىٰ فقد ارتكب كبيرة من أعظم الكبائر، والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفه في تحريم الزنا وإنكاره وذمه كثيرة لا يتسع المكان لذكرها، ويكفي أن نرد علىٰ شبهة هذا المؤلف بأن المسلمين يستأجرون الجواري للاستمتاع بهن، وهذا غير حق، فالله سبحانه وتعالىٰ في محكم التنزيل يقول: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢).

وهنا يريد الشاعر أن يقول بأن المسلمين يسترقُّون النساء للشهوة، وهو بذا يمقت نظام الرِّقِّ في الإسلام، الذي يقوم علىٰ العدل، ويرىٰ أنه ناحية غير إنسانية، ومبدأ ظالم في الإسلام. ولم يعلم الشاعر ما فعله

(١) انظر: Rudyard Kipling, Rudyard Kipling s' Verse 1885-1932,Hodder and Stough-ton, London, 1933, P.P. 60-61

(٢) سورة النور، الآيه ٣٣.

نظام الرق الغربي بمن سرقهم واستعبدهم من أناس أحرار، سطت عليهم أيدي العدوان والبغي في إفريقيا، وخير مثال لذلك ما نجده في الآداب الغربية، ومثال على هذا قصة «الجذور» Roots لكاتبها آليكس هالي Alex Haley ، تلك الملحمة القصصية التي تحكي السطو الغربي على الأبرياء الأحرار من الأفارقة وسرقتهم لاسترقاقهم.

إن الرق كان موجوداً في كل الملل التي جاءت قبل الإسلام، ولكن الإسلام جعل للرق شروطاً وأسباباً مشروعة، كما جعل الفكاك من الرق من وجوه التشريع الإسلامي، فأوجب العتق في الكفارات مثل كفارة الظهار، وكفارة اليمين وكفارة مَنْ جَامَعَ في نهار رمضان، وكفارة القتل الخطأ. كما أن الإسلام أوصى بالأرقاء والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾[1] ويقول رسول الله ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت إيمانكم»[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تلبسون، ومن لم يلائمكم فبيعوه ولاتعذبوا خلق الله»[3]. بل إن الإسلام أباح للمملوك الذي يرغب أن يكاتب سيده على التحرر وفك رقبته فله ذلك، فهو شرع الله في دين الإسلام، وهذا قوله تعالى:

(١) سورة النساء، الآية ٣٦ .

(٢) أبو داود كتاب السنة ٤/ ٤٦١ ٥١٥٦ وقد أخرجه أبي ماجه برقم ٢٦٩٨ .

(٣) أبو داود كتاب الأدب ٤/ ٤٦٣ برقم ٥١٦١ .

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(١)، والإسلام حث على العتق وأعظم فيه الأجر والثواب، فهذا رسول الله ﷺ يقول: «من أعتق رقبة مؤمنة، أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار»(٢).

وفي قصيدة أخرى بعنوان «جسر أكبر» Akbar's Bridge، وكذلك في قصيدة «أمير المواعظ الدينية» Amir's Homily يسلط الشاعر الضوء في هاتين القصيدتين على أحد أمراء المسلمين في أفغانستان، وهو الأمير عبد الرحمن الأفغاني، ولقبه جليل الدين محمد أكبر، فالشاعر كبلنج هنا يصف هذا الأمير بالجبروت والتعسف والظلم، بسبب تمسكه بالإسلام؛ لأن تلك هي حقيقة الإسلام. وأن هذا الأمير استخدم أموال المسلمين في بناء المساجد، بدلاً من بناء جسر أو قنطرة للمشاة:

"Munim Khan, that Sire of Asses, sees me daily come and go
As it suits a drunken boatman, or this ox who cannot row.
Munim Khan, the Owl's Own Uncle-Munim Khan, the
Capon's seed,
Must build a mosque to Allah when a bridge is all we need!
Eighty years I eat oppression and extortion and delays-
Snake and crocodile and fever-flood and drouth, beset my
ways.
But Munim Khan must tax us for his mosque whare'er befall;
Allah Knowing (May He hear me!) that a bridge would save
us all!"(٣)

إن الشاعر يكره بناء بيوت الله، فهو يرى الحياة المادية أهم من الحياة

---

(١) سورة النور، الآية ٣٣.

(٢) مسلم كتاب العتق ٢/ ١١٤٧ برقم ١٥٠٩.

(٣) انظر: Rudyard Kipling, Rudyard Kipling 's Verse1885 193 2 ,P. 670.

الروحية، ويرى الحياة الدنيا أهم من الحياة الأخرى. ويزداد تهكم الشاعر من هذا الأمير المسلم، عندما نعتّه بقوله: حامي حمى الإنسانية، وسماه: سيد الجحوش، هذه الكلمة التي كررها في أكثر من مكان في ثنايا القصيدة:

"Jelaludin Muhammed Akbar, Guardian of Mankind,
Spoke with Munim Khan his Viceroy, ere the midnibght stars
declined-
Girt and sworded, robed and jewlled, but, on either cheek
appeared.
Four shameless scratches running from the turban to the
beard .
"Allah burn all Potters' Widows! Yet, since this same
night was young,
One has shown me by sure token. there was wisdom on her
tongue.
Yes, I ferried her for hire. Yes," he pointed, "I was paid."
And he told the tale rehearsing all the Widow did and said .
And he ended, "Sire of Asses-Capon-Own's Uncle
-Know" (١)

وقد يبدو لأول وهلة لمن يقرأ بعض أعمال كبلنج أنه في إنتاجه الأدبي عن الإسلام يظهر ميلاً له، ولكنه في الحقيقة يصور الإسلام جنباً إلى جنب بمثل ما يصور به البراهمية والهندوكية، ولا أدلَّ على ذلك من تلك الرسالة الأدبية التي كتبها خلال زيارته لمصر بعنوان «مصر السحرة» Egypt of the Magicians عام ١٩١٣م، وفي هذه الرسالة يظهر جو

(١) المرجع السابق، ص ٦٧٠.

الصراع بين الأديان وعلى الأخص الصراع بين الإسلام والمسيحية، فيؤكد سماحة المسيحية التي يمكن أن تتسامح مع الأديان الأخرى، حتى مع أصحاب الأديان الذين لا يستحق دينهم قيمة روحية أو علمية، على عكس الإسلام المتسلط بمنهجه الواحد: إما الموت أو الحياة، أي الجهاد ونشر لا إله الا الله[١]. وأكد كبلنج هذا الصراع عندما توّج أعماله الشعرية بقصيدته المشهورة «الشرق والغرب» East and West، والتي يقول فيها:

Oh, East is East, and West is West and never the
twain shall meet,
Till Earth and Sky stand present by at God's great
Judgment Seat,
But there is neither East nor West, Border, Nor
Bread, nor Birth,
When two Strong men Stand face to face,Though
They come from the ends of earth".[٢]

وبالرغم من أن كبلنج اشتهر بإنتاجه الأدبي في الشعر، إلا أن أعماله لم تخل من مشاركات أدبية في النثر، ففي قصة له بعنوان «رحلة عروس» Bride Progress يتحدث الكاتب عن عروسين من بريطانيا في زيارة لهما خلال شهر العسل إلى الهند، وفي معبد هندي في مدينة بنارس المدينة المقدسة في الديانة الهندوكية، وبينما كان هذان العروسان

(١) انظر: Shamsul Islam, The Islamic Tradition in Kipling's Work, The Kipling Journal,vol 174, p.13

(٢) انظر: The Oxford Dictionary of Quotations, Oxford, 1979, p.297.

يسترخيان، إذ بهما ينزعجان لسماع صوت المؤذن المسلم ينادي بالأذان للصلاة، فكَرِها ذلك، فيقول المؤلف: وفجأة في جو السكون، انطلق صوت يدوي كالرعد: أشهد أن لا إله إلا الله، إنه الملاَّ (المؤذن) يدَّعي وحدانية الله. . . إن هذا النداء صوت عبر المدينة النائمة حتىٰ وصل إلىٰ النهر، وبالتأكيد فإن هذا الملا لم يؤثر بشيء من صياحه (أذانه) سوىٰ أنه احتقر المعابد التي تفوح بعبيق الروائح من أضرحة الموتىٰ الهندوس. والعروس لم تعقل شيئاً مما سمعت، وقالت لزوجها: ما هو المقصود بهذا الإزعاج»[1] . فكبلنج يرىٰ أن الأذان إزعاج وضجة، الله أكبر الله أكبر، ولو كره الكافرون.

ويؤكد كبلنج هذا الشعور عن الأذان في قصة بعنوان أخرىٰ «مدينة في ليلة مخيفة» The City of a Dreadful Night ، فهو يتحدث عن الليل في مدينة لاهور في باكستان، حيث كان يعمل بها مراسلاً وكاتباً صحفياً لإحدىٰ الصحف البريطانية، فيصف الكاتب عودته إلىٰ منزله من عمله في ليلة من الليالي التي أصيب فيها بالأرق، ولم يعد يستطيع النوم، فظل ينظر إلىٰ السماء، وإلىٰ المدينة كلها وهي تعيش في سكون تام، ثم فجأة ينتقل كبلنج ليصف المدينة في ظل الدين الإسلامي، وأنها مدينة متخلفة؛ ذلك أنه عندما دنا الفجر، قام المؤذن لينادي بالصلاة، صلاة الفجر، فيقول: إن هذا الأمر سبب الإزعاج لكثير من الناس، وبدَّد السكون والهدوء الذي خيَّم علىٰ تلك المدينة، مما جعل تلك الليلة في

(١) انظر: Macmillan & Rudyard Kipling From Sea to Sea And Other Sketches, coltd, London,1909,vol.11P.414.

تلك المدينة ليلة مخيفة (١) . وليت شعري هل عرف هذا الكاتب معنىٰ قول المؤذن: «الصلاة خير من النوم».

لقد سخر المؤلف من قول المؤذن: أشهد أن لا اله الا الله.

ثم يقول: وازدادات الضجة في المدينة عندما نادىٰ المؤذن بقوله محمد رسول الله إشارة إلىٰ بغضه للرسول ﷺ، وإنكاره لنبوته عليه الصلاة والسلام (٢).

وفي قصة بعنوان «عين الله» The Eye of Allah يتحدث كبلنج عن الإسطرلاب أو البوصلة، ورمز إليها بعين الله؛ لأن المسلمين يستخدمونها لتحديد اتجاه القبلة ولعله يقصد بذلك: «فثم وجه الله»، وأن الإسطرلاب هو عين الله الذي يحدد اتجاه الكعبة المشرفة. ويقول المؤلف: إن مجموعة من الرهبان في زيارة لهم إلىٰ مصر شاهدوها عند بعض المسلمين، فأوضح أحد الرهبان بأنه يعلم عن هذه الآلة من خلال قراءته لأحداث الحروب الصليبية، ونُقلت إلىٰ بريطانيا بواسطة راهب اشترىٰ واحدة من إسبانيا. وقد علم هؤلاء الرهبان فائدة هذه الآلة وقيمتها العلمية والعملية، ولكنهم قرروا الخلاص منها، لأنها تذكرهم بدين محمد ﷺ دين الإسلام، ولأنها من صنع المسلمين (٣).

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٣ ــ ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر: Roger L. Green (ed.), Ruadyard Kipling Stories and poems, Dent, London,1970.P.P147,154,158.

ولقد كتب كبلنج قصة بعنوان «مقتل حاتم طيئ» The Killing of Hatim Tai ، والقصة لايتصل موضوعها بشخصية ذلك العربي الكريم من بني طيئ، بل إن المؤلف اختار الاسم هكذا عشوائياً. وهي قصة رجل تجرَّأ بقول سوء على الرسول ﷺ، والذي رمز له بكلمة Mahout وإن كانت تعني سائق الفيل، لكن ورودها في النص بصورة تعني محمداً ﷺ وأنه ـ أي ذلك الرجل في القصة ـ تجرأ على زوجاته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام . بعد ذلك يقول المؤلف إن حاتم طيئ عندما وقع في أيدي الحكومة، تندم على ما فعل، لأنه وقع في أيدي المحمديين السيئين الظالمين (١) ، الذين قال عنهم كبلنج في قصة أخرى بعنوان «بخصوص لوسيا» Concerning Lucia ، ففي حديث جانبي مع أحد شخصيات القصة يقول: ان المحمديين أناس حمقى أغبياء (٢) .

وفي قصة بعنوان «الرجل العصامي» A self-made man يقول: إن المسلمين يكرهون الكفار، ويتأففون من التعامل معهم، فأي دين هذا هو دين الإسلام؟ (٣).

لقد عُرف جون ديفيدسون (١٨٥٧ ـ ١٩٠٩م) John Davidson بشعره المليء بروح التشاؤم في المستقبل، وبالعواطف والأحاسيس التي تبعد الأمل من القلوب. فقد كتب مجموعات كبيرة من أعماله الشعرية، فله ديوان بعنوان «أغاني شارع الأسطول» Fleet Street Eclogues صدر عام

(١) انظر : Rudyard Kipling, From Sea to Sea And Other Sketches, vol.II, P.37

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

١٨٩٦م، وديوان آخر بعنوان «أغان وأناشيد» Ballads and songs The Triumph of Mammon صدر عام ١٨٩٤م.

وفي عمل من أعماله في الشعر التمثيلي كتب مسرحية شعرية بعنوان «انتصار مأمون»، وهو عنوان أحد القصائد، وموضوع القصيدة يحكي أن المأمون أمير ملحد تولى الحكم في بلدة ثول [١]، وهي ـ كما تشير كتب التاريخ ـ مقاطعة في منطقة إيسلاند Iceland شمال الدول الإسكندنافية بعد أن قتل أباه وأخاه الأكبر، بقصد إصلاح الأموال العامة للمملكة. فبدأ بإحضار المفكرين والمصلحين لوضع قواعد وأنظمة الحكم والدولة الجديدة من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وتطوير العلوم والدين:

On God, the nothing, and his damned event
That mocked the world for sixty centurie;
Nor Will I linger eating out my heart
While this new proxy of divinity
Your specious evolution, blunders on
From tedious age to age. I'll carve the world
In my own image, I, the first of men
To comprehend the greatness of mankind,
I'll melt the earth and cast it in my mould,
The from and beauty of the universe.
Say after me 'Get thee behind me, God;
I follow Mammon. Say it, say it!"[٢]

(١) ثول: قرية صغيره في طريق المدينه المنورة على بعد تسعين كيلو مترآمن مدينه جدة شمالاً، وكلمة مأمون اسم من أسماء آلهة اليونان، وهو إله المال، ولكن في هذا السياق هو اسم من الأسماء العربية الإسلامية.

(٢) انظر Maurice Lindsay, John Davidson: A selection of his Poems : Hutchinson, London,1961, p.p173-174.

والقصيدة في جملتها مليئة بالفكر الإلحادي، ويبدو الشاعر، وإن لم يكن يمس الإسلام بصورة مباشرة، لكنه جعل الشخصية الرئيسية في موضوع القصيدة اسم أحد الخلفاء المسلمين المشهورين، وهو الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد ، وكأنه يُعَرِّضُ بهذا الخليفة.

ومن شعراء التشاؤم المعاصرين لديفيدسون: الشاعر هاوس مان (١٨٥٩ـ ١٩٣٦م) A. E. Housman، الذي عبَّر بصورة مضطردة ومستمرة عن أحاسيس وأفكار التشاؤم في كثير من قصائده. ففي قصيدة بعنوان «طفل من منطقة شروب» A Shropshire Lad يتحدث الشاعر عن عدم الجدوىٰ من الحياة، والنظر إليها نظرة بؤس ويأس، وتتضح تلك الصورة المتشائمة في شعر هاوس مان في قصيدته التي اسمها «ترنيمات عيد الفصح» :Easter Hymn ، فيقول :

"If that Syrian garden, ages slain,
You sleep, and know not you are dead in vain,
Nor even in dreams behold how dark and bright
Ascends in smoke and fire by day and night
The hate you died to quench and could but fan,
Sleep well and see no morning, son of man.
But if, the grave rent and the stone rolled by,
At the right hand of majesty on high
You sit, and sitting so remember yet
Your tears, your agony and bloody sweat,
Your cross and passion and the life you gave,
Bow hither out of heaven and see and save," (١)

---

(١) انظر: A.E. Housman, More Poems by A.E. Housman, Jonthan Cape, London, 1936, p.15.

وفي نفس القصيدة نجد الشاعر يتحدث عن اليهودية دين موسى عليه السلام، وعن النصرانية دين عيسى بن مريم، ويعرِّج بالحديث عن الدين الذي جاء بعد موسى وعيسى عليهما السلام، ويقصد بذلك دين الإسلام، وأهله الذين استحلوا الأرض المقدسة أرض الميعاد، وهم أناس لا يحب الشاعر أن يكون معهم في جنة واحدة، وهو يتمنى أن يموت، ولا يعرف هؤلاء الناس:

"I see the country far away
Where I shall never stand;
The heart goes where no footstep may
Into the promised land.
The realm I look upon and die
Another man will own;
He shall attain the heaven that I
Perish and have not known.
But I will go where they are hid
That never were begot,
To my inheritance amid
The nation is not,
Where mixed with me the sandstorms drift,
And nerve and heart and brain
Are ashes for the air to lift
And lightly shower again."(١)

ومن شعراء التشاؤم إلى شعراء إحياء التراث، كما نجد ذلك في أعمال رسل Russell ويتس Yeats.

(١) المرجع السابق، ص ١٦ ـ ١٧.

لقد كان رسل (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥م) G.W.Russell، من أبرز الشعراء الذين ساهموا في إحياء التراث الإيرلندي ضمن أعمال الأدب الإنجليزي وتاريخه. ومع أن رسل لم يتناول الحديث عن الإسلام في إنتاجه الأدبي، إلا أنه ذهب إلى الأسلوب الفكري الذي اعتمدت عليه السياسة البريطانية في إثارة الفتن، وبث روح القومية والشعوبية والمذهبية بين الناس، خصوصاً في البلدان التي يوجد بها مسلمون وغير مسلمين، كما في شبه القارة الهندية، التي توجد بها ديانات متعددة. لذا نجد رسل يتحدث عن بعض تلك الأديان للرفع من شأنها، وتحريك العواطف والبواعث الدينية، ليعمل أصحاب تلك الأديان على محاربة بعضهم البعض، كما نراه حاصلاً اليوم في الهند بين طوائف السيخ والهندوك والبراهمة والمسلمين.

لقد كتب رسل قصيدة بعنوان كرشنا Kirshn، وهو معتقد ديني معروف في الهند. وقد استوحى الشاعر بعض الأفكار الهندوكية، وضمَّنها هذه القصيدة، مُمَجِّداً هذه الديانة، وأنها من الديانات المناسبة للهنود، وهو بهذا يرى أن الإسلام دين لا يصلح للهنود، بل وللناس جميعاً، ويشير إلى أن دين الكرشنا مصدر النور والخير والإشعاع، وعلى الهنود المسلمين ترك الدين الإسلامي، واعتناق الكرشنا:

"I saw the King of Kings again, a miser with
a heart grown cold,
And yet He is the Prodigal, the Spendthrift
of the Heavenly Gold,
The largesse of whose glory crowns the
blazing brows of cherubim,

And sun and moon and stars and flowers are
jewels scattered forth by Him.
I saw the King of Kings descend the narrow
doorway to the dust
Whit all his fires of morning still, the beauty,
bravery, and lust.
And yet He is the life within the Ever-living
Living Ones,
The ancient with eternal youth, he cradle of
the infant suns,
The fiery fountain of the stars, and He the
golden urn where all
The glittering spray of planets in their myriad
beauty fall." (١)

وفي قصيدة أخرى كتبها رسل بعنوان «وجوه للذاكرة» Faces of Memory نجده يحاول أن يستخلص مصر من بين الدول الإسلامية، واعتبارها بلداً غير مسلم، وأن صلتها الأولى ليست بالإسلام بقدر ما لها من صلة بأيرلندا ، وهذا هو منهج هذا الشاعر في البحث عن صلة إيرلندا بغيرها من الشعوب ضمن حركته التي تُعنى بإحياء التراث الإيرلندي، فيقول :

"The sun rich face of Egypt glows,
The eyes of Eire brood,
With whom the golden Cyprian shows
In lovely sisterhood.
Your tree of life put forth these flowers
In ages past away:
They had the love in other hours
I give to you to-day." (٢)

(١) انظر : A. E. Housman,Collected Poems of G.W.Russell. Co. Ltd, Macmillan London, 1913, P.62.

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

ويتحدث رسل في قصيدة له بعنوان «أغنية الهند» Indian Song عن الدين البراهمي، والآلهة الهندية لهذا الدين، والحديث عن صور التصوف في هذا الدين، وأن ذلك مثار إعجابه، وأنها طريق السعادة والسرور، فيقول :

"High above darkening mounds where
fade the fairy lights of day,
All the tiny planet folk are waving us from
far away;
Thrilled by Brahma's breath they sparkle with
the magic of gay
Brahma all alone in gladness, dreams the joys
that throng in space," (١)

وإذا اعتبر رسل من أبرز الشعراء الذين اهتموا بإحياء التراث الإيرلندي في الأدب الإنجليزي، إلا أن يتس Yeats في هذا المنحى يعد أكثر أهمية من رسل، وأعماله الأدبية تفوق كثيراً أعمال رسل، لقد كان وليم بتلر يتس (١٨٦٥ ــ ١٩٣٩م) W.B. Yeats من الذين جدُّوا واجتهدوا في بعث تراث موطنه إيرلندا ضمن إنتاج الأدب الإنجليزي بتاريخه وأساطيره وتراثه وفنونه، ويكفي في ذلك أن والديه كانا من أسر عريقة في العلم والفن والأدب. لقد اهتم يتس كثيراً بالشرق، فظهر في شعره الحديث عن الأنبياء، مثل سليمان عليه السلام، وقصته مع بلقيس ملكة سبأ، وتحدث أيضاً عن العرب والمسلمين، وبالأخص عن هارون الرشيد، وتحدث عن الصحراء العربية، والصيد بالطيور. واهتمام يتس

(١) المرجع السابق، ص ١٥٧ .

بالعرب جعله يقول: إن «الإيرلنديين تعود أصولهم الأولى إلى جزيرة العرب»(١). لقد تأثر يتس كثيراً بالشرق بعد قراءته قصص «ألف ليلة وليلة»، حتى إنه تمنى أن يجعل بعض إنتاجه الأدبي على نمط حكايات «ألف ليلة وليلة» وأسلوبها(٢).

لقد كتب يتس عدداً من القصائد التي لها صلة بالإسلام والمسلمين، ففي قصيدة له بعنوان «هدية هارون الرشيد» The Gift of Harun Alrashid تحدث الشاعر عن عظمة هذا الخليفة المسلم، وأنه ذخيرة علمية كبيرة كامنة في هذا الرجل العربي البدوي الفظ، ولعله يشير هنا إلى الهدية التي أهداها هارون الرشيد لشارلمان ملك فرنسا. والقصيدة تتحدث أيضاً عن واقعة البرامكة ومقتل يحيى بن جعفر البرمكي. والشاعر يحاول أن يظهر فتنة عفا عنها الدهر، فهو يذكر المسلمين بما يظنه أنه ماضٍ أسود لهم:

"Kusta Ben Luka is my name, I write
To Abd Al-Rabban; fellow-roysterer once,
Now the good Caliph's learned Teasurer,
And for no ear but his.
Carry this letter
Through the great gallery of the Treasure House
Where banners of the Caliph hang, night-coloured
But brilliant as the night's embroidery," (٣)

(١) انظر: Adnan M. Wazzan, Notes and Comments: Arabia in Yeats' Poetry, Islamic Studies, Islamabad,vol.29, no 1,1990 pp 93-94.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٤.

(٣) انظر: W.B. Yeats, W.B. Yeats Collected Poems, Macmillan, London, 1967, p511

وقصيدة «هدية هارون الرشيد» كما يذكر يتس هي في أساسها عرض للحقيقة الضائعة التي تربط الأبطال الإيرلنديين بالخلفاء المسلمين :

"Those terrible implacable straight lines
Drawn through the wandering vegetative dream,
Even those truths that when my bones are dust
Must drive the Arabian host." (١)

أما قصيدتا «سليمان إلى ملكة سبأ » Solomon to Sheba ، «وسليمان والساحرة » Solomon and the witch ، ففيهما يتحدث يتس عن الجنس العربي كما تمثله بلقيس ملكة سبأ . والقصيدتان ذواتا علاقة وطيدة بالقصيدة السابقة «هدية هارون الرشيد»، فسليمان وبلقيس هنا يرمزان للحكمة والعلم والعاطفة :

"Sang Solomon to Sheba,
And Kissed her dusky face
Sang Solomon to Sheba
And Kissed her Arab eyes. (٢)

ثم يقول يتس عن حكمة سليمان الذي رأىٰ أنه فَطِن كَيِّسٌ ذكي :

Who understood
Whatever has been said, sighed, sung
Howled, maived-or barked, brayed, belled, yelled
cried crowd." (٣)

والشاعر يتس في قصائده التي تتحدث عن نبي الله سليمان عليه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

السلام يعتمد أساساً على قصة هذا النبي، كما هي موجودة في المصادر الإسلامية، وليس كما هو موجود في المصادر اليهودية في العهد القديم[١].

وما من شك في أن يتس تأثر بالشرق، فكتب عن الهند، وعن أسرار الشرق الغامضة، واهتم بالفلسفة الهندية، والمسرحية اليابانية، ولكنه تأثر أكثر بالفكر العربي والخلق العربي.

والشاعر جون درينك وتر (١٨٨٢ - ١٩٣٧م) John Drinkwater من أدباء العصر الحديث الذين اهتموا بتصوير حياة العظماء، والشخصيات المهمة في التاريخ؛ أمثال المسيح عيسى ابن مريم، وابرهام لنكولن وكرومول، وما كان في حياتهم، وما لاقوه من متاعب ومصاعب في حياتهم. ففي قصيدة له بعنوان «ليلة عيد الميلاد» A Christmas Night يتحدث الشاعر عن نبي الله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه في تلك الليلة بعث من بين الموتى، ونظر فيما أثر به من دعوته في الناس:

"Christ for a dream was given from the dead
To walk one Christmas night on earth again,
Among the snow, among the Chtistmas bells.
He heard the hymns that are his praise:
Noel,"[٢]

ثم يستمر الشاعر ليقول: إن المسيح صُلِبَ مرة واحدة، وأن اسمه

---

(١) انظر: S.B.Bushrui,"Yeats' Interest Yeats" , Centenary,London, 1965,P.309.

(٢) انظر: John Drinkwater, Olton Pools, Sidgwick & Jackson ltd, London, 1917, P.37

أصبح مشهوراً في أصقاع الدنيا كلها، والأجراس تقرع من أجله، والشموع تُضاء له :

"My way of life being difficult and spare.
It is beautiful that a dream in Galilee
Should prosper so. They crucified me once,
And now my name is spoken through the world,
And bells are rung for me and candles burnt." (١)

والشاعر هنا لا يرىٰ عظيماً من الأنبياء أعظم من عيسىٰ عليه السلام، وهو بهذا ينكر نبوة الرسول محمد ﷺ، ولا يعطيه قدره وحقه.

ونحن لا نفرق بين أحد من رسل الله، ونقول: إن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام لم يُقتل ولم يُصلب، كما تظن النصارىٰ، وهذا مايشير إليه قول الحق تعالىٰ في القرآن العظيم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٢)، ولكن الرسول محمداً أفضل الخلق أجمعين، لا كما زعم هذا الكاتب، يقول عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشقُّ عنه القبر وأول شافع، وأول مُشَفَّع» (٣).

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة النساء، الآيتان ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٣) مسلم كتاب الفضائل ٤/ ١٧٨٢ برقم ٢٢٧٨.

والحديث عن الإسلام في الأعمال الأدبية لأدباء العصر الحديث في تاريخ الأدب الإنجليزي قد يظهر جلياً في أعمال ذلك الأديب المستشرق، الذي كان همه الأول الشرق والإسلام على وجه الخصوص، إنه جيمس إلوري فليكر (١٨٨٤ ـ ١٩١٥م) James Elory Flecker الأديب الإنجليزي ذو الأصول اليهودية من جده لأبيه وجده لأمه، وكان في معظم إنتاجه الأدبي يتحدث عن الإسلام شعراً ونثراً [(١)] .

لقد اعتنى والدا فليكر بابنهم من الناحية التعليمية، ووجهوه إلى أحسن المدارس في ذلك الزمن، حتى أكمل تعليمه العام، بعدها التحق بجامعة أكسفورد عام ١٩٠٢م، وتحصَّل منها على الشهادة الجامعية عام ١٩٠٦م بتقدير مقبول، الأمر الذي لم يتح له فرصة كبيرة للعمل في بعض الوظائف المرموقة، ولم تكن أمامه فرصة سوى الانخراط في سلك التعليم، أو العمل كاتباً إدارياً، أو العمل في حقل الصحافة، وانتهى به الأمر ليعمل مدرساً لمدة قصيرة ، ثم التحق بجامعة كمبردج لتعلم بعض اللغات الإسلامية بغرض تأهيله لصالح وزارة الخارجية البريطانية للعمل في السلك الدبلوماسي في بعض الدول الإسلامية، ومن هنا بدأ اهتمام فليكر بالشرق والإسلام يزداد، فتعلم اللغة العربية والتركية والفارسية، بعدها عمل في القنصلية البريطانية في استانبول لمدة عام واحد من ١٩١٠م إلى ١٩١١م، وبعدها نقل للعمل نائباً للقنصل العام في السفارة البريطانية بلبنان في الفترة من ١٩١١م حتى ١٩١٣م، وقد استفاد من

(١) هناك دراسة مكثفة عن فليكر واتجاهه الأدبي وفكره الاستشراقي للدكتور عدنان محمد وزان بعنوان : Jomes Elory Flecker: Orientalist Man of letters, London,1990.

إقامته بالبلاد الإسلامية كثيراً في إنتاجه الأدبي ، فكتب عن الإسلام والمسلمين بتدفق وكثرة .

لقد كتب فليكر عدداً من القصائد التي تناولت الكلام عن الإسلام، ويرىٰ فليكر نفسه أن قصيدة «بوابات دمشق» The Gates of Damascus من أفضل قصائده الشعرية عن الشرق ، جاء ذلك في رسالته إلىٰ أحد أصدقائه فرانك سيفري . والقصيدة تقوم علىٰ جملة انطباعات فليكر وخبراته التي مر بها خلال زيارته لدمشق عندما كان يعمل نائباً للقنصل البريطاني في بيروت .

والقصيدة تتألف من أربعة مقاطع غنائية، كل مقطع يتحدث عن بوابة من البوابات وحراسها . فنرىٰ الشاعر قد وصف البوابة الشرقية بأنها بوابة الموت، لأنها الطريق المؤدي إلىٰ بغداد، حيث القوافل التجارية، وقُطَّاع الطرق واللصوص، ولهذا فإن الشرق في نظره مكان السوء والخطر . ولكن وصفه للبوابة الغربية، وهي رمز للغرب كان وصفاً جميلاً، حيث يقول : إنها الطريق المؤدي إلىٰ بلاد الرومانسية والهدوء، يعني الدول الغربية، وهذا تمجيد للغرب وأهله، مقابل تحقيره للشرق وأهله .

وفي الحديث عن الإسلام وقوافل الحج الذاهبة إلىٰ مكة المكرمة نجد الشاعر يصف البوابة الجنوبية بقوله :

"The voices of the souls unborn are halfdream with
Paradise
To Meccah thou hast turned in prayer with aching heart

and eyes that burn:
Ah Hajj, wither wilt thou turn when thou art there, when thou art there?
And God shall make thy body pure, and give thee knowledge to endure
This ghost-life piercing phantom-pain, and bring thee out to life again." (١)

هذه الأبيات تصف الحج وصعوبته، وما وعد الله به المؤمنين من تطهير الذنوب ومغفرة السيئات، ولكن الشاعر عرض هذه الصورة بشيء من السخرية والاستهزاء، كما يشير إلى ذلك الجو العام للقصيدة، التي امتلأت بالإشارات المختلفة إلى تعاليم الإسلام، كما يظهر في البيت التالي من القصيدة.

Aleppo men are mighty fools. Salam Aleikum! safe return! (٢)

لا شك أن فليكر استفاد من مقدرته اللغوية، ولكنه استعملها استعمالاً مجانباً للصواب، فلقد سخر فليكر من المسلمين الذين يعتقدون في أهمية الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً، وتهكّم من اعتقاد المسلمين في البعث والنشور بعد الموت، كما هزئ من المسلمين في تحية الإسلام وتحية السلام، كل ذلك يتضح من قراءة القصيدة، وما أوردناه من نصوص في هذا الصدد فيما تقدم.

---

(١) انظر: J.C. Squire (ed.), The Collected Poems of James Elory Flecker,London, 1916, P.156.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٥ .

وفي قصيدة «يوسف ومريم» Joseph and Mary أوضح فليكر بصورة جلية الفرق بين الشرق والغرب من وجهة نظره المتحيزة، بل وأكد على قصة مريم وحملها بعيسى ابن مريم عليه السلام ، كما تراه كتب اليهود على أن والد عيسى عليه السلام هو يوسف النجار ، وأن عيسى عليه الصلاة والسلام ابن غير شرعي، حاشاه عليه الصلاة والسلام.

ومن القصائد التي تستحق الاهتمام: تلك القصيدة التي سماها فليكر «الرحلة الذهبية إلى سمرقند» The Golden Journey to Samar-kand، وموضوع القصيدة يحكي رحلة الحجاج من سمرقند وإليها، وما يصاحب قوافل الحجاج من تجارٍ وحُداةٍ ومسافرين، خلط من الناس من أديان مختلفة، منهم المسلمون، ومنهم اليهود. وهنا يظهر فليكر وخلفيته اليهودية المعادية للإسلام، حين يصور ذلك الموقف الذي حصل بين رئيس اليهود في القافلة، ورئيس القافلة، وهو رجل مسلم، فقال المسلم قولة حق: إن اليهود أعداء الله، وهم شرذمة قليلون:

But You are nothing but a lot of Jews. (١)

ثم يجيب اليهودي مفاخراً بما لديه من مال ؛ لأنهم عُبَّاد الذهب والمال بقوله :

Sir, even dogs have daylight, and we pay. (٢)

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق .

And how beguile? Death has no repose
Warmer and deeper than that Orient sand
Which hides the beauty and bright faith of those
Who made the Golden Journey to Samarkand. (١)

وفي قصيدة بعنوان «ياسمين» Yasmin استخدم فليكر فيها أسلوب الغزل، وإن لم ينجح كثيراً، والشاعر في هذه القصيدة يتحدث عن معشوقته، ورمز إليها بزهرة الياسمين، وجعلها قبلته التي يؤم إليها متيماً في حبها، وأورد لذلك صورة استعارة وتشبيه، فيما جعل الياسمين قبلته، فهو في ذلك مثل المسلمين الذين يتوجهون إلى الكعبة قبلة لهم في صلاتهم خمس مرات في اليوم، فيقول:

"But when the deep red eye of the day is level with
the lone highway,
And some to Meccah turn to pray, and I toward thy
bed Yasmin..." (٢)

أما في قصيدة «حوار مقدس» A Sacred Dialogue فيتحدث فليكر عن الحروب الصليبية في العصور الوسطى، والإشارة إلى القدس التي سلبها أهل الهلال يعني المسلمون، وهم من الظالمين :

"Then surely on that Eastern dome
The Allies' cross is gleaming,
Redeemed my loved and ancient home!" (٣)

فالشاعر يبكي حسرة على ذهاب القدس من أيدي النصارى،

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

ووجودها في أيدي المسلمين، تلك الأرض المقدسة أرض المحبة التي دنَّسها أعداء الإنسانية، أي المسلمين.

هكذا كان اليهود ولازالوا يظنون أن فلسطين وبيت المقدس حق لهم.

وبعد فإن أدب فليكر تحدث عن الإسلام ليس في الشعر فحسب، بل شمل إنتاجه الأدبي في النثر الذي ينقسم إلىٰ قسمين، أحدهما أعمال قصصية، وثانيهما مقالات عامة ومقالات صحفية، وعن أدبه يعلق فليكر قائلاً: «إن الشرق الإسلامي هو الذي زوده بتصوير الأماكن التي يقدمها في أدبه»[(١)].

وفي بعض قصصه القصيرة، ومنها قصة بعنوان «منصور» Mansour يتكلم فليكر عن السلطان العثماني، الذي كلف مجموعة من رجاله لزيارة ملك الصين، وحمَّلَهم بعض الهدايا بقصد دعوته إلىٰ الإسلام، وإخباره بأن الله هو المحيط بكل شيء، وهو الإله الواحد المعبود.

وقد اختار السلطان رجلاً له يقال له منصور ليكون علىٰ رأس تلك المجموعة، وفي ثنايا الأحداث لهذه القصة صوَّر فليكر المسلمين بأسوأ الصور، وسخر منهم، وأفاد أن الدين الإسلامي مليء بالخرافات والدجل والتزييف، كما يتضح ذلك في الموقف الذي التقىٰ فيه منصور بأحد المسلمين الطيبين، والذي سماه المؤلف صاحب القلب السعيد، حيث تبادلا تحية السلام الإسلامية «السلام عليك وأمن الرب عليك»[(٢)]،

---

(١) انظر: James Elory Flecker, Collected Prose, Heineman, London, 1922, P.P. 70 - 80

(٢) المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢.

ومع أن منصور أجاب بأدب جم، إلا أن المؤلف يقول: إن المسلمين يجب أن يشك في نياتهم دائماً (١).

وفي قصة أخرىٰ بعنوان «حافلة في استانبول» The Bus in Stanboul يصور فليكر هذه الحافلة، وهي من بقايا تلك الحافلات القديمة التي ألقت بها الحكومة البريطانية إلىٰ شوارع استانبول، ولازال عليها ـ وبالأخص علىٰ جوانبها الداخلية ـ صور ومناظر لبعض الأحياء في لندن، ورسم لخارطة تلك المدينة توضح شوارعها ومسارات الحافلات. ويتحدث المؤلف كيف أن تلك المناظر أثارت في نفسه مشاعر الشوق إلىٰ بلد الخير والهدوء والجمال، مدينة لندن، بالمقارنة لما يعانيه من اشمئزاز وضيق بحياته في استانبول، البلد الشرقي السيئ وسكانه المسلمين البائسين (٢).

وفي معرض القصة نجد الكاتب يقول: «إن حي كريكل وود Criclewood بأمسياته الحالمة الذي لا يبعد كثيراً عن حي هامبستد، حيث يعود الموظفون في المساء ينعمون بعشاء طيب، ويقبِّلون زوجاتهم الجميلات الرقيقات، وينامون في سلام وأمان الله، كل هذا يكون في ذلك الحي الذي يساوي كل ما يقال عن الشرق الذهبي» (٣).

وقد ذهب فليكر أكثر من ذلك حين هزئ من كتاب الله عندما تعرَّض في روايته «ملك السند» The king of Alsandar إلىٰ الحكم

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: Hellery Flecker (ed.) Some Letters from abroad of James Elory Flecker,Heinemann, London, 1930, p.62

(٣) انظر: James Elory Flecker,The King of Alsandar, Gerorge Allen & Unwin ltd, London, 1926, p.p.105-106

الإلهي في القرآن الكريم عن الشعر والشعراء حيث ذكر جزءاً من آية الشعراء، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [١]. والمعروف أن فليكر عندما كان يدرس في كمبردج كان يتمنىٰ أن يقتني نسخة من القرآن.

والذي يمكن ملاحظته في كتابات فليكر النثرية أننا نجده في كثير من الأحيان يمجد النصارىٰ والأوربيين، وأنهم شعوب متحضرة مثقفة، يتمتعون بتسامح الدين والخلق، علىٰ خلاف المسلمين [٢]. ونجد قمة ذلك عندما يتحدث عن لبنان؛ إذ يقول: «لبنان يمكن أن تذكر القارئ علىٰ أنها أرض شرفت بأن يكون حاكمها من النصارىٰ، ولكن بيروت تظل قطعة من تركيا» [٣] ، والمؤلف يشير إلىٰ الخبث والمكر الذي تركه الاستعمار الفرنسي في لبنان، بدعوىٰ أن النصارىٰ في لبنان أكثر من المسلمين، لذا فالرئيس يكون مسيحياً، ولهذا شرف المسلمون بهذا الفضل، وهو بذا يشير إلىٰ علو وسمو المسيحية علىٰ الإسلام. والمعروف أن فليكر عندما سئل عن الشرق والإسلام والمسلمين قال: «إنني أكره الأتراك (المسلمين)؛ لأنني رجل حديث ومتحضر، ولا يحبهم أحد سوىٰ الكاثوليك ولماذا تركيا بلاد نتنة ؟ ولماذا الأتراك أناس غير أوفياء؟ إنه هراء الإسلام [٤]».

---

(١) سورة الشعراء الآيه ٢٢٤ .

(٢) انظر : James Elory Flecker, Collected Prose, P.72.

(٣) المرجع السابق .

(٤) انظر: Hellery Flecker (ed.), Some Letters from Abrood of James Elory Flecker, p.100 .

ثم يستطرد ليتحدث عن الحروب الصليبية، وعن صلاح الدين الأيوبي، فيقول: «صلاح الدين يظل، صلاح الدين الذي يجادل في أقواله بكل التواء»(١).

إن الرواية الإنجليزية في العصر الحديث من تاريخ الأدب الإنجليزي عكست الاتجاهات الفكرية المختلفة في المجتمع الإنجليزي بالتصوير التسجيلي لطبقات المجتمع، الأمر الذي ساعد على ظهور المذهب الواقعي في الرواية الإنجليزية، وتبع ذلك ظهور مذهب تيار الوعي والشعور، فلقد أثر المذهب الواقعي الفرنسي عند بلزاك وزولا وفلوبير وموباسان تأثيراً كبيراً في الرواية الإنجليزية، خصوصاً في الأعمال الروائية لكل من ويلز Wells وجالوزورثي Galsworthy وبينت Ben-nett، والتسجيل الواقعي ليس له تلك البصمات الواضحة في أعمال توماس هاردي Thomas Hardy الروائية، وإن اتسمت بالواقعية، لأن هاردي أضفى على رواياته طابع التشاؤم، وجو الحزن والاكتئاب، على عكس الأعمال الروائية لجورج جيسينج George Gissing، أحد كتاب الرواية المعاصرين لهاردي، الذي اتخذ من التسجيل الواقعي في روايات ديكنز أسلوباً لعرض المجتمع ومشكلاته في العصر الحديث بطريقة مناسبة، تجمع بين الأسلوب الواقعي في العصر الفكتوري، والأسلوب الواقعي الفرنسي.

وبالرغم من أن جيسينج لم يكتب عن الإسلام في رواياته، إلا أنه

---

(١) المرجع السابق.

كان متأثراً بالفكر الأوربي المسيحي، الذي كان يهدف إلى إنهاء الخلافة العثمانية، وانتزاع دول أوربا الشرقية من تحت سيطرة الدولة العثمانية، وجعل تلك البلدان تعود إلى النصرانية.

ففي بعض رسائله إلى أحد أصدقائه تحدث جيسينج عن المسلمين بقوله: «إنهم أناس غير متحضرين، وهم شعوب بربرية متعجرفة لا نظام لها ولا أخلاق»، ويستطرد ليقول: «الشيء الوحيد في السياسة الحالية، والذي تحركني وتثيرني هو وضع أرمينيا، إنها الوسيلة الوحيدة الممكنة في هدم الخلافة التركية، وضعضعة المسلمين الذين أعادوا مخاوف العصور الوسطى إلى الدنيا» (١).

وفي رسالة أخرى لصديق آخر نجد جيسينج يتحدث مرة أخرى عن المسلمين، وعن استانبول بما يخص أرمينيا، فهو يعتقد أن خروج أرمينيا من تحت سيطرة الدولة العثمانية يسهل مسألة القضاء على المسلمين، وانتزاع أماكن أخرى من المسلمين، مثل مدينة استانبول، فيقول: «هل سيعيد التاريخ نفسه؟ إن ضجة كبرى تسود أرمينيا، وهَمِّي أو اهتمامي الأول أن نرى أيام العصور الوسطى تعود، ونأمل أن نعيش لنرى ذلك اليوم التي تخرج فيه استانبول من قبضة المسلمين، وستكون تلك نهاية فصل طويل في التاريخ، إنني لم أفقد الأمل في أن أرى بيزنطة في أيدي النصارى» (٢).

---

(١) انظر: Arthur C. Young (ed.), The Letters of George Gissing to Edward Bertz 1880 - 1903 Constable, London, 1961, p.p210-211

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٤.

إن روبرت لويس ستيفنسن (١٨٥٠ــ١٨٩٤ م) R.L. Stevenson يُعَدُّ من مشاهير الأدب الإنجليزي من أصل اسكتلندي. ورغم اعتلال صحته وكثرة الأمراض التي حلت به إلا أنه أتحف الأدب الإنجليزي بكثير من الأعمال الأدبية للكبار والصغار. وهو لم يتحدث عن الإسلام في أدبه بصورة مباشرة، ولكنه اهتم بالشرق نتيجة تأثره بقراءة حكايات «ألف ليلة وليلة»، وجعل هذا العمل الأدبي من الشرق مفخرة له، بأن جعله عنواناً لعدد من الكتب التي جمعت مجموعات من أعماله القصصية التي سماها «ألف ليلة وليلة الجديدة» The New Arabian Nights.

لقد كان ستيفنسن من المتمسكين بالمسيحية، والمصدقين بكتبها المحرفة، ويكذب أي دين آخر، ومن ذلك دين الإسلام، ففي بعض مقالاته النقدية والأدبية والتي بعنوان «تاريخ موسىٰ» History of Moses «وكتاب يوسف» The Book of Joseph، نجد ستيفنسن يؤكد صدق التوراة والإنجيل، ويعمل علىٰ تصوير هذين النبيين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام بغير ما صورهما به القرآن الكريم [1]. وإن لم يكن ستيفنسن مشهوراً بنَظْم الشعر، إلا أنه في قصيدة له بعنوان«إذا كان هذا هو الدين» If this were faith حيث نجد هذا الأديب يهاجم الإسلام والمسلمين، ويقول: إن الله سبحانه وتعالىٰ يرىٰ الشر في كلكتا والخرطوم، هذين البلدين المسلمين، ويشير إلىٰ أن الشر جاء من المسلمين

---

(١) انظر: R. L. Stevenson, Essays : Literary & Critical, Heinemann, London, n.d., : pp 79-83 & 85-89.

الذين نشروا الظلم في أرض الله، وأراقوا الدماء، وما إلى ذلك من نعوت السوء التي وصف بها المسلمين :

Having felt thy wind in my face
Spit sorrow and disgrace,
Having seen thine evil doom
In Golgotha and Khartoum,
And the brutes, the work of thine hands,
Fill with injustice lands
And stain with blood the sea:
If stillm in my veins the glee
Of the black night and the sun
And the lost battle, run:" (١)

ومن كُتَّاب الرواية في العصر الحديث : نذكر جون بوخان John Buchan (١٨٧٥-١٩٤٠ م) John Buchan . وقد كان السكرتير الخاص للمندوب السامي البريطاني في جنوب أفريقيا، وقد تقلب في مناصب حكومية عديدة، فعمل في وزارة الدفاع، وفي وزارة الإعلام، وفي وزارة الخارجية، وكتب عدداً من الروايات تزيد على العشر. وفي رواية له بعنوان «الرداء الأخضر» Green mantle يتحدث فيها عن الإسلام، وتدور أحداثها عن الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، ممثلة في شخصيات بعض المسلمين، منهم حسين وسطام.

وفي ثنايا الرواية نجد بوخان يسخر من أحد المسلمين وإيمانه بمسألة

(١) انظر : R.L. Stevenson, Poems, Chatto & Windus London, 1917, p.179.

القضاء والقدر، حيث يقول هذا المسلم: «إني راض بقسمة الله وقضائه، ولا بد أن أسلم الأمر إلىٰ الله أولاً وآخراً»، ولكن المؤلف يرىٰ أن هذه مسألة خاطئة، ولا بد للإنسان أن يخطط حياته، ويرسمها وفق ما تهواه نفسه، فتلك هي الفلسفة الحقيقية للحياة؛ لأن المخاطر والصعوبات هي من صنع الصدف، وليس من مسائل القضاء والقدر»(١).

إن من أركان الإيمان التي يجب أن يؤمن بها كل مسلم: الإيمان بالقدر خيره وشره، فمن لم يؤمن بالقدر، فقد ترك أصلاً من أصول الدين، وجحده، فهو بذلك يشبه من قال فيهم الله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(٢) وقد وصف الرسول ﷺ منكري القدر والكافرين به بالمجوس، فقال عليه الصلاة والسلام: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(٣). لذا يجب أن يؤمن المسلم بقضاء الله، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٤).

---

(١) انظر: John Buchan, Greenmantle, Nelson, London, 1922, p.279.

(٢) سورة البقره، الآية ٨٥.

(٣) أبو داود كتاب السنه ٤/ ٣٠٦ برقم ٤٦٩١ والمستدرك للحاكم ١/ ٨٥ (يروىٰ مرفوعاً عن الرسول ﷺ وموقوفاً عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ وهو الأرجح ـ وانظر كلام أبي داود في «مسائل أحمد» في هذا الحديث ص ٢٩٩، وكلام الحافظ المنذري في «مختصر سنن أبي داود» ٧/ ٥٨).

(٤) سورة القمر، الآية ٤٩

وقال جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١).

وعنوان الرواية «الرداء الأخضر» عبر عنه بوخان على أنه اللون المحبب والمميز عند المسلمين، وهو رداء حوريات الكعبة في المعبد المقدس عند المسلمين، وهو رداء كل مسلم، وهنا نجد المؤلف يصور إحدى الحوريات المزعومات، وهي حول الكعبة تقول: «وخلال ثلاثة أيام، سأخرج على الناس مرتدية على صدري الرداء الأخضر الذي يلبسه أحبار اليهود، والذي ارتداه النبي في زمانه ـ أي محمد ﷺ» (٢).

لقد ذهب الكاتب المذهب الذي يقول بأن الإسلام وتعاليم الرسول ﷺ مستقاة من اليهودية، وبعض تشريعات النصرانية. ويستطرد المؤلف ليبين أن هذه الحورية لا تعبأ بالإسلام، ولاتؤمن به، ولها آمال عريضة، لأنها معجبة بنفسها، لأنها من الحوريات الطاهرات المقدسات، فلا ضير عليها وهي في بلاد الشرق، فلا يهمها من الشرق إلا القدس بلاد المسيحية واليهود، فليس أي شيء أهم من هاتين الديانتين حتى الإسلام، ولاشيء أحسن من القدس حتى الكعبة (٣).

أما في قصة قصيرة لبوخان بعنوان «أمير الأسر» A Prince of the Captivity، نجد المؤلف يتحدث عن رحلة لورانس العرب إلى الجزيرة

---

(١) سورة الحديد، ٢٢.

(٢) انظر: John Buchan, Greenmantle, P.322.

(٣) المرجع السابق، ٣٢٣.

العربية، وحياته مع العرب، فيتحدث بوخان إلى لورانس حديثاً حزيناً يقول له: «لقد كنت في البلاد الخضراء ـ أي بريطانيا ـ معززاً مكرماً، كنت بطلاً مغواراً، ولكن أصبحت الآن في تلك الأرض القاحلة ـ أي الجزيرة العربية ـ وأصبحت برفقة العرب والمسلمين مهيناً ذليلاً»(١).

هكذا يرى بوخان أن صُحبة المسلمين والعرب من أسباب الذلة والمهانة.

ويعد جلبرت كيث شسترتون (١٨٧٤ ـ ١٩٣٦م) G.K. Chesterton من أدباء العصر الحديث الذين قرَضُوا الشعر، ومارسوا النقد الأدبي وكتابة المقالات الصحفية والأدبية، ولكنه اشتهر بكتابة الرواية والقصة القصيرة، وفي مقال من مقالاته بعنوان «الرب والأديان المقارنة» God and Comparative Religions يتكلم المؤلف عن تعدد الأديان في العالم، واختلاف الناس في مذاهبهم ونحلهم، وأن كل شعب له طريقه في عبادة الله، ثم يخلُص إلى القول بأن أصحَّ الأديان لعبادة الله هو الدين اليهودي، فيقول: «الحقيقة بمعناها هذا أن الرب مدين لليهود الذين اختاروه لعبادتهم»(٢).

والمؤلف بهذا القول ينفي صلاح الدين الإسلامي للإنسانية من جهة، ويؤكد بعض الأفكار الصهيونيه التي ينادي بها حكماء صهيون في

(١) انظر: John Buchan, A Prince of Captivity, Hodder and Stoughton, London, 1941, P.126.

(٢) انظر: W.H. Auden (ed.), G.K. Chesterton : A Selection of his non - fictional Prose, Faber and Faber, London. 1970, p.206.

بروتوكولاتهم، إذ جاء في البرتوكول الرابع عشر ما نصه: «حينما نمكن لأنفسنا، فنكون سادة الأرض، لن نسمح بقيام أي دين غير ديننا، أي الدين المعترف بوحدانيه الله، الذي ارتبط حظنا باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم»[١].

واليهود بهذا الزعم يدَّعُون أنهم هم الذين اختاروا الله، وأوجدوا فكرة التوحيد، الإله الواحد، وهذا ما يقول به اليهودي فرويد في كتابه «موسىٰ والتوحيد» بأن فكرة التوحيد انطلقت من تطور معين في تاريخ اليهود[٢].

وهنا نتساءل: إذن، من الذي اختار الآخر؟ هل الإلهُ الرب اختارَ الشعب، أم الشعبُ اختار الإلهَ؟ ثم نعلم أن شسترتون دعم الصهيونية، إن لم يكن هو نفسه صهيونياً يهودياً، بما أورده من آراء فاسدة حين يرىٰ أصح الأديان علىٰ هذه الأرض هو الديانة اليهودية، بل يذهب إلىٰ أكثر من ذلك، ليقول: إن إله اليهود ليس صنماً كما هي أصنام الإغريق، وليست هي أصناماً كالمجسمات النصرانية لعيسىٰ عليه السلام وللملائكه وروح القدس. وإله اليهود لا يعبدونه كما يعبده الغير من أجل النساء والحور العين في الجنة، فتلك عبادة للحور العين وللنساء وللشهوة، وليس لعبادة الرب الواحد[٣].

(١) محمد خليفه التونسي، الخطر اليهودي: بروتوكولات حكماء صهيون، ص ١٦٩.

(٢) انظر: Sigmund Freud, Moses and Monotheism, P. 64 .

(٣) انظر: W. H. Anden (ed.), G. K. Chesteston: A Selection from his non - fictional Prose, P. 207 .

وهو بهذا القول يعرض بالمسلمين والشريعه الإسلامية الغراء، هكذا يستنكف المشركون واليهود والنصارىٰ أن يذكر الله وحده ، ولا يحبون كلمة التوحيد، يقول تعالىٰ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾[١] وقال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[٢].

وهـــذه الأفكار وما شابهها ضمَّنها شسترتون في مقال له بعنوان «السلطان» The Sultan، وقد عكس فيه المؤلف نظرة الغرب في صورة مقارنة بين سلطة الحاكم المسلم وسلطة الحاكم البريطاني سيسل روهدز في جنوب إفريقيا، والذي كان بمثابة سلطان حاكم في تلك المقاطعة، ومع هذا لم يكن متعسفاً ومتجبراً في حكمه، كما هو حال السلطان المسلم ، إذ إن الحاكم البريطاني نهض بالبلاد وارتقىٰ بها، فيقول المؤلف: «إن الحاكم ردهذر كان يصادف أمامه البرابرة والهمج من الأفارقه في جنوب أفريقيا، كما كان القائد الإنجليزي كيتشنر يصادف في شمال إفريقيا الأتراك والعرب السودانيين[٣]، ثم يذهب بعد ذلك المؤلف ليقول: «أتمنىٰ لو تحولت أفريقيا إلىٰ بلد أوربي، وطرد منها الأفارقه ليسكنوا الجزيرة العربية وبلاد إيران، ليعيشوا مع أولئك المتعصبين أصحاب العمائم البيضاء»[٤].

---

(١) سورة الصافات ، الآية ٣٥ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٤٥ .

(٣) انظر: G. K. Chesterton. A Miscellany of Men, Methuen & Co ltd, London, 1920, P. 205 .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

ومع أن شسترتون ـ كما أسلفنا ـ اشتهر بكتاباته النثرية، إلا أن له محاولات في الشعر، ففي قصيده بعنوان «السحر الجديد أو الحديث» The Modern Magic يتحدث المؤلف عن الحمله الصليبية الثالثة التي قادها الملك ريتشارد قلب الأسد، وأن جحافل جيوشه هزمت المسلمين، وألحقت بهم الخسائر الفادحة، حتى إن المسلمين أصبحوا سُخرية لليهود والنصارىٰ لما لليهود والنصارىٰ من قوة وبسالة :

And the Seven Kings by his throne that stand.
Cried, " Tell us the news from the Holy Land."
Richard the King, of the scarlet ships,
Sweeps over Acre, but swerves and slips
From Godfrey's gate and from God's own crown,
And is shot in the ditch of a small French town.
Such is the news of the world, he said;
"But the signs of the world will nerer be read
in a glass darkly, by anyone;
We must wait for the sunrise" said Prester John.
Nigh on a thousand years were past.
To the strange priest's paradise pierced at last,
The men of the west, with the wondrous things
of western wizards and western kings,
And high on their staggering engines borne
A marvel of marvels, the mighty Horn
Within whose cave, like a giant's ear,
Might all men speak and might all men hear
The noise of a battle, the noise of a bird,
Even all the sounds of the earth were heard." (١)

(١) انظر G.K. Chesteton, The Collected Poems, Metheun & co ltd, London,1939, P. 21.

لقد صوَّر الشاعر قومه بأنهم شجعان، استطاعو أن يهزموا المسلمين في عكا وفي بيت المقدس، وأن يلحقوا بأهل الهلال - أي المسلمين - كل الخسائر، وعلا الصليب على رؤوس المسلمين.

"No battle-noise and no battle-news,
But shaking of shekels and laughter of Jews,
And a rattle of golden balls they toss
High o'er the ruin of Cresent and Cross,
And a usurer's voice in cold command,
These are the sounds from the HolyLand." (١)

ولقد كتب شسترتون قصيدة أخرى بعنوان «عمَر الجديد» The New Omar، وهو في القصيدة هذه يقارن بين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اعتبره عمر القديم، وبين عمر الجديد، وهو الشاعر الفارسي عمر الخيام، فيقول: إن عمر الجديد ليس كعمر القديم، فعمر الجديد لديه المقدرة الشعرية، ولديه كتب الشعر والأدب، ولديه الخبز والخمر، إشارة إلى الزندقة والفسق في «رباعيات الخيام»، إن صحت نسبتها إلى الخيام.

"A Book of verses underneath the bough,
Provided that the verses do not scan,
A loaf of bread, a jug of wine and Thou,
Short-haired, all angles, looking like a man." (٢)

ويختم الشاعر قصيدة عمر الجديد بقوله: إن جنة النبي محمد ﷺ التي وعد بها جنة الوحوش والقفر:

---

(١) المرجع السابق ص، ٦٢ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥ .

"But let the wine be unfermented, pale,
Of chemicals compounded, God knows how-
This were indeed the rophet's Paradise,
O Paradise were Wilderness enow." (١)

بالرغم من أن هيلاري بيلوك (١٨٧٠ ـ ١٩٥٣م) .Hilaire Belloc تعلم فن الخطابه وكتابتها، إلا أنه ساهم في فنون الآدب المختلفة من قصة وشعر ومسرحية ومقال، وله مجموعات كثيرة في أدب القصة القصيرة، وعدد من الروايات، وبعض الكتب في أدب الرحلات، ونخبة كبيرة من كتب المقالات.

وفي مقال له بعنوان «الواثق» On Vathek ، وهو دراسة نقدية لرواية «الواثق» التي كتبها بيكفورد Beckford ، وقد حث بيلوك جميع الشباب أن يقرؤو رواية «الواثق»، تلك الرواية التي هي ـ كما أشرنا سابقاً ـ مليئة بالإفك والشبهات والمفتريات والطعن في الإسلام، فبيلوك يريد من الشباب أن تكون لديهم فكرة عن الإسلام من خلال الفكر المسيحي الصليبي الذي صوره بيكفورد في روايته، أراد بيلوك الشباب أن يطّلعوا على هذه الروايه، لتشمئز نفوسهم من الإسلام، وتكون لديهم نظرة حاقدة على الإسلام (٢)، فيقول: «إن الواثق أحد القواد المخلصين في العصور الأولى للإسلام، ذلك القائد الذي كان يحتقر كل شيء سماوي، وكانت نفسه تهوى الشر والسوء، وكان محباً للاستطلاع،

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: Hilaire Belloc, A Conversation with An Angle and other Essays, Jonathan Cape, London, 1928, P.86

وتعلم ما هو جديد وحيوي . كان يحب زيارة قبور الملوك من لدن آدم حتىٰ الآن، وكان يحب مرافقة إبليس في ردهات جهنم» (١) .

بهذا الوصف يرىٰ بيلوك أن الواثق رجل لم يعترف بالإسلام، وإن كان من المسلمين، وهو يشير إلىٰ أنه من باب أولىٰ ألا يؤمن بالإسلام غيره من أصحاب الديانات الأخرىٰ. وبعد ذلك يتحدث بيلوك عن رواية «الواثق»، فيقول: إنها من أعظم الكتب الموجودة في العالم؛ لأنه كتاب فيه قول الحق لنقد الدين الإسلامي الزائف، وأن أتباع هذا الدين يحبون نار جهنم، كما أحبها الواثق نفسه» (٢) .

وفي مقال آخر له عنوانه «البرابرة» The Barbarians يقول: إن البرابرة هم كل شعب، أو كل أمة تحاول أن تقف حائلاً في سبيل انتشار المسيحية، لأن المسيحية ـ كما يراها بيلوك ـ هي الدين الأمثل للإنسانية، فيعلل ذلك قائلاً: «أولاً: لأن العقيدة التي نسميها بالدين المسيحي هي معنىٰ روح الحضارة الأوربية خلال عصور نشاطها ووجودها المتحد، وثانياً: فإن أي عقيدة دينية ضد المسيحية تضمَحِل وتنهار أمامها في مأساة لا تقوم معها أي قائمة» (٣) .

إذن، فإن كان المسلمون يَدْعُون إلىٰ الإسلام، فهم في نظر هذا الكاتب يكونون من البرابرة الذين يحدُّون من انتشار النصرانية .

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق، ص ٩٢، ٩٣ .

(٣) انظر: H. Belloc, This and That and the Other, Methuen & ltd, London,1912, P. P. 221-222.

وهو يرىٰ أن الإسلام دين باطل. بيلوك يؤكد هذا بقوله: «العالم المسيحي كله من النصارىٰ الذين لم يكونوا كذلك بمحض الصدفة، أو بالاعتقاد، أو الأهواء. وهم نصارىٰ بمعنىٰ الوحدة، كوحدة الإنجليز فيما بينهم، وكوحدة القصيدة الشعرية من خلال القافية الموزونة» (١).

ويرىٰ الكاتب أن البربرية في أي شكل من أشكالها «تعني السطو والنهب والسلب والقتل، وذلك مَثَلٌ واضح فيما كان من المسلمين في الشرق، ذلك الشرق الذي اكتسح أوربا، وهدَّد سلامها وأمنها» (٢)

ومع أن بيلوك لم يكن من المكثرين في قرض الشعر، إلا أن بعض قصائده تناولت الإسلام بصورة أو بأخرىٰ، ففي قصيدة عنوانها «أغنية الاثني عشر شهراً» The Sonnet of the twelve Months يتعرض الشاعر في حديث عن الحروب الصليبية. ويصور جحافل الجيوش المسيحية بقيادة ملكها المظفر وقد عادت منتصرة، بعد أن ألحقت الهزيمة بالمسلمين:

"The Kings come riding back from the Crusade
The purple Kings and all their mounted men;
They fill the street with clamorous cavalcade;
The Kings have broken down the Saracen.
Singing a great song of the eastern wars,
In crimson ships across the sea they came,
With crimson sails and diamonded dark oars,
That made the Mediterranean flash with flame." (٣)

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٠.

(٣) انظر: H.Belloc, Sonnets Verse, Gerald Duckworth Co ltd, London, 1954, P.48.

أما قصيدة «النبوءة» An Oracle، فهي تتكلم عن المسلمين خلال أدائهم مناسك الحج، وبالأخص النسك المتعلق بالحلق يوم النحر، فينتهي الشاعر ليقول: إن ما وعد به المسلمون بالأجر العظيم والثواب الكبير جنة رب العالمين، كل ذلك هراء وكذب، وإن جهد الحجاج كله مآله الخسران المبين. وقد صدَّرَ الشاعر قصيدته بعبارة تحذير الناس من الحج:

"When early morning seems but eve
And they that still refuse receive:
When speech unknown men understand;
And floods are crossed upon dry land,
Within the Sacred Walls beware
The Shaven Head that boasts of Hair.
For when the road attains the rail
The P'ilgrim's great attempt shall fail." (١)

إن جوزيف كونراد (١٨٥٧ـ ١٩٢٤م) Joseph Conrad أديب مشهور في تاريخ الأدب الإنجليزي، وهو من أصل بولندي، ولد في بولندا، وتعلم في فرنسا، ثم رحل إلى بريطانيا، حيث حصل على الجنسية البريطانية وهو في الثامنة والعشرين من عمره. وكانت اللغة الإنجليزية بالنسبة له لغة ثانية، ولكنه ما لبث أن أجادها وبرز فيها، وكأنها لغته الأم، فأبدع في الكتابة بها، وأنتج ما يزيد عن عشرين رواية، ومجموعة من المقالات، وأخرى من القصص القصيرة.

ومعظم رواياته فيها إشارات إلى الإسلام، واقتباسات من القرآن

(١) المرجع السابق، ص ٦٧ .

الكريم وأقوال الرسول ﷺ وعن الشريعة الإسلامية، وبالرغم من كثرة ما ذكره عن الإسلام في رواياته، فإنه لم تكن له صلة مباشرة بالمسلمين أو الإسلام أو المصادر الإسلامية، ولكنه كان يستقي معلوماته من مصادر غير إسلامية، من الأعمال الأدبية للأدباء وكتابات المفكرين والنقاد والرحالة. ويذكر أنه كان له بعض اتصالات بالمسلمين في ماليزيا والسودان، ولكنها اتصالات غير عميقة وغير وثيقة.

وقد أشار جون لستر John Lester في مقال له عن كتابات كونراد عن الإسلام، فقال: «يبدو واضحاً من معلومات كونراد عن الإسلام أنها مستمدة من قراءاته، والتي هي في معظم الحالات وخصوصاً الأعمال الصحفية، وهي الخلفية المكونه لمعلوماته عن الإسلام، والتي تؤيد صورة المسلمين بأنهم غلاظ غير متسامحين، متعصبون»(١).

لذلك فإن جون لستر يرىٰ أن آراء كونراد عن الإسلام أراء متحيزة ضد الإسلام، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تُعَدَّ ـ بسبب المعلومات المحدودة المغرضة في هذا الشأن ـ حكماً علىٰ الإسلام، والتي قرأها عن الإسلام، حيث إنه مع مطلع عام ١٨٨٠م ظهرت ثلاث ترجمات للقرآن الكريم، وطبعت عشرات الكتب الإسلامية المترجمة، والتي تضمنت بعض الآراء المعتدلة عن الإسلام، والتي توضح مدىٰ تسامح الإسلام مع الأديان الآخرىٰ، وخصوصاً أن القرآن يتحدث عن المسيحية باعتدال،

(١) انظر: John Lester, Conrad and Islam, A Journal of Joseph Conrad, vol .3 no.3. 1981, P. 164.

وقد أشار لستر إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (١).

ومن المناسب للقارئ في قراءته لروايات كونراد أن يتمحص بدقة ما كتبه، ليعرف نظرة كونراد إلىٰ الإسلام، وخصوصاً الصورة التي رسم بها الشخصيات المسلمة. فعلىٰ سبيل المثال نرىٰ شخصية عمر في رواية Outcast of the Island وشخصية الشريف علي في رواية Lord Jim صُوِّرَتا علىٰ أنهما مسلمان متدينان، ومتمسكان بالشريعة الإسلامية، لكنهما رجلان فطَّان شرسان متزمتان. ففي الوقت الذي يصور فيه كونراد عمر علىٰ أنه رجل صالح وخاشع في صلاته وعبادته، لكنه مع أنه أعمىٰ، فهو يسرق أموال الناس، ويغشهم، وهذا خداع ونفاق الدين الإسلامي (٢).

وأيضاً في رواية Outcast of the Island يحاول كونراد أن يعكس مفهوم التوحيد في الإسلام، ويقدم صورة مشوهة لذلك؛ لأنه يعتقد أن المسلمين يتهمون المسيحين بالشرك بناءً علىٰ مفهوم التثليث للرب عندهم، خلاف حال المسلمين، الذين يقولون بالشهادة المفردة لتوحيد الله وعبوديته.

وهنا نجد كونراد يتهم المسلمين في شخص أحد الشخصيات، والذي سماه الماير، بأنه إلىٰ جانب عبادة الله، فإنه يعبد الأصنام والقبور

---

(١) سورة المائدة، الآيه ٨٢.

(٢) انظر: Joseph Conrad, Outcast of the Island, Dent London, 1947, P.104.

والأولياء، وأن هذا هو حال جميع المسلمين، فإنهم مشركون أيضاً.

ونحن لا ننكر أن ذلك قد يكون من بعض المسلمين، وهم قليل؛ لأن آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم ﷺ الكثيرة تحذر من الشرك، حتى لو أن الأنبياء - وحاشاهم - أشركوا لحبط عملهم، وماكانوا يفعلون من الطاعات، ولكن ما قاله كونراد هنا ليس إلا من باب التشويش، وتشويه صورة الإسلام.

وفي الرواية نفسها يصف كونراد المسلمين بأنهم أفاكون مخادعون، يطبقون الإسلام على أعدائهم، ويحاربونهم به، ولكن لا يطبقونه فيما بينهم [١].

وفي مكان آخر من الرواية نجد أن كونراد غير حقيقة واضحة في الإسلام إذ يدعي أن الإسلام يبيح أن تتزوج المرأة المسلمة من الرجل الكافر غير المسلم، ومع هذا، فإن عائشة - إحدى شخصيات الرواية - منعها والدها من الزواج بوليم - أيضاً شخصية في الرواية - ثم استشهد المؤلف بآية من سورة المائدة وحرفها [٢].

ورواية «اللورد جم» Lord Jim من روايات كونراد التي شحنت بالإفك المبين على الإسلام، ويبدو أن كونراد كتب هذه الرواية متأثراً بكتاب للقراءة بعنوان «المغرب الأقصى» الذي كتبه المؤرخ الإنجليزي كانتج هام جرام R.B. Cunningham Graham، وقد كتب هذا المؤلف

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٠ - ١٢١.

كتابه هذا يطعن في اعتقاد المسلمين، الذين يظنون أن الجنة بانتظارهم إذا قاتلوا الكفار. وهذه الفكرة دفعت بكونراد ليرسم شخصية اللورد جم، وأنه أحد ضحايا المسلمين الذين قتلوه باعتقادهم الفاسد (١).

وفي نفس الرواية يقدم كونراد منظراً لجموع الحجاج الماليزيين المسافرين إلىٰ مكة المكرمة، الأراضي المقدسة، وهم سعداء لأداء فريضة الحج، فيعلق قائلاً: إن المسلمين يلصقون الكفر والشرك بالأوروبيين، ومع هذا يشعرون بالسعادة والثقة التامة في أن يكون ربان السفينة التي تقلهم إلىٰ مكة من هؤلاء الكفار» (٢)، بهذا يظهر كونراد الأوربيين، وأنهم رمز البطولة والشجاعة والفخر، كما كان يشعر اللورد جم نفسه بذلك.

أما رواية «الإنقاذ» Rescue فهي تصور بطل القصة، وهو رجل مسلم، علىٰ أنه رجل تقي ورع مخلص لدينه، ولكنه في نفس الوقت لا يتحلىٰ بالأخلاق الحميدة الفاضلة، ذلك الرجل هو دامان الماليزي، وهو بذا يرىٰ أن دامان متعصب لدينه بجهل، وبدون أخلاق طيبة لعدم صحة الإسلام وتعاليمه، ومثله في ذلك تعصب الأوربيين العنصري للجنس الأبيض، خصوصاً قول المسلمين بأن الجنة محرمة علىٰ الكفار والمشركين» (٣).

وتتكرر نفس الصورة عن الإنسان المسلم في رواية Almayer's Folly التي يصف فيها كونراد ذلك المسلم عبد الله بأنه يحب الدنيا، ويحب

---

(١) انظر: Joseph Conrad, Lord Jim, Dent London, 1946, P.310.

(٢) المرجع السابق، ص ٢.

(٣) انظر: Joseph Conrad, Rescue, Dent London, 1947, P. 113.

جمع المال، وهو يكره التصدق بالمال، وإخراج الزكاة، خصوصاً الصدقات التي تقدم في وجوه الخير. بل إنه يعامل خَدَمَهُ وعبيدَه بكل ظلم وسوء واحتقار، ومع هذا كله فهو نشط في العبادة، ومؤمن بأداء الصلاة. وكونراد يرىٰ هذا السلوك من وجوه النفاق في الشريعة الإسلامية (١).

ولعل كونراد لم يدرك حقيقة الإسلام، وسلَّط قلمه للنيل منه دون تروٍّ ودون تأنٍّ.

علىٰ أي حال، إن ماتقدم ذكره هو عبارة عن نماذج عامة عن موضوع الإسلام في بعض روايات كونراد التي لا يتسع المقام لذكر كل ماورد في أعماله الروائية (٢).

إن إروارد مورجان فورستر (١٨٧٩ ـــ ١٩٧٠م) E.M. Forster ناقد مشهور في الأدب، وكاتب روائي من الطراز الأول. اشتهر بكتابه النقدي المعروف باسم «خصائص الرواية» Aspects of the Novel، كما أنه عُرِفَ برواياته الخمس، أشهرها الطريق إلىٰ الهند A Passage to India.

وموضوع هذه الرواية تصوير للمجتمع الهندي بمختلف طبقاته المتعددة، مع التركيز علىٰ الخلافات الدينية والسياسية والعرقية في

(١) انظر: Joseph conrad, almayer folly, Dent Collected Edition, 1974, P. 028 and P.122.

(٢) لمزيد من المعلومات عن موضوع الإسلام في أعمال كونراد الأدبية يمكن للقارئ مطالعة مقال جون لستر الذي سبق ذكره، وكذلك مقال هانزفان مارل Hans Van Marle، بعنوان: A Journal of Joseph Conrad and Richard Burton on Islam.

الاتجاهات والمذاهب في الهند، والتي هي في الحقيقة من متروكات وصنع الاستعمار البريطاني في شبه القارة الهندية . لقد شجع الاستعمار أهل تلك البلاد للعودة إلىٰ الديانات الوضعية ـ بوذية وهندوكية ـ بقصد القضاء علىٰ الإسلام، أو مضايقة المسلمين بدينهم، الأمر الذي جعل الصراع بين هذه الأديان أمراً لا يقرُّ له قرار، إلا أن يشاء الله أمراً كان مفعولاً .

وفي الرواية قدم فورستر شخصية عزيز، أحد أعضاء البرلمان الهندي، وهو يطالب بتضمين التعاليم الإسلامية في دستور البلاد، كما كان الأمر زمن دولة المغول. ونظراً لأن الكاتب لم يكن يرغب في وجود الإسلام إطلاقاً، فقد قدم شخصيتين مسلمتين تعارضان مثل هذه الأفكار التي جاء بها عزيز. وهاتان الشخصيتان قصد بهما إظهار تأثير العلمانية علىٰ بعض أبناء المسلمين، وكذلك إظهار عدم رغبة بعض المسلمين أنفسهم في الإسلام. ثم نادىٰ هذان الرجلان المسلمان بتكوين دستور ديني يكون فيه مجال لوجود الهندوس والبوذيين وبقية الأديان الأخرىٰ، إلىٰ جانب الإسلام. ثم يظهر الصراع بين المسلمين عندما عرض فورستر آراء الشاعر الهندي المشهور إقبال، وآراء السياسي محمد علي جناح، اللذين أكدا علىٰ ضرورة أن تظل الهند دولة إسلامية تحكم بالشريعة الإسلامية (١).

والمعروف أن موضوع الرواية كله يتصل بالسياسة البريطانية في شبه

---

(١) انظر : E.M. Forster, A Passage to India, Penguin, London,1971 P.265 .

القارة الهندية ، والخطط المستقبلية التي رسمها الإنجليز في تقسيم الهند إلىٰ ثلاث دول، هي: الهند، وباكستان الشرقية، وباكستان الغربية، والذي انتهىٰ فيما بعد إلىٰ إقامة بنجلاديش. إضافة إلىٰ خلق روح التوتر والصراع بين القبائل علىٰ الأساس العرقي، وبين الطوائف الدينية علىٰ أساس الخلافات الدينية والمذهبية.

وكان فورستر في روايته «الطريق إلىٰ الهند» يرىٰ أن الهند هي من البلدان القلائل التي تسودها الطائفية المذهبية، ولذا كان يرىٰ أن المسلمين يجب أن يكونُوا تحت سيطرة الهندوس، الأمر الذي جعل المسلمين يعتبرون أقلية دينيه هناك.

والآن، بعد أن قدمنا أمثلة متعددة عما كتب في الشعر والنثر في الأدب الإنجليزي في العصر الحديث عن الإسلام، ننتقل للحديث عن الأدب المسرحي، الذي لا توجد به نماذج كثيرة كُتب فيها عن الإسلام؛ لأسباب عديدة، ذلك أنه منذ القرن التاسع عشر والفن القصصي ـ وعلىٰ الأخص الرواية منه ـ كان الجنس الأدبي المهيمن في الأدب الإنجليزي. ومنذ عام ١٨٨٠م والفن القصصي ينمو ويزدهر يوماً بعد يوم، وإقبال القراء يزداد أيضاً، وقلَّ اهتمام القارئ والمشاهد بالمسارح، وبمشاهدة المسرحيات، ولكن مع بداية القرن العشرين بدأ نوع من الانتعاش في فن المسرح يظهر تدريجياً، فظهرت أعمال مسرحية لا بأس بها، وإن لم تكن ذات مضامين عميقة وأفكار رفيعة. وكان عدد الكتاب المسرحيين قليلاً جداً.

يعدّ جلبرت (١٨٣٦ـ١٩١١م) W.S. Gilbertمن كتاب الأدب المسرحي القلائل، الذين تذكرهم كتب النقد والتاريخ الأدبي في العصر الحديث من تاريخ الأدب الإنجليزي، لما قدمه من إنتاج مسرحي جيد، فقد كتب بعض القصائد التمثيلية وبعض المسرحيات الغنائية وبعض المسرحيات الشعرية.

وفي بعض مسرحياته الغنائية بعنوان «ابن الله أحمد» Ben Allah Achmet صوّر موقفاً لمحادثة بين بعض الشخصيات موضوع المسرحية، قصة رجل مسلم اسمه الباشا أحمد، وقد وقع في حب امرأة إنجليزية اسمها إميلي ماكفرسن Emily Macferson وكان يحب هذه الفتاة طبيب مسيحي اسمه الدكتور براون، وعلم الباشا بحب الطبيب لتلك الفتاة، وعلم الطبيب بحب الباشا لها. واتفق أن مرض الباشا المسلم، فاستدعى طبيباً، فجاء الدكتور براون لمعالجة الباشا:

"One day that Turk he sickened sore,
And suffered agonies opppressive;
He threw himself upon the floor
And rolled about in pain excessive.

. . . .

At length a doctor came and rung
(As Allah Achmet had desired),
Who felt his pulse, looked up his tongue,
And hemmed and hawed and then inquired:" (١)

---

(١) انظر: W.S.Gilbert, the Bab Ballads. Harvard University,Cambridge Massachus-etts.1970,p.p.113-114

وهنا نجد المؤلف يصور هذا المسلم بأنه وغد مخادع، لا يحفظ المعروف بعد ما عالجه الطبيب ؛ إذ وضع ذلك المسلم خطة لقتل الطبيب الذي ينازعه حب تلك الفتاة

"You'll send for me when you're in need-
My name is Brown-your life I've saved it"
"My rival!" Sheicked the invclid
And drew a mighty sword and wared it : " (١)

وبعد وصف المؤلف للمسلم بأنه سفاك للدماء، ينقلنا إلىٰ صورة تهكمية، وهي أن المسلم قتل رجلاً بريئاً، لأنه كان يوجد طبيبان باسم الدكتور براون، فقد قتل المسلم رجلاً لم يكن هو الذي يحب معشوقته .

وفي قصيدة تمثيلية بعنوان «باشا بيلي بن» Pasha Bailey Ben يتحدث جلبرت عن شخصية مسلم آخر هو الباشا بيلي بن، وأهميته في المجتمع، ووجوده بين الناس، وثقته بنفسه، وإنجازاته في الحياة، وفي وصفه لهذا المسلم ركز المؤلف علىٰ ما يظنه من السلبيات في جوانب الشخصية المسلمة، فقال :

"A Proud Pasha was Bailey Ben
His wives were three, his tails were ten
His form was dignified but stout
Men called him "Little Roundabout" (٢)

فالمؤلف ينتقد المسلم لتعدد الزوجات ، وكثرة الجواري والسراري،

---

(1) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٩ .

وهو قَدْحٌ في الشريعة الإسلامية، ثم ينتهي الكاتب ليجعل الباشا يصف نفسه بالحيوانيــة، إذ يقول :

A confidant had Bailey B
A gay Mongolian dog was he
Iam not good at Turkish names
And so I call him Simple James. (١)

وهكذا وصف المسلم بأنه كلب، وأنه يعتمد على المسيحيين؛ ذلك أن هذا المسلم اتخذ له كاتباً من النصارىٰ، وهو يفخر ـ أي الكاتب ـ ببني جنسه على المسلمين الأغبياء، فيقول :

"Good Pasha Bailey kept a clerk
(for Bailey only made his mark),
His name was Matthew Wycombe Coo,
A man of nearly forty - two." (٢)

ومن مشاهير أدباء الفن المسرحي في الأدب الإنجليزي: الكاتب الأيرلندي أوسكار وايلد (١٨٥٤ـ ١٩٠٠م) Oscar Wilde، وقد كان من المهتمين بالشرق، وقد كتب عن ذلك في رواية له بعنوان The Picture of Dorian Gray، ولكن قصيدته التمثيلية بعنوان «أبو الهول» The Sphinx توضح ـ بصورة عامة ـ ما كتبه عن الإسلام بصورة أدق. وهذه المسرحية يتعلق موضوعها بالنصب التذكارية، وأن أبا الهول هو أقدم هذه النصب في العالم. وكيف أن نصب أبي الهول عاش عبر الأزمان والقرون،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

وشهد أحداث الدنيا ووقائعها منذ عصر الحضارة الفرعونية المصرية وعصر الإغريق، وعصر الحضارة الرومانية ، ومن جاء بعدهم :

A thousand weary centuries are thine while I have hardly seen
Some twenty summers cast their green for autumn's gaudy
liveries.
But you can read the hieroglyphs on the great sandstone
obelisks,
And you have talked with Basilisks, and you have looked on
Hippogriffs.
O tell me, were you standing by when lsis to Osiris to Osirs
knelt ?
And did you watch the Egyptian melt her union for Antony
And drink the jewel-drunken wine and bend her head in mimic
awe
To see the huge Pro-Consul draw the salted tunny from the
brine?
And did you mark the Cyprian kiss white Adon on his
catafalque?
And did you follow Amenalk, the god of Heliopolis?" (١)

ثم يستطرد المؤلف في الحديث عن الشعوب والأمم التي توالت على أرض مصر حتى مجيء عيسى عليه السلام بالنصرانية، والذي يتحدث الكاتب عن عيسى بكل أدب واحترام، ثم يبكي على موت النصارى في ذلك البلد على أيدي المسلمين في جهادهم ضد الكفر والكافرين :

leaning "False Sphinx! False Sphinx! By reedy Styx old Charon

(١) انظر : Isobel, Murry (ed.), The Oxford Authors:Oscar Wilde,Oxford University Press, Oxford, 1989, P.541.

on
his oar,
Waits for my coin. Go thou before, and leave me to my Crucifix.
Whose pallid burden, sick with pain, watches the world with wearied
eyes,
And weeps for every soul that dies, and weeps for every soul in vain." (١)

ومن كُتَّاب المسرحية الذين سبق أن تحدثنا عنهم خلال حديثنا عن الشعر والنثر في الأدب الإنجليزي في العصر الحديث: جيمس الوري فليكر، الذي كتب مسرحية واحدة فقط بعنوان «حسن» Hassan يتصل موضوعها بمواقف الخداع والحيل التي يتعرض لها بائع الحلوى حسن مع كثير من الناس، ثم يشكو حاله إلى الخليفة المسلم هارون الرشيد، الذي وصفه المؤلف في المسرحية بالعهر والفجور، إلى جانب الطغيان والظلم والجبروت، وقال: إن هذا هو دين المسلمين(٢).

والحديث عن المسرحية في العصر الحديث لا يمكن أن تغفل فيه الإشارة إلى الكاتب المسرحي جورج برناردشو (١٨٥٦ـ ١٩٥٠م) G.B. Shaw أحد أساطين المسرحية في العصر الحديث، الذي تساوي شهرته في عصره شهرة شكسبير في زمانه. لقد كتب شو الكثير من المسرحيات، وله باع طويل في الفن المسرحي، مثله مثل أترابه من الذين

---

(١) المرجع السابق، ص٥٤٧.

(٢) انظر: James Elory Flecker, Hassan, Heinemann, London, 1970, P.53.

كتبوا عن الإسلام . فبالرغم من أن كثيراً من المسلمين يخدعون بقوله المشهور عن الإسلام، إلا أن قوله دس فيه السم، إذ يقول: «إن الإسلام هو أحسن دين على الأرض، ولكن أتباعه أسوأ الأتباع»، فهو مجَّدَ الإسلام من ناحية، ولكنه شتم المسلمين وأساء إليهم من جهة أخرى، وليعلم المسلم أن من أتباع هذا الدين أصحاب الرسول ﷺ جميعاً ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وتنكشف حقيقة هذا الكاتب عند قراءة مسرحيته «القديسة جوان» St. Joan . وهي مليئة بالإساءة إلى الإسلام، وإلى الرسول ﷺ بالطعن والإساءة إليه عليه السلام.

وموضوع المسرحية دراسة ذاتية لحياة تلك القديسة، وعملها التبشيري الطويل، وثورتها ضد بعض الأفكار والمذاهب المسيحية، ومطالبتها ببعض الإصلاحات، الأمر الذي انتهى بها إلى الموت بالآلام النفسية عندما رأى رجال الكنيسة ضرورة قتلها لأفكارها التحررية والثورية.

والمسرحية كتبها شو في خِضَمِّ تفاعله مع الحركات التبشيرية المسيحية في البلاد الإسلامية التي عكست روح الكره للدين الإسلامي، وتشجيع جنود الاستعمار على مقاتلة المسلمين وإدخالهم إلى حوزة النصرانية. فنجد إحدى شخصيات المسرحية ـ وهو واريك ـ يناقض مفهوم النصارى عن المسلمين، إذ يقول: «إنني جندي، ولست رجل كنيسة وأني كحاج فقد رأيت شيئاً عن المسلمين، إنهم لم ينشأوا نشأة سيئة كما كنت أعتقد.

وإلى حد ما فان سلوكهم بالمقارنه بنا فهو أفضل منا» [١]، وهذا الجندي يؤكد حبه للإسلام في أكثر من موقف، لأنه شهد الحقيقة ولمسها عن المسلمين.

لكن شو لا يستقر على هذه النظرة عند هذا الجندي عن الإسلام، فيأتي ليقول: «إن العرب رعاة الإبل أخرجوا المسيح من كنيسته في القدس، وأبعدوه إلى طريق الغرب وبعدوه إبعاد الوحوش» [٢].

والمؤلف هنا يشير إلى الحروب الصليبية، ويصف المسلمين بأنهم أجلاف، ورعاة إبل.

ثم يستطرد شو في مسرحيته هذه، ليعقد صورة مقارنة بين القديسة جوان، وبين الرسول ﷺ وقوله عليه الصلاة والسلام: إنه يتلقى الوحي من جبريل عليه السلام، بينما تتلقى القديسة وحيها من القديسة كاثرين، والقديسة مارجريت، فيقول: «إن محمد» يتلقى وحيه من الملك جبريل، ولكنها ـ أي القديسة ـ تتلقى الوحي من القديسة كاثرين والقديسة مارجريت، إنه ـ أي الرسول ﷺ ـ ادعى أنَّه رسول الله، وباسم الله كتب إلى ملوك الأرض» [٣]، ثم يعلق المؤلف بقوله: ماذا يقول العقلاء والعلماء والرهبان في الكنيسة عن هذا النبي الذي اتبعه الفقراء والجهلاء؟ [٤]، ثم يقول: إن ما كتبه محمد ـ أي القرآن ـ إنما هو من

---

(١) انظر: G.B. Shaw , St. Joan, Longman Green & Co, London,1966, P.104

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

محمد الملعون البغيض المناهض للمسيح [١]. هذه هي حقيقة برناردشو الذي زعم أنه يمدح الإسلام .

وبهذا نكون قد قدمنا عرضاً تاريخياً، وتحليلاً نقدياً لجملة ما كتب عن الإسلام والمسلمين في الأدب الإنجليزي منذ العصور الأولى لتاريخ الأدب الإنجليزي، وحتى العصر الحديث. وقد كنا ندحض الآراء المغرضة، ونرد الأقوال الزائفة في ثنايا البحث بشيء من الاختصار، ولكننا سوف ننتقل للحديث بالتفصيل عن جملة الشبهات والمفتريات التي أثارها أدباء الأدب الإنجليزي في الفصل التالي من هذا الكتاب، وبالله العون والتوفيق .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

الباب الثاني عشر

شبهات ومفتريات عن الإسلام في الأدب الإنجليزي

الباب الثاني عشر
الإسلام في الأدب الإنجليزي:
شبهات ومفتريات

لا شك لدىٰ أي مؤمن أن الإسلام كان خاتمة الرسالات من رسالات السماء، وأن الرسول محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء وصفوة الله من خلقه، وما ضار الإسلامَ ولن يضيره شيء من كلام الحاسدين، وافتراء المفترين والمشككين في حقيقة الإسلام وصدق نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام، والأمر في ذلك كمثل شخص ينظر إلىٰ الشمس وهي في كبد السماء، فيظن أنها صغيرة لا تزيد مساحتها عن شبر في شبر، وعذره أنها تبدو في رأي العين كذلك، إن هذا الحكم لا يجعل الشمس تتحول إلىٰ كرة قدم، لأن إدراك شخص ما أو جماعة أو شعب بأكمله ضاق عن معرفة ضخامتها الهائلة وبعدها الكبير عن الأرض، حقاً إن العظيم لا يصبح صغيراً لأن الظنون أخطأت فهمه. وهذا كان دأب النفر الذين عادَوُا الإسلام منذ بزوغ فجره علىٰ أرض الجزيرة، فكانت نظرتهم إلىٰ النبي الكريم ﷺ: (الذىٰ يعرفون صدقه وأمانته وشرفه ونبله) أن قالوا عنه عليه الصلاة والسلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾(١):

---

(١) سورة الحجر الآية ٦.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1] .

ومع هذه المقاومة، وهذه العداوة، وأن صاحب رسالة الإسلام عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام سار في طريقه يبذر الحق، ويهدي إلىٰ صراط مستقيم، وهكذا لم تتحول الشمس إلىٰ كرة قدم، ولم تكن النبوة مُجُونَ كُهَّانٍ، لقد ذاب الافتراء وأهله، وتلاشىٰ الجاهلون، وبقيت الحقيقة فوق التُّهم والتُّرَّهات، ولطالما استطالت الألسن في قيم العباقرة، فما أثمرت الاستطالة شيئاً إلا انقطاع أصحابها بلغطهم وغلطهم، وخلود الأبرار بمبادئهم وقيمهم.

وبعد هذه الفترة الأولىٰ التي ظهر فيها أعداء الإسلام إبَّان حياة الرسول ﷺ، جاءت فترات متعاقبة لتردد مثل تلك الأقوال، وتثير الشبهات، وتكيل الافتراءات، أمثال السبئية والشيعة والقرامطة والباطنية، إلىٰ أن جاء المستشرقون يرددون الإفك الذي لغط به من سبقهم من أعداء الإسلام، يروجون للاستعمار والتبشير أغاليط وأكاذيب ما علمنا بها في الملة الأولىٰ، إنْ هي إلا اختلاق.

والفصول السابقة عن عصور الأدب الإنجليزي خلال تاريخه الطويل من القرن السادس حتىٰ القرن العشرين ـ وعلىٰ وجه التحديد أوائل الخمسينيات من هذا القرن ـ دلت الدراسة فيها علىٰ أن كُتَّاب الأدب الإنجليزي كانوا يركزون الحديث علىٰ موضوعات محددة عن الإسلام،

---

(١) سورة ص، الآيتان ٤ ـ ٥.

تنحصر في مفاهيم محدودة بعينها .

لقد انحصرت كتابات الأدباء في هذه الموضوعات، التي هي جماع الأمر في دين الإسلام، والتي سوف نوجز الحديث عن كل موضوع من هذه الموضوعات قدر المستطاع، لرد الشبهات، ودحض المفتريات التي جاءت في الأدب الإنجليزي، من خلال ما تقدم ذكره في فصول هذا الكتاب .

أولاً: كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله :

إن التوحيد الذي جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [١] : إنما يتضمن الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولايوالىٰ إلا له، ولايعادىٰ إلا فيه، ولايعمل إلا لأجله، وذلك يتضمن ما أثبته الله عز وجل لنفسه من الأسماء والصفات والربوبية التامة له سبحانه وتعالىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢] .

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [٣] .

---

(١) نقلنا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية من كتاب : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل شيخ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١٦٣ .

(٣) سورة النحل، الآية ٥١ .

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(٢).

وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلىٰ عبادة الله وحده لاشريك له. وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(٣).

وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ. وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾(٤). وهذا في القرآن كثير(٥).

ثم يبين شيخ الإسلام المقصود بالتوحيد الخالص، المتضمن إفراد الله بالألوهية، وتمام العبودية خالصاً من الشرك، فيقول: «وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية. وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم؛ كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا

(١) سورة المؤمنون، الآية ١١٧.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٤٥.

(٣) سورة الممتحنة، الآية ٤.

(٤) سورة الصافات، الآيتان ٣٥-٣٦.

(٥) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، دار القلم، بيروت، ١٤٠٥هـ، ص ١٤، ١٥.

فيه، فقد فنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالىٰ من الصفات، ونزهه عن كل ماينزه عنه. وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شيء، لم يكن موحداً حتىٰ يشهد أن لا إله إلا الله وحده. فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له. و«الإله» هو المألوه المعبود، الذي يستحق العبادة، وليس الإله بمعنىٰ القادر علىٰ الاختراع. فإذا فسر المفسر «الإله» بمعنىٰ القادر علىٰ الاختراع، واعتقد أن هذا المعنىٰ هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد ، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين (١)، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (٢).

قالت طائفة من السلف : «تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله، وهم مع هذا يعبدون غيره. قال تعالىٰ : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ . قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾(٣).

فليس من أقر بأن الله تعالىٰ رب كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٦.

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات ٨٤ـ٨٩.

ما سواه، داعياً له دون ما سواه، راجياً له خائفاً منه دون ما سواه، يوالي فيه، ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهىٰ عما نهىٰ عنه. وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم معه. وجعلوا له أنداداً، قال تعالىٰ: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ . قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (١) . وقال تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢) .

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٣) .

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (٤) .

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم ويَنْسُكُ لها ويتقرب إليها . . ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي، فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً. ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام

---

(١) سورة الزمر، الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) سورة يونس، الآية ١٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٩٤.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

أن هذا شرك »[١].

لقد كان النظر في صفات الله مجال التنافس بين كثير من عقول أصحاب الحكمة الدينية والفلسفة الفكرية، فلقد ارتفعت صفات الإله عند أرسطو إلىٰ ذروتها من التنويه والتجريد، ولكنها لم تدرك معنىٰ الألوهية والوحدانية، وذهب أفلاطون إلىٰ مذهب الغيبوبة الصفوية في صفات الله التي تمعن في الزيادة علىٰ كل صفة يوصف بها الله.

وعند الفلاسفة والحكماء صور لا تليق بالإله الواحد، فصورة جوبتر رب الأرباب كانت أقرب إلىٰ الشيطان، وصورته منها إلىٰ صورة رب الأرباب المنزهة، وصورة الإله عند القدماء في اليونان والهند إذا كانت ارتقت إلىٰ حقيقة التنزيه من جهة، إلا أنها هبطت إلىٰ حقيقة التجسيم والتشبيه والتشويه، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا كان الإله الواحد عند الفراعنة لا شريك له، إلا أنه لم يكن الإله الواحد الذي دعا إليه الرسل، إنه إله رُمِزَ له بالشمس، وهو اسم مرادف له في كل الطقوس.

أما الإله عند اليهود، وهو إله شعب إسرائيل، وليس إله رسل بني إسرائيل، ذلك الذي أسموه «يهوا»، أو «يهوه»، وهو صورة تبعد عن الوحدانية يشترك معه آلهة كثيرون، تعبدها الأمم التي جاورت العبريين في أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم.

---

(١) عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٢١، ٢٣.

وفكرة الإله عند النصارىٰ قامت علىٰ التثليث، أو عبادة عيسىٰ ابن مريم، أو عبادة الأحبار والرهبان.

وظلت فكرة التوحيد والإيمان بالإله الواحد هي ما جاء به الرسولﷺ كما تقدم ذكره في قول شيخ الإسلام ابن تيمية، ويؤكد ذلك قول الكاتبة الإيطالية لورا فيشا فاغليري عن مفهوم التوحيد في الإسلام، حيث تقول: «ولقد دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عَبَدَةَ الأوثان، وأتباع النصرانية واليهودية المحرفتين إلىٰ أصفىٰ عقيدة توحيدية، وارتضىٰ أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلىٰ أن يشرك بالخالق آلهة أخرىٰ» وتستطرد قائلة: «وبفضل الإسلام هُزمت الوثنية في مختلف أشكالها. لقد حرر مفهوم الكون وشعائر الدين وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولات أو المسوخ التي كانت تحطُّ من قدرها، وحررت العقول الإنسانية من الهوىٰ، لقد أدرك الإنسان آخر الأمر مكانته الرفيعة، ولقد أذل نفسه أمام الخالق رب العالمين. إنه لم يصبح قادراً فحسب أن يقول مع إبراهيم، بل لقد تعين عليه في الواقع أن يقول مع هذا النبي: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (١).

ويقول الكونت هنري دي كاسترو: «أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلىٰ النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ

(١) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٤٣ ـ ٥٠.

لو قرأ تلك الكتب لردَّها، لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، مخالف لوجدانه منذ خلقته، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته ونبوته، ولعل هذا البرهان من أوضح الأدلة على أن الإسلام وحي من الله، فإن مفهوم التوحيد الإسلامي عقيدة تميز بها الإسلام عن غيره، وليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه» .[1]

هل بعد هذا العرض الموضوعي والتحليل العلمي يبقى لمن يدعي أن الإسلام دين باطل، ومسألة التوحيد أخذها الرسول ﷺ من الديانات الأخرى من حُجَّة أو برهان؟ لا شك أنه لله الدين الخالص، وهذا قولنا، لا يضرنا من كفر إذ اهتدينا والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والله يحكم ما يشاء ويفعل مايريد.

ثانياً: محمد رسول الله نبي الإسلام حياته ونبوته ودعوته:

إن الموضوع الأساسي بعد قضية التوحيد ومفهومها الإسلامي الذي اهتم به كُتَّاب الأدب الإنجليزي في أعمالهم الأدبية: شخصية الرسول ﷺ، فقد دأب الغرب بالفكر الاستشراقي على النظر إلى شخصية الرسول ﷺ من خلال منظار البطولة أو القيادة، لإنكار نبوته وإثبات بطلان الدين الإسلامي، مع أنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة

(١) الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة السعادة، ب ت، القاهرة، ص ١٨ ـ ٢٣.

والإنجيل، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكن الحسد الذي ملأ النفوس، والضلال الذي أُشْرِبَتْ به القلوب هما الدافعان الأساسيان في هذا الشأن.

لقد تحدث كُتَّاب الأدب الإنجليزي عن الرسول محمد ﷺ؛ عن ولادته وبعثته ودعوته وهجرته إلىٰ المدينة المنورة، وعن معجزاته وغزواته، وعن تعدد زوجاته، وصِلاته مع أصحابه حتىٰ وفاته. وكل هذه الأمور التي تحدث عنها الأدب الإنجليزي في تاريخه الطويل مليئة بالشبهات وإثارتها، وتضمين ذلك الافتراء والإفك والمعاني السيئة. وإن المطلع علىٰ معجم أكسفورد ـ الطبعة المكثفة الجزء الأول منه ـ تحت كلمة محمد (Maumed) يجد ما يزيد عن ثلاثين اشتقاقاً لهذه الكلمة، منها كلمة Mammad, Mahomed, Makomede, Makamede, Mahoun وغيرها من الألفاظ، وكلها أسماء استخدمت من قبل الأدباء والكتاب الإنجليز تشير إلىٰ الرسول ﷺ، ولكنها تحمل معاني سلبية بمعنىٰ الشيطان، والصنم، والفاسق، ونبي الوثنية، ونبي عَبَدةِ الأصنام، والساحر، والكاهن، وما إلىٰ ذلك من المعاني الفاسدة[1].

إن أشد ما قيل عن الرسول ﷺ ما أورده الشاعر الأسكتلندي وليم دينبار William Dunbar في قصيدته المشهورة بعنوان «السبع الموبقات» في العصر الوسيط، حيث جعل الرسول ﷺ من تلك الموبقات التي

(١) انظر: The Compact Edition of The Oxford English Dictionary, Vol.1,P1747

حالت دون الحق، وهذا أشد ما قيل عنه ﷺ، فلا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ونجد السير والتر رالي في كتابه حياة وموت محمد The life and Death of Mahomet يقول: إن الرسول ﷺ ولد يوم الجمعة، الأمر الذي جعل محمداً ﷺ يجعل ذلك اليوم المقدس في الأسبوع عند المسلمين. وهذه أغلوطة قصد بها الانتقاص من يوم الجمعة وأهميته، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذي خص يوم الجمعة بذلك الاهتمام وبتلك القدسية، ولم يكن ذلك من عند الله سبحانه وتعالىٰ، إضافة إلىٰ الكذب علىٰ الحق عن اليوم الذي ولد فيه عليه الصلاة والسلام، ألا وهو يوم الاثنين. ولسنا بحاجة إلىٰ إثبات الحق، فهو أبلج.

وأما عن وفاته وبالأخص عن ضريح الرسول ﷺ، فقد كثر الحديث عن ذلك في الأدب الإنجليزي، وفكرة الضريح المعلق في السماء بواسطة أحجار مغناطيسية موضوعة علىٰ ظهر الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، فقد كان أول من قال بهذا الكاتب كريستوفر مارلو في مسرحيته «تيمورلنك»، وقد تبعه في ذلك بعض الأدباء أمثال جون ملتون، وجوزيف أديسون، وماثيو بريور، و روبرت ساوثي، إلا أن ساوثي يقول: إن الضريح معلق في الهواء في المدينة المنورة، وليس في مكة المكرمة.

وكل ما قيل في هذا الشأن يكذبه الواقع، فالعرب لم تكن تعرف التابوت، بل كانوا يعرفون اللحود والدفن في الأرض، وحادثة دفن

الرسول ﷺ بين الصحابة معروفة، والتي حسمها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حيث قال: إنه سمع الرسول ﷺ يقول: «إن كل نبي يدفن حيث قبض»، ومكان ضريحه ﷺ معروف ومعلوم لدىٰ الأشهاد، ولا مسوغ لكذب هؤلاء الذي ينم عن البغض والعداوة الشديدة للإسلام، ولم يذعنوا لقول القائل المؤمن من آل فرعون، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ (١).

ومن المعلوم أن أكذوبة الضريح المزعوم المعلق علىٰ ظهر الكعبة، وفيه جسده الشريف ﷺ، غدت مثلاً سائراً لدىٰ الإنجليز، ذلك أن أي أمر مشكوك فيه، ولا يوثق به، يُعَبَّرُ عنه بضريح أو تابوت محمد المعلق وتذبذبة، والله لقد زعموا ذلك، وقالوا منكراً من القول وزوراً.

بل عن مسألة وفاته ﷺ ذهب الكاتب جون لايدجيت إلىٰ القول بأن محمداً عليه الصلاة والسلام مات في الصحراء، وأصبح جيفة أكلتها الجوارح من الطير والكواسر من السباع، ويا ليت شعري، ما هكذا يموت صفوة الخلق من الأنبياء والرسل!، فهم في منازل صدق ومقاعد صدق عند مليك مقتدر، لكنه الحسد والكراهية للإسلام دفَعَا هذا الكاتب ليقول بفريته هذه.

ويقول لايدجيت عن ولادته ﷺ بأنه ولد فقيراً وعاش يتيماً وفي فقر

---

(١) سورة غافر الآية ٢٨.

مدقع ، وقد جاء من طبقة منحطة فقيرة، الأمر الذي لايمكن أن يصدق بأنه نبي ، خصوصاً أنه كان يصاب بحالات الصرع والهستريا .

وعن الوحي الذي كان يأتي للرسول ﷺ، فإن لايدجيت يقول : إن حالات الصرع والهستريا التي كانت تصيب محمداً عليه الصلاة والسلام هو الذي يسميه وحياً إلهياً، وهو ليس كذلك .

إن جهل هذا الكاتب بحقيقة الوحي يجعله يذهب هذا المذهب، ولم يعلم أن جبريل روح القدس كان يحمل رسالة السماء إلى النبي ﷺ منذ أن صدع بقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(١) ، ومنذ قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ (٢)، وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾(٣) ، لذا فإنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون .

كما أن كُتَّاب الأدب الإنجليزي يتحدثون عن حمامة مزعومة يرون أنها هي التي تزود الرسول عليه الصلاة والسلام بالوحي ، وممن قال بهذا الكاتب الإنجليزي المشهور وليم شكسبير ، حيث أشار في مسرحيته «هنري السادس» أن محمداً عليه الصلاة والسلام يتلقى الوحي من حمامة، وتبع شكسبير في هذا الشاعر صموئيل بتلر ، كما يتجلى في قصيدته «هودبراس» Hudibras ، فيقول : إن محمداً ﷺ درب حمامة تأكل القمح من فوق أذنيه ، وتوحي له بوحيها ، وأنها هي جبريل محمد وروح قدسه ﷺ. وقد تحدث عن الحمامة المزعومة الكاتب المسرحي

(١) سورة العلق . الآية ١ .

(٢) سورة المزمل ، الآية ١ .

(٣) سورة المدثر ، الآية ١ .

والناقد المشهور جون درايدن كما يتضح في مسرحيته «العامل والنمر» وفيها يقول: إن مصدر الوحي الإلهي الذي يزعمه محمد عليه الصلاة والسلام هو حمامة محمد.

ومن شعراء الرومانسية المشهورين، فإن وليم وردزورث كتب قصيدة بعنوان «العندليب»، وجعل هذا الطائر بديلاً عن الحمامة، وأنها مصدر الوحي لدين نبي العرب محمد ﷺ.

هكذا اعتبر الأدباء الإنجليز أن الحمامة هي أمين الوحي لنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، بهذا أنكروا صدق نبوته، ودللوا علىٰ ذلك بكذب آخر، حيث قال رانولف هجدن: إن دعوىٰ محمد عليه السلام ومعجزاته الملفقة غير صحيحة، فقد قيل: إنه أثَّر علىٰ كثير من العرب، ودعاهم لدينه بتأثير السحر، وليس بإعجاز القرآن، وأنه درب حيواناً من الحيوانات ــ وهو جحش بري أو ثور أو بعير ـ وجعله لا يأكل إلا من يده الشريفة عليه الصلاة والسلام، ليجعل تلك معجزة له، فيؤمن الناس به، وليس في ذلك إعجاز. لقد كذب هذا الزاعم في قوله، فمعجزاته ﷺ ثابتة مشهورة مشهودة صحيحة، ويتقدمها القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو المعجزة الباقية إلىٰ يوم الدين.

وفي مسرحية «محمد الدجال» للكاتب جيمس ميلر، فإن المؤلف يقول: إن الرسول ﷺ لم يكن لديه وحي إلهي، ولم يبعث من السماء، وأن دعوته باطلة، فهو إنما جاء لطلب الرياسة والمال باسم الدين، وعلىٰ نفس هذا المنهج سار روربت ساوثي في حديثه عن بعثة الرسول ودعوته

والوحي، فقال: إن الرسول ﷺ لم يصدع بما صدع به إلا لرغبة جامحة وطموح شديد في نفسه، كان يطلب بهما الملك والسلطان، وأظهر ما يمكن أن يرىٰ في شخصية محمد عليه الصلاة والسلام تمكنه من السلطة، فعدَّد زوجاته وأكثرَ منهن. وما ظهور الإسلام وانتشاره إلا حظٌّ وافر حالف محمداً وأتباعه، بسبب الثورة الحربية والعقدية التي قام بها ضد دين آبائه وأجداده، وأن القرآن الكريم ليس وحياً، بل هو كله دعوة للقتال، وليس فيه ما يصلح النفوس، وينير العقول.

وبمثل هذا الإفك وهذا الافتراء نجد الكاتب المسرحي ولتر سافج لاندور يقول: إن محمداً عليه الصلاة والسلام والقديس سيرجس كلاهما يطلبان الشهرة، فأحدهما كان يطمع أن يظهر في القسطنطينية، وهو القديس سيرجس، بينما محمد أراد أن يظهر في سوريا. فمحمد ليس بنبي، وأنه حرَّم الخمر علىٰ نفسه لما يصيبه من صرع، وإغماء فادعىٰ أن ذلك وحي السماء، وأنه حرام علىٰ المسلمين.

وعن هجرة النبي محمد ﷺ، فإن السير ولتر رالي يقول: إن محمداً عليه الصلاة والسلام ذهب إلىٰ المدينة غازياً، وأخذها عنوة بقوة السيف والسلاح، وما يلبث أن يناقض الكاتب نفسه بعد صفحات قلائل من كتابه، ليقول: إن محمداً عليه السلام دخل المدينة سِلْمَاً حيث رحب به أهل المدينة ترحيباً حاراً بصفته خليفة أو ملكاً لهم.

في حين يناقض هذا القول روبرت ساوثي الذي يقول: «هاجر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام إلىٰ المدينة المنورة، مع صاحبه أبي بكر خوفاً من قريش».

وأمثال هذا التناقض بين كُتَّاب الأدب الإنجليزي كثيرة، أوردناها في ثنايا الكتاب، وأشرنا إليها في الأماكن المناسبة في الفصول السابقة، ولا داعي إلىٰ تكرارها مرة أخرىٰ.

وعن الرسول ﷺ وشخصيته تضاربت الأقوال، واختلفت الآراء في الأدب الإنجليزي، وأنّىٰ تجتمع كلمة الباطل. فنجد في بعض الأعمال الأدبية ما يشير إلىٰ أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يكن نبياً، بل كان إلهاً، وهذا ما يجده القارئ ـ مثلاً ـ في العصر النورماندي أن محمداً ﷺ هو إله العرب، وأن كلمة التوحيد: لا إله إلا الله قال بها محمد عليه السلام، ويعني أنه هو الإله الواحد المعبود، ولا ربَّ سواه، وأكد هذه الفرية وليم شكسبير في مسرحيته «هنري الرابع» عندما قال: إن الوثني المسلم يلعب بإلهه محمد، وإن الفارس المغوار لا يلهو ويلعب كما يلعب المسلم بمحمد الإله. ونجد إدوارد ينج يصور شخصية مسلمة وقعت في الأسر تناجي محمداً علىٰ أنه إله الإسلام والمسلمين.

وفي عصر من عصور الأدب الإنجليزي في عصر النهضة، نجد جورج سانديز يقول بأن محمداً ﷺ لم يكن ملكاً ولا رسولاً، بل إنه كان جندياً ثائراً مع بعض الجنود العرب الذين كانوا مع هرقل إمبراطور الروم، فحاد عن طريق الحق ،وادعىٰ ما ادعاه، وهذه فرية وتناقض من نوع آخر.

ويمكننا الإشارة إلىٰ المثل الإنجليزي المعروف، ونصه: «إذا لم يأت الجبل إلىٰ محمد، فإن محمداً يذهب إلىٰ الجبل». فقد تحدث ملتون عن

كهف الرسول ﷺ، وهو يشير إلىٰ غار حراء، فيقول: إن محمداً ـ بلفظ Mammad وتعني الشيطان ـ كان يتحنث في كهفه عند الجبل، فوصف الرسول بغير مقام النبوة، ولا ذنب بعد الكفر، كذلك نجد جولد سمث الكاتب الإنجليزي المعروف يكتب رسالة إلىٰ صديق له يعاتبه علىٰ طول غيابه وعدم زيارته له منذ أمد، ويقول له: «إذا الجبل لم يأت إلىٰ محمد، فيجب علىٰ محمد أن يذهب إلىٰ الجبل»، وقد أورد هذه المقولة بشيء من الازدراء والسخرية من شخصيه الرسول ﷺ.

لقد كتب جوزيف أديسون مقالاً له تحدث فيه عن حادثة الإسراء والمعراج، عندما أُسري به إلىٰ بيت المقدس من البيت الحرام، وعُرِجَ به إلىٰ السماء. نرىٰ المؤلف يتعجب في مقاله هذا، وينظر إلىٰ الأمر بالعقل المادي وبالتفكير الحسي، كما فعلت قريش من ذي قبل، إذ يقول: كيف، وفي وقت قصير تمكن جبريل عليه السلام أن يأخذ الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلىٰ فلسطين، ثم من هناك يطلع به إلىٰ السماء ليريه كل ما في السماوات السبع؟ ثم يستطرد قائلاً: بأن كل من يقدر للزمن قدره، فإنه يعلم بأنه ليس بالإمكان أن يتم ذلك كله في ذلك الوقت الوجيز فهو بذا ينكر هذا الأمر جملة وتفصيلاً، وقد فعل مشركو مكة ذلك مع علمهم بصدقه وأمانته ﷺ، ولكن: إنها لا تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور.

ولعل ما كتبه الشاعر الإنجليزي ألكسندر بوب في أعماله الشعرية عن الرسول يبين مدىٰ جهل هؤلاء القوم بحقيقة الإسلام، أو تجاهلهم للحق

والحقيقة ، ففي قصيدة ملحمية هجائية بعنوان Dunciad نجد أحد الملوك الإنجليز يتحدث عن الشرق والإسلام، وينتهي الى وصف النبي ﷺ بأنه تسلط على الناس، وأرعبهم تحت ستار الدين والشريعة والقانون، ولم يكن يعلم محمد عليه السلام أن دينه يقوم على الجهل والهذيان . يا له من قول مشين، فإن الشاعر لم يكن يعلم أن الله يقول لهذا النبي الكريم ﷺ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (١) .

ومن شعراء الرومانسية الذين اتهموا الرسول بحبه للسلطة والسيطرة، يطالعنا اسم الشاعر كوليردج في قصيدته «محمد»، التي يصف فيها الشاعر الرسول عليه السلام بأنه بسيطرته نشر الشر هو وأتباعه، ودينهم وثني هو عبادة للأصنام، وأن محمداً وأصحابه ليسوا أهل سلام، بل أهل حرب وقتال محبون للهيمنة والسيطرة .

ولقد ظهر في عصر التجديد مقالٌ أدبيٌّ كاتبه مجهول حتى اليوم، تحدث فيه عن قصة أوحادثة شق صدر رسول الله ﷺ عندما كان لدى حليمة السعدية في بني سعد . وقد كال كاتب هذا المقال السباب للإسلام ولنبيه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ إذ قال عنه ﷺ إنه دجال مدع ، وما حادثة شق صدره إلا حلم رآه في منامه أو هي قصة من نسج الخيال ، وليست تلك الواقعة من الحقيقة في شيء . هلا عاش هذا الكاتب ليرى في زماننا كيف يعمل الأطباء على شق الصدور وإجراء عمليات زراعة القلب، وغسلها بالماء البارد والثلج، ولكن التجاهل للحق وحب الباطل

(١) سورة الغاشية ، الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .

دفع هذا المؤلف أن يقول بهذا البهتان .

وفي عصر التجديد أيضاً كتب الشاعر أبراهام كاولي قصيدة بعنوان «إلى السيد هوبز» To MR. Hobs، تحدث فيها عن الإسلام والعلم، وضمَّن قصيدته كثيراً من التناقض، حيث يقول : إن المسلمين والعرب حافظوا على تراث الحضارة اليونانية، وساعدوا على نقلها إلى الغرب، بالرغم من نكاية محمد بالعلم والعلماء بوحشيته الضارية ونفسيته الجاهلة، يا للعجب! من هم المسلمون ؟ أليسوا هم أتباع محمد ﷺ؟ أو ليس القرآن الكريم الذي جاء به عليه الصلاة والسلام فيه ذكر العلماء والعلم والرفعة من شأنهم وقدرهم؟ قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1] .

ولقد كتب الشاعر الرومانسي كوليردج قصيدة بعنوان «محمد»، تحدث في أبياتها الأولى بأن الإسلام عقوبة السماء لنصارى الشرق الذين تقاعسوا عن التبشير بالنصرانية، الأمر الذي جعل محمداً يظهر بدينه الوثني، ويقتل الناس، وينشر الشر والسوء وأقام إمبراطوريته الكبرى .

إن الأمر على عكس ذلك، فما محمد عليه الصلاة والسلام إلا رحمة للعالمين، ودينه رحمة وليس غضب السماء ولعنتها على الناس، كما زعم هذا الشاعر الكافر .

كما أن الشاعر الرومانسي ساوتي في قصيدته (ثعلبة الفتاك) تحدث عن الرسول ﷺ، وهو يقرأ بعض الآيات من الإنجيل، مشيراً بذلك إلى

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١١ .

ميل الرسول ﷺ إلىٰ النصرانية وعدم رغبته فيما بُعِثَ به من الاسلام.

ياله من إفك !! ألم يعلم هذا المفتري أن النبي عليه الصلاة والسلام كان أمياً لايعرف القراءة والكتابة ؟ إنه لزور عظيم.

إن مثل هذه الأقوال والاتهامات والشبهات والمفتريات عن الرسول ﷺ تملأ أعمال كتاب الأدب الإنجليزي ضمن عصور الأدب المختلفة، وما أسهل رد هذا البهتان ومنكر القول وزوره، وقد فندنا هذه المفتريات، ودحضناها فيما سبق، ويكفي أن نشير إلىٰ ذلك ببعض الأقوال الآتية :

سبق أن تحدثنا عن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ، وهي إفراد الله بالعبادة دون سواه، ولا معبود بحق سوىٰ الله، وتمام الشهادة هو أن يشهد المسلم بصدق نبوة الرسول محمد ﷺ ، فتكون كلمة التوحيد أشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله، وهذا ما قال به شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام حسان بن ثابت رضي الله ، عنه إذ يقول :

أغرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهدُ
وشق له من اسمه ليعزه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ
وضم الإله اسم النبي إلىٰ اسمهِ ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهدُ
نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثانُ في الأرض تُعبدُ
فأمسىٰ سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصَّقيل المهندُ
وأنذرنا ناراً وبشَّر جنة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمدُ[1]

(١) حسان بن ثابت الأنصاري ، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، ص ٣٣٨ .

وكذلك نجد كعب بن زهير رضي الله عنه يقول عن الرسول ﷺ في شعره:

نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدني ... والعفوُ عند رسول الله مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ
لا تأخذنِّي بأقوال الوشاة ولم ... أذْنب ولو كثُرت فيَّ الأقاويلُ
ما زلت أقتطعُ البيداء مدرعاً ... جنح الظلام وثوب الليل مسبولُ
حتى وضعتُ يميني ما أنازعها ... في كف ذي نقمات قوله القيلُ
إن الرسولَ لنورٌ يُستضاء به ... مهنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ(١)

إن محمداً رسول الله هو نور الله في الأرض، النور الوهاج والسراج المنير، الذي أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية، فانجابت كما ينجاب الغمام بفضل دعوة التوحيد، وتخليص الناس من براثن الشرك. إن الرسول عليه الصلاة والسلام هُديً من الله أرسله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية الضالة، فانتشلها من ضياعها، وانتشلها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبط فيه من دياجير الظلام وعقابيل(٢) الضلال.

محمد رسول الله ﷺ خاتم رسل الله جميعاً، ختم الله به النبوة والرسالة، كما ختم بالقرآن الكريم كتبه السماوية المنزلة، فكان ختام مسك. محمد رسول الله ﷺ، آخر المرسلين وجوداً، وأولهم رتبة ومنزلة، فهو سيد ولد آدم، وفخرهم في الحياة الدنيا وفي الأخرة، وهذا

---

(١) كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) بقايا العلة والعداوة والعشق . . . والشدائد، ومفرد العقابيل عقبولة وعقبول.

قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[١].

وقد روىٰ الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قول الرسول ﷺ: «إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير خلقه، وخلق القبائل، فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً»[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبي؛ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»[٣].

إن الرسول ﷺ هو المعروف بين أهله وعشيرته وقومه بالصادق الأمين، وهو شريف النسب، عاش منذ صغره علىٰ العفاف بجوارحه وقلبه، لم يمل قلبه إلىٰ هوىٰ الدنيا، وكانت فطرته تسوقه إلىٰ الحق بما حباه الله من رعاية وعناية، وبما حفظه الله سبحانه وتعالىٰ عن كل سوء وكل رزية ورذيلة، وهذا ما استحق به أن يصفه الله جل وعلا في محكم التنزيل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول «كان خلقه القرآن»[٥].

كل هذه الحقائق تشهد بها كتب السير والتاريخ، ومع هذا، فقد أضل

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.
(٢) مسند أحمد ١/ ٢١٠.
(٣) جامع الترمذي ٥/ ٣٠٨ برقم ٣١٤٨.
(٤) سورة القلم، الآية ٤.
(٥) مسلم كتاب صلاة المسافرين ١/ ٥١٣ برقم ٧٤٦.

الله أُناساً كثيرين عن تصديق نبوته، والإيمان بما دعا إليه، وهذا سببه حسد أهل الكتاب لهذا النبي، وخصوصاً عداوة اليهود، الذين كرهوا أن يكون عليه الصلاة والسلام من ولد إسماعيل، ولم يكن من ولد إسحاق عليهما الصلاة والسلام. إن أهل الكتاب يعرفون هذا الرسول ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا من قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام. ولكن عندما بعث عليه أنفسهم، فروجوا الأقاويل، وأذاعوا الأباطيل، وقالوا منكراً من القول وزوراً. محمد عليه أفضل الصلاة والسلام كفروا به حسداً من عند أنفسهم، كانت تلك هي سبيل الكثير من الذين ساروا في ركابهم، فأضلهم الله على علم بما لَبَّسُوا الحق بالباطل.

يقول الكونت دي كاستري: «إذن، ليس محمد من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبي سلاب كما يقول موسيو (سايوس). نعم، قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمداً كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية، فالبحث مباح فيما إذا كان مذهبه صحيحاً أوموضوعاً، اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي، ولكن لا نسلم إنكار هذه الحقيقة، وحينئذ لاعجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن (النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين). ويستطرد ويقول:

والآن نلخص لك مذهب نبي المسلمين في الديانات الثلاث،

فنقول: إن دين الأنبياء كان كله واحداً، فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلىٰ محمد، وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية، هي الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلىٰ التوراة كالتوراة بالنسبة إلىٰ الزبور، وأن محمداً بالنظر إلىٰ عيسىٰ كعيسىٰ بالنظر إلىٰ موسىٰ، ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد ﷺ، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسىٰ، قال: إنه بعث ليتمم رسالة مَنْ قبلَه، لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه، ولذلك كان يصرح علىٰ الدوام بأنه يعيد علىٰ الناس ما نزل علىٰ الأنبياء من قبله، وكان يسمع صوتاً من السماء يقول له: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً. وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً. رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (١). وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢). وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣). علىٰ أن

(١) سورة النساء، الآيات ١٦٣، ١٦٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٣) سورة النحل، الآيات ٤٣، ٤٤.

بعض المشابهات لاتحتاج الى مثل هذا التفسير؛ إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبدوه، فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أنواع الدعاء(١).

إذن لا يمكن أن ننكر على محمد ﷺ في الطور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان، فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الطور الثاني، وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محلَّ للزيادة فيه، ولم يكن فيه عيب، بل إن ما نسبوه إليه من هذا القبيل لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة، فما كان يميل إلى الزخارف، ولم يكن شحيحاً، بل كان ـ كما قال أبو الفداء ـ يستدر اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب، ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرتقة، وكان قنوعاً، خرج من هذا الباب، كما رواه أبو هريرة، ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.

هذا هو النبي الذي قال عنه المنشدون من النصارى: (إنه كان منهماً، يأتي المغيبات في الحانات) تجرد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية، ولم يتخذ وزيراً، ولا حشماً، ولم يحتكر المال والمعالي، وبلغ من السلطان منتهاه، ولم يكن له من علامات الإمارة والملك سوى قضيب خاتم من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله)، ولم يكن فيه عيب إلا كما خلق الله الإنسان.

---

(١) الكونت دي كاستري، الإسلام سوانح وخواطر. ص ٢٣ ـ ٢٥.

قال (رونان) : «خلق الإنسان ضعيفا، فلا يقوىٰ علىٰ احتمال الرسالة الربانية زمناً طويلاً، ومن لم تطل مدة رسالته فهو من البررة المعصومين» ومع ذلك، فرونان لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي[1].

ولقد نقل الدكتور محمود محمد الطنطاوي أقوالاً كثيرة لبعض المفكرين الغربيين، واعترافاتهم عن الإسلام، فهذا كارلايل الإنجليزي يقول ـ فيما نقله الدكتور الطنطاوي ـ: «الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل تحدث عن رسول الإسلام محمد ﷺ في كتابه «الأبطال وديانة الأبطال»، وقال: «أي شيء أكبر دلالة علىٰ صدق من يدعي لك أنه بنَّاء ماهر، من أن يبني ـ فعلاً ـ بيديه داراً تقاوم العوادي أكثر من ألف ومائتي سنة، وهي تسع نحو مائتي مليون من الأنفس[2]، كذلك لا شيء أكبر دلالة علىٰ صدق نبوة محمد ﷺ من أن يؤسس ديانة يجد فيها نحو مائتي مليون من الأنفس غذاءهم الروحاني، وتقاوم عوامل التحليل في مدة أكثر من اثني عشر قرناً.

وقال في موضع آخر من كتابه: « فمحمد ﷺ هو الذي قال: إنه رسول من عند الله، وبرهن علىٰ صدق قوله بدين نشره في الناس، أخذه مئات من الملايين، ومضت عليهم في ذلك قرون طويلة، وهم يحبون دينهم هذا، ويتحمسون له أكبر تحمس، فماذا يراد من الأدلة علىٰ نبوته بعد ذلك؟»

(١) المرجع السابق.
(٢) أما الآن تعداد المسلمين يجاوز المليار من الأنفس.

وفي كتابه «الرسالة المحمدية» قال: «لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن من أبناء هذا العصر، أن يصغي إلى ما يدعيه المغرضون من أن محمداً خداع مزور، وعلينا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير منذ اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا، أفكانَ أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟ أمَّا أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والفحش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم هذا التصديق والقبول، فما الناس إلا حمقى مجانين، وما الحياة إلا سُخْفٌ وعبث وضلال، كان الأولى بها ألا تخلق! هل رأيتم قط، معشر الناس، أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ عَجَب والله! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب.. وعلى ذلك، فلسنا نعد محمداً قط رجلاً كاذباً متصنعاً، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيته، أو يطمع إلى درجة ملك أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حق صريح، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً، صادراً من العالم المجهول، أي الغيب الذي يجهله الناس»[1].

ثم ينقل الدكتور الطنطاوي مقولة الفيلسوف الفرنسي لامارتين،

(١) نخبة من علماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون، عالم المعرفة، جدة، ١٤٠٥ هـ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وهو يخاطب بني قومه، فقال: «أترون أن محمداً كان أخا خداع وتلبيس، وصاحب باطل ومين؟ وإني أقول لكم: كلا بعدما وعينا تاريخه ودرسنا حياته».

ثم قال لامارتين: «فإن الخداع والتدليس والباطل والمَيْنَ، كل ذلك من نفاق العقيدة، وليس للنفاق قوة العقيدة، وليس للكذب قوة الصدق. وإذا كانت قوة الصعود والمرمىٰ في علم الطبيعة والحركات الآلية هي المقياس الصحيح لقوة المصدر الذي تنفذ منه الرمية، وتظهر في الأفق من القذيفة، فإن العمل والفعل الذي يحدثه المحدث في علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية، هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التي تنفذ إلىٰ مكان بعيد، وتبقىٰ زمناً طويلاً، وتمشي في الحياة رخية، وهي - لا ريب - فكرة قوية صدرت عن وجدان قوي، ولكي تكون تلك الفكرة قوية، ينبغي أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص، وعلمها الأكبر الحق والصدق، وبروح معقولة يقبلها اللب، ويعتمدها الذهن»[(١)].

بعد ذلك نجد قول الباحث الأوربي المشهور سنكس، الذي قال: «ظهر محمد ﷺ بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، فكانت مهمته ترقية العقول البشرية بإيتائها بالأصول الأولية للأخلاق، وإيصالها إلىٰ الاعتقاد بإله واحد لا شريك له، وبحياة بعد هذه الحياة (أي الآخرة)، وبهذا أحدث محمد ﷺ في أفريقيا وفي الشرق بأسره انقلاباً دينياً يشبه

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٧.

الانقلاب الذي أحدثته تعاليم عيسىٰ في أوربا، ولكن هذا انقلاب لم يتم بمجرد الكلام، والأمثلة الحسنة، واحتمال الأذىٰ، والجدل، بل حدث بجدية، لمقاتلة الذين تحمسوا لعقائد الإسلام التي حملها المَلَكُ جبريل إلىٰ النبي محمد ﷺ.

وبعد أن أمضىٰ محمد سنين في الحياة التأملية، أعلن للأفراد المخلصين بأنه سيقوم بنشر دين الهدىٰ، ويحمل إلىٰ الناس سعادة هذه الحياة، وسعادة ما وراءها من الوجود الثاني، فتصدىٰ له قومه في مكة وهددوه بالقتل، فلجأ إلىٰ قرية سميت بالمدينة، ومن تاريخ هذه الهجرة يؤرخ المسلمون.

ولما توفي النبي محمد ﷺ وكان ملكه الذي عاصمته مكة [(١)] قد تمَّ تأسيسه، ولم يمض قرن بعده حتىٰ كانت جميع الشعوب العربية وشمال إفريقيا، من أول مضيق هرمز إلىٰ شواطئ المحيط الأطلسي، خاضعة للراية الإسلامية، ولما وقع الشرق في فتوحات الإسلام، انتقل من عهده القديم إلىٰ عهد جديد من الحياة الفكرية، فارتقىٰ في الآداب والعلوم والصنائع ارتقاءً عجيباً، فبينما كانت أوربا تتخبط في غياهب القرون الوسطىٰ، كان المسلمون قد وصلوا إلىٰ درجة من المدنية العالية، وذلك بالنسبة لما كان موجوداً منها.

وأكب العرب المسلمون المتعلمون علىٰ ترجمة كتب الفلاسفة والعلماء الأقدمين، وأسسوا في بغداد وقرطبة جامعات علمية ومدارس،

---

(١) بل كانت المدينة المنورة عاصمة دولة الإسلام في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

فحققوا بذلك جميع المعارف الإنسانية من إسلامية وغيرها، وزادوا في مواردها تلك المعارف التي لم تصل إلىٰ أوربا، ولم تدرس فيها بطريقة عامة إلا في عهد النهضة المعروفة» [١].

كما أن الأديب الروسي المشهور تولستوي سجل في كتابه «اعترافات» أقوالاً عن النبي محمد ﷺ تحت عنوان في كتابه المذكور قوله: «من هو محمد» ؟ فقال: «إن محمداً ﷺ هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية، التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس، ولد في بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح (عليه السلام) من أبوين فقيرين، وكان في حداثة سنه راعياً يرعىٰ الغنم، وقد مال منذ صباه إلىٰ الانفراد في البراري والأماكن الخالية، حيث كان يتأمل في الله وطاعته، بينما العرب المعاصرون له عبدوا أرباباً كثيرة، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها، فأقاموا لها أنواع التعبد، وقدموا لها الضحايا المختلفة، ومع تقدم سن محمد ﷺ ، كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب، وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد ﷺ، حتىٰ اعتزم أن يدعو مواطنيه إلىٰ الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ في فؤاده، ثم دفعه إلىٰ ذلك عامل داخلي، وهو: أن الله اصطفاه لإرشاد أمته، وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة، وإنارة أبصارهم بنور الحق، فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد القهار، وذلك بحسب ما أوحىٰ الله إليه، وبمقتضىٰ اعتقاده الراسخ».

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

وبعدما وصف تولستوي الدين الإسلامي هذا الوصف الموجز، قال: «وفي سِنِيِّ دعوة محمد الأولىٰ، تحمل محمد ﷺ كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبي قبله نادىٰ أمته إلىٰ الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه، بل ثابر علىٰ دعوة أمته، مع أن محمداً ﷺ لم يقل: إنه نبي الله الوحيد، بل اعتقد أيضاً بنبوة موسىٰ والمسيح، ودعا قومه إلىٰ هذا الاعتقاد أيضاً».

ثم قال تولستوي: «وبالجملة، فإن جميع الطوائف النصرانية مصدقون بعقائد لا تنفع الحياة، ويقضي بفسادها العقل الصحيح»(١).

ويقول الكاتب الأوربي المعروف الأستاذ ليك في كلام مفصل له عن الإسلام: «إن حياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفه الله نفسه بألفاظ قليلة بين فيها صفة النبي محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ إن يتيم آمنة العظيم قد برهن بنفسه علىٰ أنه أعظم الرحمات لكل ضعيف ولكل محتاج إلىٰ المساعدة».

ثم قال: «كان محمد ﷺ رحمة حقيقية لليتامىٰ وأبناء السبيل، والمنكوبين والمدينين، وجميع الفقراء والمساكين، والعمال ذوي الكَدِّ والعناء، ولقد كان محمد ﷺ رحمة لجنس النساء الذي كان يعامل كالأمتعة والأثاث لا أكثر، وذلك في جميع الدنيا، ومن قبل كل دين من الأديان وكل نظام اجتماعي، فهلموا الآن نقول بأعظم الإخلاص والتلهف والابتهال: اللهم صل علىٰ محمد وعلىٰ أتباعه ومحبيه أجمعين».

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

وبعدما فصل في وصف محمد ﷺ ، قال : « وأخيراً أذكر في هذا البيان الخير العالمي الذي أسداه النبي العظيم بتحريمه الخمر ، وبواسطته وبه فقط حفظ ملايين من الناس جيلاً بعد جيل في أثناء الأربعة عشر قرناً الأخيرة من الخزي المهين ، اعتبر ما يجري في أمريكا في خصوص إجبار الناس على الإذعان لقانون تحريم الخمر ، أليس من المعجزات الباهرات أن محمداً ﷺ جعل الصادقين من أتباعه في حرزٍ حريز من شر المشكلات التي يجلبها شرب الخمر إلى المجتمع جيلاً بعد جيل ، وذلك بالقوة الأدبية وبقول واحد ؟ »[١] .

إن فكرة النبوة في الإسلام ونموها وظهورها كان يماثل نمو وظهور فكرة الإلهية والتوحيد والإيمان بنبوة الرسول ﷺ فرض مكتوب على المسلم ، لا بد وأن يؤمن به وبما جاء به من عند ربه عز وجل ، فما النبوة بقول ساحر ، ولا يفلح الساحرون ، وما النبي بكاهن ولا مجنون ولا كذاب ، حاشاه ﷺ ، ولكن الكفار الجاحدين لنبوة الأنبياء جمع وصفهم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾[٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآيات ١١ ـ ١٥ .

ثالثاً : القرآن الكريم والحديث الشريف :

وكما حاول كُتَّاب الأدب الإنجليزي التشكيك في دعوة الرسول ﷺ وإنكار نبوته، وإثبات كذبه بالباطل، ولم يفلحوا، فإنهم بالمثل لم يفتؤوا عن محاربة الإسلام، وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، وأنه كلام الله ووحيه إلى رسوله ﷺ، وهذه بعض الأمثلة لتلك المفتريات التي أثارها الأدباء الإنجليز في أعمالهم.

ففي حكاية رجل القانون أو المحامي The Man of Laws Tale تحدث تشوسر عن الإسلام والقرآن الكريم الذي أطلق عليه اسم Alkaron، فقال: إنه يبغض هذا القرآن، ويكرهه بشدة، ويجب السخرية منه كما سخر هو منه، وإن القرآن وتعاليمه ليست إلا إفكاً مفترى، وليست وحياً إلهياً.

وقد تحدث جورج سانديز في عصر النهضة في مقال له عن القرآن الكريم، فقال عنه: ما هو إلا جملة من الأساطير التي ادعاها محمد ﷺ، ومنها قوله للناس بأنه في اليوم الثالث لوفاته، فإنه سيكون في الجنة، ثم يعلق بذلك القول: كيف يكون محمد في الجنة وقد مات ودفن بالمدينة التي يحج إليها الناس؟.

وهذا من أصل الفكر الغربي الملفق، وهذا هو الفرق بين دين التوحيد وعبادة الله، وبين دين القبوريين وعبادها. وما القرآن الكريم إلا كتاب الله العظيم الذي تعهد بحفظه على مر السنين والأعوام.

كما أنه في عصر النهضة، ذلك العصر الذي ظهرت فيه أول ترجمة للقرآن الكريم من نص مترجم بالفرنسية كانت معظم الترجمات لمعاني القرآن التي ظهرت مشحونة بالأغلاط والتشويه والتحريف للمعاني، وسببه جهل المترجمين بالعربية من ناحية، وجهلهم بأحكام القرآن ومقاصد الشريعة من ناحية أخرىٰ. لهذا كله ظهرت أقوال كثير من الأدباء الإنجليز تدعي أن القرآن خلط من أقوال محمد ﷺ وأقوال بعض الرهبان المتنطعين. وجملة من الأكاذيب والأساطير والخرافات، ومثال لذلك القول ما قال به السير توماس هربرت في كتابه «رحلات إلىٰ آسيا وافريقيا».

ومن أدباء عصر النهضة الذين تحدثوا عن القرآن: الكاتب المسرحي مارلو في مسرحيته «تيمورلنك»، الذي جعله يتحدث بعد انتصاره (أي انتصار تيمورلنك) بأقوال ندَّد فيها بالقرآن الكريم، الذي سماها القرآن التركي، أي: كتاب المسلمين المقدس الموجود في معبد محمد، والذي يجب حرقه، هذا ما تمنىٰ مارلو أن يقوله تيمورلنك، وتلك هي أمنية مارلو أن يحرق القرآن، ولم يعلم أن جهنم وحرها أشد حراً لو كانوا يعلمون.

ومن المعلوم أن السير وليم جونز من الأدباء النشطين، والمستشرقين الحاقدين علىٰ الإسلام خلال القرن الثامن عشر، تحدث في أحد كتبه، فوصف العرب ولغتهم وفنونهم وعاداتهم بأنها تقوم علىٰ أساس

الحضارة الهندية، لأن جزيرة العرب كانت أصلاً جزءاً من الهند ، ولكنها انقسمت عنها بسبب تأثير العوامل الجغرافية . ويذهب للقول بأن الحروف العربية القديمة في جزيرة العرب لم تكن معروفة كثيراً جداً، بل إن الحروف التي كتب بها القرآن الكريم عرفت لأول مرة في الكوفة، وتقوم في أصلها على اللغة العبرية .

ياللعجب أعربي وأعجمي؟ ثم إذا كانت الجزيرة العربية ولغتها جزءاً من الهند، كيف أصبحت فجأة تقوم في أصلها على العبرية ؟ هذا فكر الهوىٰ والحسد والحقد .

ومن أدباء العصر الرومانسي نجد اللورد بايرون يتحدث عن تعاليم الإسلام، ويقول بأن الإسلام لا يجعل للمرأة مكانة في المجتمع، ولا يعيرها أدنىٰ اهتمام، وإن النساء لايدخلن الجنة، ويعزو ذلك إلىٰ ما جاء في القرآن، الذي هو كتاب المسلمين المقدس المليء بالزيف والتناقض والأفكار السيئة، وإنكاره لفكرة السؤال في القبر، وحقيقة الملَكَين منكر ونكير، كما ينكر مسألة الحشر والحساب والعقاب في اليوم الآخر . ولننظر ونرىٰ ما سيكون قوله يوم الميعاد، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ولا يظلم ربك أحداً .

وعن محنة القرآن الكريم : هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ والتي ابتُلي فيها إمام أهل السنة وأمير المحدثين الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ، كتب في القرن الثامن عشر الكاتب وليم بيكفورد روايته

المشهورة «تاريخ الخليفة الواثق»، وأكد فيها على أقوال الفريق القائل بأن القرآن مخلوق، وهو يريد أن يثير الفتنة بين المسلمين مرة أخرى، لكن كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله سبحانه وتعالى.

إذاً ما هو القرآن الكريم؟ هل هو من تأليف محمد ومن كلامه عليه الصلاة والسلام؟ كما يذهب أعداء الإسلام من مبشرين وصليبيين ومستشرقين، ومن نحى هذا المنحى. يقول الأستاذ أحمد محمد جمال يرحمه الله تعالى: دون اعتماد على المشاعر الخاصة بهؤلاء أو بالمسلمين، فإننا سنرى هل القرآن حقاً من تأليف محمد وبأسلوبه وألفاظه، أم أن أدلة تكذيبهم قائمة في القرآن نفسه. إن القرآن احتفظ بالتعابير الآتية الدالة على حرفيته يقول:

أولاً: كلمة (قل) وأمثالها: (نبئ، وأنذر، وبشر) في قوله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (١).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ (٢).

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ (٣).

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ (٤).

---

(١) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٢) سورة الكهف، الآية ١١٠.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٨٨.

(٤) سورة يونس، الآية ١٦.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ (١).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ (٢).

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (٣).

﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (٤).

وأمثال هذه الآيات التي تحمل كلمة (قل ـ وأنذر ـ وبشر ـ ونبئ) كثيرة في القرآن الكريم(٥). ويستطرد الأستاذ أحمد جمال في قوله:

«ونحن لا نعلم في اللغات جمعاء أسلوباً يقول فيه المرسِل للرسول ـ مثلاً ـ (اذهب إلىٰ فلان وأخبره أني سأزوره غداً)، فيذهب الرسول ويبلغ كلام المرسل نفسه: «اذهب إلىٰ فلان وأخبره أني سأزوره غداً»، فإن عادة البشر جرت علىٰ أن يفهم الرسول معنىٰ الرسالة، ثم يبلغها بلفظ من عنده. وكذلك كان الأمر في الحديث النبوي ـ خلا القسم الاجتهادي منه ـ فقد بلَّغ ﷺ عن ربه تبارك وتعالىٰ تعاليم كثيرة، صدَّرها بقوله: «إن الله كره لكم كذا وكذا أوصاني ربي بكذا وكذا، إن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣١.

(٢) شورة سبأ، الآية ٣٦.

(٣) سورة الحجر، الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

(٤) سورة يونس، الآية ٢.

(٥) أحمد محمد جمال، مفتراءات علىٰ الإسلام، رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ١٤٠٥ هـ ص ٢٠ ـ ٢١.

الله رضي لكم كذا وكذا . . » إلخ [١] .

بعد ذلك يبين الأستاذ أحمد جمال التعابير المختلفة في القرآن وأسلوب الخطاب الموجه، فيقول :

«أما القرآن، فقد احتفظ الرسول ص به رسالة نصيَّة من الله تعالىٰ إلىٰ الناس ليصح أن يطلق عليه أنه كلام الله، وليتبينوا فيه التعابير الإلهية التي خوطب النبي بها توجيهاً وتنبيهاً وتشريعاً وعتاباً وتصويباً .

ثانياً : نصوص عتاب الله لرسوله احتفظ بها القرآن كما هي، ومنها قوله عز وجل مخاطباً نبيه :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾[٢] .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾[٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾[٤] .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾[٥] .

﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ .
(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣ .
(٣) سورة الأنفال. الآية ٦٧ .
(٤) سورة التحريم، الآية ١ .
(٥) سورة التوبة، الآية ١١٣ .

ورَسُوله﴾ (١).

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ . أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ (٢).

في هذه الآيات القرآنية وأمثالها نجد لهجة المرسل الآمر الزاجر لرسوله ﷺ، أو أسلوب المنبِّه الموجِّه، في تصرف أو عمل أو سلوك اجتهد الرسول فيه رأيه ،ولكنه خالف ـ من غير قصد ـ الأَوْلَىٰ به كرسول من رب العالمين . .

لقد عاتبه ربه الكريم الحليم ـ الذي شهد له في القرآن نفسه بأنه علىٰ خلق عظيم ـ لأنه عليه الصلاة والسلام أذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الغزو معه، والله سبحانه يريد ألا يأذن لهم؛ ليتبين له صدقهم أو كذبهم، وعاتبه لقبوله فداء أسرىٰ بدر، وقد أخذ في ذلك برأي أبي بكر رضي الله عنه. ولكن الله يريد غير ذلك. كما عاتبه لاستغفاره لعمه أبي طالب، ولصلاته علىٰ رأس المنافقين عبد الله ابن أبي بن سلول. ثم عاتبه لتحريمه علىٰ نفسه أن يشرب عسلاً عند إحدىٰ زوجاته، ابتغاءً لمرضاة بعضهن، كما عاتبه لإعراضه عن الأعمىٰ عبد الله ابن أم مكتوم، حين جاءه وعنده كبار القوم يتحدث إليهم في شأن الإسلام، فكره أن يقطع عليه حديثه.

وكذلك عتابه في حادثة زينب بنت جحش، تزويجها من زيد، ثم طلاقها منه وزواجها بالنبي، وقد جاء أشد مما سبقه: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ (٣). وهذا بيان واضح (٤).

---

(١) سورة التوبه ، الآية ٨٤ .

(٢) سورة عبس ، الآيات ١ ــ ٣ .

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٧ .

(٤) أحمد محمد جمال، مفتريات علىٰ الإسلام، ص ٢٠ ـ ٢٥ .

وهنا يرد الأستاذ أحمد جمال شبه المستشرقين الداعيه بأن القرآن من صنع الرسول ﷺ، فيقول:

«فلو كان القرآن من إنشاء محمد ـ كما يزعم المستشرقون ـ لتناول بعض هذا العتاب الصارخ بالحذف أو بالتلطيف. ولكن تبديل شيء من القرآن ليس إلى محمد ﷺ، ولذلك أمر حين طلب منه المشركون أن ينزل القرآن ببعض أهوائهم ورغباتهم أن يقول لهم: (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع الا ما يوحىٰ إليّ . .) .

وشبيه بآيات العتاب في القرآن الآيات التي يمن الله فيها عليه باصطفائه للرسالة وتثبيته عليها، وتحذيره من الانفكاك عنها، كقوله عز وجل:

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١).

﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ (٢).

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ (٣).

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٣ .
(٢) سورة الإسراء، الآيتان ٧٤ ـ ٧٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٦ .
(٤) سورة يونس، الآية ٩٤.

ولننظر أيضاً في تعقيبات الله على ما يقصه على رسوله من قصص في القرآن، كقوله تبارك وتعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[1].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾[2].

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[3].

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾[4].

فلو كان القرآن من كلام محمد وتأليفه، لاكتفى ـ كأي إنسان داعية يتلقى الأوامر والزواجر لنفسه ـ أن يقول في إبلاغها. «أمرني ربي، أو نهاني ربي، أو حذرني ربي». وعلى فرض تبعية أمته معه في تلقي الخطاب، كان بوسعه أن يضيف ـ مثلاً ـ: «ونهاكم ربكم، أو: أمركم ربكم، أو: حذركم ربكم»[5].

ثم يدلل الأستاذ أحمد جمال على جملة من الشواهد التي توضح أن القرآن ليس من كلام الرسول ﷺ، فيضيف قائلاً:

«على أن هذه الزواجر القرآنية ليس فيها منقصة لمقام الرسول الرفيع ﷺ كما يتوهم الجهلاء الغافلون، بل هي ـ لو عقلوا ـ تكميل وتجميل له، لأنه تلقاها من ربه العظيم، وهو والناس سواء في مرتبة العبودية لهذا

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٤.

(٢) سورة هود، الآية ١٠٠.

(٣) سورة طه، الآية ٩٩.

(٤) سورة هود الآية ٤٩.

(٥) أحمد محمد جمال، مفتريات على الإسلام، ص ٢٠ ـ ٢٥.

الرب القاهر فوق عباده، الذي لا يرجوهم سبحانه ولا يخافهم. وإن كان عليه الصلاة والسلام من حيث النبوة والرسالة أفضل وأجمل هؤلاء العباد.

ثم هناك قصة الإفك الذي حيك حول أحب زوجاته إليه (عائشة) رضي الله عنها، تأخر نزول الآيات التي تبرئ ساحتها منه، وظل الرسول ﷺ في حيرة من أمره وظلت عائشة في بيت أهلها قرابة شهر، فلو كان القرآن من تأليف محمد تعجل بالآيات المبرئة لزوجته، وانفرج سريعاً الكرب الذي نزل به وبها وبأهلها وبالصحابة أجمعين.

هذه هي حجتنا من القرآن نفسه لإثبات نصِّيَّتِه وحرفيته، لم نأت بأقيسة بعيدة، بل استدللنا بالقرآن على القرآن، والله الموفق والمستعان[(١)].

وينبغي ألا يفوتنا ـ بعد أن أبطلنا شبهات المستشرقين المفترين حول القرآن الكريم ـ أن نقول لهم: إن هذا الكتاب ليس ككتابكم (المقدس) كتبه أشخاص غير معروفين، ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام، كما اعترفت بذلك مجلة (لايف) العدد (٧) الصادره بتاريخ أبريل ١٩٦٥م، وأضافت قولها:

«إن الوحي الإلهي إلى الإنسان ظل ينتقل من الأب إلى الابن ألف سنة تقريباً بعد إبراهيم من غير أن يكتب. ثم بعد ذلك بدأ اليهود في تدوينه قبل ألف سنة من ميلاد المسيح.

---

(١) المرجع السابق.

وإن اليهود أضافوا إليه قصائد وقصصاً جديدة.

وإن الأمر استلزم أن تعاد كتابته عدة مرات،.وأن تنقل وتنسخ.

وإن فرصاً عديدة لا تحصىٰ أتيحت لإحداث تغييرات في الكتاب المقدس، بعضها مقصود، وبعضها غير مقصود.

لذلك لا يوجد اليوم نص أصلي لأي جزء من الكتاب المقدس. وربما حوىٰ العهد الجديد تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم . . »[١].

وهذا ما سبق إلىٰ تقريره القرآن ــ في سورة البقرة وآل عمران والأنعام ــ حيث قال عن أهل الكتاب: إنهم كتبوا الكتاب بأيديهم، وزعموا أنه من عند الله، وما هو من عند الله، وأنهم جعلوه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً، وأنهم لووا ألسنتهم بالكتاب ليحسبه الناس من الكتاب، وما هو من الكتاب. وأنهم يقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون.

أما القرآن، فقد تعهد الله عز وجل بحفظه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٢]. وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً**﴾[٣]. وقال أيضا: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٤].

وفي البراهين والأدلة التي أوردها الأستاذ أحمد جمال ما يكفي

(١) أنظر: The Editor, Life, No.75,Th April 1965, P.9.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٢.

(٤) سورة السجدة، الآية ٢.

لإثبات أن القرآن هو كتاب الله وكلامه أوحىٰ به إلىٰ عبده ورسوله محمدﷺ، وقد تضمن حقيقة العقيدة التي تقوم علىٰ التوحيد ، واشتمل علىٰ الأحكام الشرعية والفقهية ، وفيه الأوامر والنواهي التي يجب علىٰ المسلمين ـ بما فيهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ـ أن يلتزموا بها ، فالأمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج عامٌّ لكل مسلم ، ولم يُخَصّ به أحد دون أحد ، أو استثني منه أحد دون أحد ، وهذا هو اعتقادنا في القرآن الكريم ، كتاب الله العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [١] .

وهذا ما أشير إليه في شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ؛ إذ جاء القول كما يلي : وخلاصة القول في ذلك : أن القرآن العربي كلام الله منزل ، غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ، والله تكلم به علىٰ الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره ، وإذا قرأ الناس القرآن ، أو كتبوه في المصاحف ، لم يُخرجه ذلك عن أن يكون كلام الله ؛ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلىٰ من قاله مبتدئاً ، لا إلىٰ من بلغه مؤدياً ، والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ، ليس شيء من كلام غيره ، لا لجبريل ، ولا لمحمد ، ولا لغيرهما ، والله تكلم به أيضاً بصوت نفسه ، فإذا قرأه العباد ، قرؤوه بصوت أنفسهم ، فإذا قال القارئ مثلاً : (الحمد لله رب العالمين) ؛ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله ، لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه ، لا بصوت الله . وكما أن القرآن كلام الله ، فكذلك هو كتابه ؛ لأنه كتبه في اللوح المحفوظ ، ولأنه مكتوب في المصاحف ؛ قال

(١) أحمد محمد جمال ، مفتريات علىٰ الإسلام ، ص ٢٠ ـ ٢٣ .

تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [(١)]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[(٢)]، وقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[(٣)]وهذا ما أورده الشيخ الهراس بنصه[(٤)].

ولو نظرنا في آراء بعض المفكرين الغربيين وتعرفهم علىٰ القرآن وحقيقته، نجد منهم من يقول: «إن معجزة الإسلام العظمىٰ هي القرآن، الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباءً تتصف بيقين مطلق، أنه كتاب لا سبيل إلىٰ محاكاته، إن كُلا من تعبيراته شامل جامع؛ ومع ذلك، فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه، فأصيل فريدٌ، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي الذي تحدَّر إلينا في العصور التي سبقته. والأثر الذي يُحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إن آياته كلها علىٰ مستوىٰ واحد من البلاغة، حتىٰ عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر في نفسها وجرسها، كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء، وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، وعلىٰ الرغم من أن محمداً دعا خصوم الإسلام إلىٰ أن يأتوا بكتاب من مثل كتابه، أو - علىٰ الأقل - بسورة من مثل قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ

---

(١) سورة الواقعة، الآية ٧٧.

(٢) سورة البروج، الآية ٢١.

(٣) سورة عبس، الآيات من ١٣ ـ ١٦.

(٤) محمد خليل هراس، شرح العقيدة الواسطية، دار الهجرة، الرياض، ١٤١١ هـ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١] . وعلى الرغم من أن أصحاب البلاغة والبيان والسحر كانوا غير قلائل في بلاد العرب، فإن أحداً لم يتمكن من أن يأتي بأي أثر يضاهي القرآن. لقد قاتلوا النبيَّ بالأسلحة، ولكنهم عجزوا عن مضاهاة السمو القرآني.

إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ، ولا بجهود الدعاة الموصولة. إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون إلى الشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة، كان في ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض»[٢] .

ويقول الباحث الأوربي سنكس عن كتاب الله العزيز بأن «القرآن قد بقي أجمل مثال للغة التي أُنزل بها، ولم أر ما يشبه ذلك في جميع أدوار التاريخ الديني للعالم الإنساني، وهذا الأمر يفسر لنا التأثير العظيم الذي أحدثه هذا الكتاب على العرب، الذين اعتقدوا بأن محمداً في معارفه الساذجة لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب، وأنه لا بد من أن يكون قد أملاه عليه المَلَكُ جبريل من عند الله سبحانه »[٣] .

ويؤكد الكاتب الفرنسي الكونت هنري دي كاستري أن القرآن منزل من عند الله، فيقول :

(١) سورة البقرة ، الآيه ٢٣ .

(٢) لورا فيشا فاغليري، دفاع عن الإسلام ، ص ٥٦ ـ ٥٩ .

(٣) نخبة من علماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون ، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

«ثبت إذن مما تقدم أن محمداً ﷺ لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه، خلافاً لما ذهب إليه (إسكندرديون)، حيث يقول: (إنه كان يعرف في دين اليسوع قراءة وكتابة). نعم، إن البحث عن معرفة المصادر التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح، أو الديانة اليهودية، أوديانة عباد الكواكب، قد يكون مفيداً لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة إلا أنه بحث ثانوي، إذ لو فرض وكان القرآن قد نَقَلَ بعضاً من الكتب المقدسة الأخرى، لبقي الأمر مشكلاً، كما كان عليه في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني، وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله، حتى استولى عليه روحاً وجسماً، ولقد نعلم أنه مر بمتاعب كثيرة، وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس خصت للدين، ومن أجل ذلك آثر العزلة عن الناس، لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة، الذي ابتدعه المسيحيون» (١).

وأعداء الإسلام عندما يتناولون في كتاباتهم الحديث عن القرآن الكريم، يعلمون علم اليقين أن هذا الكتاب هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية، فهم إذا تمكنوا من النيل من هذا المصدر، وصدّ الناس عن الحق، سَهُلَ عليهم هدم بقية المصادر الأخرى للإسلام، وخصوصاً المصدر الثاني للشريعة، ذلكم أحاديث الرسول ﷺ التي يقول عنها أولئك الأعداء: إنها من وضع أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام،

---

(١) الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ١٦ .

وهم بعيدون عن الكذب والافتراء رضوان الله عليهم جميعاً.

ومرة أخرىٰ هنا نستفيد مما كتبه الأستاذ أحمد محمد جمال يرحمه الله فيما قاله: «إن الذين تناولوا «الحديث النبوي» بالطعن من المستشرقين كثيرون، وفي طليعتهم: سبرنجر، وويل، ودوزي، وموير، وقولدزيهر، وشاخت، وهاملتون جب. وأقاويلهم عن الحديث النبوي تتلخص في مايأتي:

- يزعم بعضهم: أن أحاديث نبوية كثيرة زائفة وملفقة.

- ويقول آخرون: إن نصف الأحاديث المدونة في صحيح البخاري ليست أصيلة، وغير موثوق بها.

- ويقول أحدهم: إن أسانيد الحديث النبوي عملية ملفقة.

أما قولدزيهر - المستشرق اليهودي المجري - فيزعم في كتابه (العقيدة والشريعة في الإسلام) المزاعم التالية:

* إن الإسلام نما علىٰ يد رجاله.. من طريق الإضافات التي جعلت هذا الدين يكبر إلىٰ حد لم يعرفه محمد في حياته. وإن هذه الإضافات (أي السنة علىٰ حد تعبيره) هي من صنع العلماء والفقهاء الذين أرادوا أن يجعلوا من الإسلام ديناً عاماً شاملاً.

* إن تعاليم القرآن.. نجد تكملتها واستمرارها في مجموعة من الأحاديث المتواترة. وهي - وإن لم ترد عن النبي مباشرة - إلا أنها تعتبر أساسية لتمييز روح الإسلام.

* هناك جمل أخذت من العهد القديم والجديد، وأقوال الربانيين، وتعاليم الفلسفة اليونانية، وحِكَمِ الفرس والهنود . . كل ذلك أخذ مكانه في شريعة الإسلام عن طريق الحديث!

* إن الرسول نفسه . . . قد اضطر بحكم الظروف التي أحاطت به إلىٰ أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله ما سبق أن أوحاه الله إليه!

* إن القرآن لم يعط من الأحكام إلا القليل ـ ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة ـ فمثلاً يعتبر القرآن الشرك من أكبر الذنوب، ولا يغفره الله. ولكن بعد تطور هذا التصور الاعتقادي نرىٰ في الحديث النبوي أن الشرك لا يعني تشويه العقيدة فقط، بل كل ضرب من العبادة . . فالرياء لا يتفق مع التوحيد إلخ !» (١)

وبمثل هذه المزاعم والمفتريات امتلأت كتابات الأدباء الإنجليز عن السنة المطهرة وحديث الرسول ﷺ، وهم في غفلة معرضون عن معرفة الحق، الذي هو أثبت من أن تزعزعه الأقوال الباطلة والشبهات الزائفة، ذلك أن السنة النبوية ـ وهي المصدر الثاني لتعاليم الإسلام ـ قد لقيت من عناية أبناء الإسلام بعلمي الدراية والرواية مايجعلها مستيقنة في الجملة.

والمعلوم أن التاريخ لم يحك عن أمة من الأمم احتفاءها بآثار نبيها واستقصاءها كما فعلت الأمة الإسلامية، التي وضعت أدق القوانين العلمية لقبولها، والتثبت من التراث النبوي من قول وفعل وقضاء

(١) أحمد محمد جمال، مفتريات علىٰ الإسلام، ص ٣٣.

وتقرير، فمن السنة ما هو متواتر، لا يقل في ثبوته عن القرآن الكريم، كما هو الحال بالنسبة للصلاة والزكاة والصيام، ومن السنة ما هو متواتر المعنى، حيث تجيء النقول بوقائع شتى وألفاظ متفاوتة، ولكن يجمعها قدر مشترك من المعاني .

هذه حقيقة السنة النبوية في دين الإسلام، ورجال الحديث النبوي انفردوا في تاريخ الفكر الإنساني ـ وبخاصة تاريخ تدوين الرسالات السماوية ـ وغيرها بنظام البحث والتدقيق في الرواية. وبالجرح والتعديل للرواة، حتى غربلوا ماروُي عن نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام غربلة نادرة، لا مثيل لها في تاريخ الأنبياء والمرسلين. . وكان من نتيجة ذلك النظام الدقيق في ضبط الحديث النبوي وتوثيقه أن عرف الناس الأحاديث الصحيحة، والموضوعة، والضعيفة، والمنكرة، والشاذة، وغيرها، ووضعت كتب ضخام في الأسانيد، ومثلها في تراجم الرواة، حتى أصبح من الميسور على الباحث عن حقيقة أي حديث منسوب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعرف سنده ومتنه ومدى صحته من عدمها، وعدالة رجاله من سقوطهم[1].

وفي الحقيقة إن حكم السنة حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فإن السنة تأتي لتوضيح القرآن وأحكامه وتشريعاته ومقاصده، فتفصل ما أجمل من آياته، وتقيد مطلقها، وتخصص عمومها، والله سبحانه وتعالى كلف رسوله محمداً ﷺ بذلك، كما جاء

(١) المرجع السابق.

في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، كما أن الله سبحانه وتعالىٰ بين لعباده في محكم التنزيل أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث ليعلم الناس ما في القرآن الذي عبر عنه في الآية بكلمة الكتاب، ويعلمهم السنة التي عبر عنها بالحكمة، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٢)، وعن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان علىٰ أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وماوجدتم فيه من حرام فحرموه»(٣) . . . الحديث.

وإذا أنكر أعداء الإسلام صحة التواتر، وإذا كان التواتر يجيء بالكذب، فمن أين نعلم أن هؤلاء الكتاب والمفكرين الغربيين من أدباء ومستشرقين وغيرهم موجودون، أو كانوا غير موجودين، وأنهم هم الذين ألفوا ما ألفوا، وكتبوا ما كتبوا؟ لماذا لا يكون هؤلاء شخصيات خرافية، وتكون نسبة ما كتبوه من اختلاق الكاذبين والمفترين؟ تقول لورافيشيا فاغليري: «إن السنة النبوية هي أقوىٰ سند لمفهوم في الحياة سليم. وهنا يحسن بنا أن نكرر ما قلنا سابقاً عندما تحدثنا عن الأحاديث

---

(١) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

(٣) أبو داود كتاب السنة، باب في لزوم السنة. ٤/ ٢٧٩ برقم ٤٦٠٤ وانظر «سنن ابن ماجه» ١/ ٦ والترمذي (المطبوع مع تحفة الأحوذي) ط الهند ٣/ ٣٧٤ والدارمي ١/ ١٤٤ والمستدرك ١/ ١٠٩ وموارد الظمآن إلىٰ زوائد ابن حبان للحافظ الهيثمي ٥٥ برقم ٩٧ ومسند أحمد ٤/ ١٣١

النبوية، التي تنطوي على أسمى المفاهيم الأخلاقية. فنقول: ما ضرّ لو أثار أحد مسألة صحة نسبة هذه الأحاديث إلى الرسول؟ إن العالم الإسلامي يتقبل اليوم هذه الأحاديث كشيء صحيح، وهو يتبع وصاياها في الأعم الأغلب.

إن ثمة حديثاً شهيراً يقول: «لا رهبانية في الإسلام»، والواقع أن الإسلام لا يبالي بالزهدية أو النسكية بتعذيبها العقيم للجسد، وما تنطوي عليه من ضروب الحرمان غير الضرورية، بصياماتها الموصولة، ولياليها المنفقة في الصلاة. وفي ما يتصل بالزواج لا تطالب السنة الإسلامية بأكثر من حياة أمينة إنشائية، يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكراً الله من ناحية، ومحترماً حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية»[١].

نعم، إن محاولة المشككين في صحة السنه النبوية ـ كما أشارت الكاتبة الإيطالية أعلاه ـ لا يضير الإسلام في شيء، وهيهات أن يضعف الإسلام، أو تصدع صخرته المتينة، فالشاعر يقول:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يَضرّهَا وأوهى قرنَه الوعلُ

رابعاً: الشريعة الإسلامية:

١ ـ أركان الاسلام:

بني الإسلام على أركان خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله

(١) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٨٧ ـ ٨٨.

الحرام لمن استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً.

وعن هذه الأركان الخمسة نجد رانولف هجدن من كُتَّاب النثر في العصر الوسيط يجعل هذه الأركان أربعة، جهلاً بالإسلام؛ لما ختم الله علىٰ قلبه عن معرفة الحق، وأن هذه الأركان تدعو إلىٰ دين باطل، يغري الناس فيه بإباحة تعدد الزوجات في الدنيا، وكثرة الحوريات والنساء في الآخرة.

وفي عصر النهضة يتحدث جورج سانديز عن أركان الإسلام قادحاً في أساسيات الدين وأركانه وأنها من وضع محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، لكنه يستثني من ذلك الركن الثالث من أركان الإسلام، ألا وهو إيتاء الزكاة، ويقول بأنه دعوة للتكافل الاجتماعي والإنساني... يا للتناقض؟ ويستطرد قائلاً: إن هذا الدين في أركانه دين رهبنة وتطرف، عندما يصف المسلمين وهم يؤدون الصلوات الخمس، وما علم أن الفرق بين المؤمن والكافر ـ أو بالأصح الفرق بين الإيمان والكفر ـ هو الصلاة. ثم ينتهي ليقول: إن أركان الإسلام وشرائعه في أصلها تقوم علىٰ قواعد وضعها أحدُ الرهبان الأشرار، ويقول: إن القرآن الكريم جملة من الحكايات والقصص الخرافية والأساطير.

هكذا ذهب سانديز بحقده الصليبي يثير الشبهات والشتم للإسلام، وأقواله كلها تحمل في طياتها الزيف والتناقض.

ويقول اللورد بايرون في إحدىٰ قصائده الرومانسية بعنوان «الغيور»: إن كانت مسألة الصدقات ـ أي الزكاة ـ ميزة فى الإسلام، فلا

غرو أن بقية أركان الإسلام وتعاليمه لا تلائم الإنسان وحياته على هذه الأرض. نعم لقد قال هذا الشاعر قولته متبعاً منطق من سبقه من الذين قالوا سمعنا وعصينا.

والصلاة هي عماد الدين وذروة سنامه، ويتقدم ذلك كله صلاة الجمعة وفضلها الكبير. إن هذا اليوم، يوم الجمعة هو أعظم يوم طلعت عليه الشمس من أيام الاسبوع. ومن الذي يعلم الحق؟ أأناس شرح الله صدرهم للإسلام أم أناس على قلوب أقفالها؟ إن الذين ختم الله على قلوبهم، أمثال جون لايد جيت من كُتّاب العصر الوسيط، الذي يقول إن محمداً ﷺ مثله مثل من سبقه من قادة الأديان الباطلة من عُبَّاد الأوثان، دعا إلى تقديس يوم الجمعة كما يفعل الإغريق والرومان، الذين يقدسون يوم الجمعة باعتباره يوم آلهة الحب.

إن الأمر ليس كذلك، لقد فرضت الجمعة على اليهود والنصارى، فضَلُّوا عنها، واهتدى إليه المسلمون، فالناس لنا فيه تبع. قال رسول الله ﷺ: «أضلّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يومُ السبت وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة. نحن الآخِرُون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة المقفَّى لهم قبل الخلائق»[1]. وياليت شعري، هل علم هؤلاء الحاقدون فضل يوم الجمعة وعظمه عند الله سبحانه وتعالى؟ وأيضاً نجد رانولف هجدن يقول: إن محمداً ﷺ

(١) رواه مسلم ٢/ ٥٨٦ برقم ٨٥٦.

يدعو أتباعه إلىٰ تقديس يوم الجمعة، الذي يظهر فيه كوكب الزهرة إله الجنس والحب عند الرومان، وهذا يدل علىٰ شهوانية الإسلام ودين المسلمين.

وفي عصر النهضة تحدث السير والتر رالي في كتابه «حياة وموت محمد» يقول: إن محمداً ﷺ ولد يوم الجمعة، لذا فإنه جعل ذلك اليوم هو اليوم المقدس في الأسبوع. وهذا خطأ تاريخي، وجهل علمي، فما كانت ولادته إلا يوم الاثنين، وما شرع فضل يوم الجمعة إلا الله عزوجل، ولكن هكذا تجد كتابات أعداء الإسلام لا تتفق علىٰ أمرٍ واحد؛ لأن الهوىٰ هو أساس علمهم، فهل رأيت أضل ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله علىٰ علم؟ فما بالك بمن أضله الله علىٰ جهل، وجعل علىٰ بصره غشاوة؟!

والصوم الذي هو الركن الرابع من أركان الإسلام، لم يسلم أيضاً من أقلام الأدباء الإنجليز، فأثاروا الشبهات عن حقيقة هذه الشعيرة العظيمة، التي كانت في شريعة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، ولكنها اكتملت صورتها التامة والكاملة في ظل شريعة الإسلام.

وعن الصوم تحدث الشاعر الرومانسي بايرون، وقال: إنه حكم جائر، وشريعة مليئة بالمشقة والعنت أن يصوم الإنسان يوماً طويلاً يترك فيه الشراب والطعام.

نعم، يترك المسلم الشراب والطعام من أجل ربه، ليفوز بأعظم أجر وأجزل مثوبة، فالصوم له، وهو الذي يجزي به سبحانه وتعالىٰ.

وعن خاتمة أركان الإسلام الخمسة، ألا وهو الحج يقول جورج سانديز ـ وهو من أدباء عصر النهضة ـ: إن المسلمين يحجون إلىٰ المدينة إلىٰ قبر محمد ﷺ.

لقد ظن هذا المؤلف أن الحج في الإسلام مثله مثل الحج عند النصارىٰ إلىٰ الأضرحة والمقابر، لأنهم يشركون من لا يخلق مع من يخلق. إن الحج في الإسلام إنما يكون إلىٰ بيت الله الحرام، الذي حجه جميع رسل الله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويؤكد فكرة الحج إلىٰ قبر الرسول ﷺ أديب القرن الثامن عشر الدكتور صموئيل جنسون، وذلك في مسرحيته بعنوان «إيرين»، عندما عقد وزير السلطان العثماني العزم علىٰ الحج إلىٰ المدينة وقبر النبي عليه الصلاة والسلام.

وفي العصر الرومانسي وفي قصيدته بعنوان «محمد» تحدث كوليردج عن تلبية المسلمين في الحج، وقال: إن ارتفاع أصوات الناس بالتلبية إزعاج مثل إزعاج الرعد، وأشبه ما يكون بنباح الكلاب.

لم يعلم هذا الكاتب أن الإسلام يتمتع فيه الناس بذكر ربهم ذكراً كثيراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [١]، ولم يعلم أن الحج عَج وثَج، وذلك الذكر والتلبية، وذلك الحال الذي عليه الحاج من المفاخر الإسلامية العظيمة، وإن المولىٰ جل وعلا يباهي ملائكته بأهل الموقف، وهم يذكرون الله ويلبون، ويشهد ملائكته بمغفرته لهم،

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤١.

فالحمد لله علىٰ نعمة الإسلام، ولو كره الكافرون.

لقد عمد المستشرقون إلىٰ القول بأن الشريعة الإسلامية تقوم في أساسها علىٰ القانون الروماني، وقد ذهب إلىٰ مثل هذا القول كُتَّاب الأدب الإنجليزي، واتهموا الشريعة بالعقم والبطلان، وقالوا بفساد أركان الإسلام، كما أشرنا فيما تقدم آنفاً. وما دمنا قد أثبتنا بشهادة الغربيين أنفسهم، إضافة إلىٰ ما بين أيدينا من أدلة دامغة، صحة القرآن الكريم، وأنه كلام الله سبحانه وتعالىٰ، الذي أوحىٰ به إلىٰ عبده ورسوله ﷺ، وكذلك بيَّنا صحة أحاديث الرسول ﷺ، وهما المصدران الرئيسان للشريعة الإسلامية، فيكفي أن نقول: إن تعاليم الشريعة المستمدة من هذين المصدرين صحيحة، وليست من نتاج الشريعة الرومانية، ولا أنها تأثرت بها، خصوصاً إذا علمنا أن الشريعة الإسلامية تناقض القانون الروماني في القيم الخلقية والاجتماعية، وتخالفه مخالفة واسعة الأمد في النظرة إلىٰ الإنسان وإلىٰ الحياة كلها.

إن التشريع الإسلامي اهتم بكل شيء في حياة الإنسان من لحظة ميلاده حتىٰ ساعة وفاته، وحتىٰ أصبح من لوازم الحياة الاجتماعية للمسلم أن يتعلم تلك الشريعة في أمور العبادات والمعاملات، وأن يعرف الخاصةُ والعامةُ أمورَ دينهم صغيرها وكبيرها، في حين نجد أن القانون الروماني لا يزيد عن كونه تنظيماً ضيقاً لأمور معينة، خطؤه أكثر من صوابه، لمجتمع تحكمه علاقات بدائية بسيطة، ويستشهد الدكتور عبدالحميد متولي في كتابه «الإسلام وموقف المستشرقين» بقول المستشرق فتز جيرالد عن الشريعة: إنه لا يعمد شعب إلىٰ استعارة فكره من شعب

آخر، فإننا نجده عادة يعمد في الوقت ذاته إلىٰ أن يستعير كذلك المظهر الذي عُرِفَت به تلك الفكرة كذلك، ولهذا نرىٰ كلمات ومصطلحات غير قليلة تدل علىٰ نظم وأفكار خاصة، دخلت من أجل ذلك من اللغة الإغريقية في القانون الروماني، أما في التشريع الإسلامي، فنحن لا نكاد نجد كلمة واحدة استعملت من اللاتينية أو الإغريقية، اللهم إلا كلمة «قانون»، ومع ذلك، فإنها تستعمل بمعنىٰ مختلف عن المعنىٰ الذي تستعمل به في اللاتينية، حيث تدل علىٰ تنظيم الإدارة أكثر من دلالته علىٰ التشريع» [(١)].

إن الفروق بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني كثيرة، فإنه يوجد في الشريعة مبادئ ونظم لا وجود لها في القانون الروماني. فالشريعة الإسلامية تفضي بعدم إقامة حدود فاصلة بين الأمور التشريعية والنواحي الأخلاقية، كما هو الحال في القانون الروماني، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ وجود بعض الأسس التشريعية في الإسلام، مثل إساءة استعمال الحق، ومبدأ الضرورة، ومبدأ التزام المتعادين بناءً علىٰ الرضا وحده دون اشتراط الإجراءات الشكلية. كما أن الشريعة بها نظام الحسبة، ونظام العقاب بالتعزير، وأمور كثيرة أخرىٰ لا توجد في القانون الروماني.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلىٰ أن المفكرين الغربيين خلال أحد مؤتمرات القانون الدولي المقارن، والذي عقد عام ١٩٣٧م في لاهاي بهولندا، أكدوا بكلية وتمام استقلال الشريعة الإسلامية، وأنها ليست متأثرة بأي

(١) عبد الحميد متولي، الإسلام وموقف علماء المستشرقين، دار عكاظ، جدة. ١٤٠٣، ص ٦٩.

قانون أو تشريع سابق. وهنا ندرج قولاً للكاتبة الإيطالية لورافيشيا فاغليري عن أركان الإسلام، والشريعة الإسلامية وتصوير حقيقتها بالحق، حيث تقول:

«إن أركان الاسلام، بالإضافة إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، هي الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وجميع هذه الشعائر ينبغي أن ينظر إليها من أكثر من وجهة النظر الخارجية، لأن مثل هذا الموقف خليق به أن لا يقلُّ سطحية عن إعجاب المرء بالأصداف من غير أن يدرك أنها حافلة باللآلئ النفسية. وكل من هذه الأركان ينبغي أن يُدرس درساً دقيقاً لاكتشاف السر الذي يجعل في ميسور تلك الشعائر أن تطهر روح المؤمن وتساعدها علىٰ السمو تدريجياً نحو الله. وعندئذ فقط نستطيع أن نرىٰ أن لها غرضاً مزدوجاً: تمجيد الله من قبل عبيده، والتعبير عن شكرهم للنعم التي أسبغها عليهم.

فما إن يدعو المؤذن جماعة المؤمنين إلىٰ أداء أول واجباتهم الدينية ـ كالصلاة ـ حتىٰ يُذكَّروا ـ مهما كانوا منغمسين في شؤونهم الدنيوية ـ بخالقهم. إنهم يستهلون هذه الشعيرة بتمجيد الله، ويختمونها برفع تحياتهم إليه. إنهم يشعرون بالطمأنينة دائماً في حضرته (١).

وتستطرد المؤلفة في الحديث عن الصوم أحد أركان الإسلام، فتقول: «والركن الثاني من أركان الإسلام: الصوم الذي يقوم، كما هو معروف، علىٰ الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين والاتصال الزوجي

(١) لورافيشا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٦٥ ـ ٦٧.

خلال ساعات النهار كلها من شهر رمضان بطوله. إنه عمل قوامه الانضباط والرحمة والشفقة. إنه يقتضي من المؤمن اجتناب جميع ملذات الجسد خلال مدة بعينها. إنه يعلم أن للجسم شهواته. فهو بتجويعه المؤمن، وإفهامه مبلغ الألم الذي ينطوي عليه الجوع، يفجر في نفسه الشفقة على الفقير والمعدم. وهو في حمله على إدراك ما ينعم به من آلاء، يعمق اعترافه بفضل الله عليه. وهذا الصوم الإلزامي مفروض على الأشخاص الأصحاء الأقوياء، وليس مفروضاً على الضعيف، والمريض، والمسافر، والمقاتل في سبيل الله، أو المرأة خلال أيام الطمث، والحمل، وخلال أشهر الرضاع. ذلك بأن الله ليس قاسياً على خلقه، ولا يقتضيهم أعمالاً تعبدية لا طاقة لهم بها» [(١)].

ثم تؤكد الكاتبه أقوالها عن مبادئ الإسلام، موضحة سمو الإسلام في قولها:

«لقد اعترفت جميع الأديان، إلى حد ما، بالأهمية الأخلاقية والاجتماعية الكبرى التي ينطوي عليها تقديم الصدقات، وأوصت بذلك بوصفه تعبيراً حسياً عن الرحمة، وسبيلاً ملائماً لالتماس لطف الله وكرمه. ولكن الإسلام يتمتع وحده بالمجد المتمثل في جعل الصدقة إلزامية، ناقلاً تعاليم المسيح إلى دنيا الأمر، ومن ثم إلى دنيا الواقع. فكل مسلم ملزم، بحكم القانون، بأن يخصص جزءاً من ثروته لمصلحة الفقراء، والمحتاجين، والمسافرين والغرباء.. إلخ. وبأداء هذه الفريضة الدينية يختبر المؤمن حساً أعمق من الإنسانية، ويطهر روحه من الشح،

(١) المرجع السابق، ص ٦٨.

ويأخذ في مراودة الأمل بالفوز بالمكافأة الإلهية .

وعلىٰ كل مسلم ـ إذا توفرت فيه بعض الشروط ـ أن يقوم بالحج إلىٰ مكة مرة واحدة في حياته علىٰ الأقل . ومن طبيعة القوىٰ العميقة المكنونة في هذه الشعيرة أن يعجز العقل البشري عن اعتناقها إلا في القليل النادر ، ومع ذلك ، فإن ما يمكن استيعابه من تلك القوىٰ ، في سهولة ويسر ، يتكشف عن حكمة كاملة ، فليس في استطاعة أحد أن ينكر الفائدة التي يجنيها الإسلام من اجتماع المسلمين السنوي في مكان واحد ، يسعون إليه من مختلف أرجاء العالم . إن العرب ، والفرس ، والأفغان ، والهنود ، وأبناء شبه جزيرة الملايو ، وأبناء المغرب ، والسودان ، وغيرهم ، كلهم يتوجهون نحو الكعبة المقدسة لمجرد التماس الغفران من الله الرحمن الرحيم ، وهم إذ يلتقون في مثل ذلك المكان لهذا الغرض ، إنما يُنشئون صلاتٍ جديدة من المحبة والأخوة . مرة واحدة في حياة المسلم علىٰ الأقل تُلغي الفروق كافة بين الفقير والغني ، بين الشحاذ والأمير ، إلغاءً تاماً . ذلك أن كل حاج مسلم يلبس ـ خلال أداء تلك الفريضة المقدسة ـ الثياب البسيطة نفسها ، ويخلف وراءه حُلاه الشخصية ، ويتخذ لنفسه شعاراً واحداً ليس غير ، هو كلمة «الله أكبر!» .

والشعائر التي يتعين علىٰ الحجاج أداؤها ، من مثل الطواف ببيت الله (الكعبة) ، واللقاء قرب جبل عرفات ، وتقديم الذبائح عند منىٰ ، توقظ في نفسه ذكرىٰ الأنبياء والآباء العظام ، الذين عاشوا في المواطن نفسها خلال العصور السالفة . إنها تعيد إلىٰ الحياة أعمال إبراهيم ، رسول الدين الخالص ، وأعمال ابنه إسماعيل وزوجته هاجر . وهي توقظ في الحاجِّ

النزعة إلى تقليدهم في تعاطفهم، وفي خضوعهم لمشيئة الله .

وتتجلى حكمة الله أيضاً في ما يمكن أن ندعوه المظاهر المقيدة للقواعد المتصلة بالحج، أعني تلك الشروط التي يصبح الحج ـ عند توفرها ـ إلزامياً. وهذه الشروط هي: حرية الفرد التامة، وقدرته على احتمال النفقات المطلوبة ، وفي ذلك نفقة السفر، ومقدرته على إعالة أهله إبَّان الفريضة الدينية، وإمكان تنفيذ الرحلة على نحو عملي ميسور [١].

وتظهر فاغليري أهمية صلاة الجمعة، ويوم الجمعة، وفضل تلك الشعيرة الأسبوعية التي لها أجر عظيم وفضل كبير في الشريعة الإسلامية، مستطردة عن ذلك، فتقول: «ولصلاة الجمعة المؤلفة من خطبة ومن صلاة تؤَدَّى على نحو جماعي، لها مزاياها وأهميتها الخاصة أيضاً. إن هذه الصلاة، يجمعها المسلمون في شعيرة واحدة، قوامها الإذعان والخضوع لله، تُشعرهم أنهم جميعاً مخلوقاته، ومن هنا فهم جميعاً إخوة، وماتفرضه هذه الصلاة على المؤمنين من اتباع الإمام يخضعهم للخبرة والانضباط والطاعة. وأخيراً ، فإن الإمام يفتح قلوبهم من طريق الخطبة، ويرتفع بها نحو الله [٢].

إن الشريعة ـ وهي القانون الإسلامي إن جاز لنا القول ـ ليست وقفاً على الشعائر والطقوس . إن جميع مظاهر الحياة الجماعية الشخصية خاضعة لأحكامها، وإنها لتهدف إلى ربط كل عمل من أعمال الفرد

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٥ ــ ٧١ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٨ ، ٩٤ .

بواجباته الدينية . إن جميع فروع القانون تتمثل في الشريعة الإسلامية .

وعن الشريعة الإسلامية يتحدث الباحث الغربي سنكس عن دين الإسلام وأركانه، فيقول :

« إن محمداً ﷺ لم يأت لمكافحة التوراة والإنجيل، بل إنه يقول : إن هذين قد أنزلا من السماء لهداية الناس إلى الحق مثل القرآن، وإن تعاليم القرآن جاءت مصدقة لهما، ولكنه لم يأخذ منهما، وقد رفض محمد نبي الإسلام ﷺ جميع الرموز الأساطير، ودعا إلى عبادة إله واحد قادر، رحمن رحيم، كما يصفه القرآن في كل سورة من سوره .

وقد أُمِرَ محمد ﷺ عن وحي من ربه سبحانه بخمس صلوات في اليوم، ليضطر الإنسان للتخلي عن انشغالاته المادية لحظات من اليوم، وذلك لكي يرتفع في خلالها إلى مولاه عز وجل، كما أُمِرَ محمدٌ أن لا تجعل العبادة موجهة لأغراض ذاتية، فإن الله أعلم بما هو الأصلح لنا، وقد أوجب على المسلم أن يتصدى من إيراده بالاعتراف لها بحقوقها التي كانت غير معترف بها إلى عهد محمد، ولاسيما بتهذيب وتعديل عادة تعدد الزوجات المعروفة في الجاهلية بدون تحديد عدد .

وقد قام محمد ﷺ بحماية الأطفال وتحريم قتلهم، خوفاً من إعالتهم وهي العادة القديمة التي كانت منتشرة في الجاهلية .

ورعى محمد ﷺ حق الرقيق، وأمر بمعاملته كعضو من الأسرة، وقد كان محمد ﷺ أولَ من قرر المساواة والعدالة بين المسلمين من أغنى الناس و أقواهم، ــ ولو كان ملكاً أو أميراً ــ إلى أفقر الناس وأضعفهم،

كما حرَّم السرقة والقتل والإكراه وشرب الخمر ولعب الميسر» (١).

ويتحدث القس الفرنسي المعروف لوزون ـ ضمن كتاباته ـ عن الأديان وتاريخها وعن الدين الإسلامي وشريعته وأركانه، مبيناً عموم هذا الدين وشموله وصدقه بعد حديثه عن أوصاف محمد ﷺ فيقول: «إن محمداً ﷺ ـ بلا التباس ولا نكران ـ من النبيين والصديقين، بل وإنه نبي عظيم جليل القدر والشأن، لقد أمكنه، بإرادة الله سبحانه تكوين الملة الإسلامية، وإخراجها من العدم إلىٰ الوجود، حتىٰ صار أهلها يزيدون عن الثلاثمائة مليون من النفوس، وقد راموا بجدهم سلطنة الرومان، وقطعوا برماحهم دابر أهل الضلالة، إلىٰ أن صارت ترتعد فرائص الشرق والغرب من ذكرهم».

وقال أيضاً: «وليس محمد نبي العرب وحدهم، بل هو أيضاً أفضل نبي قال بوحدانية الله سبحانه، فإن دين موسىٰ ـ وإن كان من الأديان التي أساسها الوحدانية ـ إلا أنه كان قومياً محضاً وخاصاً لبني إسرائيل، ولم يكن التعبد عليه ممكناً إلا في بيت المقدس.

أما محمد ﷺ، فقد نشر دينه بقاعدتيه الأساسيتين، وهما: الوحدانية والبعث، وقد أعلن دينه لعموم البشر في أنحاء المسكونة، وإنه لعمل عظيم يتعلق بالإنسانية جملة وتفصيلاً عند من يدرك غايته، فالديانة المحمدية إذن مع كونها من بعض الوجوه خاصة بالعرب وبعصر ظهورها، فإنها الديانة العامة الخالدة للنوع الإنساني» (٢).

---

(١) نخبة من علماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٤.

٢ ـ المرأة في الإسلام :

في كثير من كتابات الغربيين وأعداء الإسلام الحاقدين، نجدهم يذهبون إلى القول بأن الإسلام يغمط حقوق النساء، وأن المرأة في ظل الشريعة الإسلامية لاحقوق لها، وأنها لا تتمتع بالمزايا التي يتمتع بها الرجل. بل إن خيال الأدباء الإنجليز أغرق في الباطل، حيث ادعى أن الإسلام ينكر وجود النساء في الجنة، وأنهن لايدخلن الجنة، وأول مثال لذلك مسرحية «المينة» Almyna للكاتبة ماري مانلي Mary Manely التي ظهرت في عصر التجديد، وهي تصور أحد الخلفاء المسلمين وأنه ينكر وجود المرأة في الجنة، وأنها تكون في النار وتأكل من شجرة الزقوم، وأن هذا الخليفة المسلم مثله مثل الملك شهريار في قصص «ألف ليلة وليلة» الذي كان يقتل النساء؛ لأنه لاقيمة لهن في الإسلام. يا ليت شعري متى كانت قصص «ألف ليلة وليلة» من الكتب الإسلامية. وهل من يريد أن يعرف النصرانية يقرأ عنها في كتب الأدب، أم في كتب الدين؟ ياله من عجب!.

لقد كتب جولد سمث رسالة أدبية في القرن الثامن عشر يتحدث فيها عن النساء في قارة آسيا، وعن المرأة في ظل الشريعة الإسلامية، وأنهن ممتهنات لا يُنظر إليهن بعين الرحمة على أنهن من البشر، لهن عواطف وأحاسيس ومشاعر، بل هن أجساد من سقط المتاع خلقن للمتعة الجسدية، وأنهن لا يدخلن الجنة. ويقول الكاتب: إن محمداً ﷺ أقر بعدم دخولهن الجنة.

وفي العصر الرومانسي كتب الشاعر روبرت ساوثي قصيدته «الغيور»، تحدث فيها عن نظرة الإسلام إلىٰ المرأة، وأن قيمتها في التراب، وأنهن لُعَبٌ للشهوة، وأنهن لا يدخلن الجنة، كما تقول تعاليم الإسلام، إلا أننا نجد هناك تناقضاً في قصيدة الشاعر، حيث يقول في آخرها: إنه يمكن لبعض النساء المسلمات دخول الجنة. هل يا ترىٰ ضمن هذا الشاعر هو نفسه دخول الجنة التي لا يدخلها الإنسان إلا أن يتغمده الله برحمته، التي كتبها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات. الله أكبر الله أكبر!.

وعن موضوع الزواج والمرأة وحقها في الإسلام، نجد تشوسر في أدب العصر الوسيط يتحدث في إحدىٰ حكاياته المشهورة بعنوان «حكاية المحامي أو رجل القانون» يقول عن قانونية الزواج من الملل وأصحاب الأديان الأخرىٰ: إن المرأة النصرانية لا يجوز لها أن تتزوج من غير مسيحي، وهذا صدق النصرانية المحرفة في شريعتها، والحال ليس كما هو في شريعة محمد ﷺ، التي تجيز زواج المسلم من أهل الكتاب. والكاتب بذلك يُعلي من شأن المسيحية، ويحقر من شأن الإسلام، الذي لا يرعىٰ للمرأة حقوقها.

وهذه الفكرة أكدها صموئيل جنسون في القرن الثامن عشر في مسرحيته «إيرين»، تلك الفتاة اليونانية التي تدين بالنصرانية، التي أراد السلطان العثماني الزواج منها فامتنعت؛ لأنه ـ أي السلطان ـ لا يدين بدينها، وأن دينها أفضل من دين الإسلام، الذي يبيح للمسلم أن يتزوج

من نساء من غير دينه. والصواب أن الإسلام لا يبيح للمرأة المسلمة أن تتزوج من غير المسلم، حتى لا تنجب له أبناءً غير مسلمين، كما أن الإسلام أباح الزواج من الكتابيات غير المشركات، كما أن الاسلام لم يشرع الزواج من الوثنيات ونساء أهل الأديان الوضعية، أليس الحق الأجدر بالاتباع؟ أدعوى هؤلاء الأدباء، أم ما هو واضح في كتاب الله العزيز؟.

وعن المرأة في الإسلام ومسألة الاختلاط ظهرت بعض الصور في العصر النورماندي، التي تصور الإسلام بأنه دين متشدد، يحرم اختلاط المرأة بالرجال.

أمَا علم هؤلاء أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح؟ ألم ير هؤلاء نتائج الاختلاط في الغرب، وما ترتب عن ذلك من ابتذال المرأة وعُرِيِّها وتعريضها لوسائل الدعاية، وإلى مجلات وأفلام الجنس، وإخراجها للعمل في دور البغاء وحانات الخمر، وماذا بعد ذلك؟! أيريدون إخراج المرأة المسلمة لتلقي عذاب الله، لا سمح الله؟

والأدب الإنجليزي لم تخلُ فيه كتابات الأدباء عن مسألة هي شغل الغرب الشاغل، تلكم هي مسألة تعدد الزوجات في الإسلام، ففي العصر الوسيط نجد رانولف هجدن في كتابه الذي بعنوان Chronicon Poly يتحدث عن إباحة الإسلام لتعدد الزوجات في شريعته وأن هذا يدل على شهوانية الإنسان المسلم، ويتقدم ذلك اعتماد تلك الشريعة على إثارة الجنس والخوض في الملذات، وأن ذلك أساس الحياة عند المسلم.

وفي عصر التجديد كتب الشاعر الإنجليزي إدموند ولار Edmund Waller قصيدة بعنوان «من الحب» Of Love، وفيها أكد على أن المسلمين يعبدون المرأة لشهواتهم، ولا أدلَّ على ذلك من إباحة الشريعة الإسلامية لتعدد الزوجات .

ولقد كتب اللورد بايرون في العصر الرومانسي قصيدة بعنوان «حصار كورنث» إحدى مدن اليونان، وقد تعرض في ذلك عن وعود الإسلام للمسلمين بكثرة الحور العين في الحياة الآخرة، وأباح لهم تعدد الزوجات في الحياة الدنيا، وهذا يدل على الشهوة الجنسية العارمة لدى المسلم، والتي شجعتها الشريعة الإسلامية .

هكذا ينكر هؤلاء الكتاب فكرة تعدد الزوجات، وما علموا أن معتقداتهم حادت بالغرب عن تعدد الزوجات المشروع، وأوقعته في تعدد العشيقات والمومسات غير المشروع .

لقد كانت المرأة العربية قبل الإسلام مبعث فخر للرجل، ومناط عزة وشرف، فهي ربة البيت المكرمة، والأم المطاعة، وكان بعض العرب ينتسب إلى أمه استطالة بشرف نسبها، واعتزازاً بخؤولته . وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن العواتك من سليم» [(١)] .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٧/ ١٦٨ برقم، ٦٧٢٤ وسعيد بن منصور في سننه ٢/ ٣٠٢ برقم ٢٨٤١ . انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ٨/ ٢١٩ . وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحه٤/ ٩٧ : (وبالجملة فالحديث بهذه الطرق حسن على أقل الدرجات)، وقال المحدث حبيب الرحمن الأعظمي رحمه الله في تعليقه على الحديث في سنن سعيد بن منصور: (في أمهات النبي ﷺ ثلاث عشرة امرأة كل واحدة منهن تسمى عاتكة بعضهن من قبل أمه وبعضهن من قبل أبيه).

والإسلام وتاريخه العريض يحمل في طياته صحائف مشرفة للنساء وجهادهن في سبيل الدعوة الإسلامية، فكن أديبات وطبيبات وخطيبات وفقيهات. إن المرأة في الإسلام ليست من البهائم، وليست من سقط المتاع، ولا أنَّ حقوقها مهضومة. بل على العكس من ذلك، فإن الإسلام أنقذ المرأة وأنصفها من الظلم والغبن والاحتقار، إن تلك الحرية الموهومة والمساواة المزعومة اللتين أُعطيتا للمرأة الحديثة في الغرب كانتا بسبب تخلي الرجل عنها، وإهماله لحقها عليه، وموت ضميره تجاه حرمة عرضها وشرفها.

فالآباء يتركون بناتهم بعد النشأة الأولى ليبحثن عن العمل والزوج في حرية تامة، وفي المقابل يهمل الأبناءُ والبناتِ آباءهم وأمهاتهم للملاجئ والشوارع، لايسألون عنهم، ولاينفقون عليهم.

والأزواج يحرصون على أن تعمل زوجاتهم خارج المنازل، دون اهتمام برعاية الرجل وتربية الأطفال. بل ربما قعد الرجل في البيت للقيام بمهمة الزوجة، وهي تعمل حرة طليقة.

والإخوان والأعمام والأقارب لا يسألون عن أخواتهم وقريباتهم: ماذا يأكلن ويشربن، وكيف يسكنَّ، وماذا يعملن. فلهن مطلق الحرية ـ منذ أن يبلغن الرشد ـ في العمل والتصرف كيف شئن لضمان معيشتهن ومستقبلهن!

وهذا عكس ما تنتهجه شريعة الإسلام، وخلاف ما تعوده المسلمون من إحساس بالمسؤولية التربوية والأخلاقية والمعيشية نحو نسائهم، بنات

كنَّ أم أخوات أم زوجات أم أمهات . . .

أفلا نعجب إذن لقول الجهلاء بالإسلام، أو قول الحاقدين عليه بإن القرآن كان قليل الرأفة بالنساء أو أن النساء المسلمات يعشن كالإماء أو كالبهائم؟

إننا لا نعجز أن نلقمهم حجرا، بل أحجاراً، بكشفنا لهم عن المزايا، أوالعطايا التي أنالها الإسلام للمرأة حين بيَّن قيمة العفة والعفاف لها، وحين منحها حق الإرث، والوصية، والتملك، والبيع والشراء، والهبة، وغير ذلك من حقوق مالية لم تظفر بها حتىٰ الآن النساء الأخريات في الأديان السابقة، والحضارات الغابرة والحاضرة .

فالمرأة الأوروبية والأمريكية ـ في الحضارة الحديثة ـ لم تمنح بعض التأهيل الشخصي خلال السنوات القليلة الخالية تكريماً لها، ولا اعترافاً بحقوقها الإنسانية، وإنما كان ذلك لأغراض سياسية وأهواء حزبية، لكي تتجه بصوتها إلىٰ هذا الحزب أو ذاك . لقد حصلت المرأة الغربية علىٰ حق الانتخاب، وعلىٰ حق دخول البرلمان. ولكنها في الولايات المتحدة الأمريكية لا تستطيع أن تفتح حساباً باسمها في البنك إلا إذا حصلت علىٰ موافقة كتابية من زوجها . والمرأة الإنجليزية لا تحصل علىٰ مثل مرتب الرجل. وعدد الناخبات في بريطانيا أكثر من عدد الناخبين، لكن عدد النائبات أقل من عدد النواب (٤٤ ـ ٦٠٠) ؛ لأن المرأة لا تثق في بنات جنسها من ناحية، وهي من ناحية أخرىٰ إنما فتحت لها أبواب التوظيف والانتخاب لمصلحة الرجل سياسياً وتجارياً أيضاً .

ونقول (تجارياً)؛ لأننا رأينا المرأة في أوروبا تكنس الشوارع، وتحمل أمتعة الركاب في المطارات، ورأيناها عاملة ناصبة في المزارع والمصانع والمناجم، فاقدة لأنوثتها، باذلة لكرامتها، كما رأيناها عارضة لجسدها سلعة ومتعة للرجل، أو (لصاقة ذباب) في الإعلانات التجارية على الصحف والجدر والأعمدة، حتى طالبت (حركة تحرير المرأة) في بريطانيا ليلة تتويج ملكة للجمال هناك بإحراق (هذا العالم الذي صنعه الرجل)، وحملت أكثر من ثلاثمائة امرأة لافتات كتب عليها: « نحتج على سوق اللحم البشري» و «لقد أصبحت المرأة لعبة للرجل» . . . إلخ [١].

حتى حذر علماء الاجتماع في جامعات نيويورك ـ ١٩٧١ م ـ من ارتفاع عدد الغانيات، ونبّه الدكتور تشارلس دينيك إلى خطر ظاهرة انحلال الفتيات، وإدمانهن على المخدرات نتيجة لتفكك الأسرة، وانعدام رعاية الآباء . . .

. . وحتى كشف معهد أبحاث أمريكي ـ في لوس أنجلوس ـ عن فضيحة أخلاقية مفزعة . . وهي أن عشرة آلاف فتاة في كاليفورنيا وحدها قد أنجبن أطفالاً غير شرعيين ، وأن عدد البنات اللاتي ولدن ولادات غير شرعية في الولايات المتحدة الأمريكية يزيد على ٣٠٠ ألف فتاة ، وأنه في مدرسة ثانوية واحدة في مدينة لوس أنجلوس ظهرت أعراض الحمل على ٢٥٠ طالبة، وما يحدث في أمريكا يحدث مثله في بريطانيا وفرنسا وألمانيا والسويد وغيرها من دول أوروبا .

وهذه هي ـ بزعمهم ـ مظاهر المساواة الحرة الكريمة بين الرجال

---

(١) أحمد محمد جمال، مفتريات على الإسلام، ص ٧١ ـ ٧٢ .

والنساء، وهي ـ في نظرنا ـ الثمرات الحناظل لتشغيل المرأة في غير مجالاتها المناسبة، وللاختلاط بين الجنسين في العمل والتعليم»[١].

مرة أخرى نورد قول الباحث الغربي سنكس، ونظرته السليمة لفضل الإسلام على المرأة، حيث قال: إن الإسلام «قد أوجب حماية المرأة بالاعتراف لها بحقوقها التي كانت غير معترف بها إلى عهد محمد، ولا سيما بتهذيب وتعديل عادة تعدد الزوجات»[٢].

وهذا الكونت دي كاستري يدلي بدلوه عن المرأة في الإسلام، ويتحدث كلاماً طويلاً في هذا الشأن، ويردُّ على شبهات المغرضين ومفترياتهم، حيث قال: «ومن الخطأ الفاضح والغلو القادح قولهم: إن عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تُباع فيه المرأة، فتصير شيئاً مملوكاً لزوجها؛ لأن ذلك العقد يخول للمرأة حقوقاً أدبية وحقوقاً مادية، من شأنها إعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية، فلها أن تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها، وعدم التسري، وأن لا يغيب أياماً كثيرة عن بيته بدون إذنها، وأن لا يؤذيها ولا يسبها، وأن لا يكلفها بأعمال البيت الشاقة. وهكذا فإن لم يَفِ بهذه الشروط، جاز للمرأة أن تطلب الطلاق، فإن لم ترده لنفسها، جاز لها أن تطلب منه على يد القاضي أن يطلق ضرتها أو أن يعتق الجارية كي يبطل حق التَّسري بها[٣].

ولم يقتصر القرآن في التضييق على تعدد الزوجات على عددهن،

---

(١) المرجع السابق.
(٢) نخبة من علماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون، ص ٣٢٣.
(٣) الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ١٢٠.

بل حرَّم ما كان معروفاً عند العرب قبله من الزواج لزمنٍ محدود، وفي ذلك شبه تحريم للطلاق، لكونه لا يتأتىٰ إلا بشروط مخصوصة.

ومع هذا كله، فإن تعدد الزوجات أوجب عدم إعظام الديانة الإسلامية، حتىٰ إن المتنورين من المسلمين أنفسهم شاعرون بهذا، ولو كان لهم شيخ ومؤتمر ديني (أريد سلطة قائمة علىٰ الدين للتوفيق بين نصوصه وحاجات الزمان) لأصبحنا في شك من بقاء إباحة تعدد الزوجات.

قال موسيو (ريفيل): علىٰ أننا لو رجعنا إلىٰ زمن النبي ﷺ، ومكان ظهوره، لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أتاه عليه السلام، فهن مدينات لنبيهن بأمور كثيرة، وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن، وما يجب لهن علىٰ الرجال؛ فمنها ما يختص بتحريم ما لايجوز من اللذائذ معهن، ومنها مايوصي بالحشمة والوقار في استعمال ما أباحه الله، جاء: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾[1]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة الآية، ٥.

(٢) سورة النور، الآية ٣٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات ١ ـ ٥.

وقد أخذ الصحابة عن النبي كثيراً من الأوامر المشددة التي تحرم الاسترسال مع الشهوات، وعدم التمسك بقواعد العصمة والكمال، فلا يجوز للخاطب أن يرىٰ من مخطوبته غير وجهها ويديها، ومن الجُناح علىٰ المسلم أن يرفع بصره إلىٰ امرأة لا يريد أن يتزوجها، جاء في الإنجيل: (من نظر الىٰ امرأة نظر شهوة فقد زنا بقلبه). ويقول المسلمون: (لزنا العين أشد حرمة من زنا الصدور). هذه أوامر عاصمة تسوي بين الجريمة وبين مجرد الشهوة، وتحرم النظر إلىٰ زوجة الغير، وليس من يعيها إلا المسلمون؛ لأن نساءهم محتجبات عن العيون.

ويرىٰ القارىٰء من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام النبي بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين، لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم، وربما كان الإنجيل أكثر تدقيقاً وآكد في التشديد، ولكنه لا يعمل به إلا قوم خصهم الله بمواهب الكمال وهم قليلون، أما البقية من الأمة، فليس لهم أخلاق أطهر من أخلاق الأمم المتدينة بغير النصرانية، لكن شريعة القرآن جاءت ملطفة وجمهور المسلمين يلاحظها، ويجري علىٰ مقتضاها، وقد مارسوا النظافة والاعتناء بالصحة، عملاً بما جاء في القرآن أو في الحديث، فكانت لهم من ذلك أخلاق مخصوصة بهم، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار، وجاء هذا مغايراً لآداب الأمم المتمدنة اليوم علىٰ خط مستقيم، ومزيلاً لما عساه أن يحدث عن ميل الشرقيين إلىٰ الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض، والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والأرض، فالمسلم ينجرح نظره ويستحيي من مرأىٰ الإعلانات التي ينشرها الغربيون، ومن

راقصاتهم في لباس، كأنهن به عاريات ومن حفلات الرقص، حيث النساء خالعات العذار، كاشفات المناسب، ومن جميع ملاهينا التي لا تمتاز عن بعضها إلا برقة ما يستر وجه الحياء .

رأيت ذات يوم في سراي الوزير المصطفىٰ بالجزائر قوماً من الشيوخ رؤساء القبائل أجابوا الدعوة ليزدان المكان بوجودهم، وهم من أقاصي الصحراء، حيث صفاء الأخلاق وطهارة العادات، عليهم البرانس، وعلائم العزة والوقار تعلو جباههم، ينظرون إلىٰ المسيحيات رائحات غاديات وهن عاريات الصدور تحت ذراع من يتقدم لهن من الرجال، وقلوبهم ملأىٰ من الاحتقار، ومن كان من بين أولئك الشيوخ غير متمسك تماماً بجميع العوائد القومية، كانوا يتخيلون بأنهم لا يشاهدون حالة اعتادها الإفرنج لترويح النفس، بل ينظرون إلىٰ مجتمع انطلقت فيه الشهوات، ورفع فيه برقع الحياء عن الوجوه، فاستباح كل واحد ما أراد، كما يقع ذلك مرة في كل سنة عند الزنوج أو بعض قبائل الهمج، حيث يأتي الأسافل من الأمة مثل تلك الفعال، ولكنهم عند وقوع نظرهم بين الجمع علىٰ رؤساء المصالح الذين هم أصحاب الإمرة عليهم، كانوا يرجعون من وهمهم، ويعلمون أن مايشاهدون من المناظر حقيقة اعتاد أولئك القوم عليها . هنالك يجول بخواطرهم تعاليم شرعهم، ويعظم شأن القرآن في قلوبهم عندما تقترن آدابه بالمشهد المخجل الذي هم فيه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ**

أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٢) . وقلما تستبيح امرأة غير شابة أن تكون بلباس أقل من ذلك حشمة وكمالاً ، كما قال جل وعلا : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣) .

ولقد أطلنا الشرح، فخرجنا عن الموضوع، وشرحنا أخلاق المسلمين؛ ذلك لأننا نعتقد أن ما قدمناه برهان قاطع علىٰ أن تعدد الزوجات لم يُتَّخذ ـ ولم يكن ليُتَّخذ ـ مشجعاً علىٰ انتشار ديانة الإسلام. وبقي علينا أن ننظر إن كان النبي اتخذ للذائذ والجنات التي وعد بها والشهوات سلماً لاستمالة بني آدم وحملهم علىٰ اعتناق ديانته»(٤).

وإذا كان الإسلام أمر المرأة بالعفة، وحافظ علىٰ عفافها وشرفها، فإنه أكرم المرأة المسلمة بعدم الزواج من غير المسلم، كتابياً كان أو غير كتابي؛ لأسباب سامية، ذلك أن الرجل هو قَوَّامٌ علىٰ أسرته؛ فالإسلام حفظ للمرأة المسلمة مكانتها بأن لا يسلط عليها كافراً بحكم الزوجية؛ إذ

---

(١) سورة النور ، الآيه ٣١ .

(٢) سورة الأحزاب الآيه ٥٩ .

(٣) سورة النور الآيه ٦٠ .

(٤) الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ٥٨ ـ ٦١ .

لا يُؤمَنُ عيشها معه في بيته وتحت سلطنته، والاطمئنان إلى بقائها على دينها، وقد لا يمكنها من أداء فروضها وواجباتها الدينية، ورعاية مكارم دينها ومحارمه، الأمر الذي قد يجعل المرأة المسلمة المتزوجة من غير مسلم ترتد عن دينها، وبالتالي تلد أبناءً كفرةً فسَقَةً يكثُرُ بهم أعداء الإسلام، وإن كان ولا يزال الإسلام يسمح للرجل المسلم الزواج من الكتابية إذا لم تكن مشركة أو زانية. إذا كان الإسلام سمح للرجل المسلم الزواج بالكتابية، فلأن ذلك قد يجعل الكتابية تعتنق الإسلام، والإسلام فرض على الزوج المسلم أن يحترم زوجته اليهودية أو المسيحية، وهو يؤمن بموسى وعيسى عليهما السلام، ويسمح لزوجته أن تمارس شعائرها الدينية. وفي الحديث الذي يرويه النسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه دلالة على مدى اعتزاز المرأة المسلمة المؤمنة بدينها، حيث قال أنس رضي الله عنه: «خطب أبو طلحة أمَّ سُليم، فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرَدُّ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري، وما أسألك غيره، فأسلم فكان ذلك مهرَها، فقال ثابت: فما سمعت بامرأةٍ قط كانت أكرمَ مهراً من أم سُليم: الإسلام، فدخل بها فولدت له» (١).

وأما مسألة تعدد الزوجات، وأن الشريعة الإسلامية هي التي أباحت ذلك كما يدعي أعداء الإسلام، وكما يزعمون، فقد حادوا بذلك عن الحق المبين، الذي يعرفونه تماماً دون مراء، إذ لم يكن هناك حَجْرٌ على تعدد الزوجات في الشرائع التي سبقت اليهودية والنصرانية، بل لم يكن

(١) النسائي، كتاب النكاح.

هناك تضييق أو منع من تعدد الزوجات في اليهودية والمسيحية، بل كان من المباحات التي جاءت بها معظم التشريعات التي سبقت الإسلام، وكان التعدد معترفاً به في أوربا حتى القرن السابع عشر، كما يشير إلى ذلك المفكر الغربي وستر مارك Westar Mark في كثير من كتاباته عن تعدد الزوجات . ولقد اعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين للملك شارلمان الفرنسي من عدة زوجات. والإسلام لم يكن هو الذي أوجد شريعة التعدد، بل جاء لإصلاح ما أفسدته فوضى الإباحة المطلقة، وقيَّد ذلك حسب الضرورات التي جاء بها الشارع الحكيم. ومن حسنات الشريعة الإسلامية في جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها، ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما يتقى من أضرار، فعندما أباح الإسلام التعدد، قيده بأربعة نساء، وقيد التعدد بشرط المساواة والعدل، ونبه إلى صعوبة ذلك وإن كان الزوج حريصاً.

وحسبنا كلمة صدق في قوله ﷺ عن اهتمامه بشؤون الرسالة والدعوة، واشتغاله بإصلاح الناس، فهو يقول عليه الصلاة والسلام: «لو تعلمون، ما أعلم ما تلذذتم بالنساء على الفُرُش»[(١)] . ثم نجد الكونت دي كاستري وغيره من مفكري الغرب الذين عرفوا محاسن تعدد الزوجات يقول:

«ثم إنه ليصعب جداً على الغربيين والشرقيين من الاختلاف الكلي في الجنس والدين والتمدن، ولذلك فمن الأمور التي تهم معرفتها ما

(١) رواه الترمذي في الزهد بلفظ: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش. .» ٤/ ٥٥٦ برقم ٢٣١٢.

أهمله الباحثون دائماً، وهو أن تعدد الزوجات عادة قديمة في العرب قبل الإسلام، فكثرة النساء أقدم من وجود الجوامع، ومن الخطأ المطلق قول الأب (بروغلي): إن كثرة النساء وُجدت مع الإسلام، إذ من المحقق أن قبائل العرب الذين أسلموا في مبدأ الأمر كانت على هذا المذهب، كما عليه الآن الأمم السوداء التي تميل بكلياتها في هذه الأيام إلى الإسلام، وكان هذا المذهب في تلك القبائل والسود أوسع مما جاء به القرآن، فهو لا يبيح أكثر من أربع بالكتاب، ولذلك يقول أولئك القوم عن النبي: إنه مصلح شديد المعاملة، ولا شك في أن ميله أولاً كان إلى الاقتصار على زوجة واحدة، كما جرى على ذلك في أول حياته، ولكن كان من الصعب أن يلزم بني قريش بذلك.

وقد كان من بينهم - مثل الحارث وغيلان - لكل واحد عشر نساء اعتنقن الإسلام مع أزواجهن، فلو أمرهم بالاقتصار على زوجة واحدة، لشق الأمر جداً عليهم وصَعُبَ احتماله، وربما أدى ذلك إلى تزعزع عقديتهم في الدين الجديد؛ لهذا أمرهم ﷺ أن اختاروا بين أزواجكم أربعاً تفضلونهن على البقية، وطلقوا ما عداهن.

ولا يعجَبَنّ القارئ إن لم أذكر شيئاً عن تعدد زوجات النبي، فقد ذكرت طرفاً منه في آخر الفصل الأول، وسأعود إليه فيما بعد.

ويؤخذ ميل الدين الإسلامي إلى تفضيل زوجة واحدة إنْ خاف ألا يعدل كما في الآية الثالثة من السورة الرابعة التي تحدد عدد ما يباح من الزوجات، كما قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا**

طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ . ومعنىٰ القسم الثاني من هذه الآية علىٰ ما رأىٰ العلماء: هو أن الرجل إذا خاف أن لا يكون عدلاً بين زوجاته، وخشي تفضيل إحداهن عليهن، ولم يكن في حالة تسمح له أن يوفي كلاً حَقَّها، وجب عليه أن لا يتزوج بأكثر من واحدة. ومع ذلك فالمعدم عن الزواج نادر، والعامة يتزوجون في الثامنة عشرة غالباً، وأهل الشرق لا يعرفون العزوبية، وهي المصيبة التي جلبها التمدن علىٰ الغربيين، وكان محمد ﷺ في محادثته مع صحابته يحب أن يسمعهم كثيراً قوله: «لارهبانية في الإسلام»[(١)] . ثم قال لهم يوماً. «نفس المتزوج أحب إلىٰ الله من صلاة ستين أعزب»[(٢)] .

ويرىٰ القارئ مما تقدَّم أن الناس بالَغُوا كثيراً في مضارِّ تعدد الزوجات عند المسلمين، إن لم نقل: إن ما نسبُوه إليه من ذلك غير صحيح، فما تعدد الزوجات هو الذي ولَّدَ في الشرق تلك الرذائل الفاضحة التي يشير إليها «الأب برجلي»، بل المعقول أنه من شأنه تلطيفها، علىٰ أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل في الشرق أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السُّوَّاح الذين يرون أمراً في فرد، فيجعلونه عاماً من غير تثبُّت فيه. ولولا هذا التعميم

(١) لا رهابية في الإسلام لا يوجد هذا الحديث بهذا اللفظ، ولكن هناك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» رواه أحمد ٣/ ٢٦٦ وأبو يعلىٰ ٧/ ٢١٠ برقم ٤٢٠٤، وروىٰ الدارمي من حديث سعد بن أبي وقاص برقم ٢٠٦٩ في كتاب النكاح: «إني لم أومر بالرهبانية، أرغبت عن سنتي»، قاله لعثمان بن مظعون عندما ترك النساء

(٢) الكونت دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ٥٢ ـ ٥٦ .

السطحي، لما وجدوا شيئاً يملأون به مؤلفاتهم، والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة، ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحدث في الشرق بأجمعه؛ لأن النبي ﷺ بالغ في تحريمها، ولم يعدُّها من الذنوب الخفيفة، كما فهم بعضهم من آية، وفي قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١)؛ لأن ذلك خروج بالآية عن معناها، وشطط في تفسيرها، وليست هذه الآية هي الوحيدة التي جاءت في القرآن، بل كثير غيرها، كما في سورة الأعراف قال الله تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾(٢).

هذا والشرع الإسلامي ـ سواء كان آخذاً عن القرآن أو السنة ـ من أشد الشرائع صرامة في معاقبة هذا الفعل، ففيه يقتل البالغان إن أتيا هذا الفعل معاً، فإن فسق بالغ بصبي يقتل الأول ويؤدب الثاني، فإن فعله صغيران جلد كل منهما مائة جلدة (٣). وأما ما يتعوده المراهقون من الأمر القبيح، وكذلك فساد الأخلاق، فمما لا وجود له في الشرق إلا بطريق الاستثناء لسهولة الزواج».

---

(١) سورة النساء الآية ١٦.

(٢) سورة الأعراف الآيات ٨٠ ـ ٨٢.

(٣) هذا من الفهم الخطأ للحدود في الإسلام، فالإسلام لا يقيم حد القتل علىٰ الزاني البالغ والجلد علىٰ الصبي الصغير، بل من المعروف بداهة أن حد القتل (الرجم) يقام علىٰ الزاني المحصن (المتزوج) وحد الجلد علىٰ الزاني غير المحصن، أما الصبي غير البالغ، فلا يقام عليه الحد.

وعن تعدد الزوجات وقيمته التشريعية المنضبطة في الإسلام، تقول لورا فاغليري :

«وفي استطاعتنا أن نبدأ بالنص على أنه لم يقم الدليل حتى الآن، بأي طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم. ولكنا نؤثر أن لا نناقش المسألة على هذا الصعيد. وفي استطاعتنا أيضاً أن نصر على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها ـ كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائي في الحرب، مثلاً ـ يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية.

وعلى أية حال، فليس ينبغي أن نحكم على هذه الظاهرة بمفاهيم العصور المتأخرة، لأنها كانت في أيام محمد ﷺ مقبولة قبولاً كاملاً، وكانت عملاً معترفاً به من وجهة النظر الشرعية، لا بين العرب فحسب، بل بين كثير من شعوب المنطقة أيضاً. والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع، إنما قيدت تعدد الزوجات بقيود معينة، وكان هذا التعدد حراً قبل الإسلام، مطلقاً من كل قيد. لقد شجب الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت التي كانت في الواقع أشكالاً مختلفة للتسري الشرعي. وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقاً لم تكن معروفة قط من قبل. وفي استطاعتنا، في كثير من اليسر، أن نحشد الشواهد المؤيدة لذلك لولا أننا نشعر أن الكلام على جانب آخر من المسألة أهم وأعظم خطراً» (١)، وتستطرد قائلة :

(١) لورانيشا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٩٥ ـ ٩٨.

«لقد أجاز القرآن للرجل أن يتزوج امرأتين، وثلاث نساء، بل أن يتزوج أربع نساء، ولكنه نص في الوقت نفسه على شرط مضعَّف جعله شيئاً لا غنى عنه في تعدد الأزواج، بأن أصَّر على الزوج باصطناع العدل الكامل نحو كل زوجة من زوجاته، قاصداً بـ«العدل» مجرد المعاملة المتساوية في الزاد المادي، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾.

وفي السورة نفسها، التي وضعت فيها هذه القاعدة، نجد آيات أخرى توضح أن الطبيعة البشرية تجعل مثل روح المساواة هذه شيئاً نادراً جداً في الإنسان، وقال جل جلاله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1].

وعلى ضوء ما تقدم، نستنتج أن تعدد الزوجات ـ على الرغم من قيام الدليل على إمكانيته ـ مستحيل عملياً[2] بصعوبة تحقيق الشرط الضروري بداءةلجوازه. ويقول الزهراوي وأمير: على أن هذه القاعدة الإلهية هي في الواقع لضبط الأمور. إننا لا نستطيع أن ندافع عن تعدد الزوجات بمجرد النص على أنه مقبول عند الله، كما أننا لا نستطيع أن

(١) سورة النساء الآية ١٢٩.

(٢) من الملاحظ أننا في دفاعنا عن تعدد الزوجات نقع في مطب كبير، وهو القول بالتحريم أو قريب منه، وذلك باستشهادنا بأقوال الغربيين، نحن لسنا في موقع الدفاع أو المتهمين حتى نسوغ أفعالنا المشروعة، وهذا تماماً مثل الذي يدافع عن الجهاد في الإسلام من منطلق المتَّهَم، فيبين أن الجهاد جاء للدفاع عن النفس فقط. فلا نأخذ أقوال الغربيين على علاتها ونفرح بها، بل لابد من تبيين وجه الخطأ فيها وتمحيص الصواب، والله أعلم.

نتخذ دليلاً عليه حياة الرسول الشخصية التي كانت ثمرة مسؤولياته الاستثنائية الخاصة . إن بينه وبين سائر الرجال فروقاً كثيرة جداً في تحقيق شرط العدل ، وفي المشكلات والمصاعب التي واجهته الأحداث بها»[1] .

٣ ـ الخمر :

إن الخمر هي أم الخبائث ، عذاب صاحبها في النار أن يشرب من طينة الخبال . نعوذ بالله ، ونسأله السلامة . هذا الشراب المحبب إلىٰ نفوس أعداء الإسلام ، والذي حرم الله شربه ، ينكر هؤلاء الأعداء هذا التحريم ، وماعلموا أن الخير في ذلك التحريم .

ففي مسرحية من مسرحيات عصر التجديد بعنوان : «الطريق إلىٰ العالم» لوليم كونجريف ، وفي ثنايا فصولها ، تحدث المؤلف عن الإسلام ، وأنه يحبس الحريات ، ويكبت النفوس ؛ إذ إن العالم بأسره من شرقه إلىٰ غربه ، والإنسان فيه يتمتع بشرب الخمر ، إلا المسلم الذي منعه دينه الجائر من تلك المتعة . ! ! !

وعن مسألة شرب الخمر ، كتب الأديب الرومانسي ولتر لاندور في كتابه المشهور بعنوان «محادثات خيالية بين بعض الناس المهمين في زمانهم» وفيه تحدث المؤلف عن الرسول محمد ﷺ ، وأنه رجل كان يصيبه الصرع ، الأمر الذي جعله يحرم شرب الخمر علىٰ نفسه ، وبالتالي حرَّم ذلك علىٰ أتباعه ، وأن ذلك ليس من تعاليم الإسلام ، بل هو من وضع محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) المرجع السابق .

ومن أدباء العصر الرومانسي، نجد وليم ديموند الذي كتب مسرحية بعنوان« آيثوب أو طفل في الصحراء»، وفيها حوار بين الفتاة زو، وأحد القضاة المسلمين الذي كان يحبها، وتلك «فتاة» مسيحية، طلبت من القاضي أن يشرب الخمر، فامتنع بادئ الأمر؛ لأن الإسلام يحرمها، ولكنها قالت له: إنني لا أحرمها، فأغوته وشرب الخمر، وقالت: لا عليك، فإن محمداً هو الذي حرم الخمر، ولم يحرمها الرب؟ !!.

إذا كانت الخمر غير محرمة عند الغرب، فلماذا توضع الضوابط لبيع الخمور وتحديد أوقاتها، بل الآن يكثر الحديث عن خطر الكحول والمسكرات، ودعوة الناس إلى التخفيف منها وتركها. بل لماذا يحرم شرب الخمر على من هم دون سن الثامنة عشرة؟ من الذي حرم ذلك ؟ ولماذا ؟

والخمر ـ كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ هو «كل ما خامر العقل» . وهو تلك المادة الغولية التي تُحدِثُ الإسكار، وتُذهب بالعقل، وقد كان العرب في الجاهلية وقبل الإسلام مولعين بشرب الخمر، وجاء ذكرها كثيراً في أشعارهم، وكان لها مائة اسم أو تزيد، ثم جاء الإسلام ليحرم الخمر بالتدريج، فنزلت آيات تبين ضرر الخمر، كما قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾(١) .

ويروي الإمام أحمد رحمه الله تعالى أن عمر بن الخطاب عندما

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٩ .

نزلت هذه الآية، قال «اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً»، ثم نزلت الآية التي تحرم على المسلم أن يصلي وهو سكران كما في قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (١) فكان هناك مناد لرسول الله ﷺ إذا قام للصلاة، نادى: أن لا يقربن سكران الصلاة، وكرَّر عمر رضي الله عنه قوله: «اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شافياً»، فنزل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (٢). فقال عمر رضي الله عنه: «انتهينا انتهينا» (٣).

وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى أن الخمر من الرجس الذي اشتد فُحشُه وقُبحُه، وجعلها من عمل الشيطان؛ لما لها من أضرار دينية واجتماعية في تقطيع صلة الإنسان بربه وبأهله، وأنها وسيلة لإيقاع العداوة والبغضاء. وقد بين الرسول ﷺ الطيبات، وحرم عليه الخبائث والمنكرات، وأمره أن يمتنع عنها لما فيها من ضرر، ومنها الخمر، فتقول: والمسلمون يعتقدون بأن خير سبيل يستطيع المرء التعبير بواسطته عن شكره لله هو أن يستخدم ما أسبغه الله عليه من نعمه استخداماً خيِّراً. والإفادة من الأشياء الطيبة التي وضعها الله في متناول كل إنسان ليست إمكانية فحسب، ولكنها واجب أيضاً، إذا لم يكن في تلك الأشياء الطيبة شيء قد يعود بالخطر عليه أو على جيرانه. يقول الله تبارك

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآيتان ٩٠، ٩١.

(٣) مسند أحمد ١/ ٥٣.

وتعالىٰ:

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، هكذا ختمت فاغليري كلامها بهذه الآيات (٣).

٤ ـ الجهاد:

الجهاد في الإسلام معناه تحطيم مملكة الشر، فالإسلام يحطم عبادة البشر، ولا يحطم مملكة الشر، بل يعمرها بالخير والاستقامة والعدالة، والحق أنه يحطم مملكة الشر كما يحطم عبادة الأصنام والأوثان لإقامة مملكة الله وحده في الأرض، وعبادته إلهاً واحداً لا إله غيره هو الحق.

والجهاد الإسلامي هو غير الحروب المعروفة بين الناس بقصد الاستيلاء والتوسع والاستعلاء البشري، إنما هو الدعوة إلىٰ الله في سبيل تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وإعلاء ألوهية الله وحده. وهذا ما يشير إليه قول الصحابي الجليل ربعي بن عامر ورفاقه عندما سألهم رستم القائد الفارسي عن سبب خروجهم لقتال الفرس، فأجابوا: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، ومن ضيق

(١) سورة المائدة، الآية ٩٣.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٢.

(٣) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٨٧.

الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام [١] والأسباب الأخرى التي دعت ودفعت المسلمين إلى الاعتراك مع أعداء الدين يمكن حصرها في سببين رئيسيين:

أولهما: حماية الدعوة الإسلامية من عدوان خصومها من عرب وعجم، حيث حاول كسرى الفرس قتل رسول الله ﷺ، وبذل العطاء لمن يأتيه برأس النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك فعل هرقل ملك الروم عندما أمر بقتل كل من أسلم من أهل الشام.

وثانيهما محاربة أعداء الإسلام الذين نقضوا العهود والمواثيق القائمة بين الدولة الإسلامية وأعدائها من قبل الأعداء، كما فعلت قريش بعد معاهدتها في الحديبية، وكذلك نقض اليهود للعهود المبرمة مع المسلمين وتحزبهم في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ضد الإسلام.

ومع هذا كله فإن الإسلام لا يجيز القتال أو الحروب إلا لضرورة، وهذا ما يشير اليه القرآن الكريم في قوله جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٣]. بل إن الإسلام يدعو إلى السلم وهو دين السلام، حيث يقول عز من قائل سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٤]. والجهاد لا يعني إكراه الناس

(١) أحمد محمد جمال، مفتريات على الإسلام، ص ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٦١.

علىٰ الدخول في الإسلام ، إذ لا إكراه في الدين .

وعن الجهاد في الإسلام قال المستشرقون ومن سار في ركابهم : إن الإسلام متعطش لسفك الدماء ، ولم ينتشر إلا بقوة السيف ، وهذا ما نجده في كثير من كتابات الأدباء الإنجليز . فنجد الشاعر صموئيل بتلر في عصر التجديد يصف المسلمين بحبهم للقتال مع جبنهم وخورهم ، وينتهي به القول للحديث عن المرأة النصرانية التي تخرج مع الفرسان ، وأنها أشجع من المسلمين الذين يريدون نشر دينهم بالسيف ، كل ذلك جاء في قصيدة الشاعر المعروفة باسم هيودبراس . Hudibras .

وفي عصر التجديد أيضاً يتحدث الكاتب السير وليم دفينانت Sir William Davenant عن انتشار الإسلام بقوة السيف في مسرحيته «حصار رودس» ، حين جعل إحدىٰ الشخصيات المسلمة في المسرحية التي وقعت في الأسر تتحدث عن الإسلام بسوء وفحش ، بقصد إثبات أن الرأي الذي يقول به ليس من عنده ، بل هو رأي الإنسان المسلم ، حيث يقول ذلك المسلم أو بالأصح يقول ذلك القائل : الإسلام لا يقوم علىٰ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، بل يعتمد علىٰ حد السيف وقوته ، وإن المسلمين متعطشون إلىٰ القتل والتوسع والتسلط والسيطرة علىٰ الشعوب .

والسير روجر بويل Sir Roger Boyle من أدباء عصر التجديد كتب مسرحية بعنوان «إبراهيم باشا» ، وفيها يصور المؤلف المسلمين وأتباع محمد ﷺ من خلفائه بأنهم يعتمدون في تصرفاتهم علىٰ تعاليم الإسلام

في حب القتال، فيتحدث الكاتب عن السلطان سليمان على أنه متجبر، متكبر، لا يتصرف في حياته إلا بلغة السيف والقتل، وهذا شأنه مع كل الممالك المجاورة له.

ويستطرد ليقول: إن السلطان المسلم هذا في عنفه وتسلطه مثل نبيه نبي الإسلام محمد، ذلك القاتل السفاح، حيث إن القتل ديدن ذلك الدين، دين الإسلام.

ومن أدباء القرن الثامن عشر يطالعنا اسم الدكتور صموئيل جنسون في مسرحية بعنوان «إيرين» Irene وصف فيها المسلمين بأوصاف شتى، منها أنهم أصحاب دين وثني، وأنهم عُبَّادٌ للقبور. . إلخ، ثم انتهى للقول بأن الإسلام انتشر بالحرب، وأن السلطان التركي يطلب من وزيره ألا يذهب لزيارة الحرمين إلا بعد أن يُدخل جميع الناس في الإسلام ولو بالحرب والقتل.

وهنا يعلق الكونت دي كاستري على حروب المسلمين مع غيرهم، فيقول: «ولقد أطلنا القول في مسالمة المسلمين عند انتشار دينهم في الغرب؛ لأن الضد ثابت في أذهان المسيحين، ولايزال مستحكماً من نفوسهم إلى يومنا هذا ما أظهره المؤرخون، ومن طافوا بلاد الشرق من مخالفته للواقع. قال ميتشو في تاريخ الحروب الصليبية: «لما استولى عمر على مدينة أورشليم، لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً، ولكن لما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين، ولم يشفقوا بهم وأحرقوا اليهود حرقاً. وعلى هذا يتحقق أن الدين الإسلامي لم ينتشر

بالعنف والقوة»[(١)] . وهذا مايؤكد أن الجهاد الإسلامي لم يقتل فيه العدد الذي قتل فيه الآلاف من المسلمين إبان الاستعمار الغربي للدول الإسلامية، وشواهد التاريخ في ذلك لا تنكر.

ويذكر الكاتب الفرنسي ولتر هذا الأمر بقوله: «فهذه الديانة تدعى الإسلام، أي الاستسلام لإرادة الخالق سبحانه، وهذا الاسم كفى لهداية العدد الوافر من البشر، وليس بصحيح ما يُدَّعى من أن الإسلام استولى قهراً بالسيف على أكثر من نصف الكرة الأرضية، بل كان سبب انتشاره شدة رغبة الناس إليه بعد أن أقنع عقولهم، وأكبرُ سلاح استعمله المسلمون لبث الدعوة هو اتصافهم بالشيم العالية، ولا يخفى ولوع المغلوب بتقليد الغالب، وقد انخرط في الإسلام أقوام لم تبلغهم سلطة المسلمين ولم تصلهم»[(٢)] .

ويؤكد الكاتب الإنجليزي توماس كارلايل أن الإسلام لم يُنشر بحد السيف، فيقول: «ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا ما جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فشد ما أخطؤوا وجاروا . إنهم يقولون ما كان الدين ينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة هذا الدين وأنه حق!

أو لم يروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً؟ وحسبكم ما فعل «شارلمان» بقبائل السكسون!»[(٣)] .

والحديث عن الشريعة الإسلامية في الأدب الإنجليزي لم يترك

---

(١) الكونت هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ٤٨.

(٢) نخبة من العلماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون، ص ٣٣٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٢.

شاردة ولا واردة، فلم يترك الأدباء الحديث عن تحريم لحم الخنزير، والحديث عن مفهوم الجنة في الإسلام، ومفهوم النار والسعير. والحديث عن سدرة المنتهى، وشجرة الزقوم، وعن مفهوم التوبة، وعن الفرق الإسلامية، مثل الشيعة والسنة، وكل ذلك يقوم على الخيال وفكر الباطل، وأقوال الزور والبهتان، كما قدمنا من أمثلة لأهم الأمور التي جاءت في كتابات أدباء الأدب الإنجليزي فيما سبق.

ويكفي أن نشير إلى أقوال المفكرين الغربيين عن الجنة، ومفهوم الآخرة في الإسلام والقرآن، ولكننا نحسب أن من الخير أن نشير إلى عقيدة تعدُّ حافزاً إلى التمسك بأهداب الفضيلة أقوى من أي ترغيب آخر. نعني العقيدة القائلة بأن هذه الحياة الأرضية تحمل في ذات نفسها بذرة الحياة الآخرة. وأن أيما عمل يقوم به المرء في دنياه هذه سوف يساعده على بلوغ السعادة القصوى في دار الخلود، وأن طهارة القلب والعمل الصالح ضروريان للفوز برضا المولى سبحانه وتعالى، وأن كل امرئ سوف يجد ـ حين يواجه الله يوم القيامة ـ ما عمل من خير أو شر محضراً، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾(٢).

ومن ناحية ثانية، فإن عقوبات رهيبة وأليمة جداً تنتظر الأشرار والآثمين. إن يوم الحساب ليُصَوَّرُ في ألوان نارية، فالله، الحكم العدل،

(١) سورة الزلزلة ٧ ـ ٨.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٠.

سوف يسأل الأبرار أن يغادروا العالم الفاني، ويلتحقوا به في كنف رحمته، علىٰ حين أنه سوف يقذف بكل أولئك الذين لم يلقوا بالاً لنذر الأنبياء إلىٰ هاوية جهنم الملتهبة، وفي هذا الشأن تقول الكاتبه الإيطالية لورافيشا فاغليري:

«ومن الضروري أن ندحض هنا اتهاماً آخر يوجهه غير المؤمنين إلىٰ الإسلام، وهو أن الإسلام وعد أصحابه بجنة حِسيَّة ذات حور عين، وأنهار من لبن وعسل، وفاكهة لذيذة، وحدائق وأعناب، ومجموعة مدرجة من الملذات الممعنة في المادية. والواقع أن مثل هذه الاتهامات تنسىٰ أنه لم يكن في ميسور أبناء الصحراء أن يفهموا وعوداً بمكافآت روحية مرهفة إلىٰ أبعد الحدود. لقد كان من الضروري إعطاؤهم وصفاً واقعياً للجنة، وصفاً يكاد يكون ملموساً، في كلمات بسيطة. وما كان ممكناً إلا فيما بعد، عندما بلغوا مستوياتٍ روحية أسمىٰ أن يخاطب البدو بلغة التعبد لله في ضَعَةٍ وحب. بيد أنه لمن البهتان البالغ القول: إن محمداً وأتباعه فهموا هذه الأوصاف الواقعية فهماً حرفياً، لأنهم منذ البدء وجدوا فيها معنىٰ أعمق من ذلك الذي يستطيع الوصف إظهاره، أعني أن السعادة العظمىٰ سوف تكون ـ وفقاً للغزالي ـ في رؤىٰ الروح المحسنة في حضرة الإله جل جلاله، عندما يزاح ـ آخر الأمر ـ الحجاب الذي يفصل الإنسان عن الله، وتظهر الهالة السماوية بكامل تألقها.

وتأييداً لمفهوم جنة من هذا النوع يقول حديث شريف ما معناه: «إن أحب الناس إلىٰ الله هم أولئك الذين سوف يرون مجد الله ليل نهار، والذين سوف يستمتعون بسعادة تفوق جميع ملذات الجسد، كما يفوق

الأوقيانوس قطرة من عرق».

كيف، إذن، سيحكم الله على أفعال عبيده؟ هل سيكون ذلك على أساس من مقياس خارجي ما، أم وفقاً لنتائج تلك الأفعال؟ لا. إن القرآن ينص في صراحة على أن الله ينظر إلى النية التي يتم بها العمل، وهذا هو الأساس لتقويم الأعمال الروحية. إنه ينص على أن الخضوع الصارم للقانون، إذا لم ترافقه أعمال رحمة وإحسان، لا قيمة كبيرة له عند الله، وأن الدافع الأناني أو الريائي يجرد العمل الصالح من قيمته كلها. ولقد رأينا المفهوم نفسه من قبل عندما درسنا الشكليات في أداء الفريضة الدينية. ونحن نراه الآن يتكرر فيما يتصل بأعمال المؤمن. إن العبادة يجب أن تكون «مطهرة»، ويجب أن تنبع من «تقوى» القلوب و«سلامتها»[1].

وهنا نورد قولاً مفصلاً لكونت دي كاستري عن الجنة والحور العين فيعلق قائلاً:

ليس للحياة الآخرة من المكانة في بعض الديانات القائلة بخلود الأرواح ما لها في البعض الآخر، فالديانة المسيحية تشير إلى أنها هي المقصد الأسمى من الحياة الدنيا، ولذلك يجب أن يعتقد المرء بأن لذائذ هذه الدار وزخارفها خيال باطل، وأن يتجرد من نفسه، كي تطهر روحه فيتقدم رويداً رويداً في الحياة العقلية لينال بها السعادة العظمى، ومع تكرار هذه الحقائق ونشرها بواسطة القائمين

(١) لورا فيشيا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ص ٨٠ ـ ٨٣.

بأمر هذا لا يزال أغلب المسيحين يراها تصورات ذهنية كمالية بها تجتهد الكنيسة أن ترفع ما انحط من طبائعهم ، ومن هنا يشاهد المتأمل فرقاً عظيماً بين التعاليم والأعمال، كما تتناقض الأقوال والأفعال كثيراً عند المسيحيين، ويرىٰ الكثير منهم في ضميره وإن لم يجاهر به أن في ديانتهم قسماً من التخيلات لا تسمو إليه مداركهم، ولا يصبو إليه إلا من اختصه الله بالمواهب الصمدانية، ويحسبون أنهم أدوا واجباتهم بإصغائهم إلىٰ تلك الحكم البالغة، واعتقادهم أنها من ديانتهم، وأنهم يرجعون إليها عند الحاجة لبيان مقامها الرفيع ومكانتها العُليا، وكذا هم يعملون في قاعدة (إنما الحياة الدنيا طريق الآخرة). علىٰ أن سعادة الأصفياء سر من الأسرار التي تخفىٰ علىٰ المسيحيين وهو غريب، لأن سعادة الآخرة هي المرجع الذي كان يجب أن ترمىٰ إليه أعمالنا كلها، ولكن مع الأسف نرىٰ العقول لا تكاد تدرك من هذا المقصد الأسمىٰ شيئاً.

ومما يزيد الأمر تعقيداً وإشكالاً مذهب بعثة الأجسام علىٰ الكيفية التي يذهبون إليها، فإنهم يقولون: إن الأجسام تتحول يوم الحشر من أجسام مادية إلىٰ أجسام روحية. قال القديس بولس: خُلق الجسد من مادة تزول، وسيبعث علىٰ كيفية لا تقبل الانحلال؛ لأنه خلق جسداً روحياً. وماذا يا ترىٰ تكون حقيقة تلك الأجساد الروحية التي لا تزال أجساماً. فلها حواس وهي أرواح، فتتمكن من مشاهدة ربها. فهل السعادة التي يعِدُنا بها القُسُسُ والرُّهبان هي تصور تلك السعادة أم هي سعادة حقيقية تقوم بغير التصور والتخيلات، تلك مسائل ليس في الإنجيل ولا التوراة نصٌّ صريح يفسرها، وإن اجتهد الكنائسيون في إيضاح طرف منها،

وأهمهم في البحث هو القديس (أوغستان)، فإنه كان شديد الولع بمعرفة تلك السعادة، وغاية ما وصل إليه أنه لم يبلغ حد اليأس في تفسير هذا السر المكنون بمعونة الله وقدرته، وجميع كتبه دالة على شدة اشتغاله بتلك الحياة الأدبية السعيدة التي يتصورها الأولياء، فيشاهدون ربهم بتخيلها قبل البعث وبعده، وعلىٰ كل حال، فلا تزال تلك السعادة سراً مختوماً لا يعرفه الناس، ولا يدركه إلا الأولياء.

ومن هنا وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين، فمن قائل: بأن السعادة الأخروية إنما هي حالة نفسية، مرجعها طهارة القلب والمشابهة بين المخلوق والخالق، ومنهم من يقول: بل هي غير ذلك، أمر مادي محسوس. وألَّفَ (سبرانتي) كتابا كله بِدَعٌ، غامض المعنىٰ، مبهم المراد، جاء فيه: إن السعادة الأخروية عبارة عن أعراس تتعاقب إثر بعضها، وقال المجذوب (شريدنبورج) رئيس مذهب كنيسة أورشليم الجديد في القرن الماضي: إن لجميع اللذائذ الدنيوية نظائر في الآخرة، ويظن بذلك أنه توصل إلىٰ حل الإشكال، وأعرب عن مصير الناس، ولكن جاء كتابه بعبارة مستهجنة سخيفة، فلم ينل من قرائه التفاتاً حتىٰ بصفته أعجوبة أو خرافة[1].

وأما الإسلام فلم ينظر إلىٰ الآخرة نظر الدين المسيحي، ونرىٰ المسلمين ينتظرون ما وعدهم به النبي من النعم والسعادة، وقلوبهم مطمئنة، ولم يضحوا الدنيا للآخرة، أما نعيم الآخرة، فالمتكلمون من

(١) المرجع السابق، ص ٣١١.

أهل السنة يقولون بأنه حالة تقوم بالنفس، فتجعلها من السعداء، وأما مشاهد الذات العلية، فإن النبي ضرب لها أمثالاً حسنة، قريبة المنال من مدارك الشرقيين، ولولا ذلك لما عقلوها لبعد طبائعهم عن إدراك الأمور المعنوية المحضة؛ إذ الغربيون أنفسهم لم يدركوا ذلك الأمر المعنوي على أن رسولهم قد كلفهم أمراً جللاً، إذ حرم عليهم أن يفكروا في تشبيه الخالق بالمخلوق، وحرّم عليهم تصوير المخلوقات الحية، ولولا ذلك للزمه أن يطلب من عقولهم ما لا قِبَلَ لهم به، فيكلفهم بإدراك اللذائذ الذهنية المحضة، أو أنه يرجع بهم إلى مذهب تجسم الإله وما يتبعه من الأوهام، فيتصور لهم ربهم بصورة إنسان جالس من حوله الأولياء والأصفياء، ولكن صناعة الرمز والإشارة سهلت له الاستعلاء على هذه المشكلات: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [١]. ولو رجعنا إلى القرآن لنتلو الآيات التي نزلت في بيان سعادة الأخيار في تلك الدار، لوجدناها في أول الأمر تصف جنات عاليات، قطوفها دانية، كأنها الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء التي توجد في هذه الحياة الدنيا، وعلمنا بأن تلك الأوصاف كانت من أكبر المؤثرات في نفوس العرب المنزلة عليهم [٢].

ويستمر دي كاستري في كلامه عن هذا الأمر، فيقول: «وفي الواقع

---

(١) سورة البقرة الآيه ٢٦.

(٢) الكونت هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ٦٣.

إنه ليلذ إلىٰ البدوي الذي تعوَّدَ أرضاً قحلاء وماءً آسناً، ربما لايجده أيضاً طول يومه، أن يتصور بأن سعادته النهائية هي الراحة في جنة خضراء، ودوحة فيحاء تُسقىٰ بماء كوثري، وفيها من كل فاكهة لذة للآكلين، ولن يذوق لمثل هذا الوصف معنىٰ إلا من عاش في البادية، وكابد الحياة في الصحراء، وهذا هو السبب في أن النبي ﷺ كان لم يكن يأتي ذلك، بل هو وحي من الله تعالىٰ يأتي بمثل ذلك حيناً بعد حين وهو تكرار ربما تعبت منه عقول الغربيين لعدم تعودها عليه، ولكنه كان يفعل كثيراً في نفوس سامعيه من أمة العرب، إذ هو في الواقع أسلوب في الخطاب له منزلة رفيعة عندهم، ولا يزال يثير عواطفهم ويحرك نفوسهم علىٰ بساطتها وسهولة موردها كما شاهدت ذلك بنفسي.

ولقد أتخيل النبي واقفاً تحت شمس البادية حيث لا ظل يقي من حرها، ويخطب في القوم واصفاً ظلال الجنة الوارفة التي وعد الله بها المتقين، وأشاهد الجمع هائماً من حوله، مأخوذاً بحلاوة الخطاب الذي يلقيه بصوت يزداد وقعاً في القلوب: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١). وكان كلما قال آية، زاد وَجْدُ السامعين بما تزيده في وصف الجنة من الطلاوة والتمكين.

ولقد جرىٰ الشرقيون علىٰ عدم التفريق بين جنة الأخيار وجنة الدنيا، لذلك أعجبهم ذلك الوصف، فأخذ بمجامع لُبِّهم لمطابقته أذواقهم،

(١) سورة الرحمن، الآيات ٤٦ ـ ٥٣.

واشتغل بها عقلهم، وإن لم يرد النبي غير وصف السعادة الباقية في الواقع، ونفس الأمر، وعلىٰ هذا النمط جاء وصف اللذائذ السماوية وهو أيضاً مأخوذ مما كانت العرب تميل إليه في هذه الدار: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾(١). ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾(٢).

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٣).

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ. عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ. مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ. كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ. جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٤).

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا. لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾(٥).

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا. حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا. وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾(٦).

---

(١) سورة الصافات، الآيتان ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) سورة الدخان، الآية ٥٤.

(٣) سورة الرحمن، الآيات ٧٠ ـ ٧٧.

(٤) سورة الواقعة، الآيات ٨ ـ ٢٤.

(٥) سورة الواقعة، الآيات ٣٥ ـ ٣٨.

(٦) سورة النبأ، الآيات ٣١ ـ ٣٣.

وبعض هذا كان معهوداً عند الأمم الشرقية، وفي الزبور شيء كثير من ذلك، وكأن الكتب المقدسة استعارت الحب الإنساني وقوة تأثيره في النفوس لتشبه به للناس نعيم الآخرة، وهو أمر طبيعي؛ لأن اجتماع النوعين ـ الذكر والأنثىٰ ـ يشخص في نفوسنا نحن الغربيين صورة السعادة الأبدية، فالذوق الغربي لا ينفر من هذه التشابيه والاستعارات، علىٰ شرط أن لايتوسع فيها إلىٰ التصريح المطلق، ولكن ذوق الشرقي لا يطلب هذه القيود، وينبغي له أن يكون التشبيه تاماً، فلا يغفل أحد لوازمه ولا يبهم طرفاً من متمماته. وهذه يتوصل بها إلىٰ تمكين العقول المادية من تصور الأدبيات المحضة.

وكان هذا الأسلوب مقبولاً جداً في القرون الوسطىٰ، فقد احتوت قصة «الوردة» لمؤلفها (غليوم لوريس) علىٰ أربعة آلاف بيت، كلها صور واستعارات وتشابيه، وقد ذهب بعض الباحثين الأتقياء إلىٰ أن تلك الوردة التي ولع المؤلف بحبها هي الذات الإلهية، ذات المرأة المحبوبة. ومع كون الكاتب صريحاً في الإشارة إلىٰ الماديات، فقد عدُّوه سفراً دينياً، وليس هنا موضع البحث في صحة هذا التفسير لقصة الوردة، وإنما غايتنا أن نستخلص مما تقدم عدم المانع في اعتبار مؤلفات الشرقيين قابلة لتفسير أدبي، وإن دلَّلَ ظاهرها علىٰ أن المقصود منها أمور مادية، فالعبرانيون والعرب من بعدهم استتروا بستار اللذائذ المادية والنعيم البدني، وهم إنما قصدوا الأدبيات والسعادة الروحانية، وفي عملهم هذا تعاكس في الألفاظ، وإشارات للمراد أو مفارقات وموافقات تلذ لها عقولهم، ولهذا لا يسعني أن أرىٰ في نشيد بعضهم (لعلها تقبلني بفمها)

إشارة إلىٰ واقعة مع امرأة، كذلك ألفاظ العشق وعبارات الوجد والهيام المنثورة في المزامير لا تنقص من قيمة هذا الكتاب المقدس، وكونه كتاباً رمزياً . نعم إن تقرب بعض العباد المخلصين من الله كان أمراً بعيداً عن عقول العبرانيين الأولين والعرب الأولين الشرقيين علىٰ العموم، ولكن ليس المراد هنا معرفة الوصلة والزلفىٰ لدىٰ الله؛ لأن ذلك يستلزم معرفة حقيقة تلك الأناشيد، وهذه التشابيه، والغرض منها بيان أنها رمز للحقيقة، وقد اعترف مؤرخ اللغات الشرقية وهو موسيو (رونان) بصحة قولنا، وبأن عقول العرب والعبرانيين مطبوعة علىٰ استعمال التشابيه والاستعارات، والإكثار من المجازيات في الألفاظ (١) .

ومتىٰ سلمنا بأن المقصود من المزامير شيء آخر غير ما يعطيه ظاهر لفظها، فلا يجوز حينئذ تفسيرها تفسيراً لفظياً، لزمنا أن ننحو هذا النحو بعينه في فهم الآيات القرآنية التي جاءتنا بوصف الجنان. نعم يصعب علينا أن نرىٰ خلف هذه الصور المادية الصرفة مرامي أدبية، إلا أن هذه الصعوبة آتية من مخالفة هذا الاستعمال لما تعودناه في أقوالنا وكتبنا. ومن السهل جداً أن يرىٰ الواحد خلفاً بينه وبين آخر من غير أمته في طرق التفاهم والحديث. فالذي يجب أن يشار إليه بلطف ورقة عندنا يبرزه الشرقي في صورة حقيقية، فلا يدعون لعقولنا محلاً لإبصاره من خلال ألفاظهم.

ولقد يتعذر علينا أن نعرف أي المعنيين ينطبع في قلب المؤمن عند تلاوة القرآن، معناه اللفظي، أو معناه الحقيقي، ويحتمل أن ذوي العقول

(١) الكونت هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ٩١ ــ ٩٥ .

الضعيفة منهم لا يفقهون غير ما يدل عليه اللفظ بظاهره، وأما الآخرون فيرون فيه معنىٰ يميل بهم إلىٰ مرامي سامية، يذوقون فيها حلاوة الزلفىٰ بين العبد وخالقه. والكثير منهم ـ أي من المسلمين ـ يسمعون القرآن، فلا يعتقدون بظواهر كلماته، ويشعرون بأنه يرمي إلىٰ سعادة مخصوصة، يتصورونها علىٰ كيفية غير واضحة لهم تماماً. علىٰ أن في القرآن نفسه في آيات كثيرة جاءت في السعادة الأخروية خالية من التشبيه والاستعارات. فلا يقول بأن المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيماً مما وعد به القرآن غير ما كان مادياً شهوياً إلا من غفل عن تلك الآيات، ومال إلىٰ ذلك أصل الكتاب، وقلب الحقائق التي ثبتت فيه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وينكر الأدباء الإنجليز أن يدخل الجنة النساء؛ لأن الإسلام لا يجيز ذلك للنساء وقد أشار الكونت دي كاسترو بالدليل القاطع إلىٰ وجود النساء المؤمنات مع أزواجهن في الجنة، ثم يؤكد ذلك الأمر المفكر الغربي سنكس في حديثه عن الإسلام ومفهوم الجنة، وقد استهزأ المستهزئون (الأوربيون) بجنة محمد ﷺ التي بشر بها المؤمنين، وقالوا عنها أسوأ ما يمكن قوله، ولكن كل هذه الأقوال تتلاشىٰ وتزول متىٰ قرأ الإنسان

(١) المرجع السابق. وهذا هو نهاية كلام دي كاستري الذي ختمه بالآيه الكريمة من سورة التوبة، الآية ٧٢، ص ٩٨ ـ ١٠٠.
وما ذهب إليه الكاتب من أنه يمكن اعتبار الكتب السماوية ـ ومنها القرآن الكريم ـ كتباً أدبية ويمكن تفسيرها تفسيراً رمزياً، وأن لها ظاهراً وباطناً كما ذهب إلىٰ ذلك بعض المتصوفة ومن يرىٰ التفسير الإشاري للقرآن الكريم، كل ذلك أمر غير مقبول عندنا نحن المسلمين، فليس هناك تفسير رمزي ولا إشاري لآيات الكتاب الكريم.

القرآن. ومما يجدر بالذكر أن المرأة المسلمة تظهر في تلك الآيات القرآنية ذات مكانة، فقد صرح القرآن بأن المرأة تشارك زوجها في الجنة دار النعيم»[١].

خامساً ـ الشخصية المسلمة:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس، هذه قاعدة عريضة في الإسلام، وهي في الخواص أخص، أمثال زوجات الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، الذين كانوا أئمة الهدىٰ ونور الدجىٰ بعده ﷺ. ومع هذا كله، فلم يسلم خواص المسلمين وعامتهم من أقلام الأدباء الإنجليز من إثارة الشُّبهِ عنهم، وكيف لا يكون ذلك والرسول محمد عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم لم يسلم هو نفسه من ذلك.

١ ـ زوجات الرسول ﷺ:

يقول رانولف هجدن من كتَّاب العصور الوسطىٰ: إن الرسول ﷺ تزوج أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها طمعاً في مالها، وليس حباً لها وميلاً إلىٰ قلبها، وقد تمكن من الزواج بها بتأثير قوة السحر الذي استخدمه في دعوته، والذي به أثَّر علىٰ كثير من أتباعه. ويستطرد قائلاً: إن زواج محمد عليه الصلاة والسلام لم يقصد به العفاف، والدليل علىٰ ذلك تعدد زوجاته وكثرتهن، ووعوده الكثيرة التي جاءت في كتابه عن الحور العين في الجنة.

---

(١) نخبة من العلماء المسلمين، الإسلام والمستشرقون، ص ٣٢٣.

وفي مسرحيته «محمد الدجال»، التي استقىٰ موضوعها من فولتير، كتب شاعر عصر التجديد جيمس ميلر عن الرسول ﷺ وزوجاته وتعددهن، فقال: إن هذا النبي شهواني يحب النساء ويعبدهن، وجعلهن معبوداته اللائي هن ثمرة حياته ووجوده، وإن هدفه في الحياة وجهده الجهيد الإكثار من النساء.

وفي العصر الرومانسي كتب الأديب روبرت ساوثي في كتاب له بعنوان Chronicle of the Ci، وفيه يقول: إن الرسول ﷺ عندما تمكن من السلطة، وبسط سلطانه في المدينة، عدَّد زوجاته، وأكثر منهن، وما ذلك إلا تعبير عن القوة الجامحة والشهوة الجارفة عند الرسول عليه الصلاة والسلام.

يا الله، إن هذا إفك وبهتان، وما تزوج محمد ﷺ إلا بكراً واحدة، والأخريات أرامل ومطلقات، وأعمارهن كبيرة، فكم كان عمر سودة بنت زمعة رضي الله عنها؟ وكم كان عمر أم سلمة ذات العيال رضي الله عنها؟ هذا سبب، والأسباب كثيرة.

أمَّا الزعم بأن تعدد زوجات الرسول ﷺ سببه الشهوة العارمة، فقد نفىٰ القرآن الكريم هذه الفرية بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾(١). فهل كان التعدد عند أنبياء اليهود والنصارىٰ سببه الشهوة؟ لكن تعدد زوجات النبي عليه الصلاة والسلام كان لحِكَمٍ سامية ومقاصد عالية، فقد تزوج عائشة رضي الله عنها لتوكيد روابط

(١) سورة الرعد، الآية ٣٨.

الصداقة والمودة بينه وبين صدِّيق الأمة أبي بكر رضي الله عنه، وزواجه عليه الصلاة والسلام لزوجاته الأرامل سودة، وزينب بنت خزيمة، وأم سلمة، وأم حبيبة رضي الله عنهن أجمعين كان زواجه إكراماً لأزواجهن السابقين، وتقديراً لإسلامهم وجهادهم وهجرتهم، وصيانة لهن، ورعاية لأولادهن، وقد كن جميعا ثيِّبات، وزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من جُويرية بنت الحارث رضي الله عنها كان سببه دافعاً إنسانياً، وكسباً أدبياً للإسلام ومن حكم تعدد زوجاته صلوات الله عليه نقلهن لكثير من أحوال النبي ﷺ وسننه، قال تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (١) .

حيث دعاها للإسلام وتزوجها بعد أن أعانها علىٰ مكاتبة ثابت بن قيس رضي الله عنه. والأسباب ـ كما أسلفنا ـ كثيرة وليس السبب الشهوة وحب الجنس. إن الرسول ﷺ لم يفعل ما يمكن أن يفعله الشهواني الغارق في لذات الجسد، مع تمكنه من السلطان والمكانة الرفيعة. لم يفعل ذلك عليه الصلاة والسلام، مع أنه لم يكن صعباً عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب، وأفتن الجواري من الفرس والروم، ولم يكن عليه عسيراً أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة، وقد خُيِّرَ أن يكون ملكاً رسولاً، أو أن يكون عبداً نبياً.

لقد أقام زوجات الرسول ﷺ وهن لا يجدن رَغَدَ العيش، بل لم يكن يجدن ما كان موجوداً في بيوت الكثير من رجال المسلمين، وكان

(١) سورة الأحزاب، الآيه ٣٤.

يمر الشهر والشهران والثلاثة، ولا توقد النار في بيوته ﷺ. وكان يعيش مع زوجاته على الدَّقل من التمر، وهو الرديء منه، مع الماء. الأسودان: الماء والتمر هما غذاء الرسول ﷺ وزوجاته رضي الله عنهن أجمعين، مع أن الله سبحانه وتعالى خيَّر هؤلاء النسوة بين الحياة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١).

٢ـ صحابة الرسول ﷺ :

إن أصحاب الرسول كالنجوم، بأيهم يقتدي المسلم، فإنه يهتدي، ولو أنفق المسلم مثل جبل أُحُدٍ ما بلغ مُدَّ أحدهم أو نصفه من الفضل والخير.

وفي القرن الثامن عشر نجد الأديب المستشرق وليم جونز يتحدث في أحد كتبه بإسهاب عن الإسلام، ففي كتاب له بعنوان «الذكرى الرابعة: نصوص عن العرب» نجد هذا الكاتب يتحدث عن أحد أصحاب الرسول ﷺ وثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيقول هذا المؤلف: إن عمر بن الخطاب ومن تبعه من الخلفاء يمكن أن يطلق عليهم بابوات آسيا، ومنهم بنو أمية وبنو العباس.

ومن روايات العصر الفكتوري التي تحدثت عن الإسلام وأصحاب الرسول ﷺ: رواية «تانكرد» لمؤلفها اليهودي بنيامين دزرائيلي، وفيها

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٨ ـ ٢٩.

اختار اسم الأنصار لإحدىٰ الطوائف المسلمة في لبنان ، وقال ـ وهو يعلم أن الأنصار هم أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ـ: إن الأنصار هم من الذين يخلطون في طقوسهم الدينية بين تعاليم الإسلام وعبادة الطبيعة ، ولعل المؤلف اختار اسم الأنصار بقصد الإساءة إلىٰ الأوس والخزرج ، أولئك الصحب الكرام الذين ناصروا الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، وتركوا مواقف عالية من الفداء والحكمة ، خصوصاً ضد اليهود ، كما في القصة المشهورة في موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وحكمه في بني قريظة .

٣ ـ الوصف العام للمسلمين :

إن المسلم كان يوصف في الأدب الإنجليزي بمثل ما عرف به في العلوم الغربية الأخرىٰ : التاريخ وعلم الأديان والجغرافيا . . إلخ ، فهناك ألفاظ بعينها إذا وردت في كتب الغربيين عن المسلمين ، فإنها تعني المسلم أو المسلمين ، من ذلك كله كلمة : Sarrasyns أو Sarazin ومنها أيضاً : كلمة المحمديين والأتراك ، وكلمة الأسمر ، أو المغربي ، وتكتب بالإنجليزية The Moor ، فكما تعرَّض الرسول عليه الصلاة والسلام وزوجاته وصحابته رضوان الله عليهم أجمعين للهجمات الشرسة من أقلام كُتَّاب الأدب الإنجليزي ، فإن بعض خلفاء المسلمين الأبطال الذين يشهد لهم التاريخ بكل خير ، كانوا محل الازدراء والسخرية في الأدب الإنجليزي ، فلقد كتب الأديب المستشرق إدوارد ابهام حكاية بعنوان : «كارمث : حكاية عربية» ، وفيها تناول المؤلف الحديث عن الخليفة العباسي هارون الرشيد ، فغمز الإسلام في شخص هذا الخليفة العربي المسلم ؛ إذ يقول : إن النبي

محمداً ﷺ أخبر العرب برسالته التي جاء بها عندما وجد أن العرب لديهم القوة والشجاعة، فاجتمعت كلمتهم، فهم يحملون القرآن في يد والسيف في اليد الأخرىٰ، وهذا دَيْدَنُ خلفاء هذا الرسول، ومنهم هارون الرشيد، الذي كان متسلطاً علىٰ الناس، وهو مشهر سيفه علىٰ رقاب الناس، وأن كارمث الساحر كان يسعىٰ لقتل هذا الحاكم الطاغية، ويخلص الناس من شره وشر الإسلام.

وفي العصر الرومانسي أيضاً كتب هنري ميلز مسرحية بعنوان «البرمكي أو مأساة النَّشْء»، وهي مستوحاة من التاريخ الإسلامي، ووقعة البرامكة مع هارون الرشيد، الذي انتهىٰ فيها المؤلف بالقول بأن هارون الرشيد حاكم ظالم، متجبر، يحب سفك الدماء وقتل الأبرياء، كما فعل بالبرامكة.

والأديب الرومانسي توماس ديدن كتب مسرحية بعنوان «البندقاني أو سارق الخليفة»، وفيها يصور الكاتب هارون الرشيد في ملابس رثة، يخرج فيها ليلاً متنكراً؛ ليكسب عطف الفقراء بما يتصدق عليهم، ويعجبه تصرف هارون الرشيد هذا، ويقول: إن هذا مناسب في الإسلام، وينتهي للقول بضرورة تعايش الأديان، أو القضاء علىٰ الإسلام إذا رفض المسلمون ذلك.

والشاعر الراهب القديس جورج كراب كتب في العصر الرومانسي قصيدة بعنوان «الواثق»، تحدث فيها عن هارون الرشيد، وأنه رجل يحب الشهوة والملذات، وأنه كثير المعاصي والذنوب، ولذا كان من سياسته أنه

لا يؤاخذ العصاة والذين يشربون الخمر أو يزنون؛ لأنه هو مذنب وزنديق.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن كتب المؤلف جيمس فليكر مسرحية بعنوان (حسن)، صور فيها هارون الرشيد بصورة الفاجر الفاسق الماجن، كتلك الصورة التي ألصقت بهذا الخليفة المسلم من خلال حكايات «ألف ليلة وليلة»، التي أشرنا إليها فيما تقدم بأنه عمل أدبي لا يمت إلىٰ الإسلام، أو الأدب الإسلامي، من قريب أو بعيد.

وكما تعرض هارون الرشيد إلىٰ هذه الإساءات، فبالمثل أُهين ذلك المسلم والقائد الملهم صلاح الدين الأيوبي، وأظهرُ مثال لذلك كتابات السير ولتر سكوت في مجموعة رواياته عن الحملة الصليبية الثالثة. ومن هذه الروايات رواية «الطلسم»، ورواية «المخطوبة»، ورواية «إيفانهو» ورواية «بنت الجراح» أو «ابنة الطبيب الجراح». إذ وجه سكوت رواياته هذه وجهة صليبية مسيحية، حيث وصف النصارىٰ وقائدهم الملك ريتشارد قلب الأسد بأحسن وأنبل الأوصاف، وذهب ليصف صلاح الدين والمسلمين بأسوأ الأوصاف، حيث يقول: إن صلاح الدين صَلَف جِلْفٌ، يتسم بالجبروت والطغيان، وإن قوة هذا القائد المسلم يشُوبها السوء وكل الخطأ؛ لأنه اعتنق الدين الإسلامي وهو كردي، وهو يعتمد في تصيرفاته علىٰ التمائم والتعاويذ والتِّول.

وكُتّاب الأدب الإنجليزي ـ كما اتضح من خلال قراءة الفصول المختلفة لهذا الكتاب ـ يصفون المسلمين بأنهم أوغاد وأنذال ووحوش

وبرابرة وسفاحون، وانتهى قائلهم الكاتب جون جوّر John Gower إلى القول في قصيدة له بعنوان Confessio Amantis بأنه يباح قتل المسلم، ويجوز استحلال دمه.

وما قاله الأدباء الإنجليز عن المسلمين إنما يقوم على ما قاله من سبقهم من قساوسة ورهبان في هذا الشأن، كما يشير الكونت دي كاستري. وأما المسلمون فمن أسمائهم في تلك الكتب: البليدون والكسالى والحمير والحُمُر الوحشية والمقوتون، الذين يملأون المنزل بالنساء في الليل، ويطلقونهن في النهار.

ولو أردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب، فعليك بكتاب ألّفه أحد اليسوعيين، وهو (بروشار)، وسماه مرشد السياحة، وقدمه إلى الأمير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢م، وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوة إلى حرب صليبية، فقال: (من ذا الذي لايذرف عبرات الدمع عندما يعلم أي الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع التي هي ميراثنا، أولئك قوم لا ربَّ لهم ولا دين يهديهم، ولا شرع يرجعون إليه، ولا عهد ولا حنان، أولئك قوم أخِسَّاء أدنياء، وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود، وكل صفاء، وكل خير، وكل عدل، أولئك هم أعداء الصليب، الكافرون بالله، المضطهدون للمسيحيين، المفرطون في نسائهم، الفاسقون بالأطفال، الظالمون لعجم الحيوانات، المخالفون لطبائع البشر، القتالون للفضائل، المميتون للأخلاق، الغارقون في القبائح والخطايا، أولئك هم أولياء الشيطان، وأنصار الدنايا، ذوو حقد وبغض، ذوو

أفكار سافلة، وأعمال سخيفة، وعيشة دنيئة، وأقوال بذيئة، وعشرة سوء معدية، لا تنصرف إرادتهم، ولا تتجه هممهم إلا إلىٰ اللذائذ البهيمية، والمعيشة الهمجية، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع، وآذونا في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها، مستهزئين بنا وساخرين بديننا، أولئك هم الذين خربوا بيت الله، وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا، ولوّثوا أماكنها المقدسة المطهرة).

ولم تزل هذه الروح سائدة عند المسيحيين، حتىٰ إن المستشرق (بريدو)، الإنكليزي ألف سنة ١٧٣٣م كتاباً في سيرة النبيﷺ عنوانه: (حياة ذي البدع محمد)، وترجمه بعضهم إلىٰ لغتنا، وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف، فقال: (إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم، بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد)، أولئك كُتّاب ما قصدوا التاريخ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم، كما يقولون. وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً، وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا.

وأراد (داماسين) أن يخالفهم في التأليف، لكونه تربّىٰ في دمشق الشام، وكان مقرباً عند الخلفاء، فجعل يرد مذهب الإسلام من غير تعصب، لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (أريوس)، ومع ذلك، فلم تؤثر عبارته في رأي الغربيين، بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه، وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائماً في تأييدها وتمكينها من الأذهان، وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزأون بالدين

الإسلامي، وأغنت البابوات عن حربه حرباً صحيحاً، فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أخرىٰ؛ لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين، هما: أحزاب النفس الواحدة في جسدين، وأحزاب النفس في جسم واحد»[١].

سادساً ـ الحروب الصليبية والتبشير :

تقدم الحديث في الباب الأول من هذا الكتاب عن الحروب الصليبية، واعتبارها مصدراً من المصادر التي زودت الأدب الإنجليزي وكتابه بكثير من الأفكار والآراء المشوهة والخاطئة عن الإسلام. وأن الهزيمة التي لحقت النصارىٰ في تلك الحروب جعلت في نفوسهم أثراً لا يكاد ينسىٰ، حتىٰ إن كلمة (جهاد) لتفزع الغربيين، وتقض مضاجعهم أكثر مما تثيره كلمة الزحف الصليبي أو الحروب الصليبية في نفوس المسلمين.

لهذا كله تجد الأدباء الذين يتناولون موضوع الحملات الصليبية عادة يركزون في حديثهم علىٰ الحملة الصليبية الثالثة، التي جُمعت لها الأموال، وجُنِّدَ لها الجنود، كما أسلفنا في الباب الأول. ومحور الحديث في هذه الحملة الملك ريتشارد قلب الأسد، وتعطي له صور البطولة والشجاعة والبسالة في القتال، كما أن هذا الملك يصوَّرُ علىٰ أنه مثال الحكمة والفطنة والحنكة في سياسته وتدبيره. ويمتد وصف البطولات وقوة البأس ورباطة الجأش ليشمل فرسان النصارىٰ، ومقدرتهم في

(١) الكونت هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص ١٢ ـ ١٣.

المنازلات والقتال في ساحة المعركة. وعلىٰ العكس من ذلك، فإن الأدباء يصورون المسلمين وقادتهم وحكامهم بأسوأ الأوصاف، فهم جبناء أذلاَّء، فيهم خَوَرٌ وخنوع، لا مقدرة لهم علىٰ المحاربة والقتال. وهذه الأوصاف والصور السلبية عن المسلمين تنطوي عليها وصف سلاطين المسلمين، وأنهم أجلاف لا يعرفون إلىٰ الحكمة سبيلاً، وأنهم يحبون سفك الدماء وقتل الأبرياء.

هذا الاتجاه في كتابات الأدباء ما هو إلا اختلاق من صنع الخيال، وافتراء علىٰ حقائق التاريخ، فمن كان المنتصر في موقعة حطين؟ومن هو صاحب الكياسة إبَّان الحملة الصليبية الثالثة: المسلمون وقوادهم أم النصارىٰ وملوكهم؟ يكفي القارئ الحصيف أن يقرأ الأفكار الموضوعية لكُتَّاب التاريخ من الغربيين علىٰ قلتهم(١).

ومن المعلوم أن هذه الصور الخاصة بالحروب الصليبية في تاريخ الأدب الإنجليزي كثيرة، سبق أن عرضنا إلىٰ كثير منها في هذا البحث، ويستطيع القارئ أن يستبين ذلك من قراءة الفصل الخاص بالحروب الصليبية، بصفتها رافداً من روافد الكتابة عن الإسلام في الأدب الإنجليزي، ويمثل فكر أدب الحروب الصليبية الكاتب الأسكتلندي السير ولتر سكوت، الذي تحدثنا عن أعماله ضمن أدباء العصر الرومانسي في هذا الكتاب.

أما التبشير، فهو الحرب الدينية التي يشنها أعداء الإسلام بقصد صد

(١) اقرأ لذلك كتاب كل من: Stanley Lane-Pool, Saladin and the Fall oKingdom of Jerusalem. Francesco Gabrieli, Arab Historians of the Crusades.

الناس عن الإسلام لتنصيرهم وإدخالهم المسيحية، وهذا متأكد في كتاب الله العزيز، وفي محكم التنزيل، يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ (١) .

وجاء التبشير كحركة فكرية لمحاربة المسلمين بعد أن فشل النصارىٰ في الحروب الصليبية. والهدف الرئيس للتبشير يتركز في الدراسة المستمرة في أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين.

وما نشر من أباطيل وشُبَهٍ ومفتريات عن الإسلام، مما لا يمكن حصره يقوم علىٰ عكس الحقائق عكساً تاماً؛ فالدين الإسلامي دين التوحيد الخالص، لكن المبشرين يقولون بأنه دين عبادة الأوثان، وهذا ما دأب عليه كُتَّاب الأدب الإنجليزي، إذ نلاحظ أن صموئيل كوليبردج الشاعر الرومانسي المشهور كتب قصيدة بعنوان «محمد»، قال فيها: إن الإسلام عقوبة من الرب علىٰ النصارىٰ الذين تقاعسوا عن التبشير بدينهم في الشرق، الذي ظهر منه الإسلام، وأتاحوا الفرصة ليقوم دين الإسلام ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام. فالدعوة إلىٰ التبشير واضحة في هذه القصيدة.

والشاعر الرومانسي اللورد بايرون في المنظومة المسرحية بعنوان «دون جون» Don Jaun يتحدث عن حروب دون جون مع المسلمين، وكيف أنه أسر فتاة مسلمة بقصد إنقاذها من أضاليل الشريعة الإسلامية وسيئات

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

الإسلام، ودعوتها للمسيحية دين النصارىٰ، وتبشيرها بصدق هذا الدين، فأكرمها وأحسن إليها، وأخذها إلىٰ كنيسة كانتربري في بريطانيا، حيث ظنت تلك الفتاة أنها في أحد المساجد، مما جعلها تشعر بحزن وأسف وتقول: إن محمداً يجب أن يخذل. والشاعر أراد بهذا أن ترفع يديها بالدعاء بكل يثبت بطلان الإسلام وسرعة ترك المسلمين له؛ لأنه أراد بهذا أن لأنه ليس دين حق.

إن قصيدة «ثورة الإسلام» للشاعر الرومانسي شيلي يدعو فيها إلىٰ تحرير القسطنطينية من أيدي الأتراك المسلمين، ثم يعبر الشاعر عن فكره القائم علىٰ بغض الإسلام، فيقول معتقداً: إن هزيمة تركيا والمسلمين تعني سقوط الإسلام ونهوض النصرانية، نظراً لضعف الإسلام وقوة النصرانية، التي لو قويت شوكة التبشير بها، لانتشرت في جميع أصقاع الأرض. ثم دلَّلَ علىٰ ضعف الإسلام في إحدىٰ الصور التي قدم فيها حواراً بين عيسىٰ عليه السلام، وبين الرسول محمد ﷺ وبين الشيطان، وفيها يظهر النبي محمد عليه الصلاة والسلام في موقف الضعف والهوان، وهو يدعو ربه أن يظهر دين الإسلام ونور الإسلام.

ويستطرد الشاعر، فيقول بضرورة ثورة نصارىٰ لبنان لإجهاض الخلافة الإسلامية في تركيا ودمشق وحمص وحلب، حتىٰ المدينة المنورة، وإثارة نصارىٰ مصر وحرق القرآن، ونشر المسيحية في تلك الأصقاع.

والشاعر الرومانسي ريتشار بارهام في كتاب له بعنوان من «القصص

الخرافية»، كتب قصيدة بعنوان «أسطورة فلسطين»، يتحدث مشيداً بالملك ريتشارد قلب الأسد، الذي ألهب بمساعدة البابا الحِسَّ المسيحي، الذي يجب ألا ينتهي، ويجب أن يستمر في الدعوة إلى المسيحية والقضاء على الإسلام والمسلمين.

والأمثلة للدعوة إلى التبشير بالمسيحية كثيرة في الأدب الإنجليزي بقصد محاربة المسلمين والإسلام.

الخاتمة

الخاتمة

إن الانتقادات والمآخذ التي كانت توجه للإسلام في السابق منذ ظهور الرسول ﷺ وحتى الآن لم تتغير، بالرغم من أن بعض من عني بدراسة الفكر الإسلامي من الغربيين حاولوا التحرر من ترديد شبهات ومفتريات من سبقوهم، ولكنهم رددوها بأثواب عصرية، ظانّين أنهم ارتفعوا بكتاباتهم عما فعله أسلافهم. وإن الباحث المتميز بالحيادية العلمية أو الموضوعية ليعجب كثيراً من المفكرين الغربيين المعنيين بدراسة الإسلام، فهم لا يتعاطفون معه، ـ وفي الأقل ـ لا يعاملونه برفق أو تجرد. والباحثون من هذه الكثرة موضوعيون إذا لم يكن بحثهم في الإسلام، ومتجردون من كل هوى وتحيز وعصبية إذا كتبوا في غير تراث الإسلام.

ونجمل القول بأن جملة من كتب عن الإسلام في الأدب الإنجليزي لا يخرج من كونه أحد الأصناف الآتية من الكتاب والأدباء:

١ ـ أن يكون قسيساً راهباً معاديا للإسلام، لاعتماده على ما حرَّفت به اليهود الأناجيل، وما دَسَّتْه فيها من المفتريات والأباطيل عن الإسلام، فكان هؤلاء حرباً على الإسلام والمسلمين، ولن يرضوا عن الإسلام وعن المسلمين حتى تُتبع ملتهم.

٢ ـ أن يكون مبشراً من المبشرين الذين يريدون أن يروجوا لدينهم الباطل، ويذهبوا بدين الإسلام إلى غير رجعة، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، فهم في خدمة الكنيسة.

٣ـ أن يكون صليبياً مستعمراً، ملأ قلبَه الحقدُ والحسدُ علىٰ ما في الدول الإسلامية من نعمة الدين الصحيح وخيرات رب العالمين، من موارد طبيعية، ونعم كثيرة، فشغله الباطلُ، واستحوذ علىٰ قلبه الغيظُ والحسدُ، فدعا إلىٰ محاربة المسلمين، واستعمار بلادهم.

٤ ـ أن يكون من المستشرقين الذين يعملون في السلك الدبلوماسي، ويعملون لصالح دولهم، لتسهيل مهمة الاستعمار، وتحديد سياسات الدول الإسلامية، وإخراجها من دائرة الإسلام إلىٰ دائرة الكفر والعلمانية ، وإلىٰ الماديات والباطل.

٥ ـ وهناك صنف من الأدباء الإنجليز، وهم من اليهود، الذين يعملون لخدمة اليهودية ومصالحها، واستخدام النصارىٰ ضد المسلمين. وإن لم يكن هؤلاء اليهود من الأدباء كثيراً، لكن لديهم من يؤيدهم من المتعاطفين معهم، والذين جعلوا أنفسهم في خدمة الصهيونية واليهود.

ولننظر إلىٰ حقيقة أعداء الاسلام من خلال الآيات الكريمات الآتية :

قال تعالىٰ : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (١) .

وقوله جل وعلا : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢) .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٠٩ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٧ .

ولكن اعتقادنا هو قوله جل جلاله: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٣].

هذا جهد مُقلٍّ، كشفنا به الغمام، وأمطنا به اللثام عن جملة من الحقائق فيما كُتِبَ من ضلال وافتراء عن الإسلام والمسلمين في الأدب الأنجليزي؛ لنسهم بعملنا هذا في الدعوة إلىٰ دين الله القويم، وصراطه المستقيم، ولندافع باللسان والجنان عن هذا الدين، وعن رسوله الأمين ﷺ، وعن صحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين، وكتاب الله العزيز، والسنة النبوية المطهرة، ونسأل الله العفو والمغفرة والرضا والقبول، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(١) سورة آل عمران، الآية ٨٥.

المصادر والمراجع

أهم المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية .

- **القرآن الكريم**

- صحيح البخاري

- صحيح مسلم

- كتب السنن (أبو داود، الترمذي، النسائي، ابن ماجه)

- سيرة ابن هشام

- دلائل النبوة للإمام البيهقي

- أحمد، إبراهيم خليل «الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية» مكتب الوعي العربي ، القاهرة ١٩٧٣ م.

- أسد، محمد «الإسلام على مفترق الطرق» ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٤ م.

- آل الشيخ، عبد الرحمن بن حسن، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، دار القلم ، بيروت، ١٤٠٥هـ.

- الأنصاري، حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٤م.

- بـارت، رودي «الـدراسـات الـعـربـيـة والإسـلامـيـة في الجـامـعـات الألمـانـيـة» تـرجـمـة مـصـطـفـىٰ مـاهـر، دار الـكـاتـب الـعـربي لـلـطـبـاعـة والنشر، القاهرة ١٩٦٧ م.

- برانـانـتيس، آي بي «فضـح الـتـلـمـود تعـالـيـم الحـاخـامـيـن الـسـريـة» ترجمة زهدي الفاتح، دار النفائس، بيروت ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.

- بوكاي، موريس «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ م.

- البهي، محمد «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٥ م.

- التل، عبد الله «خطر اليهودية العالمية علىٰ الإسلام والمسيحية» المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩ هـ.

- جرجس، صبري «التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي» عالم الكتب، بيروت، ١٩٧٠ م.

- جريشة، علي، ومحمد شريف الزيبق، «أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي»، دار الاعتصام، بيروت ١٩٧٧ م.

- جمال، أحمد محمد، «مفتريات علىٰ الإسلام» رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

- الجندي، أنور «شبهات التخريب في غزو الفكر الإسلامي» المكتب

الإسلامي، بيروت ، ١٩٧٨ م.

ـ الجندي ، أنور «معالم التاريخ الإسلامي المعاصر من خلال ثلاثمائة وثيقة سياسية ظهرت خلال القرن الرابع عشر الهجري» دار الاعتصام ، القاهرة ١٩٨١م.

ـ الحجي، عبد الرحمن علي «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتىٰ سقوط غرناطة»، دار العلم، بيروت ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م.

ـ حسين، محمد محمد «حصوننا مهددة من داخلها» ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٧ م.

ـ حسين، محمد محمد «الإسلام والحضارة الغربية» ، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩ م.

ـ حمادة ، محمد ماهر «وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

ـ حمدان، نذير «الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين» رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠١ هـ.

ـ الحوالي، سفر عبد الرحمن «العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة» ، جامعة أم القرىٰ، مكة المكرمة، ١٤٠٢ هـ.

ـ ديب ، سهيل (مترجم) «التوراة تاريخها وغاياتها» دار النفائس، بيروت، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

- روهلج ، ج : «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ترجمة يوسف حنا نصرانه، بيروت ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.

- زهير ، كعب، ديوان كعب بن زهير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م.

- سنقرط . داود عبد العفو «القوىٰ الخفية لليهودية العالمية الماسونية»، دار الفرقان، عمان ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

- سنقرط ، داود عبد العفو «جذور الفكر اليهوي»، دار الفرقان، عمان ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

- شلبي ، عبد الجليل «الإسلام والمستشرقون»، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٧م.

- صبري ، محمد (مترجم) «التلمود شريعة بني إسرائيل، حقائق ووقائع دار الهلال، القاهرة ، ب ت.

- طبارة ، عفيف «اليهود في القرآن»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م.

- عبد الحميد، عرفان «المستشرقون والإسلام» المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣ م.

- عبد الوهاب، أحمد «إسرائيل حرفت الأناجيل والأسفار المقدسة»، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٢ م.

- العقاد ، عباس محمود «التعريف بشكسبير» ، دار المعارف،

القاهرة ، ١٩٥٨ م.

- العقاد ، عباس محمود « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م.

- العقيقي، نجيب «المستشرقون» ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٦م.

- العقيقي، نجيب «من الأدب المقارن» ، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٦م.

- عليان، محمد عبد الفتاح «أضواء على الاستشراق»، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٨٠ م.

- غاي كاري، وليم «أحجار على رقعة الشطرنج» ، ترجمة سعيد جزائرلي، دار النفائس، بيروت ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

- الغزالي، محمد «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٥ م.

- فاغليري ، لورا فيشيا «دفاع عن الإسلام» ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٦٣ م.

- فروخ ، عمر وزميله «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» ، شركة علاء الدين للطباعة والتجليد، بيروت ، ١٩٧٠ م.

- فورد ، هنري «اليهودي العالمي : المشكلة التي تواجه العالم» ، ترجمة خيري حماد ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.

ـ قطب، سيد «في ظلال القرآن»، دار إحياء التراث، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.

ـ قطب، سيد «معركتنا مع اليهود»، دار الشروق، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

ـ قطب، محمد «واقعنا المعاصر» مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، ١٤٠٨هـ.

ـ كاستري، الكونت هنري «الإسلام خواطر وسوانح»، مطبعة السعادة، القاهرة، ب. ت.

ـ ليلينثال الفرد «ثمن إسرائيل»، ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري، كتاب الملايين، بيروت، ١٩٥٥م.

ـ لوبون، غستاف «اليهود في تاريخ الحضارات الأولى»، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٥٠م.

ـ محمود، عبد الحليم «أوربا والإسلام»، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة، ١٩٧٣م.

ـ محمود، عبد المنصف «اليهود والجريمة»، المجلس العلمي للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٧هـ.

ـ محمود، مصطفى «التوراة»، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢م.

ـ المطوي، محمد العمروسي «الحروب الصليبية في المشرق والمغرب»، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

- الهرفي، محمد علي «شعر الجهاد في الحرب الصليبية في بلاد الشام» ، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٩ هـ.

- هلال، محمد غنيمي «الأدب المقارن، دار نهضة مصر، القاهرة. ط ٣، ١٩٧٣م.

- وزان، عدنان محمد «مطالعات في الأدب المقارن» ، جامعة أم القرىٰ مكة المكرمة، ١٤٠٣ هـ .

- وزان ، عدنان محمد «الاستشراق والمستشرقون: وجهة نظر» رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

- وزان، عدنان محمد «اليهود في مسرحيات شكسبير وباكثير» ، الدار السعودية للنشر، جدة ، ١٤١٠ هـ.

- ولفنسون، إسرائيل «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» ، مطبعة الاعتماد، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ.

- نخبة من العلماء المسلمين «الإسلام والمستشرقون» عالم المعرفة جدة، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

ثانياً : باللغات الأجنبية.

- Adams, Barry B(ed.) , Kinh John, Huntington, London & Son Marino, Colifornia, 1969.
- Addison, Joseph. The Works of Joseph Addison. 3vols. New York, 1864.
- Addison, Lancelot. The Life and Death of Mahumed,the Author of the Turkish Religion, London, 1679.
- Alcock, Nathan. The rise of Mahomet, Accounted for on Natural and Civil Principles. ed. Thomas Alcock. London, 1796.
- Alexander, Prter, (ed.), the Complete Works of William Shakcespeare Collin, London, 1971 .
- Ali Bey (Badia y Leblich) , The Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria, and Turkey, between theYears1803 and 1807. 2. vol. London, 1816.
- Allison, Alexander W(ed.) the Norton Anthology of Poety, London, 2New York, 1975 .
- Allott, Kenneth, The Poems of Matthew Arnold, Longman, London, 1965 Andrae, Tor. Mohammed: the Man and His Faith. Tr. Theophil Menzel. New York, 1936.
- The Arabian Nights' Entertainment, or The Thousand and One Nights. Tr. Edward Lane. New York, 1927.

- Arber, Edward, ed. An English Garner. 8vols. Birmingham, 1877-90.

- Arnold , Matthew ,God and the Bible , the University of Michigan , Ann Arbor,1970

- Arnold, Thomas Walker and Alfred Guillaume, (eds.) The Legacy of Islam. Oxford, 1931.

- Asin Palacios, Miguel. Islam and the Divine Comedy. Tr. Harold Sunderland, London 1927 .

- Auden , W. H , G.K . Chesterton : A Selection from his non - fictional Prose, 1970, Faber and Faber, London, 1970

- Bacon, Francis. Essays. ed. F.F.G. Selby. London, 1893.

- Bage, Robert. The Fair Syrian ; a novel. Dublin, 1787.

- Baird, John D. (ed.) The Poems of Willam Cowper,the Clarendon press, Oxford, 1980 .

- Baker, E.A. , A Guide to the Best Fiction, London,1968

- Bale, John, King Johan. J.H.P. Pafford. London, 1931.

---------- Select Works of John Bale. ed. Henry Christmas. Cambridge, 1849 Bardbrook, M.C. , Shakespeare the Craftsman, Chattu &Windus, London, 1969.

- Barham, Richard H. The Inglodsby Legends, by Thomas Ingoldsby (pseud). J.M. Dent Co, London, 1898.

- Barrow, Isaac,The Works of Isaac B- Bayle Peter, The Dictionary Historical and Critical of Mr . Peter Bayle, 2nd,

- Bayle Peter, The Dictionary Historical and Critical of Mr . Peter Bayle, 2nd, ed, " Mr. Des Maizeaux." 5 vols. London, 1734-38.

- Bayne, Peter. The Christian Life, Social and Individual. Boston,1855.

- Beckford, William. The Episodes of Vathek. Tr.Sir Frank T. Marzials. London, 1912.

----------, The History of the CaliphVathek. London, 1873.

----------, Vathek: The English Traslation by Samuel Henley (1783), Lausanne and Paris Editions (1784). Rpt. 3 vols. in 1. Delmar, N.Y.,Schoolers' Facsimiles & Reprints, 1972.

- Behn, Mrs. Aphra. Abdelazar, or The Moor's Revenge. London, 1677.

- Bell's British Theatre. 34 vols. London, 1791-97.

- Belloc A., This and That and The other, Methuen & coltd, London, 1912.

---------- Sonnetts and Verse, London, 1954 .

- Bennett, Joan, George Eliot Her Mind and Her Art, Cambridge, University, Press, 1954.

- Berhen, H0 (ed.) Lydgate's Fall of Princes, London, n.d.

- Bickerstaffe, Isaac. The Sultan; or, A Peep into the Seraglio (A comedy in two acts). ed. E.S. Inchbald.(A collection of farces and other afterpieces, vol.3). London, 1807.

- Blanckley, Mrs. Henry. Six Years Residence in Algiers. ed. Mrs. Elizabeth Broughton. London, 1839.

- Blanch, Rebort J, Style and Symbolism in Piers Plowman, The University of Tennessee Press Knoxville , 1960 .

- Bolingbroke, Henry St. John, Viscount. Letters on the Study and Use of History 2 vols. London, 1752.

- Boswell, James. The Life of Dr. Johnson. 2 vols. London, n.d.

- Boulainvilliers, Henri, Comte de. The Life of Mohamet. London, 1731.

- Bowers, Fredson (ed.) the Complete Works of Christoper Marlowe, Caumbridge University Press, 1981 .

- Boyle, Roger, earl of Orrey. The Dramatic Works of Roger Boyle, Earl of Orrey.

--------------- , Ibrahin the Illustrious Bassa, London, 1694.

- Brandon, Isaac. Kais: or Love in the Desert. London, 1808..

- Brooke, Arthur de Capell. Sketch in Spain and Morocco. 2 vols. London,1831.

- Brook, Henry, A Collection of pieces, plays and poems, London, 1778.

---------------. The Poetical Works of Henry Brooke; 4 vols. Dublin, 1792.

- Browning, Robert, Poems of Robert Browning, James R.Osbood & co, Bostn, 1871

- Brown, Ivor, Shakespeare, Collin, Londo, 1964.

- Brown, John, Barbarossa, J. Rtonson, London, 1875.

- Browne,William G., Travels in Africa, Egypt and Syria ; From the Year 1792 to 1798. London, 1799.

- Bruce, James. Travels to Discover the Source of the Nile, 5 vols. Dublin, 1790-91.

- Bryant, William Cullen. Poems. London, 1914.

- Buchan, John, A Prince of Captivity, Hodder and Stoughton, London, 1941 ----------, Greenmentle, Nelson, London, 1922.

- Buckingham, James Silk, Travels Among the Arab Tribes Inhabiting the Countries East of Syria and Palestine. London, 1825.

---------, Travels in Assyria, Media and persia. London, 1830.

----------, Travels in Mesopotamia. 2vols. London, 1827.

----------, Travels in Palaestine, through the Countries of Bashan and Gilead. London, 1821.

- Bullinger, Henry (Heinrich). A Hundred Sermons upon the Apocalips of Jesu Christe. Tr. John Daus. London, 1561.

- Bunyan, John. The Poetical Works of John Bunyan, ed.

Alexander Philips, 6 vols. Aberdeen, 1841.

---------, The Poetical works, Ball, Arnold & co, London 1871

- Burckhardt, John Lewis, Travels in Arabia. London, 1829.

---------, Travels in Syria and the Holy Land. London, 1822.

- Burgess, John Wilson, English Literature, Longman, London, 1970.

- Burgoyne, John. Richard Coeur de Lion. London, 1786

- Burke, Edmund, The Works of Edmund Burke. 3 Vols. New York, 1860.

- Burns, Robert, The Poems and Songs of Robert Burns. London, 1906.

- Burton, R.F., Personal Narrative of Pilgrimage to Al-Madina and Meccah, Dover Publication, New York, 1964.

- Bush, George, The Life of Mohammed, Founder of the Religion of Islam and of the Empire of the Saracens. New York, 1844.

- Bushrui, S.B, Yeats, Intrest, Yeats, Centenary, London, 1965.

- Butler, Samuel, Hudibras. ed. T.R.Nash. New York, 1847.

- Byron, George Gordon Lord, Letters and Journals of Lord Byron. ed. Thomas Moore, 2 vols. New York, 1830-31.

---------, The Poems and Plays of Lord Byron. 3 vols.

London, n.d.

----------, The Works of Lord Byron. ed. Thomas Moore. 17 vols. London, 1823-33.

- Caoursin, Guillaume, The Siege of Rhodes. London, 1483. Rpt. Delmar, N.Y., Schoolars' Facsimiles & Reprints, 1975.

- Carlyle, Jane. New Letters and Memorials of Jane Welsh Carlyle. ed. Alexander Carlyle. 2 vols. London, 1903.

- Carlyle, Joseph Dacre, Poems Suggested Chiefly by Scenes in Asia Minor, Syria and Greece, London, 1805.

- Carlyle, Thomas. The Correspondence of Thomas Carlyle and Ralph Waldo Emerson, rev ed. 2 vols. Boston, 1866 .

----------, Letters of Thomas Carlyle to his Youngest Sister. ed. C.T. Copeland. London, 1899.

----------, New Letters of Thomas Carlyle. ed. Alexander Carlyle. 2 vols. London, 1904 .

----------, On Heroes, Hero-Worship,and the Heroic in History. ed. Archibald Mac Mechan. Boston, 1901.

----------, Sartor Resartus; the Life and Opinions of her Teufelsdrockh. Boston, 1884.

- Carne, Sir John, Letters from the East. London, 1826.

- Cawley, A.C., Every Man Medieval Miracle Plays, J.M. Dent & Son ltd, London 19

- Celesia, Dorothea, Almida.Atragedy,T. Becket & Co, London, 1771.

- Chalmers, Alexander, The Works of the English Poets From Chaucer to Cowper, ed. Dr. Samuel Johnson. 21 vols. London, 1810.

- Chapman, R.W.(ed.) Boswell Life of Johnson, Oxfard University Press, London , 1970.

- Chardin, John, Sir John Chardin's Travels in Persia:a reprint of the edition of 1720. London, 1927.

- Chateaubriand, Francois A.R., vicomet de.Travels in Greece, Palestine,Egypt and Barbary, during the Years 1806 and 1807. Tr.F. Shorbel. New York, 1814.

- Chaucer, Geoffrey, The Student's Chaucer. ed.W.W. Skeat. New York, 1894.

- Chauvin, Victor, Bibliographie des Owrages Arabes ou Relatifs aux Arabes, Publies dans l'Europe Chretienne de 1810 a 1885. 12 vols. Liege, 1892 - 1905.

- Chavis, Dom and M. Cazotte. Arabian Tales; being a Continuation of the Arabian Nights Entertainment. Tr. Robert Heron. 4 vols. Edinburgh, 1792.

- Chesterton, G.K A Miscellany of Men, Metheun & Co. Ltd, London,1920

--------------- The Collected Poems,Methuen & co. ltd,

London . 1939

- Chew, Samuel C, The Crescent and the Rose; Islam and England During the Renaissance. New York, 1937.

- Clarke, Edward Daniel, Travels in Various Countries of Europe, Asia and Africa. 6 vols. Cambridge, 1810 - 24.

- Coghill, Nevill. The Poet Chaucer, Oxford University Press,London, 1967.

- Coleridge,Ernest H,The Complete Poetical Works of S.T. Coleridge, Oxford, New York, 1884 .

- Coleridge, Samuel Taylor. The Complete Works Of Samuel Taylor Coleridge.

- Collins, William. The Poems of William Collins. ed. Edmund Blunden. London, 1929.

- Conant, Martha Pike. The Oriental Tale in England in The Eighteenth Century. New York, 1908.

- Congreve, William. Complete Plays. ed. Alexander Charles Ewald. London, 1888.

- Conrad, Joseph, Lord Jim, Dent Collected Edition London, 1947.

----------, Joseph, Recue, Dent Collected Edition London, 1947.

----------, Joseph, Almayer's Folly, Dent Collected Edition London. 1947.

- Cornwall, Barry (Bryan Procter), The Poetical Works Of Milman, Bowels, Wilson, and Barry Cornwall. Paris, 1829.

- Cowley, Abraham. Poems, a reprint of the 1668 edition. ed. A.R. Waller. Cambridge, 1905.

- Cowley, Hannah, A Day in Turkey; or, The Russian Slaves. London, 1792.

- Cowper, William, The Poetical Works of William Cowper. ed. W. Benham. London, 1879.

- Crabbe, George. The Life and Poetical Works of the Rev. George Crabbe. ed. by his son. London, 1847.

- Dallaway, James, Constantinople, Ancient and Modern. London, 1797.

- Danniel, Noeman, Islam and the West, London, 1960.

- Davenant, William, The Dramatic Works of Sir William D'Avenant. 5vols. Edinburgh, 1872 - 74.

- Dawson, George, Biographical Lectures. ed. George St. Clair. London, 1887.

- Defoe, Daniel, The Life and Strange Adventures of Robinson Crusoe. NewYork, 1903.

-De Quincey, Thomas. Confessions of an English Opium-Eater, and Other Essays. London, 1924.

- D'Herbelot, Barthelemy. Bibliotheque Oriental. Paris 1697.

- Dibdin, Thomas, Il Bondocani; or The Caliph Robber, Longmau & Rees, London, 1901.

----------, The Ninth Statue : ar the Irishman in Bagdad , London,1814.

- Dimond, William. Abou Hassan. London, 1825.

----------, The Aethiop; or, The Child of the Desert. New York, 1813.

----------, The Seraglio. London, 1827.

-Drinkwater, John, Olton Pools, Sidgwick & Jackson Ltd. London , 1917 .

- Disaeli, Benjamin, The Wondrous Tale of Alroy Leipzig, 1846.

----------, Tancred: or The New Crusade, Henry Colburn Publisher, London 1847.

---------- , Contarini Fleming , A psychological Romance, Peter Davies, London, 1927.

- Disraeli, Isaac, The Calamities and Quarrels of Authors. ed. Benjamin Disraeli. 2 vols. New York, 1868.

----------, Mejnoun and Leila, the Arabian Petrach and Laura. New York, 1803.

- Doughty, Oswald, Rossetti's Poems, Dent, London, 1968.

- Dryden, John, The Works of John Dryden. ed.Sir Walter

Scott. Rev. George Saintsbury. 18 vols. Edinburgh, 1882-93.

- Duffet, Thomas, The Empress of Morocco: a Farce. London, 1674.

- Dunbar, William,The Poems of William Dunbar. ed.W. Machay Mackenzie. Edinburgh, 1932.

- Dunlop, J.C, History of prose Fiction, London 1888.

- Dury, Thorn, The poems of Edmund Walter, London 1893.

- Edhworth, Maria, Murad the Unlucky and Other Tales, Blackie & Son Ltd. London, 1906 .

- Edgeworth, Maria, Tales and Novels. 10 vols. London, 1874.

- Edwald Alex Charles (ed.) the plays of William Congreeve, London, n.d.

- Emerson, Ralph Waldo, Essays. First Series. Boston, 1884.

- The Encyclopedia of Islam. 3 vols. Leyden, 1913-34.

- Evans, Ifor, A short history of English Literature, Penguin, London, 1970.

- Eves, charles kenneth, Mathew Prior: Poet: and Diplomatist, Columbia University press, N.Y. 1939.

- Evlelyn, John, The Diary and Correspondence of John Evelyn, ed. William Bray. London, n.d.

- The Female Captiue, A Narrative of Facts which Happened in Barbary in the Year 1756. London, 1769.

- Fitzgerald, Edward, Letters & Literary Remains, Macmillan & Co ltd, London 1903 .

- Flecker, James Elory, Collected Prose, Heineman, London, 1922.

------------ , The king of Alsandar, Gerorge Allen & Unwin Ltd,London , 1926 .

- Forester, Charles. Mahometanism Unveiled. 2 vols. London, 1829.

- Forster, E.M., A Passage to India, Penguin, London, 1971.

- Froude, James Anthony, Thomas Carlyle, a History of His Life in London, 1834-1881. 2 vols. New York, 1884.

- Fuller, Thomas, The Holy Warre, 3rd ed. Cambridge, 1674.

- Furnival ,F.J.(ed.) the Sigby plays, English Society, London 1896 .

- Gabrieli, Francesco, Arab Historians of the Crusades, London, 1954 .

- Gagnier, Jean, De Vita, et Rebus gestis Mohammedis, moslemicae, religionis auctoris, et imperii saracenici, fundatoris. Oxford, 1723.

- Garnett, Richard, Life of Thomas Carlyle. London, 1887.

- Genest, John. Some Account of the English Stage, from the Restoration in 1660 to 1830. 10 vols. Bath, 1832.

- Gentleman, Francis, The Sultan; or, Love and Fame. London, 1770.

- Gibbon, Edward, Decline and Fall of the Roman Empire, ed. O. Smeaton. 6vols. London, n.d.

- Gilfillan, George, A Gallery of Literary Portaits. ed. W.R. Nicoll. London, 1909.

- Goethe, Johann Wolfgang von, The Autobiography of Goethe. 2 vols. London, 1884.

- Goldmith, Oliver, The Works of Oliver Goldsmith. ed. J.W.M. Gibbs, 5 vols. London, 1885.

- Goring, Charles, Irene, or, The Fair Greek. London, 1708.

- Gower, John, The Complete Works of John Gower. ed. G.C. Macaulay. 4 vols. Oxford, 1899 - 1902.

- Grattan, Thomas, Ben Nazir: the Saracen. London, 1827.

- Green, Samuel, The life of Mahomet. London, 1840.

- Gwynn, stephen, The life of Sir Walter Scott, London, 1930.

- Hamilton, Ralph, Elphi Bey; or, The Arab's Faith. New York, 1817.

- Hanway, Jonas, An Historical Account of the British Trade over the Caspian Sea. 2nd, ed. 2 vols. London, 1754.

- Harvard, William, Scanderbeg; a Tragedy. London, 1733.

- Hawkesworth, John, Almoran and Hamet; an Oriental Tale.

London, 1761.

- Harbert, Sir Thomas, Some Years Travels into Divers Parts of Asia and Afrique. London, 1638.

- Heylyn, Peter, Cosmographie in Four Books. Contayning the Chorographie and Historie of the Whole World. London, 1670.

- Higden, Ranulf, Polychronicon Ranulphi Higden Monarchi Cestrensis. ed. J.R. Lumley. 9 vols. London, 1865-86.

- Higgins, Godfrey, An Apology for the Life and Character of the Celebrated Prophet of Arabia Called Mohamed, or the Illustrious. London, 1829.

- Hill, Aaron, A Full and Just Account of the Present State of the Ottman Empire. London, 1709.

---------, The Tragedy of Zara, London, 1736.

---------, The History of the Siege of Damascus by the Sarasens. London, 1720.

- Hitti, Philip K, History of the Arabs. London, 1937.

- Hobhouse, John Cam, A Journey through Albania ... to Constantinople during the Years 1809-1810. 2 vols. Philadelphia, 1817.

- Hodges, John c, William Congreeve the Mon, Oxford University Press, London, 1941 .

- Hodson, William, Zoraida; Tragedy. London, 1780.

- Hood, Thomas, The Works of Thomas Hood . ed. by his son and daughter.. 9 vols. London, n.d.

- Hope,Thomas, Anastasius; or The Memories of a Greek, 3 vols.London, 1819.

- Houseman, A.E, Collected Poems of G.W.Russell, Macmillan, Co. Ltd, London , 1913 .

----------- , More Poems By A.E. Houseman, Jonthan Cape London, 1936.

- Hughes, John, the siege of Damscus, John walts, London , 1770 .

- Hume, David. The Philosophical Works of David Hume, 4 vols. Edinburgh, 1826.

- Hunt, Leigh. The Poetical Works of Leigh Hunt, ed. H.S. Milford. London, 1923.

- Hurst, Robert, The Fair Captive, rewritten by Mrs. Heywood, London, 1721.

- Ibn Tufayl, Abu Bakr, The Improvement of Human Reason, Exhibited in the Life of Hai Ebn Yokdhan: Written in Arabic above 500 Years Ago by Jaafar Ebn Tophail, Tr. Simon Ockley. London, 1708.

- Irwin, Eyles. The Bedouins; or Arabs of the Desert. Dublin, 1802.

----------, Eastern Eclougues. London, 1780.

----------, A Series of Adventures in the Course of a Voyage up the Red Sea... With a Supplement of a Route through the Deserts of Arabia, 3rd ed. 2 vols. London, 1787.

- Jackson, James Grey, An Account of the Empire of Morocco and the Destrict of Suse, Philadelphia, 1810.

- Jeffrey, Francis, Thalaba . Edinburgh Review, vol . 1., 1806.

- Jerone, J. Mc Gann, Lord Byron the Complete Poetical Works, Oxford, 1980

- Johnson, Charles G, Sultaness. London, 1817.

- Johnson, Samuel, The Woks of Samuel Johnson. ed. Arthur Murphy, 12vols. London, 1792.

- Jones, David, A Complete History of the Turks. London, 1701.

- Jones (Brydges) Harford, An Account of his Majesty's Mission to the Court of Persia in the Years 1807-1811. London, 1834.

- Jones, Henry F, The Note - Books of Samuel Butlers, London 1912.

- Jones, William, The Works of Sir William Jones. 6 vols. London, 1799.

- Kinglake, Alexander William, Eothen. London, n.d.

- Kipling, Rudyard, Rudyard Kipling's verse 1885-1932, Hodder and Stoughton, London, 1933 .

- Knolles, Richard, The General Historie of the Turks. London, 1603.

- Laing, David(ed.) The poems of William dunbar, Laing and Faber, Edinburgh, 1834.

- Lamartine, Alphonse de, A Pilgrimas to the Holy Land, 2 vols. New York, 1848.

- Lamb, Charles, The Essays of Elia, and The Last Essays of Elia. New York, n.d.

- Lamb, Marry Ann, Mrs, Leicester's School. New York, 1886.

- Landor, Walter Savage, The Complete Works of Walter Savage Landor, ed. T.E. Welby. 16 vols. London, 1928.

- Lane, Edward, Manners and Customs of the Modern Egyptians,London, n.d.

- Lane-Pool, Stanley, Saladine and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Khayats, Birut, 1964

- Langland,William. The Vision of William concerung Piers the Plowman, Early English Text Society, no. LIV. London, 1873.

- Leblich, D.B. The Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoil,Cyprus,Egypt , Arabia, Syria and Turkey between the year 1803 and 1807, London, 1816.

- Lee, Sophia. Almeyda, Queen of Granada; a Tragedy.London, 1796.

- Leech, Gilfard, Christopher Marlowe poet for stage, A.M.S. Poess, N.Y.1986

- Legouis, Emile, A Short History of English Literature The Clarendon Press,Oxford, 1976 .

- Lehman, Benjamin Harrison. Carlyle's Theory of the Hero. Durham, N.C., 1928.

- Lewis, Matthew Gregory. Timour the Tartar. London, 1811.

- Lillo, George, The Christian Hero. London, 1735.

- Lindsay, Sir David, The Poetical Works of Sir David Lindsay. ed. David Laing. 3 vols. Edinburg, 1879.

- Lindsay, Maurice, John Davidson: A Selection of his Poems, Hutchinson , London, 1961.

- Locock, C.D, The Poems Of Percy Bysshe Shelley, Methuen & co. ltd, London, 1911.

- Lockhart, John Gibson,The Spanish Ballads, translated by J.G. Lockhart, and The Chronicles of the Cid by Robert Southey, London, n.d.

- Lonsdale, R,Thomas Gray and William Collins Poetical Works, Oxford University, Press, London, 1977.

- Lydgate, John, Lydgate's Fall of Princes, ed. H. Bergen. 4 vols. Early English Text Society, Extra Series, nos. 121-124. London, n.d.

- Lyttelton, George, Letters from a Persian in England to his

Friend at Ispahan. London, 1735.

- Lytton, Edward Bulwer, Leila ; or, The Siege of Granada. Philadelphia, 1873.

- Macauly, G.C.(ed.) The complete Works of John Gower, Oxford, 1902.

- Mc Dam E.L. (ed.), Aamuel Johnson's Poems, New Heven & Co, London, 1964 .

- Madden, Richard R, The Mussulman, 3 vols. London, 1830.

---------, Travels in Turkey, Egypt, Ncbia, and Palastine, 2 vols. Philadelphia, 1830.

- Malcolm, Sir John, Sketches of Persia, London, 1827.

- Mallet, David, Mustapha : a Tragedy. London, 1739.

------------, the works of David Mallet, London , 1759 .

- Mandeville,Sir John, Mandeville'sTravels, Translated from the French of Jean d' Qutremeuse. ed. P.H. Hamelius, 2 vols.Early English Text Society, nos. 153-154. London, 1919-23.

- Manley, Mary Delariviere. Almyna; or, The Arabian Vow, London, 1707.

- Matthews, G.M, Shelley, London , 1970 .

- Maurice, Frederick, (ed), The Life of Frederick Denison Maurice, 2 vols. London, 1884.

- Mc Grie, George. The Religion of our Literature. London, 1875.

- Merchant, W.M. Wordsworth Poetry, Rupert Hart Davis, London 1970.

- Milford, H.S., The Poetical Works of Leigh Hunt, Oxford, 1923

- Miller , James , Mahomet The Imposter, London , 1764 .

- Mills, Charles , The History of Chivalry , London , 1826 .

---------, The History of the Crusades , for the Recovery and Possession of the Holy Land , London 1820 .

- Milner , Henry, Barmecide : or , The Fatal Offspring . London , 1818 .

- Modder , M.F, The Jew in the Literature of England to the end of the 19th century, The Jewish Publication Society of America , Philadelphia ,1939.

- Montague , Lady Mary Wortley,The Letters and Works of Lady Mary Worley Montague . (ed). Lord Wharncliffe . Rev . W. Moy Thomas . 2vols London , 1887 .

- Moore , Thomos , The Poetical Works of Thomas Moore. New York , 1854 .

---------, The Poetical Works of Thomas Moore, Glasgow, n.d.

- More, Sir Thomas, The Dialogue concerning Tyndale. ed. W.E. Campbell. London 1927 .

- Morgan , Joseph, (tr)., Mahometism Fully Explained. 2 vols. London, 1723.

---------, (tr), Voyage to Aligers and Tunis, for the Redemption of Captives. London, 1735 .

- Morier, James. The Adventures of Hajji Baba of Ispahan, London, 1914 .

---------, The Adventures of Hajji Baba of Ispahan in England, 1925.

---------, Ayesha, the Maid of Kars. London, 1846.

---------, A Journey through Persia, Armenia, and Asia Minor to Constantinople in the Years 1808 and 1809, London, 1812.

---------, A Second Journey through Persia, Armenia, and Asia Minor to Constantinople between the Years 1810 and 1806. London, 1818 .

---------, Zohrab, the Hostage. London, 1832 .

- Morris , William , The Collected Works of William Morris, Longman, London , 1911 .

- Morley, John ,Complete Works of William Wordsworth, Macmillan , London , 1891 .

- Muir , Sir William ,The Life of Mahomet ;from Original Sources, Edinburgh, 1912 .

- Nicholson, Reynold Alleyne, A Literary History of the Arabs, London, 1907 .

- Nicoll, Allardyce,A History of Early Eighteenth Century Drama,1700 - 1750 Cambridge, 1925 .

---------, British Drama , London , 1978 .

- A History of Early Ninteenth Century Drama, 1800 - ---------, 1850, Cambridge, 1930 .

---------, A History of Late Eighteenth Century Drama , 1750 - 1800, Cambridge , 1927 .

---------, A History of Restoration Drama . Cambridge , 1923 .

- Niebuhr , Carsten, Travels through Arabia and Other Countries in the East, tr. Robert Heron, 2 vols. Edinburgh, 1792 .

- Noble, Thomas, The Persian Hunters ; or, The Rose of Gurgistan, London, 1817 .

- Ockley, Simon, History of the Saracens, 3rd ed. 2vols. Cambridge, 1757 .

- Osborne, Thomas, A Collection of Voyages and Travels, 2vols. London, 1745 .

- Ouseley, Sir William, Travels in Parts of the East , more particularly Persia, 3 vols. London, 1819 - 1823 .

- Paley, William, Paley's View of the Evidences of Christianity, ed. George Fisk. Cambridge, 1890 .

- Palmer, E.H., The Koran. 2 vols. (Sacred Books of the East, VI and IX) Oxford, 1880 .

- Panati, Filippo, Narrative of a Residence in Algiers, tr. Edward Blaquiere, London, 1818 .

- Parde, Gulia, The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks, 4th ed. London, 1854 .

---------, The Romance of the Harem. Philadelphia , 1839 .

- Paris, Matthew. Matthaei Parisiensis . . Chronica , ed. H.R. Luard. 7 vols. London, 1872 - 1883 .

- Park, Mungo, Travels into the Interior Districts of Africa,2 vols. London, 1817.

- Payne, John Howard, Ali Pacha; or, The Signet - Ring, New York, 1823 .

- Payne, Henry Neville, The Siege of Constantinople. London, 1675 .

- Pepys, Samuel. The Diary of Samuel Pepys, ed. H .B . Wheatley. 9 vols. New York , 1900 .

- Perez de Hita, Ginez,The Civil Wars of Granada. tr. Thomas Rodd, London, 1803 .

- Pettigrew, John, Robert Browning : The Poems, Penguin, London, 1981 .

- Pitts, Joesph, A Faithful Account of the Religion and Manners of the Mohammetans , London, 1731 .

- Pix, Mary, Ibrahim the Thirteenth Emperor of the Turks : a Tragedy, London, 1696 .

- Pocock, Isaac, Zembuca; or The Net - Maker and his Wife, London, 1815.

- Pococke, Edward, Specimen Historiae Arabum, Oxford, 1806.

- Pococke, Richard, A Description of the East, 2 vols London, 1743 - 45 .

- Pope, Alexander, The Poetical Works of Alexander Pope, London, 1879 .

- Porter, James, Observations on the Religion, Law, Goverment, and Manners of the Turks. 2 vols. in 1. London, 1768.

- Porter, Robert Ker, Travels in Georgia, Persia, Armenia, Ancient Babylonia. 2 vols. London, 1821 - 22 .

- Price, David. Chronological Retrospect . . of Mahommedan History. 3vols. London, 1811 - 12 .

- Prideaux, Humphrey, The True Nature of Imposture Fully Display'd in the Life of Mahomet. Tr. Daniel de Larroque. 8th ed . London 1723 .

- Prior, Matthew, Poems on Several Occasions. Cambridge, 1905 .

- Pratt, Samuel, The Fair Circassian. London, 1781 .

- Procter, Bryan, See Cornwall, Barry .

- Raleigh, Sir Walter, The Life and Death of Mahomet; The Conquest of Spaine . London , 1637 .

- Reland, Adrian. Four Treatises concerning the Doctrine, Discipline, and Worship of the Mahometans. London, 1712 .

- Ricks, Christopher, The Poems of Tennyson, Longmans, London, 1969.

- Roberts, Emma. Oriental Scenes, Sketches, and Tales. London, 1832.

---------, Scenes and Characteristics of Hindostan and Sketches of Anglo - Indian Society, 2nd ed. 2 vols. London , 1837 .

- Robinson, F. N. The Poetical Works of Chaucer, Oxford University Press, London 1957 .

- Rodwell, J. M. The Koran ; translated from the Arabic. London, 1909 .

- Ross, Alexander. Pansevela ; or, A View of all the Religions in the World, 6th ed. London , 1969 .

- Rossetti, W.M. The Poetical Works of Christina Rossetti, Macmillan, London 1904 .

- Rowe, Nicholas, Three Plays by Nicholas Rowe. ed. J. R. Sutherland. London , 1929 .

- Russell, Alexander. The Natural History of Aleppo, 2nd ed. ed. Patrick Russell. 2 vols. London, 1792.

- Rycaut, Sir Paul. The, Turkish History, whereunto is added The Present State of Ottoman Empire, 6th ed. 3 vols.

London, 1687.

- Salame, Abraham. A Narrative of the Expedition to Algiers in the Year 1816, under the Command of ... Lord Viscount Exmouth. London, 1819.

- Sale, George. The Koran of Alcoran of Mohammed. London, n.d.

---------, The Lives and Memorable Actionns of Mary Illustrious Persons of the Eastern Nations. London, 1739 .

- Sandays, George. A Relation of a Lourney Begun An. Dom . 1610, 6th ed. London, 1670.

- Scott, Sir Walter. The Poetical Works of Sir Walter Scott. Londo, 1984.

---------, The Waverley Novels. 12 vols. Boston, n.d.

--------, The Talisman, T. Nelson & Sons Ltd , London , n.d.

- Settle, Elkanah. The Empress of Morocco; a Tragedy, with Sculptures. London, 1673.

---------, The Heir of Morocco, with The Death of Gayland. London, 1694.

---------, Ibrahim, the Illustrious Bassa; a Tragedy. London, 1677 .

- Shaftesbury, Anthony Ashley Cooper, third earl of. Characteristics of Men, Maners, Opinions, Times, 5th ed. 3 vols. London, 1732.

- Shaw, G.B, St Joan, Logman Green & co, London, 1966 .
- Shaw, Tomas. Travels, or Observations relating to Several Parts of Barbary and the Levant, 2nd ed. London, 1757 .
- Sheffield, John. The Works of John Sheffield, Earl of Mulgrave, Marquis of Normanby, ad Duke of Buckigham. 2d ed. 2 vols. London, 1729 .
- Shelley, Percy Bysshe. The Poetical Works of Percy Bysshe Shelley. 2 vols. London, 1907.
- Sime, William. History of Mohammed and his Successors. Edinburgh, 1837.
- Simpso, Elizabeth, (ed). The British Theatre. 25 vols. London, 1808 .
- Sission , C. H ., The Divine Comedy, Oarcnet New Press ltd, Guilford, 1980.
- Sisson, C, J., Shakespeare, British Council - Longman, London, 1971.
- Skeat, Walter W., The vision of William Piers the Plowman The Clarendon press, Oxford, 1886 .
- Smith, Byron Porter, Islam in Eglish Literature, Caravan Books, New York, 1977 .
- Smith, William Gerge (ed.), The Oxford Dictionary of English Proverbs, The Clarendon Press, London , 1966.
- Southey, Robert. The Spanish Ballads Translated by T. G.

Lockhart, and The Chronicle of Cid by Robert Southey. Lodon, n.d.

---------, The Complete Poetical Works of Robert Southey. new York, 1851 .

---------, The Life and Correspondence of Robert Southey. ed. C. C. Southey, New York, 1855.

- Speed, John., A Prospect of the Most Famous Parts of the World. London, 1646 .
- Squire, J. C, The Collected Poems of James Elory Flecker, London, 1916.
- Steeves, Harrison R (ed.), The Eighteenth Century Romances : The Nathek ete.. Ny.1971
- Stevenson, R.L. Essays Literary & Critical, Heinemann, London, n.d.

---------, Poems, Chatto & Windus, London, 1917 .

- Stubbe, Hennry. An Account of the Rise and Progress of Mahometaism. ed. Hafiz Mahmud Khan Shairanni, London, 1911 .
- Summer, Motague. The works of Aphra Behn, Lonndon, 1957.
- Tavernier, Jean Baptiste. The Six Voyages of Jean Baptiste Tavernier ... though Turkey into Persia and the East Indies, made English by T. Phillips. 2 parts in 1 vol., London, 1678 .
- Taylor, William Cooke. The History of Mohmmedanism, and

its Sects. London, 1834 .

- Tenyson, Alfred. The Works of Alfred Lord Tennyson. London 1907 .

---------, A Memoir, Macmillan & Co. Ltd. , London 1897 .

- Thackeray, William Makepeace. Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo. Lonndon, 1846 .

- Thevenot, Jean de. The Travels of Monsieur Thevenot into the Levant. Tr. A. Lovell. London, 1687 .

- Thomsonn, James, Edward and Eleanora. London, 1758 .

---------, The Poetical Works of James Thomson, 2nd, ed. ed. Patrick Murdoch. London, 1850 .

- Trapp, J.B. et. al. The Oxford Anthology of English Literature, Oxford Uiversity Press, London, 1973 .

- Trapp, Joseph. Abra-Mule; a Tragedy . Lonon, 1704 .

- Upham, Edward. History of the Ottomann Empire. 2 vols. London, 1829.

---------, Karmath, an Arabian Tale. London, 1827 .

- Van Roosbroeck, Gustave Leopold. Persian Letters before Montesquie, New York , 1932 .

-Volney, Constantin Francois Chasseboeuf, Comte de, Volney's Ruins; or, Meditations on the Revolutions of Empires. Boston, 1872.

---------, Travels in Syria and Egypt during the Years 1783, 1784 and 1785. 2 vols. Perth, 1801.

- Voltaire, Francois Marie Arouet . An Essay on Universal History. tr."Mr. Nugent." 4 vols. Dublin, 1759 .

- Walker, C.E. The Fall of Algiers. London, 1824.

- Waller, Edmund. The Poems of Edmund Waller. Ed. G. Thorn Druy. London, 1893 .

- Walter, F. Schirmer , John Lydgate: A Study in the Culture of the XVth Century, Methuen & 889o. London , 1961.

-Warton, Thomas (the younger). The Poetical Works of Thomas Warton. Lonndon, n.d.

-Wazzan, Adnan M. The study of Fiction, Umm Al-Qura University, Makkah 1984.

------ Essays in Comparative Literature, Ithaca Press, London, 1985.

------ Oedipus Rex In Arabic and Greek Legacy: A Critique, University & Akademia Publications, London, 1987 .

------ Translating Shakespeare in Arabic Literature : An Historical Outlook. University of Warwick, England, U.K, 1987 .

----- James Elory Flecker Orientalist Man of Letters, University & Akademia Publicaios, London. 1990 .

----- Notes and Comments : Arabia in yeats Poetry, Islamic

studies, Islambad, Vol 29,No.1,1990.

- Welby, T. Earle (ed.), The Complete Works of Walter Savage London, Barres and Noble , N.Y. 1969.

- Whincop, Thomas. Scanderberg. London, 1745.

- White, Joseph. Sermons Preached before the University of Oxford in the Year 1784, 2d. ed. Bampton Lectures. London, 1758.

- Wilson, David Alec. Carlyle on Crownwell and Others, 1837 - 1848. Vol. 3 of The Life of Carlyle. London, 1925.

- Wilson, Mona (ed.), Johnson Prose and Poetry, Rupert Hurt Davis, London, 1970 .

- Wilson, William Rae. Travels in the Holy Land Egypt ... 3rd ed. 2 vols. London, 1831 .

- Wordsworth, William. The Complete Poetical Works of William Wordsworth. London, 1903 .

- Wright , H.Bunker (ed.) The Literry Works of Matthew Prior, the Clarendon press, Oxford, 1959 .

- Wright, Thomas, ed. Early Travels in Palestine. London, 1848.

- Yeats, W.B, Yeats Collected Poems, Macmillan, London, 1967 .

- Young, Aethur C(ed.) the letters of Gearge Gissing to Edward Berty 1880-1903, Constable, London , 1961 .

- Young, Edward. The Works of Edward Young. 3 vols. London, 1813.

---------- , The Revenge :A Trahedy , Oliver Boyd, Edinburgh, n.d.

فهرس الموضوعات

المقدمـــة ٥

الباب الأول

مصادر الأدب الإنجليزي في الكتابة عن الإسلام ٢١

تمهيـد ٢٣

أولاً : اليهود والفكر اليهود ي ٢٥

١ ـ اليهود ـ بنو إسرائيل ـ الصهيونية ٣٢

٢ ـ التوراة ٤٠

٣ ـ التلمود ٤١

٤ ـ شعب الله المختار : أسطورة وخيال ٥٦

٥ ـ إله اليهود : الذهب والمال ٦٢

٦ ـ كيد اليهود : غدر وجبن ٧٧

٧ ـ اليهود والجريمة ٨٢

٨ ـ المسلمون واليهود ٩٦

٩ ـ اليهود مصدر من مصادر الأدب الإنجليزي للكتابة عن الإسلام ١١٣

ثانياً : الحروب الصليبية ١٣١

١ ـ مفهوم الحروب الصليبية ١٣٦

أ ـ الأسباب الدينية ١٤٠

ب ـ الأسباب الاقتصادية ١٤٢
٢ ـ تأثير الحروب الصليبية ١٤٤
أ ـ تأثير الحروب الصليبية على المسيحيين ١٤٤
ب ـ تأثير الحروب الصليبية على المسلمين ١٤٩
٣ ـ الحروب الصليبية مصدر من مصادر الأدب
الإنجليزي للكتابة عن الإسلام ١٥٤
ثالثاً : الفكر الاستشراقي ١٦٥
١ ـ مفهوم الاستشراق ١٦٦
٢ ـ تاريخ الاستشراق ١٧١
٣ ـ غايات الاستشراق وأهدافه ١٧٦
٤ ـ الاستشراق مصدر من مصادر الأدب الإنجليزي
للكتابة عن الإسلام ٢٠٧
الباب الثاني
الأدب الإنجليزي القديم ٢١١
الشعر ٢٢٢
النثر ٢٢٤
الباب الثالث
العصر النورماندي ٢٣١
الباب الرابع
أدب العصر الوسيط ٢٧٧

الباب الخامس

عصر النهضة ٣٠٧

الباب السادس

القرن السابع عشر ٣٤٩

الباب السابع

عصر التجديد ٣٦٣

النثر والأدب القصصي ٣٧٠

الشـعـر ٣٨٥

الأدب المسرحي ٤٠٣

البـاب الثامـن

القرن الثامن عشر ٤٣٩

النثر والأدب القصصي ٤٤١

الشـعـر ٤٥٤

الأدب المسرحي ٤٦٥

الباب التاسع

العصر الرومانسي ٤٨١

الشـعـر ٤٩٦

النثـــر ٥٤٧

الروايـة ٥٥٢

الأدب المسرحي ٥٦٣

الباب العاشر

العصر الفكتوري ٥٨٧

الباب الحادي عشر

العصر الحديث ٦٥٥

الباب الثاني عشر

الإسلام في الأدب الإنجليزي : شبهات ومفتريات ٧٢٧

أولاً : كلمة التوحيد في الأدب الإنجليزي ٧٣١

ثانياً : محمد رسول الله نبي الإسلام حياته ونبوته ودعوته في الأدب الإنجليزي ٧٣٧

ثالثاً : القرآن الكريم والحديث الشريف في الأدب الإنجليزي ٧٦١

رابعاً : الشريعة الإسلامية في الأدب الإنجليزي ٧٨٠

١ ـ أركان الإسلام ٧٨٠

٢ ـ المرأة في الإسلام وتعدد الزوجات ٧٩٣

٣ ـ الخمور والخنزير في الدنيا والآخرة ٨١٢

٤ ـ الجهـــاد ٨١٥

خامساً : الشخصية المسلمة في الأدب الإنجليزي ٨٣١

١ ـ زوجات الرسول ﷺ ٨٣١

٢ ـ صحابة الرسول ﷺ ٨٣٤

٣ ـ الوصف العام للمسلمين ٨٣٥

سادسا : الحروب الصليبية والتبشير ٨٤٠

الخـــاتـــمة ٨٤٥

أهم المصادر والمراجع ٨٥١
أولاً : باللغة العربية ٨٥٣
ثانياً : باللغات الأجنبية ٨٦٠
فهرس محتويات الكتاب ٨٩٣